

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

212 85

كلية أصول الدين والشريعة

والحضارة الإسلامية

قسم الكتاب والسنة

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الرقم الترتيبي: ...../2001

رقم التسجيل للطالب: .....

مؤازرة بين الكشاف للزمخشري

والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه الدولة في التفسير وعلوم القرآن

شعبة التفسير وعلوم القرآن

إعداد الباحث: رمضان يخلف

أمام اللجنة:

- |                         |                      |                                   |
|-------------------------|----------------------|-----------------------------------|
| جامعة متوري قسنطينة     | أستاذ التعليم العالي | 1 - د/ربيعي بن سلامة..... رئيسا   |
| جامعة الأمير عبد القادر | أستاذ محاضر          | 2 - د/رابح دوب..... مقرر          |
| جامعة الأمير عبد القادر | أستاذ التعليم العالي | 3 - د/سامي عبد الله الكناني..عضوا |
| جامعة الأمير عبد القادر | أستاذ محاضر          | 4 - د/سلمان نصر...عضوا            |
| جامعة الأمير عبد القادر | أستاذ محاضر          | 5 - د/إبراهيم التهامي...عضوا      |
| كلية الشريعة. باتنة     | أستاذ محاضر          | 6 - د/منصور كافي...عضوا           |

نوقش يوم: 27 / صفر / 1422هـ الموافق: 21 / ماي / 2001م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

جامعة الأميرة  
عبد القادر للعطوم الإسلامية

## خلاصة البحث

يتلخص موضوع هذا البحث في إجراء موازنة بين كتابين شهيرين في التفسير ، وهما "الكشاف" لمحمود بن عمر الزمخشري و"البحر المحيظ" لأبي حيان الأندلسي ، كما تتمثل إشكالية الموضوع في البحث عن سر شهرة تفسير الزمخشري وتفوقه عن كثير من كتب التفسير الأخرى، وفي مقدمتها تفسير البحر المحيظ، وهل هذا التفوق راجع للقيمة العلمية لمضمون هذا الكتاب ، أم هو راجع لأسباب أخرى وعوامل فكرية وتاريخية خارجة عن مضمون الكتاب ؟

## Summary of the thesis

The subject of the thesis is concerned with making a kind of a balance between two known islamic books of coranic interpretations which are EL KASHAF , written by mahmud ibn omar ezamakhchari and EL BAHR ELMOUHIT Written by Abu Hayan el Andalusi.

The research problematic of the thesis focus on the secret behind the spread of fame concerning the book of ezamakhchari compared with other books like El bahr elmouhit . is the fame of this book was related to the scientific value of its content or is it related to the other factors like the factors of ideas and historic evenments which are stranger to its content .

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . ملك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين .  
ونصلي ونسلم على من أرسله ربه شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا  
منيرا ، وقال له : " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " سورة  
النحل: 44

فقام ببيان ما أنزل إليه خير بيان ، تارة بالقول وتارة أخرى بالعمل ، وفسر منه بالقدر  
الذي خفي على الناس في عصرهم ، ووسعهم في حياتهم ، وما أن انقضى ذلك العصر ،  
وانتقل الناس من حال إلى حال ، حتى جدت أحداث ، كما خفي على الناس ملابسات  
التزليل ودواعيه ، مما جعل الأمة في حاجة متجددة ومتزايدة لتفسير القرآن الكريم بما  
يوضح تلك الملابسات ، ويزيل ذلك الخفاء عن بعض آي القرآن الكريم ، فنهض بهذا  
العبد علماء في مختلف الأمصار والأعصار ، عملا بقوله تعالى : " وَلَوْ رُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ  
وَأَلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. " النساء : 82

وإذا كان المرء ابن بيته ، فإن هؤلاء المفسرين لما اختلفت بيئاتهم وأعصارهم ،  
اختلفت تبعاً لذلك مشارهم ، واصطبغت بتلك الميول مصنفاتهم ، وأصبحت كتب  
التفسير تعكس ثقافة المفسر وتوجهه إلى جانب ثقافة عصره والتيارات السائدة فيه ، بسبب  
أصبحت بعض كتب التفسير تحتل مكانة متقدمة بين كتب التفسير الأخرى لما امتزجت به  
من العلوم العقلية ، ولما فيها من الرأي والاجتهاد ، وليس فقط لما فيها من تفسير وبيان  
للقرآن الكريم .

ونظراً لامتزاج التفسير هذه العلوم العقلية من جهة ، وتأثره بالتيارات الفكرية والعقدية  
من جهة أخرى ، فإن ذلك قد أدى إلى الاختلاف الواضح والصارخ أحياناً في الحكم  
على هذه المصنفات من التفسير تبعاً لاختلاف الموازين والمقاييس التي حكموها في تقويمها

، وبذلك نرى كتباً قد تقدمت ربما كان حقها التأخير ، وكتباً أخرى قد تأخرت وربما كان حقها التقدم .

وآخر مثال على ما نقول تفسير الكشاف لمحمود بن عمر الزمخشري الذي تضاربت فيه أقوال أهل العلم قديماً وحديثاً ، فمنهم من رفعة وجعله على قمة هرم كتب التفسير ، ومنهم من تحامل عليه ونزل به إلى قاعدة الهرم ، بل ومنهم من هوى عنه ، وحرّم النظر فيه كما صرح بذلك تاج الدين السبكي وغيره .

فمنذ أن ظهر تفسير الكشاف في القرن السادس الهجري بما يجعله من آراء واجتهادات شخصية للزمخشري ، تناولته أقلام الدارسين والباحثين مدحاً وذمّاً ، وقد تمسّرت هذه الدراسات بميزتين اثنتين :

1- أن هذه الدراسات كانت في أغلبها تركز على جانب واحد من جوانب تفسير الكشاف ، كالجانب العقدي مثلاً من حيث تتبع اعتزالاته ومسلكه في تأويل الآيات القرآنية بما يخدم مذهبه وميوله ، أو الجانب البلاغي وذلك ببيان مسلك الزمخشري في تطبيق نظرية النظم البلاغي التي لها علل سر الإعجاز في القرآن الكريم .

2- أن هذه الدراسات لم تغل في أغلبها من التعصب والغلو للزمخشري أو ضده ، وقد امتد أثر هذا التعصب والغلو في الحكم على كشاف الزمخشري إلى عصرنا الحاضر .

إلا أننا إذا رجعنا إلى تفسير البحر المحيط فإننا نجد أنه قد حاول أن يتخطى هذا وذاك ، حيث تناول تفسير الكشاف بالدراسة من مختلف جوانبه ، كما أن دراسته النقدية لهذا التفسير ، وما وقف عليه من نقائص لم تمنعه من الإشادة بحجاسنه ، وإظهار إعجابه بالجوانب التي وفق فيها ، وإبراز القيمة العلمية للجديد فيه .

وهكذا فإن تفسير البحر المحيط بما يجعله من خصائص ، وبما تضمنه من نقد موضوعي لتفسير الكشاف في مختلف جوانبه قد أحدث نظرة جديدة لهذا التفسير ، وقد تجلت هذه النظرة في أعمال المفسرين اللاحقين وغيرها من الدراسات ، كالدر اللقيط من البحر المحيط لابن مكتوم القيسي ، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسلمين الحلبي ، ومعنى اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام الأنصاري ، والمحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري ليحيى الشاوي ، وغيرها .

ومن هذا كله بدا لي أن رأي أبي حيان في تفسير الكشاف من خلال تفسيره البحر المحيط كان أقرب تلك الآراء إلى القصد والاعتدال ، مما ولد عندي هذه الفكرة ، ودعاني إلى اختيار هذه الموازنة بين هذين الكتابين في التفسير لتكون موضوع بحثي في هذه المرحلة ، وذلك تحت عنوان :

### موازنة بين تفسير الكشاف للزمخشري والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي

كما أن فكرة الموازنة بين هذين المفسرين كانت تزداد وضوحاً في ذهني يوماً بعد يوم وأنا أدرس مادة مناهج المفسرين ، فكنت كلما رجعت إلى تفسير البحر المحيط وقرأت منه شيئاً تبين لي عظمة هذا التفسير وعظمة مولفه ، وأعجب كيف لم يبلغ هذا الكتاب من الشهرة والانتشار ما بلغه كشاف الزمخشري ، وأسأله قائلاً : لماذا لم يلق مسن العنابسة والخدمة مثل الذي لقيه تفسير الكشاف ؟

علما بأن فكرة الموازنة بين خصائص الحركة العلمية وأعلامها في المشرق والمغرب ليست جديدة ، بل نجد لها أثراً واضحاً في كتابات المتقدمين ، واستمرت عند المتأخرين ، من ذلك مثلاً ما نجد عند الفاضل بن عاشور في كتابه " التفسير ورجاله " حيث أجرى موازنة دقيقة ومركزة بين تفسير الزمخشري وهو من المشرق ، وتفسير المحرر الوجيز لابن عطية وهو من المغرب<sup>1</sup> . وعند عبد الوهاب فايد في كتابه منهج ابن عطية المفسر ، حيث عقد باباً هاماً في بحثه للموازنة بين ابن عطية كمفسر مغربي وبين مجموعة من المفسرين من المشرق .

### سبب اختيار الموضوع :

ولذا اخترت أن تكون هذه الموازنة بين تفسير الكشاف للزمخشري وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي لأسباب كثيرة منها :

أولاً - ما كان لهما من مكانة مميزة بين كتب التفسير ، فكان كل واحد منهما يستقطب مرحلة تاريخية مستقلة من مراحل التفسير .

فأما الكشاف فقد كان خاتمة المرحلة الثانية في تاريخ التفسير وهي مرحلة موصوفة بأصالة التفكير النحوي ، وتنمية المرحلة الأولى والبناء عليها ، كما يمتاز في مجموع رجاله

بأصالة المنهج اللغوي في التفسير والتطور به إلى مداه على يد خاتمها الإمام الزمخشري ،  
وقد امتازت بكون أغلب رجالها هم أئمة النحو الذين كانت أقوالهم واجتهادهم في  
الدراسات النحوية هي معين رجال التفسير في المراحل اللاحقة ، وفي ذلك يقول الفاضل  
بن عاشور : ( وقد أتى في تفسيره — حقا — من مظاهر البراعة ، وآيات العلم الواسع ،  
والذوق الراسخ ، والقلم المتمرس ما زاده إعجابا به ، بعد انتهاله منه ، إذ قال في وصفه  
بيتين بديعين :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد      وليس فيها لعمرى مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته      فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

فأصبح كتابه عمدة الناس على اختلافهم ، بين مشايخ له ومخالف ، وعلى وفرة مخالفيه  
، وانقطاع مشايخه يرجعون إليه على أنه نسيج وحده في طريقته البلاغية الإعجازية ، وفي  
غوصه على دقائق المعاني وحسن إبرازها على طريقة علمية سائغة ، بتحليل تراكيبه  
وعباراته وإبراز خصائصه ، وعلى ما يكثر صاحب الكشاف من عنف على مخالفيه ، وما  
يتناوله به خصوصا أهل السنة والجماعة من قدح وشمس وسب وتجهيل ، فإن ما جبل عليه  
أهل السنة وقامت عليه طريقته العلمية من الإنصاف ، قد حملهم على الإغضاء على تلك  
الهفوات المخجلة والعورات الفاضحة ، فأقبلوا على دراسته وشرحه ، وبنوا عليه عامة  
بحوثهم في القرآن ، لا يخلو تفسير أو تأليف في موضوع قرآني من رجوع إليه ، واعتمدا  
عليه .<sup>1</sup>

أما تفسير البحر المحيط هو الآخر فلم يكن مجرد تفسير بارز في مرحلة من مراحل  
التفسير ، بل كان يمثل مرحلة مستقلة بنفسه لما أحدثه من مراجعات هامة في كتب  
التفسير بصفة عامة ، ولمواقفه النقدية من كشاف الزمخشري ، وما تبعها من نشاط علمي  
جديد كامتداد لرؤيته للمستقلة تجاه كثير من كتب التفسير .

ثانيا : أن كل من كتب عن الكشاف ممن سبق أبا حيان ، إنما كان يتناوله من جانب  
واحد ، وأغلب ما كتب في ذلك هو ما تعلق بالتنبيه على اعتراضاته ، حتى جاء أبو حيان  
الأندلسي فتناول هذا الكتاب من مختلف جوانبه ، وعصمه ممحيصا يميز بكثير من الموضوعية

<sup>1</sup> . الفاضل بن عاشور ، التفسير ورجاله : 85

، لأن أبا حيان قد جمع بين الإعجاب به في جوانب ، والاختلاف معه في جوانب أخرى ، فكان يبنه على جوانب الحسن والتوفيق ويدافع عنها ، مثلما يبنه على مكامن الضعف والإخفاق فيردهما في أغلب الأحيان بأسلوب علمي رصين .

ثالثا : محاولة البحث في سر اشتهار تفسير الكشاف هذه الدرجة المعروفة ، ولقد بلغت درجة شهرته في حقبة معينة من تاريخ التفسير أن شغل الناس عن تفاسير المتقدمين ، وكاد يصدق فيه قول الشاعر :

لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطمى القنديلا

فأردت من خلال هذا البحث تسليط الضوء على أسباب ذبوعه ، سواء كانت هذه الأسباب راجعة إلى هذا المصنف ذاته ، وما كان يحمله في طياته من عوامل القبول والتميز بين كتب التفسير الأخرى . أم هي راجعة إلى أسباب خارجية عنه من عوامل تاريخية وفكرية وغيرها .

وفي رأيي أنه ما من باحث يطلع على تفسير الكشاف للزمخشري ، ثم يعرج على تفسير أبي حيان الأندلسي إلا ويغلب عليه الظن بتفوق أبي حيان على الزمخشري في أكثر الجوانب — وهي الفرضية التي انطلقنا منها في هذا البحث — ومع هذا فإن شهرة الكشاف ظلت تحجب شهرة البحر المحيط لفترة طويلة .

### الإشكالية والأهداف المرجوة من هذا البحث :

وتتضح إشكالية هذا البحث من خلال الأسباب التي قدمناها في اختياره ، وهي محاولة إجراء موازنة بين كتابين في التفسير مشهورين يجمعهما اتجاه عام هو اتجاه التفسير بالرأي والاجتهاد ، كما غلب على تفسيريهما الاهتمام بالجانب اللفوي والنحوي والبلاغي ، وهما يصدران في ذلك عن مدرسة واحدة في النحو هي مدرسة البصرة ، ويفترقان فيما وراء ذلك مما سنفصله في ثنايا هذا البحث إن شاء الله تعالى .

ونشدد من وراء هذه للموازنة الوصول إلى سر تقدم تفسير الكشاف عن تفسير البحر المحيط ، وهل هذا التقدم راجع إلى مجرد سبق من الناحية الزمنية وما تميزت به كل مرحلة من عطاء علمي ، أم هو راجع لعوامل أخرى قد تكون علمية وموضوعية ، وقد تكون غير ذلك ؟



وقد فطر الناس على حب المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد ، والموازنة بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد .

وليست الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد يتميز بها الرديء من الجيد ، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في الأعمال الأدبية والعلمية ، وهي بذلك تتطلب قوة علمية وحاسة نقدية تمكن الباحث من القدرة على الملاحظة ، وإدراك وجوه الاتفاق والافتراق بين الأشياء والمتقاربة والمتماثلة .

قال الجرجاني : ( والتفاضل داعية التنافس ، والتنافس سبب التحاسد ، وكم من فضيلة لو لم تسترّها المحاسد لم تبرح في الصدور كمانة ، ومنقبة لو لم تزعجها المنافسة ل بقيت على حالها ساكنة ، لكنها برزت فتناولتها السنة الحساد تجلوها ، وهي تظن أنّها محمودة ، وتشهرها وهي تحاول أن تسترّها ، حتى عشرها من يعرف حقها ، واهتدى بها من هـرأولى بها ، فظهرت على لسانه في معرض ، واكتست من فضله أزين ملبس . )<sup>1</sup>

وهكذا فإن الموازنة بين الأعمال العلمية والأدبية ما هي في الحقيقة إلا انعكاس لذلك الجو من التنافس ، ومحاولة لتقوم تلك الجهود المتضاربة وبيان موقعها من بعضها بعضاً ، فنجد فن الموازنة بين أعمال الشعراء مثلاً قد ظهر وعرف بعد ما انتشر فن المعارضة بينهم ، ومحاولة المتأخر أن يأتي بأحسن — أو مثل — ما أتى به المتقدم ، ومن ثمّ نهض الأئمة النقاد ، وجرّدوا أنفسهم لفحص تلك الجهود وتقويمها والمفاضلة بينها .

ولما كان جو التنافس غير مقصور على ميدان الأدب وحده ، فإن حركة التفسير للقرآن الكريم هي الأخرى قد اصطفت هذه الصيغة عبر العصور ، ولا يزال أغلب المفسرين يذكرون في مطالع تفاسيرهم الأسباب التي حملتهم على وضع تلك المصنفات ، ويأتي في مقدمة تلك الأسباب ما رأوه من نقائص في التفاسير السابقة ، فأرادوا أن يجردوا التفسير منها ، أو ما وقفوا عليه من جوانب الحسن فأرادوا أن يأتوا بمثلها ويزيدوا عليها .

وأحسب أن المفسر أبا حيان الأندلسي لم يشذ عن هذه القاعدة ، بل كان دافع التنافس والمحاكاة أحد العوامل الأساسية التي صرح بها في مقدمة تفسيره ، وذلك عندما أبدى إعجاباً فائقاً بتفسير الكشاف للزمخشري والمحرر الوجيز لابن عطية ، ولكنه أبدى

<sup>1</sup> . علي بن عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتني وحصره ، منشورات المكتبة المصرية ، بيروت : 1

تبرمه من جوانب النقص الموجود فيهما من جهة أخرى ، فعزم على وضع تفسير سماه " البحر المحيط " يجمع فيه تلك المحاسن ، ويتجنب ما وقع فيه من مساوئ .

ولقد كانت روح التنافس صفة محبذة عند أبي حيان ، وهو يرى أن ما يشيع بين أهل العلم من تحاسد وتنافس هو الذي زادهم رسوخا في العلوم وطموحا إلى المعالي ، ومكنهم من بلوغ المقاصد ، ولقد مثل لهذا المعنى بيتين جميلين من الشعر فقال :

عدائي لهم فضل علي ومنّة فلا أذهب الرحمن عني الأعدايا

هو بجحوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاجتنتيت المعالي<sup>1</sup>

والجدير بالذكر أن للموازنة بهذا المفهوم غير سهلة ، وخاصة في مثل هذا الموضوع ،

وهو المفاضلة بين مفسرين مثل الزمخشري وأبي حيان الأندلسي ، وذلك لأسباب :

أحدها : أن أبا حيان سني والزمخشري معتزلي ، والباحث هنا لا يأمن على نفسه في كسل

لحظة أن يجالي الحق وتغونه الموضوعية ، فيسارع إلى استحسان رأي لا لشيء إلا لأنسه

كشف عن معنى عميل إليه النفس أو يسكن إليه الفؤاد ، وقدما قال الشاعر :

عين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدي المساويا

وثالثها : أن الموازنة بين مفسرين أحدهما مغربي وآخر مشرقي هو تقسيم درج عليه

الباحثون في تاريخ الحركة العلمية منذ القلم ، حيث كانوا يفضلون في الغالب ما هو

مشرقي على ما هو مغربي ، مما جعل أهل المغرب ينازعون أهل المشرق في هذا الحكم

ويشاحونهم فيه في كل مرة ، وهو ما حمل ابن حزم على القول ذات يوم :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن ذنبي أن مطلعني الغرب

ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكرني النهب<sup>2</sup>

وثالثها : طبيعة هذين المفسرين التي تجلت في كتابيهما الكشاف والبحر المحيط ، حيث

يُجدهما يجنحان في كثير من مواطن الجدال والنقد إلى الألفاظ والعبارات المشحونة بالعنف

والقسوة ، وبخاصة عند الزمخشري الذي كان كثيرا ما يميل إلى نيز خصومه بالألقاب

الجارحة ، وأحيانا أخرى بالسخرية اللاذعة .

<sup>1</sup> . الأسوي ، طبقات الشافعية : 219/1

<sup>2</sup> . المقرئ ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب : 286/2

وأمام هذه العوامل مجتمعة أو متفرقة نجد الباحث نفسه من حين لآخر واقعا تحت  
جاذبية قاهرة تصرفه عن القصد والاعتدال في الحكم ، وتدفعه إلى طسري الإفراط أو  
التفريط ، وحسبنا في مثل هذا المقام أن نزل عند حكم الله تعالى وهو القائل في كتابه "  
فلا تميلوا كل الميل .."<sup>1</sup> وقد خلق الإنسان ضعيفا .

وما اختلاف الناس تجاه الزمخشري نفسه بين مشايخ له ومخالف ، إلا أحد الأسباب  
البارزة في اختلافهم في الحكم على تفسيره اختلافا بينا .

ففي الوقت الذي نجد باحثا يقرر بأن لغة الزمخشري التي كتبها كشافه هي لغة رقيقة  
سامية بليغة وواضحة ، وقد خلا هذا التفسير من الحشو والتطويل ، على أن هذا الإنجاز  
والتركم لم يورث الكلام غموضا ولا تعقيدا .<sup>2</sup> نجد باحثا آخر يقرر بـ ( أن لغة  
الزمخشري في تفسيره هي غاية في التعقيد ، وكثيرا ما كان الزمخشري يتوخى هذا  
التعقيد).<sup>3</sup>

وفي الوقت الذي نجد بعضا من الباحثين يحكم بأن الزمخشري أفاض في ذكر  
الإسرائيليات ، وأورد كثيرا منها في الكشاف دون نقد أو تعقيب .<sup>4</sup> نجد باحثين آخرين  
يقفون على النقيض من ذلك ، ويقررون بأن الزمخشري يقلل من ذكر الإسرائيليات ،  
ويناقش ما يورد منها ، وغالبا ما يرددها ، ونستطيع القول بأن تفسيره الكشاف خاليا  
من الإسرائيليات نسبيا).<sup>5</sup> ومثل ذلك في مباحث علم القراءات ، حيث نجد بعضهم  
يحكم بأن ( ما ذكره الزمخشري في الكشاف يدل على تبحره في علم القراءات وتفوقه فيه  
(<sup>6</sup> علما بأن هذا الكلام فيه من المبالغة الواضحة ما لا يخفى على أي باحث منصف ، بل  
إن علم القراءات هو أحد الجوانب التي تضعف من القيمة العلمية لكشاف الزمخشري  
وتغدشه .

<sup>1</sup> . من قوله تعالى في سورة النساء : " ولن نستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالملقنة " الآية :

<sup>2</sup> . د. محمد بن لطفى الصباغ ، لهات في علوم القران واتجاهات التفسير ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط 3 ، 1990 م ، ص : 245 .

<sup>3</sup> . د. عدنان زرزور ، الحاكم الحضري ومنهجه في تفسير القران ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، ط 1 ، ص : 478 .

<sup>4</sup> . الشحات السيد زغلول ، من مناهج التفسير : 234

<sup>5</sup> . لهات في علوم القران واتجاهات التفسير : 246

<sup>6</sup> . مرتضى آية الله زاده الشيرازي ، الزمخشري لغويا ومفسرا : 197

## العقبات والصعوبات :

وينضح مما تقدم أن أولى العقبات التي واجهتني في هذا البحث هي طبيعة الموضوع نفسه ، أي المفاضلة بين الزمخشري المعتزلي المشرقي وبين أبي حيان السنني المغربي ، وأن كلا منهما كان يقف على قمة هرم لمرحلة مستقلة من مراحل التفسير للقرآن الكريم . ومن هنا فلاي لا أخفي القول بأنني قد واجهت عقبات متتالية ، وكانت كل عقبة تكاد تشني عزمي وتصرفني عن المحاولة لولا توفيق الله أولا ، وتشجيع أستاذي المشرف ثانيا ، وأذكر من هذه الصعوبات صياغة عنوان البحث ، وتصميم الخطة المطابقة له والتصوير المنهجي لكيفية معالجته ، وبضاف إليها ندرة الأساتذة الموجهين في العلوم الشرعية ، وكون البحوث الأكاديمية في هذا الجانب قليلة وغير مطبوعة أو متداولة ، ومن بين هذه المصادر التي لم يتيسر لي الظفر بها مثلا " كتاب المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري " لأبي زكريا يحيى الشاوي الملياني الجزائري ، حيث لم أطلع على هذا الكتاب إلا وأنا في مرحلة متأخرة من إنجاز هذا البحث ، إلى جانب بعض العقبات الأخرى التي لا يتسع المقام لذكرها ، وربما استطاع القارئ نفسه أن يلمس آثارها أثناء اطلاعه على هذا البحث .

ولكنني أرى في الوقت ذاته أن أهمية الموضوع والحاجة الملحة إليه قد ذلت علي هذه العقبات وخففت من بعض الصعوبات ، وتتجلى أهمية هذا البحث في أكثر من جانب ، منها تقلص دراسة شاملة نسبيا عن منهج الزمخشري في تفسير الكشاف ، لأن أغلب الدراسات التي بين أيدينا اليوم إنما تتناول جانبا واحدا منه كالجانب الكلامي ، أو الجنب اللغوي والنحوي ، أو الجانب البلاغي ، أما الحديث عن منهجه في التفسير فلا يكتمل إلا بالإلمام بهذه الجوانب جميعا في دراسة واحدة ، كما أن تفسير البحر المحييط لأبي حيان الأندلسي لم يلق من الدراسة الوافية التي أملت به من مختلف جوانبه بما يليق بمكانته ، وإنما هي فصول وأشتات موزعة في عدة أبحاث ، ولا يستطيع طالب العلم أن يكون صورة متكاملة عن هذا الكتاب وأهميته ومنهج مؤلفه بما تفرق في بطون هذه الكتب ما لم تضمها دراسة واحدة .

وتبقى الأهمية الكبرى التي يكتسبها هذا البحث هو دفع جهود الباحثين نحو دراسة  
تقويمية لأعمال المفسرين لإعطاء كل ذي حق حقه ، وإنزال كل مفسر منزلته ، وذلك  
بتحكيم النظرة العلمية والمقاييس الموضوعية في هذا التراث العلمي بما ييسر لطلاب العلم  
وجوه الانتفاع به وسبل الاستفادة منه .

### مصادر ومراجع البحث:

ويأتي في مقدمة مصادر هذا البحث تفسير الزمخشري المعروف بـ " الكشاف عن  
حقائق غوامض التبريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " وما كتب عليه من حواش نقلنا  
وشرحا واختصارا وتخريجا لأحاديثه وآثاره ، كالإنتصاف من الكشاف لابن المنير  
الإسكندري ، والكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر العسقلاني ،  
وغيرهما ، وأما المراجع التي كتبت حول الزمخشري وإنتاجه العلمي فهي كثيرة وبخاصة ما  
تعلق بالجانب البلاغي في تفسيره ، وأذكر منها كتاب " الزمخشري " لأحمد الحوفي ، وهو  
على اختصاره من أحسن ما اطلعت عليه من كتابات عن الزمخشري وعطائه الفكري ،  
وما أحدثه من نشاط علمي فيمن جاء بعده ، كما استفدت بشكل واضح مما كتبه  
صاحب كشف الظنون عن تفسير الكشاف وأثره الواسع فيمن جاء بعده من المفسرين ،  
ولم أغفل ما كتب من بحوث علمية عن هذا التفسير ومنهج مؤلفه فيه على ما فيها من  
ثغرات ونقائص ، وأذكر من هذه البحوث " منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان  
إعجازه " لمصطفى الصاوي الجويني ، وهو بحث ينطوي على فوائد معتبرة ، ولكنه لا يخلو  
من نقائص بعضها يتعلق بخطة البحث التي لم تغط جوانب مهمة في الكشاف ، ومنها أن  
الباحث ذكر فصولا متفرقة في كل باب من غير أدنى رابط بينها ، بل جعل الأبواب في  
خطة البحث غفلا من العناوين ، مما أضعف من ترابط فصولها وفقراتها ، كما صدرت من  
الباحث أحكام اتسمت بالفلو والمبالغة في مدح الزمخشري ، ووصفه بأكثر مما هو أهل له  
، ومن ذلك مثلا قوله في صلة الزمخشري بالتفسير بالمأثور: ( ففيه يبدو الزمخشري هضم  
التفسير النقلي ، ووعى ما أثر فيه ، كما روى الحديث وأتقنه ، وأحاط تحيرا بالمسائل  
الفقهية ودقيق الخلاف فيها ، وألم إلما بالقراءات وفروق ما بينها .. )<sup>1</sup>

والنظرة الموضوعية تجعلنا لا نفر الباحث على كلامه هذا لما في الكشاف من ثغرات واضحة في هذه الجوانب جميعا ، وبخاصة جانب الأثر والرواية ، إذ ليس هو الجانب الذي جعل تفسر الكشاف يحظى هذه المكانة .

ويجد قريبا من هذه المبالغة في تمجيد تفسر الكشاف عند باحث آخر عندما يقول :  
( وكشاف الزمخشري هو عمدة التفسر لمن جاء بعده من المفسرين لما تميز به من الفكر وما تضلع به من ثقافة . )<sup>1</sup> فلا يخفى على كل منصف ما في مثل هذه الأحكام من المبالغة والتعميم غير السليم ، ولو بين هذا الباحث نوع الفكر وجانب العلم الذي تفسر فيه — وهو علم البلاغة والبيان — لسلم له بذلك ، أما أن يجري حكمه على إطلاقه فهذا ما نتحفظ عليه .

وهكذا فإن الباحث يجد نفسه في حاجة إلى حاسة نقدية قوية للتعامل مع مثل هذه المصادر ، بل يضطر أحيانا أن يؤخر الإطلاع عليها إلى مرحلة متأخرة من البحث خشية أن يقع أسيرا لبعض تلك الأحكام التي امتزج فيها الخطأ بالصواب .

كما رجعت إلى تفسر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، وبعض ما كتب عنه قديما وحديثا ، وخير ما وقفت عليه مما كتب عن شخصية أبي حيان وإنتاجه العلمي كتاب " أبو حيان النحوي " للباحثة العراقية خديجة الحديثي ، وهو بحث تقدمت به لنيل درجة الدكتوراه منذ أربعة عقود مضت ، فأفادت منه في التعرف على إنتاجه العلمي إضافة إلى جوانب مهمة تتعلق بشخصية أبي حيان الأندلسي .

وإلى جانب كتب التراجم فقد استعنت في الحديث عن حياة المفسرين وعصرهما بكتب الأدب القديمة والحديثة باعتبار أن الأدب بشعره ونثره كان صورة تعكس الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لذلك العصر ، وبخاصة أن دور السلاطين والملوك كانت تزدهم بكبار الأدباء والشعراء والكتاب ، ويشغلون أفضل المناصب من وزارات ورؤساء دواوين وسفراء ودبلوماسيين ، مما يجعلهم على اطلاع مباشر عما يجري في الدول التي عاصروها ، فرجعت إلى كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، ونفع الطبيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني ، والبداية النهاية لابن كثير ، وغيرها من

<sup>1</sup> . عبد الحميد محمد ننا ، ابن جزي وجهوده في التفسر : المقدمة .

للموسوعات التاريخية والأدبية التي لا غنى عنها لكل باحث في مثل هاتين الشخصيتين ،  
وخلاصة القول أن مصادر البحث حول هذين الرجلين كثيرة ومتنوعة بقدر تنوع جوانب  
النبوغ والتفوق عندهما ، وبذلك فرضت علينا طبيعة هذا البحث ذي الأطراف المتشعبة أن  
أجري مطالعات واسعة في كتب التاريخ والتراجم والأدب واللغة والنحو والبلاغة والفقه  
وعلم الكلام وغيرها ، إلى جانب كتب التفسير الأخرى ، مما اضطرني إلى إنفاق زمن  
ليس بالقليل في إنجازة .

### خطة البحث:

وقد جعلت هذا البحث في ثلاثة أبواب ، وتحت كل باب مجموعة فصول ، وكل  
فصل يتفرع إلى مباحث ، فخصصت الباب الأول للتعريف بهذين المفسرين وعصر كل  
منهما ، ومهما قيل عن شهرة هذين المفسرين ، فإن ما ظل خافيا من حياتهما إلى يومنا  
هذا لا يقل أهمية عما عرفناه عنهما ، كما لاحظنا كثيرا من الأحكام الصادرة من بعض  
الباحثين فيما يتعلق بالزمخشري مثلا قد جانبت الصواب ، إما بدافع التسرع ، أو التعصب  
له أو ضده ، وقل مثل ذلك بالنسبة لأبي حيان الأندلسي .

وهكذا فإن طبيعة هذا الباب اقتضت أن يكون في أربعة فصول .

**الفصل الأول :** وتناولت فيه عصر الزمخشري بجانبه السياسي والاجتماعي والعلمي  
والديني ، لما له من أثر على نشأة الفرد وتكوينه .

**الفصل الثاني :** وتناولت فيه حياة الزمخشري ونشأته ورحلاته العلمية وخصائص شخصيته  
وأثرها في إنتاجه الفكري .

**الفصل الثالث :** وتناولت فيه عصر أبي حيان وبينته الأولى التي نشأ بها وهي غرناطة آخر  
ممالك الأندلس ، والتي احتفظ بانتسابه إليها رغم إقامته الطويلة بالقاهرة إلى أن توفي بها  
، دون أن تغفل الحديث عن القاهرة من الناحية العلمية يوم دخلها أبو حيان وألقى بها  
رحله .

**الفصل الرابع :** وتناولت فيه حياة أبي حيان الأندلسي ، فتحدثت عن نشأته وطلبه للعلم  
، ورحلاته ، وآثاره العلمية وصفاته ، وخصائص شخصيته التي أضفى منها على إنتاجه  
وكتابه .

أما الباب الثاني: فأفردته للحديث عن مسلكهما في التفسير بالمأثور ، وفرعت هذا الباب على خمسة فصول هي :

الفصل الأول : وتحدثت فيه عن مسلكهما في التفسير المرفوع للنبي - صلى الله عليه وسلم - مما هو تفسير للقرآن بالقرآن أو بالسنة .

الفصل الثاني : وتكلمت فيه عن موقفهما من مرويات التفسير مما هو منسوب للصحابه والتابعين .

الفصل الثالث : وعرضت فيه موقفهما من القصص والأخبار مما عرف بالإسرائيليات .

الفصل الرابع : وبينت فيه مسلكهما في عرض أسباب التزول والقرعاني ، وكيف أفاد كل منهما من أسباب التزول في فهم وتفسير النص القرعاني .

الفصل الخامس : وبسطت فيه مسلكهما في مباحث القراءات القرعانية .

أما الباب الثالث وهو مسلكهما في التفسير بالرأي فهو أطول الأبواب وأهمها في هذا البحث ، لأنه الجانب البارز في تفسيريهما ، وقد جعلته في ستة فصول .

الفصل التمهيدي وعرضت فيه بإجمال الأسس المنهجية والفكرية التي قام عليها التفسير بالرأي عند كل منهما ، ثم جعلت الفصول اللاحقة تفصيلا لما أجمل في الفصل التمهيدي على الوجه الآتي :

الفصل الأول : وعرضت فيه مسلكهما في الكشف إعجاز القرآن الكريم ، وفيه تحدثت عن صلة المعتزلة بموضوع الإعجاز القرعاني ، وتراثهم البلاغي الذي بنوا عليه تحليل إعجاز القرآن الكريم ، والذي توج على يد عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم ، فتحدثت عن نشأتها وتطورها ، وجهود الزمخشري في تطبيقها باعتبارها المرجع النظري لإدراك مواضع الإعجاز في القرآن ، كما بحثت مدى تأثير أبي حيان بجهود الزمخشري من جهة ، وما أضافه في هذا الجانب من جهة أخرى ، وختمت هذا الفصل بموازنة بين جهودهما في الكشف عن إعجاز القرآن الكريم .

الفصل الثاني : وفيه تحدثت عن مصادرهما النحوية ومسلكهما في عرض الشواهد النحوية واللغوية وتوظيفها للوصول إلى فهم آيات القرآن ، باعتبار أن الشمر ديسان العسرب ومرجعهم في فهم لغتهم .



**الفصل الثالث :** وهو من أهم فصول هذا الباب أيضا : وأفرده للكشف عن مسلكهما في المباحث العقدية ، فبينت فيه مصادرهما العقدية وطريقتهما في النقل والاقْتباس منها ، ثم عرضت الخلفية الفكرية عند كلا المفسرين وأثرهما في مسلك كل منهما في تفسير الآيات التي هي محل نزاع واختلاف بين الفرق الكلامية .

**الفصل الرابع :** وعرجت فيه على مسلكهما في تفسير آيات الأحكام ، حيث عرضت فيه مصادرهما الفقهية التي استعانا بها في هذا الجانب ، وكيفية تعاملهما معها ، كما تحدثت فيه عن ملامح النزعة الاجتهادية في فهم النص القرآني ، والقيمة العلمية لما تجلّس من استنباطات فقهية عند كل منهما .

**الفصل الخامس :** وبعد أن تجلّست لنا القيمة العلمية لكل من هذين المصنفين ، وجوانب التفوق عند كل من المفسرين من خلال الفصول السابقة ، رأيت ضرورة الحديث عن أثر كل من هذين التفسيرين في حركة التفسير وما أحدثه كل مفسر من نشاط علمي فيمن جاء بعدهما ، لنعرف في الأخير إن كانت درجة هذا التأثير مقياسا كافيا وحدد لمعرفة القيمة العلمية لكتاب ما ، أم أنه يجب البحث عن عوامل خارجية أخرى قد تكون مسن وراء هذا التأثير والذيع والانتشار إلى جانب ذلك العامل الأول .

ويحسن بي أن أنبه في هذا المقام على ما قد يلاحظه القارئ لهذا البحث من تفلوت في الحجم والشكل بين بعض فصوله ، وذلك راجع في حقيقة الأمر إلى طبيعة كل فصل والجانب الذي تناوله من هذين الكتابين ، فهناك جوانب توسع فيها كلا المفسرين أو أحدهما كالجانب النحوي والبلاغي والكلامي مثلا ، وهناك جوانب أخصرت اقتصدا وأجزا فيها كالجانب الفقهي مثلا ، فافتضت طبيعة الموازنة أن نتعامل مع كل جانب على قدر حجمه وأهميته ، ولذلك تباينت بعض الفصول في حجمها وفي عدد مباحثها حسبما اقتضته خصوصية كل فصل . أما فصول الباب الأول — وهو الباب التاريخي — فقد جاءت متجانسة في شكلها ومضمونها .

وقد عدلت عن كلمة " منهج " إلى كلمة " مسلك " في عناوين فصول هذا البحث لأنني أبحث في أوجه التفاضل لا في أوجه الإتفاق والاختلاف بين هذين التفسيرين ، لأن

الاختلاف بينهما مسلم به لأكثر من سبب ، وبخاصة إذا علمنا أن أحدهما مفسر سني والآخر معتزلي فلكل أسسه الفكرية التي أقام عليها منهجه في تفسير القرآن .

ولا تختلف كلمة منهج في معناها اللغوي عن معنى كلمة مسلك أو كلمة طريقة<sup>1</sup> ، وأما في الاصطلاح فإن المنهج أعم من المسلك ، ونعني بالمنهج هنا الأسس النظرية القائمة في ذهن المفسر التي اقتنع أن يسر عليها أثناء البحث في تفسير القرآن الكريم ، وأما المسلك فنعني به الآليات التي تكفل سلامة تطبيق هذا المنهج وتحقيق أهدافه ، ومن هنا فضلنا كلمة مسلك لأننا نتعامل في دراستنا هذه مع ثمرة المنهج وهدفه لا مع المنهج ذاته .

### منهج البحث:

وكان المنهج الغالب في إنجاز هذا البحث هو المنهج الاستقرائي ، ويقصد بالاستقراء دراسة بعض الجزئيات ، والوصول منها إلى حكم ينطبق عليها وعلى غيرها ، أو كما عرفه الفزالي — في معيار العلم — أن تصفح جزئات كثيرة داخلية تحت معنى كلي ، حتى إذا وجدت حكما في تلك الجزئيات حكمت على ذلك الكلي به<sup>2</sup> .

والجزئيات التي تشترك في معنى كلي هنا هي عبارة عن مجموع الآيات الواردة في موضوع واحد ، حيث أقوم بتتبعها عند كل مفسر من هذين المفسرين ومسلكه في تفسيرها ، ففي فصل المباحث العقديّة مثلا تتبعت آيات العقائد عند المفسرين وجمعت من كتابيهما من الشواهد الكافية ما يجعلني أخرج بصورة متكاملة عن مسلكيهما في هذا الجانب ، وفعلت مثل ذلك في الفصول الأخرى من هذا البحث .

وقد قمت قبل ذلك كله بقراءة شاملة لهذين الكتابين في التفسير بما زاد في قناعاتي صلاحية للموضوع للبحث ، ووسع من تصوري في طريقة تناوله ، ثم انتقلت إلى قراءة ثانية وثالثة بغية تدوين الشواهد والأمثلة ، حتى إذا اجتمع بين يدي عدد وافر من تلك الشواهد ، قمت بترتيبها وفق مواقعها من فصول البحث وتبعا لأسس المنهج الذي ارتضيته لإنجازه ، وإجراء قراءة نقدية لها ، مما هيا لي القيام بموازنة بين مجموعة تلك الشواهد من كلا الكتابين على أسس سليمة ، والانتهاء إلى نتائج أحسبها صائبة .

<sup>1</sup> . في الصحاح للصحاحي : النهج الطريق الواضح ، وكذلك المنهج والمهاج .. وسمعت الطريق إذا سلكته ، وفلان بمنهج سبل فلان ، أي بسلك مسلكه . الصحاح ، : 346/1 .

<sup>2</sup> . د. محمد الدسوقي ، منهج البحث في العلوم الإسلامية ، دار الأوراعي ط 1 ، 1984 م ، ص: 82

وقد تلاقح هذا المنهج مع أطراف مناهج أخرى في بعض جوانب البحث ، كالمناهج المقارن الذي قامت عليه الموازنة بين مسلكي المفسرين ، والمنهج التاريخي في عرض وتحليل بعض النصوص التاريخية وما تعلق بترجمة كل من الزمخشري وأبي حيان الأندلسي . كما حرصت في بعثي هذا على مراعاة ما يأتي :

— رجعت في نقل الآيات القرآنية وضبطها وترقيمها إلى المصحف الشريف على رواية ورش عن نافع ، وقد جعلت الآيات الكريمة بين مزدوجتين ، وذكرت أرقام الآيات التي هي محل الدراسة والبحث في صلب البحث حتى لا تنقل الهامش بكثرة الإحالات ، إلا الآيات التي وردت عرضاً أثناء كلام مقتبس — وهي قليلة — فقد ذكرت أرقامها بالهامش .

— خرجت الأحاديث النبوية تفرجاً فنياً ، وذلك بإحالتها على مصادرها الأصلية من كتب السنة ، ذاكرة الكتاب والباب ، ورقم الحديث إن وجد ، كما جعلت الأحاديث هي الأخرى بين مزدوجتين .

— عرفت بالأعلام بما يزيد معلومات البحث وضوحاً ، وأغفلت التعريف بالأعلام المشهورين كالخلفاء الراشدين ، وأئمة المذاهب الفقهية الأربعة ومن كان في حكمهم ، وكذلك سكنت عن الأعلام الذين وردت أسماءهم عرضاً ، وكان التعريف بهم لا تدعو إليه الحاجة ، وهم قليلون في البحث .

— شرحت بعض الألفاظ الغريبة مستعينا في ذلك بالمصادر اللغوية المعتمدة .

— حرصت على إضافة كل قول لصاحبه ، فما كان منها قد نقلته نصاً جعلته بين قوسين ، وما كان منقولاً بالمعنى أو بتصريف لم أقيده بين قوسين ، وفي كلا الحالتين كنت أحيل هذه الاقتباسات على مصادرها ، أو أنسبها إلى أصحابها ، كما أن هنالك بعض المراجع التي لم يتيسر لي الظفر بها ، وإنما نقلت منها بالواسطة ، فحرصت على توضيح ذلك بالهامش ، وهي حالات قليلة .

— وألحقت بالبحث مجموعة من الفهارس الفنية تقرب المادة العلمية للقارئ بأسهل الطرق وأسرعها ، وهي :

— فهرس المصادر والمراجع ، ورتبت فيه أهم المصادر والمراجع التي اعتمدها في هذا البحث ترتيباً ألفبائياً على أسماء المؤلفين ، مع ذكر المعلومات المتاحة عن الطبعة المستعملة .  
— فهرس الآيات القرآنية ، وذكرت فيه الآيات مرتبة حسب موقعها من المصحف ، مع ذكر رقمها ، وموضع ورودها في البحث .

— فهرس الأحاديث النبوية ، وأوردت فيه الأحاديث التي تضمنها البحث ، مع ذكر موضعها في البحث .

— فهرس الشواهد الشعرية ، واقتصر فيه على ذكر الأشعار التي وردت في البحث على سبيل الاستشهاد لحكم من الأحكام في النحو أو غريب القراء أو القراءات وغيرها .

— فهرس الموضوعات . وذكرت فيه رؤوس مواضيع البحث ابتداءً بالأبواب ثم الفصول ثم المباحث ، وسكنت عما كان دون ذلك لسهولة الوصول إليه من خلال ما سبق .

وفي الأخير أقول إنني بقدر ما واجهته من عقبات وصعوبات في إنجاز هذا البحث بقدر ما فتح الله علي من بركاته وأمدني بعونه ، إلى جانب التشجيعات التي لقيتها من بعض أساتذتنا الأكارم ، وإنني بهذه المناسبة أتقدم بجملي الشكر والعرفان لأستاذي المشرف الدكتور رابع دوب الذي كان خير موجه ومساعد لي في إنجاز هذا البحث ومتابعته عن قرب من يوم تسجيله إلى أن ظهر على الصورة التي هو عليها اليوم ، كما أرفع جزيل شكري وامتناني إلى أستاذي الدكتور عبد الله سامي الكناني الذي أمدني بتشجيعاته ، ولم يخل علي بنصائحه وخبراته في مجال البحث العلمي ، فكانت خير معين لي في تجاوز كثير من الإشكالات الهامة ، ولا أنسى أن أتقدم بالشكر أيضاً إلى كل من مد لي يد العون والمساعدة في خدمة هذا البحث ابتداءً بإدارة الجامعة وعمال المكتبة وزملائي الأساتذة وأعضاء المجلس العلمي لكلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية .

والحمد لله رب العالمين

# الغيب الأول

التعريف بالهدف السوي

جامعة الأميرة  
الملك عبدالعزيز  
للعلوم الإسلامية

# الفصل الأول

عصر الزمخشري

جامعة أممير  
القادر للعلوم الإسلامية

# المبحث الأول

## الحياة الإجتماعية

### المطلب الأول : وصف بيئة خوارزم

ولد المفسر محمود بن عمر الزمخشري بقرية زمخشري<sup>1</sup> ، وإليها اشتهر انتسابه ، أما المدينة الكبيرة فهي الجرجانية ، وتقع هذه المدينة في الإقليم الكبير المعروف يومئذ بخوارزم<sup>2</sup> . قال ياقوت : ( وخوارزم ليس إسمًا للمدينة ، وإنما هو إسم للناحية يجملتها ، فأما القصبة العظمى فيقال لها الجرجانية . )<sup>3</sup>

وقد فتح العرب المسلمون هذا الإقليم سنة : 39هـ ( 712 م ) بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي<sup>4</sup> ، ولم يلبث هذا الإقليم أن صار مركزًا من مراكز الثقافة العربية والإسلامية ، ومشرقًا لكثير من كبار العلماء ، كالزمخشري ، والرازي<sup>5</sup> والسكاكي<sup>6</sup> ، والمطرزي<sup>7</sup> ، وغيرهم .

وقد دخلها أغلب الرحالة المسلمين من العرب فوصفوها مظهرين إعجابهم بها ، ونما وجدوها عليه من الجمال والجلال .

<sup>1</sup> . زمخشري : بفتح الأولى والثانية وإسكان الحاء المعجمة . انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط 1 ، 1990م ، مادة : زمخشري .

<sup>2</sup> . خوارزم : ضبطها ياقوت أوله بين الصفة والفتحة والألف مسترفة مخسفة ليست بألف صحيحة . معجم البلدان : 453/2

<sup>3</sup> . معجم البلدان : 453/2

<sup>4</sup> . قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة ، أوب حفص الباهلي من سادات المرء وحبارهم ، وهو أحد الفاتحين الإسلاميين ، وقد هدى الله على يده خلقًا كثيرًا ، توفي سنة : 96هـ . انظر : ابن كثير ، مكتبة المعارف ، بيروت ، البداية والنهاية : 167/9 .

<sup>5</sup> . الرازي : هو محمد بن عمر بن الحسين ، التيمي البكري ، الإمام المفسر المتكلم توفي سنة : 606هـ . الداودي ، طبقات المفسرين تحقيق علي محمد عمر ، الناشر مكتبة وهبة ط 1 ، 1972م : 214/2

<sup>6</sup> . هو يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي بن يعقوب السكاكي ، سراج الدين الخوارزمي ، إمام في النحو والصرف والبيان والعروض والشعر وسائر الفنون ، صاحب كتاب مفتاح العلوم نقل عنه أبو حيان في " ارتشاف الضرب " قيل أنه ولد سنة : 555هـ وتوفي سنة : 626هـ بخوارزم . انظر السيوطي ، بحية الرعاة ، المكتبة المعصرية ، بيروت : 364/2

<sup>7</sup> . هو ناصر بن عبد السيد بن علي بن المطرز ، أبو الفتح النحوي ، المشهور بالمطرزي ، من أهل خوارزم كان يقال هو حليلة الزمخشري ، كان مجتليًا ، برع في النحو والفقه على المذهب الحنفي له مصنفات منها : شرح المقامات ، والمعرب في لغة الفقه ولسد

سنة : 538هـ وتوفي بخوارزم سنة : 610هـ انظر بنية الرعاة : 311/2

فقد رحل إليها المقدسي وأقام بها مدة ليست بالقليلة ، وطوف في أقطارها ، وتعرف على تلك البيئة وأحوال سكانها ، عامتهم وخاصتهم ، من ملوك وعلماء وغـيرهم ، ثم نعتها بقوله : ( إنه أجل الأقاليم ، وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير ، ومستقر العلم ، وركن الإسلام المحكم ، وحصنه الأعظم ، ترى به رساتيق ونواحي واسعة ، ودينل مستقيما ، وعدلا مقيما في دولة أبدا منصوره مؤيدة ، ملكه خير الملوك ، وجنسه خير الجنود ، فيه يبلغ العلماء درجة الملوك ، ويملك في غيره من كان فيه مملوك ، هو سد الترك ، وترس الفز ، وهول الروم ، ومفخر المسلمين ، ومعدن الراسخين . )<sup>1</sup>

كما ذكر هذا الإقليم في موضع آخر ، فوصفه بأنه ( أخصب بلاد الله تعالى ، وأكثرها خيرا وفقها وعمارة ، ورغبة في العلم واستقامة في الدين ، وأشد بأسا وأغلظ رقابا ، وأدوم جهادا ، وأسلم صدورا ، وأرغب في الجماعات ، مع يسار وعفة ، ومعروف وضيافة ، وتعظيم لمن يفهم ، وعلى الجملة الإسلام به طري ، والسلطان قوي ، والعدل ظاهر ، والفقيه ماهر ، والفني سالم ، والمحترف عالم ، والفقير غسانم ، قل ما يقحطون ، منابره أكثر من أن توصف ، ونواحيه أوسع من أن تمت ، غير أنا اجتهدنا طاقتنا وأفرغنا استطاعتنا ، وهذه صورته ومثاله . )<sup>2</sup>

وجاء في وصف باقوت الحموي لإقليم خوارزم (ت: 626 هـ ) أنه ( موفور الحشرات ، كثير الثمرات جميل المناظر ، وقال إن أهله كرام الأخلاق ، وأنه لم ير مدينة أعظم منها ، ولا أكثر أموالا ولا أحسن أحوالا منها.. وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق ، وخيرات ودكاكين ، و يندر أن تكون هناك قرية بدون سوق ، و الأمن هناك شامل والطمانينة تامة . )<sup>3</sup>

( وللشقاء عندهم برد شديد، بحيث أي رأيت " جيحون " <sup>4</sup> فخرهم وعرضه ميل ، وهو جامد ، والقوافل ذاهبة وآتية عليه ، وإنما على ما هي عليه من رداة أرضها ، متصلة

<sup>1</sup> المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم الناشر مكتبة المدبولي ، القاهرة ، ط3 ، 1991م : 260

<sup>2</sup> المصدر السابق : 261

<sup>3</sup> معجم البلدان : 454/2

<sup>4</sup> جيحون : بفتح الجيم ، وإسكان الياء ، وهو اسم اعجمي لوادي حراسان ، على وسط المدينة يقال لها جيهان ، فبه السرى إليها وقلوا جيحون ، على عادتهم في قلب الألفاظ ، انظر معجم البلدان : 228/2



العمارة ، متقاربة القرى ، كثيرة البيوت المفردة ، والقصور في صحاريها ، قلما يقع نظرك في رساتيقها على موضع لا عمارة فيه .<sup>1</sup>

قال ياقوت : ( وقد كنت اجتهدت أن أكتب شيئا لها ، فما كان يمكنني لجمود الدواة حتى أقرهما من النار وأذيها ، ، وكنت إذا وضعت الشربة على شففتي التصقت بها لجمودها على شففتي ، ولم تقاوم حرارة النفس الجماد ، ومع هذا فهي لعمرى بلاد طيبة ، وأهلها علماء فقهاء أذكىاء أغنياء ، والمعيشة بينهم موجودة ، وأسباب الرزق عندهم غير مفقودة ، وما أظن أنه كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في كثرة الخير ، وكبر المدينة ، وسعة الأهل ، والقرب من الخير ، وملازمة أسباب الشرائع والدين ، والذين ينسبون إليها من الأعلام والعلماء لا يحصون .<sup>2</sup>

أما ابن بطوطة — بعد عصر الزمخشري بقليل — فقد وصفها بقوله : ( لم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوسا ، ولا أشد منهم حبا في الغرياء .. وعندهم عادة جميلة ، وهي أن المؤذنين يطوف كل واحد منهم على دور جدران مسجده معلما لهم بحضور وقت الصلاة ، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ، وفي كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ، ويفرم خمسة دنانير تنفق في مصلحة المسجد ، أو تطعم للفقراء والمساكين ، ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان .<sup>3</sup>

( وقد عرف سلاطين الدول التي تعاقبت على حكم خوارزم بإقامة العدل بين الناس ، حتى صار الناس يعيرون في دعة وأمن كبيرين ، وكانت الشريعة قائمة الدولة ، وكان خير من يمثل ذلك قضاة من أكابر العلماء ، ولما كانت الغلبة في خوارزم لمذهب أبي حنيفة ، فإنه كان لكل مدينة قاض يحكم بين الناس ، ويفصل بينهم في المنازعات على المذهب الحنفي ، فإن كانت المدينة كبيرة ، وبها مذاهب متعددة ، عين سلاطين خوارزم قضاة

<sup>1</sup> . المصدر السابق : 454/2

<sup>2</sup> . معجم البلدان : 455/2

<sup>3</sup> . رحلة ابن بطوطة ، مكتبة صادر ، بيروت ، ص: 52

بعدد المذاهب ، وهؤلاء القضاة كانوا يقومون أيضا بتدريس العلوم الشرعية في المدارس والمساجد .<sup>1</sup>

وذكر ابن بطوطة في وصفه لأمير خوارزم " قتلوا دمور " — ضبطها بضم القاف وسكون الطاء وضم اللام ، وضم الدال والميم — ( أن من عاداته أن يأتي القاضي كل يوم إلى مجلسه ، ومعه الفقهاء وكتابه ، ويجلس في مقابلة أحد الأفراد الكبراء ، ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم ، ويتحاكم الناس إليهم ، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي ، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء ، وأحكامهم مضبوطة عادلة ، لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة . )<sup>2</sup>

أما طبقات المجتمع فكان أهمها ( طبقة السلاطين وحكام الأقاليم ، ثم طبقة القواد وأمراء الجند ، ثم طبقة الموظفين ، وكان السلطان يرأس هذه الطبقات ، كما كان دائما من أفراد البيت السلجوقي . )<sup>3</sup>

( وكان السلاجقة قبل قيام دولتهم يغب عليهم الميل إلى التنقل والارتحال ، فلم يكونوا يألفون حياة المدن ، فلما قامت دولتهم ، غيروا أسلوب حياتهم ، فسكنوا المدن ، وبنوا الدور والقصور ، وعاشوا حياة اجتماعية تختلف مظاهرها كثيرا عن مظاهر حياتهم البدوية قبل قيام الدولة السلجوقية . )<sup>4</sup>

( وقلد حكام الأقاليم السلاطين ، كما قلدهم القواد وأمراء الجند ، والوزراء والحجاب وكبار الموظفين ، فأخذوا يعيشون عيشة مترفة ناعمة ، تتفق مع ما تحقق لهم من جاه وثراء . )<sup>5</sup>

( وكان كثير من سلاطين السلاجقة غير مثقفين ثقافة تتفق مع ازدهار الثقافة الإسلامية وريقها في ذلك العصر ، فوجدوا أنفسهم في حاجة ماسة إلى كثير من الموظفين للاستعانة

<sup>1</sup> . أحمد الحوفي ، المرعشي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط 1 ، 1996م ، ص : 25 نفا عن كتاب سيرة جلال الدين منكبري : 77 ، بتصرف .

<sup>2</sup> . المرعشي : 26 نفا عن مذهب رحلة ابن بطوطة : 300/1

<sup>3</sup> . عبد المنعم محمد حسنين ، دار الكتاب المصري ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 1 ، 1981م ، إيران والعراق في العهد

السلجوقي : 175

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 176

<sup>5</sup> . المصدر نفسه : 176

هم في مختلف الأمور ، فصارت طبقة الموظفين من أظهر طبقات المجتمع وأهمها ، وكان نفوذ أفرادها يختلف باختلاف مناصبهم ومدى اتصالهم بالسلطان السلجوقي ، ، فكان الوزراء والحجاب والكتاب أكثر الموظفين نفوذا وظهورا في المجتمع حينذاك ، واستطاع بعضهم أن يوجه سير الأحداث السياسية وغير السياسية في الدولة السلجوقية .<sup>1</sup> ( كما كانت طبقة رجال الصوفية من طبقة المجتمع المهمة في العصر السلجوقي ، وكان لأفراد هذه الطبقة تأثير واضح في حياة الناس الاجتماعية ، فقد انتشر بينهم الميل إلى الاعتكاف ، وحب الوحدة ، هربا من حياة القلق والاضطراب التي أوجدتها اضطراب الحياة السياسية في القرن السادس الهجري .

### المطلب الثاني : مظاهر الحياة الاجتماعية

وقد انتشر اتخاذ الرقيق انتشارا كبيرا في العصر السلجوقي ، وكانت سمرقند من أكبر أسواق الرقيق ، كما كانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المحلوب من بلاد ما وراء النهر ، وكان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها .<sup>2</sup> ( وقد ظهرت طبقة الرقيق في العصر السلجوقي ظهورا ملموسا ، لأن كثيرا من هؤلاء الرقيق وصلوا إلى درجة الإمارة وكونوا دولا ساهمت في توجيه سير الأحداث في العالم الإسلامي بشكل واضح ، ويكفي للتدليل على ذلك إذا علمنا أن كثيرا من الخلفاء العباسيين لذلك العصر كانت أمهاتهم من الرقيق ، وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب ، حتى إنهم كانوا يفضلونهن — أحيانا — على العربيات الحرائر .<sup>3</sup>

ومن طبقات المجتمع — في ذلك العصر — أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود الذين كانوا يعيشون في إيران والعراق ، ويتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني ( وقد أصبحت طبقة أهل الذمة تضم الجوس إلى جانب النصارى واليهود ، بعد أن اعترف المسلمون لهم أهل ذمة ، فعاملوهم معاملة النصارى واليهود ، وقبلوا منهم دفع الجزية ،

<sup>1</sup> حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، دار الجيل ، بيروت ، ومكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 13 ، ص : 424/3

<sup>2</sup> . تاريخ الإسلام : 424/3

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 424/3

وقد عاش عدد من المحوس في العراق وجنوب إيران في العصر السلجوقي وتمتعوا بحياة حرة آمنة في ظل التسامح الإسلامي .<sup>1</sup>

وكان من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية للدولة السلجوقية اشتغال سلاطينهم بحياة الترف والنعيم ، ( وعلى الرغم من الأحداث السياسية التي كانت تحوطهم من كل جانب ، فإن هذا لم يجعل دون أخذ حظهم من البدخ والأهمة ، بما يتلاءم وقوة سلطانهم ، واتساع ملكهم ، فكانت قصورهم آية في روعة البناء ، وحسن التنسيق ، وجمال التأنيث ، وبديع التزين ، كما كانت محاطة بالحدائق الفناء ، ذات الأناقة والبهاء . )<sup>2</sup>

وقد سمح السلجوقية لشخصية المرأة بالظهور ، والمشاركة في الأحداث بصورة سافرة ، ( فاشترك النساء في اختيار الوزراء ، وإدارة الحروب وتبدير الموامرات ضد الخصوم ، ومن أشهر النساء اللاتي ظهرت شخصياتهن في العصر السلجوقي : ترکان خاتون زوجة ملكشاه المفضلة ، وزبيدة خاتون إحدى زوجات ملكشاه وأم ابنه الأكبر بركياروق ، وغيرهن . )<sup>3</sup>

وكان من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر السلجوقي رواج سوق الألعاب الرياضية ، ( فراجت ممارسة الناس للرمية ولعب السيف والترس ، وسباق الخيل والصيد ، ولعب الشطرنج ، كما كان من مظاهرها انتشار مجالس اللهو والمنادمة ، حتى أصبحت للمنادمة أصول ، وصارت مهنة لها أرباب محترفون . )<sup>4</sup>

وقد ساعد على نشاط الحياة الاجتماعية ما كان يصحبها من نشاطات اقتصادية مزدهرة ، فقد نشطت التجارة والصناعة ، ووصل تجار المسلمين إلى الصين شرقا .. كما ازدهرت الصناعات اليدوية كصناعة السجاد والنسيج الموشى بالحرير وغيرها من أدوات الفرش والأثاث وأواني الطبخ وغيرها . وازدهرت صياغة الجواهر ، وقد ساعد على ترويج هذه الصناعة غنى الدولة بالمعادن الثمينة على اختلافها ، مما زاد في قيمة حياة الترف والسرف في دور السلاطين والطبقات القريبة منها .<sup>5</sup>

<sup>1</sup> . إيران والعراق في العصر السلجوقي : 178

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 179

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 179

<sup>4</sup> . المصدر السابق : 180

<sup>5</sup> . المصدر السابق : 181 بتصرف

ومن هنا كانت الحياة الاجتماعية على درجة من الرقي والازدهار رغم بعض العوامل التي كانت تنقصها كالفوارق الطبقية ، والفتن السياسية ، والحروب التي لا تكاد تنتهي مع الخصوم من الداخل والخارج .

## المبحث الثاني

### الحياة السياسية بخوارزم

#### المطلب الأول : الدول التي حكمت هذا الإقليم

وقد خضعت تلك البلاد للحكم العربي الإسلامي مدة ، ثم آل الأمر فيها إلى ثلاث دول أعجمية إسلامية متتابعة :

أ — أولها الدولة السامانية<sup>1</sup> من سنة : 261 هـ — إلى سنة : 389 هـ وقد نشأ السامانيون في بلخ ، واتخذوا بخارى عاصمتهم ، واجتذبت عاصمتهم بخارى كثيرا من العلماء والشعراء ، وكانوا حماة لأهل السنة ، وفي عهدهم ألف كتاب في العقائد باللغة العربية لوقاية العامة من الرافضة ، ثم ترجم إلى الفارسية — وهي لغتهم الرسمية — وفي عهدهم أيضا ترجم تفسير الإمام أبي جعفر الطبري المعروف بجامع البيان إلى الفارسية ، وقد قضى محمود بن سبكتكين الغزنوي على دولتهم سنة : 389 هـ —

<sup>1</sup> . وقد وافقهم محمود بن سبكتكين مرات متعددة في هذه السنة (389 هـ) حتى أزال اسمهم ورسمهم عن البلاد بالكلية ، وانقرضت

ب - وثانيها الدولة السلجوقية<sup>1</sup> العظمى من سنة : 429هـ - إلى : 552هـ التي امتلكت دولة خوارزم سنة : 434هـ - ثم خراسان وبلاد الري وأصبهان وأدربيجان ، وقد عاصر الزمخشري من ملوكها :

1 - جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ( 465 - 485هـ )

2 - ناصر الدين محمود ( 485 - 487هـ ) .

3 - ركن الدين أبو المظفر بركياروق ( 487 - 498هـ ) .

4 - ركن الدين ملكشاه الثاني ( 498 - 498هـ ) .

5 - غياث الدين أبو شجاع الدين محمد ( 498 - 511هـ ) .

6 - معز الدين أبو الحارث سنجر ( 511 - 552هـ ) .

ثم انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم .

ويرتبط إسم هذه الدولة باسم وزيرها نظام الملك الذي استوزره أرسلان ، فقام بالتدبير والإصلاح خير قيام<sup>2</sup> إلى أن قتل الوزير سنة : 485هـ - ومات السلطان بعده بنحو شهر ، فأفلت شمس آل سلجوق ، ونشبت الفتن بين كبارهم وحكموا السيوف فيما بينهم ، فكانت النتيجة سقوط دولتهم ، وقيام الدولة الخوارزمية .

ج - وأما الدولة الثالثة التي حكمت خوارزم فهي الدولة الخوارزمية<sup>3</sup> التي قامت على أنقاض دولة آل سلجوق ، وتنسب هذه الدولة إلى " نوشتكين " أحد الأتراك في بلاط ملكشاه السلجوقي ، أما مؤسسها الحقيقي فهو ابنه محمد الذي عينه أحمد قسواد السلطان بركياروق السلجوقي ، وقد جعلت هذه الدولة الناشئة تمتد وتقوى إلى أن كتب لها الهيمنة والغلبة .

وكان الخوارزميون يتطلعون إلى تكوين دولة إسلامية عظيمة ترث الدويلات الإسلامية والإمارات المتناثرة المفككة ، وهكذا خلف الخوارزميون السلاجقة على فارس وخراسان والعراق ، واستولوا على بلاد ما وراء النهر.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . البداية والنهاية : 43/12 .

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 140/12 .

<sup>3</sup> . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ط5 ، 1985م ، ص : 143/12 .

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 143/12 وما بعدها .

أما عاصمتهم فكانت تارة مرو — عاصمة خراسان — وتارة سمرقند — عاصمة بلاد ما وراء النهر — وحيناً أصفهان كبرى مدن العراق العجمي .<sup>1</sup>  
أما سلاطين الدولة فهم ثمانية ، وعاصر الزمخشري منهم ثلاثة :

- 1 — نوشتكين ( 470 — 490هـ ) .

- 2 — قطب الدين محمد ( 490 — 521هـ ) .

- 3 — آتسز ( 521 — 551هـ ) .

ومن هنا يتجلى أن الزمخشري قد عاصر تأسيس الدولة ، لأنه عاش فيما بين ( 467 — 538هـ ) ولكنه لم يدرك سقوط آل سلجوق وقيام الخوارزميين مقامهم ، إذ كانت نهاية السلاجقة سنة: 552هـ ، وهذا يقودنا إلى الكلام بشيء من التفصيل عن الدولة السلجوقية التي عاش في ظلها المفسر الزمخشري .

وقد ظهرت الدولة السلجوقية على مسرح الأحداث كقوة مهيمنة في بلاد المشرق ، وكانت تنتظرها يومئذ مهام وتحديات كبيرة في ذلك الإقليم المترامي الأطراف .

ويذكر المؤرخون أن هذه الدولة قد عرفت أوج قوتها في عهد السلطان جلال الدين والدولة أبي الفتح ملكشاه ، ابن أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق التركي ، ملك بعد أبيه ، وامتدت مملكته من أقصى بلاد الترك ، إلى أقصى بلاد اليمن ، وراسله الملوك من سائر الأقاليم ، حتى ملك الروم ، وكانت دولته صارمة ، والطرقت في أيامه آمنة ، وكان مع عظمته يقف للمسكين والضعيف ، والمرأة ، فيقضي حوائجهم ، وقد عمر العمارات الهائلة ، وبني القناطر ، وأسقط المكوس والضرائب ، وقد كانت له أفعال حسنة ، وسيرة صالحة .<sup>2</sup>

### المطلب الثاني : أسباب سقوط دولة السلاجقة

وبالرغم من أسباب القوة التي كانت تتمتع بها دولة السلاجقة ، فإن هناك عدة عوامل داخلية وخارجية كانت تعوق استمرارها ، وتعرقل جهودها ، وتعكس صفو الحياة

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 145/12

<sup>2</sup> . ابن كثر ، البداية والنهاية : 142/12 بتصرف .

السياسية والفكرية والاجتماعية فيها ، إلى أن أدت إلى اضمحلالها وزوالها بعد قرنين من ملكها وسيادتها ، ونذكر من هذه العوامل ما يأتي :

أ - الصراعات الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة :

ما أن قتل الوزير نظام الملك على يد الباطنية<sup>1</sup> ، ومات بعده السلطان جلال الدين ملكشاه بشهر ، حتى بدأت نار الفتنة تنهب هذه المملكة وتنقصها من أطرافها .

( حيث كان اختيار الشخص الذي يجلس على عرش السلاجقة بعد ملكشاه المشكلة الأولى التي مزقت وحدة السلاجقة ، وأشعلت نار الحروب الداخلية في دولتهم . فقد احتدم الصراع بين ابني ملكشاه ، وهما بركياروق - الابن الأكبر - من زوجته العربية زبيدة خاتون ، وأما محمود - الابن الأصغر لملكشاه - فكان من زوجته الأميرة التركية ترکان خاتون .

ولم يكد القتال من أجل الظفر بعرش السلاجقة ينتهي بانتصار معسكر بركياروق ، وانفراده بالعرش ، حتى بدأ التنازع على الوزارة يأخذ أبعاده بين الطامعين فيه من أبناء نظام الملك ..<sup>2</sup>

وكان نظام الملك طوال المدة التي تولى فيها الوزارة ممسكا بزمام الأمور في دولة السلاجقة المترامية الأطراف ، حيث أشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة في الداخل والخارج ، واستطاع بحسن سياسته ودقة تدبيره أن يجعل الأمور منظمة في جميع أنحاء البلاد ، وأن يخذ الفن التي أطلت برأسها بين حين وآخر طوال مدة وزارته ، وأن يجعل السلاجقة أكبر قوة في العالم الإسلامي ، ويكسبهم احترام المسلمين وتقديرهم ، ويث في نفوس غير المسلمين رهبتهم ، فتحشيم الروم وسائر الدول النصرانية ، وقبل قياصرة الروم - وهم صاغرون - أن يدفعوا الجزية للسلاجقة لمدة خمسين عاما .

وقد سجل نظام الملك آراءه في السياسة ونظم الحكم في كتابه المشهور " سياستنامه " الذي ألفه في هذا الموضوع ، وقد حظي هذا الكتاب بشهرة واسعة ، فأصبح مرجعا ، للدارسين وترجم إلى كثير من اللغات الحية في العالم .<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . الكامل في التاريخ : 160/8

<sup>2</sup> . إيران والعراق في العصر السلجوقي : 86

<sup>3</sup> . المصدر السابق ، : 87



ويستطيع الدارس بعد هذا أن يتصور الأثر الذي يتركه اختفاء وزير مثل نظام الملك في دولة السلاجقة ، ( فقد أدى مصرعه إلى زلزلة أركان الدولة زلزالا شديدا ، وإلى انتكاسها انتكاسا عنيفا ، فبدأت صفحة جديدة من تاريخها ، حيث انتهى عصر التماسك والقوة ، وبدأ عصر التفكك والضعف والانهيار )<sup>1</sup>

ومن هنا فإن الصراع والانقسام في هذه المرة كان أشد خطورة ، لأنه حدث داخل معسكر بركياروق نفسه ، وقد ظهر التنافس على الوزارة بين ابنين من أبناء نظام الملك ، فلم تمض على هذا الصراع بضع سنوات حتى أمك صرح دولة السلاجقة ، وأغرى بها الأعداء من الباطنية من الداخل ، والصليبيين من الخارج .

### ب - الفرق الدينية المخالفة :

حين ظهر السلاجقة كان المذهب السني مضيقا عليه سواء في داخل الدولة العباسية ، أو في خارجها ، ففي الداخل كان يسيطر بنو بويه ، وكانوا من غلاة الشيعة ، أما في الخارج فكانت مصر وسورية وبلاد العرب يحكمها الفاطميون الذين لم يكتفوا باتخاذ التشيع مذهبا رسميا داخل دولتهم ، بل عملوا على بث دعائهم في سائر أنحاء الدولة العباسية ، ولا سيما في إيران . وكان السلاجقة متحمسين للمذهب السني ، فتعمدوا للدفاع عنه بخاصة ، وعن الإسلام بعامة ، وعملوا على تحقيق ذلك بشتى الوسائل سواء بالقوة الحربية ، أو التنظيم الإداري السياسي ، أو التعليم والدعوة الموجهة ، فكانت أولى خطواتهم في هذا المجال القضاء على بني بويه ، وبذلك ثبتوا السيادة الروحية للخلافة العباسية ، ثم توغلوا في بلاد الروم حيث نشروا الإسلام على المذهب السني ، وكسنت الخطوة الثانية أن لجأوا إلى الدعوة والتعليم ، وكانت أهم وسائلهم إلى ذلك إنشاء المدارس لتعليم فقه السنة وعلومها ، وبفضل السلاجقة صارت المدارس مؤسسات رسمية أو شبه رسمية ، ذات أنظمة وأهداف واضحة ، تعمل على تعليم الدين على المذهب السني ، ويختار لها مدرسون من أكفأ الفقهاء السنيين )<sup>2</sup>

وإذا كان السلاجقة قد استطاعوا القضاء على مخالفيهم من بني بويه ، فإن الأمر يختلف مع طائفة الباطنية ، أو الإسماعيلية ، حيث كانت من أكبر التحديات داخل إقليم

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 88

<sup>2</sup> . حسن باشا ، دراسات في تاريخ الدولة العباسية ، الناشر دار النهضة العربية القاهرة ، 1990م ، ص : 135 - 136

الدولة ، واستفحل خطرهما بشكل واضح في عهد رئيسها الحسن بن الصباح ( ت : 521هـ ) الذي تلقى بمصر أصول الدعوة الفاطمية ، ثم عاد إلى مرو ، واستولى على قلعة الموت سنة : 483هـ التي تقع في موقع حصين عسر المنال بنواحي قزوین ، ولم يلبثوا أن استولوا على قلاع أخرى ، ومكنوا لأنفسهم في إيران .<sup>1</sup>

وأخذ الباطنية يغفرون على المدن ، ويقطعون الطرق ، ويستولون على أموال الناس . ( وحين استفحل خطر الباطنية ، وجه نظام الملك جيشا لمواجهة قلعة الموت ، غير أن نظام الملك اغتيل على يد بعض الباطنية ، وهو عائد في طريقه من اصفهان ، فكان من جرائه أن تراجع الجيش السلجوقي دون أن يحقق أهدافه . ولقد حاول كثير من السلاجقة القضاء على الباطنية بعدئذ ولكن دون جدوى . )<sup>2</sup>

ولم يتم القضاء على الباطنية في إيران والعراق إلا على يد المغول ، أما الباطنية في الشام فقد قتل منهم السلطان السلجوقي الكثير ، وقد مدحه الزمخشري في ذلك بقصيدة جميلة ، ولكنه لم يتم إخضاعهم إلا عن طريق دولة المماليك .

### ج - الحملات الصليبية :

وقد واجه السلاجقة - منذ عصر السلطان بركياروق - خطرا آخر غير الخطر الإسماعيلي ، ألا وهو الخطر الصليبي ، وكان خطرا خارجيا جاءهم من الغرب ، (ذلك أن الروم أغراهم تفرق السلاجقة ، وانشغالهم بالحروب الداخلية ، فتحركوا ليأخذوا الثأر لأنفسهم من هزيمتهم على أيدي السلاجقة في موقعة " ملازكرد " في عام : 463هـ - وتحالفوا مع الدول الأوربية النصرانية ، وصبغوا هجومهم على بلاد المسلمين بصبغة دينية ، فرفعوا الصليب شعارا ، وأعلنوا أن المسلمين يمنعون النصارى من زيارة بيت المقدس ، وأخذوا يرسلون الحملات الحربية لغزو بلاد المسلمين في آسيا الصغرى ، وفي بلاد الشام ، وقد كانت الحملة الأولى سنة : 487هـ واستمرت هذه الحملات أكثر من قرنين من الزمان ، وكانت لها نتائج خطيرة بالنسبة للعالم الإسلامي في عصر السلاجقة ، وما زالت بعض آثارها باقية إلى العصر الحاضر . )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 140

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 141

<sup>3</sup> . إيران والعراق في العصر السلجوقي : 109

ونظرا لانقسام السلاجقة على أنفسهم ، واستمرارهم في سياسة الصراع ضد الذات ،  
وتقدم مبدأ المصلحة الشخصية في توجيه هذا الصراع ، فإن ذلك كله مكن للصليبيين من  
اجتياح بلاد المشرق في ظرف وجيز ، واستطاعوا أن يستولوا على بيت المقدس في سنة  
492هـ أي بعد سبع سنوات فقط من بداية الصراع الداخلي في الأسرة الحاكمة  
للسلاجقة .<sup>1</sup>

فكانت تلك الأسباب مجتمعة كافية للتعجيل بنهاية هذه الدولة القوية ، لتحل محلها  
دولة خوارزم ، ولكن بعد أن سلخ الصليبيون أقاليم معتبرة من أطرافها .

### المبحث الثالث

#### الحركة العلمية في عصر السلاجقة

كانت الأجواء مهيأة لازدهار العلوم في خوارزم وما جاورها من الأقاليم الإسلامية  
مثل خراسان وما وراء النهر وغيرها ، للأسباب التي عرفناها من قبل كالأمن والرخاء ،  
والميل الشديد عند أهل المنطقة لحب تحصيل العلم ، وتشجيع السلاطين لطلاب العلم  
والعلماء .

وقد وصفهم المقدسي بأنهم ( أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب ، وقال : إنني قلما  
لقيت إماما في الفقه والقرآن والأدب ليس له تلميذ من خوارزم )<sup>2</sup>  
ويحسن بنا أن نذكر بما كتبه ابن خلدون في الفصل الثالث والأربعين من مقدمته " في  
أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم " حيث قال :

( من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، وليس في العرب  
حملة علم ، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، وإن كان منهم

<sup>1</sup> . انظر الكامل في التاريخ ، أحداث سنة : 492 هـ

<sup>2</sup> . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : 284

العربي في نسبه ، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيجته ، مع أن الملة عريية وصاحب شريعتها عربي ... وقد كنا قدما أن الصنائع من منتحل الحضرة ، وأن العرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم ، أو من في معناهم من الموالي ، وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ، فكان صاحب صناعة النحو سيويه ، والفارسي من بعده ، والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم في أنسابهم ، وإنما ربوا في اللسان العربي ، فاكسبوه بالمربي ومخالطة العرب ، وصبروه قوانين وفنا لمن بعدهم ، وكذا حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم ، أو مستعجمون باللغة والمربي لاتساع الفن بالعراق ، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف ، وكذا حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين ، ولم يتم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم ، وظهر مصداق قوله — صلى الله عليه وسلم — <sup>1</sup> : " لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس .. " <sup>2</sup>

وإذا استقرأنا التاريخ وجدنا ابن خلدون غير مبالغ في هذا الحكم ، فإن بلاد خوارزم ، وما حولها مثل نيسابور ، وبخارى ، ومرو ، ظلت تمد العالم الإسلامي بأجلة العلماء ، ولا شك أن أغلب مدوني الحديث والسابقين للتأليف في التفسير والمجتهدين في الفقه هم من أهل هذه البلاد ، نذكر منهم الإمام البخاري ت: 256هـ — نسبة إلى بخارى — والإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري ت: 263هـ — نسبة إلى نيسابور ، وهما صاحبا الصحيحين في الحديث ، وأبو حاتم الذي حكى عن نفسه أنه أخذ عن ألف شيخ بين الشاش — طشقند حاليا — والإسكندرية ، وهو سند كثير من المحدثين في حكمهم على رجال الحديث جرحا وتعديلا .

وإذا تصفحنا كتب الحديث والفقه وجدنا كثيرا من المحدثين والفقهاء ينسبون إلى مدن هذا الإقليم الشاسع ، فنجد مثل هذه النسب تتردد في كتب التراجم : مثل النيسابوري ،

<sup>1</sup> أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل سلمان الفارسي .

<sup>2</sup> ابن خلدون ، المقدمة دار الكتب العلمية ، بيروت ط 1 ، 1993م ، ص : 466 — 467

والهروي ، — نسبة إلى هراة — والزنجشري والبيهقي ، والخوازمسي ، والترمذي ،  
والبلخي ، والسمرقندي ، والشاشي ، والروزي — نسبة إلى مرو — والرازي وغيرها .  
كما ازدهر هذا الإقليم بكبار اللغويين والأدباء والشعراء الذين ملأت شهرتهم سمع  
الزمان ، ولعت أسماؤهم عبر القرون ، وغدت أسماؤهم وآثارهم معروفة عند العامة  
والخاصة على السواء . مثل :

— إسماعيل بن حماد الجوهري ت : 388هـ صاحب كتاب الصحاح ، وهو من أمهات  
كتب اللغة العربية المعروفة .<sup>1</sup>

— بديع الزمان الهمذاني ت : 398هـ صاحب المقامات التي حاكها الحريري فيما بعد ،  
وهي من الفنون النادرة في الأدب العربي .<sup>2</sup>

— أبو منصور عبد الملك الثعالبي ت : 429هـ كان كاتباً عالماً باللغة والأدب ، وقد  
أبدع في فن لم يسبق إليه في كتابه فقه اللغة ، إذ جعل من كتابه هذا معجماً للمعاني بدل  
أن يكون معجماً للألفاظ .<sup>3</sup>

— عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ وهو مؤلف كتاب " دلائل الإعجاز وأسرار  
البلاغة " الذي صار سنداً لمن جاء من بعده .<sup>4</sup>

إلا أن هذا لا يستلزم بالضرورة أن العرب لا يمكن بحال أن يكونوا بناء حضارة ، فقد  
تحدث القرآن عن حضارات عربية سادت ثم بادت في الشام ، وفلسطين ، والجزيرة العربية  
، ولا تزال آثار حضارة العرب المسلمين في الأندلس قائمة كشاهد على صحة قولنا ، وقد  
تحدثنا عن ذلك في فصل لاحق ، ولهذا فإن كلام ابن خلدون لا يفهم منه عدم وجود  
علماء أفذاذ من أصل عربي ، بل ربما يخرج كلامه من باب تغليب الغالب لا غير .

ويذكر المؤرخون للحركة الفكرية في دولة السلاجقة في عصر الزنجشري أنها تميزت  
بقلة الابتكار نسبياً ، ولكن كثرت الموسوعات في اللغة والنحو والبلاغة ، والشروح على  
الشعر خاصة ، وعلى النثر أيضاً ، واتسع التأليف في الجغرافيا والتاريخ ، وخصوصاً في

<sup>1</sup> . حماد بن إسماعيل المشهور ، صاحب القاموس المشهور تاج اللغة وصحاح العربية ، توفي سنة : 388هـ . بحية الرواة : 446/1 .

<sup>2</sup> . ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، دار صادر ، بيروت : 47/1 . وانظر البداية والنهاية : 340/11 .

<sup>3</sup> . وفيات الأعيان : 365/1 .

<sup>4</sup> . المقفلي ، إنباء الرواة على أنباء النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، : 188/2 .

طبقات رجال الأدب والعلوم الدينية ، وكذا العلوم العقلية كالفلسفة والرياضيات والطب .

وقد كان كبار الأدباء والعلماء الذين نظروا للعلوم وهذبوها ونقحوا مصنفاتها في هذا العصر .

منهم الخطيب التبريزي (ت: 502هـ) تلميذ أبي العلاء المعري ، والعالم البارغ في اللغة والنحو والأدب والحديث .

ومنهم الطغرائي (ت: 514هـ) الشاعر الحكيم ، وكان من المشتغلين بصناعة الكيمياء . ومنهم الحريري (ت: 516هـ) صاحب المقامات التي قلده فيها بديع الزمان الهمداني ، وقد صارت مقامات الحريري بعده النموذج الذي قلده جميع أصحاب المقامات بعده .

ومنهم الميداني النيسابوري ، (ت: 518هـ) صاحب " مجمع الأمثال " وغيرها . ومنهم كمال الدين ابن الأنباري ، (ت: 577هـ) صاحب نزهة الألباء في طبقات الأطباء " و " الإنصاف في مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين من النحاة " .<sup>1</sup>

ومنهم هبة الله أبو القاسم بن الحسن ، المعروف بالبديع الإسطرلابي ، الأديب الشاعر المنجم والعالم الطبيعي ، كما غلب عليه أيضا علم الكلام والفلسفة ، غير أنه اشتهر بصناعة الإسطرلابات - آلات الرصد الفلكي - ومن هنا جاء لقبه ، توفي ببغداد سنة : 534هـ .<sup>2</sup>

كما لمع في سماء هذا العصر من أسماء العلماء أيضا أبو الفتوح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني<sup>3</sup> ، وقد كان فقيها متكلماً على مذهب الأشعري ، وهو صاحب كتاب " الملل والنحل " .<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . انظر عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، لبنان ط 4 ، 1983م ، ص : 539 .

<sup>2</sup> . هبة الله بن الحسن بن يوسف الإسطرلابي ، أبو القاسم ، بديع الزمان ، أديب شاعر ، حكيم ، عارف بالطب والحجور ، والهيئة نشأ في أصمهان ، وتوفي ببغداد ، توفي سنة : 534هـ . وميات الأعيان : 244/2 .

<sup>3</sup> . ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أحوال من ذهب ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي دار الأمل الجديدة بيروت : 149/4 . وانظر وميات الأعيان : 610/1 .

<sup>4</sup> . انظر في تاريخ الحركة العلمية في هذا الإقليم لهذه الفترة : عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون : 539 .

وإذا أردنا أن نختص إقليم خوارزم بالبحث ، وجدناها مموج بالعلماء والأدباء منذ عاش هناك أخلاط من الفرس والعرب والترك ، وازدادت ثراء منذ قيام الدولة الخوارزمية التي ورثت ثقافات هؤلاء جميعا .

( ولقد شجع السلاطين من آل سلجوق والدولة الخوارزمية العلماء والأدباء خاصة ، وازدانت دولتهم بكثير منهم ، فعمروا قصورهم بالعلماء والشعراء والأدباء مسن فرس وعرب ، وقربوهم إليهم ، وأغلقوا عليهم ، وفتحوا المدارس ، وشجعوا الرعاظ ، على الرغم من أن معظمهم كان تركيا قليل المعرفة باللغة العربية . )<sup>1</sup>

وقد كانت النشأة الأولى للزنجشيري في عهد حكم جلال الدين أبي الفتح ملكشاه ( 465 — 485هـ ) وهي الفترة التي تلقى فيها تكوينه العلمي الأول قبل أن يخرج من خوارزم ، وهي فترة خصبة في تاريخ هذا الإقليم مما هيا له ظروفًا حسنة للتعليم للتحصيل ، وقد وصف أهل السير ممن عاصروا هذا الحاكم بأنه ( كان ملكًا سيرته العادل ، وسريرته الإنصاف والفضل ، شجاعًا مقدامًا صائب الرأي والتدبير ، حقيقًا بالتاج والخاتم والسوير ، أيامه في أيام آل سلجوق كالواسطة في العقد ، لم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه ، وقهر العدو وفدحه ، ووضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبرًا إسلاميًا . )<sup>2</sup>

( وفي أيامه نشأ للناس أولاد نجباء ، وتوفر على تهذيب الأبناء الآباء ، فيحضرهم في مجلسه ، ويحفظوا بتقريبه ، فإنه كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له ، ومن وجد في بلده قد تميز في العلم بنى له مدرسة ، ووقف عليها وقفًا ، وجعل فيها دار كتب .

وفي عصره نشأ طبقات الكتاب الجياد ، وفرعوا المناصب ، وولوا المراتب ، ولم يزل بابهم يجمع الفضلاء ، وملجأ العلماء ، وكان نافذا بصيرا ، ينقب عن أحوال كل منهم ، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاءه ، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ، ورتب له ما يكفيه من جدواه ، حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره ، وتدریس الفضل وذكره ، وربما سهر إلى إقليم خال من العلم ليحلي به عاطله ، ويجني به حقه ويميت باطله . )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . الزنجشيري : 16

<sup>2</sup> . ابن حاتم الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، دار الأمان الجديدة ، بيروت ، ط 2 ، 1968م . ص : 56

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 59

وكان السلاجقة أعظم رعاية للعلوم والآداب بفضل الوزير نظام الملك الذي وزر لألب أرسلان ( 455 — 465هـ ) ولابنه ملكشاه الذي سبق ذكر سيرته ، وهو عالم درس الحديث وعلوم السنة في طوس لمدة أكثر من عشر سنوات ، واشتغل بالقراءات والتفقه على مذهب الشافعي ، كما درس الأدب واللغة والنحو ، مما حبيب إليه العلم .<sup>1</sup>

( فكان ينقب عن الممتازين من طلبة العلم ، فيوفر لهم كل الأسباب المشجعة على النبوغ والتفوق في العلوم ، ولما كثرت الأموال في خزانة الدولة ، خصص فيها لأرباب العلوم حقوقا لا تؤخر ، وصير هذه الحقوق ثابتة لهم ، وميراثا لأبنائهم ، وإليه تنسب للمدارس النظامية التي أنشأها في أمصار شتى لتعليم الحديث . )<sup>2</sup>

ولم تقتصر عناية سلاطين آل سلجوق على خدمة طلبة العلم والعلماء فقط ، بل تجاوزت ذلك إلى العناية بإنشاء المكتبات الفريدة في نوعها في ذلك العصر .

وقد وصف ياقوت الحموي مدينة مرو ، وتقديره لكتبها التي انتفع بها في مولفاته فقلل : ( فيها عشر خزائن للوقف ، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان في الجامع ، إحداهما يقال لها العزيزية ، فيها إثنا عشر ألف مجلدا ، والأخرى يقال لها الكمالية ، وكانت سهلة التناول ، لا يفارق مترلي منها مائتا مجلد أكثرها بدون رهن .

وقد أنساني حبها كل بلد ، وألهاني عن الصحب والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب — معجم البلدان — وغيره فهي منه . )<sup>3</sup>

وفي هذا المناخ الذي كان طلبة العلم يجلبون كل عناية وتشجيع ، كثر التنافس والازدحام على أبواب دور العلم ، حتى أصبحت تلك الأقاليم تقذف بنوابغ العلماء والحكماء والمبدعين في أكثر من علم وفن ، ويكفي للدلالة على كثرة العلماء ورفعتهم ، وتمكينهم من أداء رسالتهم ما ذكره النسوي في سيرة السلطان محمد بن تكش : ( وهو أنه سمى إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز البخاري ، المعروف بصدرجهان ، رئيس الحنفية ببخارى ، وخطيبها المقدم ، وكان في جملة من يعيش في ظل

<sup>1</sup> . انظر البداية والنهاية : 140/12 بتصرف .

<sup>2</sup> . الكامل في التاريخ : 26/10 . وتاريخ آل سلجوق : 54 .

<sup>3</sup> . معجم البلدان : ترجمة " مرو " .



برهان الدين وإدارته ما يقارب سنة آلاف فقيه ، وكان كرميا يقصده العلماء  
والفضلاء .<sup>1</sup>

قال الدكتور حسن إبراهيم حسن في " تاريخ الإسلام " : ( وهذا المورخ — وهو النسوي  
— يعد حجة في تاريخ فترة من فترات الدولة الخوارزمية ، فوق أنه اشترط في سلك  
الوظائف في دولتهم في عهد جلال الدين منكبرتي بوجه خاص ، وكان من أبرز رجال  
هذه الدولة .<sup>2</sup>

( وقد تميز الخوارزميون بما يميز به للمشاركة عامة ، وهو التأثير بالفلسفة والمنطق وعلم  
الكلام ، ويظهر أن طول ممارستهم للعلوم العقلية هي التي أفرزت علم البلاغة بقواعدها :  
علم البيان والمعاني والبديع .<sup>3</sup>

ولذلك فقد نشطت الفلسفة في هذا الإقليم نشاطا كبيرا ، وكان من رواد هذا النشاط  
بجموعة من الأعلام نذكر منهم :

— أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي ، (ت: 317هـ) وهو من بلخ ، وإمام من أئمة المعتزلة ،  
وله مذهب خاص يقال له : الكعبية<sup>4</sup>

— وأبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، (ت: 322هـ) ، وكان أبو زيد البلخي هذا يقال لسه  
بالعراق " جاحظ خراسان" ، له مؤلفات كثيرة تبلغ التسعين ، منها : أقسام العلوم ،  
وكتاب السياسة ، وصناعة الشعر ، ورسالة حدود الفلسفة ، وكتاب نظم القرآن ،  
وغيرها .<sup>5</sup>

— وأبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنة : 28هـ — وقد درس الفلسفة اليونانية  
منذ الصغر ، ثم درس الطب ، وقرأ من الكتب ما لم يقع لكثير من الناس .<sup>6</sup> ومنهم أيضا  
أبو حامد الغزالي الطوسي الذي مزج بين قضايا الفلسفة والتصوف .<sup>7</sup>

1 . الرعشري : نقلا عن سورة السلطان منكبرتي : 68 .

2 . تاريخ الإسلام : 93/4 .

3 . الرعشري : 21 بتصرف .

4 . الشهرستاني ، الملل والنحل ، دار المعرفة ، لبنان ، 1983م : 73/1 .

5 . بغية الرعاة : 311/1 .

6 . ابن كثر ، البداية والنهاية : 42/12 .

7 . وفيات الأعيان : 586/1 .

— أبو القاسم محمود بن عبد العزيز العارضي الخوارزمي ، الملقب بشمس الدين ، كسان من أفاضل الناس في عصره في اللغة والأدب ، وتخطى إلى الفلسفة فصار مفتونا بها ، وكان الزمخشري يدعوه بالجاحظ ، وقد أقام مدة في خوارزم مكرما عند سلاطينها ، ثم ارتحل إلى مرو ، ومات بها سنة : 521هـ .<sup>1</sup>

وكان من بين الأعمال العلمية التي قام بها نظام الملك وخلدت ذكره بناء مرصد فلكي سنة: 467هـ ، — وهي سنة ولادة الزمخشري — جمع فيه علماء الفلك في ذلك العصر ، وكلفهم بإصلاح تقويم السنة الفارسية ، وبالفعل تم وضع أصول " التقويم الجلالى " نسبة إلى ملكشاه الذي كان يلقب بجلال الدين ، ويعتبر هذا التقويم أدق في بعض الوجوه من التقويم المتبع حاليا ، ومما تجدر الإشارة إليه أنه أسهم في وضع هذا التقويم الشاعر الفلكي الشهير عمر الخيام (ت: 517هـ) الذي شمله نظام الملك بحسن رعايته .<sup>2</sup>

ولا شك أن في هذا ما ينبى عن درجة ازدهار العلوم العقلية والتطبيقية في عصر السلاجقة ، كما ينبى أيضا عن عبقرية هذا الوزير ، وأثره في كل مظاهر هذه الحركة العلمية ونواحيها.

## المبحث الرابع

### موقع المعتزلة من هذه الحركة العلمية

كانت العراق وخراسان وما جاورها من البلاد الفارسية موطننا للشيعة ، و كسان المعتزلة كثيرة في هذه الأقاليم ، لأنهم يلتقون مع الشيعة في كثير من الآراء السياسية

<sup>1</sup> . بنية الرعاة : 279/2 .

<sup>2</sup> . دراسات في تاريخ الدولة العباسية : 134 .

والعقدية . ولقد كان الصاحب بن عباد<sup>1</sup> من أبرز وزراء البويهيين ، وكان معتزليا مجسما  
باعتراله ، فمكن للمعتزلة وولاهم المناصب ، وهو الذي عين شيخ المعتزلة في زمانه عبد  
الجبار في منصب قاضي القضاة .<sup>2</sup>

قال المقدسي : ( ثم ذاع الاعتزال بالشرق حتى لقد كان أكثر الشيعة في بلاد العجم  
معتزلة ، وأكثر فقهاءهم على الاعتزال ، وكثيرا ما وقعت المشاحنات بين العامة بسبب  
ذلك ) .<sup>3</sup>

إلا أن للمعتزلة سرعان ما نكست أعلامهم ، وأفلت شمس علمائهم بذهاب الدولة  
البويهية ، ومجيء السلاجقة ، وما أن جاء عصر الزمخشري حتى صاروا في قلة وضعف عبر  
عنه في مقدمة كشافه بقوله :

( ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفرقة الناجية العدلية ، الجامعين بين علم  
العربية والأصول الدينية ، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من  
الحجب ، أفاضوا في الاستحسان والتعجب ، وتطهروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من  
ذلك ، حتى اجتمعوا إلي مقترحين أن أملي عليهم " الكشف عن حقائق التبريل .."  
فاستعفيت ، فأبوا إلا المراجعة والإستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد ، والذي  
حداني إلى الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علي واجبة ، ، لأن الخوض فيه  
كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاة أحواله ، وركاكة رجاله ، وتقاصر همهم عن  
أدنى عدد هذا العلم .. ولما صمم العزم على علي معاودة حوار بيت الله ، والإناحة بحرم  
الله ، فتوجهت تلقاء مكة ، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها —  
وقليل ما هم — عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملئ ، متطلعين إلى إيناسه ، حراسد  
على اقتباسه ، فهز ما رأيت من عطفي ، وحرك الساكن من نشاطي .. )<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . هو إسماعيل بن عباد بن عباس بن عباد ، المعروف بالصاحب ، لأنه صاحب الوزير أبا الفضل بن العميد ، كاتب أدب ، شاعر  
متكلم ، توفي سنة : 385 هـ . بالموت الحموي ، معجم الأدباء ، تحقيق فريد عبد العزيز الهندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1  
: 168/6 .

<sup>2</sup> . ظهر الإسلام : 44/4 .

<sup>3</sup> . أحسن التقاسيم : 395 .

<sup>4</sup> . مقدمة للكشاف .

فقد كان الزمخشري بقية علماء المعتزلة الذي يلوذون به ، ويعبرون به عن بقائهم ، وامتداد وجودهم .

ومن هنا ظل انتشار المعتزلة في حركة بين مد وجزر بسبب التحولات السياسية والفكرية ، فيذكر ابن خلكان مثلاً أنهم انقمعوا منذ تولي المتوكل الخلافة ، ولما ظهر أبو الحسن الأشعري ازدادوا انقماصاً ، لأنه كان معتزلياً ثم انشق عن المعتزلة ، وفند كثيراً من آرائهم ، والتزم حداً وسطاً بين السنية والمعتزلة ، فلم يكن يعول على المنقول وحده كأهل السنة ، ولا على العقل وحده كالمعتزلة ، حتى ليعبر أبو بكر الصوري عن هذا بأنهم رفعوا رؤوسهم فلما أظهر الله الأشعري حجرهم في أقماع السمسم .<sup>1</sup>

ولكن خوارزم مع هذا كله كان يغلب عليها الاعتزال ، حتى لينذر أن نجد خوارزمياً ليس معتزلياً ، فإن كان غير معتزلي وأراد أن ينفي الاعتزال عن نفسه أكد نفيه ، كما نجد في وصف ياقوت للقاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي<sup>2</sup> ، قال : ( سألته عن مولده فقال : مولدي سنة خمس وخمسين وخمسائة ، وحضرت بمكة في خوارزم فرأيت منه صدراً يملأ الصدر — يريد رئاسة وتقدماً يملأ القلب — ذا بهجة سنية وأخلاق هنية ، وبشر طليق ، ولسان طليق ، فملاً قلبي وصدري . فقلت له : ما مذهبك ؟ فقال : حنفي ، ولكن لست خوارزمياً ، لست خوارزمياً — يكررها — إنما اشتغلت ببخارى ، فأرى رأي أهلها ، نفي عن نفسه أن يكون معتزلياً .<sup>3</sup>

وقد جعل الزمخشري اعتزال الخوارزميين من أعظم فضائلهم ، وهو مصيب في هذا الحكم ، لأن الاعتزال شاع بينهم ، حتى إن عوامهم يدينون بأن القرآن مخلوق .<sup>4</sup>

وظلت خوارزم عامرة بعلمائها وأدبائها قبل الزمخشري وبعده ، إلى أن اجتاحتها التتار سنة : 618هـ — فدمروها<sup>5</sup> ، وبددوا كثيراً من نفائسها وذخائرها ، على غرار ما فعلوه في باقي الأقطار التي دخلوها في العالم الإسلامي ، مما أوقع ركوداً في الحياة العلمية والأدبية امتدت آثاره عبر عشرات من السنين .

تلك نبذة مختصرة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية في دولة آل سلجوق التي عاش الزمخشري في كنفها ، وهي البيئة التي نشأ فيها وتفاعل مع أحوالها ، وهذا ما سنعرفه في الفصل اللاحق إن شاء الله .

<sup>1</sup> . ابن خلكان ، وفيات الأعيان : 447/2

<sup>2</sup> . انظر بهجة الرعاة : 252/2

<sup>3</sup> . معجم الأديباء : 238/6

<sup>4</sup> . أحسن التقاسيم : 395

<sup>5</sup> . البداية والنهاية : 91/13 .

## الفصل الثاني

### حياة الزمخشري

# المبحث الأول

## مولده ونشأته العلمية

### المطلب الأول: مولده ونشأته

نسبه : هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد ، وقد كانت كنيته أبا القاسم ، وإن لم يكن له ولد ، وأما تلقبه " جار الله " فلأنه جاور زمانا بمكة فكان يعتز بهذه الإقامة جوار البيت الحرام ، كما غلب عليه لقب الزمخشري نسبة إلى بلده الذي ولد ونشأ به .  
مولده وأسرته : قال الزمخشري : وأما المولد فقد كان بقربة مجهولة يقال لها زمخشر ، وهي قرية من قرى خوارزم .<sup>1</sup>

وفي ديوانه الشعري شيء من الترجمة الذاتية له ولأسرته ، حيث يتحدث عن بيته الذي نشأ فيه ، وأنه بيت تقوى واستقامة ، لم يذق الحمرة هو ولا أبوه ، ولا أحد من أفراد أسرته ، وأن الناس يعرفون ذلك ويشهدون به .<sup>2</sup>

هات التي شبت ظلما بشمس ضحى لو عارضتها لفظتها بإشراق  
أستغفر الله أني قد نسيت لها ولم أكن لحماها يوما بدواق  
ولم يذقها أبي كلا ولا أحد من أسرتي واتفاق الناس مصداقي

كما يصف أباه بأنه كان عالما ورعا ، وقد كان قدوته في الحياة ، أخذ عنه العلم مثلما ورث عنه حسن السلوك والاجتهاد في العبادة ، وأن موته كانت فقداننا لذلك النموذج الإيماني الذي كان يحتذي به ، ولئن كان أبوه فقير اليد ، وغير متمسك في عرض الدنيا ، فقد عوضه الله عن ذلك بالحلم والفضل والمروعة .<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . زمخشر : يفتح أوله وثانيه ، ثم جاء مصححة وساكحة . معجم البلدان : 165/3

<sup>2</sup> . الصاوي الجويني ، منهج الزمخشري في تفسير القرمان وبيان إعجازها ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3 ، ص : 25 مثلا عن محطوط

ديوان الأدب للزمخشري ، ورقة : 85

<sup>3</sup> . المصدر نفسه ، ورقة : 72

فقدته فاضلا فاقت مائسره العلم والأدب المأثور والسورع  
أخا طباع مصفاة مناسبة ماء السحابة ما في بعضها طبع  
صام النهار وقام الليل وهو شج من خشية الله كابي اللون ممتنع  
قريب عهد بوخط الشيب عارضه إثر الشباب ووصف الليل متبع  
من المروعة في علياء متسع صدرا وإن لم يكن في المال متسع

ويبدو أن رحلات الزمخشري المبكرة والمتواصلة قد حالت بينه وبين كثير من أقاربه ، فتخطف الموت عددا منهم في فترة وجيزة ، وهو بعيد عنهم ، مما زاد في حزنه وشدة معاناته ، فقد باغته الموت في أبيه من غير أن يتمتع بطول قربه ووصاله<sup>1</sup> :

وإن مما قراني حسرة وأسى وضافني الكرب من جراه والوجع  
أن عاقني شحط دار عن تفقده حتى مضى وهو من ذكراتي ملتدغ  
يا حسرتا أنني لم أرو غلته وغلتي بزمان فيه تجتمع  
قد كنت أشكو فراقا قبل منقطعا وكيف لي بعده بالعيش منتفع

وفي نفس الظروف تصيد الموت أفرادا من أقاربه ، كانوا ملاذا له بعد فقد أبيه ، وفي ذلك يقول<sup>2</sup> :

ما للنواب لا ينفك ديدنها عني ومهجرتها فهري وإذلاي  
أودت بجدي وما أبقت أخي وطوت عمي وصادت بأسباب الردي خالي

## المطلب الثاني : رحلات الزمخشري العلمية

<sup>1</sup> . المصدر نفسه ، ورقة : 100

<sup>2</sup> . المصدر نفسه ، ورقة : 114

أخذت الرحلات من حياة الزمخشري قسطا وافرا ، وبالرغم مما كان يعاني منه من عجز جسماني منذ عهد مبكر ، وهو فقدانه لأحد رجليه وتعويضها برجل من خشب ، فإن هذا لم يقعد به يوما ما عن الطلب والسعي في سبيل تحقيق طموحاته .  
ومن هنا لم يكن الغرض من تلك الرحلات علميا فقط ، لأنه قد ينبغ في كثير من العلوم ، وذاع صيته وسارت بذكره الركبان قبل أن يخرج من وطنه الأول ، فكان خروجه أول ما خرج رغبة بالظفر بمنصب يليق بمكانته ، ويسد حاجته ، لأنه كان من عائلة فقيرة الحال .

ويوم أراد الزمخشري الخروج من بلده طلبا لتحقيق طموحاته ، كانت الدولة الخوارزمية لا تزال في نشأتها ولاية تابعة للسلاجقة ، فصوب الزمخشري اهتمامه إلى الدولة الكبيرة التي كان يتولى شؤونها يومئذ الوزير نظام الملك ، ولا شك أنه كان يبلغه أخبار هذا الوزير ، واحتفاؤه بالعلماء والأدباء ، فاتجه إليه ، ومدحه بقصيدة طويلة ، إلا أنه كان مدحا على طريقة أبي الطيب المتنبي مع ممدوحه ، فسرعان ما انقلبت من غرض المدح إلى الحديث عن خصاله الشخصية ، وقدراته العلمية والأدبية التي توهمه ليل أعلى المنصب ، كما كان مدحه ممزوجا باللوم والعتاب لنظام الملك الذي لم يلق منه حظوة وتشجيعا يليقان بمقامه ، في حين كان السفلة من الناس يلقون كل عناية وتقريب ، وتوفير لأسباب الترف والنعيم ، ومما جاء في هذه القصيدة<sup>1</sup> :

خليلي هل تجدي علي فضائلي	إذا أنا لم أرفع علي كل جاهل
من الغبن ذو نقص يصيب منازل	أخو الفضل محقوق بتلك المنازل
كفى حزنا أن يرغم الحلم والحجى	تصدر باد طيشه غير عاقل
ومن لي بتحقي بعدما وفرت علي	أرادلها الدنيا حقوق الأمانل
كذا الدهر كم شوهاء في الحلبي جيدها	وكم جيد حسناء المقلد عاطل
ومما شجاني أن غر مناقبي	تغني هما الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي	وسارت مسير النورات رسائلي
وكم من أمال لي وكم من مصنف	أصابها ذهني محز المفاصل

<sup>1</sup> . الحوي : الزمخشري : 36 - 37 نقلا عن ديوان الزمخشري ، ورقة : 94



ولي في دقيق النحو والنقد منطق  
غني من الآداب لكتسي إذا  
فيا ليتني أصبحت مستغنيا ولم  
وما حق مثلي أن يكون مضيعا  
وأعظمها أني نسيب نصابه  
وقد كان يرعى الناس قبلي حقه  
أحظي منقوص ولست بناقص  
فلا ترض يا صدر الكفاة بأن ترى  
ولا تجعلوني مثل همزة واصل  
فكل امرئ أماله عند الحصى  
لئن كان أمري في خوارزم ما أرى  
وكم قلت ألقى في وزارتك المنى  
ولم أدر أن الأردلين يسرون ما

فلاحظ أن الزمخشري كان يخاطب ممدوحه بنفس عزيزة ، كذلك التي كان يخاطب بها  
المتني ممدوحه ، حيث كان يجذب إلى إظهار محاسن نفسه أكثر من إظهار محاسن  
ممدوحه ، فلا غرابة بعدئذ أن يلقي الزمخشري نفس النتيجة من تبرم ممدوحه وعدم تلبية  
حاجته .

وما كان نظام الملك ليزهد في شخصية علمية مثل الزمخشري لغير سبب ، وقد كسان  
بجلسه دائما عامرا بالفقهاء والعلماء ، بحيث يقضي معهم غالب فواره ، حتى قيل له ذات  
يوم : ( إن هؤلاء شفلوك عن كثير من المصالح ، فقال : هؤلاء جمال الدنيا والآخرة ، ولو  
أجلستهم على رأسي لما استكثرت ذلك )<sup>1</sup>

ومن جهة أخرى فإن إخفاقه قد يرجع إلى أن نظام الملك سني العقيدة ، تعلم الحديث  
وعلمه وأملاه ، وافتتح المدارس لتعليم الشريعة على مذهب أهل السنة ، ولكن الزمخشري

<sup>1</sup> . البداية والنهاية : 140/12

معتزلي ، مكاشف باعتزاله مشهور به ، والظاهر أنه السبب الرئيسي في عدم توليته ما يريد .

وحيث زهد في المقام بخوارزم ، حيث لا منصب ولا مال يكفل له رغد العيش ، فجمع العزم على الرحيل عن وطنه ، وهو كاره لهذا الفراق ، وقد سجل هذا الموقف في أبيات شعرية تفيض حزنا وحسرة على هذا الفراق المحتوم ، ومعيرا في الوقت نفسه عن سخطه على هذا الوضع في بلده الذي لم يتح له فرصة الظهور والتألق بما يكافئ مواهبه ، وتفوقه بين أقرانه فقال<sup>1</sup> :

أحب بلاد الله شرقا ومغربا	إلى التي فيها غدت وليدا
ولكن تواسى بالكرامة غيرها	وهذي أرى فيها الهوان عتيدا
وما منزل الإذلال للحر منزلا	وإن كان عيش الحرفيه رغيدا
سأرحل عنها ثم لست براجس	وأضرب مرمى في البلاد بعيدا
فلا كنت أن خيمت فيها ابن حرة	ولا عشت بين الصالحين حميدا

ويرى بعض الباحثين أن ما ذهب إليه الرمحشري في بعض قصائده من الاعتداد بنفسه ، والشكوى من ذلك الزمان الذي غمط أهل الفضل حقوقهم ، ورفع أهل الجهل وقدمهم ، إنما كان نابعا من تلك الظروف التي أفرزتها التغيرات السياسية والاجتماعية ، ( فآدى كل ذلك إلى فساد الأخلاق وانشغال الناس بأمورهم الشخصية ، والترويج لبضاعتهم ، عن طريق إظهار العلم والفضل ، والشكوى من بقاء قدر الواحد منهم مجهولا ، بينما علا شأن من هو أقل علما وشأنا ، فانتشر المهجاء والقذح إلى جانب مدح النفس ، واحتفت المبادئ القويمة والمثل الرفيعة في أكثر الأحيان ) .<sup>2</sup>

وهكذا غادر بلده الذي ولد ونشأ به ، إلى إقليم آخر من أقاليم الدولة السلجوقية وهو خراسان ، فاتصل ببعض رجال الدولة هناك ، ومدحهم ، منهم مجمر الدولة أبو الفتح علي بن الحسين الأردستاني ، نائب تاج الدولة على ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي الفتح ملكشاه ، وكاتب الرسائل المشهور في ذلك العصر ، وقد مدحه وعرض عليه بعض إنتاجه العلمي كعربون على مدى كفاءته ، وصور نفسه في ضيق من حاله ، وقد أحاطت

<sup>1</sup> . الرمحشري : 38 . نقل عن مخطوط ديوان الأدب ، ورقة : 37 .

<sup>2</sup> . إيران والعراق في العصر السلجوقي : 174 .

به الخطوب من كل صوب ، وأن ملجأه في بحمير الدولة ، لعله يرفع عنه بعضا من هذا الضيق والكرب فقال<sup>1</sup> :

مدواة أدواء وأسو جرائح	فعند بحمير الدولة المستجار لي
فارتع في نعمائه غير نازح	فليت رحالي ألقيت بفنائسه
إذا صلدت كل الزناد لقادح	ويقدح زندا واريا من مناقبي
يرى في صفاتي جملا أي شارح	وفي شرح آيات "الكتاب" لبعض ما
رحالي أرى فيه وجوه نجاسي	وأتمودجا أنفذت منه يضمه
عليه وحسي منه لحة لامع	أراقب من عين الوزير اطلاعة
ويبقى على الأيام ثوب المدائح	جميع ثياب الدهر يبلى جديدها

وقد كان الزمخشري على ثقة من كفاءته وأهليته لتلك المناصب ، وهذه مصنفاته تشهد له ، إذ يعرضها بين يدي مملوحة ليلقي فيها لحة من بصره ، ليعرف حاجة الدولة إلى مثله .

ولكن الزمخشري وقد مضى على نفس الأسلوب مع مملوحيه في خراسان ، فإنه لقى الصدود نفسه ، ولم تكن حاله بما أحسن مما كان عليه بنخوارزم ، فيمس من تحقيق بعض طموحه ، وارتحل إلى أصفهان ، عاصمة السلاجقة يومئذ ، وكان ملكها محمد بن أبي الفتح ملكشاه مشهورا بالعدل وحسن السيرة والشجاعة ، وهو الذي قضى على الباطنية ، وملك حصونهم ، وخرّب ديارهم ، ومحا آثارهم ، وهنالك مدحه الزمخشري بالعدل ونصرة الحق وحماية الإسلام فقال<sup>2</sup> :

محمد بن أبي الفتح الذي تركت	أوصافه لكنة في كل منطبق
ابن السلاطين من أبناء سلجوق	وابن الغضارف منهم والفرانيق
لله من عادل من حق سيرته	ونصره الحق أن يدعي بفاروق
مستوجب من جموع الشرك مبغضة	محبب في بني الإسلام مرموق

ومرت سنوات على الزمخشري وهو مقيم بعاصمة السلاجقة ، ولكن المصادر التي ترجمت له لا تذكر شيئا من توليته منصباً أو وظيفة في ظل سلاطين هذه الدولة ، بالرغم

<sup>1</sup> . الزمخشري : 39 ، نقل عن مخطوط ديوان الأدب : 23

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 40

من طول إقامته هناك ، ومدحه لأكثر من واحد من سلاطينها ، كان آخرهم معز الدين سنجر ( 511 — 522هـ ) وقد مدحه بقصيدة يبدو عليها التكلف والمبالغة ، ومعتمدا على طريقة القدماء في كثرة من المعاني التي كانت متداولة في مدائحهم ، فقال <sup>1</sup> :

سماه كل الناس كعبة سود	أهل الخوائج منهم حجاجها
وكأنما السلطان سنجر كعبة	للملك منتخب الملوك رتاجها
ركب السياسة وهي أصعب مركب	فتظامنت لركوبه أرتاجها
ألفته دونهم فما إجماعها	إلا على يده ولا إسراجها
لو أنه ركب النجوم لما نبئت	أفرادها عنه ولا أزواجها
جهم الحيا للعدا طلق إذا	ضيفانه نزلت به أفواجها
يجري إليهم سيبه بأنام	مثل البحار تلاطمت أمواجها

ولقد طال العمر بالزنجشري وهو يتطلع إلى تحقيق طموحاته ، وهاهو يقارب الخمسين من عمره وقد ضاعت تلك الأمان ، فأحس بأنه كان يطارد سرايا ، ولم يظفر بشيء من تلك الآمال في ذلك الإقليم الذي تحدث عنه المقدسي بأنه البلد الذي يبلغ فيه العلماء رتبة الملوك ، فراح يشكو حظه ، ويتنقد ذلك الزمان الذي قسا على أمثاله أشد قسوة <sup>2</sup> :

أشكو الزمان ولا أرى لي مشكيا	ممن يرى شعبي ورقة حسالي
يا حسرتا من لي بصفقة رابح	في متجر والفضل رأس المسال
يا ويح أهل العلم كيف تأخروا	والسبق كل السبق للجهال
في ذمة الأيام لي دين متسى	أستفضه لاقيت طول مطال
فإلى إلهي المشتكى وبصنعه	دون الأنام منوطة آمالسي

فرجع إلى نفسه وهو يعاتبها على ما فات وولى من أمره ، وكان الزنجشري قد نزل به مرض أفعله وأهلك قواه ، مما زاده حسرة ، فأجعه إلى ربه ضارعا لكن أنجاه من هذه ألا بطلا

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 40 الديوان ، ورقة : 20

<sup>2</sup> . الزنجشري : 73 نقلا عن مخطوط ديوان الأدب : 95

عنة سلطان ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن مدحهم ، وأن يعف عن التطلع لعطاياهم ، أو  
الحرص على تولي مناصبهم ، وأن يجبس نفسه على التأليف والتدريس والعبادة . وهنا  
طارت به أحلامه إلى مهوى الأفئدة — مكة — ليقيم بجوار بيت الله الحرام ، ويكفر عن  
ذلك الماضي الذي استلهم منه دروسا ومواعظ حمة ، فخرج قاصدا مكة — مرورا ببغداد  
— عازما على الإقامة هناك ، متمثلا بقوله <sup>1</sup> :

يا من يسافر في البلاد منقبا	إني إلى البلد الحرام مسافر
إن هاجر الإنسان عن أوطانه	فأله أولى من إليه يهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن يبع	بالدين دنياه فنعم التاجر
خربت هذا العمر غير بقية	فلعلني لك يا بقية عامر
في طاعة الجبار أبذل طاقستي	فلعلني فيها لكسري جابر
سأروح بين وفود مكة وأفدا	حتى إذا صدروا فما أنا صادر
بفناء بيت الله أضرب خيمتي	حتى نجل بي الضريح القابر
ألقي العصا بين الحطيم وزمزم	لا يطيبني إحوة وعشائر
ضيفا لمولى لا نخل بضيفه	وببذل أقصى ما عني الزائر
حسبي جوار الله حسبي وحده	عن كل مفخرة بعد الفاخر
سأقيم ثم وثم تدفن أعظمي	ولسوف يبعثني هناك الحاشر

ولما انتهى الزمخشري إلى مكة ، لقي هناك من ذوي الجاه والسلطة من يقدر قدره ،  
ويرعى علمه ومكانته ، إنه الأمير أبو الحسن علي بن حمزة بن وهاس الشريف الحسيني ،  
وكان ذا فضل وقرينة في النظم والنثر ، وصاحب مصنفات ، فحصل الانتفاع لكل واحد  
منهما بالآخر ، وتلاقحت أفكارهما ، فرحب بالزمخشري ، وأكرم نزله ، منوها بخصاله  
وعلمه ، مما حرك في نفس الزمخشري لوعة الشعر ، فمدح الأمير مدحا نبيا عن صدق  
العاطفة والتقدير والإمتنان له ، كما مدح ابن وهاس هو الآخر الزمخشري ، مقرا بما أفلده  
منه من علم ، ومنها قوله <sup>2</sup> :

<sup>1</sup> . الزمخشري : 42 نقلا عن ديوان خطوط الأدب ورقة : 42

<sup>2</sup> . معجم البلدان : 400/4

وكم للإمام الفرد عندي من يد  
أخي العزلة البيضاء والمهمة التي  
جميع قرى الدنيا سوى القرية التي  
فلولاه ما طن البلاد بذكرها  
فليس ثنها بالعراق وأهلها  
وهاتيك مما قد أطاب وأكثرها  
أنافت بها علامة العصر والورى  
تبوأها دارا فداء زمخشرا  
ولا طار فيها متجدا وغورا  
بأعرف منه بالحجاز وأشهرها

ولقد كانت إقامة الزمخشري بمكة نقطة تحول هامة في نظرته إلى الحياة ، وإلى النلس ،  
فرجع إلى نفسه يلومها ، ويتوجه إليها بنصائح نابغة من نظرة ملوها الزهد والتصوف ،  
وسجل هذه النصائح في بعض مقاماته وطبعها بهذه الأحاسيس ، منها مقامة الندم<sup>1</sup>  
ومقامة العفة<sup>2</sup> ، ومقامة الاعتبار<sup>3</sup> ، ومقامة الزهد<sup>4</sup> ، ومقامة العزلة<sup>5</sup> ، ومقامة  
التصير<sup>6</sup> ، ومقامة الخمول ، وفي هذه المقامة الأخيرة مثلا يقول : ( يا أبا القاسم ، يا أسفى  
على ما أمضيت من عمرك ، في طلب أن يشاد بذكرك ، ويشار إليك بأصابع بني عمرك  
، عنيت على ذلك طويلا ، فما أغنت عنك فتىلا ، وما أدراك يا غافل ما الكامل ؟  
الكامل هو العامل الخامل ، الذي هو عند الناس منكور ، وهو عند الله مذكور . )<sup>7</sup>  
وقضى الزمخشري نحو سنتين بمكة ، ينعم بقربه من ولي نعمته ابن وهاس ، ولولا  
الحنين الذي شده إلى زيارة وطنه ، ما كان يرغب في التحول عنها ، ولما طغى عليه الحنين  
خرج إلى بلده ، وما أن وصل إلى زمخشر وأقام بها زمنا ليس بالطويل حتى هزته أشواقه ،  
وتحركت في نفسه ذكريات جوار البيت الحرام ، وتلك الليالي التي كان يقضيها في أجواء  
من التبتل والعبادة لا يظفر بها في مكان آخر . فعزم على العودة إلى مكة ، ولما قيل له :  
زجيت أكثر عمرك هناك ، فما المرجب ؟ قال : القلب الذي لا أجده هنا أجده هناك .<sup>8</sup>

<sup>1</sup> . شرح مقامات الزمخشري : 128

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 118

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 60

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 44

<sup>5</sup> . المصدر نفسه : 108

<sup>6</sup> . المصدر نفسه : 167

<sup>7</sup> . المصدر نفسه : 247

<sup>8</sup> . القفطي : إنباه الرواة : 266/3

وقد سجل تلك الأحاسيس في أكثر من قصيدة من قصائده ، من ذلك قوله <sup>1</sup>:

بكاء على أيام مكة إن بي      إليها حين النيب فاقدة البكر  
تذكرت أيامي بما فكأنسي      قد اختلفت زرق الأسنة في صدري  
أبيت على الصخر المبارك هاكيا      كما أنت الخنساء تبكي على صخر

فخرج إلى مكة ليحدد تلك الأيام التي قضاهما في حوار البيت الحرام ، وحوار الأمر ابن وهاس ، وفي طريقه إليها عرج على الشام ، فمدح تاج الملوك هوري طفتكين — أحد سلاطين سلاجقة الشام — صاحب دمشق ، ولم يكن هذا المدح للزلفى أو لاستدرار عطاء ، بل لمواقفه المشهودة مع الباطنية ، حيث إنه قتل منهم آفا ، ولأنه كسر شوكة الصليبيين وهزمهم ، وصددهم عن دمشق سنة : 523هـ . <sup>2</sup>  
وقد طاب له المقام بالشام ، ف قضى هناك سنوات ، وقد مدح شمس الملك الذي خلف أباه سنة : 526هـ —

وفي السنة نفسها سلك الطريق إلى مكة فدخلها ، وقضى بها ثلاث سنوات ، ولقي فيها من ابن وهاس ما كان يلقاه من قبل من حفاوة وتعظيم ، وكان ابن وهاس يوافق في مذهبه ، فشجعه على تأليف تفسيره الكشاف كما نص على ذلك في المقدمة :  
ولقد كان له خير معين على تصنيف هذا التفسير الذي طالما تردد في كتابته ، فمدحه بقوله <sup>3</sup>:

بمكة آخيت الشريف وفتية      تواليه من آل النبي غطارفا <sup>4</sup>  
يتابع إن نوظرت رديا لشاغب      وينهض إن ذوكرت رديا مكاتفا  
متى أقبل العلامة انتفضوا له      وحيوه ، حيا الله تلك المعارفا  
وكان ابن وهاس يلجني فارشا      كما تفعل الأم الحفية لاحفا

<sup>1</sup> . الزمخشري : 44

<sup>2</sup> . الكامل في التاريخ : 243/10

<sup>3</sup> . الزمخشري : 46

<sup>4</sup> . الغطارف ، ج : غطريف : وهو السيد الشريف . انظر ، الجوهري ، الصحاح ، تحقيق أحمد عبد العمور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ط3 ، 1982م : 1411/14 .

وتم لي الكشف تم بيلسدة      مما هبط التريل للحق كاشفا  
على باب أحياد بني لي مئزلا      كركن شمام<sup>1</sup> بالصفاء متواصفا  
وأنتق في إمامه من تسلاده      ثقيلات وزن في البلاد خفائفا

ولما أحس الزمخشري منه صدق الود والمحبة ، وعلم أيضا أنه يقاسمه أفكاره المذهبية ،  
شرع يهيب به في تسخير ما يملك من إمكانات مادية وعلمية في نصرة مذهب أهل العدل  
والتوحيد والتكفين له ، لأنه يرى في ذلك ممكينا لهدي النبوة<sup>2</sup> :

زأرت وراء دين الحق زأرا      وقد نبحت كلاب المسفري  
ومن يفضب للدين الله يجمع      مرضيه إلى الأحر السني  
وليس الجبر والتشبيه إلا      بقية إرث دين جاهلي  
فقم بالعدل والتوحيد فيه      تقم يابن النبي هدى النبي

فقضى الزمخشري في مكة ما لا يقل عن سنتين ، حيث انتهى من كتابة تفسيره في مثل  
مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان يرى ذلك من بركة مجاورة بيت الله  
الحرام .

وفي أثناء كتابته لتفسيره الكشف وهو مجاور بمكة ، كان يسجل في ثناياه شيئا مما يجده  
من طيب المقام وشرفه بقرب البيت الحرام ، من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " ..  
ولتنذر أم القرى ومن حولها .. ) سورة الأنعام : 93

حيث قال : وسميت مكة أم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل  
القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنًا لبعض المجاورين :  
فمن يلق في بعض القريات رحله فأم القرى ملقى رحالي ومنتابي<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . شمام : اسم حل ، المؤمري ، الصحاح : 1961/5

<sup>2</sup> . الزمخشري : 46

<sup>3</sup> . الكشف : 45/2 . القريات — بالتشديد — جمع تصغير لربة ، ورحل الشخص مسكنه . أي : فمن يلق رحله في بعض القرى  
للصلاة فلا فخر له على ، فإن مكة محط رحالي ومنتابي أي : أي دعوني مرة بعد أخرى ، وإلقاء الرجل كتابته عن الإقامة . ( مشاهد  
الإبصار على شواهد الكشف لعماد عليان المرزوق لما نشر الكشف .



فهو يقول : فمن يلقي رحله في بعض القرى الصغيرة فلا فخر له علي ، فإن مكة محط رحالي ، ومتنابي أي دخولي إليها مرة بعد أخرى .

ولما انتهى من كتابة الكشاف ، عاوده الشوق والحنين إلى الوطن والأهل ثانية ، فسافر إلى خوارزم ، بعد أن عرج على بغداد ، وبذلك انتهت رحلته الطويلة ، فأقام بخوارزم إلى أن وافته المنية ليلة عرفة سنة : 538هـ — بجرجانية ، وهي قسبة خوارزم على نهر جيحون ، وقد زار ابن بطوطة خوارزم في أوائل القرن الثامن الهجري وقال : (بخارج خسوارزم قسبر الإمام أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري وعليه قبة .<sup>1</sup>

### المطلب الثالث : شيوخ الزمخشري

كثر شيوخ الزمخشري ، وتنوعت ثقافتهم العقلية والنقلية ، وهذا راجع لتنقله بين عدة عواصم وحواضر علمية ، ولقد أقبل على طلب العلم بشغف وحرص شديد ، مما أظهر نبوغه وتفوقه على أقرانه في سن مبكرة ، حتى إنه جلس للتدريس واجتمع الناس عليه قبل خروجه لأول رحلة إلى بخارى ، وهو دون العشرين من عمره . وليس من السهل تبسّع تراجم كل من أخذ عنهم الزمخشري ، فإنهم لا يحصون كثرة ، ولكننا نكتفي بأبرز من لزمهم ، واشتهرت صحبته لهم ، وكان لهم أبلغ الأثر في تكوينه العلمي والفكري .  
ويأتي في مقدمة من أخذ عنهم وانطبع بفكرهم :

— أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني المتوفى سنة : 507هـ وكان يلقب بفريد العصر ووحيد الدهر في اللغة والنحو ، كما كان يضرب به المثل في أنواع النضائل ، وقد أقام بخوارزم مدة فانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه ، وتخرج عليه جماعة من الأكابر في النحو واللغة ، ولم يكن الاعتزال فاشيا بين العامة في خوارزم قبله بل كان موقوفا على الخاصة ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته ومذهبوا بمذهبه ، وبذلك شاع الاعتزال في البلاد بسببه ، وكان ممن أخذ عنه هذا المذهب أبو القاسم الزمخشري .<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . مذهب رحلة ابن بطوطة : 298/1

<sup>2</sup> . انظر معجم الأدباء : 123/19 . ووفيات الأعيان : 245/4

وقد لمس ابن جرير الضبي في تلميذه الزمخشري ملامح الذكاء والتفوق ، وحب الانقطاع لتحصيل العلم ، فأولاه اهتماما خاصا وقربه ، وحاول أن يفتح له آفاقا لتحقيق بعض طموحاته ، وعمل على سد بعض حاجاته المادية ، مما زاد في شدة تعلق تلميذه به ، والتغني بذكر أفضاله عليه في أكثر أشعاره ، منها قوله <sup>1</sup> :

إليك نظام الملك شكواي فاستمع إلى بث مجنوذ المعاش ضنكها  
طريح خطوب كل يوم تنوبه بياقة تنحى عليه بهركها  
ولو لم يل الضبي عني عراكها لغالت يد البلوى أدمي بهركها

ولشدة تأثر الزمخشري بشيخه ، ظل مدينا بجه وذكره ، إلى أن توفي سنة : 507هـ فرثاه بأكثر من قصيدة ، منها قوله <sup>2</sup> :

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط من عينك سمطين سمطين  
فقلت لها الدر الذي كان قد حشا أبو مضر أذني تساقط من عيني

— ولعل من أهم أساتذة الزمخشري الذين كان لهم بالغ الأثر في حياته ، ولم يشسر إليه أغلب المترجمين له قديما ، أو الدارسين حديثا ، هو الإمام الحاكم ، أبو سعد ، المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي ، البيهقي ، وتأتي هذه الأهمية من كونه أخذ عنه علم التفسير ، وتأثر به ، واستقى من كتابه " التهذيب في التفسير " بعضا من مادة كتابه " الكشاف " ، باعتبار أن تفسير الحاكم الجشمي كان يمثل خلاصة تفاسير من سبقه من أئمة المهتزلة . وفي هذا المعنى يقول الباحث عدنان زرزور :

( تلمذ الزمخشري على الحاكم كما قدمنا ، ولكن هذه الصلة بين الشيخين ظلت محجوبة قرونا متطاولة عن ناقد الزمخشري ومتعبيه ودارسيه — في القلم والحديث — ولم يعن أحد بالبحث عن شيوخه الذين تلقى عليهم التفسير وعلوم القرآن ، بالرغم من إفاضته <sup>3</sup> للعلماء الباحثين في الثناء على تفسير " الكشاف " ومكانته ، وأسبقته — أو تفردده —

<sup>1</sup> . منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : 31 نقلا عن عروط ديوان الزمخشري ورقة : 91

<sup>2</sup> . الزمخشري : 49 . نقلا عن عروط ديوان الأدب ورقة : 57

في الكشف عن إعجاز القرآن ، وبالرغم عن حديثهم المكرور عن منهجية صاحبه في التأويل على مذهب المعتزلة .

والشيخ الذي يذكر عادة على أنه أكبر أساتذة الزمخشري ، وأبلغهم أثرا في نفسه ، هو أبو مضر محمود بن جرير الأصبهاني ، ولم يتلق الزمخشري عليه التفسير ، وإنما تتلمذ عليه في النحو والأدب ، أما شيوخه الآخرون ، فلم تذكر المصادر المعروفة أيضا أنه تلقى على أحدهم شيئا من تفسير القرآن .

ثم نقل الباحث بعض إشارات القدامى إلى وجود صلة بين تفسير الكشاف وتفسير من سبقه من المعتزلة .<sup>1</sup>

ولما كانت مدينة بخارى في تلك الفترة التاريخية كعبة طلاب العلم ، ومطلع نجوم أدبها الأرض<sup>2</sup> ، فإن الزمخشري قد هرع إليها في سن مبكرة لينهل من معينها ، ويهتدي بنجومها ، فظفر هنالك بخيرة علمائها ، ثم طوف بعدها في عدة أقاليم ، إلى أن انتهى إلى بغداد ، ومنها إلى مكة ، فأتاحت له هذه الرحلة الطويلة الإلتقاء بأكثر عدد من أجلة العلماء ، الذين كانوا تشد إليهم الرحال ، وتذكر بعض المصادر<sup>3</sup> أن الزمخشري قد قرأ بعض كتب اللغة على أبي منصور الجواليقي<sup>4</sup> سنة : 533هـ وهذا يعني أنه كان في السادسة والستين من عمره ، وقبل خمس سنوات من وفاته ، وقد ذاع صيته ، وطارت مصنفاته في الآفاق ، ولكنه لم يستكف أن يجلس في حلق العلم متعلما ، مما ينبئ عن مدى شغفه بالعلم والعلماء .

— أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري ، وقد كان شاعرا كاتبا مولفا ، وكان هو **صوب أهل خوارزم ، ومقدمهم ، وشاعرهم ، من مصنفاته :** " ديوان تهذيب الأدب " ، ولتهذيب إصلاح المنطق ، وديوان شعر ، وغيرها<sup>5</sup> .

<sup>1</sup> عدنان زرزور . الحاكم المشي ومنهجه في تفسير القرآن ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، ط 1 ، بيروت ، ص : 459

<sup>2</sup> أبو منصور النعماني . بئمة النهر في عاصم أهل العصر ، تحقيق : محمد قمبجة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 1 ، 1983م

101/4:

<sup>3</sup> . إنباه الرواة : 270/3 .

<sup>4</sup> . هو موهوب بن أحمد بن محمد بن الحسن بن الحضر ، أبو منصور الجواليقي ، النحوي اللغوي ، كان إماما في فنون الأدب ،

وكان ثقة دينا ، له مصنفات منها : شرح أدب الكاتب وغيرها ، توفي سنة : 539هـ . انظر بئمة الرواة : 308/2 .

<sup>5</sup> . معجم الأدباء : 190/9 .

— هبة الله بن علي ، أبو السعادات ، المشهور بابن الشجري ، وكان فرد زمانه في العربية وعلم النحو ، ووقف عليهما كامل عمره ، له مصنفات كثيرة في اللغة والأدب ، منها الأمالي ، والإنصار على ابن الخشاب ، و " ديوان الحماسة " ضاهى به " ديوان الحماسة " لأبي تمام ، وغيرها<sup>1</sup> .

## المبحث الثاني آثاره العلمية

تفرغ الزمخشري وقتا طويلا من عمره للتدريس والتأليف ، كما اجتمع عليه طلاب العلم منذ عهد مبكر حيثما حل أو ارتحل ، وسارت بذكره الركبان ، ولهذا كثر تلاميذه ، كما كثرت مصنفاته التي كان قد وضع أغلبها تلبية لحاجة المترددين على حلقاته العلمية ، ولهذا فإنه من الصعب أن نحصى تلاميذه ، سواء ممن كانوا في خوارزم ، أو من تلمذوا عليه خلال رحلته الطويلة وتنقلاته بين بخارى ، وخراسان ، وبغداد ، ومكة ، والشام ، وغيرها من العواصم العلمية في عصره ، وفيما يأتي نتحدث عن أشهر تلاميذه ، وهم فرع عن إنتاجه العلمي ، كما نتحدث عن مصنفاته .

### المطلب الأول: تلاميذه

— الموفق بن أحمد بن محمد المكي ، خطيب خوارزم ، ذكره القفطي في إنباه الرواة بأنبياء النحاة ، وهو أديب فاضل ، أخذ العربية عن الزمخشري ، توفي سنة : 364هـ<sup>2</sup> .

<sup>1</sup> معجم الأدباء : 282/19

<sup>2</sup> ابن سالم القرشي ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية تحقيق عبد العناح عبد الحلس ، دار معسر للطباعة ، ط 1 ، 1988م ص:

— زين المشايخ ، أبو الفضل محمد بن أبي القاسم الخوارزمي النحوي ، كان إماما حجة في العربية ، أخذ اللغة وعلم الإعراب عن الزمخشري ، وخلفه في حلقة ، وهو صاحب مصنفات كثيرة ذكرها صاحب الجواهر المضية 393/4 منها مفتاح التريل ت: 562 .<sup>1</sup>

— علي بن محمد بن علي بن أحمد بن هارون العمراني — بكسر العين — الخوارزمي ، أبو الحسن ، يلقب بحجة الأفاضل وفخر المشايخ ، قال ياقوت : سيد الأدباء ، وقلوة مشايخ الفضل ، المحيط بأسرار الأدب ، والمطلع على غوامض كلام العرب ، قرأ على الزمخشري فصار من أكبر أصحابه ، وأوفرهم حظا من غرائب آدابه ، كان ولوعا بالسماع كتوبا ، ففرغ الناس إليه ، في حل المشكلات وشرح العضلات ، وكان آية في التدين والصلاح والزهد ، معتزلي ، صنف : مفتاح التريل في التفسير ، واشتقاق الأسماء وغيرها ، تسوي سنة 662هـ —<sup>2</sup> .

— كما ذكر ابن الأثير الجزري من تلاميذ الزمخشري أبا الحسن ، إسماعيل بن عبد الله الطويل ، وأبا سعد ، أحمد بن محمود الشاشي<sup>3</sup> ، وزينب بنت الشعري ، التي أجازت ابن خلكان<sup>4</sup> .

— وقد ذكر السيوطي في بغية الوعاة من تلاميذ الزمخشري أبا الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي بن المطرز ، الأديب النحوي ، المشهور بالمطرزي ، وهو من أهل خوارزم ، قال : قرأ على الزمخشري ، وبرع في النحو واللغة ، والفقهاء على مذهب الحنفية ، وكان لهم كالأزهري للشافعية ، وكان يقال : هو خليفة الزمخشري ، وكان معتزليا ، وله مصنفات مشهورة في اللغة والنحو والفقهاء ، منها المغرب في شرح المعرب ، والإقناع في اللفظة ، وغيرها ، مات بخوارزم سنة : 610هـ —<sup>5</sup> .

<sup>1</sup> . الجواهر المضية : 393/4 ، ومعجم الأدباء : 415/3

<sup>2</sup> . انظر بغية الوعاة : 195/2 . ومعجم الأدباء : 319/4

<sup>3</sup> . ابن الأثير ، اللباب في تهذيب الأنساب ، دار صادر ، بيروت ، 1980م ، ص: 74/2

<sup>4</sup> . وفيات الأعيان : 275/4

<sup>5</sup> . بغية الوعاة : 311/2 . ويستبعد أن يكون المطرزي من تلاميذ الزمخشري ، لأن تاريخ ولادته : 538هـ وهي سنة وفاة الزمخشري ، إلا أن يكون المطرزي ولد قبل ذلك .

— كما يعتبر من تلاميذه علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس ، وهو من ولد سليمان بن حسن بن علي بن أبي طالب ، الذي هيا له طيب للمقام بمكة ، فقد قرأ على الزمخشري بمكة ، ولمع نجمه في دنيا الأدب ، حتى صرفت أئنة طلب العلم إليه <sup>1</sup> .

ومثلما كان للزمخشري تلاميذ تخرجوا من مجلسه ، فإنه قد استجازه أكثر من واحد من طلاب العلم في مصنفاته ومروياته ، وقد حفظت لنا كتب التراجم شيئا من ذلك نذكر منها :

— استجازة رشيد الدين الوطواط : وهو كاتب أديب شاعر ، وكان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، كان واسع الإطلاع في اللغتين العربية والفارسية ، فينشئ في حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معا <sup>2</sup> .

وقد كتب رشيد الدين الوطواط إلى الزمخشري رسالة يستجيزه فيها ، ومما جاء فيها : ( إن حضرة جبار الله أوسع من أن تضيق على راعب في فوائده ، وأكرم من أن تستثقل وطأة طالب لعوائده ، ومع هذا أرجو إشارة تصدر من مجلسه المحروس ، إما بخطه الشريف ، فإن في ذلك شرفا يدوم إلى مدى الدهور والأيام ، وفخرا يبقى على مر الشهور والأعوام ، وإما على لسان من يوثق بصدق مقالته ، ويعتمد على تبليغ رسالته ، من المنخرطين في سلك خدمته ، والراغبين في رياض نعمته .. ) <sup>3</sup>

وقد أجازته الزمخشري فيما أراد ، وبقي له عنده ذكر حسن في حياته وبعد وفاته .

— وكان الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي رحمه الله تعالى قد كتب إليه من الاسكندرية ، وهو يومئذ مجاور بمكة حرسها الله تعالى يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته ، فرد جوابه بما لا يشفي الغليل ، فلما كان في العام الثاني كتب إليه أيضا مع الحجاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده .. فكتب إليه الزمخشري ردا مطولا نذكر منه :

(.. ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السها مع مصاييح السماء .. والسكيت المخلف مع خيل السباق ، والبغات مع الطير العتاق . وما التلقيب بالعلامة إلا شبه الرقم بالعلامة . والعلم مدينة ، أحد بابيها الدراية والثاني الرواية ، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة

<sup>1</sup> . إنباه الرواة : 268/3

<sup>2</sup> . بغية الرعاة : 226/1

<sup>3</sup> . معجم الأديباء : 29/19

مزجاة ، ظلي فيه أخلص من ظل حصاة ، أما الرواية فحديثه الميلاد ، قرية الإسناد ، لم تستند إلى علماء نحارير ، ولا إلى علماء مشاهير ، وأما الدرابة فتمد لا يبلغ أقواها وبرضى لا يبل شفاها ..

ثم كتب بعد هذا : فلا يفرنكم قول فلان في ، ولا قول فلان — وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطع من الشعر — وأوردها كلها — فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر للموه ، وجهل بالباطن للشوه ، ولعل الذين غرهم ما رأوا مني من حسن نصيح المسلمين ، وبلغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع للطامع عنهم ، وإفادة المبار والصنائع عليهم ، وعزة النفس والربء ما عن سفاسف الدنيات ، والإقبال على خويصة نفسي ، والإعراض عما لا يعنيني ، فجعلت في أعينهم ، وغلطوا في ، ونسبوني إلى ما لست منه بقيل ولا دبير ، وما أنا فيما أقول بماض نفسي .. وإنما صدقت لفاحص عني وعن كنه روايتي ودرابتي .<sup>1</sup>

## المطلب الثاني : مصنفاته

للزمخشري ما يزيد عن خمسين مصنفا ، أغلبها فيما برع وتخصص فيه ، وهو اللغة والنحو والأدب ، وهي أقسام ، بعضها موجود ومطبوع ، وبعضها الآخر موجود أيضا ولكنه مازال مخطوطا وحبس الرفوف في عدة مكتبات عالية ، عربية منها وأعجمية ، وقسم ثالث مفقود ، ولكن تناقلت اسمه مختلف كتب التراجم ، وتحسن سنذكر هذه الأقسام الثلاثة مرتبة حسب ما ذكرناه :

### أ — المصنفات المطبوعة :

— الكشف عن حقائق غوامض التبريل وعميون الأقاويل في وجوه التأويل :  
طبع عدة مرات ، ولقي حظا وافرا من الخدمات والدراسات سواء مسن أنصاره أو خصومه ، وكانت آخر طبعة له مشفوعة بأربع حواش عليه تتعلق بتخریج مردياته ، وتاصيل شواهد الشعرية وشرحها ، وحاشية أخرى في التنصيص على اعتراضاته والسهوة عليها .

<sup>1</sup> .وفيات الأعيان : 170/5

— أساس البلاغة :

طبع أكثر من مرة ، الطبعة الأولى في مجلدين بمطبعة دار الكتب بالقاهرة ، 1922م .  
وطبعة بتحقيق عبد الرحيم محمود لدار المعرفة ببغروت ، وهو من آخر مولفاته ، وفيه  
أظهر الزمخشري كمال نضجه ودرجة نبوغه وقدرته على الإبداع ، وقد ألفه بعد تفسيم  
الكشاف ، ولذا كان يحيل في " أساس البلاغة " على تفسيره في عدة مواضع ، منها ما  
جاء في مادة : — ح ف ر — يقول الزمخشري عندها : وقد ذكرت حقيقة الكلمة في  
الكشاف من حقائق التنزيل .<sup>1</sup>

وموضوع الكتاب — كما نص عليه للمصنف — هو تأسيس قوانين فصل الخطاب ،  
والكلام الفصيح ، بإفراد المجاز عن الحقيقة ، والكناية عن التصريح .<sup>2</sup>

ولقي الكتاب — لأهميته — العناية البالغة من طلاب العلم ، وهذا ابن حجر ينخل منه  
كتابا ظريفا ويسميه : " غراس الأساس " جمع فيه المجازات اللغوية ، متحريرا للدقة فيها .  
وأهم إبداع في هذا الكتاب هو تتبع حياة الكلمة ، وما اعتراها من تطور ، ورصد مختلف  
استعمالاتها الحقيقية والمجازية إلى القرن السادس الهجري .

قال الزمخشري : ( ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين ،  
وانطوى تحت استعمالات المقلقين ، أو ما جاز وقرعه فيها ، وانضواؤه تحتها من التراكيب  
التي تملح وتحسن . )<sup>3</sup>

— الفائق في غريب الحديث :

له عدة طبعات ، الأولى في حيدرآباد في مجلدين سنة 1314هـ ، والثانية بمطبعة عيسى  
البابي الحلبي بالقاهرة ، بتحقيق الأستاذين علي البحراوي ، وشمس أبو الفضل إبراهيم سنة :  
1367هـ — 1948م

وقد ذكر في مقدمة الكتاب أنه لم يدع السبق في هذا الباب ، لأنه لم يترك الأول  
للآخر خصاصة يستظهر بها على سدها ، ولكن لا يكاد يجد بدا من نبغ في فن من العلم ،

<sup>1</sup> . الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ص : ك : 184/1

<sup>2</sup> . خطبة الزمخشري في مقدمة أساس البلاغة ص : ك

<sup>3</sup> أساس البلاغة ، ص : ك



وصبغ به يده ، وعانى فيه وكله — جهده — من استحباب أن يكون له فيه أثر يكسبه في الناس لسان الصدق وجمال الذكر ، ويغزن له عند الله جزيل الأجر<sup>1</sup> .  
— أعجب العجب في شرح لامية العرب :

وهو كتاب صغير يقع في ست وستين صفحة ، يشرح فيه المؤلف قصيدة الشنفرى المشهورة ، وله أكثر من طبعة ، الأولى بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية ، والطبعة الثانية بالقاهرة سنة: 1324هـ .

— المفصل :

وهو كتاب في النحو ، قال الزمخشري في مقدمته : ولقد ندبني ما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب ، وما بي من الشفقة والحدب على أشياعي من صفة الأدب ، لإنشاء كتاب في الإعراب يحيط بكافة الأبواب ، مرتبا ترتيبا يبلغ هم المد البعيد بأقرب اليعي للمئ سجالهم بأهون السقي . فأنشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب " المفصل " في صنعة الإعراب ، مقسوما أربعة أقسام ، القسم الأول في الأسماء ، والقسم الثاني الأفعال ، والقسم الثالث في الحروف ، والقسم الرابع في المشترك .<sup>2</sup>

وللكتاب شهرة واسعة عند العرب والعجم ، وقد ترجم إلى اللغة الألمانية وطبع سنة: 1883م ، وسبق طبعه في كريستينا سنة : 1879م ، وطبع مع شرح موفق الدين بن يعيش ( ت : 643هـ ) في ليسيك سنة : 1882م ، وطبع بإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة في ثلاثة مجلدات .

وقد تكلم على كتاب المفصل الأديب النحوي شمس الدين أبو عبد الله المرسي ، وأخذ عليه في عدة مواضع ، قال ياقوت الحموي : (بلغني أنها سبعون موضعا ، أقام على خطئها البرهان ، واستدل على سقمها ببيان )<sup>3</sup>

ومع ذلك فإن هذا لم ينقص من قيمة الكتاب ، بل يدل على مدى اهتمام الدارسين به ، والاشتغال بتنقيحه وتحسينه ، ولهذا للمعنى أشار الفاضل بن عاشور في قوله : ولقد أبدع

<sup>1</sup> الزمخشري ، الفائق في غريب الحديث ، تحقيق عبد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البحاري ، دار المعرفة ، بيروت ، ط2 : 11/1

<sup>2</sup> . ابن عمير شرح المفصل ، إدارة الطباعة المنيرية : ج17/1

<sup>3</sup> . مصمم البلدان : 349/5

الزنجشري في العربية علما وذوقا ورواية وإنشاء ... ثم عدد مصنفاته في ذلك إلى أن قال :

( وكتابه المفصل الشهير الذكر ، الطائر الصييت ، الذي عكف الناس على شرحه ودراسته أكثر من ثمانية قرون . )<sup>1</sup>

— الأتمودج في النحو:

وهو اختصار وتبسيط لكتاب المفصل ، وقد لقي اهتماما واسعا وشهرة بين أهل العلم ، وطبع عدة مرات ، فكانت الطبعة الأولى سنة : 1298 هـ — ملحقا بكتاب " نزهة الطرف في علم النحو والصرف " لأبي الفضل أحمد بن محمد الميبداني ، وبعده كتاب " قواعد الإعراب لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن هشام ، كما طبع بمصر سنة : 1298 هـ .<sup>2</sup>

كما طبع مع كتاب نزهة المشتاق للميبداني بالقسطنطينية ، مطبعة الجوائب 1299 هـ .<sup>3</sup>  
— شرح مقامات الزنجشري :

طبع الطبعة الأولى بالقاهرة سنة : 1312 هـ ، والطبعة الثانية بمطبعة التوفيق بالقاهرة سنة : 1325 هـ — في : 238 صفحة . كما أعيد طبعه بدار الكتاب اللبناني ، بيروت ، بتحقيق يوسف بقاعي . ويحتوي هذا الكتاب على خمسين مقامة ، وقد خالف الزنجشري في هذه المقامات من سبقه في المضمون وإن وافقهم في الشكل الأدبي ، فخرج بالمقامة عن طابعها المنزلي إلى طابع الجد ، ووظفها في الوعظ والتذكير بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى ، وفي مطلع كل مقامة يصدرها بقوله : يا أبا القاسم — مخاطبا نفسه — ومن هنا كان غرضه من هذه النصائح إصلاح نفسه أولا ، وقد جاء هذا الكتاب في خمسين مقامة ، كانت تغلب عليها المسحة الدينية كلها . ويذكر في المقدمة أن الذي ندبه لإنشائها ( إنه أرى في إغفاسات الفجر كأنما صوت به يقول له : يا أبا القاسم ، أجل مكتوب ، وأمل مكتوب . فسهب

<sup>1</sup> . الفاضل بن عاشور ، التفسير ورجاله ، دار الكتب الشريعة ، تونس ، ط 2 ، 1972 م ، ص : 80

<sup>2</sup> . الزنجشري : 60

<sup>3</sup> . عمر فروخ . تاريخ الفكر العربي : 280/3

من إغفائه تلك مشخوصا به ، مما هاله من ذلك وروعه ، ونفر طائره وفزعه ، وضم إلى هذه الكلمات ما ارتفعت به مقامة ، وآنسها بأخوات قلائل<sup>1</sup> .  
— الجبال والأمكنة والمياه :

طبع وترجم إلى اللاتينية ، فطبع في ليدن سنة: 1885هـ — في مجلد واحد في 169 صفحة ، مع مجموعة من الفهارس في : 32 صفحة .

— المستقصى في أمثال العرب :

وهو عبارة عن معجم في المثال ، ألفه يضاوي به " مجمع الأمثال" للميبداني ، وطبع الطبعة الأولى بمطبعة دار المعارف العثمانية بجيدراباد الدكن الهند سنة : 1381هـ — 1962م في مجلدين كبيرين ، تحت مراقبة محمد عبد المفيد خان<sup>2</sup> .  
— مقدمة الأدب :

ويغلب عليه الجانب النحوي ، وقد وضعه بغرض تقريب قواعد اللغة العربية للفرس ، وقد طبع القسم الأول والثاني منه في مجلد واحد في مدينة ليسيك سنة : 1843م وطبع الباقي سنة : 1850 وبقيت منه أجزاء مخطوطة في 220 ورقة ، وبين سطور القسم الأول والثاني ترجمة فارسية للكتاب .  
— نوابغ الكلم :

وهو عبارة عن مجموعة حكم قصار ، طبعت لأول مرة في مصر سنة : 1914م في خمسين صفحة ، ثم أعيد طبعه سنة : 1927م ، كما طبع في باريس مع ترجمة إلى الفرنسية سنة : 1876م بتحقيق س . كاربير مينارد ، وطبع أيضا في استانبول وبيروت<sup>3</sup> .  
— أطواق الذهب في المواعظ والخطب :

حيث جمع فيه مائة مقالة في المواعظ والحكم وجوامع الأخلاق من إنشائه ، وقد ترجم إلى الألمانية ، وطبع مع الأصل في فيينا سنة: 1835م ، وترجم إلى الفرنسية وطبع في باريس سنة : 1876م ، وطبع طبعة ثالثة في بيروت سنة 1314هـ ، وطبع بشرح الميرزا يوسف خلكن

<sup>1</sup> . شرح مقالات الزعشمري ، لتحقيق يوسف بلغمي ، دار الكتاب اللبناني ، ط 2 ، ص: 17

<sup>2</sup> . تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون : 280/3

<sup>3</sup> . الزعشمري : 61

بن اعتصام الملك بعنوان " قلائد الأدب في شرح أطواق الذهب " مطبعة التمدن بمصر في 154 صفحة سنة : 1321هـ .

— إعجاز سورة الكوثر :

وهو رسالة صغيرة مطبوعة لأول مرة سنة : 1991م ، وتقع في ثمانين صفحة ، وبتحقيق حامد الخفاف .

والكتاب عبارة عن رد على سؤال لأحد المطلعين على كتاب الكشف ، وقد أعجب بما فيه من عرض لجوانب الإعجاز القرآني ، فطلب منه أن يزيد للموضوع توضيحا ، مع تنفيذ بعض الشبهات الواردة على قضية إعجاز القرآن الكريم ، فأجاب الزمخشري لذلك ، وقد عرض نص الأسئلة الموجهة إليه في الموضوع في بداية الكتاب ، ثم قام بتنفيذ تلك الشبهات ، وقد أخذ من سورة الكوثر — وهي أقصر سورة في القرآن الكريم — مناسلا تطبيقيا على ما يقول ، فعرض ما فيها من مظاهر الإعجاز القرآني أحسن عرض<sup>1</sup> .

— القسطاس في علم العروض :

وهو رسالة صغيرة في مائة وثلاثين صفحة ، طبع مرتين ، وقد استلهم مادته العلمية من أحد أساتذته الذين لازم مجلسهم اسمه نجم الدين ، وفي ذلك يقول الزمخشري : ( وقد لاحت لي بركات الإنتماء إلى حضرته ، وميامن الانضواء إلى سدته ، طريقة في باب العروض عذراء ، ما أظنها وطئت قبلي ، فعمدت إلى تحرير هذه النسخة منها ، وأوفدتها على مجلسه العالي لأفخم شأنها ، وأعلى مكانها ، بمد يده إليها ، وإطلاع عينه عليها ن فإنه شريعة للفضائل نجام حواليتها ، ومدبنة للعلوم والآداب يهاجر إليها )<sup>2</sup> .

ثم تحدث في الكتاب في عدة فصول عن اختراعه لأوزان جديدة في الشعر ، وعن بناء الشعر وتقطيعه ، وتركيب بحور الشعر ، وتقطيع الأبيات وغيرها .

وقد طبع الكتاب مرتين كانت آخرها سنة : 1989م بتحقيق فخر الدين قباوة .

— نزمة الطرف في علم الصرف :

<sup>1</sup> . الزمخشري ، إعجاز سورة الكوثر ، تحقيق حامد الخفاف ، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ط 1 ، 1991م ص : 29 وما

بعدها

<sup>2</sup> . الزمخشري ، القسطاس في علم العروض ، تحقيق فخر الدين قباوة ، مكتبة المعارف ، لبنان ط 2 ، 1989م ، ص : 20 — 21

طبع بالقسطنطينية ، مطبعة الجوائب ، 1299هـ<sup>1</sup> —

— المفردات في غريب القرآن :

طبع بمطبعة البابي بالقاهرة ، 1324هـ<sup>2</sup> .

— كتاب خصائص العشرة الكرام البررة :

حققته بمحة باقر الحسيني ، وزارة الثقافة والإعلام ، مديرية الثقافة العامة ، سلسلة

كتب التراث ، رقم : 10 ، 1968 .<sup>3</sup>

— معجم عربي فارسي ، نشره فتر شتاين ، ليسيك : 1843م<sup>4</sup> .

ب — المصنفات المخطوطة :

— المحاجات بالمسائل النحوية :

واسمه الكامل : محاجات ومتمم مهام أرباب المحاجات في الأحاسي والأغلوطنات .

وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم : 28 ش نحو ، 116 مجاميع ، وهو عبارة عن

ألفاظ ومسائل نحوية يقصد بها المعاينة والتفكك ، ويفهم من مقدمة الكتاب أنه ألفه بمكة

وأهداه لابن وهاس .<sup>5</sup>

— ربيع الأبرار ونصوص الأختيار :

وهو مختارات من الأدب والتاريخ والعلوم ، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب

المصرية رقم : 155 أدب ، في : 402 ورقة ، وله مختصرات كثيرة<sup>6</sup> .

وهو من آخر ما صنف في حياته ، لأنه ألفه بعد كتاب الكشاف ، وقد قال فيه :

( هذا كتاب قصدت به إجمام خواطر الناظرين في الكشاف عن حقائق التزويل وترويض

قلوبهم للتعبة بإحالة الفكر في استخراج ودائع علمه ، وخبائاه ، والتفتيش عن أذهانهم

<sup>1</sup> . تاريخ الفكر العربي : 280/3

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 280/3

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 280/3

<sup>4</sup> . الزعشري : 60

<sup>5</sup> . منهج الزعشري في تفسير القرآن وبيان إعمازه : 59

<sup>6</sup> . الزعشري : 62

المكدودة باستيضاح غوامضه وخفاياه ، وأن يكون مطالعته ترفها لمن قل ، والنظر فيه إحماساً لمن اختل .<sup>1</sup>

— رسالة في حكمة الشهادة ، وأخرى في نص العشرة ، ذكرهما جرجي زيدان ، وقال : إنما مخطوطان في برلين .<sup>2</sup>

ويبدو أن الرسالة الثانية هي نفسها " كتاب خصائص العشرة الكرام البررة " الذي

سبق ذكره .

— ديوان الزمخشري :

مخطوط بدار الكتب رقم : 529 أدب في 119 ورقة .<sup>3</sup>

— المفرد والمركب أو المؤلف :

مخطوط ، وقد ألفه الزمخشري زمن جواره الأول ، وقد أهداه لأهل مكة وقد قال في مقدمته : ( هذا كتاب المفرد والمؤلف ، عملته لذوي السابقة والكرم من ساكني الحرم عمل من طب لمن حب ، وتوخيت فيه قيد الأوابد وصيد الشوارد ، وتقريب ما يبعد عن الفهم ، وتسهيل ما تصعب إلا على الشهم ، وضمنت لمن يضبط هذا الترتيب ويحل هذه الأساليب أن يضرب له مع المعربين بسهم الفارس ، ويطير اسمه بينهم بضرب القوانس ، ووسألت ربي أن ينطق في ألسنتهم بحق ، ويجعل لي منهم لسان صدق وحسي بشائهم فخرا مشيدا وبدعائهم فخرا مخلدا .<sup>4</sup>

ويبدو من خلال هذه الفقرة المجتزأة من المقدمة أن موضوع الكتاب في اللغة العربية وأدائها .

— نزهة المستأنس : مخطوط في آيا صوفيا .<sup>5</sup>

ج — المصنفات المفقودة : وقد ذكرت أفراداً في كتب التراجم ، وبالجمع والتبضع لما تفرق يمكن أن نذكر منها ما يأتي :

— الرائد في علم الفرائض ، غير معروف .

<sup>1</sup> منهج الزمخشري في تفسير القرآن : 60

<sup>2</sup> . الزمخشري : 59

<sup>3</sup> . الزمخشري : 62

<sup>4</sup> . مخطوط المفرد ، ورقة : 1 . انظر منهج الزمخشري في تفسير القرآن : 59

<sup>5</sup> . الزمخشري : 63

- رؤوس المسائل ، في الفقه ، وهو غير معروف .
- معجم الحدود ، في الفقه ، غير معروف .
- المنهاج ، في الأصول ، غير معروف .
- مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة ، ( والأصل لأبي سعيد السرازي ) غير معروف .
- شقائق النعمان في حقائق النعمان ( في مناقب أبي حنيفة ) غير معروف .
- شافي العي من كلام الشافعي ، غير معروف .
- متشابه أسامي الرواة ، غير معروف ، ولعله هو المقصود بقول ابن حجر العسقلاني : رأيت له مصنفاً في المشتبه في مجلد ، وفيه فوائد جلية .
- صميم العربية ، غير معروف .
- شرح بعض مشكلات المفصل ، غير معروف .
- جواهر اللغة ، غير معروف .
- ديوان الرسائل ، غير معروف .
- ديوان خطب ، غير معروف .
- ديوان التمثيل ، غير معروف .
- تسلية الضرير ، غير معروف .
- رسالة الأسرار ، غير معروف .
- الرسالة الناصحة ، غير معروف .
- سوائر الأمثال ، غير معروف .
- رسالة المسامة ، غير معروف .
- عقل الكل ، غير معروف .
- كتاب الأجناس ، غير معروف<sup>1</sup> .

<sup>1</sup> . انظر في ذلك مثلاً طبقات المفسرين للناودي : 314/2 . وهدية المارفين : 402/2 . والجواهر المصيبة في طبقات الجمعية : 160/2

## المبحث الثالث

### ملامح شخصية الزمخشري

#### المطلب الأول : مكانته العلمية

زيادة على هذه المؤلفات الضخمة التي تشهد للزمخشري بمكانته العلمية ، فإنه من جهة أخرى قد تضافرت شهادات الأعلام من العلماء على سبقه ، وتميزه في هذا الميدان ، وهذه بعض الشهادات لأهل العلم سواء ممن عاصروه وعرفوه ، أو ممن جاؤا بعده :

قال الإمام الذهبي : ( العلامة كبير المعتزلة ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري

1 (..

كما قال فيه أيضا : ( وكان رأسا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان ، وله نظم

2 (جيد.)

وقال السمعاني : ( برع في الأدب وصنف التصانيف ، ورد العراق وخراسان ، ما

دخل بلدا إلا اجتمعوا عليه وتلمذوا له . )<sup>3</sup>

كما نعتة القفطي في إنباه الرواة بقوله : ( .. هو ممن يضرب به المثل في علم الأدب

والنحو واللغة ، لقي الأفاضل والأكابر .. ما دخل بلدا إلا اجتمعوا عليه وتلمذوا له ،

واستفادوا منه ، وكان علامة الأدب ونسابة العرب ، أقام بخوارزم ، تضرب إليه أكباد

الإبل ، وتخط بفنائه رجال الرجال ، وتعدى باسمه مطايا الآمال . )<sup>4</sup>

1 . الذهبي . سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 1 ، 1984 م ، ج 20/151

2 . المصدر نفسه : 20/154

3 . المصدر نفسه : 20/155

4 . إنباه الرواة : 3/265



وقال عنه في موضع آخر : ( وكان الزمخشري أعظم فضلاء العجم بالعربية في زمانه ، وأكثرهم أنسا واطلاعا على كتبها ، وبه ختم فضلاؤهم ، وكان متحققا بالاعتزال ، قدم علينا بغداد سنة : 533هـ . )<sup>1</sup>

كما قال عنه صاحب الجواهر المضية في طبقات الحنفية : ( الإمام الكبير ، المضروب به المثل في علم الأدب ، وشهرته تغني عن الإطناب بذكره . )<sup>2</sup>

( وكان إذا برع أحدهم في اللغة والأدب قالوا عنه : هو خليفة الزمخشري . )<sup>3</sup>

أما السيوطي فقد قال فيه : ( كان واسع العلم ، كثير الفضل ، غاية في الذكاء وجسودة القرينة ، متفنا في كل علم ، معتزليا قويا في مذهبه ، مجاهرا به حنфия . )<sup>4</sup>

وفي العصر الحديث قال أحد الدارسين لشخصية الزمخشري :

( على أنه لم يكن مثل بعض المؤلفين جماعا للمعارف ، لا جهد له إلا التنسيق أو الاختيلو ، بل كان حر الفكر ، وكان صاحب كثير من الآراء المبتكرة ، وكان إلى جانب ذكائه وسعة اطلاعه قوي الحججة ، قديرا على استنباط المعاني ، بارعا في الجدل ، حتى لقد طبق تفسيره وتأويله للقرآن الكريم على مذهب المعتزلة تطبيقا لم يسبق إليه على هذه الصورة الكاملة ، ولم يجيء بعده من صنع صنعه . )<sup>5</sup>

## المطلب الثاني : صفاته

نشأ الزمخشري في بيئة عريقة في التدين ، وهي خوارزم . . . كما احتضنته أسرة متدينة ، فكان يفخر بانتسابه إليها ، وكان لكل ذلك أثر واضح في تدينه ، ولكن كان مجاهرا بمذهبه الاعتزالي ، فإن هذا ليس أكثر من توجه فكري في منهج البحث والنظر ، حتى إن المترجمين له والمتكلمين في الرجال — جرحا وتعديلا — لم يجلدوا عليه مغمزا إلا اعتزاله ، من ذلك مثلا قول ابن حجر العسقلاني : ( إنه صالح لكنه داعية إلى الإعتزال . )<sup>6</sup>

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 270/3

<sup>2</sup> . الجواهر المضية : 447/3

<sup>3</sup> المصدر نفسه : 528/3

<sup>4</sup> . بنية الرعاة : 279/2

<sup>5</sup> . الحوفي . الزمخشري : 67

<sup>6</sup> . ابن حجر ، لسان الميزان ، تحقيق علي محمد معروض وغيره ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1996م ، ج 4/6

وقال الذهبي في موضع آخر من كتبه : (صالح ، لكنه داعية إلى الاعتزال ، أجازنا الله ، فكن حذرا من كشافه .)<sup>1</sup>

على أن المرضة التي نزلت به سنة 512هـ كانت نقطة بداية لتوبة جديدة ، ولتسد اعتبارها الزمخشري منحة في قالب منحة ، وفيها سأل ربه إن رد عليه صحته وعافيته ليتوبن إلى الله توبة نصوحا ، وفي ذلك يقول عن نفسه:

( فلما أصيب في مستهل شهر الله الأصم — وهو رجب — الواقع في سنة ثنتي عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة الناهكة التي سماها المنذرة كانت سبب إنايته وفيتته ، وتغير حاله ، وأخذته على نفسه الميثاق لله إن من الله عليه بالصحة ألا يبطأ بأحمصه عتية السلطان ، ولا واصل بخدمة السلطان أذياله ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن فرض الشعر فيسهم ، ورفع العقيرة في المدح بين أيديهم ، وأن يعف عن ارتزاق عطياتهم ، وافترض صلاتهم . مرسوما وإدرازا وتسويفا ونحوه ، ويجد في إسقاط اسمه من الديوان وعونه ، وإن يعف نفسه حتى تقيى ما استطعمت في ذلك فيما خلا لها في سني جاهليتها ، وتتفجع بقرصيها وطمرينها ، و أن يعتصم بجبل التوكل ويتمسك ، ويتبتل إلى ربه ويتنسك ، ويجعل مسكته لنفسه شيئا .. وأن لا يدرس من العلوم التي بصدها إلا ما هو مهيب بدارسه إلى الهدى . رادع لسه عن متابعة الهوى )<sup>2</sup> ومجد عليه في علوم القراءات والحديث وأبواب الشرح .. )<sup>2</sup>

ولقد قال بعضهم إن من مظاهر تدينه وتقواه ، أنه عزا فقدان أحد رجليه وقطعها إلى دعاء والدته عليه ، إذ سأله الدامغاني الحنفي — وقد رأى رجله مقطوعة — عن سبب قطع رجله فقال : دعاء الوالدة ، وقص عليه قصة في ذلك ، مع أنه كما يقول ابن خلكان ، أن الثلج والبرد كثيرا ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد فنسقط ، خصوصا في حوارزم ، فإنها في غاية البرد ، قال : ولقد شاهدت خلقا كثيرا ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب ، فلا يستبعده من لا يعرفه .)<sup>3</sup>

قال ابن خلكان : ( وسمعت من بعض المشايخ أن إحدى رجليه كانت ساقطة ، وأنه كان يمشي في جاون خشب ، وكان سبب سقوطها أنه كان في بعض أسفار بلاد

<sup>1</sup> . الذهبي ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي محمد البعالي ، ، القاهرة ، 1966م ، ج 78/4

<sup>2</sup> . شرح مقامات الزمخشري : 20 — 21

<sup>3</sup> . وفيات الأعيان : 255/4

خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق ، فسقطت منه رحله ، وأنه كان يسده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك ، يصحبه معه خوفا من أن يظن من لم يعلم الحال أنها قطعت لرية .<sup>1</sup>

ولا شك أن هذا التحرز واتقاء الشبهة يدل على طهارة النفس عند الزمخشري وورعه ، ومما زاد في تدينه ونجوده لربه ، جواره بمكة ، وكثرة تنسكه عند البيت ، وقد رصد تلك الأجواء الإيمانية التي كان يجيها في تلك الفترة في أكثر من كتاب من كتبه ، منها ما جاء في كتابه " أطواق الذهب في المواعظ والخطب " حيث كان يخاطب هذه المواعظ نفسه أولا ، ثم خاطب به القارئ ثانيا ، قال في مقدمة الكتاب :

( أسألك أن تفيض على هذه المقامات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها ما وجب ليجاز من حق الذمام والذمار ، لأنها وجدت في حرمك المطهر ، وولدت في حجر بيتك المستر .. )

وذكر يوسف الأشتاني — شارحها — ( أنه كان يطوف ببيت الله ، فإذا فرغ من الطواف ألف مقالة ، ثم يقوم ويطسوف وينشئ مقالة ، وما زال على ذلك إلى أن بلغت مائة .<sup>2</sup>

ولقد كان يعتبر خروجه من خوارزم إلى مكة ليس مجرد رحلة في طلب العلم أو ابتغاء أسباب العيش ، أو عرض آخر من أعراض الدنيا ، بل هي هجرة في سبيل الله ، وفسرار بالدين ، ولذا تجده في تفسير قوله تعالى : " إن الذين توفاهم الملائكة ظلمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا " سورة النساء : 96

قال : ( .. وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر ، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله ، وأدوم على العبادة ، حقت عليه المهاجرة .. اللهم إن كنت تعلم أن هجرتي إليك لم تكن إلا فرارا بديني ، فاجعلها سببا في خاتمة الخير ، ودرك المرجو من

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 256/4

<sup>2</sup> . الزمخشري ، أطواق الذهب في المواعظ والخطب ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ط 1 ، وعلى الهامش ليوسف الأشتاني : مقدمة فلاح الأدب في شرح أطواق الذهب ، المقدمة .

فضلك ، والمبتغى من رحمتك ، وصل جواري لك بعكوفي عند بيتك ، نجوموارك في دار  
كرامتك ، يا واسع المغفرة .<sup>1</sup>

كما نلمس روح التدين والتجرد لطاعة الله تعالى مما جاء في مقدمة كتابه " مقامات  
الزمخشري " حيث قال :

( .. وأنا أقدم قبل الخوض في ذلك تنبيهك على ألا تطالع هذه النصائح إلا ملقيا فكرك  
إلى معانيها ، محضرا ذهنك لأوامرها ونواهيها ، حتى يكون اقتباسك منها في أخلاقك  
وأفعالك ، أوفر من استفادتك لبلاغتها وبراعتها ، فقد علمت ببعض ما فيها مما يسهل  
النفس ، ويطهر القلب .<sup>2</sup>

وواضح من خلال هذه المقدمة ، أنه ما كتب هذه النصائح لمجرد أن يستعرض من  
خلالها براعته وبيانه ، ولكن ليقدم النصح والموعظة لكل ذي لب وقلب .  
ولا ينافي هذا التدين عند الزمخشري أن يكون في الوقت ذاته كثير الإعتداد بقدراته  
ومواهبه ، طموحا ، معتزا بنفسه ، وقد نوه باستعداداته وإمكاناته في أكثر أشعاره ، وقد  
زاده نبوغه في العلوم المختلفة استعلاء واعتزازا حتى جعل يتغنى بكل ذلك فقال :

تراني في علم المترل عالما	وما أنا في علم الأحاديث راسفا
فللسنة البيضاء في مناجح	ويغني كتاب الله مني المعارفا
وما أنا من علم الديانات عاطلا	فأحسن حلي لم يزل لي شانفا
وما للغات العرب مثلي مقوم	أبي كل ندب متقن أن يخالفنا
وبي يستفيد النحو من أن يسوسه	فهي لم يجدها الذائقون حصانفا
وعلما المعاني والبيان كلاهما	أزف إلى الخطاب منه وصانفا
وعلم القوالي والأعاريض شاهد	بفسحة خطوري فيه إذ كنت زاحفا
أقرت بي الآداب أصلا لها ومن	راي مشرفيات جحدن المشارفا
وديون منظومي يريك بدائعا	وديون منشوري يريك طرائفا <sup>3</sup>

<sup>1</sup> . الكشف : 555/1

<sup>2</sup> . يوسف الأشتان ، مقدمة شرح مقامات الزمخشري ، تحقيق يوسف بفاعي ، دار الكتاب اللباني ، ط 3

<sup>3</sup> . الزمخشري : 66 . نقل عن مخطوط ديوان الأدب : 78

ولئن كان الزمخشري في رده على استجازه السلفي تظاهر بأنه قليل البضاعة ، ضيق الأفق ، فإنه في هذه القصيدة يريد أن يظهر نفسه وقد أخذ يحظ وافر من كل العلوم ، ولا عجب في ذلك وقد تلقى مختلف هذه المعارف على أيدي كبار العلماء ، حتى استوعب ثقافة عصره ، بل وكانت له إضافات وإبداعات في مختلف هذه العلوم ، وما هذه المصنفات التي تزيد عن الخمسين إلا دليل على سعة ثقافته وتنوع معارفه .

على أنه كان من شدة طموحه ، وحرصه على التفوق على أقرانه ، يأنف أن يرى مصنفا يضاهي أو يفوق بعض مصنفاته ، ومن ذلك ما يرويه بعض أهل التراجم ، أنه لما صنف الميداني كتاب " مجمع الأمثال " وقف عليه الزمخشري فحسده ، وأخذ القلم وزاد في لفظة " الميداني " سنينة ، فصار : " النמידاني " ، ومعناه بالفارسية : الذي لا يعرف شيئا ، فلما وقف الميداني على ذلك ، أخذ بعض تصانيف الزمخشري ، وزاد في نسبته سنينة ، وأبدل الميم نونا فصار : " الزمخشري " ، ومعناه بالفارسية : بائع زوجته .<sup>1</sup> وهذه سمة لا يكاد يخلو منها أحد من العلماء ، وهي غيرة أقرب إلى الغبطة منسها إلى الحسد ، ولعل هذا ما يقصده ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه عنه ابن عبد البر في " جامع بيان العلم وفضله " أنه قال : أخذوا عن العلماء كل شيء إلا قولهم في بعضهم بعضا ، فإنهم أشد غيرة من بعضهم بعضا من التيوس .

وإلا فإن أغلب ما يروى عن الزمخشري هو حبه لطلبة العلم وللعلماء ، وقد ظل يجلس في حلقاتهم ليتعلم إلى آخر حياته ، وإن من أحسن ما يروى عنه في تواضعه لأهل العلم ، قول كمال الأنباري : لما قدم الزمخشري للحج ، أتاه شيخنا أبو السعادات ابن الشجري مهنتا بقدمه ، وقال :

كانت مسائلة الركبان تخبرني      عن أحمد بن علي أطيب الخبر  
حتى التقينا فلا والله ما سمعت      أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وأثنى عليه ، ولم ينطق الزمخشري حتى فرغ أبو السعادات ، فتصاغر له وعظمه ، وقال : إن زيد الخير دخل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فرفع صوته بالشهادتين ،

<sup>1</sup> . إنباه الرواة : 158/1

فقال له : يا زيد ، كل رجل وصف لي وحدته دون الصفة إلا أنت ، فإنك فوق ما وصفت ، وكذلك الشريف ، ودعا له وأثنى عليه .<sup>1</sup>

كما تجلت روح التدين في الزمخشري من خلال تفسيره الكشاف ، حيث كان كثيرا ما تستوقفه الآيات القرآنية بما تحمله من مواضع وتوجيهات في الأخلاق والآداب ، فيعمد إلى المقارنة بين هدي القرآن ، وبين ما عليه سلوكات الناس في عصره ، في أسلوب يقطر أسى وحسرة على قلة التدين عند أهل زمانه ، ومثل هذا لا يصدر غالبا إلا عن نفس تفيض إيمانا وتقوى .

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون "

سورة الشعراء : 44

حيث تحدث الزمخشري عن حكم الحلف بغير أسماء الله الحسنى ، وساق في ذلك حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون " <sup>2</sup> ثم قال : ( ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسبت لها الجاهلية الأولى ، ذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وبصفاته على شيء لم يقبل منه ، ولم يعتد بها ، حتى يقسم برأس سلطانه ، فإذا أقسم به ، فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف حالف .<sup>3</sup>

ومنه أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها .. " سورة النور: 27

حيث فسر الآية تفسيراً مشفوعاً بمجموعة من الآثار والأحاديث النبوية في كيفية الاستئذان ، ومدى التزام السلف الصالح به ، ثم ذكر ما كان من شأن فترة الجاهلية في ذلك ، وقارنه بما كان الناس عليه في عصره فقال : ( وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيوتا غير بيته : حينئذ صباحا ، وحينئذ مساء ، ثم يدخل ، فربما أصاب الرجل مع امرأته في الحاف واحد ، فصعد الله عن ذلك ، وعلم الأحسن والأجمل . وكسب

<sup>1</sup> . سور اعلام النبلاء : 151/20

<sup>2</sup> . امرجه النسائي ، كتاب الأيمان والنذور ، باب الحلف بالأمهات ، حديث رقم : 3778 .

<sup>3</sup> . الكشاف : 312/3

من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة ، قد تركوا العمل به ، وباب الاستئذان من ذلك ، بينا أنت في بيتك ، إذا رجع عليك الباب بواحد ، من غير استئذان ولا تحية من تحيات الإسلام ولا جاهلية ، وهو ممن ما أنزل الله فيه ، وما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ولكن أين الأذن الواعية ؟ )

### عزوبة الزمخشري :

عاش الزمخشري ما يزيد عن السبعين سنة ، ولقد قضى هذا العمر كله أعزبا مثل بعض سابقه من العلماء والأدباء ، وإذا كان سابقوه لم يبرروا إيثارهم للعزوبة ، فإن الزمخشري قد حاول أن يبررها ، وإن كان تبريره غريبا وغير مقنع ، حيث نراه يشفق على الآباء من إثمهم الأبناء ، مؤملي أن يسعدوا بهم ، ولكنهم سرعان ما يخيب ظنهم فيهم ، ولذا اختار العزوبة التي شبهها بالرهينة في المسيحية ، فقال<sup>1</sup> :

تصفحت أولاد الرجال فلم أكد	أصادف من لم يفضح الأم والأبا
رأيت أبا يشقى بتربة ابنه	ويسعى لكي يدعى مكيسا ومنجبا
أراد به النشاء الأعز فما درى	أبويه حجرا أم يعليه منكبا
أخو شقوة مازال مركب طفله	فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا
لذاك تركت النسل واخترت سيرة	مسيحية أحسن بذلك مذهبا

### قسوته على مخالفيه :

وبالرغم من حسن تدوين الزمخشري وطيب أخلاقه ، فإنه كان شديد اللهجة قاسي العبارة تجاه مخالفيه ، ولم تظهر هذه القسوة في كتبه اللغوية والأدبية فقط ، بل ظهرت في تفسيره " الكشاف " أيضا ، وهذا الذي جر عليه كثيرا من اللوم والعتاب من الدارسين لفكره وشخصيته ، إلا أنه — حسب اطلاعي — قد اكتفى هؤلاء بغمز الزمخشري مسن هذا الجانب من غير محاولة للكشف عن أسباب هذا السلوك من الزمخشري وخلفياته .

<sup>1</sup> . الزمخشري : 97 . نقل عن مخطوط ديوان الأدب : 8

وفي الحقيقة أن الدارس لشخصية الزمخشري — ابتداء من نشأته الأولى — وللبيئة والفترة التي عاش فيها سرعان ما تتراءى له جملة من الأسباب التي كانت تغذي فيه هذه الروح من الحدة والقسوة تجاه غيره من المخالفين . ويأتي في مقدمة هذه الأسباب أن الزمخشري قد فتح عينيه منذ النشأة الأولى وهو يشعر بما مس أهله من الضيم والتضييق ، وقد تمثل هذا الضيم في دخول أبيه السجن ، مما زاد الأسرة فاقة وحرمانا ، ويبدو أنه دخل السجن لأسباب سياسية ، لأن أباه قد عاش في عصر ملك مستبد ، وهو مؤيد الملك (ت : 494هـ) حيث كان يميل إلى الاستبداد والبطش بكل من توجه من أديني حركة مريية ، وقد طال سجن أبيه ، وكان يرى أمه فترق لحالها النفسي والمادي ، مما دفعه إلى استعطاف الملك السلجوقي بقصيدة لم يخف فيها ما مسهم من ضر وبأس بسبب سجن أبيه فقال<sup>1</sup> :

أكفى الكفاة مؤيد الملك الذي	خضع الزمان لعززه وجلاله
أرحم أبي لشبابه ولفضله	وأرحمه للضعفاء من أطفاله
أرحم أسير لو رآه من العدى	أقساهم قلبا لرق لحالسه
ما أطول الليل الذي يفنيه في	سهر وأطول منه ليل عياله
يشكو قيودا قسرت من خطوه	وسلا سلا حكمت بضيق مجاله
ما ضر مثلك لو عفا عنه فمن	دأب الكرام العفو عن أمثاله
هب أنه ممن أساء فما له	غلب الرزاة منك سوء فعاله

ولم يذكر الزمخشري ولا كتب التراجم إن كان قد لقي الاستجابة لهذا الطلب بعد هذا الاستعطاف ، والظاهر أنه لم يعد بشيء ، حيث خرج الزمخشري بعدها إلى بخارى ، ومنها إلى خراسان فأصيبهان ، وطالت رحلته فكان يتغنى في أشعاره بهذا الحرمان والفراق لأسرته ولأقاربه ، وقد تخطفهم الموت الواحد تلو الآخر من غير أن ينعم بدفء القرب منهم .

<sup>1</sup> . منهج الزمخشري في تفسير القرطبي : 25 . نقل عن معطوط ديوان الأدب ورقة : 85



ومثلما حرم الزمخشري حنان الأبوة ودفء الأسرة في سن مبكرة ، فقد شاءت الأقدار أن نبدأ حياة العزوبة عمره كله لعدة أسباب مجتمعة حملته على هذا الاختيار .  
ومهما حاول الزمخشري في بعض قصائده أن يقنعنا بفوائد حياة التفرد والعزوبة التي مال إليها ، فإنه لا يستطيع أن ينفي آثارها السلبية التي مست الجانب النفسي والاجتماعي في حياته .

كما صادف أن أصيب الزمخشري بإعاقة كبرى في جسده انتهت بقطع رجله ، وهو في مقتبل حياته ، مما زاد في معاناته ، ومما يذكره أهل التراجم أنه اتخذ رجلا من خشب ، وكان يسبل عليها من منزله حتى يترأى للناظر أنها رجل حقيقية ، وكان إلى جانب ذلك يحمل معه محضرا وقد وقع فيه شهود لوصف سبب قطع رجله دفعا لكل شبهة تمس بعرضه .

ويضاف إلى كل ذلك كون الزمخشري جاء في فترة وقد كان المعتزلة يعانون حصارا وتضييقا كبيرين في دولة السلاجقة ، فلا منصب ولا نفوذ ولا مال ، وتجدد الزمخشري نفسه يتنقل بين سلاطين السلاجقة ويمدحهم الواحد تلو الآخر مع التنويه بمكانته العلمية التي يقرها كل أقرانه ، ومع ذلك فإنه لا يظفر بشيء ، مما جعله يتميز غيظا من ذلك الزمان وأهله ، ويتمرم من سوء قدره الذي قذف به في تلك الفترة التاريخية التي لا تليق بالأخيار من أمثاله .

كما أن قسوة الزمخشري على مخالفيه لا تعدو أن تكون في بعض الأحيان مجرد رد فعل على سلوك يمثله ، لأن المعتزلة كثيرا ما رماهم المخالفون بالألقاب والأوصاف التي يرون فيها غضاظة وإنقاصا لمذهبهم ولأعلامهم ، ولم يكن المعتزلة ينددون عن آرائهم بالقوة والسلاح كما فعل غيرهم من أرباب المذاهب ، وإنما كانوا يعتمدون على المغالبة العلمية والفكرية ، ويميلون إلى البحث والمناظرة والجدل مع مخالفهم ، فلا تستبعد بعد كل هذا أن يصدر عن الزمخشري مثل هذه القسوة ، وأن يقف من خصومه ومخالفيه مثل هذه المواقف من الشدة التي أخذت ألوانا ، فتارة يرميهم بالكلمات النابية والجارحة ، وتارة يميل إلى السخرية اللاذعة ، وكثيرا ما يجمع بينهما في الوضع الواحد من كتابه الكشاف .

## حبه للعروبة وللغة القرآن :

عاش الزمخشري في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وهي فترة كانت فيها الدولة العباسية قد غلب ضعفها على قوتها ، وكانت العصبية الجنسية قد أخذت أبعادها في تيار يصعب مدافعتة ، وهنا نجد الزمخشري العالم المتدين واللغوي الأديب يقف في وجه هذا التيار يصده ، ويرد كل السهام التي بصوبها إلى العروبة والإسلام ، وكان يحمد الله تعالى أن جعله من حماة لغة هذا الدين ، وأن فطره على حبها ، وحب من نطق بها ومعاداة من يبغضها ، وقد صرح بذلك في مقدمة كتابه " المفصل " فقال :

( الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية ، وجعلني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبي لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بأسنة الطاعنين ، ولعل الذين يفضون من العربية ويضعون من قدرها ، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ، ولكن في عربه ، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج ، وزيفا عن سواء المنهج )<sup>1</sup>

وقد انبرى بشعره ونثره لبيان فضل العربية ، وفضل أمة العرب ، وذم الشعوبيين ، والكشف عن سوء طويتهم ، وخيبة مسعاهم وضلال حركتهم ، ومما قاله في ذلك<sup>2</sup> :

وقل هل فشا في الأرض غير لساهم	لسان ، فشو الضوء واليوم شامس
بما عج في أمصارها كل منسر	وطنت به في الخافقين المدارس
على ظهرها لم يخلق الله أمة	تناسبهم في خصلة أو تلابس
تقاييس بين الناس حتى إذا انتهى	إلى العرب المقياس طاح المقاييس
أجل رسول منهم وبلسنتهم	أجل كتاب فاعتبر يا منافس
وقل للشعوبيين إن حديثكم	أضاليل من شيطانكم ووساوس
لكم مذهب فسل يفر بمثله	أشايب حمقى لا الرجال الأكاييس

<sup>1</sup> . شرح المفصل : 17/1

<sup>2</sup> . الزمخشري : 90 . نقل عن مخطوط ديوان الأدب ورقة : 61

ولم يكن الزمخشري صادرا في هذا الدفاع عن العربية عن عاطفة دينية فقط ، بل كذلك متشبعا بعلومها مدركا لخصائصها وراثتها ، ولذا بين في مقدمة كتابه " الفائق في غريب الحديث " ألفا أفصح اللغات ، وبلاغتها أتم البلاغات ، وأثنى على عدنان وأبنائه ، وقحطان وأحيائه ، وعلى شعرائهم وخطبائهم الذين سحرروا الناس ببلاغتهم .<sup>1</sup>

### المطلب الثالث : اعتزال الزمخشري

جاء الزمخشري في فترة كانت شمس المعتزلة تترع نحو الغروب والأفول ، بعد أن نازعهم بعض علماء الأشاعرة علم البلاغة وإعجاز القرآن الكريم من أمثال عبد القاهر الجرجاني ، وأبي بكر الباقلائي وغيرهما ، فلم يبق هذا العلم حكرا عليهم . وفي هذا المعنى قال الفاضل بن عاشور : ( وكان مقام الزمخشري من أهل طائفته المعتزلة مع ما هو معروف به من شدة التعصب يجعل مرجعهم في تفسير ما يدق فهم معناه من القرآن العظيم ، مدفوعا بما يمتاز به ذلك العصر بالنسبة إلى المعتزلة من اعتزاز موروث بأهل البلاغة ورجال التأويل ، يشوبه إشفاق عظيم من الشعور بأن هذا الاختصاص قد نوزعوا فيه ، أو أنه افتك من أيديهم ، فكانوا يرجعون إلى الزمخشري معتزين به ، متهين إليه ، فيبرز لهم — كما قال — الحقائق من الحجب ، فيزيدهم ذلك اعتزازا وإكبارا ، ويفيضون في الثناء عليه ، والإلحاح في وضعه تفسيرا للقرآن جامعا يعتمدون عليه في نصرة مذهبهم ، بتخريج الآيات على مقتضى الطريقة البلاغية التي كانت أزمتهما بأيديهم ، فكسب الخ إخوانه عليه — كما يقول في مقدمته — في وضع تفسير شامل ، وكم تشنعوا إليه بعظماة فرقته ، وعلماء أهل نخلته ، وكان ذلك كما يعرف من تاريخ أوائل القرن السادس عند ابتداء تراجع المعتزلة ، وسلوك فرقته سبيل الانقراض ، وإلى هذا الوضع أشار الزمخشري بقوله وهو في طريقه إلى مكة : لم يزل يلقي في كل بلد من فيه مسكة من أهلها ، وقليل ما هم ، متعطشين إلى إنجاز ذلك التفسير .<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . الفائق في غريب الحديث : المقدمة ، ص ٧٧

<sup>2</sup> . التفسير ورجاله : 82

ومن هنا كان انتساب الزمخشري إلى الاعتزال لا يسأل عنه ، لأنه كان أشهر من نثار على علم ، وكان يجاهر بذلك ويتباهى به ، ويعتبره فضيلة من فضائله ، وهذا شأن عامة المعتزلة ، فإنهم لا يتوارون من سوء هذه التسمية ، وقد ذكر محمد بن يزيد الأصفهاني ( ت : 231 هـ ) في كتاب " المصابيح " أن كل أرباب المذاهب تفوا عن أنفسهم الألقاب إلا المعتزلة ، فإنهم تبجحوا به ، وجعلوا ذلك علما لمن تمسك بالعدل والتوحيد ، واحتج في ذلك أن الله تعالى ما ذكره إلا لمن اعتزل الشر ، كقوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : " وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوني .. " <sup>1</sup> وفي سورة الكهف : " وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله .. " <sup>2</sup>

وقد كان المعتزلة — في رأيه — هم المقتصد ، وقد سلكت طريق الأدلة ، وأن المعتزلة الأولى هم أصحاب محمد ، لأنهم كانوا يدا واحدة يتولى بعضهم بعضا ، واتفقوا على هذه الأصول .

كما يرى الأصفهاني أيضا أن المعتزلة لم يلقبوا بهذا اللقب لمجرد اعتزالهم الفرق الأخرى في حكم مرتكب الكبيرة .

( قال : وليس السبب الذي سميت المعتزلة بالاعتزال أن الاختلاف وقع في أسماء مرتكبي الكبائر من أهل الصلاة . ) <sup>3</sup> ( بل إن النبي — صلى الله عليه وسلم — هو أول من ميزهم بهذا الاسم ، وهو عنوان البر والتقوى واعتزال الضلالة . ويسوق في ذلك حديثا عن سفيان الثوري عن أبي الزبير عن جابر أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : افتترقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أممي على ثلاث وسبعين فرقة ، أبرها وأتقها الفئة المعتزلة ، ثم قال لأصحابه : تسموا بهذا الاسم لأنكم قد اعتزلتم الضلالة . ) <sup>4</sup>

<sup>1</sup> . سورة مريم : 48

<sup>2</sup> . سورة الكهف : 16

<sup>3</sup> . انظر : أبو القاسم البلخي ، مقالات الإسلاميين ، تحقيق فؤاد السيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط 1 ، 1986 م ، ص :

115

<sup>4</sup> . القاضي عبد الجبار ، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق فؤاد السيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط 2 ، 1986 م ، ص :

165

ولذا كان الزمخشري يبعث نفسه بهذا الإسم تفاخرا وإعجابا ، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحبها له ، واستأذن عليه في الدخول ، قال لمن يأخذ له الإذن قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب .<sup>1</sup>

وليس بدعا أيضا أن يكون الزمخشري معتزليا وقد ولد وترعرع في بيئة تموج بالاعتزال ، وتلقى دراسته الأولى على علمائها ، وكان " أبو مضر أحب أساتذته إليه وأعظمهم تأثيرا في فكره ، وقد كان رأسا في الاعتزال .

ولكن الغريب في حياة الزمخشري أنه على كثرة مصنفاته وتنوعها ، لم يخلف لنا كتابا واحدا مستقلا في الاعتزال ، كما فعل غيره من أئمة المعتزلة ، مع أنه كان إمام عصره بلا منازع في هذا المذهب .

ولم أقف على إثارة مثل هذا السؤال عند الباحثين فضلا عن الجواب عليه ، وقد يكون هذا راجعا إلى كون الزمخشري من المتأخرين حيث توفي سنة : 538هـ وذلك بعد أن اكتملت أصول المذهب عبر القرون الثلاثة التي سبقتة ، وخلص أئمتهم من ذلك الجسد الطويل مع مختلف الخصوم ، كما انتهوا من وضع المؤلفات الكثيرة سواء في جانبها النظري ، والتي تمثلت في شرح أصول الاعتزال وأدلته وفضله وشروط التحقق به ، أو في جانبها التطبيقي ، وقد تمثلت في تلك الثروة الواسعة من الدراسات المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم وتفسيره .

وهنا نجد الزمخشري قد استهوتته الدراسات التطبيقية في المذهب ، وهو المجال الذي كان يرى أنه بإمكانه أن يضيف ويبدع فيه وإن كان الأخير زمانه .

كما كان الزمخشري في غاية الذكاء عندما فضل عدم إفراد موضوع الاعتزال بمؤلف مستقل ، بل كان يرى أن أحسن طريقة للترويج لمذهبه هو أن ييشها من خلال مختلف مصنفاته في اللغة والنحو والأدب والبلاغة .

وقد تجلّى هذا المسلك في أكثر من مؤلف من مؤلفاته ، من ذلك كتابه " المفصل في علم الإعراب " الذي خرج فيه كثيرا من المسائل النحوية بما يخدم توجهه المذهبي ، ومنه

<sup>1</sup> . وفات الأعمان : 170/5

أيضا كتابه " أساس البلاغة " الذي وضعه بهدف بيان الوجوه الحقيقية والمجازية لكل كلمة في لغة العرب ، فكان في كثير من الاستعمالات المجازية صادرا عن نظرة اعتزالية خالصة . إلى أن وضع تفسيره الكشاف الذي أفرغ فيه كل مهاراته وقدراته العلمية ، فكان تفسيراً نموذجياً وصورة صادقة لمسلك المعتزلة في تفسير القرآن ، فأعجب به أتباعه بما أعجاب ، وعلى ما أبرز فيه الزمخشري من توجه اعتزالي صارخ ، فإن ما تخفى عباراته أكثر ، حتى قال بعض مخالفيه ممن تقهوا تفسيره من مظاهر الاعتزال : لقد استخرجت اعتزالته بالنقاش ، ويقصد بذلك شدة خفائها وراء كل عبارة وكلمة وحرف .

لقد كانت روح الاعتزال في الزمخشري تجري منه مجرى الدم في العروق ، فكان يدين به ، ولا ينفك عنه فيما يكتب نثراً أو شعراً ، من غير تكلف أو مصانعة ، ولنا أن نلمس ذلك من خلال ما رواه بعض الفضلاء أن الزمخشري أوصى أن تكتب على لوح قبره هذه الأبيات — وهي من إنشائه —<sup>1</sup> :

يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى عروق نياطها في آخرها والمخ في تلك العظام النحل  
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

فالزمخشري يضرع إلى ربه أن يغفر ذنوبه ، مع تصريحه بأنه تاب من تلك الذنوب السالفة في الزمان الأول ، وهو في ذلك منطلق من رؤية مذهبية واضحة تتمثل في تعليق المغفرة والفوز في الآخرة على شرط التوبة قبل أن يفرغ .

ولكن مهما كان الزمخشري متشعباً بروح الاعتزال ومانحاً عنه ، فإن الذي اتضح لي بعد البحث والنظر في مصنفات المعتزلة من جهة ، و تصفح كتابات الزمخشري من جهة أخرى ، أنه كان متشعباً بأصول المعتزلة ، ملماً بمفاهيمها ، ولكنه خالفهم في بعض مبادئ منهجهم في البحث والاستدلال ، ولو في آخر حياته ، وربما كان لعامل التدين أثر في هذا المسلك ، ومن الأدلة على ذلك أن المعتزلة قد تسلحوا بالفلسفة وأخذوا منها بحظ وافر ، وكانوا يرون أن التكلم لا يكون ضليعاً في ميدانه حتى يجمع بين علوم الدين وعلوم الفلسفة ، وهذا ما قرره الجاحظ في بعض مصنفاته حيث قال : ( ولا يكون التكلم جامعاً

<sup>1</sup> . الكشاف : 116/1

لأقطار الكلام ، متمكنا في الصناعة يصلح للرئاسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما .<sup>1</sup> ومع أن الزمخشري قد كان من أشد الناس تأثرا بالجاحظ الذي عاصر المعتزلة في أزهم عصورها ، ونبغ في فكرهم حتى صار حجة في المذهب وقطبا من أقطابه ، وبشيوخه النظم أحد رؤوس الاعتزال الذي قرأ كثيرا من كتب الفلاسفة ، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ، بل قد بلغ من تعمقه في دراسة الفلسفة والمنطق أنه تتبع كتابات أرسطو ونقض الكثير من أقواله ، وهو السبب الذي نال به تلك الشهرة الواسعة في أوساط المعتزلة ، ومع كل ذلك فإنه خالفهما فيما ذهبا إليه في هذا الموضوع ، وذم الفلسفة وحذر منها ، وشكك في مقدماتها ونتائجها ، بل ذهب إلى حد السخرية من متعاطيها والرمي بالكفر لكل معجب بما ، وإن كنا لا نستبعد أن يكون ذلك مجرد تحول وقع منه في آخر حياته بفعل تدينسه ، وميله إلى ما يشبه حياة الزهد أو التصوف ، وفي ذلك يقول:

( احذر من الكسوف والخسوف ، ولا تستمع لقول الفيلسوف ، لأنه لا يألو أن يتحمق ، وأن يفلو ويتعمق ، إن استشهاده بقوله الفج ، طوح به في كل فج ، مبحث<sup>2</sup> مرجم<sup>3</sup> ، يدعي أنه منجم ، هو عند نفسه المهذب ، وعند عباد الله المكذب ، وبنسار الله المعذب . يزعم أنه الكيس الذكي ، وخير منه التيس الذكي .

ما شئت بالمتظاهر بالفلسفة من أنواع الركاكة والسفسفة ، وكيف يصلب النبع<sup>4</sup> ممن إلهه الطبع . يناديه الكفر مرحبا بك يا صني<sup>5</sup> ، ويقول له الشيطان أفلحت يا بني .<sup>6</sup> تلك نبذة مختصرة عن حياة الزمخشري وشخصيته التي تستحق أن تفرد بالدراسة والبحث من عدة جوانب ، ولا أحسب أنني بهذه اللمحة الخاطفة قد أحطت بكل ما ينبغي أن يقال عنه ، وإنما هي خلاصة أحسبها كافية نسبيا كتمهيد لدراسة أحد إنتاجاته العلمية وهو تفسير الكشاف .

<sup>1</sup> . الجاحظ . الحيران ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، 1992م ، ج 2/134

<sup>2</sup> . في الصحاح : ( مبحث : المبعوث : الهدود ، أي المقطوع . يوهر ها المكهن . الصحاح : 1/243 .

<sup>3</sup> . في الصحاح : ( الرجم أن يتكلم الرجل بالطن . يوهر ها الكلام الذي لا يرفق على حقيقته . الصحاح : 5/1928

<sup>4</sup> . النبع : ( شجر تتخذ القسي والسهام ، واحدها : نبع . ) ويصلب الع أي ينكم الرأي . الصحاح : 3/1288 .

<sup>5</sup> . صني : تصغير صوي ، أي أخي الشقيق .

<sup>6</sup> . أطواق الذهب في المواعظ والخطب : 26 - 28

ولما كان بجني هذا يقوم على عقد موازنة بين تفسير الكشاف للزمخشري والبحر المحيط  
لأبي حيان الأندلسي ، فإن هذا يدعونا لتخصيص الفصلين اللاحقين للتعريف بهذا المفسر  
الثاني ، وإلقاء نظرة موجزة عن عصره ، وهذا ما سنعرفه في الصفحات الآتية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



جامعة الأمير

## الفصل الثالث

عصر أبي حيان الأندلسي

العلوم الإسلامية

# المبحث الأول

## الحياة السياسية في غرناطة

### المطلب الأول : دولة الإسلام بالأندلس

مر الوجود الإسلامي بالأندلس بأربعة مراحل رئيسية :

— المرحلة الأولى<sup>1</sup> : وهي مرحلة الفتح والتوسع ، وتبدأ من يوم نزل طارق بن زياد بجيشه في ما يسمى اليوم بجبل طارق في شهر رمضان سنة : 92هـ — وهزم جيش طارق جيش رودريك — حاكم أسبانيا يومئذ — وحقق المسلمون رغم كثرة أعدائهم نصرا ساحقا .

وكان من أثر هذا النصر الذي أحرزه المسلمون أن امتد زحفهم داخل أسبانيا ، ولم يواجه طارق سوى مقاومة ضئيلة في بعض المدن ، بل إن الأسيبان كانوا يسلمون إلى الفاتحين بلدا بعد بلد ، ومعقلا بعد معقل ، ومن هذه المدن : طليطلة عاصمة أسبانيا في ذلك الوقت .

ولما علم موسى بن نصير بانتصارات طارق بن زياد في الأندلس ، لحق به في جيشه كثيف من العرب والبربر حتى يتم معه هذا النصر العظيم ، فعبر إلى الأندلس ، وسار في طريق غير الذي سار فيه طارق ، ففتح المدن الغربية وواصل زحفه حتى التقى بطارق ، ثم سارا معا شمالا ففتحوا بقية أسبانيا حتى جبال البرانس .

ولقد فكر موسى بن نصير بعد أن فتح أسبانيا أن يعبر جبال البرانس إلى أرض غاليا — فرنسا حاليا — ومنها يسير شرقا لتحقيق مشروع كبير يرمى منه إلى فتح القسطنطينية — عاصمة الدولة البيزنطية — . لكن الخليفة الوليد بن عبد الملك رفض المشروع خشية على المسلمين من الهزيمة في أرض واسعة ، وطريق لم يقطعه فاتح من قبل .

<sup>1</sup> . د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي ، معالم التاريخ الإسلامي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص : 263 — 266 . بعرف

وظل المسلمون يجرّكهم هاجس التوسع في الفتوحات إلى سنة 114هـ وهو تاريخ وقوع معركة "بواتيه" الشهيرة على مسافة سبعين كيلومتر (70 كلم) من بساريس، حيث دار قتال مرير بين المسلمين والفرنجية لبضعة أيام، وانتهت بتراجع المسلمين، وسميت هذه الواقعة باسم "بلاط الشهداء" وذلك لكثرة من استشهد فيها من المسلمين، وتعد هذه الواقعة من المعارك الفاصلة في تاريخ الأندلس، وهما توقفت الفتوحات الإسلامية في الأندلس.

**المرحلة الثانية<sup>1</sup>:** وهي مرحلة بداية الإضطراب واستمراره، منه الصراع الذي سببه الخلاف بين العرب والبربر، ومنه الصراع الواصل من المشرق، وهو امتداد للصراع بين الأسترتين الأموية والعباسية حول الخلافة، وقد أفرز هذا الصراع قيام دولة أموية عاصمتها قرطبة، وحقت قدرا هائلا من التقدم والإزدهار حتى سنة: 238هـ وهي تاريخ وفاة عبد الرحمن الأوسط، حيث عادت دولة الأندلس للتفكك والصراع، وظلت سلطة الأمويين في حركة مد وجزر بينها وبين خصومها من الخارج وهم الفرنجية، ومن الداخل مسلم وهم البربر، إلى سنة 222هـ حيث زالت الخلافة الأموية، وانقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات، حتى أصبح لكل مدينة أميرها المستقل، ودخلت الأندلس في عصر جديد يعرف بعصر ملوك الطوائف.

**المرحلة الثالثة<sup>2</sup>:** وهي مرحلة عرفت باسم "عصر ملوك الطوائف"، حيث كان يقيم بالأندلس عناصر البربر والصقالبة<sup>3</sup> والعرب، فأصبح لكل منها نفوذ في الدويلات الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية بالأندلس، فقامت للبربر دولة في مدينة مالقة، وللصقالبة دولة بني عامر في بلنسية، وللغرب دولة بني مود بسرقسطة، وبني جمهور بقرطبة، وبني عباد بأشبيلية.

وقد أدى انقسام الأندلس إلى دويلات، واشتغال الملوك بالترف إلى تحريك أطماع الفرنجية في شمال أسبانيا، مما دفعهم للتعاون والإستفادة من الخلافات القائمة بين ملوك

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 267 — 271 . بتصرف

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 272 — 274 . بتصرف

<sup>3</sup> . الصقالبة : وهو اسم كان يطلق على أسرى الحرب مع جميع البلاد الأوروبية ، وعلى ما وقع في أيدي المسلمين من الرقيق . انظر :

أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، ط5 ، 1969م ، ج6/3

الطوائف ، لولا تدخل يوسف بن تاشفين الذي أغاثهم ، وصد أطماع الفرنجة ، فأجمع القضاة والفقهاء على مملكته على البلاد ، وقبل بعد تردد ، وتقليد زمام الأمور بالأندلس ، بعد أن استولى جنوده على مدن ملوك الطوائف . وبذلك انتهى عهد ملوك الطوائف بالأندلس سنة : 482هـ / 1089م .

المرحلة الرابعة<sup>1</sup> : وهي مرحلة التقلص والانحسار ، فبالرغم من إعادة لم شمل الأطراف المتصارعة تحت لواء واحد ، فإن جدوة الاختلاف ظلت تستمر تحت الرماد ، في الوقت الذي عاد نصارى الشمال إلى توحيد صفوفهم ، وشن غاراتهم المتتالية على بلاد الأندلس ، وأعلنوا حرباً لا هوادة فيها على المسلمين ، حتى أنه فيما بين سنة : 626هـ — سنة : 660هـ تغلب نصارى الشمال على شرق الأندلس بأكمله ، وانحسر ملك المسلمين في أسبانيا في مملكة غرناطة .

أسس دولة غرناطة محمد بن يوسف بن نصر سنة : 629هـ وقد تابع على هذه الدولة عشرون حاكماً من أسرته إلى أوائل القرن التاسع الهجري ، حيث ظلت دولة غرناطة محافظة على كيانها واستقلالها لمدة تزيد عن القرنين من الزمن ، وما فتئت طيلة هذه المدة عوامل الضعف والإضمحلال تتسرب إليها ، وفي الوقت الذي كانت الإنفصالات الداخلية تعظم ببطء كيان هذه الدولة ، وقع بالمقابل اتحاد مملكتي قشتالة وأرجونة سنة : ( 876هـ — 1469م ) فاستغل الأسبان ظروف الخلافات القائمة في مملكة غرناطة ، فوجهوا هجومهم عليها ، واستولوا على مدنها الواحدة تلو الأخرى ، حتى كان آخرها مدينة غرناطة ، حيث اضطر ملكها أبو عبد الله محمد بن علي بن نصر إلى تسليم المدينة إلى فرديناند — ملك أرجونة — في ربيع الأولى سنة : 897هـ وبذلك انتهى حكم المسلمين بالأندلس .

ويمكن تلخيص أسباب سقوط قواعد الأندلس ، وانحسار الوجود الإسلامي في غرناطة فيما يأتي :

1 — الصراع الداخلي المستمر بين الدول المتعاقبة على حكم الأندلس ، بل وداخل الدولة الواحدة بين أفراد الأسرة الحاكمة .

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 274 — 275

2 — تقطع علاقة الصداقة بين دولة الإسلام في الأندلس ودولة الإسلام في المغرب ،  
وضعف الثقة بين حكام البلدين في أغلب الأحيان .

3 — توحد مملكتي قشتالة وأرجونة في منتصف القرن السابع ، وإحياء العنصر الديسني  
وتقليده في دوافع الحرب عند النصارى ، وقد صار نشاط الرهبان في ذلك الصراع بارزا .  
وغير مثال على ذلك قول القسيس المؤرخ أنطونيو أجايدا في سياق كلامه عن سقوط  
مدينة " رندة " في أيدي الأسبان يومئذ ما نصه :

( وبذلك سقط وكر من أوكار الحرب ، وتمحلت رندة إلى الدين الحقيقي ، ويرجع  
الفضل في ذلك إلى رعد المدافع ، ومثال رندة سوف تحلوه مدن وقلاع إسلامية أخرى  
في هذه المنطقة ، وقد بلغ عدد القلاع والحصون التي أنقذت من يد أتباع محمد حتى  
هذه المدة وحدها إثنين وسبعين حصنا وقلعة ، وهي كلها الآن موضوعة تحت حكم  
الصليب . )<sup>1</sup>

ومثلما عرف المسلمون نظام المراقبة في الثغور ، فإنه سرعان ما تأثر به المسيحيون ،  
وتكونت لهم ما عرف باسم فرق الفرسان ، حيث كان له أثر بارز في تلك الحروب .  
لهذه الأسباب وغيرها وقع التراجع والانهيار في جانب دولة الإسلام في الأندلس ،  
وانزوى ملكهم في رقعة غرناطة ، وبسط النصارى سلطتهم بالمقابل على تلك الديار التي  
خلف فيها المسلمون من جنات وعيون ، و زروع ومقام كريم .

#### المطلب الثاني : مملكة غرناطة في القرن السابع الهجري

وبعد هذا المدخل التاريخي الوجيز للوجود الإسلامي في الأندلس ، الذي من خلاله  
نتبين كيفية ظهور مملكة غرناطة إلى الوجود ، ومكانتها من تاريخ الأندلس ، نخلص إلى  
الحديث بشيء من التفصيل عن هذه المملكة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ،  
وهي فترة تواجد أبي حيان الأندلسي لها ، فتحدث في هذا البحث عن الجوانب السياسي  
في غرناطة في فترة تواجد أبي حيان لها .

ولد أبو حيان الأندلسي سنة : 655هـ بمدينة غرناطة ، ولم يفرج منها إلا في سنة  
679هـ ، وقد فتح عينيه على فترة من تاريخ الأندلس وهي تنهاوى تحت وطأة حملات

<sup>1</sup> . واشنطن لرفج . سقوط غرناطة ، تعريب إسماعيل العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1988م ، ص : 73

الأسبان المتتالية ، حيث فقدت الأندلس معظم قواعدها التليدة في نحو ثلاثين عاما ( 627  
—655هـ ) في وابل مروع من الأحداث والمحن ، واستحال الوطن الأندلسي الذي كان  
قبل عقود قليلة من الزمن يشغل نصف الجزيرة الأيبانية إلى رقعة متواضعة ، هي مملكة  
غرناطة .<sup>1</sup>

وقد أثارت هذه المحن التي توالى على الأندلس في تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة  
الشعر والأدب ، وفيها نظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندي<sup>2</sup> مرثية  
الشهيرة التي مازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المرثية القومية وأبلغها تأثيرا في النفس ،  
وفيها يبكي قواعد الأندلس ، ويستنهض هم المسلمين لإنجاد دولة الإسلام وغوثها  
فيقول<sup>3</sup>:

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يفر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	مسن سره زمن ساءته أزمان
فجائع الدهر أنواع متنوعة	وللزمان مسرات وأحزان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له	هوى له أحد وأهل منه ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية	وأين شاطبة أم أين جيسان
وأين قرطبة دار العلوم فكهم	من عالم قد سما فيها له شان
قواعد كن أركان البلاد فما	عسى البقاء إذا لم تبقى أركان
تبكي الحنيفة البيضاء من أسف	كما يبكي لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالصة	قد أفقرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنا	نس فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة	حتى المنابر ترثى وهي عيدان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
لمثل هذا ينوب القلب من كمد	إن كان في القلب إسلام وإيمان

<sup>1</sup> . انظر : حسين مؤنس ، رحلة الأندلس ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط 2 ، 1985م ، ص: 170

<sup>2</sup> . انظر ترجمته : المقرئ ، نفع الطيب من غصن الأندلس المرطوب ، دار صادر بيروت ، 1988م ، ج 594/2

<sup>3</sup> . نفع الطيب : 594/2

وقد ذكر صاحب الذخيرة السنية أن الشاعر نظم هذه القصيدة حينما نزل ابن الأحمر للنصارى سنة: 665هـ عن عدد كبير من القواعد الأندلسية ، وقد توفي أبو الطيب بعسد هذه الأحداث بنحو عشرين عاما في سنة: 684هـ<sup>1</sup> .

ويذكر المؤرخون أن في مطلع القرن السابع الهجري قد غلب الضعف على أركان دولة الموحدين ، وازدادت ضعفا بجروج بعض قواعد الأندلس من قبضتهم ، إلى ابن هود تارة ، وإلى النصارى تارة أخرى ( وفي هذا الظرف بالذات ظهر ابن الأحمر ، محمد بسن يوسف النصري ، كعنصر جديد في حلبة الصراع ، وسرعان ما بسط نفوذه على حصون وقلاع كثيرة رغم معارضة ابن هود له ، وقد صار ابن الأحمر أمل المسلمين الفارين من المدن التي وقعت تحت قبضة النصارى ، وازداد تعلق الأندلسيين به بعد وفاة ابن هود سنة: 635هـ )<sup>2</sup>

وصادف أن ثار أهل غرناطة على أميرهم عتبة بن نجى المغيلي — وكان خصما لدودا لابن الأحمر — ثاروا عليه وقتلوه ، وأعلنوا ولائهم لابن الأحمر الذي دخل غرناطة سنة 635هـ وجعل منها مقر حكمه ، وكان من أعوان ابن الأحمر فيما حققه من انتصارات أصهاره بنو أشقيلولة — بطن من قبيلة زناتة البربرية — وقد تمكن نفوذهم بمرور الأيام وصاروا العضد الأيمن لابن الأحمر ، ولكن سرعان ما ظهرت أطماعهم في الحكم وحساب ظن ابن الأحمر فيهم<sup>3</sup> .

وإذا كان الشعب قد آثر الوحدة تحت لواء ابن الأحمر ، فإن الحكام قد تأصلت فيهم روح التفرقة والعداء ، وظل أغلبهم في مناوئة مستمرة مع إمارة غرناطة . وقد أصبحت غرناطة عاصمة للأندلس منذ عام 635هـ حين استقرت لبني الأحمر دولة فيها ، بعد الحروب التي شنها النصارى ضد المسلمين ، وصارت مأوى للمسلمين المشردين من مدتهم وقراهم ، فتكاثر سكانها وازدهرت بالعمال والصنائع .

<sup>1</sup> . محمد عبد الله عنان ، مله الأندلس ، الناشر مكتبة الخاشي ، القاهرة ، ص: 50

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 28

<sup>3</sup> . انظر : كتاب العموديان المتأخرين : 197/7

وانحصرت مملكة غرناطة في الجزء الجنوبي الشرقي من جنوبي الوادي الكبير إلى الجزيرة الخضراء من مدينة بسطة ، وكانت في عهد بني الأحمر تشمل ثلاث ولايات : ولاية غرناطة ، وولاية ألمرية ، وولاية مالقة<sup>1</sup> .

كما كانت مدينة غرناطة مسورة محصنة ، نظرا للظروف القتالية التي كانت تعيشها ، وكان يحف سورها البساتين العريضة والأشجار المتنفة العظيمة<sup>2</sup> . ويشتمل سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء ما ينيف على مائة وثلاثين رحي<sup>3</sup> .

ومهما أصاب أهل الأندلس من نكبات متتالية على يد النصارى يومئذ ، وأدى ذلك إلى انحسار وجودهم في غرناطة ، فإن هذا قد أعطاهم دفعا جديدا للمحافظة على وجودهم ، حيث أن هذه المملكة الناشئة قد اجتمعت فيها خلاصة ما أفرزته الحضارة الإسلامية في تلك البلدة خلال سبعة قرون ، هذه الحضارة التي أهرت الدارسين والمؤرخين قديما وحديثا<sup>4</sup> .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن مملكة غرناطة كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة ، وسبع وتسعين قلعة ، عدا الأبراج والحصون والقرى العامرة .. قال شكيب أرسلان : وورد في التاريخ العام للعلامة كثر الشهير أن سلطنة غرناطة في تلك الأيام كانت تحتوي ثلاثين مصرا وثمانين مدينة صغيرة ، وعددا لا يحصى من الأبراج والحصون ، وقد قدر بعض المؤرخين عدد بقية المسلمين في الأندلس بأربعة ملايين من النسمة ، وقالوا إن السلطان أبا الحسن بن الأحمر داخلته الخيلاء بسط سلطانته وكثرة جنوده ، بحيث أنه لما اجتمعت له الكلمة في غرناطة ، ووجد صفوف أهلها هناك ، صارت له قوة لا يستهان بها ، فلما أشخص فرديناند وإيزابيلا سفراءهما بطلب الجزيرة واقتضاء الخضوع من صاحب غرناطة ، ولما عرضوا الأمر على السلطان أبي الحسن بسن الأحمر أبي قبولة كسل الإباء وقال لهم :

<sup>1</sup> . انظر : دولة الإسلام بالأندلس : 55

<sup>2</sup> . لسان الدين الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع ، ط 1 ، 1977م ، ج 1/97

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 133/1

<sup>4</sup> . رحلة الأندلس : 162



" اذهبوا وأخبروا من أرسلكم ، أن الملوك الذين كانوا يودون الجزية قد ماتوا منذ عهد طويل ، وأن " دار الضرب " في غرناطة عادت لا تضرب فضة ولا ذهباً ، ولا تضرب إلا سيوفاً وحراباً " .<sup>1</sup>

ولكن مع هذه القوة التي ورثها بنو الأحمر ممن سبقتهم من دول في الأندلس ، فإن مملكة غرناطة قد نشأت من غمر الفوضى التي سادت الأندلس ، على إثر انهيار الموحديين ، ومن هنا كانت في حاجة إلى الاستقرار والتوطد ، بعد الحروب والفتن التي مزقتها شيئاً ، ففي الوقت الذي كان ابن الأحمر يعطي بتأييد جمهرة واسعة من الشعب ، كان أصاغر الزعماء والحكام يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى ، والاحتفاظ في ظلهم وقواعدهم على مظاهرة بني الأحمر ، وحدث ذلك بنوع خاص في مرسية وشرق الأندلس ، وهكذا كان الخلاف بين أبناء الأمة الواحدة في تلك الآونة العصية يذهب إلى حد التضحية بأقدس المبادئ ، وكانت وشائج الدين والقومية والخطر المشترك كلها تفيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة ، في الوقت الذي كان فرديناندو الثالث يرى في ابن الأحمر زعيم الأندلس الحقيقي ، والخصم الذي يجب تحطيمه ، ولكن ابن الأحمر هو الآخر لم يلبث طويلاً لما رأى معاقل الأندلس تنهاوى بسرعة الواحدة تلو الأخرى أن عمد إلى مصانعة ملك قشتالة ومصالحته ، وقد كان ذلك بشروط قاسية من ملك قشتالة ، من بينها تقليم العون العسكري — متى طلب منه ذلك — ضد إخوانه في الدين والوطن . على أن ابن الأحمر لم يكن يعترم المضي في ذلك المسلك المولم والمهين إلى النهاية ، بسبل كانت نفسه الوثابة تحدثه من وقت لآخر بان يحطم هذه الأغلال الشائنة التي صفتته بها مخالفة النصارى ، فكان يتجه ببصره إلى ما وراء البحر إلى إخوانه في الديين في عدوة المغرب ، وعلى الرغم من الصراع الدائر يومئذ بالمغرب بين الدولة الناشئة — بني مرين — والدولة المحتضرة — دولة الموحديين ، فإن كتائب المجاهدين من بني مرين لم تلبث أن هرعت إلى غوث الأندلس ، وكان ابن الأحمر قد بدأ في الوقت نفسه يشعر بمقدرته على مواجهة النصارى ، والخروج من طاعتهم ، وحماية مملكته الفنية من عدوانهم ، ولما فاتحه

<sup>1</sup> . شكيب أرسلان . خلاصة تاريخ الأندلس ، منشورات دار الحياة ، بيروت ، 1983م ، ص: 182

النصارى بالعدوان وغزوا أراضيه في سنة :660هـ استطاع بمساعدة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين وفدوا من وراء البحر أن يهزمهم ويردهم<sup>1</sup> .  
ولما رأى ملك قشتالة ما صار إليه حاكم غرناطة من القوة والمنعة ، فإنه غير من خطته فأتجه إلى العمل على إسقاط باقي القواعد الأندلسية الأخرى ، و ما أن حلت سنة : 665هـ حتى سقطت تلك القواعد ، واضطر ابن الأحمر في أواخر سنة : 665هـ أن يتزل له عن عدد كبير من البلاد والحصون ، وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدهما في نحو ثلاثين عاما ( 627 - 665هـ )

ويذكر المؤرخون أن محمد بن الأحمر كان يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والإقدام ، وشغف الجهاد ، والقدرة على التنظيم ، إلى جم التواضع والبساطة ، فهذا ابن الخطيب - مؤرخ الدولة النصرية - يصفه بقوله : ( كان هذا الرجل آية من آيات الله في السداحة والسلامة ، جنديا ثغريا ، شهما ، أيدا ، عظيم التجلد ، رافضا للذعة والراحة ، مؤثرا للتشرف و الاجتراء باليسير ، متبغا بالقليل ، بعيدا عن التصنع ، شديد العزم ، مرهوب الإقدام .. مباشرة للحروب بنفسه ، يخصف النعل ، ويلبس الخشن ، ويؤثر البسداوة ويستشعر الجد في أموره . )<sup>2</sup>

( وكان يعرف بالشيخ ، ويلقب بأمر المسلمين ، وهو اللقب السذي غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد ، وكان يدقق في جمع الأموال والجبايات حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح ، وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين في الأسبوع يستمع فيها إلى الظلمات وذوي الحاجات ، ويستقبل الوفود ، وينشده الشسعراء ، وكان يجسري في تصريف شؤون الملك على قاعدة الشورى فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ، ومن إليهم من ذوي الرأي للإسترشاد برأيهم ونصحهم ، وكان من شعرائه أبو الطيب الرندي ، صاحب المراثية المشهورة . )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . نهاية الأندلس : 47 بتصرف

<sup>2</sup> . الإحاطة في أخبار غرناطة : 61/2

<sup>3</sup> . ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر في أيام العرب والمعجم والترير ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1978م ، ج 190/7

### المطلب الثالث : مملكة غرناطة بعد وفاة ابن الأحمر

لما توفي محمد بن الأحمر — مؤسس مملكة غرناطة — خلفه في الملك ولده وولي عهده أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه ، وكان مولده بغرناطة سنة : 533هـ ( وهو الذي رتب رسوم الملك للدولة النصرية ، ووضع ألقاب خدمها ، ونظم دواوينها وجباها ، وخلع عليها بذلك صفتها الملوكية الزاهية ، وكان يتمتع بكثير من الخلال الحسنة ، من قوة العزم ، وبعد الهمة وسعة الأفق ، والبراعة السياسية ، وكان عالما أديبا يقرض الشعر ويؤثر مجالس العلماء والأدباء . )<sup>1</sup>

وفي عهده ازداد نشاط ملك قشتالة في محاربة المسلمين ، ولكن ملك غرناطة تفرغ لنشاطه فسارع — عملا بوصية أبيه — إلى الإستنجاد ببني مرين في المغرب ، فلبوا النداء رغم الصراع القائم يومئذ بتلمسان ، واهتزت الأندلس كلها لعبور ملك المغرب ، ولكن ابن الأحمر ما لبث أن غادره مفضيا لما رأى من تدخله في شؤون الأندلس بصورة مريبة . وقد أتبعه ملك المغرب أبو يوسف إلى مواجهة نصارى قشتالة ، وألحق بهم هزائم قوية أعادت إلى الأذهان الانتصارات الكبرى في العهود السابقة ، على أن هذا النصر الباهر الذي أحرزه السلطان أبو يوسف المريني على النصارى لم يحدث أثره المنشود في بلاط الأندلس ، وذلك أن محمد بن الأحمر جنح إلى الارتياح في نيات ملك المغرب ، وكانت لا تزال مأساة ملوك الطوائف وغدر المرابطين هم ماثلة بذهنه ، فجال بخاطره أن التماسهم مع ملك قشتالة خير وأبقى<sup>2</sup> .

( وقد ظل تعلق بني مرين بالأندلس لسنوات ، فتوجس ملك قشتالة هو الآخر مسن مشاريع سلطان المغرب ، وسعى بدوره إلى مخالفة ابن الأحمر ، وحذره من نيات المغاربة ، واستيلائهم على الثغور الأندلسية ، ولكن هذا الحلف لم يدم طويلا لنقضه من طرف ملك قشتالة ، فرجع ملك غرناطة إلى مصانعة بني مرين ، وهكذا استمر محمد الفقيه في حكم

<sup>1</sup> . الإحاطة في أخبار غرناطة : 565/1

<sup>2</sup> . انظر : حياة الأندلس : 102

غرناطة أعواما أخرى ، وهو ثابت العهد ، مقيم على صداقة بني مريسن . إلى أن توفي سنة: 701هـ بعد حكم دام ثلاثين سنة .<sup>1</sup>

وقد ازداد ملك بني الأحمر في عهده توطدا ومماسكا ، بالرغم مما تسوالى فيه من الأحداث والخطوب ، مقارنة بما سبقه ، أو في عهد من جاء بعده<sup>2</sup> .

ويبدو من خلال هذا العرض الموجز لهذه الحقبة الزمنية من تاريخ مملكة غرناطة أن أبا حيان الأندلسي قد عاصر شطرا من حكم محمد بن الأحمر — مؤسس المملكة الفتيية — الذي توفي في سنة: 671هـ . كما عاصر أيضا حكم محمد الفقيه لبضع سنوات ، قبل أن يرحل عن الأندلس إلى المشرق .

كما يبدو من خلال المصادر التي بين أيدينا أن أبا حيان الأندلسي لم يكن على صلة مباشرة وقوية بما كان يجري حوله من الأحداث السياسية ، فلم تذكر له مواقف سياسية فيما كان يجري في هذه المملكة الناشئة . وقد يرجع ذلك إلى حداثة سنه حيث كان في هذه الفترة في مقتبل عمره ، ثم خرج منها وعمره لا يجاوز خمسا وعشرين سنة ، وقد يرجع إلى ميله المبكر إلى طلب العلم واشتغاله به ، لأن الحركة العلمية على الرغم من تلك الحوادث كلها كانت مزدهرة ، وأن أبا حيان قد نشأ منذ صغره زاهدا في التقرب إلى حكام عصره ، ميالا إلى تحصيل العلوم ، وقد أشار إلى ذلك في كلامه عن سبب خروجه من الأندلس . كما أن نزعتة الشخصية كانت تأمى عليه مصانعتهم والسير في ركابهم ، وقد صرح بذلك في أكثر من موضع من كتبه ، منها ما جاء في مقدمة تفسيره عندما قال : ( فجعلت العلم بالنهار سحيري ، وبالليل سميري ، زمان غميري يقصر ساريه على الصبل ويهب للهو ولا كهبوب الصبا ، ويرفل في مطارف اللهو ، ويتقمص أردية الزهو ، ويؤثر مسرات الأشباح على لذات الأرواح ، ويقطع نفائس الأوقات في خسائس الشهوات ، من مطعم شهبي ومشرب روي ، وملبس همي ، ومركب خطسي ، ومفرش وطسي ، ومنصب سني ، وأنا أتوسد أبواب العلماء ، وأتقصد أمائل الفهماء ، وأسهر في حنادس الظلام ، وأصير على شظف الأيام ، وأوثر العلم على الأهل والمال والولد . )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 110

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 112 وما بعدها

<sup>3</sup> . أبو حيان ، البحر المحيط ، الناشر مكة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ج 1/4

فقد أشار في هذا النص إلى أنه في الوقت الذي كان أقرانه يتطلعون إلى رغد العيش عن طريق الحرص على النصب والتقرب إلى الحكام ، كان هو يجلس نفسه على أبواب العلماء ، ويقضي زهرة شبابه في ملازمة الفقهاء .  
وربما يضاف إلى ذلك كونه من عائلة بسيطة لم تكن لها علاقة بالرجال الأعيان وذوي المكانة العالية في مملكة غرناطة .

## المبحث الثاني

### الحياة الاجتماعية والدينية

#### المطلب الأول : الحياة الاجتماعية

ولقد تميز النصف الثاني من القرن السابع الهجري بشيء من الهدوء النسبي بعد أن سقطت معظم القواعد الأندلسية التليدة ، وانكشفت رقعة الأندلس تباعا في الركن الغربي الجنوبي للمملكة الإسلامية القديمة في مملكة غرناطة .  
وكانت مملكة غرناطة بالرغم من صغرها من حيث المساحة تظم ثروات ضخمة من الموارد الطبيعية ، من بينها الذهب والفضة والنحاس والحديد ، وتفيض الأنهار على بساطها بالماء الغزير . فازدهرت بذلك الصناعة والزراعة على السواء<sup>1</sup> .  
وقد تفنن أهل غرناطة في تسخير هذه الموارد ، ( فأبدعوا في مجال الزراعة والحرف والصناعة ، بما أدى إلى الرخاء والازدهار في الحياة الاقتصادية ، وانعكس ذلك على الحياة الاجتماعية .

كما أدى ازدهار الصناعة والأعمال الحرفية بغرناطة إلى بروز نشاط واسع في التجارة ، مما جعل لهذه المملكة صدى واسعا داخل الممالك الأوروبية المجاورة . ( وقد عقدت غرناطة مع مملكتي قشتالة وأرغونة وبعض إمارات إيطاليا معاهدات تجارية متنوعة ، تنظم

<sup>1</sup> . الإحاطة : 104/1

سبل الاستيراد والتصدير ، وتبادل المواد الأولية بأنواعها ، وتؤمن ظروف تحرك التجار وأسباب إقامتهم .<sup>1</sup>

وكانت مناصب المحكم الرئيسية في حكومة غرناطة تنحصر في السوزارة والجيش والقضاء ، فأما الوزارة فكانت تسند غالبا إلى أحد الأعلام من رجال القلم ، وكان الوزير يمثل رأس السلطة التنفيذية الحقيقية ، ويستعين في ذلك بطائفة من الكتاب لتنفيذ مختلف مهامه .

وكان من أبرز وزراء دولة بني الأحمر لسان الدين ابن الخطيب ، وهو وزير مشهور ، من أجله ألف المقرئ كتابه " نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب في ترجمة لسان الدين ابن الخطيب " في بضعة أجزاء كبار . ومثلما اقترن تاريخ دولة آل سلجوق باسم وزيرها نظام الملك لسعة فضله عليها ، فإنه اقترن إسم دولة بني الأحمر أيضا باسم وزيرها لسان الدين ابن الخطيب<sup>2</sup> .

وأما قيادة الجيوش فكان يختص بها — منذ أواخر القرن السابع الهجري — أسرة بني العلاء ، أحد بطون بني مرين ، لما اشتهر به أولئك القواد المغاربة من البراعة والشجاعة ، وقد كانت قوة غرناطة العسكرية في الواقع عماد حياتها التي لها استطاعت أن تعتمد أكثر من قرنين ، بالرغم من القوى الجرازة المعادية ، وكانت القواعد الأندلسية . من جراء الحروب المتواصلة ، قد حولت جميعها إلى قلاع منيعة ، وأهم من ذلك كله أن مسلمي غرناطة كانوا قد وقفوا فيما يبدو على سر البارود ، وكان لذلك أثر واضح في تمكين مملكة غرناطة من الصمود طيلة ذلك العصر<sup>3</sup> .

( أما في قطاع القضاء فكانت أرفع المناصب القضائية منصب قاضي الجماعة ، وهو ما يقابل في الأندلس منصب قاضي القضاة في الأقطار الإسلامية الأخرى ، والأغلب أن يجمع بين منصبه ومنصب خطيب الجامع الأعظم ، وهو أيضا من المناصب الدينية الرفيعة . ويتبع القضاء وظيفة الحسبة ويختص صاحبها بمطاردة المنكرات والتعزير ، وحمل الناس على

1 . يوسف شكري فرجات ، غرناطة في ظل بني الأحمر ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 1 .

1982م ص: 150

2 . انظر عهد لئمة عمان . حياة الأندلس : 443

3 . المصدر ص: 444

احترام الأحكام الشرعية ، وقمع الفس و ضبط المعاملات والمكايل . ويضاف إلى ذلك منصب متولي الشرطة ، وهو أيضا من أعظم المناصب القضائية والإدارية ، وحل اهتمامه حفظ النظام والأمن ، وإقامة الحدود ، ويساعده في ذلك حراس نجوبون أنحاء المدينة ليلا ويجرسون الرق والأمكنة ويتعقبون الجناة .<sup>1</sup>

وكان الرخاء يسود مملكة غرناطة طوال أيامها ، وقلما كانت تنقص منه الثورات الطارئة أو الحروب المتواصلة ، كما كانت موارد الخزينة كثيرة ومتنوعة ، وكان ثمة طوائف كبيرة من الشعب الغرناطي تتمتع بالثراء ويقتني الكثيرون الحلبي والجواهر النفيسة ، أما نساؤهم فقد بلغن في التفنن شأوا بعيدا يسرفن في الأصباغ والمطور.<sup>2</sup>

كما كان للمرأة الغرناطية في ظل بني الأحمر ميل شديد نحو التزين ، وذوق رفيع في عملية اختيار العقود والأساور والخواتم ، ويذكر ابن الخطيب أن النساء في عصره كن يبالغن في إتقان اللباس الموشى بخيوط الذهب ، والتزين بالقلائد والحلائل والأقراط.<sup>3</sup>

( وقد عثر المنقبون في مقابر غرناطة وألمرية على مجموعة حلبي ممتاز بالدقة المتناهية في

الصناعة ، وهذه الحلبي معروضة اليوم في المتحف الأثري بمدينة مدريد .)<sup>4</sup>

وهذا يقودنا أيضا إلى الحديث عن قضية اجتماعية أخرى في حياة الأندلسيين ، وهي العناية بالمظهر الخارجي والنظافة العامة والصحة ، وقد بلغوا في ذلك شأوا بعيدا . وفي ذلك يقول المقرئ : ( وأهل الأندلس أشد خلق الله عناية بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه ، فيطويه صائما ويتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها .)<sup>5</sup>

( والمعروف أن الحمامات الخاصة والعامة المنتشرة في المدن والقرى الأندلسية كسنت

تلقى العناية الخاصة من حيث الصيانة والنظافة وتأمين الراحة للمستحمين ، فالأمراء وأبناء

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 445

<sup>2</sup> . الإحاطة : 448 / 1

<sup>3</sup> غرناطة في ظل بني الأحمر : 130 . نقلا عن اللوحة البدرية لابن الخطيب : 120

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 130

<sup>5</sup> الإحاطة : 199/1

الخاصة كانوا يبنون الحمامات في قصورهم ، بينما كان أبناء الطبقة الفقيرة يقصدون الحمامات العامة المنتشرة في الأحياء الشعبية .<sup>1</sup>

### المطلب الثاني : الحياة الدينية

كان المجتمع الإسلامي في الأندلس يغلب عليه الإلتزام بالدين ، وعلى الرغم مما تقدمه كتب الأدب والشعر من وجود صور للهو والمجون في المجتمع الأندلسي ، فإن هذا كان مستقبحا عندهم ، ولم يكن هو الصورة الغالبة على المجتمع . ( ولئن كان هناك بعض الحفلات التي تقام في قصور الملوك والسلاطين ، فإن العلماء كانوا يدعون إليها فيردون الدعوة وكذلك القضاة ، بل ويذهبون إلى حد الإنكار والمجاهرة بالرفض ، وكان لمثل تلك المواقف أثرها في المجتمع الأندلسي .<sup>2</sup>

ويصف ابن خلدون أهل الأندلس يوم دخلها بأنهم ( أهل تدين والتزام بشعائر الإسلام ، وكانوا يخيرون المناسبات الدينية وقيمون لها الاحتفالات العظيمة ، ويلتقي فيها الشعراء ، وينشدون أحسن ما عندهم من أشعار .<sup>3</sup>

كما ذكر المقرئ أن الغالب عند أهل الأندلس إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة بذلك .<sup>4</sup>

وكان المذهب المالكي هو المذهب الفقهي السائد في الأندلس ، وخاصة بعد سفر يحيى بن يحيى الليثي من الأندلس إلى المدينة ، وتلقيه العلم عن الإمام مالك مباشرة ، حيث علم فروى الموطأ عنه ، وأخذ عنه طلاب العلم هناك ، ثم كان تولية القضاء في مدن الأندلس بمشورة هذا الإمام ، وكان لا يشير إلا بمن أتقن المذهب المالكي .

حيث جاء فيه : ( وإليه انتهت الرياسة بالأندلس ، وبه انتشر مذهب مالك هناك .<sup>5</sup> ) وإن كان هذا لا ينفي وجود فقهاء على مر القرون هناك كانوا يميلون إلى الاجتهاد ، ويلمبون بالمذاهب الفقهية الأخرى ، أمثال ابن عبد البر وابن العربي ، والقرطبي المفسر ، وأبو حيان الأندلسي هو الآخر كان ظاهريا في بادئ الأمر ، ثم صار شافعيًا ، ولعل هذا

<sup>1</sup> . غرناطة في ظل بن الأحمر : 131

<sup>2</sup> . مصطفى الشكعة . الأدب الأندلسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 6 ، 1986 م . ص : 107

<sup>3</sup> . كتاب العم : 881/7

<sup>4</sup> . انظر الإحاطة : 204/1

<sup>5</sup> . انظر الحسيدي . حدود المقتبس ، القاهرة ، 1963 م ، ج 2/38



كان أحد الأسباب التي حملته على الهجرة ، لأن الظاهرية وكتبهم كانت محاربة ممنوعة ، وإنما يقتنيها الخواص من العلماء ، وأشهرها " المحلى " لابن حزم .<sup>1</sup>

وقد كان أهل الأندلس من الناحية العقيدية على مذهب أهل السنة وعلى طريقة السلف ، إلى أن جاء محمد بن تومرت المهدي — مؤسس دولة الموحدين في المغرب التي سيطرت على الأندلس فيما بعد ، وورثت دولة المرابطين ، فنشر المذهب الأشعري ، ويمكن له حتى أصبح جمهور علمائهم على مذهب الأشعري في العقيدة .<sup>2</sup>

ومما يميز به المجتمع الأندلسي أنه لم تقاسمه الفرق الكلامية ولا حتى المذاهب الفقهية ، وقد ذكر ابن حزم أن من فضائل أهل الأندلس عدم رواج علم الكلام بينهم ، وليس له سوق نافقة هناك .<sup>3</sup>

وأكد هذا القول المقدسي حينما ذكر : ( أنه دخل الشام فلم يجد إلا قليلا من المعتزلة ، وكانوا في خفية ، ودخل الأندلس فلم يعثر لهم على أثر ، وقد كان أهل الأندلس جميعا مالكيين ، وكانوا إذا وقعوا على معتزلي أو شيعي ربما قتلوه .<sup>4</sup>

ولم يستثنوا المذهب الظاهري في الفقه ، حيث ظل محصورا في أفراد معدودين — منهم أبو حيان المفسر — وإن كتب هذا المذهب كانت في حكم المحظور ، ولا يقتنيها إلا الخاصة من العلماء .

ولعل هذه الوحدة الفكرية هي التي زادت المجتمع الأندلسي تماسكا واستمرارا أمام الأحداث المولدة والمحن المتتالية في الجانب السياسي .

وكان لتيار الزهد مكانه في المجتمع الأندلسي ، ( ويبدو أن عدد الزهاد في الأندلس كان يمثل نسبة معتبرة ، حتى إن ابن بشكوال — فيما يروي ابن الأبار — قد صنف كتابا بعنوان " زهاد الأندلس وأئمتها " غير أن هذا الكتاب قد ضاع بين الآلاف العديدة من كتب التراث التي عدا عليها الزمن بمحنة أو بأخرى ، ولكن إذا كان الأدب — بشعره ونثره — يمثل الوجه الحقيقي لأي مجتمع من المجتمعات ، فإن الأدب الأندلسي مثلما عرّف

<sup>1</sup> . انظر نفع طيب : 51 / 5

<sup>2</sup> . انظر السلاوي ، الاستغناء في أخبار المغرب الأقصى ، النار البيضاء ، 1954م ، 126/1

<sup>3</sup> . المقرئ . نفع الطيب : 154/4

<sup>4</sup> . الصاوي الجويني . منهج الزعزعي في تفسير القرآن وبيان إعجازة : 21

جانِب الطرب والمجون في ذلك المجتمع ، فإنه كشف بوضوح عن جانب الزهد كوجه آخر للمجتمع الأندلسي .<sup>1</sup>

وإذا سلمنا بأن ظاهرة الزهد كثيرا ما تكون كرد فعل على التطرف القائم في أغلب المجتمعات المبالغة في الترف ، فلا عجب إذا علمنا ما كان من تطرف في الميل للمتعة والانحلال في الأندلس أن ينشأ مقابل ذلك موجة من الزهد تغالب ذلك المظهر المضاد من الفساد .

ورغم هذا فإن التصوف لم يجد أرضا خصبة بالأندلس على كثرة العباد والزهاد منذ فجر الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، بل قد كان هذا التوجه ممقوتا عندهم ، وفي ذلك يقول المقرئ : ( وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدورة التي تكسل عن الكد ، وتخرج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى النهاية ، وإذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سيوه وأهانوه ، فضلا عن أن ينصلقوا عليه ، فلا تجد في الأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر . )<sup>2</sup>

ولقد اشتهر موقف المرابطيين من كتب الغزالي ، ومن كتابه " إحياء علوم الدين " بصفة خاصة ، وأوامرهم المتتالية بإحراقها ، والتكليل بمن وجد عنده شيء مسها . وقد تصدى بعض علماء الأندلس للغزالي وكتبه ، فألقوا رسائل في الرد عليه أصبحت مما يتلقاه طلبة العلم عن مشايخهم .<sup>3</sup>

بل كان التصوف في الأندلس يختلف عما كان عليه عند المشاركة ، وقد صرح بذلك من كانوا أصحاب توجه صوفي في الأندلس ، من ذلك ما نقله ابن الخطيب في الإحاطة فقال : ( ومن نشر الأستاذ الجليل أبي القاسم بن خلصون قوله في أبي حسام الغزالي : والذي يجب على أهل العلم أن ينهوا الجمهور عن كتبه ، فإن الضرر فيها بالذات ، قلل : وإنما قلنا ذلك ، لأنه صرح في كتبه بنتائج الحكمة دون مقدماتها . )<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . الأدب الأندلسي : 57

<sup>2</sup> . نفع الطب : 205/1

<sup>3</sup> . المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار المغرب : 236

<sup>4</sup> . الإحاطة : 266/3

ثم نقل عن الفقيه أبي بكر الطرطوشي في كتابه الذي سماه "مراقي العارفين" أنه قال :  
( وقد دخل على السالكين ضرر عظيم من كتب هذا الرجل الطوسي ، فإنه تشبه  
بالصوفية ولم يلحق بمذاهبهم ، وخلط مذاهب الفلاسفة بمذاهبهم ، حتى غلط الناس  
فيها . )<sup>1</sup>

وقد انعكس هذا الموقف الفكري من التصوف على تفسير البحر المحيط كما سنرى  
لاحقا ، فوقف منهم موقف الخصومة والعداء ، إلا ما كان من الإشارات الخفيفة التي لا  
تخرج عن أصول الشريعة ومقاصدها العامة .

إلا أن هذا التطرف في بجافة الحركة الصوفية كان لا يخلو من رد فعل أحيانا ممن  
كانت لهم ميول واستعدادات لهذا التوجه ، فظهر من يحمل لواء الدفاع عنه ، مثل محسي  
الدين بن عربي الذي جاهر بهذا التوجه<sup>2</sup> ، وخرج من أجل ذلك إلى المشرق ، حيث  
وجد الرواج لهذا المسلك من التصوف .

ولم يلبث أن نما وانتشر التصوف بعدئذ ، لما توفرت بعض أسبابه من انغماس في  
الشهوات ، وتتابع المحن والنكبات إثر الحملات الصليبية على معاقل الأندلس ، حتى  
جاءت نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن ، حيث احتلت الصوفية مكانا خاصا في  
المجتمع الأندلسي ، فصار للصوفية رابطة في حي البيازين بقرنطة يجتمعون في كسل ليلة  
فيصارعون إلى تلاوة القرآن ، وإلى عقد حلقات الذكر ، وسماع أشعار المتصوفين المشهورين  
كالخلاج<sup>3</sup> وغيره .<sup>4</sup> وهذا مع استمرار وجود التوجه المناوئ له والمحذر منه .

<sup>1</sup> المصدر نفسه : 266/3

<sup>2</sup> محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحائمي الطائي ، الأندلسي ، المعروف بمحي الدين بن عربي ، الملقب بالشيخ الأكبر ،  
ولد بمرسية في الأندلس ، كان من أكاره فهاء المالكية في وقته ، وكان ظاهري المذهب في العبادات ، باطني الطغر في الاعتقادات ،  
فانغمس بأنه يشيع المذاهب المضلة في الاتحاد والحلول ، ووحدة الوجود ، وهو صاحب مصنفات منها تصور الحكيم ، قال ابن كثير فيه  
أشياء كثيرة ، ظاهرها كفر صريح . توفي سنة : 638هـ . انظر النهاية والبناء : 156/13 . ونعم الطيب : 161/2 .

<sup>3</sup> الحسين بن منصور الخلاج الفارسي ، البهلولي - نسبة إلى مدينة البيضاء من أرض فارس - البغدادي ، صوفي متكلم ، صاحب  
تصانيف منها كتاب الطواسين ، وبستان المعرفة ، توفي سنة : 309هـ . انظر البداية والنهاية : 132/11 ، والمنظم لابن الجوزي  
160/6:

<sup>4</sup> قرنطة في ظل بني الأحمر : 133

## المبحث الثالث

### الحركة العلمية في غرناطة

#### المطلب الأول : أصالة الحركة العلمية في غرناطة

على الرغم من الصراع المتواصل الذي عرفته الأندلس ، والحروب الدائرة بين الأسباب والدول المتعاقبة على حكم الأندلس ، فإن الحركة العلمية قد عرفت ازدهارا واسعا شمل العلوم العقلية والعلوم الشرعية ، وظلت الحضارة الإسلامية هناك مفخرة للمسلمين أمام العالم قديما وحديثا ، ولا تزال شهادات ملوك أوروبا وقادتها تنوه بما كان عليه مسلمو الأندلس من رقي علمي وتعضر ، من ذلك ما جاء في رسالة لأحد ملوك إنكلترا يتوود فيها لحكام الأندلس ، من أجل قبول بعض البعثات العلمية من أفراد الأسرة الملكية في أوروبا ليتلقوا العلم والحكمة في معاهد قرطبة وإشبيلية وغرناطة ، ومما جاء في هذه الرسالة :

( من جورج الثاني ، ملك إنكلترا والغال والسويد والنرويج ، إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس ، صاحب العظمة هشام الثالث ، الجليل المقام .  
بعد التعظيم والتوقير ، فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس هذه الفضائل ، لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم ، لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان .  
ولقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة " دويانت " على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش ، والنماس العطف لتكون مع زميلاتهن في موضع عناية

عظمتكم ، وحماية الحاشية الكريمة ، وحذب من اللواتي سيتوافرن على تعليمهن ، ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل ، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص .

من خادمتكم المطيع ، جورج . م . أ .<sup>1</sup>

ومما يزيد هذه المنجزات العلمية عظمة كونها إسلامية عريضة أصيلة ، لم تستمد جنورها الأولى من تراث سابق في تلك المنطقة ، وهذا ما شهدت به المستشرقة الألمانية في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب ، حيث قالت : ( ازدهرت حضارة العرب في المنطقة ، وبلغت أوجها ، برغم أنهم لم يجلدوا فيها شيئا من الفكر والثقافة ، كما وجدوا في البلدان الأخرى التي فتحوها مثل مصر وسورية والعراق وفارس . . وكان من المتوقع والمعقول أن تزدهر الحضارة العربية في تلك البلدان ، أما في المغرب حيث السبر ، وفي أسبانيا حيث القوط الغربيون المتأخرون ، فلم يكن ثمة ما يبشر بأي خير ، ولم تكن هذه بالشعوب التي يتعلم منها القادمون من بلاد العرب أو من بلاد سورية شيئا يفيدهم ، وبرغم هذا فقد استطاع العرب أن يقدموا للبشرية أكبر دليل على أنهم أصحاب حضارة ، وأصحاب فكر ، وليسوا مجرد نقلة لحضارات الشعوب كحمار يحمل أسفارا ، كما تنادي بذلك بعض النظريات التاريخية الخاطئة المفرضة ، ففي الأندلس لم نجد العرب شيئا بالمرة يتعلمونه ويهضمونه ليرجموه أو يقلدوه ثم يقدموه .

فالحضارة الأندلسية التي كانت أجمل وأعظم من أن تقارن بغيرها ، لم تكن قائمة على أساس فارسي أو إغريقي ، لقد كانت عربية صرفة أكثر من الحضارة العربية في أي مكان آخر ، وما أن انحسرت تلك للموجة الحضارية عن أسبانيا حتى هوت تلك البلاد في سكون مميت ، وفقر مدقع ، فليس هناك من دليل أوضح من هذا على قدرة العرب على الخلق والابتكار .<sup>2</sup>

وقد كانت السمة المشتركة التي ميزت الدول المتعاقبة على حكم بلاد الأندلس ، حب العلم والتنافس في تقريب العلماء والأدباء والحكماء ، والتسابق في تشييد المؤسسات العلمية ، حتى أصبحت بلاد الأندلس تنافس المشرق برجال العلم والمعرفة .

<sup>1</sup> . علي محمد الزبيدي، ابن جزى ومنهجه في التفسير : 24 ، نقلا عن كتاب فصل الحضارة الإسلامية، دار العلم ، دمشق ط 1 ، 1987

<sup>2</sup> . زيفريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق يصرود وكمال الدسوقي، دار الأفاق، ط7 لبنان من: 474

وهذا المقرئ التلمساني يخصص بابا من كتابه " نفع الطيب " بتراجم علماء الأندلس الذين نزحوا إلى الشرق ، فيقول : ( اعلم — جعلني الله تعالى وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال — أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ، ولا يعلم ذلك على وجه الإحاطة إلا اعلام الغيوب شديد المحال ، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط ممن هولاء الأعلام ، لطال الكتاب وكثر الكلام ، ولكننا نذكر منهم لما على وجه التوسط من غير إطباب داع إلى اللال ، واختصار مود للملام .. )<sup>1</sup> ثم أحصى ثلاثمائة وسبعة ممن هولاء الأئمة الأعلام بتراجمهم التي تنبئ عن علو مقامهم .

ثم تحدث في الباب السادس عن نزع من المشرق إلى الأندلس فذكر ستة ومائتين علما من أعلام الدين واللغويين ورجال السياسة<sup>2</sup> .

وما أن انحصر ملك المسلمين في غرناطة حتى يجمع فيها صنفوة علماء الأندلس ، وازدادت بذلك الحركة العلمية تألفا وانتعاشا ، وحسبنا أن نطالع في ذلك كتاب " الإحاطة في أخبار غرناطة " لنعرف ما كانت تزخر به من مظاهر النشاط العلمي ، وما كانت تزدهم به من رجال العلم في مختلف الفنون ، وإنما اكتسب هذا الكتاب شهرته العلمية بشهرة أولئك الأعلام الذين ترجم لهم وأحصى مآثرهم ، وخلد ذكركم .

**المطلب الثاني : أسباب ازدهار الحياة العلمية في غرناطة :**

وباتي في مقدمة الأسباب التي أدت إلى تقدم الحركة العلمية في غرناطة في عصر أبي حيان الأندلسي ما يلي :

— أن دولة بني الأحمر الناشئة قد ورثت تلك التركة الضخمة مما خلفته جهود دولتي المرابطين والموحدين في خدمة العلم والعلماء ، وورثت تلك التقاليد النبيلة في حماية النشاط العلمي وتشجيعه ، فيذكر ابن عصفور<sup>3</sup> مثلا في مقدمة كتابه " المقرب " في النحو ، أنه وضع كتابه هذا بإشارة من الأمير المظفر المويد أبي زكريا يحيى بن أبي محمد<sup>4</sup> .

<sup>1</sup> . المقرئ . نفع الطيب 50/2

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 5/3

<sup>3</sup> . ابن عصفور ، المقرب في النحو ، تحقيق أحمد عبد الستار الجهادي ، وعبد الله الجبوري ط 1 ، 1971 م ، ج 44

<sup>4</sup> . هو المولى أبو زكريا يحيى بن أبي محمد ، عبد الواحد بن أبي بكر بن المولى أبي حفص الهناني ، جد الخلفاء الحفصيين ، وماهد لهم بقرنوية ، توفي سنة : 647 هـ بمدينة عناية المرزوبة . كتاب العمر : ج 406/6

ولا تزال كتب التراجم التي اهتمت بالتأريخ للحركة العلمية في الأندلس شاهدة على ما كانت تموج به من أئمة أجلاء في العلوم المختلفة ، ومن هذه الكتب :

— كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم ~~ومحكيهم~~ خلف بن بشكوال<sup>1</sup> .

— بغية المنتمس في تاريخ رجال الأندلس ، للضبي<sup>2</sup>

— تاريخ رواة العلم بالأندلس ، لابن الفرضي<sup>3</sup>

وغيرها من الموسوعات التي ضاقت بعدد العلماء والمفكرين الذين جادت بهم الحركة العلمية في الأندلس بصفة عامة ، وفي مملكة غرناطة بصفة خاصة .

— أن أغلب السلاطين والأمراء في كل الدول المتعاقبة على الأندلس ، بل كلهم كانوا على درجة مرموقة من العلم ، وهذا يعني أنهم لم يكونوا بمعزل عن الحياة العلمية هنالك ، فقام هؤلاء السلاطين بأعمال خلدت ذكرهم في تاريخ الحركة العلمية نذكر منها :

— تقريب أهل العلم منهم ، و توليتهم المناصب العليا في الدولة ، فكان من بسين وزراء الدولة النصرية وكتابها كثير من أعلام الشعر والأدب ، ويكفي أن نذكر في هذا المقام ابن الخطيب<sup>4</sup> ، وابن زمرك<sup>5</sup> ، والشريف العقيلي خاتمة أدباء الأندلس ووزرائها، وهم جميعا من أقطاب الحركة العلمية والأدبية في مملكة غرناطة ، ومن أعلام وزرائها وسادتها<sup>6</sup> .

<sup>1</sup> . خلف بن عبد الملك بن مسعود م موسى بن بشكوال بن يوسف الخزرجي ، الأنصاري ، القرطبي ، الأندلسي ، أبو القاسم ، محدث ، حافظ ، مؤرخ ، شاعر ، ولد سنة : 494هـ له عدة مصنفات وديوان شعر ، توفي سنة : 578 هـ . انظر : ابن الأبار . النكلمة : 54/1 .

<sup>2</sup> . أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي ، أبو جعفر ، مؤرخ أندلسي ، رحل إلى بلاد المغرب والأندلس ، وتوفي سنة : 599 هـ . انظر : عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، 1993م ، ج 321/1 .

<sup>3</sup> . عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي ، الأندلسي ، المعروف بابن العرضي سمع بالأندلس وإمبينية ومكة ، له عدة كتب في التراجم ، منها شعراء الأندلس ، ، والإعلام بأعلام الأندلس وغيرها من المؤلفات ، توفي سنة : 403هـ . الصلة : 248 ، ووجيات الأعيان : 336/1 .

<sup>4</sup> . محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله ، الفرناطي ، الأندلسي ، ، أبو عبد الله ، لسان الدين ، ابن الخطيب ، ذو الوزيرين ، أدب نائر شاعر مؤرخ ، له مصنفات أشهرها : الإحاطة في أخبار غرناطة ، توفي سنة : 776 . ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، القاهرة ، 1966م ج 469/3 .

<sup>5</sup> . محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد الصيصي ، المعروف بابن زمرك ، شاعر كاتب ، وزير ، ، أصله من شرق الأندلس ~~بقرطبة~~ توفي في الأعمال الكتابية إلى أن جعله صاحب غرناطة العتي بالله كاتم سره ، قتل سنة : 733 هـ . معجم المؤلفين : 787/3

<sup>6</sup> . عبد الله عنان ، لهية الأندلس ن الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 4 ، 1987م ، ص : 461

— إقامة المكتبات العامة ليومها الدارسون ، فقد قام الخليفة عبد الرحمن الناصر باقتناء الكتب النادرة ، وكان يرسل من يبحث عنها ويشتريها له من القسطنطينية والعراق والحجاز والشام ومصر ، كما تذكر ابنه الحكم المستنصر ومكتبته الضخمة بما جمعت وأوعت من كتب لاتحد ولا توصف كثرة ونفاسة ، وبما حشد لها من الخذاق في صناعة النسخ وال ضبط والتجليد ، وكانت الدولة النصرية هي الوريث لكل تلك الكنوز العلمية<sup>1</sup> .

— ومن جهة أخرى سهر السلاطين والخلفاء على استخدام بعض العلماء الكبار من المشرق ، من ذلك مثلاً دعوة الخليفة عبد الرحمن الناصر لأبي علي القالي — صاحب الأمالي — من بغداد لقوم الأندلس ، حيث لقي عنده كل إكرام ، واختص بابنه المنتصر ، وأورث أهل الأندلس علمه<sup>2</sup> .

فورتت الدولة النصرية كل ذلك ، وحفظته وزادت عليه ، مما هيا للحركة العلمية انتعاشاً قويا لم تؤثر فيه حوادث الدهر المتتالية<sup>3</sup> .

وقد انتعشت العلوم العقلية والنقلية على السواء ، حيث كان الحكام يتدبون متخصصين لتعليم الناشئة العلوم العقلية ، ورصد الشروط الحسنة لترويجها مثلما يفعلون في خدمة العلوم النقلية ، وهو الجانب الذي اشتهرت به الحركة الفكرية في الأندلس ، وفيما يأتي بعض الأسماء اللامعة والرائدة في مختلف العلوم التي شهدت ازدهارا في مملكة غرناطة في تلك الفترة :

في مجال العلوم العقلية :

نشط الباحثون في العلوم العقلية في مملكة غرناطة في الفلسفة والمنطق والطب وعلوم الطبيعة وغيرها ، بالرغم من وجود من كان ينفر من بعض هذه العلوم ، أما الحكام فكانوا يشجعون على ذلك ، ويقربون أصحاب هذه العلوم ، ويولونهم عناية خاصة ، ولا أدل على ذلك من قصة أبي حيان التي ذكرها في سبب خروجه من غرناطة إلى المشرق ، حيث نقل السيوطي عن كتاب النصار لأبي حيان ( أن مما قوى عزمه على الرحلة عن غرناطة أن

<sup>1</sup> . انظر : نهاية الأندلس : 154

<sup>2</sup> . نفع للطب : 362/1

<sup>3</sup> . رحلة الأندلس : 162 بصرف .



بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضي والطبيعي قال للسلطان : إني قد كثرت وأخلف أن أموت ، فأرى أن ترتب لي طلبة أعلمهم هذه العلوم ، لينفعوا السلطان من بعدي ، قال أبو حيان : فأشهر إلي أن أكون من أولئك ، ويرتب لي راتب جيد وكساء وإحسان ، فتمنعت ، ورحلت مخافة أن أكره على ذلك .<sup>1</sup>

وقد برزت أسماء ، وذاعت شهرتها في الآفاق على امتداد القرون اللاحقة ، ومن هذه الأسماء :

— أبو محمد عبد الله بن أحمد الملقب ، المعروف بابن البيطار ، العالم النباتي المشهور ، والطبيب البارع ، توفي بدمشق سنة : 646هـ .<sup>2</sup>

— أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموي ، المعروف بابن الرومية الإشبيلي ، كما يعرف بالعشاب ، الطبيب النباتي ، كان إماما في الحديث وحجة في علم النبات ، وله مؤلفات في الحديث ، مثلما له مصنفات نفيسة في الطب منها الرحلة النباتية ، وتفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، توفي سنة : 637هـ .<sup>3</sup>

### في اللغة والأدب والتاريخ :

برز في هذا العصر أئمة في اللغة والأدب والتاريخ نذكر منهم :

— الفقيه الكاتب الشاعر المورخ : محمد بن عبد الله القضاعي ، المعروف بابن الأبار ، وهو حافظ ، مقرئ ، لغوي مورخ ، له مصنفات منها ، التكملة لكتاب الصلة ، وإمصاص البرق في أدباء الشرق ، وغيرها ، توفي بتونس سنة : 659هـ .<sup>4</sup>

— ( وكان من مفاخر بني الأحمر ظهور الرحالتين النابغتين المشهورتين وهما : ابن بطوطة (703 — 779هـ) ، وابن جبير (540 — 614هـ) . فابن جبير أبحر من جزيرة طريف إلى الإسكندرية ، ومكة ، ولما فرغ من حجه انقلب إلى العراق ، فالموصل ، فحلب ، فدمشق ، فعكة ، ومن ثم ركب إلى صقلية ، وكان في القاهرة أيام صلاح الدين ، فوصف ما شاهده وصفا دقيقا ، وكان من توفيق الله له أن طاف البلاد والحضارة الإسلامية في أشد

<sup>1</sup> . بغية الرعاة : 281/1

<sup>2</sup> . معجم المؤلفين : 446/1

<sup>3</sup> . المقرئ . نفع الطيب : 624/1

<sup>4</sup> . الكشي ، فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عيسى ، دار صادر ، بيروت ، ج 2/226

ازدهارها ، فوصفه بحق يعد وصفا دقيقا للحضارة الإسلامية في عهده في جانبها الديني والاجتماعي . وابن بطوطة رحل واستغرقت رحلته نحواً من خمس وعشرين سنة ، وطاف في أمصار فارس ، وآسيا الصغرى ، وشبه جزيرة القرم ، ثم القسطنطينية ، ثم الهند ، وشغل سنين منصب قاض في دلهي ، ووفق بعدها إلى رحلة أخرى إلى الصين ، فزار سوتنج ، وكانتون ، ثم قفل إلى جزيرة العرب من طريق سومطرة ، حتى بلغ فارس . ثم رحل رحلة أخرى إلى بلاد الزنوج ، واستقر بعد في مراکش ، وربما عد زعيم الرحالين إذ لم يبلغ أحد مبلغه .<sup>1</sup>

### في التفسير والقراءات :

أما علم القراءات الذي هو من أقدم العلوم الشرعية نشأة ، فقد كانت لهذا العلم في الأندلس مكانة مميزة ، بل صارت منذ القرن الرابع وما بعده قبله القراء .

قال ابن خلدون : ( ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات ورواها ، إلى أن كتبت العلوم ودونت ، فكتبت فيما كتب من العلوم ، حتى صارت صناعة مخصوصة ، وعلمها منفردا ، وتناقله الناس في المشرق والأندلس ، إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالي العامريين ، وكان معنيا بهذا الفن من فنون القرآن ، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر ، واجتهد في تعليمه ، وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته ، وكان سهمه في ذلك وافرا . )<sup>2</sup>

ولقد قرأ أهل الأندلس القرآن على القراءات السبع كما نص على ذلك المقرئ في نفع الطيب<sup>3</sup> ، وكان مصحف عثمان — رضي الله عنه — موجودا ومتداولاً بينهم ، وله عندهم منزلة رفيعة وشأن عظيم .<sup>4</sup>

فلا عجب أن ظهر أعلام كبار تبعاً في هذا الفن منذ منتصف القرن الرابع الهجري — حين ملك مجاهد العامري شرق الأندلس .

<sup>1</sup> . أحمد أمين ، ظهر الإسلام : 41/3

<sup>2</sup> . ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط 1 ، 1993 م ، ص : 437

<sup>3</sup> . نفع الطيب : 206/1

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 206/1

فكان أول الأئمة القراء ظهورا مكى بن أبي طالب ( ت : 743هـ ) ، صاحب المصنفات في القراءات ، ثم تبعه أبو عمرو الداني ( ت : 444هـ ) ، ثم جاء بعسده أبو القاسم الشاطبي ( ت : 790 ) فاشتغل أهل الأندلس بهذا الفن ، وأصبحت " دانية " قبلية القراء عندهم<sup>1</sup> .

أما أبو عمرو الداني فقد قال فيه ابن خلدون في مقدمته : ( وظهر أبو عمرو الداني ، وبلغ الغاية في القراءات ، وانتهت إليه رياستها ، وإلى روايته أسانيدنا ، وتعددت تأليفه ، وعول عليها الناس ، وعللوا عسن غيرها<sup>2</sup> . كما وصفه ابن الجزري بشيخ مشايخ للمقرئين<sup>3</sup> ، وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب " التيسير في القراءات السبع " وله شروح كثيرة ، كما أضاف إليه ابن الجزري القراءات الثلاث في كتاب سماه " تعبير التيسير " .

أما أبو القاسم الشاطبي فقد كان إماما في القراءات بلا منازع ، تربع على عرشها بعد أبي عمرو الداني ، وتصدر للإقراء بمدارس كثيرة في المشرق والمغرب ، وخضع له فحول القراء ، وهو صاحب قصيدة " حرز الأمان ووجه التهامي في القراءات السبع المتاني " التي سارت بها الركبان ، ووضعوا عليها شروحا ومختصرات وتمتات لا تحصى كثرة<sup>4</sup> . ولقد قال ابن الجزري : ( ولقد رزق هذا الكتاب شهرة وقبولاً ما لا أعلمه لكتاب غيره في هذا الفن ، ولا أظن أن يخلو بلد من بلاد الإسلام منه ، ولا يخلو منه بيت طالب علم )<sup>5</sup> .

— أبو جعفر أحمد بن الحسين بن الزيات الكلاعي ، كان جليل القدر ، له الرئاسة في تجويد القرآن ، والمشاركة في العربية والفقه والتفسير ، من مصنفاته " لذات السمع في القراءات السبع " وهو منظومة ، توفي سنة : 728 هـ<sup>6</sup> .

— عبد الله بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناي ، المتوفى شهيدا في معركة طريف سنة : 741 هـ كان يتقدم السباق في معرفة القراءات ، منقطع القرين في ذلك ، ، من مصنفاته

<sup>1</sup> . معجم الأدباء : 494/2

<sup>2</sup> . المقدمة : 348

<sup>3</sup> . ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، عن منشور برجنتراسر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3 ، 1982م ، ج 503/1

<sup>4</sup> . أحصاها حاسي خليفة في كشف الظنون : 646/1 - 649

<sup>5</sup> . غاية النهاية في طبقات القراء : 22/2

<sup>6</sup> . الإحاطة : 287/1 . وبنيّة المراجعة : 342/2

" الشائي في تحرير ما وقع من الخلاف بين التيسير والتبصرة والكافي " يقول ابن الخطيب :  
لا نظير له <sup>1</sup>.

واستمرت عناية أهل الأندلس بهذا الفن إلى عصر أبي حيان الأندلسي ، وقد ذكر في  
مقدمة تفسيره أنه تلقى علم القراءات في بلده — غرناطة — بأسانيد عالية بينه وبين  
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نادرا ما تتوفر لغيره بهذه الدرجة ، حتى صار  
مرجعا وحجة ، وفاقت مصنفاته في هذا الفن وحده العشرة كتب ، أما تفسيره " البحر  
المحيط " فإن أهم ما فيه ذلك الحشد الواسع لوجوه القراءات ، وحسن توجيهها وتخريجها  
، وقد وصفه ابن الجزري في غاية النهاية بأنه أستاذ القراءات ، لما أظهره في مؤلفاته من  
تمكن وممرس بهذا العلم .

وأما في علم التفسير ، فقد تعاقبت منهم طبقات عبر الأعصار المختلفة في الأندلس ،  
وتركوا لنا مصنفات ذاعت شهرتها في الآفاق ، وكان في عصر أبي حيان ثلة من المفسرين  
تتلמד عليهم ، ونقل عنهم في تفسيره — رغم أنه صنف تفسيره بالقاهرة — وأثنى عليهم  
ثناء واسعا ، ومن هؤلاء المفسرين الذين عاصروهم :

— أبو علي الحسين بن عبد العزيز الفهري ، المعروف بابن الأحوص ، كان مسن أهل  
الضبط والإتقان في الرواية ومعرفة الأسانيد ، ألف في القراءات والتفسير والحديث ، وكان  
من أخذ عنهم التفسير أبو حيان الأندلسي ، توفي سنة : 699 هـ <sup>2</sup>.

— أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير النقي ، شيخ أبي حيان ، وشيخ ابن جزري  
الغرناطي ، وشيخ الكثير من أعيان الأندلس ، قال فيه أبو حيان كان أفصح عالم رأيت ،  
له في التفسير " ملاك التأويل في متشابه اللفظ والتأويل ، اقتصر فيه على تفسير الآيات  
الموهمة للإختلاف والتناقض ، وهو مطبوع ، وله البرهان في ترتيب سور القرآن ، وهو  
مطبوع أيضا ، توفي سنة : 708 هـ <sup>3</sup>.

<sup>1</sup> . الإحاطة : 400/3

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 11/1 . وانظر : طبقات الداودي : 150/1

<sup>3</sup> . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : 89/1

— محمد بن العابد الأنصاري ، أصله من مدينة فاس ، ثم صار من كتاب الدولة النصرية ، اختصر تفسير الكشاف ، وأزال عنه الاعتزال ، وقد ذكره صاحب كشف الظنون في زمرة من اختصر الكشاف<sup>1</sup> .

— ابن جزري الغرناطي ، وهو محمد بن احمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى ، أبو القاسم ، فقيه مالكي ، وعالم بالأصول والتفسير واللغة ، وهو أحد شيوخ لسان الدين ابن الخطيب ، وصاحب مصنفات منها " التسهيل في علوم التريل " استشهد في معركة طريف سنة : 741هـ وهو يعرض الناس في قلب المعركة<sup>2</sup> .

في النحو :

وكان من الطبيعي وقد برع الأندلسيون في القراءات أن يكون لهم حظ كبير من الدراسات النحوية ، ولهذا اشتهر منهم أعلام كثيرون في النحو كانت لهم اجتهادات في هذا الجانب ، منهم ابن مضاء الأندلسي الذي وصفه السيوطي بإمام العصر في العربية بلا مدافع ، وأنه كان آخر أئمة هذا الشأن بالشرق والمغرب<sup>3</sup> ، وقد دعا إلى إحداث ثورة تجديدية في علم النحو ، ثم جاء بعده الشلوبيني<sup>4</sup> ، وكان له تلاميذ يجلون له ، ويقالون في فضله ، ويقرون له بالإمامة في النحو ، ونبغ بعده في هذا العلم نحويان شهيران هما ابن خروف<sup>5</sup> وابن عصفور<sup>6</sup> ، ولهما في كتب النحو آراء يتفردان بها ، وجاء بعدهما ابن مالك ، وهو جمال الدين محمد بن عبد الله ، ولد بجزيرة بنيان سنة : 600هـ له مؤلفات كثيرة طارت في الآفاق ، منها ألفيته المشهورة التي نالت حظوة كبيرة حتى حفظها أكثر المتعلمين في المشرق والمغرب إلى اليوم<sup>7</sup> .

<sup>1</sup> . الإحاطة : 287/2 . وفي كشف الظنون : 1481 .

<sup>2</sup> . النبتكي ، نيل الإنبهاج ، طبعة على هامش الدياج الذهب ، القاهرة ، 1974م ، ص : 238 .

<sup>3</sup> . بنية الرعاة : 323/1 .

<sup>4</sup> . عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله ، الأشيلي ، المعروف بالشلوبيني ، كان إمام عصره بلا مدافع ، وأبغى الله به ما بأيدي أهل المغرب من العربية ، توفي سنة : 645هـ . انظر : بنية الرعاة : 224/2 .

<sup>5</sup> . علي بن محمد بن علي بن محمد ، نظام الدين ، أبو الحسن ، ابن خروف الأندلسي ، النحوي : كان إماما في العربية محققا مدققا ، صنف شرح سيبويه ، وشرح الحمل ، وله مساطرات مع السهلي . توفي سنة : 668هـ . بنية الرعاة : 203/2 .

<sup>6</sup> . علي بن مؤمن بن محمد بن علي ، أبو الحسن ، ابن عصفور النحوي الحضرمي ، الأشيلي ، حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس ، صنف المنتع في التصريف ، فكان أبو حيان لا يفارقه ، والمغرب ، وغيرها . توفي سنة : 669هـ . بنية الرعاة : 210/2 .

<sup>7</sup> . انظر ظهر الإسلام : 90/3 وما بعدها .

حتى حان وقت خاتمة النحاة بالأندلس أبي حيان الذي كان يعد من أكبر نحوي ذلك القرن ، فأحيا الحركة النحوية ، وأعطاهما دفعا قويا ، فرغب الناس في كتب سيويه وغيره من النحاة ، وبسط لهم قضايا هذا العلم شرحا أحيانا ، وتلخيصا تارة أخرى ، كما كانت له آراء كثيرة انفرد بها ، بقيت موضع بحث ونقاش عند تلاميذه ومن جاء بعدهم ، مما أدى إلى إحداث نشاط علمي واسع في الدراسات النحوية<sup>1</sup> .

( وكان هؤلاء جميعا قد بلغوا درجة الإجتهد في النحو ، ولكنه اجتهد داخل للمذهب كما يقال ، فقد كانوا يدورون في فلك سيويه ، إلا ابن مضاء الأندلسي صاحب كتاب " الرد على النحاة " الذي كان يعمل على هدم مذهب سيويه ، وإقامة نحسو في ثوب جديد)<sup>2</sup>

تلك نبذة مختصرة عن موطن أبي حيان الأندلسي الأول ، وخلاصة سريعة عن الجانب السياسي والاجتماعي والفكري لتلك الفترة التاريخية ، وهي كما نرى فترة كانت تمثل منعطفنا بارزا في الخط البياني لتاريخ الأندلس ، وفي ذلك المنعطف التاريخي الهام ولد هذا المفسر وقضى قرابة ثلاثة عقود من حياته قبل أن اضطرته الظروف للخروج إلى المشرق الذي قضى فيه أغلب وباقي حياته، وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن حياة هذا الرجل في الفصل اللاحق إن شاء الله تعالى .

<sup>1</sup> ، انظر : الشوكاني . البدر الطالع بحاسن من بعد القرن التاسع ، مطبعة السعادة ، القاهرة ط 1 ، 1928 م ، ج 2/288

<sup>2</sup> . ظهر الإسلام : 96/3

## الفصل الرابع

حياة أبي حيان الأندلسي

جامعة الأمير عبد  
القادر للعلوم الإسلامية

# المبحث الأول

## مولده ونشأته العلمية

### المطلب الأول : مولده ونسبه

هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان ، أمير الدين ، أبو حيان ، الأندلسي ، الفرناطي ، الجياني ، النفزي<sup>1</sup> .

ونسبه أبي حيان إلى مدينة جيان<sup>2</sup> هي نسبة إلى مدينة أمه وذويه ، وقد بقى هذا اللقب ملازماً له في كثير من الأحيان ، وأما النفزي فقبيل هي نسبة إلى قبيلة إسمها نفزة ، وقد نقل ابن حجر عن كتاب "النضار" لأبي حيان أنه قال : ( هي نسبة إلى " نفزة " قبيلة من البربر ، والبربر فيما يزعمون من ولد بربر بن قيس بن عيلان بن مضر ، وهم قبائل زناتة ، وهوارة ، وصنهاجة ، ونفزة ، وكتامة .. وكانوا كلهم بفلسطين مع جالوت ، فلما قتل تفرقوا وقصد أكثرهم الجبال )<sup>3</sup>

أما لقبه الفرناطي فيرجع إلى مدينة غرناطة التي نشأ وترعرع فيها ، وكثيراً ما يلقب أبو حيان بالأندلسي نسبة إلى وطنه الكبير .

وأما كنيته بأبي حيان فيرجع إلى ولده حيان ، ومن هنا غلبت عليه هذه الكنية ولازمته ، وكان يفتخر بكنيته بأبي حيان ، وقد ذكر ذلك في كتابه البحر المحييط في تفسير قوله تعالى : " .. ولا تنازروا بالألقاب " سورة الحجرات : 11

حيث قال : ( اللقب إن دل على ما يكرهه المدعو به كان منهياً عنه ، وأما إذا كان حسناً فلا ينهى عنه ، وما زالت الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطبتهم ومكاتبتهم من غير نكير .. ثم قال أبو حيان : ولا سيما إذا كانت الكنى

<sup>1</sup> . بنية الرعاة : 280/1

<sup>2</sup> . وفي معجم البلدان لياقوت الحموي : "جيان" بالفتح ثم التشديد وآخره نون ، مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تحل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجرف في شرقي قرطبة ، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً ، وهي كورة كبيرة تجمع فري كيرة وبلدانا . انظر معجم البلدان ، مادة : جيان . وجيان اليوم مدينة بإسبانيا ، ومركز ولاية تسمى باسمها .

<sup>3</sup> . ابن حجر : الدرر الكامنة : 307/4



غربية ، لا يكاد يشترك فيها أحد مع من تكنى بها في عصره ، فإنه يظهر بها ذكره في الآفاق ، وتهادى أخباره الرفاق ، كما جرى في كنيي أبي حيان ، واسمي محمد ، فلو كانت كنيي أبا عبد الله ، أو أبا بكر مما يقع فيه الاشتراك ، لما اشتهر تلك الشهرة ، وأهل بلادنا جزيرة الأندلس كثيرا ما يلقبون بالألقاب .<sup>1</sup>

### أسرته :

والمصادر التي وقفنا عليها لم تذكر شيئا عن أبيه أو عن أفراد أسرته ، ( كما لم نجدنا هو في مصادره أو ثبت شيوخه أو سيرته الذاتية أنه تلقى شيئا عن أبيه يوسف ، وكتب التراجم لم تنقل شيئا عن حال أبيه العلمية سواء صحبه وتلقى عنه أو لم يصحبه ، ويسدو أن أباه لم يكن من ذوي الجاه المرموق أو العلم ليذكر ، وتتناقل أخباره كتب الرواة )<sup>2</sup> وتتفق كتب التراجم على أن ولادته كانت في آخر شوال من سنة : 654هـ بمطبخشارش ، وهي مدينة مسورة من أعمال غرناطة .

ولم نقف على مصدر ذكر شيئا من طفولته ، أو نشأته الأولى إلا ما ذكره بنفسه في سيرته الذاتية في كتابه " نضار " ، ولكن هذا الكتاب لم يصلنا ، وقد نقل شيئا عن طفولته في مقدمة تفسيره البحر المحيط .<sup>3</sup>

وفي ذيل تذكرة الحفاظ أنه نشأ بغرناطة ، وقرأها القراءات واللغة والنحو ، وبدأ يزاول التدريس قبل خروجه من غرناطة .<sup>4</sup>

### المطلب الثاني : رحلاته العلمية

عاش أبو حيان الأندلسي بداية عمره في بلده الأم وهي غرناطة ، ثم حملته عدة عوامل على الخروج منها ، ويذكر ابن الخطيب في سبب رحلته عن غرناطة أنه حملته حدة الشباب على التعرض للأستاذ أبي جعفر الطباع وقد وقعت بينه وبين أستاذه أبي جعفر بن الزبير وحشة فنال منه ، وتصدى للتأليف والرد عليه ، وكتب رسالة سماها "الإلماع في إفساد إجازة ابن الطباع " ، فرفع ابن الطباع أمره إلى السلطان محمد بن نصر المدعو

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 113/8

<sup>2</sup> . حديقة الحديث . أبو حيان النحوي مكتب النهضة ، ط 1 ، 1966م ، ص : 33

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 7/1

<sup>4</sup> . الذهبي ، ذيل تذكرة الحفاظ ، دائرة المعارف ، حيدرآباد ، 1968م ، ج 23/5

بالتفقيه بفريضة فانتصر له ، وأمر بإحضار صاحب الترجمة والتنكيل به فاحتفى ، ثم لحق بالمشرق<sup>1</sup> .

أما الداودي فيذكر في طبقاته إلى جانب هذا السبب سببا آخر ، وهو وقوع اختيار أحد سلاطين العصر عليه كأحد التلاميذ النجباء ، اندهم لتلقي بعض العلوم العقلية ، ولكن أبا حيان كان ينفر من مثل هذه العلوم ، مما قوى عزمه إضافة إلى السبب الأول ، فعجل بالرحيل وهو لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره<sup>2</sup> .

ومهما تكن هذه الأسباب وغيرها ، فإن الرحلة إلى المشرق كانت سنة متبعة عند العلماء على مر القرون ، فكانوا يخرجون إلى المشرق لأداء فريضة الحج أولا ، ولطلب العلم ثانيا . إلى جانب الأسباب الأخرى المتجددة .

وأحسب أن هذين السببين يأتيان في مقدمة الأسباب التي حملت أبا حيان على هذه الرحلة التي استغرقت زمتا طويلا من عمره ، وانتهت بالإقامة في القاهرة إلى أن وافته المنية .

قال الذهبي : ( ثم ارتحل في أول سنة سبع وسبعين ، وسمع بسبته و نجاية وتونس والإسكندرية ، وحج في هذه السنة ، ودخل مصر سنة ثمانين وستمائة ، فسمع بها الكثير من مشيخة وقته ، وقرأ بها أيضا القراءات والعربية بالجامع الحاكمي والجامع الأحمر ، ودرس التفسير بالجامع الطولوني والقبة المنصورية ، ثم أضيف إليه مشيخة الحديث بها أيضا ، فباشر هذه الوظائف كلها حتى مات )<sup>3</sup> .

الحركة العلمية في مصر يوم دخلها أبو حيان الأندلسي :

دخل أبو حيان الأندلسي مصر يوم كانت تحت سلطة المماليك ، ويذكر المؤرخون أن الحركة العلمية في مصر على عهد المماليك قد ازدهرت ازدهارا واسعا ( فقدت البلاد محورا لنشاط علمي متعدد الأطراف ، ويرجع السبب في ذلك إلى ما أصاب أنحاء العالم الإسلامي في العراق على أيدي المغول ، وفي الأندلس على أيدي الصليبيين ، فضلا على ما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدي الصليبيين والمغول جميعا . وفي وسط تلك

<sup>1</sup> . الداودي . طبقات المفسرين : 287/2

<sup>2</sup> . بغية الوعاة : 280/2

<sup>3</sup> تذكرة الحفاظ : 24/5

الغمة التي آلت بالأمة الإسلامية منذ القرن السابع الهجري — القرن الثالث عشر للميلاد — لم يجد علماء المشرق والمغرب بلدا إسلاميا عربيا آمنا تطيب لهم فيه الحياة سوى مصر التي غدت مركزا للخلافة العباسية ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء .<sup>1</sup>

قال ابن خلدون : ( .. ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة ، من بلاد مصر ، لما أن عمراتها مستبحر ، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ، ومن حملتها تعليم العلم ، ، وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب ، وهلم جرا ، وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لما له عليهم من الرق والولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته ، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلقة يجعلون فيها شركا لولدهم ، ينظر عليها أو يصيب منها ، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والصلاح والتماس الأجر في المقاصد والأفعال ، فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد ، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرائتهم منها ، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت فيها أسواق العلوم وزخرت بحارها ، والله يخلق مله يشاء .<sup>2</sup>

كما أن استقرار كثير من المغاربة في القاهرة يومئذ كان يقابله الحفاوة التي يعطى بها أهل المغرب هناك ، حيث كان السلاطين يولون العناية الفائقة لمن قدم من المغرب ، سواء كان عالما أو متعلما ، أو حتى متعبدا .

وفي ذلك يقول الرحالة ابن جبير : ( وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير ، المنسوب إلى أبي العباس ، أحمد بن طولون ، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة ، الواسعة البنيان ، جعله السلطان مأوى للفرباء من المغاربة يسكنونه ، ويخلقون فيه ، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر ، ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل

<sup>1</sup> . سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص : 292 . وانظر :

السيوطي . حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : 86/2

<sup>2</sup> . المقدمة : 345

أحكامهم إليهم ، ولم يجعل يدا لأحد عليهم ، فقدموا من أنفسهم حاكما يمثلون أمسره ويتحاكمون في طوارئ الأمور عنده ، واستصحبوا الدعة والعافية ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله .<sup>1</sup>

ومن الغريب أن الماليك — وهم من أصول غير عربية متعددة — كان لهم أثر واضح في ازدهار الحركة العلمية في مصر ، من ذلك ما نسمعه من ولع بعض السلاطين مثل الظاهر بيبرس بسماع التاريخ ، وحرص البعض الآخر على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلمة وحضورها ، بل للمشاركة في المسائل العلمية التي تثار في تلك المجالس ، أما أمراء الماليك فقد وجد منهم من اشتغل بالتاريخ ، والفقه ، والحديث ، واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم .<sup>2</sup>

وخير ما يدل على ازدهار الحياة العلمية في عصر الماليك هو عظم الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر بالذات ، وما زالت دور الكتب في معظم أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التي ترجع إلى سلاطين الماليك بمصر ، وقد عرف هذا العصر بعصر الموسوعات في اللغة والتاريخ والأدب والعلوم الشرعية<sup>3</sup> ، ونذكر من أصحاب هذه الموسوعات ابن منظور المصري المتوفي سنة : 711هـ صاحب لسان العرب في اللغة ، وابن خلكان المتوفي سنة : 681هـ صاحب وفيات الأعيان ، وابن حجر المتوفي سنة : 852هـ — صاحب المصنفات الفريدة منها الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، وتقي الدين المقرئ صاحب كتاب المواعظ والاعتبار المشهور بخط المقرئ ، وأبا المحاسن يوسف بن تغري بردى المتوفي سنة 874هـ — وهو من أصل ممالكي — صاحب الموسوعة في التاريخ والتراجم " النجوم الزاهرة " ، والنويري المتوفي سنة : 732هـ صاحب كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب " .<sup>4</sup>

( وثمة مظهر آخر هام يعبر عن ازدهار الحياة العلمية في عصر سلاطين الماليك ، وهو العناية بإنشاء المؤسسات التعليمية من مدارس ومكتبات ، و دور الإقامة لطلاب العلم ،

1 . ابن حجر ، رحلة ابن حجر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ص : 26

2 . مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك : 293

3 . جرجي زيدان ، تاريخ أداب اللغة العربية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1983م ، ج 2/236 .

4 . المصدر نفسه : 298

وغيرها بما يشبه معاهد التعليم العالي في عصرنا ، وكان يخصص لكل مدرسة علماء يتخصصون في تدريس علوم معينة ، إلى جانب إلحاق خزانة كتب كبيرة بكل مدرسة.<sup>1</sup> ( وكان عمل سلاطين المماليك في ذلك محاكاة لسلاطين الأيوبيين في الإكثار من إنشاء المدارس مثل المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس سنة : 662هـ - ووقف عليها أوقافا ، وأمر بالأستخدام في عمارتها عامل بغير أجرة ، وألا ينقص مرتب مسن يقوم بتشيدها ، ولما فرغ من بنائها سنة : 662 دعا الفقهاء والعلماء والقراء والمحدثين للإجتماع بما فعين منهم المدرسين والمشرفين على شؤون التعليم بها . )<sup>2</sup>

( ومنها المدرسة الناصرية التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، وعينوا لتلك المدارس المدرسين والموظفين ، ووقفوا عليها الأوقاف الغنية لتضمن للطلاب والمدرسين قدرا مسن الإستقرار ، تجعلهم ينصرفون إلى الأشتغال بالعلم آمنين مطمئنين . )<sup>3</sup>

أما من الناحية الاجتماعية فإن من المعروف أن المماليك عاشوا طبقة أرسنقراطية ، يحكمون البلاد ، ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراتها ، دون أن يحاولوا الامتزاج بأهلها ، وقد شهد الرحالة الذين زاروا مصر في ذلك العصر بعظم ثروة أمراء المماليك ، وحياسة الترف والنعيم التي عاشوا في ظلها .<sup>4</sup>

( أما المصريون فقد استطاعت بعض فئاتهم كالتجار أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في المجتمع ومستوى لائق من المعيشة ، في حين ظل غالب أهل البلاد من العوام والفلاحين يحيون حياة أقرب إلى اليوس والحرمان . )<sup>5</sup>

ولكن على الرغم من ضعف الحياة الاجتماعية ، فإن دائرة النشاط الديني قد اتسعت ، ( وذلك بكثرة المنشآت الدينية التي أقيمت في ذلك العصر ، ومازالت القاهرة وكثير من المدن في مصر والشام تمتلئ بالجوامع الجميلة الرائعة التي تنسب إلى سلاطين المماليك ، حتى لقد قدر بعض الباحثين عدد المساجد بمصر والقاهرة في عصر المماليك بأكثر من ألف

<sup>1</sup> المصدر نفسه : 298

<sup>2</sup> حمدي عبد النعم محمد حسن . دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار الكتاب اللبناني ، ص : 275 .

<sup>3</sup> النوري . نهاية الأرب في فنون الأدب : 431/30

<sup>4</sup> انظر : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك : 288

<sup>5</sup> مصر والشام في عهد المماليك : 288 . نقلا عن المنهج المصري في عصر المماليك . سعيد عاشور : 37 .

مسجد ، ولم تستخدم المساجد في ذلك العصر في العبادة فحسب بل استخدمت أيضا كمدارس يقصدها طلبة العلم والدارسون .<sup>1</sup>

على أن أهم ظاهرة اتصفت بها الحياة الاجتماعية والدينية في عصر المماليك هي انتشار ظاهرة التصوف ، ( ومن الثابت أنه وفد على مصر في القرن السابع الهجري كثير من مشايخ الصوفية — معظمهم من المغرب والأندلس ، مثل أبي الحسن الشاذلي ، وأبي العباس المرسي والسيد أحمد البدوي وغيرهم ، وهؤلاء وجلوا في مصر أجواء صالحة لنشر تعاليمهم ومذاهبهم ، ولم يلبث أن انقسم الصوفية إلى فرق ، لكل فرقة شيخها وشعارها ، فازداد عدد المصريين الذين اقبلوا على هذا اللون الحديدي من الحياة الدينية ، وأخذ السلاطين يتقربون إلى الله ببناء الزوايا ، ووقف الأوقاف عليها ، والعطف على الصوفية ومشائخهم .<sup>2</sup>

ولاشك في أن ازدياد تيار التصوف في مصر على عهد المماليك كان له الأثر الخطير في الحياتين الاجتماعية والدينية ، حيث ترتب على هذا الإقبال نشر روح الاستكانة ، والقناعة بالقليل ، والتذلل للحكام بين عامة الناس ، وقد ظلت بقاياها في نفوس الكثيرين أمدا طويلا ، وهذا ما كان يستطرد لذكره أبو حيان في عدة مواضع في تفسيره البحر المحيط .

#### إقامة أبي حيان بالقاهرة :

ولقد انتهت رحلة أبي حيان الطويلة بالإقامة في القاهرة ، وهناك اشتغل بالتدريس والتأليف إلى آخر حياته<sup>3</sup> ، وكان من مولفاته في القاهرة تفسيره البحر المحيط ، ومنه ما تحدث في كتابه هذا عن المجتمع الأندلسي في كثير من المواضع ، فإنه تحدث عن المجتمع المصري حديثا غير قليل ، حديث الناقد النائر على الأوضاع الفاسدة ، فكان يقارن بين ما دعا إليه القرآن الكريم من تفكير سليم ونظر صحيح ، وبين ما كان عليه فئة عريضة من الناس من الاعتقادات الفاسدة والتصورات الباطلة لكثير من قضايا الدين والكون والحياة .

<sup>1</sup> . مصر والشام في عهد المماليك : 291 .

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 291 .

<sup>3</sup> . قال النوددي في طبقاته : تولى التدريس بالمنصورة ، والإفراء بالجامع الأحمر ، وحدث وسمع من الأئمة والعلماء والمفسر .

من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " كم تركوا من جنات وعيون . وزروع  
ومقام كريم .. " سورة الدخان : 24 — 25

حيث نقل أقوال المفسرين في تفسير معنى الكنوز والعيون عن السلف كمجاهد  
والضحاك وسعيد بن جبهر ، ثم استطرد يصف حال المجتمع المصري فقال : ( وأهل مصر  
في زماننا في غاية الطلب لهذه الكنوز التي زعموا أنها مدفونة في المقطم ، فينفقون على  
حفر هذه المواضع في المقطم الأموال الجزيلة ، ويلغون في العمق إلى أقصى غاية ، ولا  
يظهر إلا التراب ، أو حجر الكدبان الذي للمقطم مخلوق منه ، وأي مغربي يرد عليهم سألوه  
عن علم المطالب ، فكثير منهم يضع في ذلك أوراقا ليأكلوا أموال المصريين بالباطل ، ولا  
يزال الرجل منهم يذهب ماله في ذلك حتى يفتقر ، وهو لا يزداد إلا طلبا لذلك حتى  
يموت ، وقد أقيمت بين ظهرانيهم إلى حين كتابة هذه الأسطر نحو من خمسة وأربعين عاما  
، فلم أعلم أن أحدا منهم حصل على شيء منه غير الفقر . وكذلك رأيهم في تغوير الماء  
، يزعمون أن ثمة آبارا ، وأنه يكتب أسماء في شقفة فتلقى في بئر فيغور الماء ويتزل إلى باب  
في البئر يدخل منه إلى قاعة مملوءة ذهبا وفضة وجوهرات ، فهم دائما يسألون من يرد عليهم  
من المغاربة عن حفظ تلك الأسماء التي تكتب في الشقفة ، فيأخذ شياطين المغاربة منهم  
ملا جزيلا ويستأكلوهم ، ولا يحصلون على شيء غير ذهاب أموالهم ، ولهم أشياء من  
نحو هذه الخرافات يركنون إليها ، ويقولون لها ، وإنما أطلت في هذا على سبيل التحذير  
لمن يعقل .<sup>1</sup>

### المطلب الثالث : شيوخه

أخذ أبو حيان الأندلسي العلم عن خلق كثير جدا ، وقد ذكر من سمع منهم أو  
أجازوه بأسمائهم في أكثر من موضع من مؤلفاته مما يطول ذكره ، ولا يتسع المقام لسرده  
بتفاصيله ، وقد قال بعد ذكر قائمة شيوخه : ( وجملة الذين سمعت منهم نحو من أربعمائة  
ولحسين شخصا ، وأما الذين أجازوني فعالم كثير جدا من أهل غرناطة ، ومالطة ، وسبتة  
، وديار إفريقية ، وديار مصر ، والحجاز ، والعراق ، والشام .<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 18/7 — 19

<sup>2</sup> . نفع الطوب : 552/2

أما المحدث الفقيه أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعيبي الأندلسي فقد ذكر في برنامجه عند ذكره شيخه أبا حيان أن أبا حيان قال : سمعت بفرناطة ومالقة ، وبلش ، والمرية ، ونجاية ، وتونس ، والإسكندرية ، ومصر ، والقاهرة ، ودمياط ، والمحلة ، وطهرمس ، والجزيرة ، ومنية بني خصيب ودشنا ، وقنا ، وقوص ، وبلبيس ، وبيضايا مسن بلاد السودان ، وبينج ، ومكة شرفها الله تعالى ، وحنة ، وأيلة ، ثم فصل من لقيه بكل بلد .. ونقل عنه أنه : قال فهذه نبذة عن شيوخه ، وجملة من سمعت منه خمسمائة ، والمجيزون أكثر من ألف .<sup>1</sup>

وهذا العدد الذي ذهب إليه المقرئ يدعمه ما ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة أن أبا حيان قد جمع شيوخه في كتاب سماه " البيان في شيوخ أبي حيان " فبلغوا ألفاً وخمسمائة .<sup>2</sup>

ولذا سنقتصر على ذكر جملة من شيوخه الذين أخذ عنهم بعض العلوم التي برع فيها ، وعرف بها كاللغة ، والنحو ، والقراءات ، والتفسير ، ومن هؤلاء الشيوخ :

1 — محمد بن مصطفى بن زكريا بن خواجا بن حسن التركي ، الملقب بفخر الدين ، الحنفي ، النحوي ، ولد بتاريخ : 631هـ . قال أبو حيان : وكتبنا عنه لسان الترك ، ولسان الفرس .<sup>3</sup>

قال السيوطي : وله نظم كثير في فنون في العربية وقواعد لسان الترك وغيره ، توفي سنة : 713 هـ .<sup>4</sup>

2 — محمود بن أبي بكر بن أبي العلاء بن علي بن أبي العلاء الكلابي ، البخاري ، الفرضي ، الملقب بشمس الدين ، صاحب المصنفات الفائقة ، توفي سنة : 700 هـ سمع منه أبو حيان الحديث .<sup>5</sup>

3 — أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم أبو جعفر ، الأندلسي ، الفرناطي ، صاحب تفسير " ملاك التأويل القاطع بنوي الإلحاد والتعطيل " وهو مطبوع في مجلدتين ،

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 560/2

<sup>2</sup> . الدرر الكامنة : 308/4

<sup>3</sup> . الجواهر المضية في طبقات الحنفية : 370/3

<sup>4</sup> . انظر : بغية الرعاة : 246/1

<sup>5</sup> . انظر : الجواهر المضية : 454/3



من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس ، وقد انتهت إليه الرياسة بها في العربية ، ورواية الحديث ، والتفسير ، والأصول ، قال فيه ابن حجر : كان ثقة قائما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قامعا لأهل البدع ، وله مع ملوك عصره وقائع<sup>1</sup> ، وقد صرح أبو حيان أنه أخذ عنه أكثر العلوم كالنحو والصرف ، كالكتاب لسيبويه ، والممتع في التصريف وغيرها ، وعلم البلاغة ، وعلم الأصول<sup>2</sup> ، كما يكون قد أخذ عليه شيئا من التفسير ، توفي سنة : 707هـ<sup>3</sup> .

4 - محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين البلخي ، للمقدسي ، أبو عبد الله ، المعروف بابن النقيب ، من فقهاء الحنفية ، ولد بالقدس وسمع بها ، وانتقل إلى القاهرة وأقام بالأزهر مدة ، وله تفسير القرآن<sup>4</sup> ، قال الصفيدي في الجواهر المضية<sup>5</sup> : ( وهو تفسير حافل جمع فيه خمسين مؤلفا ) وقد أخذ عنه أبو حيان الأندلسي علم البلاغة كما صرح في مقدمة تفسيره فقال : ( وقد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة ، وأجمعها ما جمعه شيخنا الأديب الصالح أبو عبد الله بن سليمان النقيب ، وذلك في مجلدين قدمهما أمام كتابه في التفسير ، كما يأتي تفسيره الموسوم بالتحريير والتجوير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير " في المرتبة الأولى بين كتب التفسير التي اعتمدها أبو حيان كمصادر لتفسيره ، وقد نص على ذلك أبو حيان نفسه في مقدمة تفسيره " ، وقد توفي سنة : 698هـ .

5 - أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأندلسي الأنصاري القرطاجني مقيم تونس ، وقد نعته أبو حيان بقوله : شيخنا ، الأديب ، الحافظ ، المتبحر ، وقد درس عليه كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " وقال عنه : هو أوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة

<sup>1</sup> . الدرر الكامنة : 89/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 6/1

<sup>3</sup> الإحاطة في أخبار غرناطة : 188/1

<sup>4</sup> . الدودي : طبقات المفسرين : 144/2

<sup>5</sup> . الجواهر المضية : 75/2

<sup>6</sup> . البحر المحيط : 11/1

والعروض وعلم البيان<sup>1</sup>. وقال عنه السيوطي: شيخ البلاغة والأدب<sup>2</sup>، ولد سنة: 608هـ وتوفي سنة: 684هـ.

6 — عبد الكريم بن علي بن عمر، علم الدين الأنصاري، المعروف بابن بنت العراقي، وهو فقيه شافعي، مفسر، ضريح، أصله من وادي آش بالأندلس، قدم أبوه إلى مصر فولد هو بها، وقيل له العراقي نسبة إلى جده لأمه، له مصنفات منها "الإنصاف في مسائل الخلاف بين الزمخشري وابن المنير" وتفسير للقرآن وغيره، وقد قرأ عليه أبو حيان مختصره في أصول الفقه الذي اختصره من كتاب "المحصل" للفخر الرازي. توفي سنة: 704هـ<sup>3</sup>.

7 — كما أخذ أبو حيان علم أصول الفقه أيضا على الشيخ علاء الدين علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب الباجي<sup>4</sup> في مختصره الذي اختصره من كتاب المحصول، وعلى الشيخ شمس الدين محمد بن محمود الأصبهاني<sup>5</sup>، صاحب شرح المحصول، قال أبو حيان: (بحثت عليه في كتاب القواعد من تأليفه رحمه الله تعالى. كما بحث عليه أيضا مسئل في العقائد).<sup>6</sup>

8 — أما شيوخه في القراءات فهم كثير أيضا، نذكر منهم الخطيب أبا جعفر أحمد بن علي بن محمد الرعيني، المعروف بابن الطباع، أخذ عليه القراءات السبع في بداية طلبه وهو بفرناطة، ومنهم الخطيب أبو محمد عبد الحق بن علي بعبد الله الأنصاري بفرناطة، كما حصل علم القراءات على قراء عصره بالأسكندرية، وقد ذكر بعض أسمائهم في مقدمة تفسيره<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 6/1

<sup>2</sup> . بنية الرعاة : 419/2

<sup>3</sup> الدرر الكامنة : 13/3 . والسيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، مطبعة الموسوعات ، مصر : 421/1

<sup>4</sup> . هو علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب المغربي ، المصري ، ثم الباجي ، ، أبو الحسن ، علاء الدين ، فقيه شافعي ، أصولي له مختصر المحصول للفخر الرازي وغيره ، توفي سنة : 714هـ . انظر : الدرر الكامنة : 101/3 . وحسن المحاضرة : 314/1 .

<sup>5</sup> . محمد بن محمود بن محمد العسلي ، الأصبهاني ، فقيه أصول متكلم ، من تصانيفه شرح المحصول للفخر الرازي ، والجامع بين التفسير الكبير والكشاف . البداية والنهاية : 315/13

<sup>6</sup> . انظر : البحر المحيط : 7/1

<sup>7</sup> . البحر المحيط : 7/1

9 - علم الدين ، أبو محمد ، عبد الكريم بن علي بن عمر الأنصاري ، الأندلسي الأصل ،  
المصري المولد والنشأة ، المعروف بابن بنت العراقي ، ذكره أبو حيان في تفسيره البحر  
المحيط ، وكان ينقل عنه ما يتعلق ببعض التخریجات النحوية في القرآن الكريم <sup>1</sup> .

10 - أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم ، ناصر الدين ، ابن المنير الإسكندراني ،  
كان إماما في النحو والأدب والأصول والتفسير ، وله اليد الطولى في علم البيان والإنشاء ،  
صنف الانتصاف من الكشاف في الرد على الزمخشري ، وأراد أن يصنف في الرد على  
الأحياء ، فخاصته أمه وقالت له : فرغت من مضاربة الأموات وشرعت في مضاربة  
الأحياء ، فتركه ، وقد لازمه أبو حيان وأخذ عنه <sup>2</sup> .

وفاته :

عاش أبو حيان عمرا طويلا بلغ تسعين سنة ، وقد قضى هذا العمر كله في خدمة العلم  
بين التحصيل والتدريس والتأليف ، وهو كما قال تلميذه الصفدي : ( واجتهد في طلب  
التحصيل والتقيد والكتابة ، ولم أر في أشياخي أكثر اشتغالا منه ، لأنني لم أره قط إلا  
يسمع أو يشتغل أو يكتب ، ولم أره على غير ذلك .. وخدم هذا العلم - أي النحو -  
مدة تقارب الثمانين . ) <sup>3</sup>

قال الصفدي : ( ولم يزل على حاله إلى أن دخل في حجر كان ، وتبدلت حركاته  
بالإسكان ، وتوفي رحمه الله تعالى بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة ، في يوم السبت بعد  
العصر ، الثامن والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ودفن من الغد بمقبرة  
الصوفية خارج باب النصر .

ولقد سارت الركبان بنعيه إلى أرض الشام ، وصلي عليه في الجامع الأموي بدمشق  
صلاة الغائب في شهر ربيع الآخر . ) <sup>4</sup>

وقد رثاه يومئذ تلميذه الصفدي بقصيدة طويلة ، نحتزئ منها الأبيات الآتية <sup>5</sup> :

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 55/1

<sup>2</sup> . بحية الرعاة : 384/1

<sup>3</sup> . نفع الطيب : 538/2

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 538/2

<sup>5</sup> . نفع الطيب : 539/2

مات أنير الدين شيخ الورى  
 ورق من الحزن نسيم الصبا  
 وصادحات الأيك في نوحها  
 مات إمام كان في فنه  
 بكى له زيد وعمرو فمن  
 شارك من قد ساد في فنه  
 والنحو قد سار الردى نحوه  
 تفسره البحر المحيط الذي  
 إن مات فالذكر له خالد  
 فاستمر البرق واستعبرا  
 واعتل في الأسحار لما سرى  
 رثته في السجع على حرف را  
 يرى إماما والورى من ورا  
 أمثلة النحو ، ومن قرا  
 وكم له فن به استأثرا  
 والصرف للتصريف قد غيرا  
 يهدي إلى وراده السجوهرا  
 يحيى به من قبل أن ينشرا

## المبحث الثاني

### آثاره العلمية

#### المطلب الأول : تلاميذه

ومن الصعب أيضا إحصاء من تتلمذ لأبي حيان وأخذ عنه العلم ، وقد قضى دهورا  
 طويلا في التدريس ، وقد ذاع صيته في الآفاق ، كما ذكر الصفدي أنه كان له إقبال على  
 أذكىاء الطلبة يعظمهم ، وينوه بقدرهم ، ويقدمهم حتى صاروا شيوخا في حياته جلسوا  
 للإقراء والتدريس وأجازوا خلقا كثيرا ،

وذكر الإسنوي أنه تصدر بجامعة الأقمر ، وتولى تدريس التفسير بجامعة ابن طولون ،  
وبالقبة المنصورية ، وتدريس الحديث بالقبة المذكورة<sup>1</sup> .

ولكن يمكن تقسيم تلاميذه إلى فريقين ، فريق أحبه ولازمه وتأثر به ، وكان امتدادا  
لجهوده في خدمة اللغة العربية وقواعدها ، وفريق أخذ عنه ، ولكنه خالفه ورد عليه في  
بعض اجتهاداته النحوية واللغوية ، ونذكر من الفريق الأول :

1 - الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي ، بدر الدين ، للمصري أخذ العربية عن  
أبي حيان وغيره ، كان فقيها أصوليا ، وأتقن العربية والقراءات ، وصنف وتفنن وأجاد ،  
من مصنفاته: شرح المفصل ، وشرح الألفية ، الجني الداني في حروف المعاني ، وغيرها ،  
توفي سنة: 746هـ<sup>2</sup> .

2 - إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل ، أبو الطاهر ، بن شجاع القوصي ، ذكره أبو حيان في  
كتابه : " شعراء العصر " وقال : رفيقنا بالمدرسة الكاملية<sup>3</sup> .

3 - وهو شيخ لصاحب كتاب " الجواهر المضيئة " كان يروي عنه تراجم الأعلام بقوله :  
أنبأني شيخنا العلامة أبو حيان ، قال . وتارة يقول : أنشدنا شيخنا الأستاذ الحجّة أبو  
حيان ..

4 - شمس الدين ، محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق ، أخذ عن أبي حيان اللغة ، قال  
عنه السيوطي : كان بارعا في اللغة كثير الحفظ للشعر ، ولد سنة : 720هـ<sup>4</sup> .

5 - خليل بن أيك بن عبد الله الصفدي ، الشافعي ، صلاح الدين ، أبو الصفاء ، مؤرخ  
، أديب ، نثر ، ناظم ، لغوي ، كان والده من أمراء المماليك ، زادت مولفاته على  
المائتين ، أغلبها في الأدب ، أخذ عن أبي حيان النحو ، توفي سنة : 764هـ<sup>5</sup> .

6 - علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى ، تقي الدين ، السبكي ،  
قال السيوطي : الفقيه الشافعي المفسر الحافظ الأصولي النحوي اللغوي ، المقرئ ، البياني  
الجدلي ، النظار البارع ن شيخ الإسلام ، أوحد المجتهدين ، ولد سنة : 683هـ ، قرأ النحو

<sup>1</sup> . الأسوي ، طبقات الشافعية : 219/1

<sup>2</sup> . بغية الرعاة : 517/2

<sup>3</sup> . انظر : علي الشياح . أبو حيان ومنتجه في التفسير ، نسخة حطية بمكتبة معهد أصول الدين بجامعة الزيتونة ، تونس ، ص : 33

<sup>4</sup> . انظر : السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، مطبعة الواسعات ، مصر ج 258/1

<sup>5</sup> . السبكي . طبقات الشافعية : 94/6 . وانظر : البداية والنهاية : 303/14

على أبي حيان ، وبرع في الفنون ، وتخرج عليه خلق في أنواع العلوم ، وصنف نحو مائة وخمسين كتابا مطولا ومختصرا ، منها تفسير القرآن ، وشرح المنهاج في الفقه ، توفي بمصر سنة: 755هـ<sup>1</sup> .

7 — عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر جمال الدين أبو محمد ، الإسوي ، الفقيه الشافعي ، الأصولي ، وتصانيفه في الفقه مشهورة كالفروق ، والجامع ، والأشباه والنظائر ، وغيرها .

قال الإسوي : شيخنا أثير الدين ، أبو حيان ، محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي ، إمام زمانه في علم النحو ، وصاحب التصانيف المشهورة فيه وفي التفسير شرقا وغربا ، والتلاميذ المنتشرة ، سمعت عليه كثيرا من تصانيفه ونحنت عليه التسهيل ، وكتب لي : بحث علي الشيخ فلان كتاب " التسهيل " ثم قال له : لم أشيخ أحدا في سلك<sup>2</sup> .

8 — عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عقيل ، القرشي ، الهلثمي ، العقيلي ، الهمداني الأصل ، ثم المصري ، قاضي القضاة ، بماء الدين ، الشافعي ، لازم أباحيان والجلال القزويني ، واشتغل بالحكم والتدريس والتأليف ، ومن تصانيفه ، الجامع النفيس في الفقه ، والمساعد في شرح التسهيل ، وشرح على ألفية ابن مالك ، مات بالقاهرة سنة: 769هـ<sup>3</sup> .

9 — إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم القيسي المالكي ، العلامة ، برهان الدين ، أبو إسحاق ، الصفاقسي النحوي ، صاحب إعراب القرآن ، قال ابن حجر في الدرر : ولد في حدود سبع وتسعين وستمائة ن وسمع بيحاية ، ثم حج ، وأخذ عن أبي حيان بالقاهرة وخلق سواه ، مات سنة : 742هـ<sup>4</sup> .

10 — محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق ، أبو عبد الله التلمساني العجيسي المالكي ولد سنة: 711هـ وتقدم في بلاده ومهم في العربية الأصول والأدب ، وسمع من علماء عصره في المغرب والشرق ، وقرأ النحو على أبي حيان بمصر ، وبلغ عدد

<sup>1</sup> . انظر بغية الوعاة : 176/2

<sup>2</sup> . الأسوي . طبقات الشافعية ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ج 218/1

<sup>3</sup> . انظر بغية الوعاة : 48/2

<sup>4</sup> . الدرر الكائنة : 55/1

شيوخه ألقى شيخ ، وتولى الخطابة بالأندلس وتونس ، كما اشتغل بالتدريس مدة غـم  
قليلة ، توفي سنة : 781هـ<sup>1</sup> .

11 — أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم بن أحمد بن محمد بن سليم القيسي ، أبو  
محمد ، تاج الدين ، نحوي لغوي ، عالم بالتفسير ، والحديث والتراجم ، فقيه حنفي ، من  
أهل القاهرة مولدا ووفاة ، لازم أبا حيان دهرًا طويلا ، وتأثر به ، وصنف في حياته كتاب  
" الدر اللقيط من البحر المحيط " اقتصر فيه على المباحث اللغوية بين أبي حيان والزخشي  
وابن عطية ، وهو مطبوع على هامش البحر المحيط ، وواضح من خلال العنوان أنه  
متعاطف مع شيخه أبي حيان ومنتصر له ، وقد اشتهر هذا الكتاب وورد إلى الشام ،  
ونقلت به النسخ ، كما عنده مصنفات أخرى وأشعار جيدة توفي سنة : 749هـ<sup>2</sup> .

12 — أحمد بن محمد بن عبد المعطي ، شهاب الدين أبو العباس ، ولد سنة : 709هـ — مهر  
في العربية ، وشارك في الفقه ، وكان قد أخذ النحو على أبي حيان الأندلسي ، وانتفع به  
الناس في مكة في العربية ، وكان عارفا بالمذهب المالكي ، وكان بارعا ثقة ثبنا ، حسن  
الأخلاق ، له تأليف ونظم كثير توفي سنة : 788هـ<sup>3</sup> .

ومن الفريق الثاني ممن خالفه ، وهم قلة ، نذكر منهم :

1 — محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد ، بن يوسف بن قدامة ، شمس الدين  
المقدسي ، الحنبلي ، قال الذهبي : الفقيه البارع المقرئ الجود ، النحوئي المحدث الحافظ  
الحاذق ، ذو الفنون . وقال ابن حجر : مهر في الحديث والفقه والأصول والعربية وغيرها  
، وقال ابن كثير : كان حافظا علامة ناقدًا ، حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار  
، وكان جبلا في العلل والطرق والرجال ، أخذ النحو على أبي حيان حتى صار إمامسا ،  
وله من المصنفات : " مناقشات مع أبي حيان في اعتراضاته على ابن مالك " و " الأحكام  
في الفقه " و " تراجم الحفاظ " وغيرها . مات سنة : 744هـ<sup>4</sup> .

<sup>1</sup> . بغية الرعاة : 46/1

<sup>2</sup> . انظر : طبقات المدودي : 51/1

<sup>3</sup> . تاريخ ابن قاضي شهبة ، تحقيق عدنان درويش ، المعهد العلمي العربي للدراسات العربية ، دمشق ، 1977م ، ج 1/197 . وانظر

بغية الرعاة : 372/1

<sup>4</sup> . الدرر الكامنة : 332/3 . وانظر البداية والنهاية : 210/14

2 — أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد الحلبي ، شهاب الدين ، المقرئ النحوي نزيل القاهرة ، المعروف بالسمين . قال في الدرر الكامنة : ( تعانى النحو فبرع فيه ، ولازم أبا حيان إلى أن فاق أقرانه ، كما أخذ القراءات ومهر فيها ، وولي تدريس القراءات بجامع ابن طولون ، ونظر الأوقاف ، وناب في الحكم ) .<sup>1</sup>

وقد صنف تفسيراً في حياة شيخه أبي حيان ، سماه الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، وناقشه فيه كثيراً ، وهو مطبوع ، وشرح الشاطبية وغير ذلك . توفي سنة : 756هـ .

3 — عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري ، جمال الدين ، الحنبلي ، النحوي الفاضل ، العلامة المشهور ، أبو محمد ، سمع ديوان زهير بن أبي سلمى عيسى أبي حيان ، وأتقن العربية ففاق الأقران والشيوخ .

قال ابن خلدون : ( ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية ، يقال له ابن هشام ، أثنى من سيويه )<sup>2</sup> ، صنف مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، وله عدة حواشٍ وشروح على كتب النحو ، منها على الألفية والتسهيل وشرح عيسى " اللوحة البدرية في علم العربية " لأبي حيان ، كما شرح له " التذكرة في علم العربية " ، ولكنه في الوقت ذاته كان كثير المخالفة لأبي حيان ، شديد الإنحراف عنه . توفي سنة : 761هـ .<sup>3</sup>

— وقد ذكر ابن الجزري في كتابه " غاية النهاية في طبقات القراء " خلقاً كثيراً ممن تتلمذ عليه ، ومن بينهم ابن أبي حيان ، وهو حيان بن محمد بن يوسف بن علي .<sup>4</sup>

### المطلب الثاني : مصنفاته

وإلى جانب الجمع الكبير من طلاب العلم الذين أخذوا عنه علوماً وفنوناً كثيرة ، فقد كان أبو حيان طيلة حياته معتكفاً على التأليف ، فترك لنا مكتبة واسعة شملت علوماً مختلفة ، ولكن أغلبها كان له صلة بما تخصص ونبغ فيه ، وهو علوم اللغة ، وأغلب هذه المؤلفات قد ضاع ، فلم يصلنا من كتبه أكثر من عشرة مؤلفات ، وهي كتب نفيسة تنبئ عن قدر الرجل ومكانته العلمية . قال المقرئ : ( وله التصانيف التي سارت وطارت ،

<sup>1</sup> . الدرر الكامنة : 399/1 . وانظر : بغية الوعاة : 402/1

<sup>2</sup> . الدرر الكامنة : 308/2 . وفي المقدمة كلام لابن خلدون قريب من هذا لفظاً ومعنى : 471

<sup>3</sup> . بغية الوعاة : 69/2

<sup>4</sup> . ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء : 285/2



وانتشرت وما انتشرت ، وقرئت ودريت ، ونسخت وما فسخت حجت كتب الأقدمين ، وأهت المقيمين بمصر والقادمين .<sup>1</sup>

ونذكر من عناوين هذه المؤلفات ما يأتي :

### في التفسير وعلوم القرآن والقراءات :

— البحر المحيط ، أو التفسير الكبير ، في ثمان مجلدات كبار ، مطبوع ، وهو موضوع دراستنا في هذا البحث .

— إتخاف الأريب بما في القرآن من الغريب . طبع سنة : 1936م بمطبعة الإخلاص بحملة في سوريا ، وتوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة باريس<sup>2</sup> .

— النهر اللاد من البحر المحيط ، في التفسير ، وهو اختصار لكتاب البحر المحيط ، وقد ألفه لما رأى الناس قد كسلوا عن البحر المحيط لما فيه من تطويل وإسهاب . قال أبو حيان : ( فإن لما صفت كتابي الكبير المسمى بالبحر المحيط في علم التفسير عجز عن قطعه لطوله السابع .. فأجريت منه نهرا تجري عيونيه ، وتلتقي فيه بأبكاره عونه ، لينشط الكسلان في اجتلاء جماله ، ويرتوي الظمان بارتشاف زلاله وربما نشأ في هذا النهر ما لم يكن في البحر وذلك لتجدد نظر المستخرج للآليه .. )<sup>3</sup>

وقد طبع أكثر من مرة ، كان آخرها الطبعة التي حققها عمر الأسعد ، وأصدرتها دار الجليل ببيروت سنة : 1995 م .

أما علم القراءات فقد وضع فيها ما يزيد عن عشر مؤلفات ، ولا نعلم أن أحدا ممن أهل العلم قد فعل مثله ، حيث ألف في كل قراءة من القراءات المشهورة كتابا مستقلا ، إلى جانب المؤلفات الجامعة لمختلف هذه القراءات المشهورة ، ويبدو أن هذه المؤلفات التي وضعها في القراءات أغلبها كانت عبارة عن منظومات وأراجيز ، ففي الدرر الكامنة يقول ابن حجر مثلا : ( وقد وضع أبو حيان قصيدة في قراءة يعقوب سماها " غاية المطلبوب في

<sup>1</sup> . نفع الطيب : 541/2

<sup>2</sup> . انظر : جرحي زهدان . تاريخ آداب اللغة العربية ، ج2/259

<sup>3</sup> . أبو حيان الأندلسي ، النهر اللاد من البحر المحيط ، تحقيق عمر الأسعد ، دار الجليل ، بيروت ط1 ، 1985م ، ج1/23

قراءة يعقوب " كما قال أيضا : ونظم قصيدة على وزن الشاطبية في القراءات بغير رموز وهي أخصر وأكثر فوالد ، ولكن ما رزقت حظ الشاطبية . )<sup>1</sup>

وقد أشار إليها في مقدمة البحر المحيط في قوله : ( وأنشأت في هذا العلم كتاب عقود اللآلئ ، قصيدا في عروض قصيد الشاطبي ورويه ، يشتمل على ألف بيت وأربعة وأربعين بيتا صرحت فيها بأسماء القراء من غير رمز ولا لغز ولا حوشي لغة ، وأنشأته من كتب تسعة . )<sup>2</sup>

ولا يصعب هذا على مثل أبي حيان ، وقد كان يتحكم في زمام النظم والشعر أيما تحكم ، ونذكر من هذه المؤلفات أيضا :

— الأثير في قراءة ابن كثير .

— النور الجلي في قراءة زيد بن علي

— تقريب النائي في قراءة الكشائي .

— الروض الباسم في قراءة عاصم .

— الرمزة في قراءة حمزة .

— المزن الهامر في قراءة ابن عامر .

— المنافع في قراءة نافع .

— المورد الغمر في قراءة أبي عمرو .

— غاية المطلوب في قراءة يعقوب .

— عقد اللآلئ في القراءات العوالي .

— لامية في القراءات .

— الحلل الحالية في أسانيد القراءات العالية .

إلا أن هذه الكتب في القراءات لم يبق لها أثر ، وإنما ذكرتها كتب التراجم والسير<sup>3</sup> .  
ومثلما كان عارفا بالقراءات صحيحها وشاذها ، فقد كان عارفا بالقراء وأجسامهم ومكاناتهم العلمية ، وما يشهد له بذلك مقالة الإمام الذهبي في كتابه " معرفة القراء الكبار

<sup>1</sup> . الدرر الكامنة : 306/4

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 7/1

<sup>3</sup> . انظر مثلا : بنية الرعاة : 282/1

" حيث قال : ( ومع براعته الكاملة في العربية ، له اليد الطولى في الفقه والآثار ، والقراءات ، وله مصنفات في القراءات والنحو ، وهو مفخر أهل مصر في وقتنا في العلم — مد الله في عمره — ثم قال الذهبي : وودي له أنه نظر في هذا الكتاب ، وأصلح فيه وزاد تراجم جماعة من الكبار ، فإنه إمام في هذا المعنى أيضا )<sup>1</sup>

فقد خصه الذهبي بهذه الأمانة لما كان يتمتع به من إلمام بتراجم القراء وأحوالهم .

### كتب اللغة والنحو والبلاغة :

— الإرتضاء في الضاد والظاء ، ويفهم من كلام أبي القاسم سعد الله أن عنوان الكتاب " الإعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد " وقد لخصه محمد بن بدوي الجزائري العسكري في مصنف سماه " الإرتضاء في الفروق بين الضاد والظاء " وهو عبارة عن معجم صغير في الكلمات العربية لبيت تضمنت أحد هذين الحرفين . قال ابن بدوي الذي كتب مصنفه عام : 1127هـ : ( هذا كتاب لخصته من كتاب الاعتضاد لأبي حيان الأندلسي ، ورتبته على ما فيه ظاء من حروف المعجم ، وعددت في كل حرف ما فيه من المواد ، وبدأت بالصحيح ثم المضاعف .. وسميته الارتضاء .. )<sup>2</sup>

وقد طبع كتاب أبي حيان بمطبعة المعارف في بغداد سنة : 1380هـ / 1961م

— التذكرة في العربية ، وهو كتاب في النحو ، ويبدو أنه كتاب كبير ، وهو مفقود ، يقول أبو حيان : ( وقد ذكرنا أكثرها في كتابنا الكبير الذي سميناه بالتذكرة .. )<sup>3</sup> وهو أسبق من البحر المحيط لأنه كان ينقل عنه ، كما نقل عنه في مواضع أخرى كثيرة<sup>4</sup> ، وقد أورد فيه أبو حيان خلافاً نحوية مع ما ترتب عليها من مسائل في الفقه . وقال عنه السيوطي " في بنية الرعاة " : ( التذكرة في العربية في أربعة مجلدات كبار ، وقفت عليها وانتفعت منها كثيرا . )<sup>5</sup>

— التجريد لأحكام سيبويه .

<sup>1</sup> . الذهبي . معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعمار ، تحقيق بشار عواد ، وشعب الأرنؤوط ، وصالح مهدي عيسى ، مؤسسة

الرسالة ، بيروت ، ط 1 ، 1984م ، ج 2/723

<sup>2</sup> . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981م ، ج 2/137

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 1/188

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 2/294 . 8/464 .

<sup>5</sup> . بنية الرعاة : 1/282

— التدريب في تمثيل التقريب ، وهو كتاب يشرح فيه ما أغفله ابن عصفور في كتابه المقرب في النحو<sup>1</sup> .

— التذيل والتكميل في شرح التسهيل ، وهو تذييل وتكميل لكتاب " تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد " الذي ألفه أبو عبد الله جمال الدين بن مالك ، فجاء شرحه مفصلاً في عشر مجلدات كبيرة<sup>2</sup> ، قيل أنه لم يولف في العربية مثله ، لم يطبع منها سوى قطعة صغيرة سنة : 1910م بمطبعة السعادة بمصر ، وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة ولكن معظمها ناقصة في دار الكتب بالقاهرة ، ومعهد إحياء المخطوطات .

— فضل النحو ، وهو أحد الكتب الباقية من كتبه ، ويوجد مخطوط منه بمكتبة برلين ، لكن أبا حيان لم يذكره .

— التنخيل الملخص في شرح التسهيل .

— اللمحة في النحو .

— منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك .

— الموفور في تحرير أحكام ابن عصفور ، اختصر فيه الشرح الكبير لابن عصفور ، والكتاب توجد منه نسخة بخط أبي حيان بدار الكتب بالقاهرة ، ونسخة مصورة عنها بمعهد إحياء المخطوطات بمصر .

— المسلك المرشد .

— النكت الحسان .

— غاية الإحسان في علم اللسان ، في النحو ، توجد منه نسخة خطية بدار الكتب بالقاهرة ، وهي بخط المؤلف .

— الإسفار الملخص من كتاب الصفار لسيبويه .

— الفصل في أحكام الوصل

— اللمحة البدرية في علم العربية ، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب بالقاهرة . كما توجد لها شروح في المتحف البريطاني<sup>3</sup> .

<sup>1</sup> . أبو حيان : ارتشاف الضرب من لسان العرب ، تحقيق مصطفى أحمد الحار ، ط 1 ، 1984م ، ج 1/24

<sup>2</sup> . بغية الرعاة : 282/1 ، وانظر أبو حيان ، ارتشاف الضرب من لسان العرب ، ج 1/29

<sup>3</sup> . تاريخ آداب اللغة العربية : 259/2

— شرح تحفة المودود لابن مالك ، في النحو .

— المبدع في التصريف .

— نهاية الإعراب في علمي التصريف والإعراب .

— الشذرة الذهبية في علم العربية .

— ارتشاف الضرب في لسان العرب ، مخطوط ، توجد منه عدة نسخ بدار الكتب المصرية

، ومعهد إحياء المخطوطات بمصر . وقد قام مؤخرًا الدكتور مصطفى أحمد النحاس

بتحقيقه وطبعه سنة : 1984م . وقد أخرج في ثلاثة مجلدات كبار . وهو كتاب جامع في

النحو والإعراب .

— خلاصة التبيان في علم المعاني والبيان ، في البلاغة .

مؤلفاته في قواعد بعض اللغات الأعجمية :

— الإدراك للسان الأتراك ، وهو كتاب مطبوع بالأستانة سنة : 1309هـ/1891م كما توجد

منه نسخة مخطوطة بمعهد إحياء المخطوطات ، وهي مصورة عن جامعة استانبول ، ولا

يزال معتمدا إلى يومنا هذا في اللغة التركية . ألفه بعد استقراره بمصر ، واتصاله بالأتراك

ملوك زمانه .

— الأفعال في لسان الترك .

— زهو الملك في نحو الترك .

— نور الغبش في لسان الحبش ، لم يكمله . وهو كتاب في فقه اللفظ يتحدث فيه عن

تقارب اللغتين العربية والحبشية<sup>1</sup> .

— منطق الخرس في لسان الفرس .

— الموقور في لسان الينحور .

في التاريخ والتراجم :

— مشيخة ابن أبي منصور .

— " نضاد " ، في اشتغاله ، ورحلته ، وشيوخه .

— مجاني الحصر في تاريخ أهل العصر .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 163/4

— النضار في المسلاة عن "نضار" ، في ابنته لما توفيت<sup>1</sup> ، وبعض ترجمته الذاتية وتراجم أخرى . وعنه نقل السيوطي بعضا من التراجم في بغية الوعاة .

وقال فيه أيضا ابن حجر : ( ووقفت على كتابه النضار .. في مجلد ضخيم ذكر فيه أوليته وابتداء أمره ، وصفة رحلته ، وتراجم الكثير من شيوخه ، وأحواله ، إلى أن استطرده إلى أشياء كثيرة تشتمل على فوائد غزيرة قد لخصتها في التذكرة . )<sup>2</sup>

— تحفة السنن في نحاة الأندلس .

— قطر الحبي في جواب أسئلة الذهبي .

— فهرست مسموعاتي .

في العروض والشعر :

— الأبيات الوافية في علم القافية .

— نوافذ السحر في دماث الشعر .

— المورد العذب في معارضة قصيدة كعب .

— ديوان شعر . وهو مطبوع سنة : 1969م بتحقيق د. أحمد مطلوب ، و د. خديجة

الحديثي ببغداد سنة : 1969م

مؤلفاته في الفقه وغيره من فروع الشريعة:

— الإعلام بأركان الإسلام .

— الأنور الأجلى في اختصار المحلى ، لابن حزم .

— الإلماع في إفساد إجازة ابن الطبايع .

— الشذا في مسألة كذا .

— مسلك الرشيد في تجريد مسائل نهاية ابن رشد .

— الوهاج في اختصار المنهاج ، اختصر فيه كتاب " منهاج الطالبين " وهو مختصر لكتيب

" المحرر في فقه الشافعية للإمام محي الدين النووي المتوفى سنة : 676هـ .

<sup>1</sup> . وكانت نضار بنت أبي حيان حمت وسمعت على بعض الشيوخ ، وحدثت بنسب من مروياتها ، وأجازها بعض علماء المغرب وحفظت مقدمة في النحو .. توفيت رحمة الله في سنة : 730هـ . انظر : نفع الطيب : 559/2

<sup>2</sup> . الدرر الكامنة : 307/4

## شعره :

كان أبو حيان الأندلسي شاعرا فحلا ، وناظما متمرسا لبعض الفنون . قال ابن الخطيب :  
( وشعره كثير ، يتصف بالإجادة وضدها ، له مطولات في أغراض مختلفة ) .<sup>1</sup>  
منها مطولة في مائة بيت ، قالها في مدح علم النحو واللغة ، و أشاد فيها بكبار النحاة ،  
كأبي الأسود الدؤلي ، والخليل ، وسيبويه ، نقتطف منها :

هو العلم لا كالعلم شيء تراوده      لقد فاز باغيه وأبجح قاصده  
وفي كلها خير ولكن أصلها      هو النحو فاحذر من جهول تعانده  
به يعرف القرآن والسنة النبي      هما أصل ذا الدين الذي أنت عابده  
وناهيك عن علم علي مشيد      مبانيه ، أعزز بالذي هو شايده  
لقد حاز في الدنيا فخارا وسوددا      أبو الأسود الدؤلي قلله ساندده  
هو استنبط العلم الذي جل قدره      وطار به للعرب ذكر نعاوده  
ولازال هذا العلم تنميه سادة      جهابذة تبلى به وتعاضده  
إلى أن أتى الدهر العقيم بواحد      من الأزد تميمه إليه فرايده  
إمام الورى ذاك الخليل بن أحمد      أقرله بالسبق في العلم حاسده  
ولما رأى من سيبويه نجابة      وأيقن أن الحين أدناه باعده  
تخيره إذ كان وارث علمه      ولاطفه حتى كأن هو والسده  
أتى سيبويه ناشرا لعلومه      فلولاه أضحى النحو عطلا شواهدده  
عليك قرآن النحو نحو ابن قنبر      فأياته مشهودة وشواهدده  
كتاب أبي بشر فلا تك قارئنا      سواء فكل ذاهب الحسن فاقده  
ولا تعد عما حازه إنه الفراء      وفي خوفه كل الذي أنت صائده  
إذا كنت يوما محكما في كتابه      فإنك فينا نابه القدر ماجده .  
ذوو النحو في الدنيا قليل حظوظهم      وذو الجهل فيها وافر الحظ زايدده  
لهم أسوة فيها علي لقد مضى      ولم يلق في الدنيا صديقا يساعده  
مضى بعده عنا الخليل فلم ينل      كفافا ولم يعدم حسودا يناكده

<sup>1</sup> . الإحاطة : 47/3

أبكي على عمرو ولا عمر مثله  
لقد كان للناس اعتناء بعلمه  
والآن فلا شخص على الأرض قارئ  
سوى معشر بالغرب فيهم تلفت  
ولني في مصر وإن قل ناصري  
أثار أثير الغرب للنحو كامنا  
وأحيا أبو حيان ميت علومه  
أقمنا بمصر عشرين حجة يشا  
فلما نزل منهم مدى الدهر طائلا  
لنا سلوة فيمن سردنا حديثهم  
أخحي إن تصل يوما وبلغت سالما  
وقبل ترى أرضهما حل ملكنا  
بفرناطة روعي وفي مصر جثتي  
إذا مشكل أعيا وأعوز ناقده  
بشرق وغرب تستثار فوايسله  
كتاب أبي بشر ، ولا هو رابده  
إليه وشوق ليس يغبو مواقده  
لناصره ما دمت حيا وعاضده  
وعالجه حتى تسبت قواعده  
فأصبح علم النحو ينفق كاسده  
هدنا ذو أمرهم ونشاهده  
ولما نجد فيهم صديقا نوادده  
وقد يتسلى بالذي قال سارده  
لفرناطة فانفذ لما أنا عامده  
وسلطاننا الشهم المحمل عوايدده  
ترى هل بشي الفرد من هو مارده<sup>1</sup>

وله شعر كثير في انتقاد الوضع الاجتماعي والديني والفكري في عصره ، ويبدو من خلال هذه الأشعار ذلك العالم الاجتماعي الذي خالط الناس عن قرب ، وخير النفوس والطبائع ، حتى خرج بتجربة وقناعة بنى عليهما كثيرا من المواقف في علاقته مع الناس ، كما غلبت عليه روح التشاؤم والتبرم عن الخلق ، ومما قاله في ذلك مثلا<sup>2</sup> :

حلبت الدهر أشطره زمانا  
فما أبصرت من خل وفي  
ذئاب في ثياب قد تسبتت  
ومن يك يدعي منهم صلاحا  
ترى الجهال تتبعه وترضى  
فينهب مالهم ويصيب منهم  
وتأخذ حاله زورا فيرمي  
وأغناني العيان عن السؤال  
ولا ألفت مشكور الخلال  
لرائيها بأشكال الرجال  
فزنديق تغفل في الضلال  
مشاركة بأهل أو بحال  
نساءهم بمقبوح الفعال  
عمامته ويهرب في الرمال

<sup>1</sup> . الإحاطة : 50/3

<sup>2</sup> . نفع الطب : 567/2



ويجرون التيوس وراء رجس تفرط في العقيدة والمقال .

وقد تأثر هذه النظرة إلى المجتمع حتى في تفسيره ، فصبغه بهذه الصبغة ، وكسنت له استطرادات كثيرة في نقد المحيط من حوله في ذلك العصر ، إلى درجة أن الباحث يستطيع من خلال تفسير البحر المحيط أن يكون صورة واضحة عن عصر المفسر في جانبه الفكري والأخلاقي ، وغيرها من الجوانب الأخرى .

وإذا كان أبو حيان قد نال كثيرا من المدح — نثرا وشعرا — من أهل العلم ، فإنه هو الآخر لم يتردد في مدح بعض أقرانه من أهل العلم ، وله في ذلك شعر جميل ، من ذلك مثلا ما قاله في مدح الإمام ابن تيمية وقد رآه يوما والمجلس غاص من حوله ، فجعل يمدحه ارتجالا<sup>1</sup> :

لما أتينا تقي الدين لاح لنا	داع إلى الله فرد ما له وزر
على محياه من سيما الألى صحبوا	خير البرية نور دونه قمر
حبر تسربل منه دهره حبرا	بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا	مقام سيد تيم إذ عصت مضر
فأظهر الحق إذ آثاره درست	وأحمد الشر إذ طارت له الشرر
كنا نحدث عن حبر يجيء فيها	أنت الإمام الذي قد كان ينتظر

وله موشحات جيدة على طريقة أهل الأندلس في هذا الفن الشعري الجديد ، تناقلها بعض من تلاميذه ممن سمعوا منه ، وهي أغلبها في الوصف والغزل العفيف<sup>2</sup> .

<sup>1</sup> . نفع الطيب : 578/2

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 579/2 وما بعدها

## المبحث الثالث

### ملامح شخصيته

#### المطلب الأول : صفاته وأخلاقه

اختلفت أقوال الناس فيه ، فمنهم من ذم أخلاقه ورماه ببعض النقائص ، وإنما كسان مثل هذا الحكم ممن لم يطل صحبتته له ، ولكن تلاميذه الذين طالت صحبتهم له مدحوا أخلاقه فبالفرا في مدحه .

قال تلميذه الصفدي : ( وكان شيخا حسن اللمة ، مليح الوجه ، ظاهر اللون ، مشربا حمرة ، منور الشبية ، كبير اللحية ، مسترسل الشعر فيها لم تكن كثرة ، عبارته فصيحة بلغة الأندلس ، يعقد حرف القاف قريبا من الكاف ، على أنه لا ينطق بها في القرآن إلا فصيحة ، وسمعتة يقول ما في هذه البلاد من يعقد حرف القاف . )<sup>1</sup>

وقال تلميذه الرعيني في وصفه : ( وهو شيخ فاضل ما رأيت مثله ، كثير الضحك والإنبساط ، بعيد عن الانقباض ، جيد الكلام ، حسن اللقاء ، جميل الموانسة ، فصيح الكلام ، طلق اللسان ، ذولمة وافرة ، وهمة فاخرة ، له وجه مستدير ، وقامتة معتدلة التقدير ، ليس بالطويل وليس بالقصير . )<sup>2</sup>

وكان أبو حيان الأندلسي — رحمه الله — طيب الأخلاق ، حسن المزاج ، كثير الإعجاب بالملح واللطائف ، سريع البديهة ، من ذلك ما رواه ابن أبي الوفاء في الجواهر المضية ، قال : ( أخبرنا شيخنا الإمام العلامة الأستاذ الحجة أبو حيان الأندلسي قال : قدم علينا الشيخ المحدث أبو العلاء بن أبي بكر البخاري الفرضي القاهرة في طلب الحديث ، وكان رجلا طيبا حسن الأخلاق ، لطيف المزاج فكنا نسايره في طلب الحديث ، فإذا رأى صورة حسنة قال : هذا صحيح على شرط البخاري ، فنظمت هذه الأبيات<sup>3</sup> :

بدا كهلال العيد عند طلوعه ومال كفصن الخيزران المنعم

<sup>1</sup> نفع الطيب : 241/2

<sup>2</sup> المصدر نفسه : 565/2

<sup>3</sup> الجواهر المضية : 455/4

غزال رخييم الدال وافي مواصلا  
مليح غريب الحسن أصبح معلما  
موافقة منه على رغم لومسي  
نجمرة خسد بالمحاسن معلم  
فقلت على شرط البخاري ومسلم

فقال مولانا : أنا البخاري ، فمن مسلم ؟

فقلت له : أنت البخاري وأنا مسلم .

وقد ذكر بعضهم للإنتقاص منه في بعض سلوكه وفي علاقته مع أقرانه ، فوصفه كمال الدين الأدهوي بقوله : ( وكان سيئ الظن بالناس كافة ، فإذا نقل له عن أحد خيرا لا يتكيف به ، وينتفي عنه ، حتى عمن هو عنده مجروح ، ويقع في ذم من هو بالسنة الناس العالم المدوح )<sup>1</sup>

ودفع عنه تلميذه الصفدي هذه التهمة — وهو أعرف به — فقال : ( قلت : أنا لم أسمع منه في حق أحد من الأحياء والأموات إلا خيرا ، وما كنت أنقم عليه شيئا إلا ما كان يبلغني عنه من الخط على الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، على أنني أنا ما سمعت في حقه شيئا ، نعم كان لا يثق هؤلاء الذين يدعون الصلاح حتى قلت له يوما : يا سيدي ، فكيف تعمل في الشيخ أبي مدين ؟ فقال هو رجل مسلم دين ، إلا ما كان يطير في الهواء ويصلي الصلوات الخمس في مكة كما يدعي فيه هؤلاء الأغمار )<sup>2</sup>

كما وصفه بعضهم فقال : ( كان لسانه مسترسلا في الرقبة في الناس جدا إلى آخر عمره ، لا يتورع عن ذكر أحد بسوء ، سواء كان من أئمة الإسلام المتقدمين أو المتأخرين ، فالله يسامحه ، فإنه لم يقلع عن ذلك إلى آخر وفاته )<sup>3</sup> .  
وإذا فسر هذا الكلام على أنه كان منه غيبة ، فإن تلميذه الصفدي قد نزهه عن ذلك كما علمنا ، وإذا كان من باب الكلام في رواة العلم جرحا وتعديلا فإن هذا جائز بسلا خلاف ، وقد كان أبو حيان ممن يعتمد قوله في الرجال .

<sup>1</sup> . نفع الطب : 542/2

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 342/2

<sup>3</sup> ذيل تذكرة الحفاظ : 25/5

وكان فيه — رحمه الله تعالى — خشوع ، بيكي إذا سمع القرآن ويجري دمه ، ويجري عند سماع الأشعار الغزلية ، وقال كمال الدين الأدفري : قال لي : إذا قرأت أشعار العشق أميل إليها ، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلني ، وغيرهما إلا أشعار الكرم ما تؤثر في . قال الصفدي : ( كان يفتخر بالبخل كما يفتخر غيره بالكرم ، وكان يقول لي : أوصيك ، احفظ دراهمك ويقال عنك بخيل ، ولا تحتاج إلى السفلى .. ثم قال الصفدي مفسرا ذلك : ( والذي أراه فيه أنه طال عمره ، وتفرب ، وورد البلاد ولا شيء معه ، وتعب حتى حصل المناصب تعباً كثيراً ، وكان قد جرب الناس ، وحلب أشطر الدهر ، ومرت به حوادث ، فاستعمل الخزم ، وسمعته غير مرة يقول : يكفي الفقير في مصر أربعة أفلس ، يشتري له بائنة بفسين ، وبفلس زيبيا ، وبفلس كوز ماء ، ويشترى ناني يوم ليمونا بفلس يأكل به الخبز . وكان يعيب على مشتري الكتب ويقول : الله يرزقك عقلا تعيش به ، أنا أي كتاب أردته استعرت من خزائن الأوقاف ، وإذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم ما أجده ذلك ، وأنشدني له إجازة :

إن الدراهم والنساء كلاهما لا تأمن عليهما إنسانا

يترعن ذا اللب المتين عن التقى فترى إساءة فعله إحسانا .<sup>1</sup>

وقد أصاب تلميذه الصفدي إلى حد بعيد فيما فسره به سلوك شبحه لأن أبا حيان قد وصف أيضا بأنه ذو نفس زاهدة عفيفة ، وهمة فاحرة ، إلى جانب الفقر الذي لازمه طول عمره ، وقد عبر عن هذه الحال في كثير من أشعاره ، منها قوله :

أريد من الدنيا ثلاثا وإنما لغاية مطلوب لمن هو طالب

تلاوة قرآن ، ونفس عفيفة وإكثار أعمال عليها أو اطلب .

وقوله<sup>2</sup> :

وزهدني في جمع المال أنه إذا ما انتهى عند الفتي فارق العمرا

فلا روحه يوما أراح من العنا ولم يكتسب حمدا ولم يدخر أجرا .

وقوله أيضا<sup>3</sup> :

<sup>1</sup> . نفع الطيب : 564/2

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 564/2

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 563/2

رضيت كفاي رتبة ومعيشة      فلست أسامي موسرا ووجيها  
ومن جر أثواب الزمان طويلة      فلا بد يوما أن سيعثر فيها<sup>1</sup>

ومهما تضاربت الأقوال في وصف أخلاق أبي حيان الأندلسي وسيرته ، فإننا يمكننا اليوم أن نرسم له صورة مشرقة من خلال تلك الوصية الجامعة التي أوصى بها أهله ، وجعلها لهم دستوراً في الأخلاق والسلوك ، ولا يظن عاقل أن أحداً من الناس سيوصي أقرب الناس إليه بغير ما يدين به ويعتقده ونجبه . وقد أوصى أهله بهذه الوصية لما قدم إلى مصر ، فقال :

( ينبغي للعاقل أن يعامل كل أحد في الظاهر معاملة الصديق ، وفي الباطن معاملة العدو في التحفظ منه والتحرز ، وليكن في التحرز من صديقه أشد من التحرز من عدوه ، وأن يعتقد أن إحسان شخص إلى آخر وتودده إنما هو لغرض قام له فيه يتعلق به ، يبعثه على ذلك ، لا لذات ذلك الشخص . وينبغي أن يترك الإنسان الكلام في ستة أشياء : في ذات الله تعالى ، وما يتعلق بصفاته ، وما يتعلق بصفات أنبيائه — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — وفي التعرض لما جرى بين الصحابة ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وفي التعرض لأئمة المذاهب ، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم ، وفي الطعن على صالحى الأمة ، نفع الله بهم ، وعلى أرباب المناصب والرتب من أهل زمانه ، وأن لا يقصد أذى أحد ممن خلق الله سبحانه وتعالى إلا على حسب الدفع عن نفسه ، وأن يعذر الناس في مباحثهم وإدراكاتهم ، فإن ذلك على حسب عقولهم ، وأن يضبط نفسه عن المسراء والاستزراء والاستخفاف بأبناء زمانه ، وأن لا يبحث إلا مع من اجتمعت فيه شرائط الديانة والفهم والمزاولة لما يبحث ، وأن لا يفضب على من لا يفهم مراده ومن لم يدرك ما يدركه ، وأن يلتبس مخرجا لمن ظاهر كلامه الفساد ، وأن لا يقدم على تخطئة أحد ببيادي السوائي ، وأن يترك الخوض في علم الأوائل ، وأن يجعل اشتغاله بعلوم الشريعة ، وأن لا يتكبر على الفقراء وليسلم لهم أحوالهم ، وينبغي للعاقل أن يلزم نفسه التواضع لعبيد الله سبحانه وتعالى ، وأن يجعل نصب عينيه أنه عاجز مفتقر ، وأن لا يتكبر على أحد ، وأن يقل من الضحك والمزاح والخوض فيما لا يعنيه ، وأن يتظاهر لكل بما يوافقه فيما لا يعصيه الله

<sup>1</sup> . نفع الطب : 564/2

تعالى فيه ولا يحرم مروعة ، وأن يأخذ نفسه باجتئاب ما هو قبيح عند الجمهور ، وأن لا يظهر الشكوى لأحد من خلق الله تعالى ، وأن لا يعرض بذكر أهله ، ولا يجسري ذكر حرمه بحضوره جلسه ، وأن لا يطلع أحدا على عمل خير يعمله لوجه الله تعالى ، وأن يأخذ نفسه بحسن المعاملة من حسن اللفظ وجميل التقاضي ، وأن لا يركن إلى أحد إلا الله تعالى ، وأن يكثّر من مطالعة التواريخ فإنها تلقح عقلا جديدا .<sup>1</sup>

### ميله للعزلة والعزوبة :

وعلى الرغم من كون أبي حيان متزوجا وله أولاد ، فإنه كان يلتقي مع الزمخشري في نفوره من الحياة الزوجية وإنجاب الولد ، وقد أبان في أكثر من موطن من ديوانه عن مذهبه في الحياة بأنه يمدح العزوبة ويذم الزواج فقال<sup>2</sup> :

خلق الإنسان في كبد	بوجود الأهل والولد
كل عضو فيه نافعه	غير عضو ضرر للأبد
منتج ذلا وفقد غنى	وفراخا حمة العمد
من يمت منهم يلقيه أسى	أو يعيش ألقاد في نكد
عاش في أمن فسقى عزب	مستريح الفكر والجسد

وله قصيدة أخرى في نفس الغرض علل فيها فضل العزوبة على الزواج بنفس ما ذهب إليه الزمخشري ذكر طرفا منها المقرري في نفع الطيب<sup>3</sup> .

وفي الحقيقة أن أغلب العلماء كانوا يرون أن الولد مبجلة مجبنة ، مشغلة عن التحصيل والتعلم ، مما دفع بالعديد منهم إلى إثارة حياة العزوبة والتفرد على حياة الزوجية والإشتغال بإنجاب الولد .

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 565/2 --- 566

<sup>2</sup> . نفع الطيب : 328/3

<sup>3</sup> . نفع الطيب : 330/3

## المطلب الثاني : مذهب الفقهي والعقدي

تذكر كتب التراجم أن أبا حيان الأندلسي كان ظاهريا في الجانب الفقهي في الأندلس ، ثم صار شافعيًا في المشرق ، وكان أبو البقاء يقول : إنه لم يزل ظاهريا . وقال ابن حجر : كان أبو حيان يقول : محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه<sup>1</sup> .  
وللتوفيق بين هذين القولين المتعارضين نقول : إن تأثر أبي حيان بالمذهب الظاهري لا يمكن إنكاره ، ولنا على ذلك أدلة منها :

— اهتمامه بالتراث الفقهي لهذا المذهب وخدمته ، حيث قام باختصار كتاب المحلى لابن حزم في مؤلف سماه " الأنور الأجلى في اختصار المحلى " وكان ينقل منه في تفسيره في عدة مواضع ، مما يدل على استمراره على ذلك إلى وقت متأخر من عمره .  
— أنه كان ينقل آراء أهل الظاهر في تفسير بعض آيات الأحكام إلى جانب آراء المذاهب السنية الأخرى ، وكان يرى أن الإجماع لا يعتقد في حكم فقهي ما إذا خالف الظاهرية في ذلك .

إلا أن الأفق العلمي الواسع الذي كان يتمتع به ، والعقلية الفقهية المنحرفة التي كانت تأتي عليه أن يجسر نفسه في أقوال أهل الظاهر ، كل ذلك جعله يتخطى حرفة النصوص ليخلق في أجواء دلالاتها الواسعة في ضوء القواعد الأصولية والمقاصد العامة للشريعة الإسلامية ، وهذا الذي ذهب إليه الشوكاني في نسبة أبي حيان إلى المذهب الظاهري .  
قال الشوكاني : ( ولقد صدق في مقاله — أي أبو حيان — فمذهب الظاهر هو أول الفكر آخر العمل عند من منح الإنصاف ، ولم يرد على فطرته ما يعينها عن أصلها ، وليس هذا مذهب داود الظاهري وأتباعه فقط ، بل هو مذهب أكابر العلماء المتقيدين بنصوص الشرع من عصر الصحابة إلى الآن ، وداود واحد منهم ، وإنما اشتهر عنه الجمود في مسائل وقف فيها على الظاهر حيث لا يجب الوقوف ، وأهمل من أنواع القياس ما لا ينبغي لمنصف إهماله ، وبالجملة فمذهب الظاهر وهو العمل بظاهر الكتاب والسنة بجميع الدلالات ، وطرح التعويل على محض الرأي الذي لا يرجع إليهما بوجه من وجود الدلالة . وأنت إذا أمعنت النظر في مقالات أكابر المجتهدين المشتغلين بالأدلة وجدتها من مذهب

<sup>1</sup> . انظر الدرر الكامنة : 4/304

الظاهر بعينه ، بل إذا رزقت الإنصاف ، وعرفت العلوم الإجهادية كما ينبغي ، ونظرت في علوم الكتاب والسنة حق النظر ، كنت ظاهريا ، أي عاملا بظاهر الشرع منسوبا إليه ، لا إلى داود الظاهري .<sup>1</sup>

أما في الجانب العقدي فقد كان أبو حيان الأندلسي سني العقيدة ، وقد وصفته كتب التراجم بأنه كان خاليا من الفلسفة والاعتزال والتجسيم ، بل كان يكره إضاعة الجهد والعمر في مثل هذه العلوم ، وقد سبق أن علمنا أن مما يذكر في سبب خروجه من الأندلس هو خشيته أن يكره على تعاطي مثل هذه العلوم .<sup>2</sup>

كما ذكر تلميذه الكمال جعفر أنه لازمه من سنة ثمانين عشرة إلى أن مات - أي لازمه ثمانية وعشرين سنة - فشهد له بأحسن الأوصاف والخلال فقال : ( شيخ الدهر وعالمه ، ومحبي الفن الأدبي بعد ما درست معاملة ، ويجري اللسان العربي فلا يقاربه أحد فيه ولا يقاومه .. وكان صدوقا حجة ثبتا سالما في العقيدة من البدع والفلسفة والاعتزال والتجسيم .. وجرى على مذهب أهل الأدب في الميل إلى محاسن الشيبان ، ومال إلى مذهب أهل الظاهر ، وإلى محبة علي بن أبي طالب والتجاني عن قائله ) .<sup>3</sup>

وقال فيه ابن حجر : ( كان عربيا من الفلسفة برئنا من الاعتزال والتجسيم ، متمسكا بطريقة السلف ، وكان يعظم ابن تيمية ، ومدحه بقعيدة ، ثم انحرف عنه . وقيل إن سبب ذلك أنه وقف له على كتاب العرش فاعتقد أنه مجسم ، وقيل إنه بحث معه في العربية وذكر أبو حيان سيويه ، فقال ابن تيمية : إن سيويه أخطأ في ثلاثين موضعا ، فغضب أبو حيان وهجره . )<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . الشوكاني . الدر الطالع : 290/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 150/5 . وانظر طبقات المفسرين للناودي : 189/1

<sup>3</sup> . الدر الكامنة : 306/4

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 307/4



## المطلب الثالث : مكانته العلمية

أ - مكانته اللغوية والنحوية : كان اسم أبي حيان الأندلسي من الأسماء اللامعة في كتب طبقات النحويين واللفويين ، فنال الحظ الأوفر من ثناء ومدح أهل التراجم قديما وحديثا .

قال ابن مرزوق الخطيب في حقه : (هو شيخ النحاة بالديار المصرية ، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية ، انتهت إليه رئاسة التبريز في علم العربية واللغة والحديث .)<sup>1</sup>  
وقال لسان الدين الخطيب : ( ووقفت على " أعيان العصر وأعوان النصر " للصفدي ، فوجدت فيه ترجمة أبي حيان واسعة ، فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد ، ثم ذكرها في خمسين صفحة من كتابه " نفع الطيب " وهي أطول ترجمة ذكرها في هذا الكتاب .)<sup>2</sup>

أما الصفدي فقد أثنى عليه فبالغ في الثناء ، ولم يترك لغيرد ما يقولون فيه من المدح ، فقال : ( الشيخ ، الإمام ، العالم ، العلامة ، الفريد ، الكامل ، حجة العرب ، مالك أزمة الأدب ، أثير الدين ، أبو حيان الأندلسي الجياني ، كان أمير المؤمنين في النحو ، والشمس السافرة شتاء في يوم الصحو ، والمتصرف في هذا العلم فإليه الإثبات والمحو ، لسر عاصر أئمة البصرة لبصرهم ، أو أهل الكوفة لكف عنهم اتباعهم السواد وحذرهم ، نزل منه كتاب سيبويه في وطنه بعد أن كان طريدا ، وأصبح به التهليل لعد تعقيده مفيدا .. مالا الزمان تصانيف ، وأمال عنق الأيام بالتوالييف ، تخرج به أئمة في هذا الفن ، وروق لهم في عصره سلافة الدن ، فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضا غير محيب ، أو الكسائي لأعزاه حلة جامه عند الرشيد وأناسه ، أو الفراء لغرمه ، أو اليزيدي لما ظهر نقصه من مكانه ، أو الأخفش لأخفى جملة من محاسنه ، أو أبو عمرو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلق بعربية ، أو السكري لما راق كلامه في المعاني ولا حلا .. أو قطرب لما دب في العربية ولا درج ، أو ثعلب لاستكن في وكره ولما خرج ، أو المبرد لأصبحت قواه مقترنة ، أو الزجاج لأصبحت قواريره مكسرة .. أو ابن قتيبة لأضاع رحله ، أو ابن السراج لمشاهد إذا

<sup>1</sup> . نفع الطيب : 536/2

<sup>2</sup> . انظر نفع الطيب : 536/2 - 584

رأى وحله ، أو ابن الخشاب لأضرم فيه نارا ، ولم نجد معه نورا ، أو ابن الحجاز لما سجر معه تنورا ، أو ابن يعيش لأوقعه في نزع ، أو ابن خروف لما وجد له مرعى ، أو ابن إيلز لما وجد لأوزاره وقعا أو ابن الطراوة لم يكن نحو طريا ، أو ابن الدباج لكان من حلتته الرائقة عربيا ، وعلى الجملة فكان إمام النحاة في عصره شرقا وغربا ، وفريد هذا الفن الفند بعدا وقربا وفيه قلت <sup>1</sup> :

سلطان علم النحو أستاذنا الـ شيخ أثير الدين حير الأنام

فلا تقل زيد وعمرو ، فما في النحو معه لسواه كلام

كما وصفه الإمام الذهبي بقوله : ( هو الإمام ، العلامة ، ذو الفنون ، حجة العرب ، وعالم الديار المصرية ، وصاحب التصانيف البديعة ، وله عمل جيد في هذا الشأن ) <sup>2</sup> ( ومع براعته الكاملة في العربية له اليد الطولى في الفقه والآثار والقراءات واللغات .. وهو مفخر أهل مصر في وقتنا في العلم ، تخرج به عدة أئمة ) <sup>3</sup>

وفي العصر الحديث ترجم له أحمد أمين في حديثه عن الحركة العلمية في الأندلس فقال : ( وربما عد من أكبر علماء النحو في الأندلس أبو حيان الفرناطي .. وكان نحويًا مفسرًا شاعرا .. وأهميته أنه كان لغويًا بمعنى أنه كان يعرف لغات كثيرة ، فألف كتابا في التركية ، وآخر في اللغة الفارسية ، والكتابان موجودان إلى الآن . كما ألف كتابا في الحبشية .

كما يذكر أحمد أمين أنه كانت له اجتهادات في النحو ، ولكن اجتهادات داخل المذهب كما يقال ، بحيث كان اجتهاده يدور في فلك سيبويه ، وليس اجتهادا مطلقا ) <sup>4</sup>

ب - مكانته في العلوم الشرعية : تناقلت ذكر اسمه مختلف كتب التراجم ، فمثلما ذكرته كتب طبقات الفقهاء ، فقد ذكر اسمه في طبقات المحدثين باعتبار إماما في هذا الفن رواية ودراية ، وأنه كان ممن يعتمد قوله في الرجال جرحا وتعديلا على تأخره ( 745هـ ) وذكرته كتب طبقات القراء ، حيث ذكره ابن الجزري في غاية النهاية فقال : ( الإمام

<sup>1</sup> . نفع الطيب : 537/2

<sup>2</sup> . تذكرة الحفاظ : 25/5

<sup>3</sup> . غاية النهاية : 286/2 والقول للذهبي .

<sup>4</sup> . ظهر الإسلام : 94/3

المحافظ الأستاذ شيخ العربية والأدب والقراءات مع العدالة والثقة .. ونظمه في غاية الحسن مع الدين والخير والثقة والأمانة .<sup>1</sup>

ونعته الذهبي في المعجم المختص — نقلا عن الدرر الكامنة لابن حجر — بقوله : ( أبو حيان ذو فنون ، حجة العرب ، وعالم الديار المصرية ، له عمل جيد في هذا الشأن وكثرة طلب .)<sup>2</sup>

أما في كتب طبقات المفسرين فقد اعترفوا له بالتفرد والسبق في جوانب مميزة في هذا الفن ، حتى صار تفسيره البحر المحيط موردا لمن جاء بعده ، ومرحلة جديدة قائمة بذاتها في المراحل التاريخية التي مر بها تاريخ التأليف في تفسير القراءان الكرم .  
وبهذه الترجمة الوافية نسبيا لكل من المفسرين — الزمخشري وأبي حيان الأندلسي — نجد أنفسنا في هذا البحث قد وقفنا أمام علمين كبيرين من أعلام التفسير كان كل منهما يمثل مرحلة مميزة في الحركة العلمية بصفة عامة ، وفي حركة تفسير القراءان بصفة خاصة ، كما نكون قد أحطنا بالأحوال الثقافية والاجتماعية والدينية لتلك البيئة التي جادت بمثل الزمخشري في عطائه وإبداعه ، وكذا بيئة أبي حيان الأندلسي ، مما يسمح لنا بالموازنة بين إنتاجهما في هذا الجانب ، وبيان أوجه التفاضل والتفاوت بينهما وأسبابه ، وهو ما سنعرض له في الباب الثاني والثالث من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

<sup>1</sup> . غاية النهاية في طبقات القراء : 286/2

<sup>2</sup> . الدرر الكامنة : 308/4

جامعة الأمير

الديار والثانوية

مسالكها في التفسير

بالمأثور

الإسلامية

## الفصل الأول

مسلكهما في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

جامعة الأزهر  
القادر للعلوم الإسلامية

# المبحث الأول

## مسلكهما في تفسير القرآن بالقرآن

يعتبر التفسير بالمأثور المصدر الأول الذي يرجع إليه كل مفسر للقرآن الكريم ، ومهما صنفت بعض كتب التفسير فيما يسمى بالتفسير بالرأي ، فهو من باب تغليب الغالب ، وإلا فليس هناك أي مفسر يدعي لنفسه تفسير القرآن الكريم من غير أن يرجع إلى النقل ، لأن في القرآن ما هو مجمل ولا يفصله إلا القرآن ، وفيه من المطلق والعام مالا يقبسه أو يخصه إلا القرآن نفسه ، وكل هذا مما ليس للرأي فيه مجال ، مما يجعل المفسر في حاجة للإلمام بهذا النوع من التفسير ، وقد اعتبره العلماء أرقى درجات التفسير<sup>1</sup> .

ويأتي بعده تفسير القرآن بالسنة ، وهذا القسم هو الآخر يلحق بسابقه من حيث أن السنة وحى من الله تعالى ، لما جاء في سورة النحل : " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " <sup>2</sup> ولما روي أنه — صلى الله عليه وسلم — كان يترى عليه جبريل عليه السلام بالسنة كما يترى عليه بالقرآن<sup>3</sup> .

ومنه أيضا تفسير الصحابة رضي الله عنهم ، حيث روى الحاكم في مستدركه أن تفسير الصحابي الذي أدرك التزويل له حكم المرفوع<sup>4</sup> ، وقد قيده بعضهم بما ليس للسراي فيه مجال<sup>5</sup> .

كما ألحق به تفسير التابعين الذين لزموا من عرف بالتفسير من الصحابة وأخذوا عنهم هذا العلم ، ولذا نجد أقوال الصحابة في التفسير امتزجت بأقوال التابعين ، وهو الشلتع في أعمال المفسرين .

<sup>1</sup> . ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، دار الشافعية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط 1 ، 1990م : ج 4/1

<sup>2</sup> . سورة النحل : 44

<sup>3</sup> . في سنن الدارمي قال : أحبونا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن حسان قال : " كان جبريل يترى على النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن مثلما يترى عليه بالسنة " سنن الدارمي ، دار الفكر ، بيروت ، ج 145/1 .

<sup>4</sup> . الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو العصل إبراهيم ، دار الفكر ، ط 3 ، 1980م ، ج 156/2

<sup>5</sup> . منهم ابن الصلاح والنووي وغيرهما . انظر محمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون ، دار إحياء التراث العربي : ج 94/1

ولم يختلف المفسرون من حيث المبدأ حول قيمة التفسير بالمأثور ، وإنما تباينت مواقفهم باعتبار ما طرأ عليه من أسباب ضعف مختلفة ، جعلته محاطا بسياج من الشك عند بعضهم ، ومن هذه الأسباب<sup>1</sup> شيوع الوضع في التفسير لنفس الأسباب التي أدت إلى الوضع في الحديث النبوي ، وكثرة الإسرائيليات التي امتزجت بالتفسير منذ القرون الأولى ، وحذف الأسانيد ، كما قال الإمام أحمد : ( ثلاث لا أصل لها : المغازي والملاحم والتفسير )<sup>2</sup>

ومهما كانت هذه الأسباب وغيرها ، فإنها لا تعفي المفسر من البحث عن الصحيح من التفسير بالأثر وتقدمه عن غيره إن وجد ، ومن هنا نجد أبا حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط ، والزحشرى في تفسيره الكشاف قد اهتمتا بالتفسير بالمأثور ، وإن كان على تفاوت بينهما ، واختلاف بين مسلكيهما في التعامل معه .

فقد جعل أبو حيان الإمام بالتفسير بالمأثور من الشروط التي يجب على المفسر أن يتحقق بها ، ونص على ذلك في مقدمة كتابه البحر المحيط في معرض كلامه عن شروط المفسر فقال : ( الوجه الرابع : تعيين مبهم ، وتبيين مجمل ، وسبب نزول ، ونسخ .. ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك من علم الحديث ؛ وقد تضمنت الكتب والأهيات التي سمعناها ورويناها ، وذلك كتلصحيحين ، والجامع للترمذي ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وسنن ابن ماجه وسنن الشافعي ، ومسند الدارمي ، ومسند الطيالسي ، ومسند الشافعي ، وسنن الدارقطني ، ومعجم الطبراني ، والمعجم الصغير له ، ومستخرج أبي نعيم على مسلم ، وغير ذلك )<sup>3</sup> .

وإلى جانب تنويه أبي حيان بالقيمة العلمية للتفسير بالمأثور وأهميته ، فإنه حذر من جهة أخرى من حشو كتب التفسير بما لا يصح من الآثار والأخبار . ففي سياق نقله لمن سبقه من المفسرين ، وذكر ما أخذه عليهم قال : ( وكذلك أيضا ذكروا ما لا يصح من أسباب الترويل وأحاديث في الفضائل ، وحكايات لا تناسب وتوارىخ إسرائيلية ، ولا ينبغي ذكر هذا في كتب التفسير . )<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . التفسير والمفسرون : 156/1

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 156/2

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 6/1

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 6/1

ولئن كان أبو حيان مقلاً في تفسير القرآن بالقرآن ، فلعله كان يرى بسان تفسير القرآن بالقرآن الذي هو أعلى درجات التفسير إنما هو ما صح رفعه إلى النبي - ص - بأن آية كذا هي تفسير وبيان لآية كذا ، ولا شك أن هذا النوع من التفسير قليل ، أما تفسير القرآن بالقرآن القائم على اجتهاد المفسر في فهم آيات القرآن في ضوء بعضها بعضاً فإن في تفسير القرآن بالسنة ما يفني عن ذلك ، وأن تفصيل المحمل أو تقييد المطلق أو تخصيص العام في القرآن إنما وقع أغلبه بالسنة ، ولذا نجد أبا حيان لم يكتر من تفسير القرآن بالقرآن في منهجه ، ولم يأخذ به إلا في مواضع قليلة .

أما الزمخشري فإنه وأن لم ينبه على أهمية التفسير بالمأثور بنص صريح ، فإنه أخذ به في بعض المواضع ، وسكت عنه في مواضع أخرى .

وهو في ذلك يقلل من المأثور في الآيات التي يرى فيها ما يخالف مذهبه ، ويتوسع في الأخذ به في الآيات التي لا يرى فيها موضعاً للتزاع مع خصومه أو لا يرى فيها ما يفسد مذهبهم ، فيورد في الآية الواحدة من هذا النوع ما يفسرها من القرآن والسنة وأقوال السلف في آن واحد ، ثم يوجه الآية في ضوء تلك الآثار .

ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا

يُضْرِكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا . " سورة المائدة : 105

قال الزمخشري : ( كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتو والعدا من

الكفرة ، يتمنون دخولهم في الإسلام ، فقبل لهم : " عليكم أنفسكم " وما كلفتم من

إصلاحها والمشى بها في طرق الهدى كما قال تعالى : " فلا تذهب نفسك عليهم

حسرات " <sup>1</sup> وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصي ، ولا يزال

يذكر معاصيهم و مناكيرهم . فهو مخاطب به ، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر ، فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد ، وإنما هو بعض الضلال الذين

فصلت الآية بينهم وبينه ، وعن ابن مسعود أنها قرئت عنده فقال : إن هذا ليس بزمانها

إنما اليوم مقبولة ، ولكن يوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم

أنفسكم ، فهي على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه . وعنه : ليس هذا زمان

<sup>1</sup> . سورة فاطر : 8



تأويلها ، قيل فمئى ؟ قال : إذا جعل دونها السيف والسيوط والسجن . وعن أبي ثعلبة الخشني أنه سئل عن ذلك فقال للسائل : سألت عنها خبيرا ، سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنها فقال<sup>1</sup> : ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا ما رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك نفسك ودع أمر العوام ، وإن من ورائكم أياما الصبر فيهن كقبض على الجمر ، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله )<sup>2</sup>

وفي كل ذلك كان الزمخشري يميل إلى تفسير القراءان بالقراءان أكثر من ميله إلى الأنواع الأخرى من التفسير بالمأثور ، وعلى الرغم من كونه يتوخى الاختصار في تفسيره ، فإنه كان أكثر استعمالا له من أبي حيان ، ولعل السبب في تغليب تفسير القرآن بالقرآن عند الزمخشري عنه عند أبي حيان هو تحكيم قاعدة حمل المشابهات على المحكمات من آيات القرآن عند الزمخشري ، وهي قاعدة مشهورة في منهج المعتزلة في تفسير القرآن<sup>3</sup> ، وذلك هروبا من نصوص السنة التي تخالف مذهبه ، حيث كان يرد بعبارات قاسية وساخرة على خصومه الذين يحكمون السنن في تفسير القرآن ، ذاهبا إلى الطعن الصريح في بعض الرواة من الصحابة لتلك المرويات ، وإن كانت ثابتة في الصحيح ، ولم يكن طعنه في تلك المرويات من جهة النقل بما تعارف عليه نقاد الحديث ، وإنما هو من جهة العقل ، أو مجرد أنه يرى فيها ما يخالف ظاهر القراءان ، والأمثلة الآتية توضح ذلك .

ففي تفسير قوله تعالى : " فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيَسِيئُوا لِنفْسِهِمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَسَهيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ " هود : 107 - 106 قال : ( فإن قلت : فما معنى الاستثناء في قوله تعالى " إلا ما شاء ربك " وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء ؟ قلت هو استثناء من الخلود في عذاب النار ، زمن الخلود في عذاب الجنة . ذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده ،

<sup>1</sup> . أبو داود ، في السنن من تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، لبنان ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ، حديث رقم : 4341 ، والترمذي ، السنن ، تحقيق عبد الرزاق عبد اللطيف ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1980م .

كتاب التفسر ، سورة المائدة ، رقم : 5051

<sup>2</sup> . الكشاف : 685/1

<sup>3</sup> . وقد تحدث القاضي عبد الجبار في كتابه " شرح الأصول الخمسة " عن شروط التفسر ، فذكر اللغة والمعنى وأصوله والرواية وعنه

التوحيد .. ثم قال : وكان بحيث يمكنه حل المشابهة على المحكم والفصل بينهما . انظر : شرح الأصول الخمسة : (XX)

بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسوه لهم وإهانتهم إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما أكبر منها وأجل موقعا منهم ، وهو رضوان الله كما قال " وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ.. " <sup>1</sup> . ولهم ما يفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهو المراد بالإستثناء . والدليل عليه قوله "عطاء غير مجذوذ" ومعنى قوله في مقابلته " إن ربك فعال لما يريد " أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له ، فتأمله فإن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ولا يخدعك قول المجبرة : إن المراد بالإستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة ، فإن الاستثناء الثنائي ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم ، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى بعض النوابت عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبواهما ليس فيها أحد ، وذلك بعد ما يلشون فيها أحقابا ، وقد بلغني أن من الضلال من اغتر بهذا الحديث ، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار . وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين ، زادنا الله هداية بالحق ، ومعرفة بكتابه ، ولئن صحح هذا عن ابن العاص ، فمعناه أنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير ، فذلك خلو جهنم وصفق أبواهما ، وأقول ما كان لابن عمرو وسيفيه ، ومقاتلته بمهما علي بن أبي طالب ، ما يشغله عن تفسير هذا الحديث <sup>2</sup> ولما كان أبو حيان قليل الرجوع إلى تفسير القرآن بالقرآن ، فإنه كان كثيرا ما يكتفي بنقل ما أورده الزمخشري في هذا الجانب إذا لم يكن فيه توجه مذهبي ، ويذهب أحيانا إلى إسقاط تلك الآيات مع الاكتفاء بذكر معانيها ، وهذا مطرد في كثير من المواضع في تفسيره . ومن الأمثلة على ذلك :

في تفسير قوله تعالى : " الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .. " سورة البقرة : 2

<sup>1</sup> . سورة النوبة : 72

<sup>2</sup> . الكشاف : 430/2

قال الزمخشري : ( ومعنى إقامة الصلاة تعديل أركانها ، وحفظها من أن يقع فيها زيغ في فرائضها وسننها وأدائها ، من أقام العود إذا قومه ، أو الدوام عليها ، كما قال تعالى : "الذين هم على صلاتهم دائمون" <sup>1</sup> ، "والذين هم على صلاتهم يحافظون" <sup>2</sup> . ) <sup>3</sup>  
 وقال أبو حيان : ( " و يقيمون الصلاة " والإقامة التفريم ، أقام العود قومه ، أو الإدامة ، أقامت الغزاة سوق الضراب ، أي إدامتها ، من قامت السوق ، أو التشمير والنهوض من قام الأمر ) <sup>4</sup>

وهذا ملخص ما جاء في تفسير الآية عند الزمخشري غير أنه أسقط منه الآيات التي أوردها الزمخشري في تعيين معنى إقام الصلاة .

وفي تفسير قوله تعالى : " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا " . سورة البقرة : 142

قال الزمخشري : ( روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء ، فيطالب الله الأنبياء ، وذلك قوله تعالى <sup>5</sup> : " فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا " ) <sup>6</sup>

وقد رجعت إلى البحر المحيط في تفسير هذه الآية ، فإذا هو يتوسع في تفسيرها بذكر أقوال المفسرين في معنى الشهادة ، وتعيين وقتها في الدنيا أو الآخرة ، وأورد في ذلك آثارا من السنة وأقوال السلف ، ودون أن يعرج على الآية التي أوردها الزمخشري في ترجيح كون هذه الشهادة في الآخرة <sup>7</sup> .

وفي تفسير قوله تعالى : " اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ " سورة

البقرة : 14

<sup>1</sup> . سورة المارج : 23

<sup>2</sup> . سورة المؤمنون : 9

<sup>3</sup> . المكشاف : 39/1

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 38/1

<sup>5</sup> . سورة النساء : 41

<sup>6</sup> . المكشاف : 512/1

<sup>7</sup> . البحر المحيط : 252/3

قال الزمخشري : ( فإن قلت لا يجوز على الله تعالى لأنه متعال عن التبيح والسمحية من باب العيب والجهل ، ألا ترى إلى قوله تعالى : " قالوا أتتخذنا هزواً قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين " <sup>1</sup> ، فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه إنزال المهران بهم والحقارة بهم ، لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به .. وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة .. وقيل سمي جزاء الاستهزاء باسمه كقوله : " وجزاء سيئة سيئة مثلها .. " <sup>2</sup> ، " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .. " <sup>3</sup> فإن قلت : فهلا قيل مستهزئ بهم ليكون طبقاً لقوله : " إنما نحن مستهزئون " قلت : لأن " يستهزئ " يفيد حلول الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت ، وهكذا كانت نكايات الله بهم ، وبلاياها النازلة بهم " أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين " <sup>4</sup> ، وما كان يخلو في أكثر أوقاتهم من قتلك أستاذ ، وتكشف أسرار ، ونزول في شأنهم واستشعار حذر من أن يتزل فيهم " يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما كنتم تحذرون " <sup>5</sup> ) . <sup>6</sup>

ولما كان أبو حيان قد درج على إغفال ذكر الآيات المتماثلة في موضع واحد متمسكاً بفعل الزمخشري ، فإنه اكتفى بذكر معاني تلك الآيات على سبيل التفسير ، ومن هنا نجد في تفسير هذه الآية " الله يستهزئ بهم .. " يفسرها بنفس ما ذهب إليه الزمخشري ، مع إسقاط تلك الآيات وذكر معانيها فقط ، فقال : ( .. فيحتمل أن يكون الاستهزاء المسند إلى الله تعالى كناية عن مجازاته لهم ، وأطلق إثم الاستهزاء على المجازاة ، ليعلم أن ذلك جزاء الاستهزاء ، أو عن معاملته لهم بمثل ما عاملوا به المؤمنين ، فأجرى عليهم أحكام المؤمنين من حقن الدم وصبون المال والإشراك في المغنم ، مع علمه بكفرهم .. أو عن فتح أبواب الجنة فيسرعون إليها ، فيضحك منهم المؤمنون ، أو عن حمود النار فيمشون فيخسف بهم

<sup>1</sup> . سورة البقرة : 66

<sup>2</sup> . سورة النور : 37

<sup>3</sup> . سورة البقرة : 193

<sup>4</sup> . سورة التوبة : 127

<sup>5</sup> . سورة التوبة : 64

<sup>6</sup> . الكشاف : 67/1

، أو عن ضرب السور بينهم وبين المؤمنين — وهو السور المذكور في الحديد — أو عن قوله تعالى<sup>1</sup>: " ذق إنك أنت العزيز الكريم " .<sup>2</sup>

فلاحظ أن المعاني التي ذهب إليها في تفسير الإستهزاء إنما استوحاها من مجموع الآيات التي أوردها الزمخشري في تفسير الآية ، وزاد عليها معاني آيات أخرى كقوله تعالى :

— " فالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ " <sup>3</sup>

— " فَضُربَ بينهم بسورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمة . " <sup>4</sup>

— مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ . " <sup>5</sup>

والذي أراه في هذا المقام أنه لو ذكر أبو حيان الآيات بنصها لكان أحسن وأكمل ، وهو ما درج عليه عامة من أخذ بالتفسير بالمأثور ، ولذا كان الزمخشري من حيث إسراد الآيات بنصها أحسن منه صنيعا .

وفي تفسير قوله تعالى : " أَجَلْتُمْ لَكُمْ كَهَيْمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ .. " سورة

المائدة : 2

قال الزمخشري : (معناه إلا محرم ما يتلى عليكم من القرآن من نحو قوله<sup>6</sup>: " حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير .. " ) <sup>7</sup>

وقال أبو حيان : ( وذكر هذه المحرمات هو تفصيل لما أجمل في عموم قوله تعالى " إلا ما يتلى عليكم " وهذا صار المستثنى منه والمستثنى معلومين . ) <sup>8</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبَازِغُونَ فِي الْأُمُورِ .. " سورة الحج : 65

<sup>1</sup> . سورة الدخان : 46

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 56/1

<sup>3</sup> . سورة المطففين : 33 — 34

<sup>4</sup> . سورة الحديد : 13

<sup>5</sup> . سورة البقرة : 16

<sup>6</sup> . سورة المائدة : 4

<sup>7</sup> . المكشاف : 601/1

<sup>8</sup> . البحر المحيط : 423/3

قال الزمخشري : ( أي أثبت في دينك ثباتا لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه .  
والمراد : زيادة التشبث للنبي صلى الله عليه وسلم بما يهيج حميته ، ويلهب غضبه لله ولدينه  
، ومنه قوله : " ولا يصدنك عن آيات الله .. " <sup>1</sup> ، " .. ولا تكونن من المشركين " <sup>2</sup> ،  
" .. فلا تكونن ظهيرا للكافرين " <sup>3</sup> . وهيئات أن ترتع همة رسول الله حول ذلك الحمى ،  
ولكنه وارد على ما قلت لك من إرادة التهيج ) <sup>4</sup>

وفي البحر المحيط لأبي حيان : ( روي أنها نزلت بسبب جدال الكفار بدليل بن ورقاء  
وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهم في الذبائح ، وقولهم للمؤمنين : تأكلون ما ذبحتموه  
من قتلكم ، ولا تأكلون ما قتل الله ، فترلت بسبب هذه المنازعة ، وقرئ : فلا ينزعك  
— بالنون الخفيفة — أي أثبت على دينك ثباتا لا يطمعون أن يجذبوك ، ومثله " ولا  
يصدنك عن آيات الله .. " وهذا النهي عن المنازعة من باب : لا أرينك ههنا .. <sup>5</sup>  
وفي تفسير قوله تعالى : " والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما " .  
سورة الفرقان : 72

قال الزمخشري : ( اللغو كل ما ينبغي أن يلقى وي طرح ، والمعنى وإذا مروا باللغو  
والمشتغلين به مروا معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم .  
كقوله تعالى <sup>6</sup> " وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ  
عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ " . ) <sup>7</sup>  
وقال أبو حيان : ( وقيل لا يحضرون ، من المشاهدة ، والزور الشرك أو العسم ، أو  
الكذب ، أو آلة الغناء ، أو أعياد النصارى ، أو لعبة كانت في الجاهلية ، أو السوح  
، أو مجالس كان يعاب فيها الصالحون . أقوال .

<sup>1</sup> . سورة القصص : 87

<sup>2</sup> . سورة القصص : 87

<sup>3</sup> . سورة القصص : 86

<sup>4</sup> . الكشاف : 169/3

<sup>5</sup> . البحر المحيط : 387/6

<sup>6</sup> . سورة القصص : 55

<sup>7</sup> . الكشاف : 295/3

فالشرك قاله الضحاح وابن زيد ، والغناء قاله مجاهد ، والكذب قاله ابن جرير .  
واللغو كل ما ينبغي أن يطرح ، والمعنى : وإذا مروا بأهل اللغو مروا معرضين مكرمين  
أنفسهم عن التوقف عليهم ، والخوض معهم لقوله تعالى " وإذا سئعوا اللغو أَعْرَضُوا عَنْهُ  
وقالوا لَنَا أَعْمَالًا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ " <sup>1</sup>  
وفي تفسير قوله تعالى : " مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ  
نَفْسِكَ .. " سورة النساء : 78

قال الزمخشري : ( السيئة تقع على البلية والمعصية ، والحسنة تقع على النعمة والطاعة  
، قال الله تعالى " وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون " <sup>2</sup> وقال " إن الحسنات  
يُذْهِبْنَ السيئات " <sup>3</sup> والمعنى وإن تصبهم نعمة من خصب ورخصاء نسبها إلى الله ، وإن  
تصبهم بلية من قحط وشدة أضافها إليك ، وقالوا هي من عندك ، وما كانت إلا  
بشؤمك ، كما حكى الله عن قوم موسى " وإن تصبهم سيئة يظنوا بموسى ومن معه " <sup>4</sup>  
وعن قوم صالح " قَالُوا أَطْمَرْنَا بِكَ وَبِئْسَ مَا لَكَ " <sup>5</sup> ) <sup>6</sup>

وعند أبي حيان ما نصه : ( الخطاب عام ، كأنه قيل : ما أصابك أيها الإنسان . وقيل  
للمرسول — ص — والمراد غيره .. وروى الضحاح عن ابن عباس أن الحسنة هنا ما  
أصاب المسلمين من الظفر والغنمة يوم بدر ، والسيئة ما نكبوا به يوم أحد . وعن عائشة  
رضي الله عنها : ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها . حتى  
انقطاع شسع نعله إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر . وقال تعالى " وما أصابكم من  
مصيبة فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ .. " <sup>7</sup> ثم قال أبو حيان — نقلا عن الراغب

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 516/6

<sup>2</sup> . الأعراف : 168

<sup>3</sup> . سورة هود : 114

<sup>4</sup> . سورة الأعراف : 130

<sup>5</sup> . سورة النمل : 49

<sup>6</sup> . الكشاف : 538/1

<sup>7</sup> . الشورى : 28

الأصفهاني — .. والحسنة هنا والسيئة كهما في " وبلوناهم بالحسنات والسيئات .. " و في " .. فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطغروا بموسى ومن معه .. " <sup>1</sup> والذي نخلص إليه من هذه النماذج التي أوردناها للمفسرين أن الزمخشري قد كان يعتمد تفسير القرآن بالقرآن ، إلا أن مسلكه فيه ليس من قبيل التفسير المرفوع للنبي — صلى الله عليه وسلم — أو الموقوف على كبار مفسري الصحابة الذين شهدوا التبريل فصار تفسيرهم له حكم المرفوع — وهو أعلى درجات التفسير — وإنما هو تفسير اجتهادي في حمل الآيات الواردة في الموضوع الواحد على بعضها بعضا ، وهو مسلك معروف عند أئمة المعتزلة ، حيث لا يخلو أن يكون في ذلك متأثرا بزعته المذهبية التي تفرجه عن معنى تفسير القرآن بالقرآن بالمعنى الإصطلاحي الدقيق ، وهو مما ستريده توضيحا في الفصول اللاحقة من هذا البحث <sup>2</sup> .

كما نجد أبا حيان هو الآخر لم يزد على ما ذكره الزمخشري في هذه الناحية ، فكلن في تفسيره للقرآن بالقرآن قائما على جمع الآيات المتماثلة في الموضوع الواحد ، وهو عمل قائم على الفهم والاجتهاد ، وليس على نقل ما هو مرفوع للنبي — صلى الله عليه وسلم — أو موقوف على الصحابة ، ومن هنا لم يكن هذا النوع من التفسير هو الجانب السلي يمثل مظهر تفوق أحد المفسرين أو كلاهما .

## المبحث الثاني

### مسلكهما في تفسير القرآن بالسنة

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 301/3 — 302

<sup>2</sup> . من ذلك مثلا اعتبار قوله تعالى : " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " تفسيراً لقوله تعالى : " الأعمى : 104 " وجوه يوند ناضرة إلى رها ناظرة " سورة الفيعة : 21 — 22



رجع كل من الزمخشري وأبي حيان إلى نصوص السنة في تفسير أي القرآن الكريم ،  
وكانا إلى جانب تفسير القرآن بالقرآن يتبعان ذلك ببعض الأحاديث والآثار المرفوعة عن  
الصحابة في بيان معاني آيات القرآن .

من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ  
" سورة آل عمران: 91

قال الزمخشري : ( " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ " لَنْ تَبْلُغُوا حَقِيقَةَ الْبِرِّ ، وَلَنْ تَكُونُوا أَبْرَارًا .  
وقيل لَنْ تَنَالُوا بِرَ اللَّهِ وَهُوَ ثَوَابُهُ ، حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، حَتَّى تَكُونَ نَفَقَتِكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ  
الَّتِي تُحِبُّونَهَا وَتُؤَثِّرُونَهَا ، كَقَوْلِهِ " انْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ " <sup>1</sup> ، وَكَانَ السَّلْفُ رَحِمَهُمُ  
اللَّهُ إِذَا أَحْبَبُوا شَيْئًا جَعَلُوهُ اللَّهُ . وَرَوَى أَنَّمَا لَمَّا نَزَلَتْ جَاءَ أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،  
إِنْ أَحَبُّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بِيْرَحَاءَ ، فَضَعُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ —  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — " بَخِ بَخِ ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ ، أَوْ مَالٌ رَائِحٌ ، إِيَّيَّيْ أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي  
الْأَقْرَبِينَ " ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَجَسَمَهَا فِي أَقْرَابِهِ <sup>2</sup> .

وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها ، فقال هذه في سبيل الله ، فحمل عليها  
رسول الله أسامة بن زيد ، فكان زيدا وجد في نفسه وقال : أما إني أردت أن أتصدق به  
، فقال رسول الله أما إن الله قد قبلها منك <sup>3</sup> .

وكتب عمر — رضي الله عنه — إلى أبي موسى الأشعري أن يتناخ له جارية من سبي  
جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى ، فلما جاءت أعجبته ، فقال إن الله تعالى يقول : " لَنْ  
تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ " فأعتقها <sup>4</sup> . ونزل بأبي ذر ضيف فقال للراعي : إئتني بخمير  
إبلي فجاء بناقة مهزولة ، فقال نخنتي قال : وجدت خمير الإبل فحلها ، فذكسرت يسوم  
حاجتكم إليه ، فقال : إن يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي <sup>5</sup> .

<sup>1</sup> . سورة البقرة : 266

<sup>2</sup> . أخرجه البخاري . كتاب النكاح . باب لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ .. انظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العرب ،  
بيروت ، 1982م ، ج 179/8

<sup>3</sup> . أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل أي القرمان ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1995م ، ج 3/471

<sup>4</sup> . أخرجه الطبري عن مجاهد . انظر جامع البيان ، ج 470/3

<sup>5</sup> . الكشاف : 385/1

وقد رجعت إلى البحر المحيط فوجدت أبا حيان قد فسر الآية بما فسرهما به الزمخشري مع شيء من التلخيص والتصريف ، فقال ما نصه : ( والظاهر أن المحبة هنا هو ميل النفس ، وتعلقها بالتعلق التام بالمنفق ، فيكون إخراجها على النفس أشق وأصعب من إخراج مالا ، وتعلق به النفس ذلك التعلق ، ولذلك فسرهُ الحسن والضحاك بأنه محبوب المال كقولـه " ويطعمون <sup>الغلام</sup> على حبه " <sup>1</sup> لذلك ما روي عن جماعة أنهم لهذه الآية تصدقوا بأحب شيء إليهم ، فتصدق طلحة ببيرحاء ، وتصدق زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها ، وابن عمر بالسكر واللوز لأنه كان يحبه ، وأبو ذر بفحل خير إبلسه.. وأعتق عمر جريرة أعجبه ) <sup>2</sup>

وأنت ترى أن هذه الأقوال كلها هي ملخص أحاديث وأثار أوردتها الزمخشري من قبل ، وقد صرح أبو حيان أنه نقلها عن الطبري <sup>3</sup> وابن عطية ، ولكن الزمخشري سكت عن مصدره ، وهي الطريقة التي سار عليها في كل تفسيره تقريبا .

ومن خلال تتبعي لكل من الزمخشري وأبي حيان في تعاملهما مع تفسير القرآن بالسنة لاحظت اشتراكهما في الخصائص الآتية :

١ - حذف أسانيد الأثار والمرويات ، والإكتفاء بذكر المتن فقط ، وهذا هو الشائع عند كل من المفسرين ، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها :

في تفسير قوله تعالى : " وَيُنشِرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " سورة البقرة : 155 — 156

قال أبو حيان ( وقد جاء في السنة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال <sup>4</sup> " من استرجع عند المصيبة خير الله مصيبته وأحسن عقابه وجعل له خلفا صالحا يرضاه " . وفي حديث آخر <sup>5</sup> " من تذكر مصيبته فأحدث إسترجاعا وإن تقادم عهدها ، كتب الله له من الأجر مثل يوم أصيب ) <sup>6</sup>

<sup>1</sup> . سورة الإنسان : 8

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 524/2

<sup>3</sup> ، انظر جامع البيان : 468/3

<sup>4</sup> . رواه الطبري في جامع البيان عند تفسير قوله تعالى " الذين إذا أصابتهم مصيبة .. " بهم إسناد . 59/2

<sup>5</sup> . أوردته ابن كثير في تفسيره ، وعراه إلى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه . انظر تفسير القرطبي العظيم : 212/1

<sup>6</sup> . البحر المحيط : 452/1

وعند الزمخشري قال : ( وعن النبي <sup>1</sup> — صلى الله عليه وسلم — من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتها ، وأحسن عقابه ، وجعل له خلفا صالحا يرضاه ) <sup>2</sup>  
 وفي تفسير قوله تعالى : " حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى " سورة البقرة : 236

حيث نقل أبو حيان أقوال السلف في تعيين الصلاة الوسطى ثم قال : ( وقد استفاض من الحديث الصحيح عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال يوم الأحزاب : <sup>3</sup>  
 " شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، مآل الله قلوبهم ويؤتمن ناراً " . وقال علي رضي الله عنه : كنا نراها الصبح حتى قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذلك فعرفنا أنها العصر ) <sup>4</sup>

وعند الزمخشري قال : ( الصلاة الوسطى ، أي الوسطى بين الصلوات ، أو الفضلى ، من قولهم للأفضل الأوسط .. وهي صلاة العصر . وعن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال يوم الأحزاب <sup>5</sup> : " شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر مآل الله بيوتهم ناراً " . وقال عليه السلام : أنها الصلاة التي شغل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب ) <sup>6</sup>

2 — رواية الحديث بالمعنى:

وقد اختلف علماء الحديث في حكم رواية الحديث بالمعنى ، فمنهم من أجازها ، ومنهم من منعها ، ولكن الذي عليه جمهور الفقهاء هو جواز رواية الحديث بالمعنى لمن كان عالماً بمواقع الخطاب ومعاني الألفاظ ، عارفاً بالفروق بين المعاني <sup>7</sup> ، ولا شك أن مثل الزمخشري وأبي حيان هما فارسا ميدان في هذا الشأن ، وأنهما يرويان الحديث بالمعنى بعد

<sup>1</sup> . سبق تخريجه .

<sup>2</sup> . الكشاف : 207/1

<sup>3</sup> . رواه مسلم ، في الجامع الصحيح ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، كتاب الصلاة ، باب التعليل في تعويت صلاة العصر .

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 240/2

<sup>5</sup> . البخاري ، كتاب النجوم ، باب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى .. انظر مع الباري : 156/8

<sup>6</sup> . الكشاف : 287/1

<sup>7</sup> . الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ، الناشر : دار الكتاب العربي تحقيق : أحمد عمر هاشم ، ط 2 ، 1986م ، باب ذكر

الحجة في إجازة رواية الحديث على المعنى : 232

استقرار الرواية وانتهاء عصر التدوين مما يشفع لهم في سلوك هذا المسلك ، ورواية بعض الأحاديث في تفسير القرآن الكريم بالمعنى ، وأغلب هذه الأحاديث المروية بالمعنى عندهم هي أحاديث صحيحة ومشتهرة على الألسنة ، فكان معناها دالا على لفظها ، والأمثلة الآتية توضح ذلك :

في تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ.." سورة البقرة : 83 .

قال أبو حيان : ( وقد جاء في الحديث <sup>1</sup> أمر الذي وضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين نديه ثم تحامل عليه فقتل نفسه وإخبار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه من أهل النار. وصح <sup>2</sup> من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا . ) <sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ " سورة العنكبوت : 12

قال أبو حيان : ( وليحملن أثقالهم وأثقال أنفسهم من كفرهم ومعاصيهم وأثقالا - أي آخر - وهي أثقال الذين أغروهم فكانوا سببا في كفرهم ، ولم يبين من الذين يحملون أثقاله ، فأمكن إندراج أثقال المظلوم يعملها الظالم كما جاء في الحديث <sup>4</sup> أنه يقتص مسن الظالم للمظلوم بأن يعطى من حسنات ظالمه ، فإن لم يبق للظالم حسنة أخذ من سيئات المظلوم فطرح عليه . وفي صحيح مسلم ما معناه <sup>5</sup> " أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها ، وعمل بها بعده فعليه أوزار من عمل بها ممن اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا " ) <sup>6</sup> ومثاله عند الزمخشري ما جاء في تفسير قوله تعالى : " ..إِنَّ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ " سورة آل عمران : 100 .

<sup>1</sup> . أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان غلط تحريم قتل الإنسان معه ..

<sup>2</sup> . أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان غلط تحريم قتل الإنسان معه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار .

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 289/1

<sup>4</sup> . أخرجه البحاري ، كتاب المظالم ، باب فصاص المظالم ، انظر فتح الباري : ج 5/73

<sup>5</sup> . ورواه أبو داود في كتاب السنة ، باب لزوم السنة ، حديث رقم : 4605

<sup>6</sup> . البحر المحيط : 144/7

حيث روى سبب نزول الآية ، ثم ذكر الحديث المرفوع والوارد في سبب نزولها مقتصرًا على معناه فقط فقال<sup>1</sup> :

( .. فبلغ ذلك النبي — صلى الله عليه وسلم — فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : " أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا ، وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فما كان يوم أقبح أولا ولا أحسن آخرًا من ذلك اليوم. )<sup>2</sup>

والمثال الآخر في تفسير قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين " سورة المائدة : 89

حيث قال الزمخشري : ( أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة يومًا لأصحابه ، فبالغ وأشبع الكلام في الإنذار ، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون ، واتفقوا على ألا يزالوا صائمين قائمين ، وألا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ويرفضوا الدنيا ، ويلبسوا المسوح ، ويسبحوا في الأرض ، ويجيوا مذاكرهم ، فبلغ ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال لهم<sup>3</sup> : " إني لم أؤمر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأكل اللحم والدم ، وأبي النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " . )<sup>4</sup>

فهذا الحديث رواه الزمخشري بالمعنى ، وقد لفته من عدة أحاديث ، فلما أخرجه ابن حجر قال : ( وقد أورده الطبري من طريق السدي في هذه الآية قال : وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جلس يوما فذكر الناس ثم قام ولم يزدتهم على التحوييف ،

<sup>1</sup> . والحديث أخرجه الطبري في جامع البيان عن زيد بن أسلم ، رقم : 5945

<sup>2</sup> . الكشاف : 393/1

<sup>3</sup> . أخرجه البخاري بلفظ : كما نزل مع النبي — ص — وليس مما نساء ، فلما ألقى عصي مهاجرا عن ذلك .. انظر : كتاب الصوم ،

باب " يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم .. " فتح الباري : 222/8

<sup>4</sup> . الكشاف : 167/1

فقام ناس من أصحابه — فذكره بمعنى ما تقدم — وهو متزع من أحاديث ، وأصله في الصحيحين عن عائشة <sup>1</sup>

والظاهر أن ما يرويه أبو حيان من أحاديث في تفسيره بالمعنى إنما هو ناقل عن غيره ، من ذلك ما ينقله عن ابن عطية الذي عرف بهذا المسلك في تفسيره .

ففي تفسير قوله تعالى : " .. وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " سورة الرعد : 25

قال أبو حيان : ( قال ابن عطية : وهذا تأويل مبني على حديث ورد <sup>2</sup> ، وهو أن كل رجل في الجنة قد كان له مقعد معروف في النار ، فصرفه الله تعالى عنه إلى النعيم ، فيعرض عليه ويقال له : هذا مكان مقعدك ، فبدلك الله منه الجنة بإيمانك وطاعتك وصبرك ) <sup>3</sup>

3 — الإكتفاء أحيانا بذكر طرف الحديث ، أو محل الشاهد منه ، اعتبارا لشهرته ، أو لدلالة بعضه على كله .

ففي تفسير قوله تعالى : " إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ " سورة الكوثر : 1

قال أبو حيان : ( وذكر في " التحرير والتجويد " ستة وعشرين قولاً ، والصحيح هو ما فسره به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال <sup>4</sup> " هو نهر في الجنة ، حافظه من ذهب وبجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من ريح المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج " . قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم <sup>5</sup> — واقتطعناه منه — قال أتدرون ما الكوثر ، قلنا الله ورسوله أعلم ، قال نهر وعدنيه ربي فيه

نهر كثير ، هو حوض ترد عليه أممي يوم القيامة ، أنيته عدد النجوم " . انتهى . ) <sup>6</sup>  
وفي تفسير قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا " سورة مرهم : 97

<sup>1</sup> . انظر الكافي الشاف في تزيح أحاديث الكشاف ، على هامش الكشاف : 167/1

<sup>2</sup> . رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الميت يعرض عليه مقعده .. انظر : صح البخاري : 189/3

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 387/5

<sup>4</sup> . رواه الترمذي . كتاب النفس ، سورة الكوثر ، حديث رقم : 3419

<sup>5</sup> . لم أقف عليه عند مسلم .

<sup>6</sup> . البحر المحيط : 519/8

قال أبو حيان : ( وفي الترمذي قال <sup>1</sup> : إذا أحب الله عبدا نادى جبريل أي قد أحببت فلانا فأحبه ، قال : فينادى في السماء ، ثم تنزل المحبة له في الأرض ، قال الله عز وجل : " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. " إلى آخر الحديث ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ) <sup>2</sup>

ويبقى مع كل ذلك أبو حيان الأندلسي منفوقا على الزمخشري في تفسير القرآن بالسنة في الجوانب الآتية :

1 - عزو كثير من الأحاديث النبوية التي أوردها في تفسيره إلى مصادرها الأصلية كالصحيحين والسنن الأربعة وغيرها ، وإن كان قد جردها من أسانيدها .  
ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل .. " سورة البقرة : 135

قال أبو حيان ( خرج البخاري عن أبي هريرة قال <sup>3</sup> : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، ولكن قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأنزل إليكم ، فإن كان حقا لم تكذبوه ، وإن كان كذبا لم تصدقوه . " ) <sup>4</sup>

2 - رواية أبي حيان لبعض الأحاديث بالسند المتصل منه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - على امتداد ثمانية قرون كاملة ، وهذا ما لم يتيسر إلا للنادر من الناس ، بسلم يتيسر للزمخشري الذي سبقه بأكثر من قرنين من الزمان ، ومن الأمثلة على ذلك :  
في تفسير قوله تعالى : " حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين " سورة البقرة : 226

ذكر سبعة عشر قولاً في تعيين المقصود بالصلوة الوسطى ، كل قول منسوباً لمن قال به من أئمة السلف والخلف ، ثم قال : ( فإن ثبت هذا القول فيكون تمام سبعة عشر قولاً ، والذي ينبغي أن يعول عليه منها هو قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أنها

<sup>1</sup> . رواه الترمذي . كتاب النجوم ، حديث : 5171

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 220/6

<sup>3</sup> . رواه البخاري ، كتاب النجوم ، باب : قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، انظر فتح الباري : 138/8

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 407/1

صلاة العصر<sup>1</sup> ، وبه قال شيخنا المحافظ أبو محمد رحمه الله ، أخبرنا المسند أبو بكر محمد بن أبي الطاهر إسماعيل بن أبي الحسن بقراءتي عليه بالقاهرة من ديار مصر حرسها الله عن أبي الحسن المويد بن محمد بن علي الطوسي المقرئ ، قال أخبرنا فقيه الحرم أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الصاعدي ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الغفار بن محمد بن عبد الغفار الفارسي ... فهذا طريق. ثم قال : وأخبرنا أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي بقراءتي عليه بفراطة من جزيرة الأندلس ، قال أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى الفارقي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبيد الله الحجري ، قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن زغبة المشاور ، قال أخبرنا أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس بن دلهات ، ح..

طريق ثالث : وأخبرنا القاضي أبو علي الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص منأولة عن أبي القاسم أحمد بن عمر بن أحمد — وهو آخر من حدث عنه — ولم يحدثنا عنه من شيوخنا غيره ، عن أبي الحسن علي بن محمد بن موهب الجذامي — وهو آخر من حدث عنه ، عن أبي العباس بن دلهات ، قال أخبرنا أبو العباس أحمد بن مندار بمكة ، قال — أعني عبد الغفار وابن مندار ، أخبرنا أحمد أو محمد بن عيسى بن عمرو بن الجلودي ، قال أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه ، أخبرنا مسلم بن الحجاج النيسابوري قال :

وحدثنا عون بن سلام الكوفي حدثنا محمد بن طلحة الياضي عن زبيد عن مرة بن عبد الله قال : حبس المشركون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —<sup>2</sup> : " شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا ، أو حبسنا الله أجوافهم وقبورهم نارا " .<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . سبق تخريجه

<sup>2</sup> . سبق تخريجه .

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 242/2



كما روى أحاديث أخرى بالسند المتصل منه إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — في عدة مواضع أخرى منها ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَيَذْهَبُ غَيِّظَ قُلُوبِهِمْ.." <sup>1</sup> ، وقوله تعالى <sup>2</sup> : " إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ.." <sup>3</sup> .

3 — شدة تمسكه بدلالة الحديث النبوي وتقديمه على دلالة اللفظ ، وذلك إذا تعارض ظاهر الحديث واللفظ ، وهو في ذلك يقف على طرف نقيض من الزمخشري الذي يسالغ في الاهتمام بالمعنى اللغوي للفظ ، ويقدمه على معنى الحديث بغض النظر عن درجته .

ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " .. وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " سورة البقرة : 24 .

قال أبو حيان : ( ويقال خلد بالمكان أقام به ، وأخلد إلى كذا سكن إليه ، والمخلسد الذي لم يشب ، ولهذا المعنى — أعني السكون والاطمئنان — سمي هذا الحيوان اللطيف الذي يكون في الأرض خلداً ، وظاهر هذه الاستعمالات وغيرها يدل على أن الخلد هو المكث الطويل ، ولا يدل على المكث الذي لا نهاية له إلا بقريته . واختار الزمخشري فيه أنه البقاء اللازم الذي لا ينقطع ، تقوية لمذهبه الاعتزالي في أن من دخل النار لم يخرج منها ، بل يبقى فيها أبداً . والأحاديث الصحيحة المستفيضة دلت على خروج ناس من المؤمنين الذين دخلوا النار بالشفاعة من النار ) <sup>4</sup> .

وإلى جانب تمسك أبي حيان بالسنة ، وتقديمها عن غيرها في التفسير ، فإنه كان يدافع عنها ضد المعتزلة الذين كانوا يطعنون فيها ، ويبين فساد مذهبهم في ذلك . حيث يقبلون الحديث الضعيف الذي يوافق رأيهم ويحتفلون به ، ويردون الحديث الصحيح إذا خالف رأيهم .

ففي تفسير قوله تعالى : " وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " سورة الأعراف : 42

<sup>1</sup> . سورة التوبة : 15

<sup>2</sup> . سورة التوبة : 40

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 26/5

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 110/1

يُجد ظاهر الآية يوهم ما تذهب إليه المعتزلة من أن الأعمال وحدها سبب في دخول  
الجنة لولا أن السنة النبوية فصلت ذلك ، فجعل أبو حيان السنة شارحة للآية مقررًا مذهب  
السني ومفندا رأي المعتزلة ، في حين يُجد الزمخشري يتمسك بظاهر الآية ، ولا يلتفت لما  
جاء في الحديث الصحيح لما فيه من مخالفة صريحة لما يقول به .

قال أبو حيان : ( والأعمال أمانة من الله ودليل على قوة الرجاء ، ودخول الجنة إنما  
هو بمجرد رحمة الله ، والقسمة فيها على قدر العمل ، ولفظ " أورثتموها " مشير إلى  
الإقسام ، وليس ذلك واجبا على الله تعالى ، وقال الزمخشري : " أورثتموها بما كتتم  
تعملون " بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطله ، انتهى <sup>1</sup> ، وهذا مذهب المعتزلة  
، وفي صحيح مسلم <sup>2</sup> " لن يدخل الجنة أحد بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ، قلل :  
ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل . ) <sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ  
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.. " سورة البقرة : 142

نقل أبو حيان خلاف أهل العلم في معنى " أمة وسطا " ثم قال : ( ومعنى وسطا :  
عدولا ، روي ذلك عن رسول الله <sup>4</sup> — صلى الله عليه وسلم — وقد تظاهرت به عبارة  
المفسرين ، وإذا صح ذلك عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وجب المصير في  
تفسير الوسط إليه . ) <sup>5</sup>

وإذا رجعنا إلى الكشاف وجدنا الزمخشري يورد للفظ " وسطا " معنيين في اللفظة ،  
أحدهما هو التفسير الذي عزاه أبو حيان إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلا أنه  
سكت عن نسبه لقائله .

قال : ( " أمة وسطا " خيارا ، وهي صفة بالإسم الذي هو وسط الشيء .. وقيل للخيار  
وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل ، والأعوار والأوساط محمية ، ومنه قول الطائي :

<sup>1</sup> . الكشاف : 106/2

<sup>2</sup> . رواه مسلم . كتاب صفة القيامة ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله .

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 300/4

<sup>4</sup> رواه البخاري . كتاب التفسر ، باب قوله تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . انظر : فتح الباري 38/8

<sup>5</sup> . البحر المحيط : 421/1

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً<sup>1</sup>  
 أو : عدولا ، لأن الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض .<sup>2</sup>  
 ونظرا لتقدم الزمخشري للمبدأ اللغوي على التفسير بالأثر ، فإنه قد أغفل كثيرا من  
 الأحاديث الصحيحة التي فسرت مجمل القرآن حيث لا يكون ثمة مرجح من اللغة ، ووقع  
 بذلك في مجانبة الصواب .

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ  
 كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ.." سورة آل عمران : 90  
 حيث اختار أن يكون هذا الافتداء في الدنيا ، مع أنه ثبت في السنة ما يفيد أنه في  
 الآخرة ، والظاهر أنه نقل هذا القول عن الزجاج وغيره من غير أن يصرح بذلك ، كما  
 فعل في كثير من المواضع ، وقد نسب أبو حيان هذا القول للزجاج فقال : ( وحكى  
 صاحب ري الظمآن وغيره عن الزجاج أنه قال : معنى الآية لو افتدى به في الدنيا مع  
 إقامته على الكفر لن يقبل منه ، والذي يظهر أن انتفاء القبول — ولو على سبيل الفدية —  
 إنما يكون في الآخرة ، وبينه ما ثبت في صحيح البخاري<sup>3</sup> من حديث أنس أن النبي —  
 صلى الله عليه وسلم — قال : " يحاسب الكافر يوم القيامة ، فيقال له : أ رأيت لو كان  
 لك ملء الأرض ذهبا أ كنت تفتدي به ، فيقول نعم ، فيقال له : قد كنت سئلت أيسر  
 من ذلك . )<sup>4</sup>

قال أبو حيان : ( وهذا الحديث يبين أن قوله " فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا  
 ولو افتدى به هو على سبيل الفرض والتقدير ، أي لو أن الكافر قدر على أعز الأشياء ثم  
 قدر على بذله لعجز أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله ، والمعنى أنهم آيسون  
 من تخليص أنفسهم من العذاب ، فهو نظير قوله " إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض  
 جميعا<sup>5</sup> ونظير " .. يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ .. " (الآيتين . )<sup>6</sup>

<sup>1</sup> . لأبي تمام بخطاب المنعم . انظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ، هامش الكشاف : 198/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 198/1

<sup>3</sup> . وأخرجه الطبري في جامع البيان : 468/3 . حديث : 5833

<sup>4</sup> . البحر المحیط : 521/2

<sup>5</sup> . سورة المائدة : 38

<sup>6</sup> . سورة المارج : 11

والمثال الثاني في قوله تعالى : " فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَسَجِ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ .. " سورة البقرة : 195

حيث قال الزمخشري : ( وسبعة إذا رجعت بمعنى إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة ، وعند الشافعي : هو الرجوع إلى أهاليهم )<sup>2</sup>

وقد نقل الزمخشري هذا الخلاف ولم يبين الراجح منهما ، مع أن في صحيح السنة ما يشفي الغليل في فض هذا الخلاف ، وهو ما بينه أبو حيان في تفسير الآية فقال : ( ولفظ الرجوع مبهم ، وقد جاء تبينه في السنة ، ثبت في صحيح مسلم<sup>3</sup> من حديث ابن عمر في آخره : وليهد ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله . وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس : وسبعة إذا رجع إلى أهله : إلى أمصاركم ، وبه قال قتادة وعطاء وابن جبير وجمامد ، وقالوا هذد رخصة من الله تعالى ، والمعنى إذا رجعت إلى أوطانكم فلا يجب على أحد الصوم إلا إذا وصل إلى وطنه ، إلا أن يتشدد أحد كما يفعل من يصوم في السفر في رمضان )<sup>4</sup>

وكثير من يحمل القرآن الكريم الذي لا يمكن أن تفسره إلا السنة ، وقد ثبت تفسيره بالأحاديث الصحيحة والمستفيضة ، ومع ذلك قفز عنها الزمخشري ، مكتفياً بنقل آراء الرجال . أما أبو حيان فقد نص في مثل هذه المواضع على أن هذا من يحمل القرآن الذي لا سبيل إلى تفسيره من قبل الرأي والاجتهاد ، بل يجب المصير إلى السنة الميمنة لحمل القرآن .

مثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ .. "

سورة النساء : 101 .

قال أبو حيان : ( وفي قوله : " فلنأت طائفة " دليل على أنهم إنقسموا طائفتين ، طائفة حارسة أولا ، وطائفة مصلية أولا معهم التي صلت أولا صارت حارسة ، وجاءت الحارسة أولا فصلت معه ، ودلت هذه الكيفية التي ذكرت في القرآن على أن طائفة صلت

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 522/2

<sup>2</sup> . الكشف : 241/1

<sup>3</sup> . رواه مسلم . كتاب الحج ، باب وجوب الدم على المتنع .

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 79/2

مع الرسول بعض الصلاة ، ولا دلالة فيها على مقدار ما صلت معه ، ولا كيفية إتمامهم ، وإنما جاء ذلك في السنة ، ونحن نذكر تلك الكيفيات على سبيل الإختصار ، لأنها مبينة ما أحمل من القرآن . ثم ذكر هذه الكيفيات وأحصاها في إحدى عشرة كيفية ، وقال بعدها نقلا عن أحمد بن حنبل : ولا نعلم أنه روي في صلاة الخوف إلا حديث ثابت صحيح ، فعلى أي حديث صليت أجزاء <sup>1</sup>

وإذا رجعنا إلى تفسير الكشاف فإننا نجد الزمخشري فسر الآية تفسيرا لغويا ، واكتفى بنقل صفة صلاة الخوف عن أبي حنيفة ، من غير أن يعرج على حديث واحد في بيان هيئة هذه الصلاة ، أو أن يذكر صفة أدائها من السنة . <sup>2</sup>

ولا نستبعد أن يكون الزمخشري هنا متأثرا بموقف المعتزلة من مرويات السنة النبوية ، وما أحاطوها به من الشكوك في صحة أسانيدها ورواقتها ، بل ليس مفهوم السنة عند الزمخشري إلا ما قرره القاضي عبد الجبار في قوله : ( وأن سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما كان لها ذكر في القرآن ومعنى . ) <sup>3</sup>

٤ — تتبعه لبعض الأحاديث بالنقد سواء في متنها أو سندها ، وهذا ليس ببعيد على مثل أبي حيان ، إذ كان عارفا بالسنن سندا ومتنا ، وقد ذكرته بعض كتب الرجال فيمنع يعتمد قولهم في الجرح والتعديل <sup>4</sup> ، مما يدل على مكانته وعلو كعبه في علوم الحديث ، غير أنه كان يقتصر على ذكر حكمه على الحديث ذكرا مجملا من حيث قبول الحديث أو رده ، وما زاد عن ذلك فهو يرى أن محل ذكره ليس في كتب التفسير . أما الزمخشري فإنه لم يضمن تفسيره شيئا من ذلك ، وأحسبه أنه لم يكن من أهل هذا الشأن ، ومن الأمثلة على ذلك:

في تفسير قوله تعالى: " وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا.." البقرة : ١١

قال أبو حيان : ( وقد استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى " وَلَا تَشْتَرُوا.." على منع جواز أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله والعلم ، وقد روي في ذلك أحاديث لا تصح ،

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 340/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 560/1

<sup>3</sup> . المحيط بالنكليف : 168

<sup>4</sup> . انظر الذهبي ، ذكر من يعتمد قوله في الرجال جرحا وتعديلا ، تحقيق عبد الصالح أبو غدة ، ط 1 ، 1981م ، ص : 212

وقد صحح أنهم قالوا<sup>1</sup> : يا رسول الله ، إنا نأخذ على كتاب الله أجرا ، فقال : إن خير ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله تعالى " . )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " لا تأخذهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ " . سورة البقرة : 254

أورد الزمخشري حديثا لم يسلم من الطعن عند أكثر النقاد ، من غير أن يتعقبه بشيء ، فنقله أبو حيان ثم بين ما قاله أهل العلم مما يفيد رده أو التوقف في قبوله على الأقل . فقال : ( . قال الزمخشري ، وهو تأكيد للقيوم ، لأن من جاز عليه ذلك استحاله أن يكون قيوما ، ومنه حديث موسى أنه سأل الملائكة — وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية — : أينام ربنا ؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثا ولا يتركوه ينام ، ثم قال : خذ بيدك قارورتين مملوءتين ، فأخذهما وألقى الله عليه النعاس ، فضرب إحداهما على الأخرى فانكسرتا ، ثم أوحى الله إليه : قل لهُولاء إني أمسك السماوات والأرض بقدرتي ، فلو أخذني نوم أو نعاس لزلتنا " . هكذا أورد الزمخشري هذا الخبر ، وفيه أنه سأل الملائكة ، وكان ذلك — يعني السؤال — من قومه كطلب الرؤية ، يعني أن طلب الرؤية هو عسده من باب المستحيل كما استحاله النوم في حقه تعالى ، وهذا من عاداته في نصرة مذهبه يذكره حيث لا تكون الآية تتعرض لتلك المسألة . وأورد غيره هذا الخبر عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال<sup>3</sup> : " وقع في نفس موسى هل ينام الله .. " وساق الخبر قريبا من معنى ما ذكره الزمخشري ، ثم قال أبو حيان : قال بعض معاصرينا ، هذا حديث وضعه المشوية ، ومستحيل أن سأل موسى ذلك عن نفسه أو عن قومه ، لأن المؤمن لا يشك في أن الله ينام أو لا ينام ، فكيف الرسل ؟ )<sup>4</sup>

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا المقام ، هو تصرف الزمخشري في نص الحديث بإدراجه جملة من عنده توهم القارئ أنها من متن الحديث — وهي ليست منه — وهي قوله : "

<sup>1</sup> . البحاري ، الجامع الصحيح ، كتاب الإحارة ، باب إن حرم ما أخذتم عليه أجرا .

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 179/1

<sup>3</sup> . أخرجه الطبري في جامع البيان 12/3 حديث رقم : 4509

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 278/2 . والحديث رواه الطبري بلفظ قريب مما ذكره الزمخشري عن أبي هريرة ، وقد تعقبه ابن كثير في تفسيره بقوله : ( وأغرب من هنا كله الحديث الذي رواه ابن جرير قال .. الحديث ، وهذا عربي حقا ، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرسوع ، والله أعلم ، ابن كثير : 331/1

وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية " ، وهذه حسارة منه ، فعاب عليه أبو حيان هذا المسلك الخطير ، وبين نيته في ذلك ، وهو نصرة مذهبه ، وهذا هو الظاهر عند الزمخشري في أكثر من موضع من تفسيره .

ولم تنجل هذه الروح النقدية في تفسير الكشاف إلا في مواضع قليلة وبشكل بسيط ، حيث كان يتوقف أحيانا قليلة في قبول الحديث لركاكة عبارة ، أو لمخالفته لسياق النص القرآني ، أو غير ذلك من الأسباب التي لا تدل على تضلع الزمخشري ، ورسوخ قدمه في هذا الشأن .

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " **ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ** " سورة

الواقعة : 41 — 42

حيث قال : ( فإن قلت : كيف قال : " وقليل من الآخرين " ، ثم قال : " وثلاثة من الآخرين " ؟ قلت هذا من السابقين ، وذلك من أصحاب اليمين ، وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعا . فإن قلت : فقد روي أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين ، فما زال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يراجع ربه حتى نزلت الآية " ثلاثة من الأولين وثلاثة من الآخرين " <sup>1</sup> . قلت هذا لا يصح لأمرين ، ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم على السابقين ووعدهم ، والثاني أن النسخ في الأخبار غير جائز . وعن الحسن رضي الله عنه : سابقو الأمم أكثر من سابقي أمتنا وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمة <sup>2</sup>

ومنه أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأة تُوْحٍ**

وامرأة لوط .. " سورة التحريم : 10

حيث قال : ( وأما ما روي أن عائشة سألت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كيف سمي الله المسلمة — تعني مريم — ولم يسم الكافرة ؟ فقال بغضا لها ، فسالت وما إسمها ؟ قال إسم امرأة نوح " واعلة " واسم امرأة لوط " واهلة " ، فحديث أثر الضميمة

<sup>1</sup> . الذي في جامع البيان للطبري عن فائدة أنه بلغه أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : " أرضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قالوا نعم . قال : أرضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قالوا نعم ، قال : والذي نفسي بيده إن لأرجو أن تكونوا نطر أهل الجنة ، ثم

تلا هذه الآية " ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين " انظر جامع البيان : 248/13

<sup>2</sup> . الكشاف : 459/4

عليه ظاهر بين ، ولقد سمي الله جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ، ولو كانت التسمية للحب وتركها للبغض لسمى آسية ، وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين ، وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمانة تنم عليه ، وكلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أسلم وأحكم من ذلك .<sup>1</sup>

وإذا كان الزمخشري قد تنبه لأثر الصنعة والوضع في هذا الحديث ، ويعتد بذلك ، فإنه قد فاتته أحاديث أخرى كثيرة ، حيث أثر الصنعة عليها أوضح وأظهر ، فمر عليها ولم يتعقبها بشيء .

من ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى : " غَيِّبْنَا فِيهَا تِسْمِيَتَنَا سَلْسِبِيلاً " سورة

الإنسان : 18

حيث قال ( وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الحسن والحسين مرضا ، فعادهما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ناس معه ، فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك ، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ مما هما أن يصوموا ثلاثة أيام ، فشفيا ، وما معهم شيء ، فاستقرض علي من شمعون الخيري اليهودي ثلاث أصوع من شعير ، فطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم ، فوضعها بسين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين ، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة ، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء ، وأصبحوا صياما ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم ، فآثروه ، ووقف عليهم أسير في الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك ، فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالقراخ من شدة الجوع ، قال ما أشد ما يسوعي ما أرى بكم ، وقام وانطلق معهم ، فرأى فاطمة في الحراب قد التصق ظهرها ببطنها ، وغارت عيناها ، فسأه ذلك ، ففرل جبريل وقال : خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك ، فأقرأه ( السورة )<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 574/4

<sup>2</sup> . الكشاف : 670/4 . قال ابن حجر : أخرجه النعماني من رواية القاسم بن هرام عن مجاهد عن ابن عباس . وفي تفسير " بوهود " بالنذر " فذكر حمامه ، وزاد في أثناءه أشعارا لعلي وفاطمة . قال الحكيم الترمذي : ومن الأحاديث التي نكرها القلوب حديث روجه عن مجاهد



كما نجد الزمخشري قصير الباع في علم الرجال ، فإذا تحدث عن الأنساب وأحوال  
الأسانيد تعثر وخطب على غير هدى .

ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى .. "

سورة عبس : 1 — 2

حيث ذكر نسب عبد الله بن أم مكتوم فقال : (وام مكتوم أم أبيه ، واسمه عبد الله بن

شريح بن مالك بن ربيعة الفهري ، من بني عامر بن لوي .<sup>1</sup>)

فقال ابن حجر معلقا على هذا النسب : (النسب الذي ساقه في غاية التخليط ، يظهر

لمن له أدنى إلمام بالأخبار والأنساب . قال ابن سعد : أما أهل المدينة فيقولون اسمه عبد الله

، وأما أهل العراق وهشام الكلبي فيقولون اسمه : عمرو ، ثم أجمعوا على نسبه فقالوا ابن

قيس بن زياد بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لوي . وأمه

عاتكة هي أم مكتوم بنت عبد الله بن عامر بن مخزوم .<sup>2</sup>)

5 — اقتضاره على الأحاديث الصحيحة والمشهورة ، مع بيان درجة الحديث في كل مرة ،

وهذا ما غفل عنه الزمخشري في تفسيره ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها :

في تفسير قوله تعالى : " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا

دَعَانِي " سورة البقرة : 185

ففي تفسير هذه الآية نجد أبا حيان يورد مجموعة أحاديث ، وينص عند ذكر كل

حديث على صحته مستغنيا بذلك عن تخريجه أو عزوه لمصدره ، فيقول : ( . . . وقد ثبت

بصريح العقل وصحيح النقل أن بعض الدعاء لا يجيبه الله تعالى إلى ما سأل ، ولا يلبسه

المقصود مما طلب ، فخصصوا بأن يكون الداعي مطيعا بجنب المعاصي ، وقد صح أن

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال في الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد

عن ابن عباس ، فذكره بشعره ، ثم قال : هذا حديث مروى مفتعل لا يروج إلا على أجهل جاهل ، كما قال ابن الجوزي : وهذا لا

نشك في وضعه . انظر الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ، على هامش الكشاف : 670/4

<sup>1</sup> . الكشاف : 700/4

<sup>2</sup> الكافي الشاف ، على هامش الكشاف : 700/4 . هامش : 3

يديه إلى السماء يا رب ، ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، ومشربه حرام ، وغدي بالحرام ، فأني يستجاب له <sup>1</sup> .

قالوا : ومن شرطه ألا يمل ، ففي الصحيح : " يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي " <sup>2</sup> .

وخصص الدعاء بأن يدعو بما ليس فيه إثم ولا قطيعة رحم ولا معصية ، ففي الصحيح عن أبي سعيد قال <sup>3</sup> : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — " ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إحدى ثلاث ، إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له ، وإما أن يكف عنه من سوء مثلها " <sup>4</sup> .

وإذا رجعنا إلى الكشاف وجدنا الزمخشري يورد حديثين في تفسير الآية من غير عزو لمصدر ، ولا بيان لدرجة حديث ، فيقول : ( " فإني قريب " تمثيل لحالسه في سهولة إجابته لمن دعاه ، وسرعة إجابته حاجة من سأله بحال من قرب مكانه ، فإذا دعا أسرع تلبية ، ونحوه " ونحن أقرب إليه من جبل الوريد " <sup>5</sup> وقوله عليه الصلاة والسلام : " هو بينكم وبين أعناق رواحلكم " . وروي أن أعرابيا <sup>7</sup> قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أقرب ربنا فتناجيه ، أم بعيد فتناديه ، فتزلت <sup>8</sup> )

والمثال الثاني في تفسير قوله تعالى : " يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " سورة آل عمران : 200

نجد الزمخشري يورد حديثا واحدا في تفسير الآية ، وذلك لبيان فضل الرباط في سبيل الله تعالى من غير عزو لمصدره أيضا ، ولا بيان لدرجته فقال : ( اصبروا على الدين وتكاليفه ، وصابروا أعداء الله في الجهاد على شدائد الحرب ، لا تكونوا أقل صبرا منهم

<sup>1</sup> . رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب .

<sup>2</sup> . رواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل .

<sup>3</sup> . رواه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ، حديث رقم : 3441

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 46/2

<sup>5</sup> . سورة ق : 16

<sup>6</sup> . رواه الترمذي ، كتاب الدعوات بلفظ هو بينكم وبين رؤوس رحالكم .

<sup>7</sup> . أخرجه الطبري في جامع البيان عن حكيم بن الصلت عن أبيه عن جده حديث رقم : 2381 . انظر جامع البيان : 215/2

<sup>8</sup> . للكشاف ك : 228/1

وثباتا .. "ورابطوا" وأقيموا في الثغور .. وعن النبي — صلى الله عليه وسلم — <sup>1</sup> "من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه ، لا يفطر ولا يفتسل عن صلاته إلا الحاجة " . <sup>2</sup>

وإذا رجعنا إلى البحر المحيط وجدناه نقل كلام الزمخشري بنصه في تفسير الآية مع ذكر نفس الحديث ، ثم أورد ثلاثة أحاديث أخرى في فضل الرباط كلها صحيحة ، وقد عزاها جميعاً إلى مصادرها الأصلية فقال :

( وفي البخاري قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — <sup>3</sup> : " رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها " .

وفي مسلم <sup>4</sup> " رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه رزقه وأمن الفتان " .

وفي سنن أبي داود قال <sup>5</sup> : " كل الميت يختم على عمله ، إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ، ويومن من فتاني القبر " . <sup>6</sup>

وإذا تتبعنا أبا حيان في تفسيره فإننا نجد قد التزم إلى حد بعيد النقل من مصادره التي نص عليها في مقدمة تفسيره ، وهي الكتب التي غلب عليها الصحيح والمشهور من الحديث النبوي .

أما الزمخشري فإنه لم ينص على مصادره الحديثية ابتداءً ، ولكن بالرجوع إلى تفسيره يتبين أن أغلب مصادره كانت عبارة عن الكتب التي يغلب عليها الضعيف والمتروك من الأحاديث ، أو هي تلك التي يتساهل أصحابها في قبول الأحاديث وتصحيحها ، وبعضهم الآخر ممن يورد مروياته بغير أسانيد .

وإذا تتبعنا مرويات السنة عند الزمخشري في تفسير سورة التوبة مثلاً فإننا نجدها

كالآتي :

<sup>1</sup> . رواه أحمد في مسنده عن سلمان ، حديث رقم : 24129

<sup>2</sup> . الكشاف : 460/1

<sup>3</sup> . رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب فضل رباط يوم في سبيل الله ، صحح الباري : 65/6

<sup>4</sup> . رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الرباط والجهاد .

<sup>5</sup> . رواه أبو داود . كتاب الجهاد ، باب في فضل الرباط .

<sup>6</sup> . البحر المحيط : 149/3

- عشرين ( 20 ) حديثا ، قال فيها ابن حجر العسقلاني: لم أجده .
- تسعة ( 9 ) أحاديث ، نقلها الزمخشري عن تفسير " الكشف والبيان " للثعلبي ، وقد قال فيه ابن تيمية : ( والثعلبي هو كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع )<sup>1</sup>
- ثلاثة ( 3 ) أحاديث رواها الإمام أحمد في مسنده .
- ثلاثة ( 3 ) أحاديث رواها أبو يعلى في مسنده
- ثلاثة ( 3 ) أحاديث رواها الطبراني في معاجمه .
- ثلاثة ( 3 ) أحاديث رواها عبد الرزاق في مصنفه .
- ثلاثة ( 3 ) أحاديث رواها الطبري في تفسيره .
- حديثان رواهما البخاري في صحيحه .
- حديثان رواهما مسلم في صحيحه .
- حديثان رواهما البيهقي في دلائل النبوة .
- تسعة أحاديث قال فيها ابن حجر : متفق عليه<sup>2</sup> .
- وفي كل هذه الأحاديث كان الزمخشري يصدر مروياته بصيغة التمريض " روي " من غير عزو لمصدر ، أو تفريق بين المقبول والمردود منها .
- أما مرويات أبي حيان الأندلسي فلا تكاد تخرج عن كتب السنة التي اشتهرت بالصحيح إلا في القليل النادر .
- ومثلما وقع الزمخشري في رواية الأحاديث الضعيفة وقبولها ، فإنه حاول تضعيف أحاديث صحيحة ورددها ، حتى وإن كانت مروية في الصحيحين وبطرق مستفيضة ، وليس رد الحديث الصحيح بأقل خطرا من قبول الحديث الضعيف . كما يتعسف في صرف بعض الأحاديث عن ظاهرها لتوافق مذهبه ، وإن كانت كلمة أهل العلم متفقة على خلاف ذلك .

<sup>1</sup> . ابن تيمية ، مقدمة في أصول الفسوف ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت . ص : 31

<sup>2</sup> . انظر الكافي الشاف في تخریج أحاديث الكشاف ، عند تفسير سورة التوبة من الكشاف .

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " سورة آل عمران : 36

حيث قال : ( وما يروى من الحديث " ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها <sup>1</sup> " فالله أعلم بصحته ، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها ، فإنما كانا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتها ، كقوله تعالى " لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " واستهلاله صارخا من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه ، كأنه يمسه ويضرب يده عليه ويقول : هذا من أغويته ونحوه من التخييل قول ابن الرومي <sup>2</sup> :

لما توذن الدنيا به من صروفها      يكون بكاء الطفل ساعة يولد . <sup>3</sup>

فالزحشري هنا كما يبدو وقع في أكثر من خطأ :

أولها : التشكيك في حديث مذكور في الصحيحين ، مع أننا نراه يروي الأحاديث الضعيفة ، بل الموضوعية ، ولا يقول فيها : الله أعلم بصحتها .

وثانيها : صرفه للحديث عن الحقيقة إلى المجاز من غير وجود قرينة توجب ذلك ، وعبر

عنه بالتخييل فقال : ( واستهلاله صارخا من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه ، كأنه يمسه ويضرب يده عليه ، ويقول هذا من أغويته . )

وثالثها : عندما شبه دلالة هذا الحديث بقول ابن الرومي :

لما توذن الدنيا به من صروفها      يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وشتان بين المعنى الذي ذهب إليه ابن الرومي كشاعر في هذا الموضع وبين المعنى القرآني

الذي لا يصح فيه التخييل أو ما شاكله .

<sup>1</sup> . رواه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل عيسى بن مريم عليه السلام .

<sup>2</sup> . لما توذن الدنيا به من صروفها      يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكى منها وإلها      لأفصح بما كان فيه وأرغد

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه      بما سوف يلقى من أذاها يهدد

<sup>3</sup> . للكشاف : 357/1

ورابعها : رمية لمن خالفوه بأقبح الألفاظ ، مع أن النص معهم في ثبوته ودلالته .  
حيث قال : ( وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ، ولو سلط إبليس  
على الناس ينخسهم لامتألت الدنيا صراخا وعياطا مما يلونا به من نخسه . )<sup>1</sup>  
وهو كلام في غاية البعد ، لأن نخس الشيطان الوارد في الحديث إنما هو عند الخروج  
أول مرة .

ونحن لا نستبعد أن يكون الزمخشري في هذا الموقف من مرويات السنة النبوية متأثرا  
بأسلافه من المعتزلة الذين تطرفوا وتعسفوا في رد كثير من السنن ، لأن ظواهرها تصادم  
أصولهم المذهبية ، أو تخالف نظرتهم العقلية .

فهذا النظام وهو كبير رؤوس المعتزلة — كما يقول ابن قتيبة — يطعن في أقوال رويت  
عن أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبي هريرة ، وقد كان النظام  
يعلل طعنه في رجال الحديث ، ونسب الكذب والتدليس إليهم بأننا نجد أحيانا — فيما  
يزعم — بعض الأحاديث المتناقضة ، يقول : ( وكيف نأمن كذب الصادق وخيانة الأمين  
، وقد نرى الفقيه يكذب في الحديث ، ويدلس في الإسناد ، ويدعي لقاء من لم يبلغه ،  
ومن غريب الخبر ما لم يسمعه ، ثم يرى أن يرجع عن ذلك في مرضه ، قبل أن تفرغ  
نفسه ، ولولا أن الفقهاء والمحدثين والرواة والعلماء المرضيين يكذبون في الأخبار ،  
ويغلطون في الآثار لما تناقضت آثارهم ، ولا تدافعت أخبارهم .. )<sup>2</sup>  
ثم مضى النظام يسوق عددا من الأحاديث التي ظاهرها التناقض ، ليدلل من خلال  
ذلك على كذب الرواة ونقلة الأخبار .

ويذكر أن هذا كان أحد الأسباب التي حملت ابن قتيبة على وضع كتابه " تأويل  
مختلف الحديث " للرد على تلك المطاعن ، والتوفيق بين الأحاديث التي زعم النظام وأمثاله  
أن فيها تناقضا واختلافا<sup>3</sup> .

كما أن تصدير الزمخشري لكثير من الأحاديث الصحيحة بمصطلح " روي " — وهو  
ما يعرف بصيغة التمريض أو التضعيف عند المحدثين — ليس من قبيل الصدفة ، بل هذا

<sup>1</sup> . الكشف : 357/1

<sup>2</sup> . التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 1985م ، ص : 51 . فغلا عن رسالة الخور العين : 231

<sup>3</sup> . ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1985م ص : 23 وما بعدها .

مسلك المعتزلة في سنة الأحاد وإن كانت مروية في الصحيحين ، وفي هذا المعنى يقول القاضي عبد الجبار دفاعاً عن فرقة : ( واعلم أن كثيراً ممن يشنع بمثل ذلك لا يعرف حقيقة السنة والجماعة ... وإنما يقع هذا الاسم — السنة — على ما ثبت أنه قاله ، أو فعله ، فأما ما ينقل من أخبار الأحاد ، فإن صح فيه شروط القبول يقال فيه أنه سنة على وجه التعارف ، وأنا إذا لم نعلم ذلك القول أو ذلك الفعل ، فالتقول بأنه سنة يقبح ، لأننا لا نأمن أن نكون كاذبين في ذلك ، وعلى هذا الوجه لا يجوز في العقل أن يقول في خبر الواحد قال رسول الله قطعا ، وإنما يجوز أن يقول روي عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم . )<sup>1</sup>

فبقدر ما تشدد الزمخشري وتعسف في رد أحاديث صحيحة ، لا لشيء إلا لأنها لا توافق مذهبه ، بقدر ما تطرف في تساهله في قبول أحاديث واهية وباطلة ، وفي كلال الموقنين مذمة ومنقصة له ، فبالإضافة إلى ما سبق من شواهد ، نجد ذلك العدد المعتبر من الأحاديث التي رواها في فضل كل سورة من سور القرآن — نقلاً عن بعض من سبقه كالنعلبي والواحدي — وهي في أغلبها من الموضوعات المشهورة التي لا يكاد يقع فيها نزاع بين أهل العلم.<sup>2</sup>

ويرى ابن الصلاح في مقدمته أن أحاديث كثيرة وضعت في فضائل سور وآيات القرآن الكريم ، وزعم واضعوها أنهم وضعوها بحسبة الله تعالى ، وقصد ترغيب الناس في قراءة القرآن الكريم .

قال ابن الصلاح : ( .. ومن ذلك الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — في فضائل السور سورة سورة ، فقد بحث مؤسس بن إسماعيل — أحد رواة الحديث — حتى وصل إلى من اعترف بوضعه . كما قال ابن المبارك : أظنه من وضع الزنادقة . )<sup>3</sup>

وقد خطأ أهل العلم من ذكر هذه الأحاديث من المفسرين في كتبهم ، كالنعلبي والواحدي والزمخشري ، والنسفي والبيضاوي والمولى أبي السعود ، ولكن من أبرز سنده

<sup>1</sup> . القاضي عبد الجبار ، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق هزاد السيد ، المؤسسة الرطبة لكتاب ، ط2 ، 1986م ، ص : 186

<sup>2</sup> . محمد بن محمد أبو شهبة . الإسرائيليات والموضوعات في التفسير : 312 . وابن الجوزي ، الموضوعات : 174/1 .

<sup>3</sup> . مقدمة ابن الصلاح : 59

وذكره كالثعلبي والواحدي فهو أبسط لعذره ، إذ أحال ناظره على الكشف عن سنده ،  
والبحث عن رواته ، وإن كان الأولى عدم السكوت على من فيه .

وأما من لم يبرز سنده ، وأورده بصيغة الجزم فخطوه أفحش ، وعذره أبعد ، وذلك  
كالأخرين الزمخشري والبيضاوي والنسفي ، وأبي السعود ، علما بأن هؤلاء الثلاثة جميعا  
استنوا بسنة الزمخشري في نقل هذه الأحاديث مع إسقاط الأسانيد ، والزمخشري مسسئ  
بالثعلبي ، ولكنه زاد إسقاط الأسانيد من عنده ، فتضاعف خطوه مرتين .

قال ابن الجوزي : ( وقد فرق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره ، فذكر عند  
كل سورة ما خصها منه ، وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك ، قال : ولا أعجب منهما  
لأنهما ليس من أصحاب الحديث . )<sup>1</sup>

ويؤكد ما ذهب إليه ابن الجوزي قول ابن حجر عند تخريج كل حديث مسن هذه  
الأحاديث : أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب ، مما يدل على أنه  
حديث واحد موضوع بمجموعه . وآثار الوضع ظاهرة عليه من وجود كثيرة ، سواء مسن  
جهة النقل أو من جهة العقل . والأمثلة الآتية توضح ذلك .

ففي فضل سورة القلم قال : ( عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة  
القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم . )<sup>2</sup>

وفي فضل سورة الشمس قال : ( وعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — " من قرأ  
سورة الشمس ، فكأنما تصدق بكل شيء ، طلعت عليه الشمس والقمر " . )<sup>3</sup>

وفي فضل سورة الإنشراح قال : ( عن النبي — صلى الله عليه وسلم — " من قرأ " ألم  
نشرح " فكأنما جاعني وأنا مغتم ففرج عني " . )<sup>4</sup>

وفي فضل سورة " التين " قال : ( عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — " من قرأ  
سورة التين أعطاه الله خصلتين : العافية واليقين ما دام في دار الدنيا ، وإذا مات أعطاه الله  
من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة . " )<sup>1</sup>

<sup>1</sup> . ابن الجوزي ، الموضوعات ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ج 171/1

<sup>2</sup> . الكشف : 597/4

<sup>3</sup> . الكشف : 671/4

<sup>4</sup> . الكشف : 772/4



وكان الثعلبي يذكر الحديث في صدر كل صورة ، أما الزمخشري ومن تبعه فلمهم  
يذكرون الفضائل في آخر السورة ، وقد سئل الزمخشري عن هذا فأجاب بأن الفضائل  
صفات ، وهي تستدعي الموصوف ، والموصوف مقدم على صفته <sup>2</sup> .

وواضح من هذه للرويات أنها ظاهرة النكارة ، وحتى إن لم يكن الزمخشري قادرا على  
ردها من حيث السند ، فإن متنها يدعو للنفور منها من حيث العقل .

وهناك أحاديث أخرى عن غير أبي بن كعب ، ظاهرة النكارة ومشهورة الوضع ،  
وقد ذكرها الزمخشري وتبعه فيها البيضاوي ، مثل ما ذكره في فضل سورة الفاتحة ، قال :  
وعن حذيفة بن اليمان أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : " إن القوم ليعث الله  
عليهم العذاب حتما مقضيا ، فيقرأ صبي من صبياتهم في الكتاب " الحمد لله رب العالمين "  
فيسمعه الله تعالى . فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة " . <sup>3</sup>

قال ولي الدين العراقي : ( في سننه الجويباري ، ومأمون الهروي ، كذابان ، فهو ممن  
وضع أحدهما . ) <sup>4</sup>

ومنها ما ذكره الزمخشري في فضل آية الكرسي ، وتبعه في ذلك النسيفي وغيره ،  
حيث قال : ( .. فإن قلت لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد ، منه قوله —  
صلى الله عليه وسلم — " ما قرئت هذه الآية في بيت إلا امتحرتما الشياطين ثلاثين يوما ،  
ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة ، يا علي عَلَّمَهَا وَلَدَكَ وَأَهْلَكَ وَجَسَدَانَكَ فَمَا  
نَزَلَتْ آيَةٌ أَعْظَمَ مِنْهَا .. " ) <sup>5</sup>

( وتذاكر الصحابة — رضي الله عنهم — يوما أفضل ما في القرآن ، فقال لهم علي  
رضي الله عنه : أين أنتم عن آية الكرسي ، ثم قال : قال لي رسول الله — صلى الله عليه  
وسلم — : يا علي ، سيد البشر آدم ، وسيد العرب محمد ولا فخر ، وسيد الفرس سلمان

<sup>1</sup> . الكشف : 775/4

<sup>2</sup> . عمد حنين الذهبي ، الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ، دار الفكر ، ص : 309

<sup>3</sup> . الكشف : 19/1

<sup>4</sup> . الإسرائيليات والموضوعات في التفسير : 310 . نقل عن عماس الصور في الكشف عن أحاديث السور ، للمعري ، مطوط .

<sup>5</sup> . الكشف : 302/1

، وسيد الروم صهيب ، ، وسيد الحبشة بلال ، وسيد الجبال الطور ، وسيد الأيام يوم الجمعة ، وسيد الكلام القرعان ، وسيد القرعان البقرة ، وسيد البقرة آية الكرسي .<sup>1</sup> ولم يكتف الزمخشري بأن يسوق مثل هذه المرويات الباطلة في فضل آية الكرسي ، حتى يقرر أن فضل فرقته إنما يستمد من فضل هذه الآية ، لأنها إنما فضلت على سائر القرعان لما فيها من قضايا التوحيد ، وفرقتها إنما فارقت الفرق الأخرى في تعلقها بما جاء في هذه الآية .

قال الزمخشري : ( قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص لاشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ، ولا مذكور أعظم من رب العزة ، فما كان ذكرا له كان أفضل من سائر الأذكار ، وهذا يعلم أن أشرف العلوم وأعلاها منزلة عند الله ، علم أهل العدل والتوحيد ، ولا يفرنك عنه كثرة أعدائه :

فإن العرائن تلقاها محسدة ولا ترى للناس حسادا .<sup>2</sup>

ولا يخفى ما في هذا التوجيه لآية الكرسي من تعصب وغلو ظاهرين عند الزمخشري ، لأن آية الكرسي تتحدث عن مطلق التوحيد ، وليس بالضرورة عن التوحيد الذي يفهمه الزمخشري وفرقته من القرعان الكرم ، والزمخشري نفسه لم يذكر مسألة واحدة من مسائل الخلاف بينه وبين خصومه في تفسير هذه الآية ، فلا ندري لماذا حصر فضل الآية وقصره على أهل العدل والتوحيد ؟

وهكذا فإن الزمخشري قد تمادى في مسلكه تجاه أغلب المسن التي أوردها في كشفه فإذا أورد حديثا صحيحا في تفسيره وجدناه يصدره في الغالب بقوله : " روي " وهي الصيغة الدالة على التضعيف ، وإذا كان الحديث ضعيفا أو موضوعا رواد بصيغة توهم صحته .

ومن ذلك أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ .. " سورة يس : 19

<sup>1</sup> . قال ابن حجر لم أحده انظر الكافي الشاف ، على هامش الكشاف : 303/1 هامش : 2

<sup>2</sup> . الكشاف : 303/1

يقول : ( وعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين ، علي بن أبي طالب ، وصاحب بس ، ومومن آل فرعون )<sup>1</sup>

فالحديث كما قال ابن حجر: رواه الثعلبي ، وفي سننه عمرو بن جميع وهو متروك<sup>2</sup> وأما رواية الطبراني فقال فيها ابن كثير في تفسيره : ( فأما الحديث السندي رواه أبو القاسم الطبراني — ثم ذكر الحديث بسنده لابن عباس — فإنه حديث منكر ، لا يعرف إلا من حديث حسين الأشقر ، وهو شيعي متروك )<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَأُنجِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا.." سورة القصص : 34 قال الزمخشري : ( وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله عنهما رثة ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : ورثها عن عمه موسى . )<sup>4</sup> حيث قال ابن حجر في تخرجه : لم أجده<sup>5</sup>.

ولا نستبعد أن يروي الزمخشري بعض الأحاديث المتروكة ، وهو يعلم درجتها ، أو على الأقل ضعف سندها ، لشيء في نفسه ، وخاصة أن الزمخشري قد اتخذ من تفسيره منبرا للرد على مخالفيه وخصومه ، سواء في الفكر أو السياسة .

فجده في تفسير قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. " سورة الحجرات : 11

قال : ( ففي الحديث عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : اذكروا الفاجر بما فيه كي يحدّره الناس " )<sup>6</sup> . حيث ذكر هذا الحديث الواهي ، ولم ينبه على مقالات أهل العلم فيه ، ليبرر إطلاق لسانه بعد ذلك في خصومه الأمويين فقال : ( وعن الحسن رضي الله عنه في ذكر الحجاج ، أخرج إلي بنانا قصيرة قلما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله ، ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول : يا أبا سعيد يا أبا سعيد ، وقال لما مات : اللهم أنت

<sup>1</sup> . الكشاف : 10/4

<sup>2</sup> . الكشاف : 10/4 هامش : 2 ( الانتصاف )

<sup>3</sup> . ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : 367/5

<sup>4</sup> . الكشاف 63/1

<sup>5</sup> انظر الكافي الشاف في تخرج أحاديث الكشاف . الكشاف : 61/3 هامش : 3

<sup>6</sup> . قال ابن حجر : قال الدارقطني : هو من وضع الجارود لم يره منه جماعة . وقال الحاكم : هذا غير صحيح ولا معتمد . انظر :

الكافي الشاف في تخرج أحاديث الكشاف . على هامش الكشاف : 369/4 هامش : 1

أمته فاقطع سنته ، فإنه أتانا أخيفش أعيمش ، يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تقوته الصلاة ، لا من الله يتقى ، ولا من الناس يستحي ، فوقه الله وتحت مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاة أيها الرجل الصلاة أيها الرجل ، هيهات دون ذلك السيف والسوط .<sup>1</sup>

أما عند أبي حيان ، فإن أغلب مروياته موجودة في الصحيحين ، أو في كتب السنة التي طغى عليها الصحيح من الحديث ، بل حتى أسباب النزول فإن أكثر مروياته فيها نقلها عن صحيح البخاري ومسلم ، وهو في ذلك إما أن يصدرها بقوله : وفي الحديث الصحيح ، أو يكتفي بعزوها إلى كتب الصحاح إشعارا بصحتها وقبولها ، وفي كلا الحالتين هو سلوك مقبول منه عند أهل هذا الفن .

<sup>1</sup> . للكشاف : 369/4

## الفصل الثاني

موقفهما من تفسير الصحابة والتابعين

القادر للعلوم الإسلامية

## المبحث الأول

### موقف الزمخشري من تفسير الصحابة والتابعين

لم يخجل كل من الكشاف والبحر المحييط مسن نقل أقوال الصحابة والتابعين في تفسير القرآن الكريم، على تفاوت بينهما في منهج التعامل معه .

حيث أن الزمخشري يحاول أن يلتمس الدليل من الكتاب والسنة على ضرورة الرجوع إلى تفسير الرسول - صلى الله عليه وسلم - وذلك أن الله تعالى مثلما كلفه بأمانة التبليغ، فإنه كلفه بأمانة البيان والتفسير، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد زكى أصحابه، وشهد لهم بحسن الإسلام، مثلما شهد لهم بحسن الفهم والحفظ لفقهاء الدين، ومن

هنا فإننا نجد في قول في تفسير قوله تعالى : " وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ.." سورة النحل : 89

( فإن قلت : كيف كان القرآن تبياناً لكل شيء ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شيء من أمر الدين ، حيث كان نصاً على بعضها وإحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع رسول الله — صلى الله عليه وسلم —.. وقد رضي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأمته اتباع أصحابه والإقتداء بآثارهم في قوله <sup>1</sup> : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " ، وقد اجتهدوا وقاسوا ، ووطأوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة والإجماع والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب ، فمن تم كان تبياناً لكل شيء. ) <sup>2</sup>

وإن كان يفهم من كلام الزمخشري في هذا الموضع الدعوة إلى الإفادة من تفسير الصحابة مما فهموه من الكتاب ، وليس مما رووه ونقلوه ، فبقدر ما في كلام الزمخشري هذا من إقرار للتفسير المأثور عن الصحابة ، بقدر ما فيه أيضاً إقرار للتفسير بالرأي ، ولذلك فإن الذي يطالع تفسير الكشاف للزمخشري يلاحظ فيه للوهلة الأولى قلة رجوعه لأقوال الصحابة والتابعين في التفسير ، وهذا فيما يبدو راجع لسببين أساسيين هما : أولهما: موقف المعتزلة من هذا النوع من التفسير ، حيث يرون أنه لا يوجد في القرآن ما لا يعلم معناه ، وهذا المعنى الذي يتضمنه القرآن لا يختص بمعرفة الرسول والصحابة والتابعين ، بل كل من تكاملت فيه شروط المفسر أمكنه معرفة مراد خطاب الله لعباده . وفي هذا المعنى قال الحاكم الجشمي المعتزلي : — وهو أحد شيوخ الزمخشري في التفسير — ( لا يختص الرسول بمعرفة معاني القرآن بل غيره يمكنه معرفة ذلك خلافاً لبعضهم . ثم أورد أدلة على ذلك منها:

1 — أن الكلام هو الدال على المراد إذا تكاملت شرائطه ، فمن عرف المواضع يمكنه معرفة المراد ، كمن له عقل يمكنه معرفة العقليات .

<sup>1</sup> . قال ابن حجر : أخرجه الدارقطني في المؤلف عن رواية سلام بن سليم عن الحرث بن عصف عن الأعرج عن أبي سعيد عن جابر مرفوعاً ، وسلام ضعيف ، وأخرجه في غرابه من طريق حميد بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر في أثناء حديث " فيأي قول أصحابي أخذتم اهتديتم ، إنما مثل أصحابي مثل النجم من أخذ بنجم منها اهتدى " وقال : لا يثبت عن مالك ، ورواه دون مالك مجهولون ، كما ذكره ابن حجر طرقاً أخرى عند الدارقطني ، والقضاعي والبيهقي ، وفي كل أسانيدهما صححاء . انظر الكشاف

628/2 هامش : 1

2 . الكشاف : 628/2

2 — ولأن الرسول لا بد أن يبين المراد بكلام ، فإذا صح أن يعرف المراد بكلامه ، فكلام الله تعالى كذلك .

3 — ولأن الأمة أجمعت على الرجوع للقرآن في الأحكام ، ولو كان كما قالوا لما حسن .

4 — ولأنه تعالى قال : " أَوَلَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ " .  
فوصفه بأنه بيان .<sup>1</sup>

وفي كلام الحاكم عبارات هي نفسها عند القاضي عبد الجبار في كتابه المعنى<sup>2</sup>  
فتبني الزمخشري منهج شيخه ، واقتفى أثره في هذا الجانب ، فلم يرجع للتفسير المأثور عن الصحابة والتابعين إلا في في مواضع قليلة مما يتعلق بسبب نزول ، أو قول بالنسخ ، أو غير ذلك مما ليس للرأي فيه مجال .

2 — ثانيا : أن الزمخشري قد سكت عن نسبة الأقوال لأصحابها ، سواء منها ما تعلق بأقوال السلف ، أو غيرها من أقوال أهل العلم ، وهذا ما كان يعتبه عليه أبو حيان في كثير من المواضع . مثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ " سورة التين:5

حيث قال أبو حيان ( وأخذ الزمخشري أقوال السلف ، وحسنها بلاغته وانتقاء ألفاظه فقال : في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه ثم كان عاقبة أمره فيهم شكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية ، إذ رددناه أسفل من سفلى خلقا وتركيا يعني أقبح من قبح صورة ، وأشوهه خلقة ، وهم أصحاب النار وأسفل من سفلى من أهل الدر كلت ، أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفلى في حسن الصورة و الشسكل حيث نكسناه في خلقه فقوس ظهره بعد اعتداله وبيض شعره بعد سواده . . انتهى ، وفيه تكثير .<sup>3</sup>

وما هذا إلا مثال واحد من السرقات التي عاها عليه أبو حيان وغيره . وكانت أغلب الأقوال التي ينقلها الزمخشري عن السلف ولم ينسبها لأصحابها بلخصها ، أو يلفقها

<sup>1</sup> . عدنان زرزور ، الحاكم المحشي ومنهجه في التفسير : 243 . فلا عن شرح العيون ، ورقة : 264

<sup>2</sup> . القاضي عبد الجبار ، المعنى في أبواب العدل والتوحيد : 361/16 .

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 490/8



و يصدرها بقوله : " قيل " . وفي مواضع قليلة فقط كان ينسب هذه الأقوال ، وأكثر  
نقوله كانت عن ابن عباس وابن مسعود وعلي بن أبي طالب من الصحابة ، وعن قتادة  
والضحاك والحسن البصري ، مع تبعه لبعضها بالنقد ، وسكوته عن البعض الآخر . ومن  
الأمثلة على ذلك ما يأتي :

في تفسير قوله تعالى : " لا يَعْزُبُ عَنْهُمْ الْغَزْعُ الْأَكْبَرُ وَتَلْقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي  
كُنْتُمْ تُوعَدُونَ " سورة الأنبياء : 103

قال الزمخشري : ( يروى أن علياً رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : أنا منهم وأبو  
بكر وعثمان وطلحة وسعد وعبد الرحمن بن عوف . وعن الحسن : الغزع الأكبر :  
الإنصراف إلى النار ، وعن الضحاك : حين يطبق عن النار ، وقيل : حين يذبح الموت  
على صورة كبش أملح )<sup>1</sup>  
وفي تفسير قوله تعالى : " الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. " .  
سورة البقرة : 274

قال : ( قيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار ،  
عشرة بالليل ، وعشرة بالنهار ، وعشرة في السر ، وعشرة في العلانية . وعن ابن عباس  
رضي الله عنهما : نزلت في علي رضي الله عنه لم يملك إلا أربعة دراهم ، فتصدق بدرهم  
ليلاً ، وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرا ، وبدرهم علانية . . . وعن أبي هريرة رضي الله عنه ،  
كان إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا  
مِنْهُمْ .. " سورة العنكبوت : 46

قال : ( قيل : إلا الذين آذوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقيل إلا الذين  
أثبتوا لله الولد والشريك ، وقالوا يد الله مغلولة . وعن قتادة : الآية منسوخة بقوله تعالى  
قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. )<sup>3</sup> ولا بمجادلة أشد من السيف )<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 137/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 319/1

<sup>3</sup> . سورة التوبة : 29

<sup>4</sup> الكشاف : 457/3

وفي تفسير قوله تعالى : " فإذا فرغت فانصب " سورة الإنشراح: 7

قال الزمخشري : ( لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده الآتفة ، بعثه على الشكر والإجتهد في العبادة والنصب فيها ، وأن يواصل بين بعضها بعضا ، ويتابع ويحرس على ألا يخلو وقتا من أوقاته منها ، فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى . ثم قال :

— وعن ابن عباس : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء .

— وعن الحسن : فإذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة .

— وعن مجاهد : فإذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك .

— وعن الشعبي : أنه رأى رجلا يشيل حجرا فقال : ليس بهذا أمر الفارغ ..

— ولقد قال عمر رضي الله عنه : إني لأكره أن أرى أحداكم فارغا ، لا في عمل الدنيا

ولا في عمل الآخرة .<sup>1</sup>

فنقل هذه الأقوال ومر عليها دون أن يتعقبها بشيء ، في حين أن بعضها لا يخلو من

مقال . فالقول المنسوب للحسن البصري — فإذا فرغت من الغزو — يردده كون السورة

مكية ، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن ، والغزو لم يكن إلا بعد الهجرة . والقول

المنسوب لعمر ، قال فيه ابن حجر : ( لم أجده ، وقد روى أحمد وابن المبارك والبيهقي في

الزهدي ، وابن أبي شيبة من طريق المسيب بن رافع قال : قال ابن مسعود : إني لأمقت الرجل

أراه فارغا ليس في شيء من عمل دنيا ولا آخرة )<sup>2</sup>

كما نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى : " عسى ربنا أن يبدلنا

خييرا منها إنا إلى ربنا راغبون " سورة القلم : 32

فقال ( وروي عن ابن مسعود : بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق ، فأبدلهم

جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منه عنقودا )<sup>3</sup>

ولا يخفى ما في هذا القول المنسوب لابن مسعود من ضعف من عدة وجوه :

أولا: أنه مخالف للواقع وما ألفه الناس في حياتهم .

<sup>1</sup> . الكشاف : 772/4

<sup>2</sup> . الكشاف : 772/4 هامش : 3

<sup>3</sup> . الكشاف : 592/4

ثانيا: قوله تعالى بعد ذلك : " كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون " <sup>1</sup>  
يستبعد معه وقوع توبتهم ، وبالتالي يستبعد وجود تلك الجنة التي هذا وصفها .

ثالثا : السياق العام للقصة وسبب نزولها أيضا يخالفان القول المنسوب لابن مسعود .  
إلا أن الزمخشري سكت عن كل هذا ، مما يوحي بقبوله .

وفي مواضع قليلة جدا نجده يتوقف عند بعض التفسير المنسوب للصحابه والتابعين وقفة نقدية ، فيصرح برده ، أو التشكيك في صحة نسبه .

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " عينا فيها تسمى سلسيلا " سورة

الإنسان : 18

حيث قال : ( وسلسيلا ، لسلاسة إنخدارها في الحلق ، وسهولة مساعها ، يعني أهمل في طعم الزنجبيل ، وليس فيها لدعة ، يقال شراب سلسل وسلسال وسلسيل ، قال الزجاج : السلسيل في اللغة : صفة لما كان في غاية السلاسة .. ثم قال الزمخشري : ( وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — أن معناه سل سيلا إليها ، وهذا غير مستقيم على ظاهره ، إلا أن يراد أن جملة قول القائل : سل سيلا جعلت علما للعين ، كما قيل : تأبط شرا ، وذرى حبا ، وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سيلا بالعمل الصالح ، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع ، وعزوه إلى مثل علي رضي الله عنه أبداع . ) <sup>2</sup>

وهكذا يتضح من مجموع ما قدمناه من نماذج في موقف الزمخشري من التفسير المنسوب للصحابه والتابعين حملة من النتائج السلبية التي تسجل على كشافه :

منها تجاهله للقيمة العلمية لما يعزى إليهم من تفسير للقرآن الكريم بالرغم مما خصهم بالله به من قوة الفهم والعدالة ومعاينتهم قرائن التريل ومعرفتهم بأحوال وعوائد من نزل فيهم القرآن من عرب وغيرهم ، وهو في ذلك إنما متأثر بفكره الاعتزالي كما قمنا .

ومن هنا سوء توجيهه لما نقل عنهم من تفسير للقرآن الكريم ، وقلة المانة في النقل واقتباس والتصرف في أقوال الرجال بما يوافق ما يراه .

<sup>1</sup> . سورة المفلح : 33

<sup>2</sup> . الكشاف : 672/4

ومنها ضعف حاسته النقدية في هذا النوع من المرويات على غرار ما شهدناه في ضعف نقله لمرويات التفسير من السنة النبوية .

وبذلك كان هذا الجانب هو الآخر من الجوانب التي تضعف من قيمة تفسير الكشلاف وتترل به المكانة التي رفعها إليه بعض من أنصاره وللتحمسين لاتباعه .

## المبحث الثاني

### موقف أبي حيان من مآثور الصحابة والتابعين

فإذا رجعنا إلى تفسير البحر المحيط فإننا نجد أبا حيان قد أكثر من نقل التفسير المآثور عن الصحابة والتابعين بما يتناسب وتوسعه في جوانب التفسير الأخرى ، وقد أبان في أكثر من موضع من تفسيره عن اعتداده بما النوع من التفسير ، وتقديمه على غيره من أقوال الرجال ، لأن الله تعالى قد خصهم بفضائل لم يجعلها لغيرهم ، من بينها حسن الفهم لدينه وكتابه وحسن التطبيق والإمتثال لأحكامه ، وهذا ما أشار إليه أبو حيان في تفسيره لقوله تعالى : " إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله وبلعنهم اللاعنون " سورة البقرة : 158

قال أبو حيان : ( .. والناس هنا أهل الكتاب ، والكتاب التوراة والإنجيل ، وقيل الناس أمة محمد — ص — والكتاب القرعان ، والأولى والأظهر عموم الآية في الكفائمين ، وفي الناس وفي الكتاب ، وإن نزلت في سبب خاص ، فهي تناول كل من كتم علما من دين الله يحتاج إلى بثه ونشره ، وذلك مفسر في قوله — ص — من سئل عن علم فكتمه ألجم

يوم القيامة بلحام من نار ، وذلك إذا كان لا يخاف على نفسه في بته . وقد فهم الصحابة من هذه الآية العموم وهم العرب الفصح المرجوع إليهم في فهم القرآن كما روي عن عثمان وأبي هريرة وغيرهما " لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم " .<sup>1</sup> وهم يقصدون هذه الآية .

ومن الأمثلة على اهتمامه بالتفسير المنقول من الصحابة والتابعين ما يأتي :  
في تفسير قوله تعالى : " وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ " سورة الأعراف : 45

قال أبو حيان : ( والرجال قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقفوا هنالك ما شاء الله لم تبلغ بهم حسناتهم دخول الجنة ولا سيئاتهم دخول النار ، وروي في مسند ابن أبي خيثمة عن جابر عن رسول الله — ص — حديث فيه : يا رسول الله ، فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون ، وقاله ابن مسعود وابن عباس وحذيفة وأبو هريرة ، قال حذيفة بن اليمان أيضا : قوم أبطأت بهم صفائهم إلى آخر الناس ، وقيل غزاة جاهلوا من غير إذن والديهم فقتلوا في المعركة ، وهذا مروى عن رسول الله أنهم حبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم وأعتقهم الله من النار لأنهم قتلوا في سبيله ، وقيل قوم رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم أو بالعكس ، وقيل هم أولاد الزنا ، وقيل أولاد المشركين ، وقيل الذين كانوا في الأسر ولم يبدلوا دينهم ، وقيل علماء شكوا في أرزاقهم .. والأقوال السابقة تحتاج إلى دليل واضح في التحصيل ، والجيد منها هو الأول لحديث جابر ، ولتفسير جماعة من الصحابة .<sup>2</sup>

كما تستوقفنا تلك الحاسة النقدية المميزة عنده في فحص تلك الأقوال ، و فصل عنها عن سمينها . وقد تجلت هذه الحاسة النقدية في الجوانب الآتية :

1 — رده لكل تفسير منسوب لهم وهو شبيه بتفسير الباطنية وغلاة الصوفية ، فكان يسره علماء السلف عن هذه الأقوال التي تصدر عن أفكار لم تكن معروفة بينهم .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 459/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 302/4

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ " سورة الزخرف : 50

حيث قال : ( وأبعد الضحاك في تفسيره الأنهار بالقواد والرؤساء الجبابرة يسمون تحت لوائه ، ومن فسرها بالأموال يصرفها تحت يده ، ومن فسرها بالخييل فقيل كما سمي الفرس بحرا يسمى حرا ، وهذه الأقوال الثلاثة تقرب من تفسير الباطنية . )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَأَيُّ لَهْمٍ أَنَا نَحْمَلُنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ " سورة يس : 50 قال أبو حيان : (.. وقيل الذرية النطف ، والفلك المشحون بطون النساء ، ذكره الماوردي ، ونسب إلى علي بن أبي طالب ، وهذا لا يصح لأنه نوع من تفسير الباطنية وغلاة المتصوفة الذين يفسرون كتاب الله على شيء لا يدل عليه اللفظ بجهة من جهات الدلالة ، يعرفون الكلم عن مواضعه )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ " سورة القدر : 5

قال أبو حيان : (.. وعن ابن عباس : تم الكلام عند قوله " سلام " ولفظة " هي " إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر ، إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات هذه السورة ، إنتهى — ثم قال — ولا يصح مثل هذا عن ابن عباس ، وإنما هذا من باب اللغز المتره عنه كلام الله تعالى )<sup>3</sup>

2 — رده للتفسير المنسوب للصحابة والتابعين إذا كان يخالف ظاهر القرآن ، ولا يتفق مع السياق العام للنص ، وهو في ذلك لا يكتفي برد أي قول حتى يفيض في التذليل على بعده من جهة ، وبيان المعنى الراجح من جهة أخرى ، والأمثلة على ذلك من تفسيره كثيرة نكتفي منها بما يأتي :

في تفسير قوله تعالى : " أَنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِتَحْتِي مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ " . سورة آل عمران : 39

قال في تفسير معنى " الحصور " : ( " وحصورا " هو الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك ، قاله ابن مسعود وابن عباس وابن جبير وقتادة وعطاء .. قال الشاعر :

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 22/8

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 338/7

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 497/8

و حصورا لا يريد نكاحا لا ولا يتغى النساء الصباحا

وقد روي أنه تزوج مع ذلك ليكون أغض لبصره . وقيل الحاصر نفسه عن الشهوات .  
وقال ابن مسعود أيضا وابن عباس أيضا والضحاك وابن المسيب : هو العين الذي لا ذكر  
له يتأني به النكاح ، ولا يزل .

قال أبو حيان : وإيراد "الحصور" وصفا في معرض الثناء الجميل إنما يكون عن الفعل  
المكتسب دون الجبلة في الغالب . والذي يقتضيه مقام يحيى عليه السلام أنه كان يمنع نفسه  
عن شهوات الدنيا من النساء وغيرهن ، ولعل ترك النساء زهادة فيهن كان شرعهم إذ  
ذاك.<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم  
فأصبحتم بنعمته إخوانا .. " سورة آل عمران : 103

قال أبو حيان ( الخطاب لمشركي العرب ، قاله الحسن وقتادة ، يعني من آمن منهم إذا  
كان القوي يستبيح الضعيف ، وقيل للأوس والخزرج ، ورجح هذا لأن العرب وقت  
نزول هذه الآية لم تكن مجتمعة على الإسلام ، ولا مؤلفة القلوب عليه ، وكانت الأوس  
والخزرج قد اجتمعت على الإسلام وتآلفت عليه بعد العداوة المفرطة والحروب التي كانت  
بينهم ، ولما تقدم أنه أمرهم بالاعتصام بجبل الله — وهو الدين — ونهاهم عن التفريق ،  
وهو أمر ونهي بديمومة ما هم عليه إذ كانوا معتصمين ومؤلفين ، ذكرهم بأن ما هم عليه  
من الإعتصام بدين الإيلام واتلاف القلوب إنما كان سببه إنعام الله عليهم بذلك ، إذ  
حصل منه تعالى خلق تلك الداعية في قلوبهم )<sup>2</sup>

وبنفس المسلك والاستدلال بين ضعف الأقوال المنسوبة لابن عباس والحسن البصري  
وقتادة في تفسير الآية التي تأتي بعد الآية السابقة وهي قوله تعالى : " ولا تكونوا كالذين  
تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليقين وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ " حيث قال : ( قال  
ابن عباس : هم الأمم السابقة التي افرقت في الدين .

وقال الحسن : هم اليهود والنصارى اختلفوا وصاروا فرقا .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 448/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 18/3

<sup>3</sup> . سورة آل عمران : 105

وقال قتادة : هم أصحاب البدع من هذه الأمة ، زاد الزمخشري : وهم المشبهة والمجسرة والحشوية وأشباههم .

وقال أبو أمامة : هم الحرورية ، وروى في ذلك حديثا ..

ثم قال أبو حيان : قال بعض معاصرينا ، في قول قتادة وأبي أمامة نظر ، فإن مبتدعة هذه الأمة والحرورية لم يكونوا إلا بعد موت النبي — صلى الله عليه وسلم — بزمان وكيف نهي الله المؤمنين أن يكونوا كمثل قوم ما ظهر تفرقهم ولا بدعهم إلا بعد انقطاع الوحي وموت النبي — صلى الله عليه وسلم — فلأنك لا تنهى زيدا أن يكون مثل عمرو إلا بعد تقدم أمر مكروه جرى من عمرو ، وليس لقوليهما وجه إلا أن يكون " تفرقوا " و" اختلفوا " من الماضي الذي أريد به المستقبل ، فيكون المعنى : ولا تكونوا كالذين يتفرقون ويختلفون ، فيكون ذلك من إعجاز القرآن وإخباره بما لم يقع ثم وقع <sup>1</sup>

3 — رده التفسير المنسوب للسلف المخالف للحقائق التاريخية و المشهور من وقائع السيرة النبوية ، مع استبعاده صحة نسبته إليهم .

ففي تفسير قوله تعالى : " قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ .. " سورة الفتح: 16

قال أبو حيان : ( أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك ، ودل على أنهم كانوا يظنهم هرون الإسلام ، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يكونوا أهلا لذلك ، وأهمم تعالى في قوله " إلى قوم أولي بأس شديد" .

فقال عكرمة وابن جبير وقتادة هم هوازن ، ومن قاتل رسول الله يوم حنين .

وقال كعب : الروم الذين خرج إليهم يوم تبوك ، والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة .

وقال الزمخري والكلبي : أهل الردة وبنو حنيفة باليمامة ..

وقال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وعطاء الخراساني وابن أبي ليلى: هم الفرس

وقال الحسن : فارس والروم .

وقال أبو هريرة قوم لم يأتوا بعد .



ثم قال أبو حيان : ( وظاهر الآية يرد هذا القول ، والذي أقوله أن هذه الأقوال تمثيلات من قائلها ، إلا أن المعنى بذلك ما ذكروا ، بل أخير بذلك مبهما دلالة على قوة الإسلام وانتشار دعوته .. والظاهر أن هؤلاء المقاتلين ليسوا ممن تؤخذ منهم الجزية ، إذ لم يذكر هنا إلا القتال أو الإسلام.)<sup>1</sup>

ويقصد من وراء ذلك أن الصحيح من الأقوال السابقة هو قول الحسن البصري ، ومن ذهب مذهبه ، وما خالف ذلك فهو بعيد ومردود ، إلا إذا كان على وجه التعميل . وهو استنباط بارع ودقيق من أبي حيان قلما نجد له مثيلا في تفسير الكشاف .

وفي تفسير قوله تعالى : " وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ .. " سورة المائدة : 30

نقل أقوال الصحابة والتابعين في تعيين المقصود بابني آدم فقال : ( وابننا آدم في قول الجمهور ، عمر وابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم هما : قابيل وهاييل ، وهما إبناد لصلبه ، وقال الحسن : لم يكونا ولديه لصلبه وإنما هما أخوان من بني إسرائيل ، قال : لأن القربان إنما كان مشروعا في بني إسرائيل ولم يكن من قبل .

قال أبو حيان : ووهم الحسن في ذلك ، وقيل عليه : كيف يجهل الدفن في بني إسرائيل حتى يقنطى فيه بالغراب ، وأيضا فقد قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — عنه إسنه أول من سن القتل ، وقد كان القتل قبل في بني إسرائيل )<sup>2</sup>

فلاحظ في المثال الأول كيف ارتضى قول الحسن البصري وقدمه على غيره لقوة دليبه ، كما يتجلى من هذا المثال كيف رد قوله بالأدلة القوية والمنقعة أيضا ، مما يبني عن قوة حسه النقدي لهذا النوع من التفسير .

وفي تفسير قوله تعالى : " وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأِلْمَانٌ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ " سورة التوبة : 12

قال أبو حيان : ( وقال قتادة : المراد أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهم ، وهذا ضعيف إن لم يؤخذ على جهة المثال ، لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير . )<sup>3</sup>

٤ — رد كل تفسير منسوب لأئمة السلف مما فيه مخالفة لصريح السنة النبوية .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 94/8

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 460/3

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 380/4

ومثاله ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ .. فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا.." سورة المائدة : 7

قال أبو حيان ( ومرض يعني في الحضر ، ويدل على مطلق المرض قل أو كثر ، زاد أو نقص ، تاخر برؤه أو عجل وبه قال داود التميمي لكل من صدق عليه مطلق الاسم . وخصص العلماء غيره للمرض بالجدرى والحصبه و العلل المخوف عليها من الماء ، فقللوا : إن خاف تيمم بلا خلاف . ثم قال أبو حيان : إلا ما روي عن عطاء والحسن أنه يتطهر وإن مات ، وهما محجوجان بحديث عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل<sup>1</sup> ، وأنه أشفق أن يهلك إن اغتسل فتيمم فأقره الرسول - صلى الله عليه وسلم - على ذلك .  
خرجه أبو داود والدارقطني.)<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّاَ الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا.." سورة آل عمران : 37

قال أبو حيان : ( تكلمت في المهد ولم تلقم ثديا قط ، وإنما كان يأتيها رزقها من الجنة . فعقب أبو حيان على هذا الأثر بقوله : ( والذي ورد في الصحيح<sup>3</sup> أن الذي تكلم في المهد ثلاثة ، عيسى وصاحب جريج وابن المرأة .)<sup>4</sup>

5 - رده للتفسير المنسوب لبعض الصحابة والتابعين مما يبعد أن يصدر عنهم ، أو ممن كان في مقامهم من العلم بلغة القرآن ، وحسن نظمه وبلاغته وسبب نزوله ، ومختلف علومه .  
ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.." سورة الروم : 29

حيث قال : ( قال مجاهد وابن جبير والضحاك والنخعي وابن زيد: لا تبديل لدين الله ، والمعنى لمعتقدات الأديان ، إذ هي متفقة في ذلك .

وقال ابن عباس : لا تبديل لقضاء الله بسعادتهم وشقاوتهم .

وقيل هو نفي معناه النهي ، أي لا تبدلوا ذلك الدين ..

<sup>1</sup> . رواه أبو داود . كتاب التيمم ، باب إذا حاف الجنب الرد التيمم ، رقم : 344

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 258/3

<sup>3</sup> . رواه الإمام أحمد في مسنده ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، 1998م ، رقم : 307

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 442/2 . وانظر : 472/2 .

ثم قال أبو حيان : ويستغرب ماروي عن ابن عباس أن معنى لا تبديل لخلق الله : النهي عن خصاء الفحول من الحيوان.)<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله : " وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث .. " سورة الروم : 55

قال أبو حيان : ( وقال قتادة : هو على التقدم والتأخير ، تقديره : أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم .. وعلى هذا تكون " في " بمعنى الباء أي العلم بكتاب الله . ولعل هذا القول لا يصح عن قتادة ، فإن فيه تفكيكا للنظم لا يسوغ في كلام غير فصيح ، فكيف في كلام الله تعالى ، وكان قتادة موصوفا بعلم العربية ، فلا يصدر عنه مثل هذا القول.)<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ " سورة يس : 77

فسر الآية بما يتفق وسياق النص ثم قال : ( ووهم من نسب لابن عباس أن الجاني بالعظم هو عبد الله بن أبي بن سلول ، لأن السورة والآية مكية بإجماع ، ولأن عبد الله بن أبي لم يهاجر قط هذه المهاجرة . )<sup>3</sup>

وهكذا أكثر أبو حيان من نقل التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين في جوانب مختلفة من تفسيره ، وخاصة ما تعلق بأسباب النزول وتاريخه ، والقصص والأخبار ، والناسخ والمنسوخ ، ومحكم القرءان ومتشابهه ، ومعرفة المكسي والمدني ، وغريب القرءان ، والقرءات ، وغيرها مما ليس للرأي فيه مجال إلا النقل والرواية ، وكان في نقله خبيرا بالأقوال ناقدا لها من جهة النقل ، ومن جهة العقل ، مما يتبين معه تفوقه على الزمخشري في هذا الجانب تفوقا وضحا ، وتقدمه عليه سواء من حيث حسن نقله وانتقائه لمرويات الصحابة والتابعين في التفسير أو فيما تعلق بنقدها ومحيصها ، أو إدراك القيمة العلمية لهذا النوع من التفسير وإنزاله منزلته ، وهذا ما سوف نزيده تفصيلا في مواضع لاحقة من هذا البحث مدعوما بالشواهد الكافية .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 172/7

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 180/7

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 348/7

## الفصل الثالث

موقفهما من القصص والإسرائيليات

جامعة الأميرة أميرة  
القطار للعلوم الإسلامية

## المبحث الأول

### موقف الزمخشري من القصص والإسرائيليات

رجع الزمخشري كغيره من كثير من المفسرين إلى القصص الإسرائيلي وسود به كثيرا من صفحات تفسيره ، ولكنه كعادته يميل إلى التلخيص بدافع الاختصار ، ولا ينسب هذه الأخبار الإسرائيلية إلى أصحابها إلا في القليل النادر ، مما يوهم القارئ أنه قليل النقل للإسرائيليات . والذي لا يعرف ما درج عليه الزمخشري في تفسيره من مصطلحات ومسلكه في التعامل مع مصادره يخطئ في الحكم عليه في هذا الجانب .

ففي موقفه من الإسرائيليات مثلا نجد محمد حسين الذهبي يحكم له بأنه مقل منها ، ثم يقول: ( وما يذكره من ذلك إما أن يصدره بلفظ "روي" المشعر بضعف الرواية وبعدها عن الصحة ، وإما أن يفوض علمه إلى الله سبحانه . )<sup>1</sup>

ونحن لا نسلم له هذا الحكم ، حيث نلاحظ أن الزمخشري يصدر كل مروياته بلفظ "روي" أو "قيل" ، القوي منها والضعيف ، بل حتى تلك الأحاديث المتفق عليها في الصحيحين يصدرها بمثل هذه الألفاظ ، ويتعقبها بعبارة " الله أعلم بصحته " وهو بذلك لا يريد بيان درجة الخبر بالضرورة ، لأنه ليس من أهل هذا الشأن حتى يستطيع أن يحكم

<sup>1</sup> . التفسير والمفسرون : 476/1

على حديث ما ، بل كثيرا ما يعني بهذه العبارة اعتراضه على معنى الحديث من جهة العقل لمخالفته لمذهبه .

ومن هنا نقول : إن الزمخشري قد نقل في تفسيره من الإسرائيليات ما شاع منها بين أغلب المفسرين ، وتعامل معها وفق منهج محدد ارتضاه لنفسه يتلخص في ما يأتي:

1- كان يجمع الروايات الواردة في الموضوع الواحد فيلخصها ويلفقها في رواية واحسدة طلبا للإيجاز، وهو الغالب في أكثر ما نقله في هذا الجانب .

فمن ذلك ما جاء في تفسري قوله تعالى : " قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ .." سورة هود : 80

حيث قال : ( فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا : يا لوط إن ركنك لشديد " إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ " ، فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا ، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له ، فقام في العسرة التي يكون فيها ، فنشر جناحه — وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم ، وهو براق الشايبا — فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم ، كما قال الله تعالى " فطمسنا أعينهم " فصاروا لا يعرفون الطريق ، فخرجوا وهم يقولون : النجاء النجاء فإن في بيت لوط قوما سحرة .<sup>1</sup>

وهو كلام ملخص وملفوق من عدة روايات مطولة رواها الطبري في تفسيره بإسناده عن وهب بن منبه وابن جريج .<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " واضربت لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث .." سورة يس : 13 — 14

قال الزمخشري : ( والمرسلون : رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها ، بعثهم دعواة إلى الحق ، وكانوا عبدة أوثان ، أرسل إليهم اثنين ، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار — صاحب يس — فسألهما فأخبراه ، فقال : أ معكما آية ؟ فقالا نشفي المريض ، ونبرئ الأكمه والأبرص ، وكان له ولد مريض — من سنتين ،

<sup>1</sup> . الكشاف : 415/2

<sup>2</sup> . الطبري ، جامع البيان : مج7 . 119/11 — 120

فمسحاه ، فقام ، فأمن حبيب وفشا الخير، فشفي على أيديهما خلسق كثير ، ورقى حديثهما إلى الملك ، وقال لهما: أَلنا إله سوى الهتنا ؟ قالوا: نعم ، من أوجدك وأهلك ، فقال : حتى أنظر في أمركما .. إلخ<sup>1</sup>

وقد روى مثل هذا الخبر الطبري بإسناده إلى كل من ابن عباس ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه<sup>2</sup> .

2 — وهو إذ يلخص هذه الروايات فإنه يتصرف فيها لفظاً ومعنى ، فتارة يضيف عبارة وتارة يحذف أخرى ، فرمما حذف عبارة في نص لا تليق بمقام الأنبياء وعصمتهم ، وأبقى على باقي القصة بما يضيف عليها الصحة والقبول ، وربما أبقاها كاملة على ما فيها .

ومن أغرب ما وقفت عليه من الإسرائيليات التي ينقلها الزمخشري دون أن يتعقبها بشيء ما أورده في تفسير قوله تعالى : " قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ " يوسف: 89

حيث قال : ( وروي أنهم لما قالوا : مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا إليه أرفضت عينك ثم قال هذا القول ، وقيل أدوا إليه كتاب يعقوب : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر ، أما بعد فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله .. وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله . )<sup>3</sup>

كما كرر إيراد هذا الخبر في تفسير قوله تعالى : " وَقَدِينَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ " <sup>4</sup> . وقد قال فيد ابن حجر: ( قال الدارقطني: موضوع ، وإسحاق كان يضع الحديث على ابن وهب )<sup>5</sup>

3 — ولا أراه من الصواب قول من قال : (أن الزمخشري كان ينه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ، ولو بطريق الإجمال ، وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به )<sup>6</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 8/4

<sup>2</sup> . جامع البيان : 190/12

<sup>3</sup> . الكشاف : 501/2

<sup>4</sup> . سورة الصافات : 107

<sup>5</sup> الكشاف : 57/4 هامش : 1

<sup>6</sup> . التفسير والمفسرون : 477/1

وهذا ليس على إطلاقه ، بل كان أحيانا يورد ما يمس بمقام الأنبياء وينقص من قدرهم ، ولا يتعقبه بشيء من النقد ، ولنا أن نتصور صحة هذا الحكم عندما نراه يورد في تفسير قوله تعالى " فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا .. " <sup>1</sup> ما ينبغي تزيه كتب التفسير عنه ، حيث قال : ( وروي أن الملائكة مرت عليه وهو مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ، ويقولون : يا بن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة ؟ ) <sup>2</sup>

فالقصة لا تمس مقام موسى فقط ، بل تمس مقام الملائكة أيضا ، والواجب هو تزيه موسى والملائكة معا عن مثل هذا .

بل كان ينقل أخبارا وقصصا مخالفة لصريح القرآن ، وللمشهور من الوقائع التاريخية ، دون أن ينبه على مدى قربها أو بعدها عن مدلول النص القرآني .

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون " سورة يوسف : 58

حيث تحدث عن السبب في عدم معرفتهم ليوسف لما رأوه ، وسبب معرفته لهم لما رأهم فقال : ( . . . وقيل رأوه على زي فرعون ، عليه ثياب الحرير جالسا على سرير ، في عنقه طوق من ذهب ، وعلى رأسه تاج ، فما خطر ببالهم أنه هو . وقيل ما رأوه إلا من بعيد ، بينهم وبينه مسافة وحجاب ، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج . وعرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ، ورأى زيهم قريبا من زيهم إذ ذاك ، ولأن همته كانت معسودة بهم وبمعرفتهم ، فكان يتأمل ويتفطن . وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له . ) <sup>3</sup>

فكل هذه الأقوال الثلاثة التي نقلها وسكت عنها لا تسلم من نقد .

1 - فقوله لم يعرفوا يوسف لأنه كان في زي فرعون خطأ من حيث أن يوسف عليه السلام كان سابقا لفرعون بمدة معتبرة ، ولقد نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون : " ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا .. " <sup>4</sup>

<sup>1</sup> . سورة الأعراف : 143

<sup>2</sup> . الكشاف : 155/2

<sup>3</sup> . الكشاف : 484/2

<sup>4</sup> . سورة غافر : 34



إلا إذا حملنا قوله هذا على أن إسم " فرعون " هنا إنما هو لقب لكل من تولى حكم مصر في تلك الحقبة التاريخية ، وليس لفرعون موسى عليه السلام .

2- قوله : ما رأوه إلا من بعيد ، دعوى بغير دليل ، ولم يدل القرآن على ذلك لا بالعبارة ولا بالإشارة ، بل ظاهر النص يخالف ذلك ، وهو قوله تعالى " فدخلوا عليه فعرفهم " .  
3- ونقله لقول الحسن البصري : — ما عرفهم حتى تعرفوا له — يخالف لقوله تعالى " فعرفهم وهم له منكرون " .

وفي تفسير قوله تعالى : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ قَالُوا سَأْتِلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا.."

سورة الكهف : 83

قال : ( ذو القرنين هو الإسكندر الذي ملك الدنيا ، قيل ملكها مؤمنان : ذو القرنين وسليمان ، وكافران : نمرود و بختنصر. )<sup>1</sup>

والذي عليه المفسرون أن ذا القرنين ليس هو الإسكندر ، لأن ذا القرنين رجل مؤمن بالله واليوم الآخر ، كان يفتح البلدان والأقاليم ليدعو إلى التوحيد والعمل الصالح ، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وأما الإسكندر الإغريقي فكان رجلا وثنيا ، وأن سيرته وسلوكه غير السني ذكره القرءان<sup>2</sup> .

4- ولم يكتف الزمخشري بذكر بعض هذه المرويات الغريبة والبعيدة عن مدلول النص ، حتى ذهب يحمل خصومه اختلاقها والترويع لها ، مع أن خصومه هؤلاء الذين رماهم بكل نقيصة إنما رووه بالسند المتصل إلى أصحابه ، بينما هو أسقط تلك الأسانيد .

ففي تفسير قوله تعالى : " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ .. " سورة يوسف : 24

ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، على أن المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حفظها من قضاء شهوتها منه ، وتوصله إلى ما هو حفظه من قضاء شهوته منها ، لولا أن رأى برهانه ربه ، فترك التوصل إلى حفظه من الشهوة ، وقد فسرهم يوسف بأنه حل الحميان ، وجلسس منها مجلس الجماع ، وبأنه حل تكة سرواله ، وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاهل

<sup>1</sup> . الكشف : 743/2

<sup>2</sup> . انظر : سيد قطب ، في ظلال القرآن : 2289/4 ، دار الشروق ، القاهرة ، ط 10 ، 1981 . نقل عن : الآثار الباقية عن القرون

الخلافة ، للبروني .

، وفسر البرهان بأنه سمع صوتا : إياك وإياها ، فلم يكثر له ، فسمعه ثانيا فلم يعمل به .  
 فسمع ثالثا : أعرض عنها ، فلم يجمع فيه ، حتى مثل له بعقوب عاضا على أظفاله ، وقيل  
 ضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله .. وقيل بدت كف فيما بينهما ليس لها  
 عضد ولا معصم ، مكتوب فيها " وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين " <sup>1</sup> فلم ينصرف ، ثم  
 رأى مكتوبا فيها " ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا " <sup>2</sup> فلم يته ، ثم رأى فيها "   
 واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله " <sup>3</sup> ، فلم يجمع فيه ، فقال الله لجبريل عليه السلام : أدرك  
 عبدي قبل أن يصيب الخطيئة ، فانخط جبريل وهو يقول : أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب  
 في ديوان الأنبياء.. إلى أن قال : وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشر والجبر الذين دينهم همت الله  
 وأنبيائه . وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقاتلهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل .

ولقد أحسن في الرد على هذه الأقوال حينما قال : ( ولو وجدت من يوسف — عليه  
 السلام — أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته . وعلى  
 داود ، وعلى نوح ، وعلى أيوب ، وعلى ذي النون ، وذكرت توبتهم واستغفارهم . كيف  
 وقد أثني عليه وسمي مخلصا ، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض . وأنه جاهد نفسه  
 بمجاهدة أولى القوة والعزم ، ناظرا في دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من الله التساء  
 فيما أنزل من كتب الأولين ، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومفسر .  
 لها .. ) <sup>4</sup>

ولكنه أساء في الوقت ذاته حينما قال : ( ولقد لفتت المبطلات روايات مصنوعة .. وذلك  
 لتهاكهم على همت الله ورسوله . ) و إذا كان الزمخشري يعني بالمبطلات أهل السنة ، فلا أدري  
 من هم أهل السنة عنده ، هل هم أولئك القصاص و الوضاعون الذين كذبوا ووضعوا .  
 فجعلهم هم أهل السنة ؟ أم هم أولئك الذين نقل عنهم الزمخشري نفسه واتخذ منهم مرجعا  
 للروايات التي اعتمدها في تفسيره ، وفي مقدمتهم كتاب " الكشف والبيان في تفسير

<sup>1</sup> . سورة الإنطار : 10

<sup>2</sup> . الإسراء : 32

<sup>3</sup> . سورة البقرة : 280

<sup>4</sup> . الكشف : 457/2

القرآن" للنعلي الذي كان حاطب ليل<sup>1</sup>، ومع ذلك فإن أغلب ما احتطبه النعلي بليسل كان من مروياته التي نقلها في الكشاف، وارتضاها، وقدمها على ما في الصحيحين. ولذلك رد عليه ابن المنير في هذا الموضوع فقال: ( ولقد صدق في التوريك على نقله هذه الزيادات بالبهت، وذلك شأن البطلنة من كل طائفة، كما لفقت القدرية على قصة موسى حين طلب الرؤية وخر صعقا، أن الملائكة جعلت تلكزه بأرجلها، وتقول: يا ابن النساء الحبيض طمعت في رؤية رب العزة<sup>2</sup>، كل ذلك ليتم لهم غرضهم في أنه طلب محالا في العقول على الله تعالى، ويحق الله الحق بكلماته ويطل الباطل<sup>3</sup> )

وواضح من كلام الزمخشري في هذا الموضوع أنه لم ينقل هذه المرويات ليفندما في حد ذاتها، وإنما لينال من خلالها من خصومه الذين حملهم مسؤولية اختلاقها وترويجها. وفي القليل النادر فقط كان الزمخشري ينسب مروياته من الإسرائيليات إلى أصحابها، وهو في ذلك يقتصر على أقطاب الروايات الإسرائيلية مثل كعب الأحبار، وعبد الملك بن جريج، ووهب بن منبه.

من ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: " وَإِذَا أَخْلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ" سورة البقرة: 14

فقال: ( وعن وهب: قال الله عز ورج فيما يعيب به بني إسرائيل، تفقهون لغير الدين، وتعلمون لغير العمل، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة<sup>4</sup> )

وفي تفسير قوله تعالى: " قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوُحْمًا تَسُرُّ النَّيَاطِرِينَ" سورة البقرة: 68

قال الزمخشري: ( وعن وهب: إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدتها .. )<sup>5</sup>

<sup>1</sup> . ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: 31

<sup>2</sup> . الكشاف: 155/2

<sup>3</sup> . الكشاف: 481/2 هامش: 4 ( الإنصاف )

<sup>4</sup> . الكشاف: 69/1

<sup>5</sup> . الكشاف: 150/1

ومن هذه النماذج وغيرها مما لم نذكره يتضح أن الزمخشري قد ضمن كشفه عددا معتبرا من الاسرائيليات ، على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، إلى جانب قلة تبعه لها بالنقد والتمحيص إلا في القليل النادر ، مما يقلل مرة أخرى من أهمية تفسيره من هذه الناحية .

## المبحث الثاني

### موقف أبي حيان من القصص والإسرائيليات

نقل أبو حيان بعضا من الإسرائيليات في تفسيره " البحر المحيط " ، وكان أغلب ما يرويه ينسبه لأصحابه ممن اشتهروا بمثل هذه المرويات كوهب بن منبه ، وكعب الأحمار، وعبد الملك بن جريج . ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " فوكره موسى فقضى عليه.." سورة القصص : 14

حيث قال : ( وعن ابن جريج : ليس لني أن يقتل ما لم يؤمر . وقال كعب : كان موسى إذ ذاك ابن اثني عشرة سنة ، وكان قتله خطأ ، فإن الوكرة في الغالب لا تقتل )<sup>1</sup> وفي تفسير قوله تعالى : " اذهب أنتَ وأخوك بآياتي ولا تَنبأ في ذِكْرِي .." سورة طه : 41 قال : ( قال وهب بن منبه ، قال الله لموسى عليه السلام : اتبع كلامي واحفظ وصييتي ، وانطلق برسالتني أركاك بعيني وسمعي ، وأن معك يدي ونصري ، وألبسك حنة من سلطاني تستكمل بها العزة في أمري . أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقي ، بطر نعمتي ، وأمن مكري ، وغرته الدنيا حتى جحد حقني ، وأنكر ربهويتي . أقسم بعزتي لولا الحجة والقدرة الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطش جبار.. ولكن هان علي وسقط من عيني،

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 109/7

فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي ، وقل له قولاً لنا ، فإن ناصيته بيدي ، لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي .. في كلام طويل ، قال: فسكت موسى سبعة أيام.<sup>1</sup> ويمكننا أن نرصد مسلك أبي حيان في تعامله مع الإسرائيليات في تفسيره كما يأتي:

1- كان لا يرجع إلى القصص الإسرائيلي إذا كان في مرويات السنة الصحيحة ما يفني عنه ، مع تبييه على ضرورة التزام هذا المسلك.

مثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: " فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقْنَاهَا.." سورة الكهف: 70

قال: ( وروي في كيفية ركوبهما السفينة وخرقها وسدها أقوال ، والمعتمد ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، قالاً<sup>2</sup>: فَاَنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلِمُوهُمُ أَنْ يَحْمِلُوهُمُ ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ ، فَلَمَّا رَكِبُوا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالْقُدُومِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : قَوْمٌ حَمَلُونَا مِنْ غَيْرِ نَوْلٍ عَمِدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتَفْرُقَ أَهْلَهَا — إِلَى قَوْلِهِ : عَسْرًا — قَالَ : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَكَانَ الْأَوَّلُ مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا ، قَالَ وَجَاءَ عَصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَتَقَرَّ ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ : مَا عَلِمِي وَعَلِمَكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعَصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ.)<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّنَةِ فَقَتَلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ" سورة البقرة: 64

حيث ذكر أقوال المفسرين وما نقلوه من قصص وأخبار في شأن الذين مسخوا قردة هل كان لهم نسل أم ماتوا بعد مسخهم ؟ ثم قال : وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال لمن سأله عن القردة والخنازير أهـي

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 237/6

<sup>2</sup> . رواه البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب التفسير ، باب قوله " وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين " . اطر فتح

الباري : 329/8

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 149/6

مما مسخ ؟ فقال<sup>1</sup> : لم يهلك الله قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لمسهم نسلاً ، وإن القردة  
والخنازير كانوا قبل ذلك.)<sup>2</sup>

2 — ويرى أبو حيان أن أغلب الإسرائيليات التي راجت في كتب التفسير هي من وضع  
الزنادقة وأعداء الدين ، وأنها مما يشوه وجه الشريعة ، ويذهب بإشراقه هديها ونورها ، ومن  
تم يرى عدم جواز نقلها في كتب التفسير إلا من باب بيان زيفها وتناقضها ، ومخالفتها لما يدل  
عليه القرآن من أخبار وأحكام . وهو هنا يلتقي مع الزمخشري في الطعن فيها وردّها ، فينقل  
عنه أحياناً ويستحسن كلامه ويقدمه .

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ الْقُرَابِ  
فَأُزَارِي سَوْآتِ أَنْجِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ " سورة المائدة : 33

قال أبو حيان وحكى المفسرون عجائب مما جرى بقتل هابيل ، من رجفان الأرض سبعة  
أيام ، وشرب الأرض دمه ، وتغير الطعمة وحموضة الفواكه ، ومرارة المساء واغترار الأرض  
وهروب قابيل بأخته إقليميا إلى عدن من أرض اليمن ، وعبادة النار ، وانهاك أولاده في اتخاذ  
آلات اللهو وشرب الخمر والزنا والفواحش ، حتى أغرقهم الله بالطوفان . والله أعلم بصحة  
ذلك . قال الزمخشري<sup>3</sup> : وروى أن آدم مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك ، وأنه رثاه  
بشعر ، وهو كذب بحت ، وما الشعر إلا منحول ملحون ، وقد صح أن الأنبياء معصومون  
من الشعر . وروى ميمون بن مهران عن بن عباس أنه قال : من قال أن آدم قال الشعر فهو  
كذب ، ورمى آدم بما لا يليق بالنبوة ، لأن محمداً أو الأنبياء — عليهم السلام — كلهم في  
النفي عن الشعر سواء ، قال تعالى<sup>4</sup> : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له .. " )<sup>5</sup>

ولما كان أبو حيان وقافا عند نصوص القرءان وصحاح السنة النبوية فإنه كان يزهّد في  
هذه المرويات ويرى ضرورة تزيه كتب التفسير عنها لأنها مما لا يضر الجهل بها ، ولا ينفع  
العلم بها ، وخاصة ما لا يدخل تحت مضمون النص القرءاني ، ويتضح هذا مما قاله في تفسير

<sup>1</sup> . رواه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب أن الأجمال والأرراق وغيرها لا تنفع عما سبق به القدر . 55/8

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 264/1

<sup>3</sup> . الكشاف : 626/1

<sup>4</sup> . سورة هـ : 68

<sup>5</sup> . البحر المحيط : 467/3

قوله تعالى : " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .. " سورة البقرة : 126

حيث قال : ( ذكر المفسرون في ماهية هذا البيت وقدمه وحدوثه ، ومن أي شيء كان باباه ، وكم مرة حجه آدم ، ومن أي شيء بناه إبراهيم ، ومن ساعده على البناء .. قصصا كثيرة ، واستطردوا من ذلك لكلام في البيت المعمور ، وفي طول آدم والصلع الذي عرض له ولولده ، وفي الحجر الأسود ، وطولوا في ذلك بأشياء لم يتضمنها القرعاني ، ولا الحديث الصحيح ، وبعضها يناقض بعضا ، وذلك جريا على عادتهم في نقل ما دب ودرج ، ولا ينبغي أن يعتمد إلا ما صح في كتاب الله وسنة رسوله . قال ابن عطية : والذي يصح في هذا كله أن الله أمر إبراهيم برفع قواعد البيت <sup>1</sup> .

قال أبو حيان : ونشأه في قوله : " أمر " إذ لم يأت النص بأن الله أمر بذلك .. <sup>2</sup> فهذه المشاحة من أبي حيان لابن عطية عندما حمل النص ما لا يحتمله ظاهره ، تبين عسر مدى حرص أبي حيان على الوقوف عند دلالة النص القرعاني ، وعدم مجاوزته فيما قل أو كثر إلى ما لا يحتمله من معنى .

3 - كما كان أبو حيان شديد اليقظة والتنبه لكل رواية من الروايات الإسرائيلية التي لها أدنى علاقة بما فيه غض من مقام النبوة ، وكان يصرح بأنه كان يجعل من عقله مصفاة لهذه الأخبار ، وإن كنا لا نوافقه في تحكيم العقل في كل شيء ، لأن العقل محدود ، ولا يمكن أن يكون حكما وحده في عالم الغيب وعالم الشهادة على حد سواء ، وإنما كان أكثر ما يرد من هذه المرويات من جهة العقل ، لأنه كان قليل البضاعة في علوم الحديث قليل الدراية بمسائله ، ولكنه يبقى مع ذلك أطول باعا من الزمخشري .

ففي تفسير قوله تعالى : " .. وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ " سورة ص : 23

قال أبو حيان ( ... ويعلم قطعا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منه ضرورة ، إذ لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك بطلت الشرائع ، ولم نشفق

<sup>1</sup> . ابن عطية ، المهر الوعيز ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، لبنان ط 1 ، 1993 م ، ج 1/210

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 387/1

بشيء مما يذكره أنه أوحى الله به إليهم ، فما حكى الله تعالى في كتابه يمر على مراده وما  
حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة طرحناه ، ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقل في كل شبهة إذا أثر الأخبار جلاس قصاص .<sup>1</sup>

وذهب إلى أبعد من هذا في تفسير قوله تعالى : " وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ  
جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ " سورة ص: 33

حيث قال: ( نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براعة الأنبياء منسها ،  
يوقف عليها في كتبهم ، وهي مما لا يخل نقلها ، وإنما هي من أوضاع اليهود والزنادقة ، ولم  
يبين الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان ، وأقرب ما قيل فيه أن المراد  
بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال فيه : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كسل  
واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن ، فلم تحصل إلا  
واحدة ، وجادت بشق رجل ، قال<sup>2</sup> رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسي  
بيده لو قال إن شاء الله ، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون .<sup>3</sup>

4 — وكان أبو حيان إلى جانب كل ذلك يزهد في الإشتغال بالإسرائيليات ، ويفر منها  
حتى وإن كانت لا تمس بالدين ، ويرى بأن على المفسر ألا يصرف جهده إلا فيما هو صحيح  
نقله ، نافع العلم به ، وما زاد عن ذلك وجب طرحه .

ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ  
الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ " سورة النمل: ٨٤

قال أبو حيان : ( والظاهر أن الدابة التي تخرج واحدة ، وروى أنه يخرج في كل بلد  
دابة مما هو مبثوث نوعها في الأرض وليست واحدة فيكون قوله "دابة" إسم جنس .  
واختلفوا في ماهيتها ، وشكلها ، ومحل خروجها ، وعدد خروجها ، ومقدار ما تخرج منها ،  
وما تفعل بالناس وما الذي تخرج به .. اختلافا مضطربا معارضا بعضها بعضا ،

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 393/7

<sup>2</sup> . رواه البحاري في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد ، باب من طلب الولد للجهاد ، انظر مع البحاري : 27/6

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 397/7



ويكذب بعضه بعضا ، فاطرحنا ذكره ، لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح وتضييع لزمان نقله .<sup>1</sup>

وهذا يتضح لنا من خلال مسلك أبي حيان الأندلسي في نقد هذه الإسرائيليات وتزييفها والتزهيد فيها أن تفسيره البحر المحيط يعد أنقى وأرقى من تفسير الكشاف في هذه الناحية ، بل يعتبر أرجح من كثير من التفاسير المقلدة من هذا النوع من المرويات ، لما فيه من تعقيبات وتنبهات نحسبه لم يسبق إليها .

ومع ذلك كله لم يسلم تفسير أبي حيان من بعض الروايات الباطلة والمكذوبة — على قلتها — وإن كانت مما لا مساس لها بالعقيدة أو الملة بصفة عامة ، بل هي مما لا يفني العلم به ولا يضر الجهل به ، كالقصة الواردة في أخبار إرم ذات العماد<sup>2</sup> ، والحديث المكذوب عن النبي — صلى الله عليه وسلم — في أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام في منامه<sup>3</sup> ، وتلك لازمة بشرية لا ينجو منها إلا من خصه الله بمقام العصمة .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 69/7

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 469/8

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 279/5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الفصل الرابع

مسلكهما في عرض أسباب العزول القرآني

## المبحث الأول مسلك الزمخشري في عرض أسباب التزول القرآني

ولما كان أسباب التزول القرآني مما يتلقى بالرواية خلفنا عن سلف ، إبتداء بالصحابة والتابعين فمن جاء بعدهم ، وأنه ليس مما يدرك بالنظر والإجتهد ، فإن العلماء قد سلكوه في زمرة التفسير بالمأثور ، ومن هنا رأينا أن نتحدث عنه في هذا الباب فنقول :

رجع الزمخشري إلى أسباب التزول في تفسيره لكثير من آيات القرآن الكريم ، وكان مسلكه في ذلك يقوم على ما يأتي :

1 — حذف الإسناد والسكوت عن المصادر .

2 — الإختصار والتصرف في قصص سبب التزول.

3 — قلة النقد والتعقيب على الروايات .

وفيما يأتي بيان ذلك بشيء من التفصيل.

1 — حذف الإسناد : سكت الزمخشري عن أسانيد الروايات التي أوردتها في أسباب

التزول القرآني ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فلم يذكر مصدرا أو مرجعا ممن مراجعته في ذلك ، وإنما يكتفي بقوله "روي" أو "قيل" في صدر كل رواية ، مما يقلل من أهمية ما

يرويه ويضعف من قيمته العلمية . لأن أسباب التزول القرآني مما يتلقى بالنقل والرواية ، ولا مدخل فيه للعقل والاجتهاد .

مثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " يُسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ.." سورة البقرة : 188

قال الزمخشري : ( وروي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا : يا رسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا ، لا يكون على حالة واحدة ؟ فترلت .<sup>1</sup> )  
وفي تفسير قوله : " وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُورَتُ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمُوتَى بَلَّ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا .. " سورة الرعد : 32

قال الزمخشري : ( وقيل إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — سير بقرءانك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فتتحذ فيها البساتين والقطائع ، كما سحرت لداود — عليه السلام — إن كنت نبيا كما تزعم ، فليست أهون على الله من داود ، وسحر لنا به الريح لتركبها وتجر إلى الشام ، ثم نرجع في يومنا ، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سحرت لسليمان — عليه السلام — أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا ، منهم قصي بن كلاب ، فترلت .<sup>2</sup> )

وهكذا سقط الزمخشري في مرويات باطلة في أسباب التزول ، منها ما هو ظاهر الفساد في متنه ، ومنها ما يعرفه أهل الدراية بأحوال الأسانيد والرجال .

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَسُوا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ " سورة البقرة : 13

قال الزمخشري : ( وروي أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفس من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال عبد الله : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد أبي بكر فقال : مرحبا بالصديق سيد مني تيم ، وشيخ الإسلام ، وثاني رسول الله في الفار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحبا

<sup>1</sup> . الكشاف : 234/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 530/2 . قال فيه ابن حجر : لم أحده هذا اليباق ، انظر الكافي الشاف . باهاتن : 3 من انصفحه عنها من معسر

بسيد بنى عددي الفاروق القوي في دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد علي فقال : مرحبا بابن عم رسول الله ، وختنه ، سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله . ثم افسر قوا فقال لأصحابه : كيف رأيتموني فعلت ، فأنتموا عليه خيرا ، فترلت .<sup>1</sup>

قال ابن حجر : ( أخرجه الواحدي في الأسباب من رواية السدي الصغير ، ومحمد بن مروان ، عن أبي صالح عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : نزلت هذه الآية في عبد الله وأصحابه ، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم .. فذكره ، وفي آخره : فرجعوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فترلت . ومحمد بن مروان متروك متهم بوضع الحديث ، وسياقه في غاية النكارة .<sup>2</sup>

فابن حجر يرى أن سند هذا الخبر ساقط ، كما أن متن القصة في غاية النكارة ، وذلك من عدة وجوه .. من ذلك البساطة في استغفال عبد الله بن أبي لهولاء الصحابة هذه العبارات بما يصور لنا درجة من السداجة كانوا عليها ، وهم بعيدون عن ذلك . ومنها أن نزول هذه الآية من مطلع سورة البقرة كان في أوائل الهجرة ، وزواج علي بفاطمة رضي الله عنهما جلس متأخرا عن ذلك .

ومع ذلك فقد ذكر هذا السبب الثعلبي ، وتبعه الواحدي ، وتبعهما الزمخشري ، ولم يبيده واحد منهم على ما فيه ، إلا أن السيوطي رواد في الدر المنثور ، وقال : بسد. واد<sup>3</sup> ، وهو محقق في ذلك ، وقد وصف ابن حجر هذا السند بقوله : ( هو سلسلة الكذب لا سلسلة الذهب ، وآثار الوضع عليه لائحة . )<sup>4</sup>

ونجد الزمخشري في هذا الجانب يخرج أحيانا عن المؤلف في فن الرواية وأحكامها بما يدل على بعده عن هذا الشأن ، ومن ذلك مثلا ما ذكره في سبب نزول قوله تعالى : " سَيُهِزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرُ " سورة القمر : 45

<sup>1</sup> . الكشاف : 65/1

<sup>2</sup> . الكافي الشاف في ترميز أحاديث الكشاف هامش : 1 على الكشاف : 65/1

<sup>3</sup> . السيوطي ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور : 31/1

<sup>4</sup> . محمد أبو شهبة ، الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ، مكتبة السنة ، الطبعة 4 ، 1407 هـ ، ص : 382

حيث قال الزمخشري : ( وعن أبي جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر فتقدم في الصف ، وقال : نحن نتصر اليوم من محمد وأصحابه ، فزلت " سيهزم الجمع .. " )<sup>1</sup> والمعروف في علم الرواية — إذا سلمنا بصحة هذه القصة — أن يسند الرواية إلى من رواها ونقلها من المسلمين ، لأنها رواية كافر ، فلا يجوز عن نفسه أو عن غيره ، أو علسي الأقل أن يقول الزمخشري : وروي أن أبا جهل ضرب فرسه يوم بدر .. أما أن يقول : وعن أبي جهل ، فلم يسبقه إلى هذا الصنيع أحد من أهل الرواية .

أما ما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآية فإن المشهور منه هو ما رواه الطبري وابن كثير وغيرهما أن هذه الآية وما بعدها نزل بمكة — أي قبل بدر بأعوام ، من ذلك ما نقله ابن كثير في تفسيره وغيره مما أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين — رضي الله عنها — أنها قالت : نزل على محمد — صلى الله عليه وسلم — بمكة ، وإني لجارية ألعب " بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر " <sup>2</sup> .

كما أخرج البخاري في صحيحه عن عكرمة قال : لما نزلت " سيهزم الجمع ويولون الدبر " قال عمر : أي جمع يهزم ؟ أي جمع يغلب ؟ ، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يثب في الدرع وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فعرفت تأويلها يومئذ .<sup>3</sup>

مما يستبعد معه نزول هذه الآية وما بعدها يوم غزوة بدر ، وهو ما بنى عليه الزمخشري تفسير الآية المذكورة .

ومثل هذا ما ذكره في سبب نزول قوله تعالى : " الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. " سورة التوبة : 108 قال الزمخشري : ( روي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يأتيهم ، فاتاهم فصلى فيه ، فحسدكم إخوتكم بنو غنم بن عوف ، وقالوا نبيي مسجدنا ، ونرسل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعصلي فيه ، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ، ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتكم ، وهو السدي

<sup>1</sup> . الكشاف : 441/4 .

<sup>2</sup> . انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : 281/6 .

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 281/6 . ومثله عند الطبري .

سماه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الفاسق ، وهو الذي قال لرسول الله يوم أحد : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلا يزال يقاتله إلى يوم حنين ..<sup>1</sup>

وواضح من سياق القصة على هذا النحو أنها باطلة من وجوه ، ويكفي أن نورد وجهها واحدا ، وهو ما ذكره ابن حجر حيث قال : ( لم أجد هذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد ، وليس صدره بصحيح ، فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي — صلى الله عليه وسلم — بقباء أول ما هاجر ، وبني مسجد الضرار وكان في غزوة تبوك ، فبينهما تسع سنين . )<sup>2</sup>

2 — الإختصار والتصرف ، تارة بالحذف والزيادة ، وتارة برواية قصة سب الترويل بالمعنى ، وهو في كل ذلك لا يخلو أن يكون متأثرا بمواقف سابقة من القصة ، والمعنى الذي يريد أن يوجه إليه الآية ، مما أوقعه في تحميل بعض الآيات من المعاني البعيدة والفاصلة التي كان ينبغي أن يتره تفسيره عنها .

من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ .. " سورة الأحزاب : 37

قال الزمخشري : ( " أمسك عليك زوجك " أي زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أبصرها بعدما أنكحها إياه ، فوقعست في نفسه ، فقال : سبحان مقلب القلوب ، وذلك أن نفسه كانت تجفرو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادها لاخطبها ، وسمعت زينب بالتسيبحة فذكرتها لزيد ، ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها ، والرغبة عنها لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فقال لرسول الله : إني أريد أن أفارق صاحبتي ، فقال — صلى الله عليه وسلم — : مالك ، أرابك شيء منها ؟ قال : لا والله ، ما رأيت منها إلا خيرا ، ولكنها تعظم علي لشرفها ، وتؤذي ، فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، ثم طلقها بعد ، فلما اعتدت قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : ما أجد أحدا أوثق في نفسي منك ، اخطب علي زينب ، قال زيد فانطلقت فإذا هي تخمر عجبيتها ، فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها حين علمت أن

<sup>1</sup> . الكشاف : 309/2

<sup>2</sup> . الكافي الشاف : بالهامش : 3 على الكشاف : 309/2

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذكرها ، فوليت ظهري ، وقلت يا زينب ، ابشروي إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخطبك ، ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن .<sup>1</sup>

فلا يخفى ما في هذه القصة من زيادات هي من وضع بعض الزنادقة ، لما فيها من أوصلف لا تليق بأبسط المؤمنين ، فكيف بالمعصوم — عليه الصلاة والسلام — كما أن الواقع يكذبها ، ولذلك قال ابن حجر في تخريج أصل القصة : ( ذكره الثعلبي بغير سند ، وأخرج الطبري معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وفي الصحيحين عن أنس قصة زيد مختصرة ، وليس فيها مما في أوله .)<sup>2</sup>

ولما تعلق الزمخشري بهذه الزيادات الفاسدة في سبب نزول هذه الآية ، فإنه ذهب مذهبا فاسدا أيضا في فهم أجزاء الآية وتوجيهها .

قال الزمخشري : ( فإن قلت : ما الذي أخفى في نفسه ؟ قلت تعلق قلبه بها ، وقيل مودة مفارقة زيد إياها .. وعن عائشة — رضي الله عنها — لو كنتم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — شيئا مما أوحى إليه لكنتم هذه الآية .<sup>3</sup>

ولم يقف الزمخشري عند هذا حتى راح يتكلف في توجيه سياق الآية لكي يستقيم أولها مع آخرها فقال : ( فإن قلت : فماذا أراد الله منه أن يقوله ، حين قال له زيد : أريد مفارقتها ، وكان من المهجنة أن يقول له : افعل ، فإنني أريد نكاحها ؟ قلت : كان الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك ، أو يقول له : أنت أعلم بشأنك ، حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته ، لأن الله يريد من الأنبياء تساوي الظاهر والباطن ، والتصلب في الأمور ، والتجلبوب في الأحوال ، والاستمرار على طريقة مستتبه ، كما جاء في حديث إرادة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قتل عبد الله بن أبي السرح ، واعتراض عثمان بشفاعته له ، أن عمر قال له : لقد كان عيني على عينك ، هل تشير إلي فأقتله ، فقال : إن الأنبياء لا تومض ، ظاهريهم وباطنيهم واحد .)<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 540/3

<sup>2</sup> . الكافي الشاف في تخرج أحاديث الكشاف ، الهامش : 1 على الكشاف : 541/3

<sup>3</sup> . أخرجه الترمذي في كتاب النفس ، سورة الأحزاب ، حديث رقم : 3261 وقال : حديث حسن صحيح .

<sup>4</sup> . الكشاف : 541/3 . والحديث قال فيه ابن حجر : لم أجده . انظر الهامش : 4 للصفحة نفسها .



ومهما تكلف الزمخشري في ربط آخر الآية بأولها بناء على ما ذهب إليه في سبب نزول الآية ، فإنه في حقيقة الأمر قد جانب الصواب ، ولا ندري كيف يوفق بين طرفي قوله تعالى " وتخفي في نفسك ما الله مبديه " إذا كان الذي يخفيه هو حبه لزينب ، والذي يريد الله تعالى إبداءه هو الحكم الشرعي المتعلق بإبطال التبني وآثاره في الحياة الاجتماعية وليس حبه لزينب ، فلا شك أن طرفي الآية لا يتلفان إلا إذا فهمنا أن الذي كان يخفيه الرسول — عليه الصلاة والسلام ، هو الحرج المترتب على كسر تلك العادة المستحكمة في المجتمع يومئذ ، والمتعلقة بالتبني ، ولو كان الذي يخفيه هو مجرد حبه لها ، وتطلعه إلى زواجه منها لما كان هذا الشطر من الآية متناسقا مع ما يأتي من الآيات الكريمة . وإن كان الزمخشري قد دافع عما ذهب إليه بعد ذلك في كلام مطول ، وبمنظرة لا تخلو من تأثير ظاهر بمذهبه الاعتزالي في التحسين والتقيح العقليين<sup>1</sup> .

والذي نراه أن لو وقف الزمخشري عند ما صرح واشتهر من سبب نزول هذه الآية لكفى نفسه هذا الدفاع ، وهذا التكلف الذي لا تدعو إليه الحاجة ، لأنه يتورك على رواية ظاهرة الفساد ، واتخذ منها أعداء الدين سلاحا حادا للنيل من شخص الرسول — صلى الله عليه وسلم — والطمع فيه .

وفي تفسير قوله تعالى : " إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " سورة القصص : 56

نجد الزمخشري يروي سبب نزول الآية بالمعنى مع تصرف كبير في نص القصة ، وهو في ذلك ناقل عن " معاني القرآنيان " للزجاج فيقول :

( قال الزجاج : أجمع للمسلمون أنها نزلت في أبي طالب ، وذلك أن أبا طالب قال عند موته : يا معشر بني هاشم ، أطيعوا محمدا وصلوه وتفلحوا وترشدوا ، ، فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ قال : فما تريد يا ابن أخي ؟ قال : أريد منك كلمة واحدة ، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا ، ، أن تقول " لا إله إلا الله ، أشهد لك بها عند الله ، قال : يا بن أخي ، قد علمت إنك لصادق ، ولكنني أكره أن يقال ، خرع عند الموت ، ، ولولا أن تكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي ، لقلتها ،

<sup>1</sup> . انظر الكشاف : 542/3 وما بعدها

، ولأقررت بها عينك عند الفراق ، لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ، ولكنني سوف أموت على ملة الأشياخ ، عبد المطلب ، وهاشم ، وعبد مناف .<sup>1</sup>

وقد علق ابن حجر على هذه القصة بقوله : ( لم أجده ، وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن ابنه بغير هذا السياق ، أو أخصر منه .<sup>2</sup>

3 — قلة تعقيبه على الأخبار التي يرويها في أسباب النزول ، وعدم تحقيقه في تاريخ السورول ومدى مطابقته للسبب المذكور ، وهو في ذلك ناقل وتابع لبعض من سبقه ، كما أنه يفتق رواية في أخرى دون أن ينصر على ذلك ، مما أوقعه في أكثر من خطأ في الموضع الواحد.

من ذلك ما أورده في سبب نزول قوله تعالى : " وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ .. " سورة طه : 131

حيث قال : ( وعن عبد الله بن قسيط عن رافع قال : بعثني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى يهودي وقال : قل له يقول لك رسول الله أقرضني إلى رجب ، ففسال والله لا أقرضته إلا برهن ، فقال رسول الله : إني لأمين في السماء ، وإني لأمين في الأرض ، احمل إليه درعي الحديد ، فتركت " ولا تمدن عينيك .. " )<sup>3</sup>

وإذا رجعنا إلى جامع البيان للطبري وجدنا رواية عبد الله بن قسيط عن أبي رافع ما نصه : ( قال أرسلني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى يهودي يستسلفه ، فأبى أن يعطيه إلا برهن ، فحزن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأنزل الله : " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم .. " )<sup>4</sup>

فلاحظ البون الشاسع بين الروایتين من حيث اللفظ ، وما يتبعه من تغيير في المعنى ، بل وحتى من حيث السند.

ولذا طعن ابن حجر في الرواية من وجهين :

الوجه الأول : أن الرواية التي اعتمدها الزمخشري في سندها موسى بن عبيدة الزبيدي ، وهو متروك.

<sup>1</sup> . الكشاف : 422/3

<sup>2</sup> . الكافي الشاف ، بالهامش : 3 على الكشاف : 422/3

<sup>3</sup> . الكشاف : 98/3 — 99

<sup>4</sup> . جامع البيان : 292/9

الوجه الثاني : أن هذه الآية من سورة طه ، وهي مكية كلها عند أهل العلم ، وهذه القصة إنما وقعت في المدينة كما في الصحيح ، وهي كذلك في رواية الطبري ، فلا أدري لماذا أسقط الزمخشري كلمة " المدينة " في روايته ؟

وأما الرواية التي هي قرية من حيث اللفظ إلى ما أورده الزمخشري فهي عن يعقوب بن يزيد عن أبي رافع قال : نزل برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ضيف فارساني إلى يهودي بالمدينة يستسلفه فأنته ، فقال لا أسلفه إلا برهن ، فأخبرته بذلك ، فقال : إني لأمين في أهل السماء وفي أهل الأرض ، فأحمل درعي إليه . فترلت<sup>1</sup> : ولقد آتيناك سبعا من اللثاني والقرآن العظيم " وقوله<sup>2</sup> " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم.." <sup>3</sup>

وعلى عادة الزمخشري نجده يورد روايات في غاية الضعف والغرابة ، بعضها من وضع غلاة الشيعة ، وبعضها الآخر من وضع الزنادقة والملحدين ، ولكنه يمر عليها وكأنها من الروايات المتواترة ، بل و يصدرها بصيغة توهم الجزم بصحتها .

من ذلك قصة النزول التي ارتبطت عند بعض المفسرين بقوله تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ.." " سورة الحج : 52

وأقصى ما فعله الزمخشري في هذا الموضوع أنه روى سبب النزول بالمعنى ، وتصرف في نص القصة بالحذف والزيادة بما يجعلها أقرب للصحة والقبول فقال : ( والسبب في نزول هذه الآية أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما أعرض عنه قومه وشاقود ، وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به ، ثم نفي لفرط ضجره من إعراضهم ، ولحرصه وتمالكه على إسلامهم ألا يتزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستترالهم عن غيهم وعنادهم ، فاستمر به ما تمناد حتى نزلت عليه سورة " والنجم " وهو في نادي قومه ، وذلك التمني في نفسه ، فأخذ يقرأها ، فلما بلغ قوله<sup>4</sup> " ومائة الثالثة الأخرى " ألقى الشيطان في أمنيته التي تمنأها ، أي وسوس إليه بما شيعها به ، فسبق لسانه على مسيل السهو والغلط إلى أن قال : " تلك الغرائيق العلى ، وإن شفاعتهن لسترجى " — وروي

1 . سورة الحجر : 87

2 . سورة طه : 129

3 . المصدر نفسه : 292/9

4 . سورة النجم : 20

الفرانقة — ولم يفتن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه . وقيل نبهه جبريل — عليه السلام — أو بكلم الشيطان بذلك فاستمع الناس ، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم ، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء زاد المنافقون به شكاً وظلمة ، والمؤمنون نوراً وإيقاناً <sup>1</sup>

فإذا كان الزمخشري قد قبل هذه الرواية ، وفسر الآية في ضوئها ، دون أدنى إشارة لمقالات أهل العلم فيها ، فإن أبا حيان قد ردها ، ناقلاً أقوال النقاد والمحدثين القاضية ببطلانها .

ومما نقله من مرويات غلاة الشيعة ما جاء في تفسير قوله تعالى: " إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ " سورة المائدة : 55

قال الزمخشري ( .. وإنما نزلت في علي — كرم الله وجهه — حين سأله سائل وهو راکع في صلاته ، فطرح له حاتم ، كأنه كان مرجاً في خنصره ، فلم يتكلف لخالعه كثير عمل تفسد بمثله الصلاة . فإن قلت كيف صح أن يكون لعلي رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة ؟ قلت : جيء به على لفظ الجمع ، وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً ، لسيرغب الناس في مثل فعله ، فينالوا مثل ثوابه ، ولينبه علي أن سحجة المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان ، وتفقد الفقراء ، حتى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة ، لم يوحروه إلى الفراغ منها) <sup>2</sup>

وزيادة على كون القصة باطلة ومصطنعة في رأي كثير من أهل العلم <sup>3</sup> ، فإن الزمخشري حاول أن يلبس بها معنى الآية ، ويجعلها عليها ولو بالباطل ، وهذا واضح من قوله : كأنه كان مرجاً في خنصره ... هي زيادة من عنده ليغطي على جانب من جوانب الضعف في القصة ، وكذا قوله : ليرغب الناس في مثل فعله .. حتى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة ، لم يوحروه إلى الفراغ منها .. فهو كلام يحتاج إلى دليل على مشروعيته

<sup>1</sup> . الكشاف : 164/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 649/1

<sup>3</sup> . قال ابن تيمية : ( .. وحديث علي الطويل في تصدقه بعماله في الصلاة ، فإنه مريض باتباع أهل العلم . ) انظر : مقدمة في أصول

التفسير : 31

من جهة ، ونحتاج إلى نقل صحيح عن علي رضي الله عنه ، ولا أحسب أنه يقع من علي رضي الله عنه مثل ذلك<sup>1</sup> .

ومن خلال هذه الأمثلة السابقة يتضح أن مسلك الزمخشري في عرض أسباب التزول في تفسيره الكشاف لم يكن أحسن صنيعة مما فعله في الجوانب السابقة من التفسير بالمأثور ، حيث كان هذا المبحث أيضا يعكس لنا قصر باع الزمخشري في جانب التفسير بالنقل ، وهو أحد نواحي النقص والضعف في تفسيره الكشاف ، علما بأن مسن فاته العلم بأسباب التزول القرآني فاته فهم شيء غير قليل من القرءان ، لأن معرفة السبب تسورث فهم المسبب .

## المبحث الثاني

### مسلك أبي حيان في عرض أسباب التزول القرآني

- اهتم أبو حيان بأسباب التزول القرآني ، ورجع إليه في تفسير كثير من آيات القرآن الكريم ، وكان منهجه يقوم على ما يأتي:
- حذف الإسناد مع الإحالة على المصدر.
  - الميل للإنتقاء و الإختصار .
  - الإهتمام بتمحيص الروايات ونقلها ، والوقوف عند الصحيح منها.
  - والأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .
- وفيما يأتي تفصيل ذلك :

<sup>1</sup> . انظر في تفصيل الرد على هذا الحديث وكشف زيفه ابن تيمية ، مهاج السنة النبوية ، دار الكتب العلمية ، بيروت : ج 4/3

١ - حذف الإسناد مع الإحالة على المصدر: كان أبو حيان يحذف الأسانيد في مروياته طلباً للإختصار ، و إكتفاء بالإحالة على المصادر المشهورة والمعتمدة في هذا الجانب ، وهذا ما درج عليه في تعامله مع أغلب ما أورده أسباب النزول .

ويأتي في مقدمة مراجعه هنا كتاب "التفسير" من الجامع الصحيح للبخاري ، والجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج ، فكان ينقل عنهما دون تلخيص أو تصرف .  
من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ .."  
سورة البقرة : 186

قال أبو حيان : ( سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري عن البراء : لما نزل صوم رمضان كله ، وكان رجال يخفون أنفسهم ففزلت<sup>١</sup> ، وقيل كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة ، فإذا صلاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه ما حل له قبل إلى القابلة ، وإن عمر وكعب الأنصاري وجماعة من الصحابة واقفوا أهلهم بعد العشاء الآخرة ، وأن قيس بن صرمة الأنصاري نام قبل أن يفطر ، وأصبح صائماً فغشي عليه عند انتصاف النهار ، فذكر ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - ففزلت<sup>٢</sup> )  
وفي تفسير قوله تعالى : " نَسَاؤُكُمْ حُرْتُ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتِكُمْ أَنِي شِئْتُمْ .." سورة البقرة : 221

قال أبو حيان : ( في البخاري ومسلم<sup>٣</sup> أن اليهود كانت تقول في الذي يأتي امرأته في دبرها أن الولد يكون أحول ، ففزلت ، وقيل سبب نزولها كراهة نساء الأنصار ذلك لما تزوجهم المهاجرون ، وكانوا يفعلون ذلك بمكة يتلذذون بالنساء مقبلات ومدبرات ، روى الحاكم في صحيحه : وقيل سبب ذلك أن بعض الصحابة قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - هلكت ، قال : وما الذي أهلكك ؟ قال حولت رحلي ، ففزلت<sup>٤</sup> )  
ومثل ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ .." سورة البقرة : 61

<sup>١</sup> . البخاري ، الجامع الصحيح : كتاب التفسير ، باب أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، انظر فتح الباري : 146/8

<sup>٢</sup> . البحر المحيط : 48/2

<sup>٣</sup> . البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب التفسير ، باب : نساؤكم حرت لكم ، انظر فتح الباري : 152/8

<sup>٤</sup> . البحر المحيط : 170/2

قال أبو حيان : ( نزلت في أصحاب سلمان ، وذلك أنه صحب عبادا من النصارى ، فقال له أحدهم إن زمان نبي قد أظلم ، فإن لحقته فآمن به ، ورأى منهم عبادة عظيمة ، فلما جاء النبي — صلى الله عليه وسلم — ذكر له خبرهم ، وسأله عنهم ، فنزلت هذه الآية . حكى هذه القصة مطولة ابن إسحاق ، والطبري <sup>1</sup> ، والبيهقي . وروى ابن عباس أنها نزلت في أول الإسلام . وقدر الله بها أن من آمن بمحمد — صلى الله عليه وسلم — ومن بقي على يهوديته ونصرانيته وصابئيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر فله أجره ، ثم نسخ ما قدر من ذلك بقوله <sup>2</sup> " وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا قَلْنُ يُقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " . <sup>3</sup>

وردت الشرائع كلها إلى شريعة محمد — صلى الله عليه وسلم — وروى الواحدي بإسناد متصل إلى مجاهد قال : لما قص سلمان على النبي — صلى الله عليه وسلم — قصة أصحابه وقال له هم في النار ، قال سلمان : فأظلمت علي الأرض فنزلت .. إلى " يحزنون " . قال فكانت ككشف عني جبل <sup>4</sup>

2 — ميله للإيجاز والاختصار: حيث كان يتحاشى الإسهاب والتطويل الذي درج عليه بعض من سبقه من المفسرين ، وكان من باب الأمانة العلمية يبين في كل موضع ما نقله نصا وما نقله اختصارا ، وهو في كل هذا الانتقاء والاختصار إنما يقتصر على ما يراه أنه الأصح والأشهر عند أهل العلم .

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: " يُسْأَلُونَكَ عَنِ الشُّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ " . سورة البقرة : 215

حيث قال : ( طول المفسرون في ذكر سبب نزول هذه الآية في عدة أوراق ، وملخصها وأشهرها أنها نزلت في قصة عبد الله بن جحش حين بعثه الرسول — صلى الله عليه وسلم — في ثمانية معه .. يترصدون عمير قريش ببطن نخلة فوصلوها ، ومرت العمير فيها عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ونوفل بن عبد الله ، وكان ذلك في آخر يوم من جمادى على ظنهم ، وهو أول يوم من رجب ، فرمى وافد عمرا بسهم فقتله

<sup>1</sup> ، جامع البيان : 458/1 — 460

<sup>2</sup> . سورة آل عمران : 84

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 240/1

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 240/1

، وكان أول قنيل من المشركين ، وأسر الحكم وعثمان ، وكان أول أسيرين في الإسلام ، وأفلت نوفل ، وقدموا بالعمير إلى المدينة ، فقالت قريش : استحل محمد الشهر الحرام ، وأكثر الناس في ذلك ، فوقف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العير ، وقال أصحاب السرية : ما نبرح حتى نترل توبتنا ، فترلت الآية ..<sup>1</sup>

ولكن ما يؤخذ على أبي حيان في هذا الموضع أنه كان أحيانا يميل إلى الاختصار الشديد الذي لا يفى بالفرض بحيث يكتفى بذكر مطلع القصة أو موضوعها ، ويسكت عن كثير من التفاصيل التي تذهب معها عظات ودروس مهمة ، وذات علاقة ببعض ما أحمل في النص القرآني ، مما يجعل حلفها يخل بتفسير الآية ، أو ربما كل السورة ، ولا يستطيع القارئ أن يلم بمعنى الآية عندئذ إلا إذا استعان بمصادر أخرى مما قد أحال عليها أبو حيان ككتيب السنة والسير وغيرها من تفاسير المتقدمين .

من ذلك ما جاء في تفسير سورة البروج حيث قال : ( وذكر المفسرون في أصحاب الأخدود أقوالا فوق العشرة ، ولكل قول منها قصة طويلة كسلنا عن كتابتها في كتابنا هذا ، ومضمونها أن ناسا من الكفار خلدوا أخدودا في الأرض وسجروا نارا ، وعرضوا للمؤمنين عليها ، فمن رجع عن دينه تركوه ، ومن أصر على إيمانه أحرقوه ، وأصحاب الأخدود هم المحرقون للمؤمنين )<sup>2</sup>

والمشهور من قصة أصحاب الأخدود أكثر من هذا بكثير<sup>3</sup> ، وفيها من العظات الإيمانية والدينية ما يزيد آيات السورة وضوحا وتأثيرا في النفس ، وهو غرض من أغراض المفسر لكتاب الله تعالى .

3 - الإهتمام بتمحيص الروايات ونقدها ، والوقوف عند الصحيح منها : حيث كان أبو حيان ينقل أسباب النزول ، ثم يكر على الضعيف منها فيعلن فساده ، ويحذر من تداوله ونقله ، ويعتبره من المآخذ التي يسجلها على من سبقه من المفسرين .<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 170/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 451/8

<sup>3</sup> . انظر ابن كثير ، تفسير القران العظيم : 141/7 - 145



من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ " سورة الأحزاب : 37

حيث ذكر الأقوال التي تناقلها المفسرون في سبب نزول الآية ، ثم اختار منها ما روي عن الحسين بن علي أنه قال : كان قد أوحى الله إليه أن زيدا سيطلقها ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما شكها زيد خلقها ، وأما لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد تطبيقها ، قال له : أمسك عليك زوجك واتق الله — على طريق الأدب والوصية — وهو يعلم أنه سيطلقها ، وهذا هو الذي أخفى في نفسه ، ولم يرد أنه يأمره بالطلاق . ولما علم من أنه سيطلقها وخشي رسول الله أن يلحقه من قول الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولود ، وقد أمره بطلاقها فعاتبه الله على هذا القدر في شيء قد أباحه الله بأن قال : أمسك ، مع علمه أنه يطلق ، فأعلمه الله أنه أحق بالخشية في كل حال .

ثم قال أبو حيان : ( وهذا المروي عن علي بن الحسين هو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين كالزهري ، وبكر بن العلاء ، والقشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم . ولبعض المفسرين كلام في الآية يقتضي النقص من منصب النبوة ضربنا عنه صفحا )<sup>1</sup> ومثل هذا أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. " سورة البقرة : 114

حيث نقل أقوال السلف في سبب نزولها فقال :

(قال الحسن وقتادة : أباح لهم في الابتداء أن يصلوا حيث شاءوا ففسخ ذلك . وقال مجاهد والضحاك : إشارة إلى الكعبة ، أي حيثما كنتم من المشرق والمغرب فسانتم قادرون على التوجه إلى الكعبة . وعلى هذا فهي ناسخة لبيت المقدس . وقال أبو العالية وابن زيد : نزلت جوابا لمن عمير من اليهود بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة .

وقال ابن عمر : نزلت في صلاة المسافر حيث توجهت به دابته ..  
وقيل في الصلاة على النجاشي ، حيث قالوا : لم يكن يصلي إلى قبلتنا ،

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 234/7

وقيل فيمن اشتبهت عليه القبلة في ليلة غائمة، فصلوا بالتحري إلى جهات مختلفة . وقد روي ذلك في حديث عن جابر أن ذلك وقع في سرية ، وعن عامر بن ربيعة أن ذلك جرى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في السفر . ولو صح ذلك لم يعدل إلى ما سواه من هذه الأقوال المختلفة والمضطربة .

ثم قال أبو حيان : وهذه أقوال كثيرة في سبب نزول هذه الآية ، وظاهرها التعارض ، ولا ينبغي أن يقبل منها إلا ما صح ، وقد شحن المفسرون كتبهم بنقلها . وقد صنف الواحد في ذلك كتابا ، فما يصح فيه شيء ، وكان ينبغي ألا يشتغل بنقل ذلك .<sup>1</sup> ثم يخلص أبو حيان بعد كل تلك الأقوال إلى رأي جديد في معنى تلك الآية استمده من ظاهر الآية وسياقها ومناسبتها لما قبلها فقال : (والذي يظهر أن انتظام هذه الآية بما قبلها هو أنه لما ذكر منع المساجد من ذكر الله والسعي في تخريبها نبه على أن ذلك لا يمنع من أداء الصلاة فيها ولا من ذكر الله إذ المغرب والمشرق لله تعالى ، فأى جهة أدتكم فيها العبادة ، فهي لله يثيب على ذلك ، ولا يختص مكان التأدية بالمسجد ، والمعنى: والله بلاد المشرق والمغرب وما بينهما ، فيكون على حذف المعطوف ، أو اقتصر على ذكرهما تشريفا لهما حيث أضيفا لله تعالى . . .)<sup>2</sup>

وفي قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. " سورة المائدة : 69

قال أبو حيان : ( قال محمد بن كعب القرظي : نزلت بسبب الأعرابي الذي اختلط سيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليقنته ، انتهى ، وهو غورت بن الحرت ، وذلك في غزوة ذات الرقاع .

وروي المفسرون<sup>3</sup> أن أبا طالب كان يرسل رجلا من بني هاشم يجرسونه حتى نزل قوله : " والله يعصمك من الناس " فقال : إن الله قد عصمني من الجن والإنس ، فلا احتاج إلى من يجرسوني .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 360/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 360/1

<sup>3</sup> . القرظي ، الملصق لأحكام القرمان ، دار إحياء التراث العرب ، بيروت ، 1985م ، ج 244/9

وقال ابن جريج : كان يهاب قريشا ، فلما نزلت استلقى وقال : من شاء فليخذلني ،  
مرتين أو ثلاثا .

وروى أبو أمامة حديث ركاة — وكان مشركا — وكان أفنك النساس وأشدهم ،  
تصارع هو والرسول ، فصرعه الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثلاثا<sup>1</sup> ، ودعا إلى  
الإسلام فسأله آية ، فدعا الشجرة فأقبلت إليه وقد انشقت نصفين ، ثم سأله ردها إلى  
موضعها فالتأت وعادت ، فالتمسه أبو بكر وعمر ، فدلا عليه أنه خرج إلى واد أضمر حيث  
ركاة ، فسارا نحوه واجتمعا به ، وذكرهما أخفا الفتك من ركاة ، فأخبرهما خبيره  
وضحك ، وقرأ : "والله يعصمك من الناس" . وهذا وما قبله يدل على أن ذلك نزل بمكة ،  
أو في ذات الرقاع ، والصحيح أنها نزلت بالمدينة والرسول مقيم بها شهرا ، وحرسه سعد  
وحذيفة ، فنام حتى غط ، فنزلت فأخرج إليهما رأسه من قبة آدم وقال : انصرفوا أيها النساس  
فقد عصمني الله<sup>2</sup> ، لا أبالي من نصرني ومن خذلني .

وأصل هذا الحديث في صحيح مسلم . وأما شج حيينه وكسر ربايعته يوم أحد فقيل الآية  
نزلت بعد أحد ، وأما إن كانت قبله ، فلم تتضمن العصمة هذا الإبتلاء ونحوه — من أذى  
الكفار بالقول ، بل تضمنت العصمة من القتل والأسر ، وأما مثل هذا ففيه الإبتلاء الذي فيه  
رفع الدرجات ، واحتمال كل أذى دون النفس في ذات الله ، وابتلاء الأنبياء أشد وما أعظم  
تكليفهم .<sup>3</sup>

١ — الأخذ بعموم المعنى لا بخصوص السبب : وهو بذلك لا يعني إهمال أنسر أسباب  
التزول في إيضاح المعاني وبيان الراجع منها ، بل كثيرا ما كان يحتكم لأسباب التزول في فض  
نزاع أو دفع تعارض ، أو تقلص الحقيقة على الجواز ، أو عكس ذلك .  
من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَلَيْتَ الْبُرُّ أَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ  
الْبُرَّ مِنْ آتَقَى.." سورة البقرة : 188

١ . وعند ابن كثير : ( وقد قيل إن أبا الأشدين واسمه كلدة بن أسيد بن حلف .. وكان قد بلغ من القوة فيما برعمون أنه كان يقف  
على جلد البقرة ويجاذبه ليعوره من تحت قدميه فيترق الجلد من تحت قدميه ولا يترح عنه ، قال السهلي : وهو الذي دعا  
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى مصارعة ، وقال إن صرعتي آمنت بك ، فصرعه النبي صلى الله عليه مرارا فلم يؤمن ، قال :  
وقد نسب ابن إسحاق حرم المصارعة إلى ركاة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب . ) تفسير القرطبي المعظم : 89/7

٢ . أخرجه الترمذي ، كتاب التفسير ، سورة المائدة ، وقال : هنا حديث عريب . حديث رقم : 5037

٣ . البحر المحيط : 530/3

حيث نقل مختلف الأقوال في سبب نزولها ثم قال : ( وملخص هذه الأسباب أن الله تعالى أنزل هذه الآية رادا على من جعل إتيان البيوت من ظهورها برا ، أمرا بإتيان البيوت من أبواها ، وهذه أسباب تضافرت على أن البيوت أريد بها الحقيقة ، وأن الإتيان هو المحمي إليها ، والحمل على الحقيقة أولى من ادعاء المجاز ، مع مخالفة ما تضافر من هذه الأسباب.)<sup>1</sup>

في حين نجد الزمخشري يقفز على هذه الأسباب ويورد احتمال المجاز ولو من غير قرينة توجب صرف الكلام عن حقيقته ، فقال : ( ويحتمل أن يكون هذا لتعكيهم في سؤالهم ، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره ، والمعنى : ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم ، ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ، ولم يجسر على مثله ، ثم قال : " وأتوا البيوت من أبواها " أي وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا ، والمراد وجوب توطين النفوس ، وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك ، حتى لا يسأل عنه ، لما في السؤال من الإتهام بمفارقة الشك " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون " )<sup>2</sup> .<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ " سورة البقرة : 167

قال أبو حيان ( قال الحسن : نزلت في كل من حرم على نفسه شيئا لم يحرمه الله عليه . وروى الكلبي ومقاتل وغيرهما أنها نزلت في ثقيف وخزاعة وبني الحارث بن كعب ، قاله النقاش . وقيل في ثقيف ، وخزاعة ، وعامر بن صعصعة . قيل وبني مدلج حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام وحرموا البحيرة والسوائب والوصيلة والحمام . فإن صح هذا كذلك السبب خاصا واللفظ عاما ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.)<sup>4</sup>

وإذا رجعنا إلى الكشف للزمخشري في تفسير هذه الآية وجدناه يعالج منها الناحية اللغوية والإعرابية والقراءات ، ويكتفي بذلك ، دون أن يذكر شيئا من أسباب نزولها ، لا باللفظ ولا

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 63/2

<sup>2</sup> . سورة الأنبياء : 23

<sup>3</sup> . الكشف : 234/1

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 478/1

بالمعنى ، وهذا قد نخل بتفسير الآية أو ينقص منه ، لأن معرفة سبب التزول يسورث معرفة المسبب .

قال الزمخشري ما نصه : ( " حلالا " مفعول " كلوا " أو حال مما في الأرض " طيبا " طاهرا من كل شبهة " ولا تتبعوا خطوات الشيطان " فتدخلوا في حرام أو شبهة ، أو تحريم حلال ، أو تحليل حرام ، ومن للتبويض ، لأن كل ما في الأرض ليس بماكول . وقرئ " خطسوات " بضمين ، وخطوات بضممة وسكون . و " خطوات " بضمين وهمزة ، جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو . وخطوات بفتحين ، وخطوات بفتح وسكون . والخطوة : المرة من الخطو ، والخطوة ما بين قدمي الخاطي ، وهما كالغرفة والغرفة ، والقبضة و القبضة ، يقال : اتبع خطواته ، ووطئ على عقبه : إذا اقتدى به واستن بسنته .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " سورة البقرة : ٢٧٤

قال أبو حيان : ( قال عكرمة : نزلت في الأنصار أمسكوا عن النفقة في سبيل الله ، وقلل النعمان بن بشير : كان الرجل يذنب الذنب فيقول : لا يغفر الله لي فترلت ، وفي حديث طويل تضمن أن رجلا من المسلمين حمل على صف الروم ودخل فيهم وخرج فقال الناس : ألقى بنفسه إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب الأنصاري : تأولتم الآية على غير تأويلها ، وما أنزلت هذه الآية إلا فينا نحن معشر الأنصار ، لما أعز الله دينه قلنا : لو أقمنا نصلح ما ضاع من أموالنا ، فترلت .

وفي تفسير " التهلكة " أقوال ، أحدها : ترك الجهاد والإخلاق إلى الراحة وإصلاح الأموال ، قاله أبو أيوب . الثاني : ترك النفقة في سبيل الله خوف العيلة ، قاله حذيفة وابسن عباس والحسن وعطاء وعكرمة وابن جبير . الثالث : التقحم في العدو بلا نكاية ، قاله أبو القاسم البلخي . الرابع : التصديق بالخيث ، قاله عكرمة ، الخامس : الإسراف بإنفاق كل المال ، قال تعالى " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا .. " السادس : الإنمماك في المعاصي لياسه من قبول التوبة ، قاله البراء . السابع : القنوط من التوبة قاله قوم . الثامن : السفر للجهاد بغير زاد ، قاله زيد بن أسلم ، وقد كان فعل ذلك قوم فأداهم إلى الانقطاع في الطريق أو إلى

<sup>1</sup> . الكشاف : 213/1

كوتهم عالية على الناس . التاسع : إحباط الثواب إما بالمن أو الرياء والسمة كقوليه " ولا تبطلوا أعمالكم . " <sup>1</sup>

قال أبو حيان : ( وهذه الأقوال كلها تحتل هذه الآية ، والظاهر أنهم نحوها عن كل ما يؤول بهم إلى الهلاك في غير طاعة الله تعالى ، فإن الجهاد في سبيل الله تعالى مفض إلى الهلاك ، وهو القتل ، ولم ينه عنه ، بل هو أمر مطلوب موعود عليه بالجنة ، وهو من أفضل الأعمال المتقرب بها إلى الله تعالى . ) <sup>2</sup>

وإذا رجعنا إلى الكشاف للزمخشري وجدناه يذكر الأقوال التي نقلها أبو حيان ، ولكنه لم ينسب قولاً واحداً لصاحبه ، ثم ذكر سبب التزول للمروي عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب الأنصاري : نحن أعلم بهذه الآية ، وإنما نزلت فينا ، صحبنا رسول الله - ص - فنصرناه ، وشهدنا معه المشاهد ، وآثرناه على أهالينا وأموالنا وأولادنا ، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها ، رجعنا إلى أهالينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها ، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال ، وترك الجهاد . <sup>3</sup>

فنقل الزمخشري سبب التزول ، وقصر معنى " التهلكة " في الآية على قول أبي أيوب رضي الله عنه : فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد . مع أن معنى الآية أشمل من ذلك ، أخذنا بالقاعدة الأصولية " العبرة بعموم المعنى لا بخصوص السبب " التي درج عليها أبو حيان في تعامله مع أسباب التزول القرآني .

ومن خلال ما بيناه في مسلك الزمخشري في عرض أسباب التزول القرآني وما فيه مسن نقائص ، ومسلك أبي حيان في هذا الجانب وما يميز به من محاسن عن سابقه ، وما أوردناه في كل ذلك من شواهد ، يتضح مرة أخرى تفوق أبي حيان على الزمخشري ، وتقدمه عليه سواء في دقة النقل والأمانة العلمية في الإحالة على مصادره في هذه المرويات ، أو في تعامله وحسن توظيفه لأسباب التزول في توجيه النص القرآني وتفسيره .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 70/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 70/2

<sup>3</sup> . الكشاف : 237/1

## الفصل الخامس

مسلكهما في مباحث القراءات القرآنية

# المبحث الأول

## مسلك أبي حيان في القراءات القرآنية

ولما كانت القراءات القرآنية مما تلقاه الأمة خلفا عن سلف ، وأنها مما تلقاه الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن جبريل عليه السلام ، عن ربه عز وجل ، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة ، وأنه لا مدخل فيها للرأي والاجتهاد ، كان من الطبيعي أن ألحق الكلام عن القراءات عند المفسرين بهذا الباب وهو " التفسير بالمأثور " فأقول:

اشتغل كل من أبي حيان والزمخشري بالقراءات القرآنية لما لها من صلة قوية بالمباحث اللغوية والنحوية من جهة ، ولما لها من أثر في توجيه الآيات القرآنية إلى المعاني المحتملة ، وترجيح بعضها على بعض من جهة أخرى ، وما يكون لهذا كله من أثر واضح في اختلاف الفقهاء والمجتهدين ، و معرفة الراجح والمرجوح من أقوالهم ، وفي ما يلي بيان مسلك كل واحد منها في التعامل مع القراءات القرآنية مع الموازنة بينهما ، وأبدأ ببيان مسلك أبي حيان في عرض القراءات القرآنية في تفسيره البحر المحيط لما كان لجهد من أثر بارز من هذا الجانب .

اهتم أبو حيان في كتابه البحر المحيط بالقراءات القرآنية اهتماما ينبئ عن مدى تمكنه من هذا العلم ونبوغه فيه ، وقد ذكر في المقدمة ابتداء صلته المبكرة بعلم القراءات ، وهو شيء طبيعي ، لأن بلاد الأندلس قد ظلت تحتل الصدارة في العالم الإسلامي في علم القراءات لعدة قرون ، وأغلب الإنتاج العلمي في هذا العلم كان أندلسيا بلا منازع ، ولما انتقل إلى مصر — حاضرة العلم يومئذ — تلقى فيها مختلف القراءات على جلسة من شيوخها ، حتى صار من أعلام هذا الفن . وقد ذكر أسانيد المتصلة إلى القراء السبعة فقال: ( وقد تقدم أني قرأت كتاب الله تعالى على جماعة من المقرئين رحمهم الله تعالى ، وأنا الآن أسند قراءتي القرآن من بعض الطرق .. فأقول : قرأت القرآن برواية ورش ، وهي القراءة التي نشأ عليها في بلادنا — أي الأندلس — وتعلمها في المكتب على المسند للمعمر العدل أبي طاهر ، إسماعيل بن هبة الله ، بن علي ، المليحي ، وقرأتها على أبي الجسود غياث بن فارس بن مكى المنذري بمصر ، وقرأتها على أبي الفتح ناصر بن الحسن بن غياث بن إسماعيل الزبيدي بمصر ، وقرأتها على أبي الحسن يحيى بن علي بن أبي الفرج الخشاب بمصر



، وقرأها علي أبي الحسن أحمد بن سعيد بن نفيس بمصر ، وقرأها علي ابن عدي عبد العزيز بن عل بين محمد ، عرف بابن الإمام بمصر ، وقرأها علي أبي بكر بن عبد الله بن مالك بن سيف بمصر ، وقرأها علي أبي يعقوب بن يوسف بن عمرو بن يسار — ويقال يسار الأزرق — بمصر ، وقرأها علي أبي عمرو عثمان بن سعيد عدي الملقب بسورس بمصر. وقرأها علي أبي عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم بمدينة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقرأ نافع علي أبي جعفر يزيد بن القعقاع بمدينة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقرأ يزيد علي عبد الله بن عياش بن ربيعة المخزومي بمدينة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقرأ عبد الله علي أبي المنذر أبي بن كعب بمدينة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقرأ أبي علي رسول الله — صلى الله عليه وسلم .<sup>1</sup>

ثم قال أبو حيان : ( هذا إسناد صحيح دائر بين مصري ومدني ، فمن شـيـخـي إلى ورش مصريون ، ومن نافع إلى من بعده مدنيون . ومثل هذا الإسناد عزيز الوجود بيني وبين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة عشر رجلا . وهذا من أعلى الأسانيد التي وقعت لي . وقد وقع لي في بعض القراءات أن بيني وبين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اثنا عشر رجلا ، وذلك في قراءة عاصم ، وهي القراءة التي ينشأ عليها أهل العراق ، وهو إسناد أعلى ما وقع لأمثالنا .. ) ثم ذكر سنده إلى عاصم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .<sup>2</sup>

كما أفرد أبو حيان كل قراءة من القراءات العشرة بمولف مستقل ، وهو عمل لم يسبق إليه ، ثم ألف كتابا جامعا في القراءات وسماه " عقد اللآلئ في القراءات السبع العوالي " علي طريقة الشاطبية ، وقد لقيت القبول الواسع عند أهل العلم ، وإن كانت دون الشاطبية في الرواج والشهرة ، فكان يحيل عليه في مواضع كثيرة من تفسيره .<sup>3</sup>

وبهذا كان يتبوأ مكانة متقدمة في سلك القراء ، فكان ابن الجزري ينهجه في كتابه " منجد المقرئين " بأستاذ القراء ، وترجم له الذهبي في كتابه " معرفة القراء الكبار ، فوصفه بالإمام الأوحد في هذا العلم .<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 11/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 11/1

<sup>3</sup> . انظر مثلا البحر المحيط : 46/3 ، 317/2

<sup>4</sup> . انظر : مبحث "مكاتب العلمية" في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا البحث .

وقد تجلّى رسوخ أبي حيان في علم القراءات ونبوغه في الجوانب الآتية :

١ - معرفته بأعلام المقرئين ومكانتهم ودرجاتهم ابتداء من الصحابة رضي الله عنهم فمن جاء بعدهم إلى عصره ، وهذا مكنه من فهم مذاهبهم في وجوه وطرق القراءات ، وحسن الدفاع عنهم ضد الطاعنين عليهم بغير علم .

من ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى: " إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا.." سورة البقرة : 69 حيث أحصى القراءات الواردة في هذا المقطع من الآية ، وهي اثنتا عشرة قراءة ، مع نسبة كل قراءة إلى من قرأها ، ثم قال : وتوجيه هذه القراءات ظاهر ، إلا قراءة ابن أبي إسحاق " تشابهت " فقال بعض الناس : لا وجه لها . وتبين ما قاله أن تشديد الشين إنما يكون بإدغام التاء فيها ، والماضي لا يكون فيه تاءان ، فتبقى إحداها وتتحذف الأخرى . ويمكن أن توجه هذه القراءة على أن أصله : " إشابهت والتاء هي تاء البقرة ، وأصله : إن البقرة اشابهت علينا ، ويقوي ذلك لحاق تاء التأنيث في آخر الفعل . أو اشابهت أصله : تشابهت فأدغمت التاء في الشين واحتابت همزة الوصل ، فحين أدرج ابن أبي إسحاق القراءة صار اللفظ : إن البقرة اشابهت علينا ، فظن السامع أن تاء البقرة هي تاء الفعل ، إذ النطق واحد ، فتوهم أنه قرأ : " تشابهت " ، وهذا لا يظن بأبي إسحاق ، فإنه رأس في علم النحو ، ومن أخذ النحو عن أصحاب أبي الأسود الدؤلي - مستنبط علم النحو - وقد كان ابن أبي إسحاق يزري على العرب وعلى من يستشهد بكلامهم كالفرزدق إذا جاء في شعرهم ما ليس بالمشهور في كلام العرب ، فكيف يقرأ قراءة لا وجه لها ؟<sup>١</sup>

وفي قوله تعالى : " وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعْلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ.." سورة النساء : ١

عرض رأي كل من الزمخشري وابن عطية في القراءات الواردة في الآية واعتراضا قلم على بعض الوجوه من تلك القراءات من منطلق نحوي بحت ، فرد عليهم بقوله : ( وما ذهب إليه أهل البصرة وتبعهم فيه الزمخشري وابن عطية من امتناع العطف على الضمير المحرور إلا بإعادة الجار ، ومن اعتلأهم لذلك غير صحيح ، بل الصحيح مذهب الكوفيين في ذلك ، وأنه يجوز ، وقد أطلنا الاحتجاج في ذلك عند قوله تعالى<sup>٢</sup> : " وَكُفِّرْ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " ، وذكرنا ثبوت ذلك في لسان العرب نثرها ونظمها ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا ، وأما قول ابن عطية

<sup>١</sup> . البحر المحيط : 254/2

<sup>٢</sup> . سورة البقرة : 217 ، وفي البحر المحيط : 71/2

: ويرد عندي هذه القراءة من المعنى وجهان<sup>1</sup>، فحسارة قبيحة منه ، لا تليق بحاله ولا بطهارة لسانه ، إذ عمد إلى قراءة متواترة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ بها سلف الأمة ، واتصلت بأكابر قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن من في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بغير واسطة ، عثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأقرأ الصحابة أبي بن كعب ، عمد إلى ردها بشيء خطر له في ذهنه ، وحسارته هذه لا تليق إلا بالمعتزلة كالزحشري ، فإنه كثيرا ما يطعن في نقل القراء وقراءتهم . وحمزة رضي الله عنه أخذ القراءة عن سليمان بن مهران الأعمش ، وحمدان بن أعين ، ومحمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وجعفر بن محمد الصادق ، ولم يقرأ حمزة حرفا من كتاب الله إلا بأثر ، وكان حمزة صالحا ورعا ثقة في الحديث ، وهو من الطبقة الثالثة ، ولد سنة ثمانين ، وأحكم القراءة وهو ابن خمس عشرة سنة ، وأم الناس سنة مائة ، وعرض عليه القرآن من نظرائه جماعة ، منهم سفيان الثوري ، والحسن بن صالح ، ومن تلاميذه جماعة ، منهم إمام الكوفة في القراءة والعربية أبو الحسن الكسائي . وقال الثوري وأبو حنيفة ونجى بن آدم : غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض .<sup>2</sup>

قال أبو حيان : ( وإنما ذكرت هذا وأطلت فيه ، لئلا يطلع عمر على كلام الزحشري وابن عطية في هذه القراءة ، فيسيء ظناهما ، ويقارنهما ، فيقارب أن يقع في الكفر بالطعن في ذلك ، ولسنا متعبدين بقول نخاة البصرة ، ولا غيرهم ممن خالفهم ، فكم حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب لم ينقله البصريون ، وكم حكم ثبت بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون وإنما يعرف ذلك من له استبحار في علم العربية ، لا أصحاب الكنائس المشتغلون بأصناف من العلوم ، الآخذون عن الصحف دون الشيوخ .)<sup>3</sup>

ولم يكن أبو حيان في موقفه هذا متحاملا بالباطل على ابن عطية والزحشري ، أو غيرهما ممن يتساهل في الطعن في القراءات القرآنية الثابتة أو ردها ، وإنما هو تابع في ذلك للمتخصصين العارفين بهذا العلم ، الذين يعرفون ضوابط التعامل مع هذه القراءات على اختلاف مراتبها ، وهذا ما دفع بأبي حيان إلى التعريض بمذنب المفسرين على جلاله قدرهما .

<sup>1</sup> . المهر الوجيز :

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 159/3

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 159/3

وإذا تدبرنا كلام أبي حيان ، فإننا نجد لا يخرج عن مفهوم كلام ابن خالويه في كتابه " الحجة في القراءات السبع " حينما قال : ( فإن تديرت قراءة الأئمة السبعة من أهل الأمصار الخمسة ، المعروفين بصحة النقل وإتقان الحفظ ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ ، فرأيت كلا منهم قد ذهب في إعراب ما انفرد به من حرفه مذهبا من مذاهب العربية لا يدفع ، وقصد من القياس وجهها لا يمنع ، فوافق باللفظ والحكاية طريق النقل والرواية ، غير مؤثر للإختيار على واجب الآثار.)<sup>1</sup>

كما قال ابن الجزري في كتابه : " النشر في القراءات العشر " ، في شرح الركن الأول من أركان القراءة الصحيحة : ( وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفضى في اللغة ، والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل . والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة ، يلزم قبولها والمصير إليها )<sup>2</sup>

وهكذا نجد أيضا في تفسير قوله تعالى : " ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك .. " سورة آل عمران : 74

يقول : وقرأ الجمهور: يوده بكسر المء ووصلها بياء ، وقرأ قالون باختلاس الحركة ، وقريا أبو عمرو وأبو بكر وحمة والأعمش بالسكون، قال أبو إسحاق : وهذا الإسكان الذي روي عن هؤلاء غلط بين ، لأن المء لا ينبغي أن تجزم ، وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكن في الوصل ، وأما أبو عمرو فأراه كان يختلس الكسرة فغلط عليه ، كما غلط عليه في " بارئكم " ، وقد حكى عنه سيويه — وهو ضابط لمثل هذا — أنه كان يكسر كسرا خفيفا ، انتهى كلام ابن إسحاق . وما ذهب إليه أبو إسحاق من أن الإسكان غلط ليس بشيء ، إذ هي قراءة في السبعة<sup>3</sup> ، وهي متواترة ، وكفى أنها منقولة عن إمام البصريين أبي عمرو بن العلاء ، فإنه عربي فصيح ، وسامع لغة ، وإمام في النحو ، ولم يكن ليذهب عنه جواز مثل هذا ، وقد أجاز ذلك وهو إمام في النحو واللغة ، وحكى ذلك لغة لبعض العرب تجزم في الوصل والقطع ، وقد

<sup>1</sup> . ابن خالويه ، الحجة في القراءات السبع ، تحقيق ، عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، ط 4 ، 1981م ، ص : 61

<sup>2</sup> . ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ج 10/1

<sup>3</sup> . الحجة في القراءات السبعة : 111

روى الكسائي أن لغة عقيل وكلاب أهم يختلسون الحركة في هذه الهاء إذا كانت بعد متحرك ، وأهم يسكنون أيضا .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " تَغِيْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ تَبْطَلِبُهُ حَيْثِيَا .. " <sup>الأمري: ٤٥</sup> " <sup>ببعض</sup> نجد ابن عطية ينتصر لقراءة من قرأ بنصب " الليل " ورفع " النهار " لا لشيء إلا لأن ابن جني قدمها على غيرها ، فتصدى له أبو حيان مبينا فضل أبي عمرو بن العلاء ، وتفوقه على ابن جني من أكثر من جهة ، وأن القراءات تؤخذ عن القراء وليس عن اللغويين ، لأن القراء جمعوا بين نقل القراءة والنحو ، ولكن النحويين لم يكونوا من أهل القراءة .

قال أبو حيان : ( وقال أبو الفتح عثمان ابن جني عن حميد بنصب " الليل " ورفع " النهار " ، وقال ابن عطية : وأبو الفتح أثبت ، انتهى ، وهذا الذي قاله من أن أبا الفتح أثبت كلام لا يصح ، إذ رتبة أبي عمرو الداني في القراءات ومعرفتها وضبط رواها ، واختصاصه بذلك المكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءات فضلا عن النحاة الذين ليسوا بمقرئين ولا رواد القراءان عن أحد ، ولا روي عنهم القراءان ، هذا مع الديانة الزائلة والتثبيت في النقل ، وعدم التجاسر ، ووفور الخط من العربية ، فقد رأيت له كتابا في " كلا " وكتابا في " إدغام أبي عمرو الكبير " دلا على اطلاعه على ما لا يكاد يطلع عليه أئمة النحاة ، ولا المقرئين ، إلى سائر تصانيفه رحمه الله ، والذي نقله أبو عمرو الداني عن حميد أمكن من حيث المعنى ، لأن ذلك موافق لقراءة الجماعة إذ الليل في قراءتهم وغن كان منصوبا هو الفاعل من حيث المعنى ، إذ همز النقل أو التضعيف صيره مفعولا ، ولا يجوز أن يكون مفعولا ثانيا من حيث المعنى ، لن المنصوبين تعدى إليهما الفعل ، وأحدهما فاعل من حيث المعنى فيلزم أن يكون الأول منهما كما لزم ذلك في " ملكت زيدا عمرا ، إذ رتبة التقدم هي الموضحة أنه الفاعل من حيث المعنى وهو الليل إذ هو المحدث عنه قبل التعدية وتقديره : حاتا .. )<sup>2</sup>

كما رد على كبار اللغويين من مثل أبي العباس المبرد ، وأبي علي الفارسي وغيرهما ، في تغليبهم للأئمة القراء في بعض ما ذهبوا إليه من وجوه القراءات ، فأنكر عليهم اعتراضهم ، وكشف عدم وجاهتها ، مبينا من جهة أخرى صحة ما نقله القراء ، لأن اللغة العربية غير

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 499/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 309/4

محصورة في لسان واحد من هؤلاء ، ولا في بعضهم ، وما لم يجدوا له وجهاً في اللغة كان مما علمه البعض و جهله البعض الآخر .

من ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى : " إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُمَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ .. " سورة البقرة: 270

قال أبو حيان : ( وقرأ ابن عمر وحزمة والكسائي " فنعماً " فيهما بفتح النون وكسر العين ، وهو الأصل لأن وزنه على فعل ، وقال قوم يحتمل قراءة كسر العين على لغة من أسكن ، فلما دخلت ما وأدغمت ، حركت العين لالتقاء الساكنين .

وقرأ قالون وأبو عمرو وأبو بكر بكسر النون وإخفاء حركة العين ، وقد روي عنهم الإسكان ، والأول أقيس وأشهر ، ووجه الإخفاء طلب الخفة ، وأما الإسكان فاختاره أبو عبيدة وقال : الإسكان فيما يروي لغة النبي — صلى الله عليه وسلم — في هذا اللفظ ، قال لعمر و بن العاص<sup>1</sup> : " نعم المال الصالح للرجل الصالح " .

وأنكر الإسكان أبو العباس وأبو إسحاق وأبو علي ، لأن فيه جمعا بين ساكنين على غير حده . وقال أبو العباس لا يقدر أحد أن ينطق به ، وإنما يروم الجمع بين ساكنين ويجسرك ولا يأتيه . وقال أبو إسحاق : لم تضبط الرواة اللفظ في الحديث . وقال أبو علي : لعل أبا عمرو أخفى فظنه السامع إسكانا ، وقد أتى عن أكثر القراء ما أنكروا ، فمن ذلك الإسكان في هذا الموضع ، وفي بعض نداءات البري وفي " اسطاعوا " و " يخلصون " .

قال أبو حيان : ( انتهى ما لخص من كلامهم ، وكلام هؤلاء فيه نظر ، لأن أئمة القراءة لم يقرعوا إلا بنقل عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومتى تطرق إليهم الفلظ فيما نقلوه من مثل هذا ، تطرق إليهم فيما سواه ، والذي نختاره ونقوله أن نقل القراءات السبع متواتر ، لا يمكن وقوع الفلظ فيه )<sup>2</sup>

2 — كثرة ردوده على من تقلده من المفسرين في مجال القراءات بالحجج القوية والموثقة مما ينم عن سعة اطلاعه ، وللمامة بالتواتر والشاذ منها . إلى جانب تبحره في اللغة العربية ، ومعرفته بمختلف لغات القبائل العربية ، وقوة ضبطه لمذاهب النحويين ، ووقوفه على مواضع اتفاقهم واختلافهم ، مما يجعله على عدم التردد في قبول رأي يراه صحيحا ، أو رد رأي آخر

<sup>1</sup> . رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي عبيدة بلفظ : نعم المال الصالح للرجل الصالح . 179/4

<sup>2</sup> . المص المخط : 324/2

يراه فاسدا ، فكان في الوقت ذاته يدافع عن سيبويه ويرثه إذا نسب إليه ما لم يقل به ، فيفند ذلك ويبين حقيقة مذهبه ، ويشنع على بعض المفسرين الذين يخوضون في فن هم ليسوا من أهله .

وكان من بين المفسرين الذين وقف معهم وقفات مطولة الفخر الرازي ، الذي تناول موضوع القراءات القرآنية في تفسيره من جوانب مختلفة ، وناقش في ذلك أئمة القراءات ، ورد عليهم في بعض المواضع وخطأهم ، تارة بحق ، وتارة أخرى بغير حق . فحمل عليه أبو حيان حملات تصل أحيانا إلى حد التهكم والسخرية بسبب نيته من بعض القراء ، وتارة من إمام النحويين سيبويه . ومن بين المواضع التي رد عليه فيها ما يلي:

في تفسير قوله تعالى : " والذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ ولم يُفَرِّقُوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف نُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا " سورة النساء: 151

قال أبو حيان : ( وقرأ حفص " يؤتيهم " بالياء ليعود على اسم الله قبله ، وقرأ الباقون بالنون على الإلتفات ومقابله " واعتدنا " . وقول أبي عبد الله الرازي <sup>1</sup> : قراءة النون أولى من وجهين : أحدهما أنه : أنهم ، والآخر أنه مشاكل لقوله " واعتدنا " ليس بجيد ، ولا أولوية في ذلك ، لأن القراءتين كلناهما متواترة ، هكذا أنزلت وهكذا أنزلت .<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله.. " سورة المائدة: 40

نجد أبا حيان ينقل القراءات الواردة في قوله " والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ " وفيها قراءتان ، وهما الرفع والنصب ، ثم نقل التخريج النحوي للقراءتين عند سيبويه فقال : ( قال سيبويه : الوجه في كلام العرب النصب ، كما تقول زيدا فاضربه ، ولكن أبت العامة إلا الرفع — يعني عامة القراء وجلهم — ولما كان معظم القراء على الرفع ، تأوله سيبويه على وجه يصح ، وهو أنه جعله مبتدأ والخبر محذوف ، لأنه لو جعله مبتدأ والخبر " فاقطعوا " لكان تخريجا على غير الوجه في كلام العرب ، ولكان قد تدخل الفاء في خبر " أل " وهو لا يجوز عنده .

<sup>1</sup> . الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 3 ، 1985 م ، ج 122/11

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 386/3

ولما كان الفخر الرازي قد ذهب إلى تخطيئ سيويه في هذا التحريج<sup>1</sup> — في نظره —  
بغير حق ، فإنه قد تصدى له بقوة ، فأحصى الوجوه التي قال فيها الرازي بتغليب سيويه ،  
وهي خمسة ، ثم رد عليه ردا مطولا في عدة صفحات ، مبينا أن الرازي لم يوفق في وجه من  
تلك الوجوه الخمسة التي خطأ فيها سيويه ، بل لم يرق في نظر أبي حيان إلى مستوى فهم  
كلام سيويه على وجه الصحيح ، مما حمله على أن يقوله ما لم يقل ، ليخلص بعدها أبو  
حيان إلى الحكم على الفخر الرازي بأنه ليس من أهل الإختصاص الذي يبيح له التطاول على  
سيويه ، بل وليس أهلا للكلام في التفسير أيضا ، ولعل هذه من هفوات أبي حيان التي تسرد  
صدورها منه كلما مست شخصية شيخه سيويه ، وقد رأينا موقفه من ابن تيمية سابقا لما  
انتقد بعض المواضع على " الكتاب " لسيويه<sup>2</sup> .

ولذلك رد أبو حيان بلهجة ساخرة فقال : ( .. وما ذكره الرازي لا يتفرع على كلام  
سيويه بوجه ، والعجب من هذا الرجل وتجاوره على العلوم حتى صنف في النحو كتابا سماه  
" المحرر " وسلك فيه طريقة غريبة بعيدة من مصطلح أهل النحو ومن مقاصدهم ، وهو كتاب  
لطيف محتو على بعض أبواب العربية ، وقد سمعت شيخنا أبا جعفر بن الزبير يذكر هذا  
التصنيف ، ويقول إنه ليس جاريا على مصطلح القوم ، وأن ما سلكه في ذلك من التخليط في  
العلوم ، ومن غلب عليه فن ظهر فيما يتكلم به من غير ذلك الفن ، أو قريبا منه من هذا المعنى  
.. ولما وقفت على هذا الكتاب في ديار مصر رأيت ما كان أبو جعفر يذم من هذا الكتاب ،  
ويستزل عقل فخر الدين في كونه صنف في علم وليس من أهله . وكان أبو جعفر يقول:  
لكل علم حد ينتهي إليه ، فإذا رأيت متكلما في فن ما ومزجه بغيره ، فاعلم أن ذلك إما أن  
يكون من تخليطه و تخبيط ذهنه ، وإما أن يكون من قلة محصوله وقصوره في ذلك العلم ،  
فتجده يستريح إلى غيره مما يعرفه . )<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " .. وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَعْدِيهِ إِلَّا أَنْ تُفْسِدُوا

فيه .. " سورة البقرة : 266

<sup>1</sup> . مفاتيح الغيب : ج 11/122

<sup>2</sup> . انظر الفصل الرابع من الباب الأول في ترجمة أبي حيان الأنلسي .

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 482/3



قال أبو حيان : وقرأ البيزي : " ولا تُيمموا " بتشديد التاء ، أصله تيمموا ، فأدغم التاء في التاء ، وذلك في مواضع من القرآن ، وقد حصرتها في قصيدة في القراءات المسماة " عقد اللآلي " وذلك في أبيات هي :

تولوا بأنفسهم وهم معاً	ونور وفي المحنة بهم قد توصلوا
تزل في حجر وفي الشعرا معاً	وفي القر في الأحزاب لا أن تبدا
تلقف أن كان مع لتعارفوا	وصاحبتيها فتفرق حصلا
بعمران لا تفرقوا بالنساء أتى	توفاهم تخيرون له انجلا
تلهى تلقونه تلظى ترهصو	ن ، زد لا تعارفوا تميز تكملا
ثلاثين مع إحدى وفي اللاتي خلفه	ممنون مع ما بعد ظلمتم تنزلا
وفي بدئه خفف وإن كان قبلها	لدى الوصل حرف المد مد وطولا <sup>1</sup>

ثم نقل أبو حيان عن كتاب " الممتع " أن سيويه لا يجيز إسكان هذه التاء ، لأنها إذا سكنت احتيج لها ألف وصل ، وألف الوصل لا تلحق الفعل المضارع ، فإذا اتصلت بما قبلها جاز ، لأنه لا يحتاج إلى همزة وصل . إلا أن مثل " إن تولوا " و " إذ تلقونه " لا يجوز عند البصريين على حال ، لما في ذلك من الجمع بين الساكنين ، وليس الساكن الأول حرف مد ولين .

قال أبو حيان : ( وقراءة البيزي ثابتة تلقنتها الأمة بالقبول ، وليس العلم محصوراً ولا مقصوراً على ما نقله وقاله البصريون ، فلا تنظر إلى قولهم ، إن هذا لا يجوز . )<sup>2</sup>

3 — عدم قوله بترجيح قراءة على أخرى إذا كانت القراءات الواردة في موضع واحد من القرآن كلها متواترة ، وهو ما تؤيده الأحاديث النبوية الواردة في الموضوع<sup>3</sup> وعليه جمهور علماء القراءات ، وقد تكرر منه تأكيد هذا المذهب عنده في عدة مواضع من البحر المحيط

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 317/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 317/2

<sup>3</sup> . منها قوله — صلى الله عليه وسلم — " إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فافروا ما يسر من " أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف . انظر فتح الباري : ج 21/9 .

، ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ  
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ " سورة آل عمران : 78

قال أبو حيان : الباء للسبب و"ما" الظاهر أنها مصدرية ، و" تعلمون" متعد لواحد على  
قراءة الحرمين وأبي عمرو ، إذ قرعوا بالتحفيف مضارع علم ، فأما قراءة باقي السبعة —  
بضم التاء وفتح العين وتشديد اللام المكسورة — فيتعدى إلى مفعولين ، إذ هي منقولة  
بالتضعيف من المتعدية إلى واحد ، وأول المفعولين محذوف تقديره : تعلمون الناس الكتاب ،  
وتكلموا في ترجيح أحد القراءتين على الأخرى ، وقد تقدم أني لا أرى شيئا من هذه  
التراحيح ، لأنها كلها منقولة متواترة قرآنا ، فلا ترجيح في أحد القراءتين على الأخرى .<sup>1</sup>  
ولم يكن موقف أبي حيان في هذا الجانب بدعا من القول ، بل هو الموقف الذي درج عليه  
أئمة القراءات ، وتوارثوه خلفا عن سلف ، وهو ما تظاهرت به مجموع الشواهد الثابتة في  
السنة النبوية .<sup>2</sup>

وهذه الجهود الطيبة لأبي حيان في دفاعه عن القراءات القرآنية وحسن مسلكه في عرضها  
وتعليقها وتوجيهها يكون قد مثل بداية مرحلة مستقلة في دراسة القراءات القرآنية ، ولا أدل  
على ذلك من أن الموقف الذي وقفه من القراءات القرآنية وردده بعنف على ناقدتها ، هو  
الموقف الذي ساد بعده في كتب التفسير ، وهو الموقف الذي حظي بالقبول عند المفسرين  
اللاحقين ، كما صار يمثل رائد اتجاه لم يخف نوره مع الأيام لكثرة تلاميذه ومؤيديه وناصره ،  
وما أثاره من مناقشات ومقارنات بين اتجاهه وبين مخالفه في الموقف من القراءات القرآنية .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 516/2

<sup>2</sup> . انظر : ضياء الدين هجر ، الأحرف السبعة في القرآن الكريم :

## المبحث الثاني

### مسلك الزمخشري في القراءات القرآنية

فإذا رجعنا إلى مسلك الزمخشري في تعامله مع القراءات القرآنية ، فإننا نجد يكاد يكون على طرف نقيض مع أبي حيان الأندلسي ، مما دفع بأبي حيان إلى تتبعه ، وإلى كثرة الرد عليه ، حتى كانت من أبرز الجوانب التي توسع فيها في تفسيره ، ونستطيع أن نحصرها في الجوانب الآتية :

١ - كان الزمخشري يطعن على القراء ورواة القراءات من أكثر من جانب ، فكان أبو حيان يشنع عليه بشدة تسرعه في رمي القراء بالخطأ والوهم ، وتجاهله لمكانة هؤلاء الأئمة في الإتيان والضبط والحرص على الدقة في الرواية ، وتضلعهم في اللغة والنحو .  
ففي تفسير قوله تعالى : " سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون " سورة البقرة : 5 نجد الزمخشري يقف عند الهمز المزدوج في قوله " أأنذرتهم " منتقدا قراءة ورش وقالون - عن نافع - وكذا قراءة ابن كثير - وهما من القراءات السبع - من وجهين ، محكما ما عرفه من القواعد النحوية ، فيتصدى له أبو حيان من وجهين أيضا ، فالوجه الأول أن أحكام النحو ليست محصورة فيما علمه الزمخشري وحده ، والوجه الثاني أن القراءة الصحيحة المتواترة حجة بنفسها في لغة العرب ، وليست اللغة حجة عليها .

قال أبو حيان : (.. وروي عن ورش كابن كثير وقالون إبدال الهمزة الثانية ألفا ، فيلتقي ساكنان على غير حدهما عند البصريين ، وقد أنكر هذه القراءة الزمخشري<sup>١</sup> ، وزعم أن ذلك لحن وخروج عن كلام العرب من وجهين : أحدهما الجمع بين ساكنين على غير حده ، الثاني : أن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها هو بالتسهيل بين بين ، لا بالقلب ألفا ، لأن ذلك هو طريق الهمزة الساكنة . وما قاله هو مذهب البصريين وقد أجاز الكوفيون الجمع بين ساكنين على غير الحد الذي أجازوه البصريون ، وقراءة ورش صحيحة لا تدفع باختيار المذهب ، ولكن عادة الرجل إساءة الأدب مع أهل الأداء ونقله القرآن .)<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> . الكشاف : 48/1

<sup>٢</sup> . البحر المحيط : 47/1

وللقراءات القرآنية على اختلاف درجاتها صلة قوية بالمباحث النحوية ، بل نستطيع القول أن الدراسات النحوية إنما نشأت ونشطت في دائرة خدمة هذه القراءات من وجوه مختلفة ليس هذا مجال تفصيلها<sup>1</sup> ، وظهر خلال هذا النشاط العلمي اتجاهان بارزان في الحكم على القراءات القرآنية والتعامل معها .

اتجاه اللغويين والنحويين ويقوم على تحكيم القواعد النحوية واللغوية في القراءات ، ونتج عن ذلك آثار متعددة منها تضييق بعض القراءات التي تلقىها الأمة بالقبول ، وبلغت درجة التواتر ، ووصف بعض القراء بقلة الحفظ وخفة الضبط وغيرها<sup>2</sup> .

واتجاه علماء القراءات ومن ذهب مذهبهم من أهل الحديث والمفسرين ، حيث جعلوا القراءة المتواترة حجة بنفسها ، ولا تحتاج إلى تزكية اللغويين وإقرارهم لها .

وفي الوقت الذي نجد الزمخشري يميل إلى أصحاب الرأي الأول ، نجد أبا حيان الأندلسي يقف إلى جانب الرأي الثاني منتصرا لأصحابه بكل حماس وقوة ، ونظرا لما كان عليه أبو حيان من إلمام ونبوغ في هذا الفن ، فقد استطاع أن ينقل كفة هذا الاتجاه ، ويرسخه فيمن جاء بعده ، حتى اعتبر نقطة تحول بارزة في هذا المسار التاريخي لعلم القراءات .

وقد وجد أبو حيان في قسوة الزمخشري تجاه القراء ، وكثرة رميه لهم بالخطأ وقلة العلم بالأحكام النحوية واللغوية ما يجعله على كثرة الرد عليه على وجه التفصيل ، وبيان جوانب واسعة من أحوال القراء والقراءات بما يبطل كل تطاول في حقهم ، كما قرر بعض المسلمات والقواعد التي يجب أن ينظر إلى القراءات من خلالها ، من ذلك مثلا أن القراءات المتواترة حاکمة على ما نقله النحويون وليس العكس هو الصحيح ، ومنها أن أحكام النحو ليست محصورة فيما علمه وقرره البصريون أو الكوفيون ، وأن المعول عليه في القراءات ما كثر ناقلوه وصحت روايته ، وليس الأفضى والأقيس في اللغة ، كما أن من حفظ هو حجة على من لم يحفظ .. وكل هذه القواعد وغيرها ماثلة في مواضع

<sup>1</sup> . مجلة جامعة الأمر عبد القادر للعلوم الإسلامية ، مقال د. عبد الله سمي الكنان : الاتجاه اللغوي في تفسير القرآن ، العدد : 6 ،

السنة : 1999 م . ص : 24

<sup>2</sup> . النحو وكتب التفسير : 727/1

مختلفة من تفسيره ، مما جعله مرجعا أساسيا في القراءات عند الدارسين . ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

في تفسير قوله تعالى : " .. فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " "

سورة البقرة : 283

صدر من الزمخشري كلام خطير في حق القراء وأهل الأداء يفتح بابا واسعا للمشككين في القرآن الكريم كي يطعنوا في صحته وسلامته من اللحن والتحريف ، مما حمل أبا حيان على الرد عليه ردا مسهبا .

قال الزمخشري : ( فإن قلت : كيف يقرأ الجازم ؟ قلت : يظهر الراء ويدغم الباء ، ومدغم الراء في اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشا ، وراويہ عن أبي عمرو مخطئ مرتين ، لأنه يلحن ، وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم ، والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة ، والسبب في قلة الضبط قلة الدراية ، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو )<sup>1</sup> قال أبو حيان : ( انتهى كلامه ، وذلك على عادته في الطعن على القراء ، وأما ما ذكر أن مدغم الراء في اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشا إلى آخره ، فهذه مسألة اختلف فيها النحويون ، فذهب الخليل وسيبويه وأصحابه إلى أنه لا يجوز إدغام الراء في اللام من أجل التكرير الذي فيها ، ولا في النون ، قال أبو سعيد : ولا نعلم أحدا خالفه إلا يعقوب الحضرمي ، وإلا ما روي عن أبي عمرو أنه كان يدغم الراء في اللام متحركة متحركا ما قبلها نحو " يغفر لمن " ، " العمر لكيلا " ، واستغفر لهم الرسول " فإن سكن ما قبل الراء أدغمها في اللام في موضع الضم والكسر نحو " الأثمار لهم " و " النار ليحزني .. " فإن انفتحت وكان ما قبلها حرف مد ولين أو غيره لم يدغم نحو : " .. من مصر لامراته " و " الأبرار لفي نعيم " و " لن تبور ليوفيهم " و " الحمير لتركبوها " ، فإن سكنت الراء أدغمها في اللام بلا خلاف عنه إلا ما روى أحمد بن حنبل بخلاف عنه عن الزبيدي عنه أنه أظهرها ، وذلك إذا قرأ بإظهار المثلين والمتقاربين المتحركين لا غير ، على أن المعمول في مذهبه بالوجهين جميعا على الإدغام نحو " ويغفر لكم " انتهى . وأجاز ذلك الكسائي والفاء ، وحكياه سماعا ، ووافقهما رواية وإجازة و إجازة أبو جعفر الرواسي وهو إمام من أئمة اللغة والعربية من

<sup>1</sup> . الكشاف : 330/1

الكوفيين وقد وافقهم أبو عمرو على الإدغام رواية وإجازة كما ذكرناه وتابعه يعقوب كما ذكرناه ، وذلك من رواية الوليد بن حسان والإدغام ، وجه من القياس ذكرناه في كتاب التكميل لشرح التسهيل من تأليفنا . وقد اعتمد بعض أصحابنا على أن ما روي عن القراء من الإدغام الذي منعه البصريون يكون ذلك إخفاء لا إدغاما ، وذلك لا يجوز أن يعتقد في القراء أنهم غلطوا وما ضبطوا ولا فرقوا بين الإخفاء والإدغام . وعقد هذا الرجل بابا قال : هذا باب يذكر فيه ما أدغمت القراء مما ذكر أنه لا يجوز إدغامه ، وهذا لا ينبغي ، فإن لسان العرب غير محصور فيما نقله البصريون فقط ، والقراءات لا تجيء على ما علمه البصريون ونقلوه ، بل القراء من الكوفيين يكادون يكونون مثل قراء البصرة ، وقد اتفق على نقل إدغام الراء في اللام كبير البصريين ورأسهم أبو عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمي ، وكبراء أهل الكوفة ، الرواسي والكسائي والقراء ، وأجازوه ، ورووه عن العرب ، فوجب قبوله والرجوع فيه إلى علمهم ونقلهم ، إذ من علم حجة على من لم يعلم . أما قول الزمخشري أن راوي ذلك عن أبي عمرو أخطأ مرتين ، فقد تبين أن ذلك صواب ، والذي روى ذلك عنه الرواة ، ومنهم أبو محمد اليزيدي ، وهو إمام في النحو ، إمام في القراءات ، إمام في اللغات .

وزيادة على كون أبي محمد اليزيدي إماما في النحو ، إماما في القراءات ، إماما في اللغات — كما ذكر أبو حيان — فإننا لا نسلم للزمخشري ابتداء قوله : والسبب في قلة الضبط قلة الدراية ، ولا يضبط مثل هذا إلا أهل النحو .

فإذا كان أهل اللغة يرون بأن القراءات لا يضبطها إلا اللغويون ، وهذا الإمام النويري يقول في بيان العلاقة بين علماء الفقه وعلماء القراءات : ( إن الرجوع في الجواز وعدم الجواز — أي في قبول القراءات وردها — إنما هو لأئمة الفقه الذين يفتون في الحلال والحرام )<sup>2</sup> فكان اللغويون والفقهاء هم المحكمون في قبول القراءات وردها دون القراء ، فأين تتجلى جهود هؤلاء القراء وفضائلهم على غيرهم ، بل إن الصحيح من القول أن الرجوع في قبول القراءات وردها إنما هو لأئمة هذا الشأن من القراء الذين أنفوا أعمارهم في حفظها في

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 361/2 — 363

<sup>2</sup> . صوي عبد الرؤوف محمد عبد القوي ، أثر القراءات في الفقه الإسلامي ، مطبعة أخوان السلف ، الرياض ، ص : 176 . نقله عن

النويري على طية النشر ، مخطوط ، ورقة : 23

الصدر ونقلها وضبطها ، اللهم إلا إذا حملنا قول النويري على ما يتعلق بالقراءات الشاذة ،  
أما كلام الزمخشري فلا سبيل لتأويله ، لأن ما ورد في معرض كلامه في هذا الموضوع إنما تعلق  
بقراءة متواترة .

بل إن المعروف عن الأئمة المجتهدين من الفقهاء مع عظيم منزلتهم ورفعة شأنهم وغمرة  
علمهم أنهم يعظمون علماء القراءات ، ويرجعون إليهم فيما يعترضهم ، ونفهم هذا من قول  
الإمام أبي حنيفة رحمه الله لأحد القراء العشرة — وهو حمزة — : ( شيطان غلبتنا عليهما لسنا  
ننازعك فيهما ، القراءان والفرائض . )<sup>1</sup>

والزمخشري الذي يقف عند القراءة الصحيحة المتواترة موقف الناقد المتفحص ، لا يفعل  
ذلك عند بعض القراءات الشاذة ، بل منها ما هو موضوع ، فيكتفي بذكرها كقراءة من  
القراءات ويعمل على توجيهها من الناحية النحوية والمعنوية .

ومن ذلك مثلا تلك القراءة التي تنسب للإمام أبي حنيفة — رحمه الله — في قوله تعالى  
: " .. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " سورة فاطر : 28

برفع اسم الجلالة ونصب " العلماء " وهو بريء منها ، ولكنها اختلقت اختلاقا ، وقد بين  
ذلك الإمام الذهبي في طبقات القراء ، وابن الجزري في طبقاته أيضا ، وواضعها هو محمد بن  
جعفر الخزاعي ( ت : 107هـ ) ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي ، قال الذهبي في " لسان الميزان  
" في ترجمة محمد بن جعفر : ( ألف كتابا في قراءة الإمام أبي حنيفة ، فوضع الدارقطني خطه  
عليه بأنه موضوع لا أصل له ، وذلك مثل قوله " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ .. " برفع لفظ الجلالة ،  
ونصب لفظ " العلماء " . )<sup>2</sup>

إلا أن الزمخشري أبي إلا أن يتعامل معها كأى قراءة صحيحة ، وراح يتكلف في توجيهها  
بدلا من ردها وكشف بطلانها .

قال الزمخشري : ( فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ "   
وهو عمر بن عبد العزيز ، ويحكى عن أبي حنيفة ؟ قلت : الخشية في هذه القراءة استعارة ،

<sup>1</sup> . أثر القراءات في الفقه الإسلامي : 177 . ول البحر المحيط : 159/3

<sup>2</sup> . ابن حجر ، لسان الميزان : 114/5

والمعنى : إنما يجلبهم ويعظمهم ، كما يجلب المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده .<sup>1</sup>

أما أبو حيان فقد توقف في قبولها واستبعد نسبتها إلى عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة ، وهو الحق الذي عليه أهل العلم كما أسلفنا<sup>2</sup> .

قال أبو حيان : ( وقرأ الجمهور بنصب الجلالة ورفع العلماء ، وروي عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة عكس ذلك ، وتوالت هذه القراءة على ان الخشية استعارة للتعظيم ، لأن من خشي وهاب أجل وعظم من خشيه وهاب . ولعل ذلك لا يصح عنهما )<sup>3</sup> وقد رأينا كتباً في الشواذ ولم يذكرها هذه القراءة ، وإنما ذكرها الزمخشري ، وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن جبارة في كتابه الكامل .

2 — وكان الزمخشري أحياناً يعترض على بعض القراءات الثابتة بالتواتر الذي يفيد العلم اليقيني ، لأسباب مبنية على الظن والتأويل البعيد ، كان يعتقد بأن القراء إنما أخذوا بعض أوجه القراءات من رسم المصاحف وليس بالمشافهة — وهو ظن فاسد — فكان أبو حيان يعترض عليه في كل مرة يلمس منه مثل هذه المحاولات لرد قراءة من القراءات الصحيحة ، والتي تناقلتها الأمة بالتواتر ، وقرأت بها خلفاً عن سلف .

من ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُذَوُّهُمْ وَيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ .. " سورة الأنعام : 138

حيث قال الزمخشري : ( .. وقرئ زين ، على البناء للفاعل الذي هو شركاؤهم ، ونصب " قتل أولادهم " و " زَيْنَ " على البناء للمفعول الذي هو القتل ، ورفع شر " شركاؤهم " بإضمار فعل دل عليه " زين " كأنه قيل : لما قيل زين لهم قتل أولادهم ، من زينه ؟ فقيل : زينه لهم شركاؤهم ، وأما قراءة ابن عامر : قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف ، فضيء لو كان في مكان الضرورات — وهو الشعر — لكان ممحاً كما ورد :

زَجَّ الْقُلُوصِ أَبِي مَزَادَةَ

<sup>1</sup> . الكشاف : 611/3

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 132/7

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 312/7



فكيف به في الكلام المنثور ، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ، والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوبا بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء — لأن الأولاد شركائهم في أموالهم — لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب .<sup>1</sup>

ومثل هذا أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " إِنْ لَمْ يَنْصُرِكُمْ إِلَّا فِي الْبَعْثِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِكُمْ بِشَيْءٍ مُّؤْتِيًا سُلْطَانًا فَذَرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ الْبَعْثَ إِنَّهُمْ فِي أَعْيُنِنَا إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ لَمَبْرُورِينَ " سورة البقرة : 25

حيث اختار قراءة الرفع في " بعوضة " ثم علل ذلك بقوله : ( وهذه القراءة تعزى إلى رؤية بن العجاج ، وهو أمضغ العرب للشيع والقيسوم ، والمشهود له بالفصاحة .. وما أظنه ذهب في هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه ، وهو المطابق لفصاحته .<sup>2</sup>

والذي يفهم من كلام الزمخشري هذا كله أن القراء كانوا يأخذون قراءاتهم من المكتوب وليس من المسموع ، كما أن الإختيار في القراءة هو اجتهاد في اختيار الأصح في اللغة والأبلغ في البيان ، وليس في اختيار الأصح في النقل ، ولا يخفى ما في هذا الكلام من بعد عما هو عليه جمهور المفسرين والمقرئين ، ولذلك رد عليه أبو حيان بأنها ليست قراءة رؤية بن العجاج وحده ، حتى يعتقد أنه قرأها لأنها أبلغ في البيان ، بل قرأها غيره أيضا ، فقرأها الضحك ، وإبراهيم بن أبي عبلة ، وقطرب .<sup>3</sup>

3 — كما يرد عليه في بعض المواضع التي يذهب فيها الزمخشري مذهبا بعيدا في توجيه القراءات متأثرا بترعته المذهبية ، أو بعض اجتهاداته النحوية .

ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ . " سورة آل عمران : 18

<sup>1</sup> . الكشاف : 70/2

<sup>2</sup> . الكشاف : 115/1 . وهذه القراءة التي انتصر لها الزمخشري ، وهي قراءة رؤية بن العجاج ، قراءة شاذة باتفاق أهل العلم ، ولذلك رد عليه ابن المنذر بقوله : ( وأما نحوه المنثور على الوجه الذي ظن أن رؤية بن العجاج راهاه في قرأته ، فكلام ركيك يوهم أن القراءة موكولة إلى رأي القارى وتوجيهها ونصرتها بالعربية وفصاحته في اللغة ، وليس الأمر كذلك ، بل القراءة على اختلاف وجوهها وبعد حروفها سنة تتبع ، وجماع يفضى بنقله الفصح وغيره على حد سواء ، لا حيلة للفصح في تعسر شيء منه عما سمعه عليه ، وما يصنع بفصاحته في القرآن الذي يبدد كل فصاحة وعزل كل بلاغة ؟ الانتصاف . على هامش الكشاف . انظر هامش : 3

<sup>3</sup> . انظر : البحر المحيط : 123/1

قال الزمخشري في توجيه القراءات الواردة في الآية : ( وقرئنا مفتوحين على " أن " الشلبي بدل من الأول ، كأنه قيل شهد الله أن الدين عند الله الإسلام ، والبدل هو المبدل منه في المعنى ، فكان بيانا صريحا لأن دين الإسلام هو التوحيد والعدل ، وقسرى الأول بالكسر ، والثاني بالفتح ، على أن الفعل واقع على " إن " ، وما بينهما اعتراض مؤكد ، وهذا أيضا شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد ، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك ، وقرأ عبد الله : أن لا إله إلا هو .. )<sup>1</sup>

قال أبو حيان : ( وأما قراءة ابن عباس فخرج على أن الدين عند الله الإسلام ، وهو معمول " شهد " ، ويكون في الكلام اعتراضان ، أحدهما بين المعطوف عليه وبين المعطوف ، وهو " أنه لا إله إلا هو " والثاني بين المعطوف والمحال ، وبين المفعول لشهد ، وهو " لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وإذا أعربنا " العزيز " خبر مبتدأ محذوف ، كان ذلك ثلاث اعتراضات .. )<sup>2</sup>

وهنا نجد أبا حيان يعلق على كلام الزمخشري بقوله : ( فانظر إلى هذه التوجيهات البعيدة التي لا يقدر أحد على أن يأتي لها بنظير من كلام العرب ، وإنما حملة على ذلك العجمة ، وعدم الإمعان في تراكيب كلام العرب وحفظ أشعارها ، وكما أشرنا إليه في خطبة هذا الكتاب ، أنه لا يكفي النحو وحده في علم الفصيح من كلام العرب ، بل لابد من الإطلاع على كلام العرب ، والتطبع بطباعها ، والاستكثار من ذلك .. )<sup>3</sup>

ثم قال أبو حيان في توجيه قراءة " أن الدين .. " — بالفتح — ( هو أن يكون الكلام في موضع المعمول للحكيم على إسقاط حرف الجر أي : بأن ، لأن الحكيم فاعيل للمبالغة كالعليم والسميع والخبير ، كما قال تعالى : " من لدن حكيم خبير " قال : " من لدن حكيم عليم " والتقدير : لا إله إلا هو العزيز الحاكم أن الدين عند الله الإسلام . ولما شهد تعالى لنفسه بالوحدانية ، وشهد له بذلك الملائكة وأولو العلم ، حكم أن الدين المقبول عند الله هو الإسلام ، فلا ينبغي لأحد أن يعدل عنه ، ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في

<sup>1</sup> . الكتاب : 345/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 409/2

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 409/2

الآخرة من الخاسرين " ، وعدل عن صيغة الحاكم إلى الحكيم لأجل المبالغة ، ولمناسبة العزيز).<sup>1</sup>

4 - وإذا تتبعنا عبارات الزمخشري في تعامله مع القراءات وجدناه في أكثر من موضع من الكشف يورد من العبارات ما يوهنا بأن القراءات القرآنية كان فيها شيء من اجتهاد القراء ، ومن ذلك استبدال كلمة بكلمة أخرى ، وهو رأي لم يقل به جمهور أهل العلم ، من ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى : " إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَيْمِمْ " سورة الدخان : 41

حيث قال الزمخشري : ( وعن أبي الدرداء أنه كان يقرئ رجلاً فكان يقول طعام الأئيم ، فقال : قل طعام الفاجر يا هذا<sup>2</sup> . وهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها ، ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية ، على شريطة وهي أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً ، قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ، لأن في كلام العرب خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن منه ذلك عن تحقق وتبصر . )<sup>3</sup>

والذي أراه أن ما ذهب إليه أبو حنيفة سواء كان عن تحقق وتبصر أو عدمه ، فسلا مجال للقياس عليه وبناء هذا على ذلك ، والفرق واضح وشاسع بين رأي أبي حنيفة الذي يفيد ما يشبه الترجمة للسورة القرآنية كالفاتحة لأداء فريضة الصلاة ، وبين إبدال كلمة مكان كلمة أخرى لتدخل في رسم المصحف ، وتلزم الناس بعدئذ القراءة بها ، وما ذهب إليه الزمخشري أيضاً من توجيه لرواية أبي الدرداء في تعليمه الرجل كيفية النطق بهذه الكلمة من القرآن بهذا المعنى بعيد لا يسلم له به العلماء ، ولا نعلم أحداً سبقه إلى هذا الفهم ، أو هذا الاستنباط ، بل قال العلماء أن كل ما في الأمر أن أبا الدرداء كان يعلم في

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 409/2

<sup>2</sup> وفي جامع البيان للطبري : ( .. أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً " إن شجرة الزقوم طعام الأئيم " فقال : طعام الأئيم ، فقال أبو

الدرداء : قل : إن شجرة الزقوم طعام الفاجر . ) جامع البيان : 168/13

<sup>3</sup> . الكشف : 281/4

الآية وحها آخر للقراءة في الآية ، فلما تعسر على الرجل النطق بالقراءة الأولى لجأ به إلى القراءة الثانية ، كما ذهب آخرون إلى أن أبا الدرداء إنما أراد أن يوضح له معنى الكلمة ليعينه بذلك على تمييزها عن الكلمات المماثلة في النطق لها ، وليس غرضه إنشاء كلمة أخرى مرادفة لما جاء به كتاب الله تعالى <sup>1</sup> .

5 — بل نجد الزمخشري في بعض المواضع من كشافه يعرض إلى ذكر بعض أوجه القراءات ، فيسلك مسلكاً غريباً في ذكر تلك القراءات بما يوحى في الظاهر بجهله بالقراءات وارتباط كل قراءة باسم المقرئ الذي قرأها ، والرواة الذين تلقوها عنه ونقلوها ، بل يذهب أحياناً إلى ذكر وجه من وجوه القراءة فينسبها إلى من قرأ به ، ثم يذكر قراءة ثانية فينسبها إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — مباشرة ، فيقول : وقرئ كذا وهي قراءة فلان ، وقرئ كذا وهي قراءة الرسول — ص — وكان الرسول هو نفسه كان أحد هؤلاء القراء ، وهذا متكرر في عدة مواضع من تفسيره الكشاف .

فمن ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ " سورة الواقعة : 85

قال الزمخشري : ( وقرأ علي — رضي الله عنه — وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ، وقيل هي قراءة رسول الله — صلى الله عليه وسلم . ) <sup>2</sup>  
وفي تفسير قوله تعالى : " فَذَمِّمَ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عِقَابَهَا " سورة الشمس : 15 — 16

قال الزمخشري : ( وفي مصاحف أهل المدينة والشام " فلا يخاف " وفي قراءة النبي — صلى الله عليه وسلم — " ولم يخف " . ) <sup>3</sup>  
وتكرر هذا منه في تفسير قوله تعالى : " وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى " الليل : 3

فقال : ( وفي قراءة النبي — صلى الله عليه وسلم — " والذكر والأنثى " وقرأ ابن مسعود " والذي خلق الذكر والأنثى " . ) <sup>4</sup>

<sup>1</sup> . انظر : عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان ، دار الفكر : 187/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 469/4

<sup>3</sup> . الكشاف : 761/4

<sup>4</sup> . الكشاف : 761/4

وكان يجدر بالزمخشري أن يوضح معنى ما ذهب إليه من هذا الكلام رفعاً للغموض ، ولكنه لم يفعل ، مما جعلنا نذهب في فهم كلامه هذا كل مذهب .  
وإذا رجعنا إلى كتب التفسير كجامع البيان للطبري مثلاً في قوله " وتجعلون رزقكم " نجده قال :

( وقد ذكر عن الهيثم بن عدي أن من لغة أزد شنوية : ما رزق فلان : بمعنى ما شكر ، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل على اختلاف فيه منهم ، ذكر من قال ذلك : حدثنا ابن بشار ، قال ثنا يعقوب ، قال : ثنا سفيان ، قال ثنا عبد الأعلى الثعلبي ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، عن علي رضي الله عنه " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون " قال : شكركم .

وفي رواية أخرى — بإسناد آخر — عن علي رفعه " وتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ " قال : شكركم ، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، وبنجم كذا وكذا .<sup>1</sup>  
ومعنى هذا أن ما نسب لعلي — رضي الله عنه — في الرواية الأولى هو مجرد تفسير ، وفي الحديث الثاني هو تفسير أيضاً ، ولكنه رفعه إلى النبي — صلى الله عليه وسلم .  
كما أن هذه القراءة التي ذكرها الزمخشري لم تذكرها كتب القراءات ضمن القراءات المتواترة ولا القراءات الشاذة ، مما يدل على أن الزمخشري توهم أن هذا التفسير من علي — رضي الله عنه — هو قراءة من القراءات ، وهي ليست كذلك .  
وأما في قوله " ولا يخاف عقباها " فقال الطبري : ( واختلفت القراء في قسراءة ذلك ، فقراءته عامة قراء الحجاز " فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا " بالفاء ، وكذلك ذلك في مصاحفهم ، وقراءته عامة قراء العراق في المصرين بالواو " ولا يخاف عقباها ، وكذلك هو في مصاحفهم .  
والصواب من القول في ذلك : أنهما قراءتان معروفتان ، غير مختلفتي المعنى ، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب .<sup>2</sup>

وذكر مثل ذلك القرطبي في الجامع لأحكام القرآن<sup>3</sup> .

<sup>1</sup> . جامع البيان : 270/13 . الحديث في مسند الإمام أحمد رقم : 677

<sup>2</sup> . جامع البيان : 272/15

<sup>3</sup> . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : 80/20

وأما قراءة النبي — صلى الله عليه وسلم — التي ذكرها الزمخشري فلم تذكرها كتب القراءات أيضا لا في القراءات المتواترة ولا حتى القراءات الشاذة . مع أنه ذكرها بصيغة تفيده ثبوتها وصحتها .

وأما في المثال الثالث " وما خلق الذكر والأنثى " فقال الطبري : ( وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء أنهما كانا يقرآن ذلك " والذكر والأنثى " ويؤثره أبو الدرداء عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — )<sup>1</sup>

أما القرطبي فقال : وفي صحيح مسلم عن علقمة قال : قدمنا الشام ، فأتانا أبو السرداء فقال : فيكم أحد يقرأ علي قراءة عبد الله ؟ فقلت نعم ، أنا قال : فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية " والليل إذا يغشى " ؟ قال : سمعته يقرأ " والليل إذا يغشى والذكر والأنثى " ، قلل : وأنا والله سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم يقرأها ، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ " وما خلق " فلا أتابعهم<sup>2</sup> .

ثم ذكر القرطبي حديثا مماثلا في قراءة ابن مسعود " إني أنا الرزاق ذو القوة المتين " وقال — نقلا عن أبي بكر الأنباري — : كل من هذين الحديثين مردود بخلاف الإجماع له ، وأن حمزة وعاصما يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين ، والبناء على سنيدين يوافقان الإجماع أولى من الأخذ بواحد يخالفه إجماع الأمة ، وما بيني على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه أخذ برواية الجماعة ، وأبطل نقل الواحد ، لما يجوز عليه من النسيان والإغفال ، ولو صح الحديث عن أبي الدرداء ، وكان إسناده مقبولا معروفا ، ثم كان أبو بكر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه ، لكان الحكم العمل بما روته الجماعة ، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد الذي يسرع إليه النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة وجميع أهل الأمة .<sup>3</sup>

ولم أجد فيما اطلعت عليه من كتب التفسير أو كتب القراءات من سلك هذا المسلك عند الزمخشري ، مما يقوي عندنا الظن بقلة زاد الزمخشري في علم القراءات ، وليس في اشتغاله باللفظ والنحو وتفوقه فيهما ما يوجب تفوقه في علم القراءات ، بل يبدو أن صلته بالقراءات

<sup>1</sup> . جامع البيان : 274/15

<sup>2</sup> . الجامع لأحكام القرآن : 81/20

<sup>3</sup> . الجامع لأحكام القرآن : 81/20

كانت من باب الصلة التاريخية بين هذا العلم وبين علم اللغة والنحو ، ولذلك نجسده سلك مسلك النحاة واللغويين في نظرتهم إلى القراء والقراءات ، وإذا كان الزمخشري يعيب على القراء قلة علمهم في علم النحو ، فمن باب أولى أن يعيب عليه نحن قلة إلمامه واشتغاله بعلم القراءات ، لأنه لكل فن أصوله ، ولكل علم أهله ، والزمخشري يقر بهذا ، حتى إذا جاء إلى الجانب التطبيقي تناساه وتغاضى عنه .

وقد رأينا - فيما سبق - ما يتعلق بأبي حيان ، وصلته الوثيقة والعريقة بهذا الفن ، فذكر أسانيده العالية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما أن مؤلفاته في القراءات ، وما كان لها من مكانة علمية في حياته تشهد على تضلعه ونبوغه في هذا العلم ، وقد تجلّى ذلك بوضوح سواء فيما أورده من القراءات المختلفة ، مع نسبة كل قراءة لصاحبها ، أو في توجيهه لتلك القراءات وحسن الدفاع عنها ضد الطاعنين والمشككين فيها .

٥ - ومثلما تعقب الزمخشري بعض القراء بالنقد والاعتراض على بعض قراءاتهم ، نجسده بتطلع بحاسته النقدية إلى رسم المصحف ، وإن كان يتردد في ذلك ، فتارة يقرر أن رسم المصحف سنة لا تغير ، ويجب اتباعه ، وتارة أخرى يذهب للمقارنة بين ما عليه رسم المصحف وبين ما عليه أوضاع الخط العربي .

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. " سورة الفرقان : 7

قال الزمخشري : ( وقعت اللام في المصحف مفصولة عن " هذا " خارجة عن أوضاع الخط العربي ، ونخط المصحف سنة لا تغير . )<sup>1</sup>

ويتلخص مما سبق أن الزمخشري في مسلكه العام في عرض القراءات ودراساتها شديداً الشبه بالأئمة اللغويين الأوائل الذين يكثرون من رواية القراءات ، متواترها وشاذها ، ويخضعونها جميعاً للنقد اللغوي ، ويجعلونه الفيصل في تزكيتها أو توهينها ، مع اعتمادهم في روايتها على المختصين من القراء ، وهو أقرب إلى منهج الفسراء في توسعها فيها ، والاحتجاج بشواذها ، خصوصاً قراءتي ابن مسعود وأبي رضي الله عنهما ، ثم إلى منهج

<sup>1</sup> . الكشاف : 265/3

أبي جعفر النحاس في كتابه إعراب القرآن ، ثم إلى منهج ابن جنى في " المحتسب " وتحمسه للشواذ .

وهكذا فإن الزمخشري بتطبيقه المنهج النحوي على القراءات يكون قد أحيا مواته ، ونفخ فيه من روحه وفكره ، لأن نقد القراءات قد هدا بعد الطبري ، وأبي إسحاق الزجاج ، وأبي علي الفارسي ، وتلميذه ابن جنى ، لاكتمال الدرس النحوي من جهة ، ولا استقرار الرواية في القراءات من جهة أخرى ، حتى جاء الزمخشري ، وألف تفسيره " الكشاف " في القرن السادس فأنار منهج الأقدمين ، وبعث فيه الروح بنقده للقراءات ، وبذلك أيضا يكون الزمخشري تابعا لمنهج سابق ، وليس مبتدعا ، وإنما كثر خصومه من هذا الجانب لجرأته في الصدع بآرائه ، وتعنيف المخالفين له ، وقد ظهرت هذه الجرأة منه في مختلف جوانب تفسيره ، وليس في تعامله مع القراءات القرآنية فقط ، كما أنه لم تبق المبررات السابقة للنظر في القراءات من حيث الرد والقبول بعد أن دونت القراءات وعرف المرود والمقبول منها ، وإنما صار المفسرون يعملون على توجيه كل قراءة من القراءات الصحيحة إلى ما تحمله من معنى ، أما القراءات الشاذة فهي التي نجد الفقهاء واللغويين يرجعون إليها ويستدلون بها في المسائل الفقهية واللغوية<sup>1</sup> .

كما يضاف إلى مسلكه في التعامل مع القراءات تأثيره بنظرته الاعتزالية في الانتصار لقراءة معينة والعدول عن أخرى ، وخاصة عندما ينتصر لقراءة شاذة على قراءة متواترة . ومن هنا فإن روح الاعتزال التي لم تفارق الزمخشري طيلة تصنيفه تفسير الكشاف قد تسربت في خفاء كذبيب النمل إلى مختلف الجوانب من مباحثه في هذا التفسير بما في ذلك مباحث القراءات ، فتجده وهو يذكر قراءة ويهتم بها ويقدمها ويدافع عنها ، أو يذكر قراءة أخرى ولا يهتم بتوجيهها ، لا يخلو في كل ذلك من فرط تأثيره بمذهبه العقدي ، وهو إذ لا يصرح بتحكيم نظره الاعتزالية في مثل هذه المواضع نجده يمرر رؤيته المنهجية بذكاء بالغ ، وقلما يتفطن لمثل هذا إلا النباه من أهل العلم . ومن ذلك مثلا ما جاء في قوله تعالى : " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرِ " سورة القمر : 49

<sup>1</sup> . انظر : النحو وكتب التفسير : 727/1



حيث قال الزمخشري : ( " كل شيء " منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر ، وقرئ " كل شيء " بالرفع . )<sup>1</sup>

فهو إذ يذكر القراءتين لم يبين القراءة الصحيحة المتواترة من القراءة الشاذة ، ليوهم القارئ تساوي القراءتين ، وكان الأولى به أن ينص على درجة كل قراءة وعميل على توجيهها ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك لحاجة في نفسه .

ولذا نجد ابن المنير يتصدى له مينا دسيصة الاعتزال التي تختفي وراء هذه القراءة الثانية ، وهي قراءة شاذة ، وبيان السر في إجماع القراء السبعة على القراءة الأولى بالنصب .

قال ابن المنير : ( كان قياس ما مهده النحاة اختيار رفع " كل " لكن لم يقرأ بها أحد من السبعة ، وإنما كان كذلك لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة ، ومع النصب جملتان ، فالرفع أخصر ، مع أنه لا مقتضى للنصب ههنا من أحد الأصناف الستة ، أعني : الأمر ، والنهي .. إلى آخرها ، ولا أحد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يعدونه من محال اختيارهم للنصب ، فإذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع إجماعاً لسر لطيف يعين اختيار النصب : وهو أنه لو رفع لوقعت الجملة التي هي " خلقناه " صفة لشيء ، ورفع قوله " بقدر " خيراً عن " كل شيء " المقيد بالصفة ، ويحصل الكلام على تقدير : إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر ، فأفهم ذلك أن مخلوقاً ما يضاف إلى غير الله تعالى ليس بقدر ، وعلى النصب بصير الكلام : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى ، فلما كانت هذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع مع ما في الرفع من نقصان المعنى ، ومع ما في هذه القراءة المستفيضة من مجيء المعنى تاماً واضحاً كفلق الصبح ، لا جرم أجمعوا على العدول عن الرفع إلى النصب ، لكن الزمخشري لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق لله ، ومخلوق لغير الله ، فيقولون هذا لله بزعمهم ، وهذا لنا ففرت هذه الآية فاه ، وقام إجماع القراء حجة عليه ، فأخذ يستروح إلى الشقاء ، وينقل قراءتها بالرفع ، فليراجع له ، ويعرض عليه إعراض القراء عن هذه الرواية ، مع أنها هي الأولى في العربية ، لولا ما ذكرناه ، أيجوز في حكمه حينئذ

<sup>1</sup> . الكشاف : 441/4

الإجماع على خلاف الأولى لفظا ومعنى من غير معنى اقتضى ذلك أم لا ؟ وهو المخير فيما يحكم به ، فإلى الله ترجع الأمور .<sup>1</sup>

ومن النقاخص التي هي قاسم مشترك بين الزمخشري وأبي حيان الأندلسي في مسلكهما في عرض القراءات القرآنية ما يأتي :

1- ذكر بعض القراءات القرآنية دون نسبتها للذين قرعوا بها . وهذا يوقع في اللبس ، لأن الإحتجاج بالقراءة تختلف قوة وضعفا باختلاف درجة القراءة ومن قرأها ، سواء في مجال تفسير القرآن الكريم نفسه ، أو في التطبيق اللغوي و النحوي .

ومثاله عند أبي حيان نقله لقراءة عيسى بن عمر في قوله تعالى :

" وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا .. " المائدة : 40

حيث قرأ بالنصب على الاشتغال ، وهي قراءة شاذة ، دون أن ينبه أبو حيان على ذلك<sup>2</sup> .

أما الزمخشري فقد درج على خلط القراءات الشاذة بالمتواترة في أغلب المواضع كما تبين لنا في الأمثلة السابقة من غير تنبيه على ذلك .

2- ومنها ذكر القراءات الشاذة إلى جانب القراءات الصحيحة والمتواترة ، دون تبين بأن هذه قراءة متواترة ، وهذه شاذة . وإن كان هذا قليلا عند أبي حيان ، فهو الغالب الأعم عند الزمخشري .

3- ذكر بعض القراءات الواردة في الآية دون توجيهها ، مع أن كل قراءة لا تخلو من نكتة فقهية أو لغوية أو بيانية .

ومع هذا يبقى أبو حيان متميزا ومتفوقا بذلك المنهج العلمي في تعامله مع القراءات القرآنية ، حيث استطاع من خلال تفسيره البحر المحيط أن يحدد الضوابط العلمية التي ينبغي للباحث في القراءات القرآنية أن يلتزمها ، وقد أحدث بهذا نشاطا علميا ملحوظا تمثل في ذلك المسلك الذي استمر بعده حاملا بصماته في الذود عن حمى القرعان الكريم في نقله وأداء تلاوته ورسمه .

<sup>1</sup> . انظر الانصاف على الكشاف : 441/4 ، الماش : 2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 476/3

كما يتلخص من مجموع ما قدمناه من موازنة بين مسلكيهما في التفسير بالمأثور تقدم أبي حيان عن الزمخشري بشكل واضح من مختلف الجوانب .

ففي تفسير القراءان بالقراءان كان أبو حيان يميل إلى الاقتصاد في النقل لأنه كان يرى في تفسير القراءان بالسنة ما يسد مسده ، ولئن كان الزمخشري قد أكثر من تفسير القراءان بالقراءان فلأنه كان يفعل ذلك فرارا من السنن التي تصادم مذهبه ، كما أن ما نقله في كشفه من تفسير للقراءان بالقراءان إنما كان قائما على الاجتهاد لا على النقل فصار تفسيره هذا لا ينفك عن معنى التفسير بالرأي .

وأما في تفسير القراءان بالسنة فقد اتضح تقدم أبي حيان في مجال الرواية ، وفي الوقت الذي كان يميل إلى الصحيح والمشهور من مرويات السنة وأقوال الصحابة والتابعين في التفسير كان ينفر من المرويات السقيمة والقصص والأخبار الواهية والموضوعة ، مع ما أبداه من يقظة وحذر في نقد تلك المرويات وتمحيضها ، فجاء تفسيره البحر المحيط أسلم وأحكم في هذه الجوانب من كشف الزمخشري الذي غلبت عليه المرويات الضعيفة والموضوعة بسبب ضعف إلمامه بأحكام هذا الفن رواية ودراية ، وقلة التزامه بقواعده .

القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير  
عبد القادر للعالم الإسلامي

الكتاب الثالث

مسائلها وفي التفسير

بأولها

جامعة الأميرة  
العلوم الإسلامية

## فصل تمهيدي

مسلكهما في التفسير بالرأي

جامعة الأميرة  
عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبالرغم من اهتمام كلا المفسرين بالتفسير بالنقل فقد كان التفسير بالرأي هو الصيغة الغالبة على تفسيريتهما ، واشتراكهما في هذه الميزة لا يعني بالضرورة تشابههما في المسلك ، بل كان لكل واحد منهما طريقته في توظيف الرأي والاجتهاد في تفسير القراءان ، وهذا ما سنعرض له في المبحثين الآتيين .

## المبحث الأول

### مسلك الزمخشري في التفسير بالرأي

1 - ظهر الزمخشري في تفسيره الكشاف معتزليا بجاهرا باعتزاله ، متبنيا لأصوله ومدافعا بكل حرارة عن مذهبه ، وقد تجلى هذا في الأسس التي بنى عليها مسلكه في التفسير بالرأي.

فصرح في مقدمة تفسيره أن الداعي إلى تأليف هذا التفسير هو تلبية رغبة أتباع وأنصار مذهبه الإعتزالي ، في وضع مصنف في هذا الباب يبين عن مسلكهم في فهم نصوص الكتاب والسنة . قال الزمخشري : ( ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العذلية ، الجامعة بين علم العربية و الأصول الدينية ، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا في الاستحسان والتعجب واستطبروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا إلي مقترحين أن أملي عليهم " الكشاف عن حقائق التبريل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل " فاستعفيت ، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين ، وعلماء العدل والتوحيد .. )<sup>1</sup>

2 - ولما كان شعار المعتزلة هو تقديس العقل وتحكيمه ، ونبد التقليد ومجانبة ، فإن الزمخشري قد بادر في مقدمة تفسيره إلى الدعوة إلى إعمال الرأي والفكر ، لأن كثيرا من حقائق هذا القرآن لا تنكشف - حسب رأيه - لمقلد . ( فهناك من لطائف معان يصدق فيها مباحث للفكر ، ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار ، لا يكشف عنها من الخاصة

<sup>1</sup> . الكشاف : المقدمة ، ص : ١١

إلا أوحدهم وأخصهم ، وإلا واسطتهم وفصهم ، وعامتهم عماء عن إدراك حقائقها بأحداقهم ، عناة في يد التقليد ، لا يمن عليهم بجز نواصيهم وإطلاقهم .<sup>1</sup>

وقد أبان أكثر عن مسلكه هذا عندما قال : ( امش في دينك تحت راية السلطان ، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان ، فما الأسد المحتجب في عرينه ، أعز من الرجل المحتج على قرينه ، وما العر الجرباء تحت الشمال البليل ، أذل من المقلد عند صاحب الدليل )<sup>2</sup> وفي سبق العقل للشريعة يقول عند تفسير قوله تعالى : " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ " سورة الشورى: 52

يقول الزمخشري : ( فإن قلت : قد علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله عليه ، فما معنى قوله : " ولا الإيمان " والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده ، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده ، فكيف لا يعصمون من الكفر ؟ قلت : الإيمان اسم يتناول أشياء ، بعضها الطريق إليه العقل ، وبعضها الطريق إليه السمع ، فعنى ما الطريق إليه السمع دون العقل ، وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي ، ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى : " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ " <sup>3</sup> بالصلاة ، لأنها بعض ما يتناول الإيمان .<sup>4</sup>

ومن هذا المنطلق تحدث الزمخشري عن الحسن والقبح العقليين ، فقرر بأنه قد يرى العقل صواباً ثم يخطئه السمع ، ودلل على صحة هذه القاعدة وجعلها أصلاً من الأصول التي يفسر القرآن في ضوئها ، وهذا واضح في كثير من المواضع في تفسيره .  
من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا " سورة مريم : 47

قال الزمخشري متحدثاً عن وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له : ( فإن قلت : كيف جاز له أن يستغفر للكافر وبعده بذلك ؟ قلت : لقائل أن يقول إن الذي منع من الإستغفار

<sup>1</sup> . الكشاف : المقدمة . ص : 7

<sup>2</sup> . الزمخشري ، أطوار الذهب في المواظ والمخط : 46 . القلة : 37

<sup>3</sup> . سورة البقرة : 143

<sup>4</sup> . الكشاف : 235/4



للكافر إنما هو السمع ، فأما القضية العقلية فلا تأباه ، فيجوز أن يكون الوعد بالإستغفار والوفاء به قبل ورود السمع بناء على قضية العقل ، والذي يدل على صحته قوله تعالى : " إلا قول إبراهيم لأستغفرن لك " فلو كان شارطا للإيمان لم يكن مستكرا ومستثنى عما وحيث فيه الأسوة . وأما : " عن موعدة وعدها إياه " فالواعد هو إبراهيم لا آزر ، أي : ما قال " واغفر لأبي " إلا عن قوله " لأستغفرن لك " ، وتشهد له قراءة حماد الراوية : وعدها أباه ، والله أعلم .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " .. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَمَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِي وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ .. " سورة سبأ : 13

قال الزمخشري : ( فإن قلت : كيف إستجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير ؟ قلت : هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع ، لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب .<sup>2</sup> 3 — والزمخشري إذ يوظف عقله بقوة في فهم النص ، يجعله لا يقنع بظاهر المعنى الذي لا يعد شيئا بجانب تدبره واستبطان معانيه ، وفي ذلك يقول : ( وتدبر الآيات : التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسننة ، لأن من اقتنع بظاهر المتلو ، لم يخل منه بكثير طائل ، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يخلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها )<sup>3</sup>

ومهما أطلق الزمخشري العنان لعقله في تدبر معاني القرآن ، فإنه يعود أحيانا ليقرر قصوره عن فهم بعض آياته ، فلا يسمع العقل حينئذ إلا التسليم للحكمة الإلهية ، لأن الله تعالى لا يفعل شيئا إلا لحكمة ، فأحيانا تظهر لنا ، وأحيانا تخفى عنا هذه الحكمة .

ففي تفسير قوله تعالى : " الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. " سورة الفرقان : 59

يقول : ( وأما الداعي إلى هذا العدد — أعني الستة — دون سائر الأعداد فلا نشك أنه داعي حكمة ، لعلمنا أنه لا يقدر تقديرا إلا بداعي حكمة ، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نتدري لمعرفة ، ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر ، وحملية

<sup>1</sup> . الكشاف : 21/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 572/3

<sup>3</sup> . الكشاف : المقدمة .

العرش ثمانية ، والشهور اثنا عشر ، والسموات سبعا والأرض مثل ذلك ، والصلوات  
 حمسا ، وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك ، والإقرار بدواعي الحكمة في جميع  
 أفعاله وبأن ما قدره حق وصواب هو الإيمان ، وقد نص عليه في قوله : " وما جعلنا  
 أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين  
 أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين  
 في قلوبهم مرض <sup>والكافرون</sup> ما إذا أراد الله بهذا مثلا.. " <sup>1</sup>

ومع تسليم الزمخشري بعجز العقل أحيانا عن استنباط بعض نصوص القرآن ، ووقوفه  
 مندهشا أمام روعة إعجازه ، وخفاء الحكمة الإلهية في كثير من الأحكام والأوامر  
 والنواهي والأخبار في كتابه ، فإنه كثيرا ما يطلق العنان لعقله ليحلق في أجواء بعض  
 النصوص من غير ضابط ، فيقع في محاذير مذمومة .

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك  
 الذين صدقوا وتعلم الكاذبين " سورة التوبة : 43

قال الزمخشري : ( كناية عن الجنابة ، لأن العفو رادف لها ، ومعناه : أخطأت  
 وبس ما فعلت ) <sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني  
 ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين " سورة هود : 46  
 قال الزمخشري : ( وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلا وغباوة ، ووعظه ألا يعود إليه  
 وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين ) <sup>3</sup>

ففي كلا الموضوعين نلاحظ الزمخشري قد طاش به عقله ، وصدر عنه من الكلام تجسسه  
 الأنبياء الأخيار ما يتره عنه كل مؤمن أن ينطق به ، فضلا عن أن يجعله تفسيرا لكتاب الله  
 تعالى . بل ذهب إلى تحميل بعض ألفاظ القرآن مالا تحتمله ، مما يميل بنا أحيانا إلى إسائة  
 الظن به . فلا ندري كيف استنبط من قوله تعالى : " عفا الله عنك " قوله : بس ما فعلت  
 ، فستان بين العبارة القرآنية التي هي في غاية الأدب والعطف ، وبين عبارة الزمخشري التي

<sup>1</sup> . الكشاف : 288/3 .

<sup>2</sup> . الكشاف : 274/2 .

<sup>3</sup> . الكشاف : 400/2 .

لم يرد مثلها في القرآن الكريم إلا في ذم سلوك الذي كفروا وأشركوا . وكذلك في المثال الثاني لا ندري كيف استنبط من قوله تعالى لنوح عليه السلام : " ما ليس لك به علم " صفة الغباوة التي تنال أحد الصفات الأساسية عند الأنبياء ، وهي الفطنة ، فكان الأولى به وهو يتحدث عن الأنبياء الكرام ، أن يتخير الألفاظ والعبارات التي تفيض أدبا ، وتليق بمقامات أصحاب العصمة ، وتتطابق ومعاني القرآن الكريم ومقاصده ، ولا أحسب أن الزمخشري يقصر رصيده اللغوي عن ذلك .

كما جانب الصواب في تفسير آيات أخرى عندما حكم فيها محض العقل دون مراعاة لسياق النص ، والفرض الذي ترمي إليه . فجاء كلامه في غاية البطلان ، مخالفا للمسلمات العلمية في عصرنا ، بل وفي عصره أيضا .

فجده مثلا في تفسير قوله تعالى : " أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ " .. سورة البقرة : 18

يقول : ( وفيه أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه ، ولا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر ، ويؤيده قوله تعالى <sup>1</sup> : " وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ " .. <sup>2</sup> )

فلا الآية الأولى ولا الثانية وردتا لتحديد مصدر المطر وجهته ، ولكن لبيان تفرد الله في ملكه وسلطانه ، وحاجة العباد إلى فضله ورحمته وعطائه ، ومثله قوله تعالى : " وفي السماء رزقكم وما توعدون " <sup>3</sup> فإن معنى الآية أن الرزق هو الله ، وليست الآلهة التي يدعونها . ولو احتج محتج بهذه الآية وقال إن هذه الآية دليل على أن مصدر الرزق من السماء ، لكان استدلاله في غاية الفساد .

٤ - ومنها تقديمه المبدأ اللغوي عن غيره في حل إشكالات التفسير ، ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ

<sup>1</sup> . سورة النور : 43

<sup>2</sup> . الكشاف : 246/3

<sup>3</sup> . سورة الذاريات : 22

تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفهلكتنا بما فعل المبطلون" سورة الأعراف : 172 — 173 .

حيث نجد الزمخشري يضرب صفحا عن كثير من الروايات المأثورة في تفسير هذه الآيات ، سواء منها المرفوعة إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — أو الموقوفة على ابن عباس وغيره ، ويذهب في تفسيرها مذهبا عقليا لغويا بجنا ، لأنه يجد في اللغة مجالا رحبا لتقليب الآية على وجوهها التي تحتملها ، واختيار ما يناسبه منها . وفي ذلك يقول : ( وقوله " ألسنت بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا " من باب التمثيل والتخييل ، ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووجدانيته ، وشهدت بما عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم ، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكانه أشهدهم على أنفسهم وقررههم وقال لهم : ألسنت بربكم ؟ وكأنهم قالوا : بل أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوجدانيتك . وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام ، وفي كلام العرب . ونظيره قوله تعالى : " إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون " ، " فقَالَ لَهُمَا وَاللَّأَرْضِ إِنِّيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالْنَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " . وقوله : إذ قالت الأنساع للبطن الحق . قالت له ربيع الصبا قرقار .

ومعلوم أنه لا قول ثم ، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى .<sup>1</sup>

فلاحظ أن الزمخشري قد حمل هذا الخبر القرآني محمل التمثيل والتخييل وفق ما تعرفه العرب في لغة خطابها ، دون أن يعرج على ما ذكره المفسرون من آثار في هذا الموضع . وهو في ذلك تابع لشيوخه من المعتزلة ، بل ناقل عنهم دون أن يصرح بذلك . فبالرجوع إلى أمالي الشريف المرتضى المعتزلي في تفسير هذه الآيات ، نجد نفس التفسير الذي ورد في كشاف الزمخشري ، بل نفس العبارات والشواهد .

يقول الشريف المرتضى : ( أنه تعالى لما خلقهم وركبهم تركيبا يدل على معرفته ، ويشهد بقدرته ووجوب عبادته ، فأراهم العبر والآيات والدلائل في أنفسهم وفي غيرهم ، كان بمزلة المشهد لهم على أنفسهم ، وكانوا في مشاهدة ذلك ومعرفته وظهوره فيهم على

<sup>1</sup> . الكشاف : 176/2

الوجه الذي أراده الله تعالى ، وتعذر امتناعهم منه ، وانفكاكهم من دلالة ، بمنزلة المقسر  
المعترف ، وإن لم يكن هناك إشهاد ولا إقرار على الحقيقة ، ويجري ذلك مجرى قوله  
تعالى : " ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالنا أتينا  
طائعين " ، وإن لم يكن منه تعالى قول على الحقيقة ، ولا منهما جواب .<sup>1</sup>

3 — سلوكه مسلك التأويل ، وحمل المتشابهات على المحكمات ، وهو باب عريض عند  
المعتزلة ، نسيه عليه هنا في كلامنا على التفسير بالرأي عند الزمخشري ومسلكه فيه ،  
وستريده بيانا عند كلامنا على مسلكه في تعامله مع آيات العقائد .

و خلاصة القول في هذا أن الزمخشري قد جعل الآيات التي يخالف ظاهرها مذهبه من  
متشابه القرآن ، والآيات التي يراها موافقة لمذهبه هي المحكمات من القرآن ، ثم طبق  
قاعدة حمل المتشابهات على المحكمات ، فصحت فيه المقولة الشهيرة لعلي بن أبي طالب  
رضي الله عنه<sup>2</sup> : " كلمة حق أريد بها باطل " فالقاعدة صحيحة ولكن الخطأ — كما  
أراه — في تعيين المحكمات والمتشابهات .

ولنأخذ مثالا واحدا على ذلك ، لنرى مدى اجتهاد الزمخشري ومحاولاته الصعبة في  
تأويل الآيات لتوافق مذهبه ، أو على الأقل لا تصادمه .

ففي تفسير قوله تعالى : " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة " <sup>3</sup>  
ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون " البقرة : 7

قال الزمخشري : فإن قلت ما معنى الختم على القلوب والاسماع و تغشية الأبصار ؟  
قلت : لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز ، ويحتمل أن يكون من  
كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل .

أما الاستعارة فإن تجعل قلوبهم ، لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرهم من  
قبل إعراضهم عنه ، واستكبارهم عن قبوله واعتقاده ، وأسماعهم لأنها ممحمة وتنبسو عن  
الإصغاء إليه ، وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم ، وأبصارهم لأنها لا تحتلي آيات

<sup>1</sup> . الشريف المرتضى ، غرر الفوائد ودرر الفوائد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ج 28/1  
<sup>2</sup> . ذكر ابن كثير نقلا عن ابن جرير أن عليا بنينا هو يحط يوما إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال : يا علي أشركت في دين الله  
الرجال ، ولا حكم إلا لله ، فتأدوا من كل جانب : لا حكم إلا لله ، فجعل على يقول : هذه كلمة حق وادها باطل . انظر :  
الهداية والنهاية : 282/7 .

الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطسي عليها  
وحجبت ، وحيل بينها وبين الإدراك .

وأما التمثيل فإن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من  
أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الإستفعا عها بالختم والتغطية . وقد جعل بعض  
المأزنيين الحيسة في اللسان والعي ختما فقال :

ختم الإله على لسان عذافر ختما فليس على الكلام بقادر  
وإذا أراد النطق خلعت لسانه لحما يجره لصقر ناقر

فإن قلت : فلم أسد الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه يدل على المنع مسن قبول الحق  
والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح ، والله يتعالى عن فعل القبيح علوا كبيرا لعلمه بقبحه وعلمه  
بغناه عنه وقد نص على تزيه ذاته بقوله : " وما أنا بظلام للعبيد " <sup>1</sup> ، " وما ظلمناهم  
ولكن كانوا هم الظالمين " <sup>2</sup> ، " إن الله لا يأمر بالفحشاء " <sup>3</sup> ، ونظائر ذلك مما نطق به  
التزليل ؟ قلت القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها ، وأما إسناد الختم إلى الله عزو  
وحل فلينبه على أن هذه الصفة في فرط ممكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقى غير العرضي  
. ألا ترى إلى قولهم : فلان مجبول على كذا ومفظور عليه ، يريدون أنه بليغ في الثبات  
عليه . وكيف يتخيل ما تحيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم  
سماحة حالهم ن ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم ؟ ويجوز أن تضرب الجملة كما هي ،  
وهي ختم الله على قلوبهم مثلا كقولهم : سال به الوادي ، إذا هلك . وطارت به العنقاء  
إذا أطال الغيبة . وليس للوادي ولا للعنقاء عمل في هلاكه ولا في طول غيبته ، وإنما هو  
تمثيل مثلت حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي ، وفي طول غيبته بحال من طارت به  
العنقاء . فكذلك مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجاني عن الحق بحال قلوب  
ختم الله عليها نحو قلوب الأغمات التي هي في خلوها عن الفطن كقلوب البهائم ، أو بحال  
البهائم أنفسها أو بحال قلوب مقدر ختم الله عليها حتى لا تعي شيئا ~~ولا تفهم~~ ، وليس له  
عز وحل فعل في تجافبها عن الحق ونبوها عن قبوله ، وهو متعال عن ذلك ، ويجوز أن

<sup>1</sup> . سورة ق : 29

<sup>2</sup> . سورة الزمر : 76

<sup>3</sup> . سورة الأعراف : 27

يستعار الإسناد في نفسه من غير الله الله ، فيكون الختم مسندا إلى اسم الله على سبيل المجاز ، وهو لغيره حقيقة . تفسير هذا : أن للفعل ملابسات شتى بلا بس الفاعل والمفعول به المصدر والزمان والمكان والمسبب له ، فإسناده إلى الفاعل حقيقة ، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل ، كما يضاهي الرجل الأسد في جرائته فيستعار له اسمه ، فيقال في المفعول به : عيشة راضية ، وماء دافق ، وفي عكسه : سبيل مفعم ، وفي المصدر : شعر شاعر ، وذئبل ذائل . وفي الزمان : نهاره صائم

، وليله قائم . وفي المكان : طريق سائر ، ونهر جار . وأهل مكة يقولون : صلى المقام . وفي المسبب : بنى الأمير المدينة ، وناقض ضبوت وحلوب . وقال :

إذا رد عاني القدر من يستعيرها

فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر ، إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره ومكنه ، أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب . ووجه رابع : وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن ، ولا تفني عنهم الآيات والنذر ، ولا تجدي عليهم اللطاف المحصلة ولا المقررة إن أعطوها ، لم يبق — بعد استحكام العمى بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعا أو اختيارا — طريق إلى إيمانهم إلا القسر والإجاء ، وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسروهم ويلجئهم ثم لم يقسروهم ولم يلجئهم ، لكلا ينتقض الغرض في التكليف ؛ عبر عن ترك القسر والإجاء بالختم ، إشعارا بأنهم الذين تراسى أمرهم في التصميم على الكفر ، والإصرار عليه إلى حد لا يتأهون عنه إلا بالقسر والإجاء ، وهي الغاية القصوى في وصف لجأهم في الغي ، واستشرائهم في الضلال والبغي .

ووجه خامس : وهو أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولونه ثم كما بهم من قولهم : " قلبونا في أكنة مما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب " ونظيره في الحكاية والنهكم قوله تعالى<sup>1</sup> : " لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة " <sup>2</sup>

<sup>1</sup> . سورة البينة : 1

<sup>2</sup> . الكفائف : 48/1

6 — ومهما كان الزمخشري يميل إلى القول بالتأويل ويتذرع به في صرف بعض آي القرآن عن المعاني التي قد تعارض معتقده ، فإنه يرفض التأويل الذي فشا بين بعض النلس على طريقة الصوفية ، وقد أبان عن موقفه هذا عندما سخر من أصحاب هذا المسلك في فهم كتاب الله تعالى ومذهبهم الغريب في حمل كلام الله على معان بعيدة لا تدل عليها نصوص القرآن من قريب أو بعيد ، وذلك في موضع واحد من كشافه في تفسيره لقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا من يُرْتَدِّدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .. " سورة المائدة : 56

قال الزمخشري : ( محبة العباد لهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وألا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه ، ومحبة الله لعباده أن يشبههم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ، ويشفي عليهم ويرضى عنهم ، وأما ما يعتقد أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوأهم طريقة ، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء ، وهم الفرقة المتفعلة المتفعلة من الصوف ، وما يدينون به من المحبة والعشق ، والتغني على كراسيهم خرمها الله ، وفي مراقصهم عطلها الله ، بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاغم التي أين عنها صعقة موسى عند ذلك الطور ، فتعالى الله عنه علوا كبيرا .. )<sup>1</sup>

وإذا كنا نوافق الزمخشري في قدر من اعتراضه على هذا النوع من الفهم والتفسير لكلام الله تعالى ، فإننا نخالفه في نفي محبة العبد لربه ، ونتوقف على الأقل في قبول تفسيره محبة العبد لربه بأداء الطاعات واجتناب المنهيات ، لأن محبة العبد لربه لا يحيلها الشرع ولا العقل ، فلا مانع من حمل اللفظ على حقيقته ، كما أن جعل التصوفة كلها تحت حكم واحد وجعلهم في مرتبة واحدة غير مسلم به ، ولذلك كله وقف ابن المنير عند الكلام السابق للزمخشري<sup>2</sup> ، ورد عليه ردا مسهبا مبينا غلوه وتحامله بغير حق على فئة من أهل الملة تفاوتت أفهامهم لكتاب الله تعالى ، فمنهم من أحسن الفهم وأصاب ، ومنهم من

<sup>1</sup> . الكشاف : 646/1 . 647 .

<sup>2</sup> . انظر الانصاف من الكشاف ، الماش : 6 . على الكشاف : 646/1 .



أخطأ وزلت قدمه ، ولكن ليس من العدل والإنصاف أن نحمل من أحسن الفهم وزر من أساء الفهم ، والله تعالى يقول<sup>1</sup> : " أَلَا تَرَى زَوَازِرَ الَّذِينَ نَزَرْنَا لَهُم مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَن يَقُولُوا هَٰذَا نَحْنُ الْمُتَّقِينَ " .

وبذلك نجد الزمخشري في الوقت الذي رفض التفسير الصوري للقرآن الكريم قد اشتط في الحكم ، وذهب مذهب الغلو والإفراط في رده ، وكان الذي يليق به القول بالتفصيل ، فما كان موافقا لظاهر النص القرآني وجاريا على المشهور من قواعد لغة العرب وغير مجاف لروح الشريعة قبلناه وقلنا به ، وما كان على خلاف هذه الضوابط رددناه على أصحابه .

تلك هي المعالم التي سار عليها الزمخشري في جانب التفسير بالرأي من كشافه ، وهي التي ستربدها توضيحا من خلال الفصول اللاحقة .

وقبل أن نمضي في تفصيل هذه المعالم عند الزمخشري في كشافه سنتحدث عن معالم التفسير بالرأي عند أبي حيان من خلال كتابه البحر المحيط ، وهذا ما سنعرفه في المبحث اللاحق بحوله تعالى ، وهو ما يهين لنا بعدها مجال الموازنة بينهما في مسلكهما في التفسير بالرأي .

## المبحث الثاني

### مسلك أبي حيان في التفسير بالرأي

اهتم أبو حيان بالتفسير بالرأي وانتصر للقائلين به ، ورد بأدلة قوية على المانعين له في مقدمة تفسيره ، ونذكر منها:

١- أن في القرآن جوانب متعددة لها علاقة بتفسير القرآن وتيسير فهمه في لفته ونحوه وبيان إعجازه وغيرها ، مازالت على امتداد القرون في حاجة إلى من يبرزها ويجليها ، ولا ينهض بهذا العمل - في نظره - إلا ذوو القدرات الفائقة ، ليقرر بعد ذلك أن إدراك

<sup>1</sup> سورة النجم : 37

هذه الجوانب ليس مقصورا على جيل واحد مضى ، بل كل من حاز هذه العلوم أمكنه أن يغوص في أعماق آيات الكتاب ليعود بالجديد ، وهو يعتبر نفسه واحدا منهم ، وفي ذلك يقول ( فعكفت على تصنيف هذا الكتاب وانتخاب الصفو واللباب ، أجيل الفكر فيما وضع الناس في تصانيفهم ، وأنعم النظر فيما اقترحوه من تأليفهم .. وأضيف إلى ذلك ما استخرجته القوة المفكرة من لطائف علم البيان ، المطلع على إعجاز القرآن ، ومن دقائق علم الإعراب ، المغرب في الوجود أي إغراب ، المقتنص في الأعمار الطويلة من لسان العرب وبيان الأدب . فكم حوى من لطيفة فكري مستخرجها ، ومن غريبة ذهني منتجها ، تحصلت بالعكوف على علم العربية ، والنظر في التراكيب النحوية ، والتصرف في أساليب النظم والنثر ، والتقلب في أفانين الخطب والشعر ، لم يهتد إلى إثارتها ذهن ، ولا صاب بريقها من ، وأنى ذلك وهي أزاهر حمائل غفل ، ومناظر ما لمستغلق أبوابها قفل ، في إدراك مثلها تفاوت الأفهام ، و تنبارى الأوهام . وليس العلم على زمان مقصورا ، ولا في أهل زمان محصورا ، بل جعله الله حيث شاء من البلاد ، وبثه في التهائم والنجد ، وأبرزه أنوارا تتوسم ، و أزهارا تتنسم )<sup>1</sup>

2 — أن القرآن الكريم إنما نزل بلسان عربي مبين ، فمن أحاط بعلوم هذه اللغة أمكنه فهم هذا الخطاب ، وفي ذلك يقول أبو حيان : ( ومن أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة ، وارتقى إلى تمييز حسن تركيبها وقبحه فلن يحتاج في فهم ما تركيب من تلك الألفاظ إلى مفهوم ولا إلى معلم ، وإنما تفاوت النلس في إدراك هذا الذي ذكرناه فلذلك اختلفت أفهامهم وتباينت أقوالهم . وقد جربنا الكلام يوما مع بعض من عاصرنا فكان يزعم أن علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني تراكيبه بالإسناد إلى مجاهد وطاوس وعكرمة وأضرامهم ، وأن فهم الآيات متوقف على ذلك ، والعجب أنه يرى أقوال هؤلاء كثيرة الإختلاف متباينة الأوصاف ، متعارضة يتقض بعضها بعضا . ونظير ما ذكره هذا المعاصر أنه لو تعلم أحدنا لغة السترك أفرادا وتركيبا حتى صار يتكلم بتلك اللغة ويتصرف فيها نظما ونثرا ، ويعرض ما تعلمه على كلامهم فيجده مطابقا للفتهم قد شارك فيها فصحاءهم ، ثم جاءه كتاب بلسان السترك

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 3/1

فيحجم عن تدبره وعن فهم ما تضمنه من المعاني حتى يسأل عن ذلك سنقرا التركي أو سنجرا ، ترى مثل هذا يعد من العقلاء ، وكان هذا المعاصر يزعم أن كل آية نقل فيهما التفسير خلف عن سلف بالسند إلى أن وصل ذلك إلى الصحابة ، ومن كلامه أن الصحابة سألكوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن تفسيرها ، هذا وهم الفصحاء الذين نزل القرآن بلسانهم. وقد روي عن علي كرم الله وجهه وقد سئل : هل خصكم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بشيء فقال : ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة أو فهما يوتاه الرجل في كتابه . وقول هذا المعاصر يخالف قول علي رضي الله عنه ، وعلى قول هذا المعاصر يكون ما استخرجه الناس بعد التابعين من علوم التفسير ومعانيه ودقائقه ، وإظهار ما احتوى عليه من علم الفصاحة والبيان والإعجاز لا يكون تفسيراً حتى ينقل بالسند المتصل إلى مجاهد ونحوه ، وهذا كلام ساقط<sup>1</sup>

وبتتبعي لمظاهر وجوانب التفسير بالرأي عند أبي حيان في كتابه البحر المحيط تبين لي أن معالم التفسير بالرأي عنده تلتخص فيما يأتي :

1 — استرشاده بالتفسير بالمأثور قبل أن يدلي برأيه واجتهاده ، فأبو حيان لا يكاد يقول برأيه في آية حتى يسهب في نقل المأثور في تفسيرها ، ثم يتبع ذلك بما يلوح من ظاهر النص القرآني ، ورأيه في ذلك لا يعدو في الغالب أن يكون رأياً انتقائياً من تلك الأقوال المنقولة عن السلف من الصحابة والتابعين .

ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " أَفَفَرَّ دِينَ اللَّهِ يَبْقُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا.." سورة آل عمران: 82

قال أبو حيان : ( قال ابن عباس : أسلم طوعاً بجماله الناطقة عند أخذ الميثاق عليه ، وكرها عند دعاء الأنبياء لهم إلى الإسلام .

وقال مجاهد : سجد ظل المؤمن طوعاً وسجد ظل الكافر كرها ..

وقال مجاهد أيضاً وأبو العالية والشعبي ما يقارب معناه : أسلم أقر بالخالقية والعبودية ، وإن كان فيهم من أشرك في العبادة ، فمن أشرك أسلم كرها ، ومن أخلص أسلم طوعاً .

وقال الحسن : أسلم قوم طوعاً وقوم خوف السيف .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 5/1

وقال قتادة : الإسلام كرها هو إسلام الكافر عند الموت والمعاناة حيث لا ينفعه .  
ثم قال أبو حيان بعد هذه الأقوال وغيرها : والذي يظهر عموم من في السماوات  
وخصوص من في الأرض ، والطوع هو الذي لا تكلف فيه ، والكراه ما فيه مشقة ،  
فإسلام من في السماوات طوع صرف ، إذ هم خالون من الشهوات الداعية إلى  
المخالفة ، وإسلام من في الأرض من كان منهم معصوما كان طوعا ، ومن كان غير  
معصوم كان كرها ، بمعنى أنه فيه مشقة ، لأن التكاليف جاءت على مخالفة الشهوات  
الفسانية ، فلو لم يأت رسول من الله مبشرا بالثواب ومنذرا بالعقاب لم يلتزم الإنسان  
شيئا من التكاليف .<sup>1</sup>

2 - وأبو حيان لا يتقدم برأي أو اجتهاد في تفسير آية ، بل لا يقبل نقلا عن الصحابة  
والتابعين ومن جاء بعدهم إذا كان في السنة الصحيحة ما يفني عن ذلك ، ونراه في كثير  
من المواضع يرد أقوال الرجال لأن السنة تتقدم على ذلك ، ومثال ذلك ما جاء في تفسير  
قوله تعالى : " .. وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم وستريد المحسنين  
" سورة البقرة : 57

قال أبو حيان : ( وفي كيفية دخولهم الباب أقوال : قال ابن عباس وعكرمة دخلوا  
من قبل أستاهم ، وقال ابن مسعود : دخلوا مقنعي رؤوسهم ، وقال مجاهد : دخلوا  
على حروف أعينهم ، وقال مقاتل : دخلوا مستلقين ، وقيل دخلوا مترحفين على ركبهم  
عنادا وكبرا . والذي ثبت في البخاري ومسلم<sup>2</sup> أنهم دخلوا الباب يزحفون على  
أستاهم ، فاضمحللت هذه التفاسير ، ووجب المصير إلى تفسير رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم .<sup>3</sup>

وإذا رجعنا إلى الكشف للزمخشري وجدناه ينقل مجموعة آراء في هذه الآية دون أدنى  
إشارة إلى ما جاء في السنة في تفسيرها ، فيقول ( أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب  
شكرا لله تعالى وتواضعا ، وقيل السجود أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين ، ليكون دخولهم

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 515/2

<sup>2</sup> . البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب التفسير ، باب : " وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا .. "

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 222/1

بخشوع وإحبات ، وقيل طوطى لهم الباب ليخفصوا رؤوسهم ، فلم يخفصوها ، ودخلوا  
مرحفين على أوراكهم .<sup>1</sup>

ومثل ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " والفجر وليالٍ عشرٍ والشفع والوتر والليل  
إذا نسري " سورة الفجر : 1 - 4

قال أبو حيان : ( والشفع والوتر ، ذكر في كتاب التحرير والتحبير فيها ستة وعشرين  
قولا ضجرتنا من قراءتها فضلا عن كتابتها في كتابنا هذا . وعن عمران بن حصين عن  
النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر . وروى  
حابر عنه - صلى الله عليه وسلم - الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة .<sup>2</sup>

3 - كما يرفض أبو حيان أن بدلي برأيه في تفسير الآية إذا كان مضمونها مما ليس للرأي  
فيه مجال ، ومن هذا المنطلق نجد يرد على الإمام الماتريدي<sup>3</sup> فيما ذهب إليه في تفسير قوله  
تعالى : " هنالك دعا زكرياء ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء"  
سورة آل عمران : 38

قال أبو حيان : ( وقال الماتريدي : كانت نفسه تحدثه بأن يهب الله له ولدا يبقى بسبه  
الذكر إلى يوم القيامة ، لكنه لم يكن يدعو مراعاة للأدب ، إذ الأدب ألا يدعو لمباد إلا  
فيما هو معتاد الوجود ، وإن كان الله قادرا على كل شيء ، فلما رأى عندها ما هو  
ناقض للعادة ، حمله ذلك على الدعاء في طلب الولد غير المعتاد .

ثم قال أبو حيان : ( وقوله كانت تحدثه نفسه بذلك يحتاج إلى نقل .<sup>4</sup>

4 - استثناسه بظاهر النص القرآني فيما يستبعده أو يقدمه من الآراء في تفسير الآية ، وهو  
في ذلك معتد برأيه ، ولا يبالي بمخالفة أكثرية المفسرين ، كما لا يفتر بما ينسب لبعض  
كبار السلف من التفسير وهو بعيد عن مضمون النص ، مما يبعد معه أن يكون صادرا عن  
مثلهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها :

<sup>1</sup> . الكشاف : 142/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 461/8

<sup>3</sup> . الماتريدي : هو محمد بن محمد بن محمود ، أبو منصور الماتريدي ، السمرقندي ، الملقب - إمام الهدى ، وإليه تنسب الماتريديّة ،  
من آثاره : تارخات أهل السنة في قسم الفريمان . تولى سنة : 333هـ - انظر : الجواهر المضية في طبقات الخنفة : 130/2 .

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 444/2

في تفسير قوله تعالى : " رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فساطر  
السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين " سورة  
يوسف : 101

قال أبو حيان : ( وذكر كثير من المفسرين أنه لما عد نعم الله عنده تشوق إلى لقاء ربه  
ولحاقه بصالحى سلفه ، ورأى أن الدنيا كلها فانية فتمنى الموت .  
وقال ابن عباس : لم يتمن الموت حي غير يوسف .

والذي يظهر أنه ليس في الآية تمن ، وإنما عدد نعم الله عليه ثم دعا أن يتم عليه النعم في  
باقي أمره ، أي توفني إذا حان أحلي على الإسلام ، واجعل لحاقي بالصالحين ، وإنما  
تمنى الوفاة على الإسلام لا الموت .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصمك الحجر  
فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا.. " سورة البقرة : 59

نجد أبا حيان ينقل بضعة عشر قولاً للمفسرين في وصف الحجر وطبيعته وتعيينه ، ثم  
يقول : ( فهذه أقوال المفسرين في الحجر ، وظاهرها أو ظاهر أكثرها التعارض .. وظاهر  
القرآن أن الحجر ليس معنا ، إذ لم يتقدم ذكر حجر فيكون هذا معهودا ، وأن الاستسقاء  
لم يتكرر ، لا هو ولا الضرب ، ولا الانفجار ، وأن هذه الكيفيات التي ذكروها لم  
تعرض لها لفظ القرآن ، فيحتمل أن يكون ذلك متكررا ويحتمل أن يكون ذلك مرة  
واحدة ، والواحدة هي المتحققة )<sup>2</sup>

5 - وللتناسب بين الآيات والسور ، والإهتمام بسياق النص القرآني مكانة مميزة في  
التفسير بالرأي عند أبي حيان ، حيث نجد في كثير من مواضع الاختلاف بين المفسرين  
يلجأ للإحتكام للسياق ووجه التناسب بين الآيات ، ليصل بذلك إلى آراء جديدة لم يسبق  
إليها بين المفسرين .

ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء  
إلا إذا منى القى الشيطان في أمينته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم نجحكم الله وآياته والله عليم  
حكيم " سورة الحج : 50

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 349/5

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 277/1

حيث استعان في تفسير هذه الآية بموقعها من السياق ، وهربطها بالموضوع الرئيسي للسورة ، من غير أن يتبع في ذلك ما ذهب إليه كثير من أهل التفسير ، كما اهتدى إلى رأي وجيه في فهم هذه الآية بالكشف عن التناسب القائم بينها وبين الآيات السابقة واللاحقة بما فقال : ( لما ذكر تعالى أنه يدفع عن الذين آمنوا ، وأنه تعالى أذن للمؤمنين في القتال ، وأهم كانوا يخرجوا من ديارهم ، وذكر مسلاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بتكذيب من تقدم من الأمم لأنبيائهم ، وما آل إليه أمرهم من الهلاك إثر التكذيب ، وبعد الإمهال ، وأمره أن ينادي الناس ويخبرهم أنه نذير لهم بعد أن استعجلوا العذاب ، وأنه ليس له تقلص العذاب ولا تأخير ، ذكر له تعالى مسلاة ثانية باعتبار من مضى من الرسل و الأنبياء ، وهو أنهم كانوا حريصين على إيمان قومهم ، متمنين لذلك مثابرين عليه ، وإنه ما منهم أحد إلا الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه وبث ذلك إليهم في نفوسهم ، كما أنه — صلى الله عليه وسلم — كان من أحرس الناس على هدى قومه ، و كان فيهم شياطين كالنضر بن الحارث يلقون لقومه وللوافدين عليه شبها يثبطون بها عن الإسلام ، ولذلك جاء قبل هذه الآية "والذين سعوا في آياتنا معاجزين" وسعيهم بإلقاء الشبه في قلوب من استمالوه ، ونسب ذلك إلى الشيطان ، لأنه هو المغوي والمحرك

شياطين الإنس ، والضمير في أميته عائد على الشيطان ، أي في أمنية نفسه أي بسبب أمنية نفسه ، ومفعول ألقى محذوف لفهم المعنى ، وهو الشر والكفر ومخالفة ذلك الرسول أو النبي ، لأن الشيطان ليس يلقي الخير، ومعنى : فينسخ الله ما يلقي الشيطان أي يزيل تلك الشبه شيئا فشيئا حتى يسلم الناس ، كما قال <sup>1</sup> : " ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا " . ويحكم الله آياته أي معجزاته ، يظهرها محكمة لا لبس فيها ، ليجعل ما يلقي الشيطان من تلك الشبه وزخارف القول فتنة لمريض القلب ولقاسيه ، وليعلم من أوتي العلم أن ما تمنى الرسول والنبي من هداية قومه وإيمانهم هو الحق .

وهذه الآية ليس فيها نسبة شيء إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإنما تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء بما تمنوا .<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . سورة النصر : 2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 380/6

ففسر أبو حيان هذه الآيات بما يتفق والسياق الذي وردت فيه ، ثم استبعد صحة ما ذهب إليه من سبقه من المفسرين بالأدلة العقلية والنقلية فقال : ( وذكر المفسرون في كتبهم — ابن عطية والزمخشري فمن قبلهما ومن بعدهما — ما لا يجوز وقوعه من أحاد المؤمنين منسوباً إلى المعصوم صلوات الله عليه ، وأطالوا في ذلك وفي تقريره سؤالا وجوابا ، وهي قصة مثل عنها محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وصنف في ذلك كتابا . وقال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال ما معناه : إذ رواها مطعون عليهم ، وليس في الصحاح ولا في الكتب الحديثية شيء مما ذكروه ، فوجب اطراحه ، ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه ، والعجب من نقل هذا وهم يتلون في كتاب الله <sup>1</sup> " والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى " ، وقال الله تعالى أمرأ نبيه <sup>2</sup> " قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي " ، وقال تعالى : " ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين .. " <sup>3</sup> وقال : " ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم قليلا .. " <sup>4</sup> فالتشبيث واقع والمقاربة منفية . وقال تعالى : " كذلك لنثبت به فؤادك " <sup>5</sup> وقال تعالى : " سنقرئك فلا تنسى " <sup>6</sup> . فهذه نصوص تشهد بعصمته . وأما من جهة العقول فلا يمكن ذلك ، لأن تجويزه هنا يطرد إلى تجويزه في جميع أحكام الشريعة ، فلا يؤمن فيها التبديل والتغيير ، واستحالة ذلك معلومة . <sup>7</sup>

6 — ولما كان أبو حيان قد أبدى قدرا وافرا من الموضوعية في الأخذ بالتفسير بالرأي ، فإنه لم يتسرع في إصدار حكمه على تفسير المتصوفة للقرآن الكريم ، ولم يجعل هذه الفسحة في درجة واحدة من حيث الفهم لكتاب الله تعالى ، ولكنه فصل القول في تفسيرهم ، فمما كان منه موافقا لما تفهمه العرب من لغتها ، ويحتمله ظاهر النص القرآني ويتفق ومقاصد

<sup>1</sup> . سورة النجم : 1 — 4

<sup>2</sup> . سورة يونس : 15

<sup>3</sup> . سورة الحاقة : 44 — 45

<sup>4</sup> . سورة الإسراء : 74

<sup>5</sup> . سورة الفرقان : 32

<sup>6</sup> . سورة الأعلى : 6

<sup>7</sup> . البحر المحيط : 6/380



الشريعة وأصولها العامة نقل شيئا منه في تفسيره وارتضاه ، وما جرى على خلاف ذلك ممن تسموا بالصوفية ظلما وزورا فإنه كشف زيفه ، ونبه على فسادہ وبعده عن مرامي كتاب الله تعالى .

وقد أبان عن موقفه هذا ابتداء في مقدمة كتابه البحر المحيط فقال : ( وربما ألمت بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبة للدلول اللفظ ، وتجنبت كثيرا مما أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ ، وتركت أقوال الملحدین المخرجين الألفاظ العربي عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى ، وعلى علي كرم الله وجهه ، وعلى ذريته ، ويسمونه علم التأويل .. )<sup>1</sup>

ففي تفسير قوله تعالى : " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فلنخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون " سورة البقرة : 20 - 21

قال أبو حيان : ( قال بعض أصحاب الإشارات : لما امن الله تعالى عليهم بأنه خلقهم والذين من قبلهم ، ضرب لهم مثلا يرشدهم إلى معرفة كيفية خلقهم ، وأنهم وإن كانوا متوالدين من ذكر وأنثى ، مخلوقين من نطفة إذا ممحى ، هو تعالى خالقهم على الحقيقة ومصورهم في الأرحام كيف يشاء ، ومخرجهم طفلا ، ومربيهم بما يصلحهم من غذاء وشراب ولباس ، إلى غير ذلك من المنافع التي تدعو حاجتهم إليها ، فجعل الأرض التي هي فراش مثل الأم التي يفرشها الزوج ، وهي أيضا تسمى فراشا ، وشبه السماء التي علت على الأرض بالأب الذي يعلو على الأم ويغشاها ، وضرب الماء النازل من السماء مثلا للنطفة التي تنزل من صلب الأب ، وضرب ما يخرج من الأرض من الثمرات بالولد الذي يخرج من بطن الأم ، يونس تعالى بذلك عقولهم ويرشدهم إلى كيفية التخليق ، ويعرفهم أنه الخالق لهذا الولد ، والمخرج له من بطن أمه ، كما انه الخالق للثمرات ومخرجها من بطون أشجارها ، ومخرج أشجارها من بطن الأرض ، فإذا أوضح ذلك لهم افردوه بالإلهية وخصوه بالعبادة وحصلت لهم الهداية . )<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 5/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 101/1

وفي تفسير قوله تعالى : " وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَاَنْفَجَرْتُمْ مِنْهَا اثِنْتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. " سورة البقرة : 59

نجده بنقل قول القشيري<sup>1</sup> — ملخصا — على وجه القبول له فيقول : ( قال القشيري في قوله " وإذ استسقى .. " الآية ، إن الذي قدر على غخراج الماء من الصخرة الصماء قادر على إروائكم من غير ماء ، ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه ، واتصال محل الاستعانة إليه ، وليكون لموسى عليه السلام في فضل الحجر مع نفسه شغل ، وتكليفه أن يضرب بالعصا نوع من المعالجة ، ثم أراد أن يكون كل سبط جاريا على سنته غير مزاحم لصاحبه ، وحين كفاهم ما طلبوه أمرهم بالشكر وحفظ الأمر ، فقال : ولا تعنوا ، والمناهل مختلفة ، وكل يرد مشربه ، فمشرب فرات ، ومشرب أحاج ، ومشرب صاف ، .. وسياق كل قوم يقودهم ، فالنفوس ترد مناهل المنى ، والقلوب ترد مناهل التقى ، والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات ، والأشجار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف من حقيقة الوحدة والذات . انتهى كلامه ملخصا . )<sup>2</sup>

فواضح من خلال هذين المثالين أن أبا حيان لم يرد هذه المعاني التي دلت عليها الآيات بالإشارة ، وهي معان زائدة على ما دلت عليه العبارة ، ولكنها لا تنافيها ولا تعارضها . وقد تكرر منه هذا الصنيع في مواضع كثيرة من البحر المحيط وفاء بما خطه لنفسه في مقدمة تفسيره<sup>3</sup> ، حتى إذا عرض لبعض أنواع التفسير الصادرة عن غلاة الصوفية ، أو من يتنسب لهذا المسلك زورا وظلما فإننا نجد أنه لا يتردد في نسف هذه المذاهب الجائرة في تأويل كلام الله تعالى على غير الوجه الذي تفهمه العرب من لغتها .

فمن ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : " إِذَا الشُّمُسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ " سورة التكوير : 1 — 2

<sup>1</sup> . عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري القشيري ، عالم بالفقه والتفسير والحديث والشعر والتصوف ولد سنة : 376هـ ، كان عارفا بالأصول على المذهب الأشعري والفروع على المذهب الشافعي ، من آثاره التيسير في التفسير ، ولطائف الإشارات ، وهو تفسير صوري كامل للقرآن الكريم ، توفي سنة : 465هـ . انظر : طبقات المفسرين للداردي : 338/1 ، والنجوم الزاهرة : 91/5 .

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 231/1 .

<sup>3</sup> . وانظر أيضا : 134/1 . 174/1 . 189/1 .

قال أبو حيان : ( قال ابن عطية : وذهب قوم إلى أن هذه الأشياء المذكورة استعارات في كل ابن آدم وأحواله عند الموت ، فالشمس نفسه ، والنجوم عيناه وحواسه ، وهذا قول ذاهب إلى إثبات الرموز في كتاب الله تعالى ، انتهى . وهذا مذهب الباطنية ومذهب من ينتمي إلى الإسلام من غلاة الصوفية ، وقد أشرنا إليهم في مقدمة هذا الكتاب ، وإنما هؤلاء زنادقة تستروا بالانتماء إلى ملة الإسلام وكتاب الله تعالى جاء بلسان عربي مبين لا رمز فيه ولا لغز ولا باطن ، ولا إيماء لشيء مما تنتحله الفلاسفة ولا أهل الطبائع ، ولقد ضمن تفسيره أبو عبد الله الرازي المعروف بابن خطيب الري أشياء مما قاله الحكماء عنده وأصحاب النجوم وأصحاب الهيئة ، وذلك كله بمنزلة عن تفسير كلام الله تعالى ، وكذلك ما ذكره صاحب التحرير والتحجير في آخر ما يفسره من الآيات من كلام مسن ينتمي إلى الصوف ويسمونها الحقائق ، وفيها ما لا يحل كتابته فضلا عن أن يعتقد ، نسأل الله تعالى السلامة في ديننا وعقائدنا ، وما به قوام ديننا ودنيانا . )<sup>1</sup>

ولما كر أبو حيان على هذا النوع من الفهم والتفسير لكتاب الله تعالى فأبطله ورده ، فإنه سوغ لنفسه أن يقع في أصحاب هذا التفسير للقرآن الكريم ، فذكرهم بأسمائهم وحذر من مصنفات مخصوصة تنسب لهم غير مكتف بالإهمام والتعميم .

فجده ينيه على ما ينسب من تفسير لسهل التستري<sup>2</sup> على سبيل التفسير الإشاري الصوفي للقرآن الكريم ، وهو تفسير شبيه بتفسير الباطنية والملحدة وغيرهم ، مما حملة على وصفه بأنه من بدع التفاسير<sup>3</sup> .

من ذلك مثلا ما ذكره في تفسير قوله تعالى : " والجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ .. " سورة النساء : 36

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 432/8

<sup>2</sup> . هو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله التستري ، أبو محمد ، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم ولد بتستر — الأهواز — وسكن البصرة وتوفي بها ، وصحب ذا النون المصري بمكة سنة خروجها إلى الحج ، اشتهر بأقواله في التصوف ، وله " تفسير القرآن " توفي سنة : 283هـ . انظر : طبقات المفسرين : 210/1 .

<sup>3</sup> . انظر مقاله في فيمن فسره قوله تعالى " وكلم الله موسى تكليما " النساء : 163 . معنى جرحه بأطفاار الجن وعقاب الفتن ، البحر المحيط : 398/3 .

قال أبو حيان : ( ومن غريب التفسير ما نقل عن سهل التستري ، قال : الجار ذي القربى هو القلب ، والجار الجنب هو النفس ، والصاحب بالجنب العقل الذي يجهر على اقتداء السنة والشرائع ، وابن السبيل الجوارح المطيعة . )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ " سورة الرحمن : 15

قال أبو حيان : ( ولسهل التستري كلام في المشرقين والمغربين شبيه بكلام الباطنية المحرفين مدلول كلام الله ضربنا عن ذكره صفحا ، وكذلك ما وقفنا عليه من كلام الغلاة الذين ينسبون للصوفية ، لأننا لا نستحل نقل شيء منه ، وقد أولع صاحب التحرير والتجسير بحب ما قاله هؤلاء الغلاة في كل آية ، ويسمي ذلك الحقائق وأرباب القلوب ، وما ادعوا فهمه في القراءان فأوغلوا فيه لم يفهمه عربي قط ، ولا أراد الله تعالى بتلك الألفاظ ، نعوذ بالله من ذلك . )<sup>2</sup>

كما رد بلهجة قاسية على ابن عربي<sup>3</sup> ومن ذهب مذهبه في تفسير القراءان ، وكشف المزالق التي وقع فيها ، وما وضع في ذلك من مصنفات تليس على الناس النور المبين الذي نطق به القراءان الكريم بعبارة واضحة مشرقة من غير رمز أو لغز .

ففي تفسير قوله تعالى : " .. ذلك تأويل ما لم تشطع عليه ضميراً " سورة الكهف : 81

قال : ( وفي كتاب التحرير والتجسير ما نصه تعلق بعض الجهال بما جرى لموسى مع الخضر عليهما السلام ، على أن الخضر أفضل من موسى ، وطرردوا الحكم وقالوا : قد يكون بعض الأولياء أفض من آحاد الأنبياء ، واستدلوا أيضا بقول أبي يزيد البسطامي<sup>4</sup> : خضت بحرا وقف الأنبياء على ساحله ، وهذا كله من لمرات الرعونة والظنة بالنفس ، انتهى . ثم قال أبو حيان : وهكذا سمعنا من يحكي هذه المقالة عن بعض الضالين المضلين ، وهو ابن عربي الطائفي الحائمي ، صاحب الفتوح المكية ، فكان ينبغي أن يسمى بالقبوح الملكيية ، وأنه كان يزعم أن الولي خير من النبي ، قال : لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة ، والنبي يأخذ بواسطة عن الله ، ولأن الولي قاعد في الحضرة الإلهية ، والنبي مرسل إلى القوم

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 245/3

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 191/8

<sup>3</sup> . هو محمد بن علي بن محمد ، الحائمي الطائفي ، الأندلسي ، الصولي المعروف ، توفي سنة : 638هـ . وقد سبقت ترجمته

<sup>4</sup> . هو عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله البسطامي ، اللخمي ، ضياء الدين ، أبو شعاع ، محدث صوفي ، مفسر ، أديب

، من مصنفاته : لقطات العقول ، ومزاليق العرلة . توفي سنة : 562هـ . شذرات الذهب : 206/4

، ومن كان في الحضرة أفضل ممن يرسله صاحب الحضرة .. إلى أشياء من هذه الكفريات والزنادقة ، وقد كثر معظمو هذا الرجل في هذا الزمان من غلاة الزنادقة القائلة بالوحدة ، نسأل الله السلامة في أدياننا وأبداننا .<sup>1</sup>

والواضح من أدوات التفسير بالرأي عند أبي حيان التي سبق ذكرها والمعالم التي أقام عليها اجتهاده في فهم النص القرآني أنه لم يستقل في فهم الآيات بمجرد الاحتكام لقواعد اللغة العربية ومدلولات ألفاظها ، ولا لمجرد ما ينكشف للعقل ، بل حاول أن يجمع بين ذلك وبين شروط التفسير الأخرى ، حتى لا يكون التفسير العقلي عنده مناقضا للتفسير النقلي ، بل مكملا له ، وبذلك فارق الزمخشري في مسلكه في التفسير بالرأي من عدة جوانب ، وهو ما سنفصله في الفصول اللاحقة من هذا الباب إن شاء الله تعالى .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 156/6 ، وانظر : 131/1 . 133/1 . 46/2 . 511/3

## الفصل الأول

مسلكهما في الكشف عن إعجاز القرآن

جامعة الأمير  
القادر للعلوم الإسلامية

## المبحث الأول

### صلة المعتزلة بموضوع الإعجاز القرآني

يمثل هذا الفصل الجانب البارز في تفسير الكشاف للزمخشري ، بل هو الجانب البارز في تفاسير المعتزلة الذين سبقوه ، لما له من صلة بالدراسات البلاغية التي نشأت في أحضانهم ، وظلت فترة من الزمن حكرا عليهم . ( حيث أن أقدم بيان عن البلاغة ووضع منهج لمن أرادها هو ما وصلنا من " صحيفة بشر بن المعتز " الذي انتهت إليه رئاسة المعتزلة بيفداد ، وهي مشهورة متداولة )<sup>1</sup>

وكان الجاحظ يشيد بهذا السبق للمتكلمين فيقول : ( ولأن كبار المتكلمين ، ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تغيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف ، وقدوة لكل تابع )<sup>2</sup>

وكان من بين هذه المصطلحات مثلا مصطلح " النظم " الذي كان الجاحظ أول من وضعه ، وعلل به الإعجاز القرآني ( لأن الدارسين إلى هذا العهد لم يكونوا مختلفين حول كون القرآن معجزا أم لا ، ولكن حول سر إعجازه )<sup>3</sup> ولما جاء عبد القاهر الجرجاني

<sup>1</sup> . فلسفة البلاغة : 10 ، وانظر الخطيب الغزويني ، الإيضاح في علم البلاغة ، دار الجليل ، بيروت ، ص : 62

<sup>2</sup> . البيان والنبين : 139/1 ، نقلا عن فلسفة البلاغة : 10

<sup>3</sup> . شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ، مكة وهدنة ، القاهرة : 161

استمد منه نظريته التي كانت سندا قويا للزمخشري ، ومرجعاً أساسياً في الكشف عن سر الإعجاز في القرآن الكريم .

وهكذا نشأ هذا العلم على أيدي المتكلمين من علماء المعتزلة ومفكريها من أمثال عمر بن عبيد ، وبشر بن المعتمر ، وأبي عثمان الجاحظ ، وتعهده في فترة التطور والارتقاء الرماني والقاضي عبد الجبار وغيرهما<sup>1</sup> .

ولا شك أن عقول هذه الطائفة التي صقلتها الفلسفة والمنطق اللذان أكبوا على درسهما ، وتعمقوا في مباحثهما ، كانت مهياً للخوض في المسائل البلاغية ودروس البيان ، وتنظيم القول فيهما تنظيمًا دقيقًا ، وربما كانت طبيعة المهمة التي اضطلع بها المعتزلة في الدفاع عن الإسلام ، ومناظرة أعدائه من أصحاب الملل والعقائد الأخرى ، تدفعهم دفعا إلى العناية بمسائل البلاغة والبيان ، وإتقان البحث فيهما ، فقد كانت البلاغة وسيلة من وسائل الإقناع ، وسلاحاً مهماً في المناظرة والجدل<sup>2</sup> .

ومن هنا احتهد المعتزلة في الإحاطة باللغة وآدابها ليتخبروا التعبير المناسب للفكرة ، وليتفهموا النصوص ويفحصوا إلى أسرارها ، ( ولأنهم كانوا يعدون أنفسهم للإنتصار في المناظرات الدائرة بينهم وبين أهل الكتاب من جهة ، وبينهم وبين مخالفيهم من المسلمين من جهة أخرى ، ولهذا كثر في المعتزلة البغاء والأدباء واللغويون والفلاسفة . )<sup>3</sup> ولما كانت الدراسات البلاغية قد نشأت في أجواء من الصراع الفكري والجدل الكلامي ، فإن هذا قد جعل الدراسات التطبيقية تنضج جنبا إلى جنب مع الجانب النظري فيها .

و كانت الدراسات البلاغية في عصر الزمخشري قد بلغت عصر النضج والازدهار في جانبها النظري والتطبيقي على السواء ، فأقبل على دراسة التراث البلاغي عند سابقيه من المعتزلة مما كتبه النظام والجاحظ ، كما اطلع على كتب معاني القرآن للفراء ، والنكت في إعجاز القرآن للرماني وغيرهما ، أما أكثر الناس تأثراً في الزمخشري في هذا الجانب فهو

<sup>1</sup> . انظر بتفصيل رابع دوب : الدرس البلاغي عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، القاهرة ،

ط 1 ، 1997م ، ص : 195

<sup>2</sup> . انظر : المصدر نفسه : 196

<sup>3</sup> . الحولي ، الزمخشري : 200



عبد القاهر الجرجاني الأشعري ونظرية "النظم" التي نضجت على يده ، وإذا كان الجاحظ قد سبق بفكره الثاقب أن لمح البذور الأولى لهذه النظرية في بلاغة القرآن الكريم ، فإن عبد القاهر الجرجاني قد استطاع أن يخرج هذه النظرية في صورتها المكتملة في كتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" .

ولما جاء الزمخشري لم يكتف بالإمام بأراء من سبقوه في الدراسات البلاغية ، بل حاول أن يبدأ من حيث انتهى المتقدمون ، فيزيد علم البلاغة تعميقاً وتدقيقاً .

فنحن إذا رجعنا إلى البلاغة قبل الزمخشري ، فإننا لا نجد مقسمة هذا التقسيم الثلاثي المعروف وهو : علم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم البديع ، وإنما كان يطلق أحياناً على مباحثها جميعاً إسم "البديع" كما فعل ابن المعتز مثلاً ، كتابه "البديع" <sup>1</sup> وبعضهم أطلق عليها اسم "البيان" كما فعل عبد القاهر ، أما الزمخشري فهو أول من قسم البلاغة إلى ثلاثة أقسام هي : المعاني ، والبيان ، والبديع .

ولكن هذا لا يعني أن الفوارق بين العلوم الثلاثة كانت واضحة تماماً في ذهن الزمخشري وهو يتحدث عنها <sup>2</sup> ، بل قد اختلطت هذه العلوم عنده في أكثر من موضع ، فهو مثلاً في معرض تفسيره لقوله تعالى : " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى .. " <sup>3</sup> يقول : ( إذا قيل : فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن تم مبايعة على الحقيقة ؟ قلت هذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا .. ) <sup>4</sup>

فقد أدخل المجاز في الصنعة البديعية ، ومن هنا يرى بعضهم — نقلاً عن السيد الشريف — أن الزمخشري لم يكن يعد البديع علماً مستقلاً ، بل كان يراه ذيلاً لعلمي المعاني والبيان . <sup>5</sup>

فالزمخشري وإن كان قد قام بأول محاولة لقسمة البلاغة إلى علومها الثلاثة ، إلا أنه لم يضع الحد الفاصل بين موضوعات كل علم ، بل كانت القسمة الثلاثية بصفة إجمالية

<sup>1</sup> . نشره كراتش فوسكي ، انظر : البلاغة تطور وتاريخ : 67

<sup>2</sup> . وليد لصاب ، التراث النقدي البلاغي و عند المعتزلة : 241

<sup>3</sup> . سورة البقرة : 15

<sup>4</sup> . الكشاف : 70/1

<sup>5</sup> . البلاغة تطور وتاريخ : 222

موجودة في ذهنه ، فمضى في تطبيقها على تفسيره للقرآن الكريم ، وقد أفلح في ذلك إلا في مواضع قليلة<sup>1</sup> .

كما تمثل جهد الزمخشري من جهة أخرى في الجانب التطبيقي لعلوم البلاغة ( حيث طبق جميع قواعد علمي المعاني والبيان التي امتدى إليها عبد القاهر ، متخذاً نصوص القرآن كاملة كأمثلة وشواهد على ذلك )<sup>2</sup> .

وهكذا كان كتاب " الكشاف " بصورته التي وصل عليها يمثل قمة مرتفعة سامية في ازدهار الدراسة البلاغية ، ليس عند المعتزلة الذين نتحدث عنهم فقط ، بل في مجال الدراسات البلاغية عامة ، ففي هذا الكتاب عصارة مجهودات السابقين جميعاً من معتزلة وغيرهم ، وزبدة ما تمخضت عنه أذهان البلاغيين العرب الذين تقدموه ، والجدير بالذكر أن الزمخشري قد ابتدأ من حيث انتهى السابقون — وهذه حسنة له — فهو لم يدرس البلاغة دراسة نظرية ، ولم يكتب عنها كتابة مستقلة ، ولكنه راح بما أوتي من ذوق أدبي مرهف ، وحس فني صادق ، يطبق ما قرأه عن البلاغة في تفسيره للقرآن آية آية ، كاشفاً عن الأسرار والدقائق والنكت البلاغية التي اشتمل عليها الذكر الحكيم . كما أن دراسة إعجاز القرآن في ضوء القواعد البلاغية كانت عند من سبقه إما دراسة جزئية لا تتحدث إلى على أمثلة ونماذج قليلة من القرآن ، أو دراسة نظرية تحاول أن تضع مبادئ وأصولاً ، وتحدد معالم بارزة يمكن أن تتخذ مقياساً في دراسة الإعجاز القرآني . فالجاحظ مثلاً لم يتوقف إلا عند بعض الآيات ، وانشغل القاضي عبد الجبار والشريف المرتضى بالآيات المتشابهات التي يخالف ظواهرها أصول الاعتزال . وانتهى الأمر إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي يعد قمة ما وصلت إليه الدراسات البلاغية ، ووضع في ذلك نظرية أطال في شرحها والحديث عنها حتى أصبحت تعرف به ، وكان يكتفي بإيراد النماذج القليلة في معرض تقرير القاعدة التي يضعها ليحدد المعالم التي يسير عليها من يأتون بعده .

فجاء الزمخشري في القرن السادس الهجري ، فلم يخلف ظن عبد القاهر ، ولم يجد عن سنته ، فهو بعد أن أقبل على دراسات المتقدمين يعب منها ، وجد في نظرية الجرجاني

<sup>1</sup> . انظر : التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة بتصرف : 242

<sup>2</sup> مجلة الأمم عبد القادر للعلوم الإسلامية ، العدد : 6 ، السنة : 1999 م ، مقال : الإتجاه القروي في تفسير القرمان : د. سامي عبد الله

الأشعري موردا له ، وكأنما أحس بثاقب ذهنه أن هذه النظرية تمثل ذروة ما وصلت إليه دراسة البلاغة العربية ، ففزع إليها ، واتخذها سلاحا في تفسير القرآن وبيان وجه الإعجاز فيه .<sup>1</sup>

وأمام هذا الإنبهار للزمخشري تجاه علم البلاغة صرح بأنه لا يمكن لأحد أن يتصدى لتفسير كتاب الله وإن كان عالما بالفقه والأصول وعلم الكلام واللغة والنحو والقصاص والأخبار . إن لم يكن بارعا في علمين مختصين بالقرآن هما : علما المعاني والبيان .

قال الزمخشري : ( ثم إن أملاً العلوم بما يفهم القرائح ، وأهضها بما يسهر الألباب القوارح ، من غرائب نكت يلفظ مسلكتها ، ومستودعات أسرار يدق سلكتها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه ، وإحالة النظر فيه كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن ، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والحكام ، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحيه ، لا يتصدى أحد منهم لسلوك تلك الطرائق ، ولا يفوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، ومهل في ارتيادها آونة ، وتعب في التنقيب عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظاهرها في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن كان أخذنا من سائر العلوم بنحظ .. )<sup>2</sup>

وهذه هي الزعة التي درج عليها سابقوه من أئمة المعتزلة فيما عرف بكتب " معاني القرآن " حيث ظل علم البلاغة العربية ينشأ ويتطور في كتاباتهم حول إعجاز القرآن إلى نضجت واكتملت على يد الزمخشري .

ولما كانت جهود العلماء من المعتزلة في مباحث الإعجاز البلاغي للقرآن قد قلعت في حتمتها على التأسيس والتأصيل لنظرية النظم ، فإن هذا يدعونا للتعريف بهذه النظرية من حيث مفهومها ونشأتها وتطورها ، وهذا ما سنعرفه في المبحث اللاحق .

<sup>1</sup> . التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة : 225

<sup>2</sup> . مقدمة نسيم الكشاف . ص : ٥٠

## المبحث الثاني

### نظرية النظم مفهومها ونشأتها

نتحدث في هذا المبحث عن نظرية النظم من حيث نشأتها ومفهومها باعتبار أن سر الإعجاز القرآني إنما يكمن في نظمه ، وهو على درجة من الدقة يخفى معها على كثير من العقول ، ولذلك أطال أصحاب هذه النظرية وأنصارها في شرحها وإنضاجها ، وإقامة الحجج النظرية والتطبيقية على صحتها .

وتبدأ هذه النظرية مع الجاحظ الذي أعلن في أكثر من موضع من مصنفاته أن ما يدل على تميز القرآن وإعجازه هو نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد ، وقد وضع في ذلك الجاحظ كتابا مستقلا سماه " نظم القرآن " ، ولكن الكتاب مفقود ، مما حرماننا من معرفة المسبيل التي سلكها الجاحظ في تفسير هذا النظم ودراسته ، ولكن الإشارات القليلة المبثوثة بين ثنايا كتب الجاحظ الأخرى دللتنا على أن فكرة النظم عند الجاحظ هي — فيما يبدو — فكرة لفظية ، تعتمد على حسن الصوغ ، وكمال التركيب ، ودقة التأليف ، وهي من حيث اللفظة المفردة مراعاة بعض شروط الفصاحة ، كحسن الإنتقاء ، ودقة الاختيار ، بحيث تكون خفيفة على اللسان في النطق ، سهلة المخرج ، رشيقة الوقوع في الأذن ، بما يكون بين حروفها من تلاؤم وانسجام ، وأن تكون سهلة مؤنسة بعيدة عن الغرابة والحوشية والتعقيد ، وأن تكون غير ساقطة ولا عامية ، وهي لفظية ملائمة للمعنى ، مشاكلة للغرض ، الذي وردت فيه ، تطبيقا لقاعدة مراعاة مقتضى الحال ، والإيفاء بحسب المقام . وهي بعد ذلك — من حيث التركيب والتأليف في سياق الكلام — تعتمد على مراعاة التجانس والانسجام بين الألفاظ المفردة ، حينما تسلك إلى جانب بعضها بعضا ، فلا يبدو هنالك تنافر بين أجزاء الكلام ، بل يبدو متلاحما أخذًا بعضه برقاب بعض ، حتى كأنه أفرغ إفرغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، وعندئذ يتدفق به اللسان سهلا رهوا ،

دون أن يشعر بكد أو صعوبة ، ولذلك ترتاح الأذن لهذا الكلام أيضا ، وتمش له الأسماع ، تلك هي فكرة النظم عند الجاحظ .<sup>1</sup>

ويبدو أن تصور الجاحظ لنظرية النظم في هذه المرحلة الأولى لا يختلف كثيرا عما ذهب إليه ابن سنان الخفاجي<sup>2</sup> في كتابه سر الفصاحة ، الذي جعل الفصاحة وصفا مقصورا على الألفاظ ، والبلاغة وصفا للألفاظ مع المعاني ، ثم ذهب يقسم شروط الفصاحة إلى قسمين ، فالأول يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينظم إليها شيء من الألفاظ تولف معه ، والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض ، ثم مضى ابن سنان الخفاجي بعد ذلك يتحدث عن هذين القسمين وشروطه بما لا يزيد كثيرا عما قاله الجاحظ ، بل إن ابن سنان نقل كثيرا من أقوال الجاحظ في ذلك.<sup>3</sup>

على أن نظرية النظم عند الجاحظ يدخل في مفهومها أيضا أسلوب القراءان في التعبير ، وطريقته في الأداء بشكل متميز يخالف ما تعارف عليه العرب من أفانين القول وطرائق الكلام ، لأن كلام العرب المعروف إما موزون ، وإما منشور مسجوع ، ولكن القراءان يبين جميع ذلك ، فهو منشور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع .

ويبدو أن مفهوم النظم لم يكن غريبا على البيئة الاعتزالية ، ولعل كتاب الجاحظ في نظم القراءان قد حظي باهتمام كبير ، فنحن نجد في أوائل القرن الرابع أبا علي محمد بن يزيد الواسطي المعتزلي (ت: 306هـ) يضع هو أيضا كتابا يرجع فيه إعجاز القراءان إلى نظمه وتأليفه ، وعنوان الكتاب " إعجاز القراءان في نظمه وتأليفه " ، كما يضع ابن الإخشيد المعتزلي (ت: 326هـ) كتابا عنوانه " نظم القراءان " وهو كتاب مفقود أيضا لا نعرف عنه إلا اسمه ، وعندما نرجع إلى قول الباقلاني في كتابه " إعجاز القراءان " : ( وقد صنف الجاحظ في نظم القراءان كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله )<sup>4</sup> نفهم منه أن

<sup>1</sup> . التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة : 324

<sup>2</sup> . هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، أديب شاعر ، من آثاره ديوان شعر ، وسر الفصاحة ، انظر : حاجي خليفة كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، طبع بمناحة وكالة المعارف الحليّة وومطبعتها البهية ، 1943م ص: 988

<sup>3</sup> . التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة : 326 ، وانظر : ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة : 59 — 60 .

<sup>4</sup> . السلاوي ، إعجاز القراءان ، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، 1991م ، ص : 6

فكرة النظم القرآني كانت موجودة قبل الجاحظ ، و أن مفهوم النظم لم يكن غريبا على البيئة الاعتزالية ، بل كان منتشرا كقياس يكشف عن إعجاز القرآن .

إلا أن هذه النظرية ما فتئت تنمو وتكتمل عبر عقود من الزمن ، حيث احتضنها الخطابي ( ت: 319هـ ) وزاد فيها مينا أن الكلام لا يقوم باللفظ والمعنى فقط ، بل ينتج إلى عنصر ثالث هو الرباط الناظم لهما ، فيقول : ( يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا ، ولا أشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها .. وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه ، فلم توجد إلا في كلام العلي القدير .. فتفهم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، متضمنا أصح المعاني .<sup>1</sup>

ويأتي بعده القاضي عبد الجبار ، فيستفيد من كلام الخطابي هذا ، مفندا رأي أستاذه أبي هاشم<sup>2</sup> ومينا أن فضل الكلام لا يقاس باللفظ والمعنى فقط ، ولا يمكن أن يكونا وحدهما — مجردين — موطن البراعة ، لأن في هذا إهمالا للعنصر الثالث الذي تحدث عنه الخطابي ، وهو ترتيب الألفاظ ، وربطها في سياق واحد خلال السياق<sup>3</sup> .

( وإذا كان الخطابي لم يتحدث عن ماهية هذا الرباط الذي يجمع بين الألفاظ والمعاني ، ولم يشرح مفهوم النظام الذي يربط بينهما ، فإن القاضي عبد الجبار قد توقف عند ذلك ، فبين أن الكلام ينبغي أن يضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد أن تراعى في هذا الضم صفات معينة للكلمات ، كالإبدال والتأخير ، وحركات الإعراب . وإن هذه الصفات التي تحدث عنها عبد الجبار ، وأرجع إلى ملاحظتها في الضم والتأليف فضل الكلام ، هي باختصار معاني النحو وأحكامه التي أطال عبد القاهر الجرجاني فيما بعد

<sup>1</sup> . انظر التراث النقدي واللافي عند المعتزلة : 328

<sup>2</sup> . هو أبو هاشم ، عبد السلام بن أبي علي الخليلي ، من معتزلة البصرة ، وإليه نسب الطائفة الهاشمية من المعتزلة ، انفردا عن أصحابهما بحسب ، توفي سنة : 321هـ . انظر الشهرستاني ، الملل والنحل ، : 98/1 . والبداية والنهاية : 176/11 .

<sup>3</sup> . التراث النقدي واللافي عند المعتزلة : 328

الحديث عنها ، وأطنب في شرحها ، وأقام عليها نظرية النظم التي أصبحت تعرف به ، وتنسب إليه <sup>1</sup> .

وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني : ( ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي تمجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئا يتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر وجه كل باب وفروقه ، هذا هو السبيل ، فليست بواحد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطوه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ، ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزبل عن موضعه ، واستعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة النظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه ، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة و ذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه . ) <sup>2</sup>

ويتفنن عبد القاهر الجرجاني في عرض نظرية النظم فيضرب لها مثالا حيا وملموسا ويقول : ( وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تمذى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبير في أنفص الأصباغ ، وفي مواقعها ومقاديرها ، وكيفية مزجها لها وترتيبها إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب ، وصورته أغرب ، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيها معاني النحو ووجوه التي علمت أنما محصول علم النظم . ) <sup>3</sup>

وقد يتبادر للذهن أن ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني من تفسير لفهوم النظم — إذ حصره في التراكيب النحوية — يضيّق بالإعجاز البياني للقرآن الكريم ، لأن الصور البيانية لا يفسرها علم النحو ، فنجدّه يسارع إلى الرد على هذه الشبهة فيقول :

<sup>1</sup> . انظر المصدر نفسه : 329

<sup>2</sup> . عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 2 ، 1989م ، ص : 64 — 65

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 69

( فإن قيل : قولك " إلا النظم " يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب  
المجاز ، من جملة ما هو معجز ، وذلك ما لا مساغ له . قيل : ليس الأمر كما ظننت ، بل  
ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز ، وذلك لأن هذه المعاني التي  
هي الاستعارة ، والكتابة ، والتمثيل ، وسائر ضروب المجاز من بعدها ، من مقتضيات  
النحو ، وعنهما يحدث ، وهما يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم ، وهي  
أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو . )<sup>1</sup>

ونحن نقف بإعجاب أمام هذه الجهود الضخمة التي سبقت الزمخشري في إنضاج هذه  
النظرية ، وتعهدها بالبناء لبنة بعد أخرى ، إلى أن استوت على سوقها ، حتى إذا جاء  
الزمخشري وجدها غضة طرية ، فكان اللبنة الأخيرة في ذلك البناء الذي صار يمثل منسارة  
شامخة يهتدي بها اللاحقون .

وعلى الرغم من كون الزمخشري قد تلقف هذه النظرية في مرحلة النضج والاكتمال ،  
ومهما كان قد ألم بها واستوعبها وشغف بها ، فإن ميله إلى الإنجاز والاختصار الشديد في  
كتابه الكشاف ، قد فوت علينا الوقوف على الكثير من فنون الإعجاز في النظم القرآني ،  
التي كان بإمكانه أن يكشف عنها بما لم يسبق إليه ، وقد بدا لي هذا الرأي بعد أن اطلعت  
على رسالة صغيرة كتبها الزمخشري في " إعجاز سورة الكوثر " ، وهي عبارة عن رد على  
رسالة وجهها إليه أحد تلاميذه<sup>2</sup> ، يلح عليه من خلالها أن يكتب شيئا في وجوه إعجاز  
القرآن ، ليلحم به أفواه بعض المشككين في بلاغة القرآن والمنكرين لإعجازه .

وفي كلامه عن إعجاز القرآن الكريم من حيث نظمه من خلال هذه السورة ، أبرز  
الزمخشري أن إعجاز القرآن كامن وراء كل حرف من حروف القرآن ، ولكنه لا يتجلى  
إلا لذوي الأفهام الكبيرة التي تمرست على لغة العرب بكل فنونها .

كما أبان في هذه الرسالة الطريفة عن موقفه من بعض القضايا الأساسية المتعلقة بإعجاز  
القرآن الكريم بشيء من التفصيل لا نجد له نظيرا في تفسيره الكشاف ، ومنها :

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 300

<sup>2</sup> . انظر الزمخشري : إعجاز سورة الكوثر : 61



## ١ - موقفه من القول بالصرفة<sup>١</sup> :

ففي موضوع القول بالصرفة قال : ( ودع عنك حديث الصرفة ، فما الصرفة إلا صرفة<sup>٢</sup> من النظام وفهية - منقطة - منه في الإسلام ، ولقد ردت على النظام صفرته ، كما ردت عليه طفرته ، ولو صح ما قاله لوجب في حكمة الله البالغة ، ورحمته الدامغة ، أن يترله على أرك نمط وأنزله ، وأفضل أسلوب وأسفله ، وأعراه من حلال البلاغة وحليها ، وأخلاه من هي جواهر العقول وثريها ، ثم يقال لولاة أعلى الكلام طبقة وأمتنه ، والأرباب آنقه طريقة وأحسنه : هاتوا بما ينحو نحوه ، وهلموا بما يحده ، فيعترضهم الحجز ، ويتبين فيهم العجز ، فيقال قد استصرفهم الله عن أهون ما كانوا فيه ماهرين ، وأيسر ما كانوا عليه قادرين ، ألم ترهم كيف كانوا يعنقون<sup>٣</sup> في المضممار فوقفوا ، وينهبون الحلبة بخطاهم فقطفوا<sup>٤</sup> ولا يقال الله قادر على أن يأتي بما هو أفصح وأفصح ، وأملح لفظا ومعنى وأملح ، فهلا أتى بذلك المتناهي في الفصاحة والمتناهي في الملاحاة ، فإن الغرض اتضاح الحجة وقد اتضحت ، واقتضاح الشبهة وقد اقتضحت ، وإذا حصل الغرض فليس وراءه معترض . )<sup>٥</sup>

( ومهما يكن من بطلان هذه الفكرة وفسادها ، فقد أدت إلى إنشاء علوم البلاغة في ظل القرآن ، فاتجه الكاتبتون إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المبين ، المتزل من عند الله الحكيم ، قرأنا عربيا ، فكان هذا الباطل سببا في خير كثير ، وكما يقول المثل السلتر " رب ضارة نافعة " فقد تولد عن هذا الباطل دفاع حكيم ، ولدت منه علوم البلاغة العربية ، وكما تولد عن الخطأ في تلاوة آية " علم النحو " تولدت علوم البلاغة العربية عن الخطأ في القول بالصرفة في إعجاز القرآن . )<sup>٦</sup>

<sup>١</sup> . ومعنى القول بالصرفة أن الله صرف العرب عن معارضة ولسب عقولهم ، وكان مقدورا لهم ، ولكن عاقلهم أمر خارجي ، فصار

كسائر المعجزات . السبوطي ، الإتيان في علوم القرآن ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، ج 2/118

<sup>٢</sup> . يقال إنه لقي صرفة للذي يحتره الجنون ، إذا كان في أيام بؤول فيها عقله ، لأنهم كانوا مسحونه بشيء من الزعفران . الجوهري ،

الصحاح : 714/2

<sup>٣</sup> . ينفقون : العنق ضرب من سم الدابة والإبل ، وهو سم سريع كقول الرازي : يا ناي سوي عنقا فسيحا . الصحاح : 1533/4 .

<sup>٤</sup> . يقال لطف إذا قارب بين خطواته بسرعة ، والقطوف من الدواب : البطي ، انظر الصحاح : 1417/4 .

<sup>٥</sup> . إعجاز سورة الكوثر : 61 - 62

<sup>٦</sup> . محمد أبو زهرة ، المعجزة الكبرى ، دار الفكر العربي ، ص : 81

جامعة الأمير  
عبد القادر للعالم الإسلامي

بالقدرة على المحال إلا أن يكابروا فيقولوا : هو قادر على المحال ، فإن رأس ما لهم المكابرة  
وقلب الحقائق .<sup>1</sup>

كما أن الكشف عن وجه الإعجاز في أي نص قرآني يرتبط أساسا بتوجيه معناه نحو  
مفهوم معين ، وقد وظف الزمخشري هذا الجانب ، فحاول أن يربط وجوه الإعجاز التي  
أبرزها بزعته المذهبية ، ويجعل من براعة النظم المترتب على المعنى الذي ينتصر له أقوى  
حجة على صحة مذهبه .

ومن هنا انبرى له أحد أئمة أهل السنة ، وهو شرف الدين الطيبي<sup>2</sup> فوضع مصنفاً -  
وهو عبارة عن حاشية على تفسير الكشاف - بين فيه أن وجه الإعجاز القرآني  
إنما يتحقق ويقع في الآية على ما يفهمه أهل السنة من النص القرآني وليس على ما يفهمه  
المعتزلة<sup>3</sup> .

2 - عدم كلام السلف عن إعجاز القرآن وسببه

كما قد يلوح لبعض المشككين في إعجاز القرآن بعض الشبهات حول الموضوع ،  
منها أن السلف الصالح لم يتكلموا في الإعجاز البلاغي للقرآن ، والجوانب الجمالية فيه  
، مما يوحي أن القول بإعجاز القرآن في هذا الجانب هو اتمام للسلف بالتقصير وقلّة  
الفهم لكتاب الله تعالى .

ومن هنا رد الزمخشري على مثل هذه الشبهة بأحسن رد ، مبينا مسبررات سكوت  
السلف عن الخوض في مثل هذا الموضوع وغيره فقال :  
( وأما إغفال السلف لما نحن بصدده ، وإهمالهم الدلالة على سننه ، والمشى على  
جده<sup>4</sup> ، فلأن القوم كانوا أبناء الآخرة ، وإن نشأوا في حجر هذه الغادرة ، ديدنهم قصور

<sup>1</sup> . الكشاف : 692/2

<sup>2</sup> . هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي ، شرف الدين ، عالم بالحديث والتفسير والعربية والمعاني والبيان ، قال ابن حجر : كان آية  
في استخراج الدقائق من القرآن والسنة ، حسن المعتد ، شديد الرد على الفلاسفة والمتدعة ، من مصنفاة : فروع الغيب في  
الكشف عن قناع الرب ، وهو حاشية على كشاف الزمخشري ، قال في كشف الظنون : وهي أجل حواشي الكشاف " الدرر  
الكامنة : 156/2

<sup>3</sup> . ابن عطلون ، المقدمة : 349

<sup>4</sup> . المجدد : الأرض الصلّة . الصحاح : 452/2

الآمال ، وأخذ العلوم لتصحيح الأعمال ، وكانوا يتوخون الأهم فالأهم ، والأولى فالأولى ، والأزلف فالأزلف من مرضاة المولى .

ولأنهم كانوا مشاغيل بجر أعباء الجهاد ، معنيين<sup>1</sup> بتقويم صفات أهل العناد ، معكوفي المهتم على نشر الأعلام لنصرة الإسلام ، فكان ما بعث به النبي عليه الصلاة والسلام لتعليمه وتلقيه ، وأرسل للتوقيف عليه وتبيينه ، أهم عندهم مما كانوا مطبوعين على معرفته ، مجبولين على تبين حاله وصفته ، وكان إذ ذاك البيان غضا طريا ، واللسان سليما من اللكنة ، وطرق الفصاحة مسلوكة سائرة ، ومنازلها مأهولة عامرة ، وقد مهد عذرهم تعويلهم على ما شاع وتواتر ، واستفاض وتظاهر ، من عجز العرب وثبات العلم به ورسوخه في الصدور وبقائه في القلوب على مر العصور .

وبعد انقراض أولئك العرب ، المائلة دلو البلاغة إلى عقد الكرب ، وبقاء ربعها بغير طلل ورسم ، وذهابا ذهاب حديس وطسم<sup>2</sup> — بسكون السين — لم يبق من هذا العلم إلا نحو الغراب الأعصم<sup>3</sup> والنكتة البيضاء في نقبة الأدهم ، وحملة تلك البقية قد اتبعوا سنن الأولين ، وكانوا على عجز العرب معولين .. ثم ادرج هذا العلم تحت طي النسيان ، كما يدرج الميت في الأكفان .<sup>4</sup>

ولقد تكلم الزمخشري في هذه الرسالة عن إعجاز سورة الكوثر فأبدع ، وأبرز من مظاهر الإعجاز المتمثل في عجب نظمها بما لم يسبق إليه ، من ذلك مثلا ما جاء في الآية الأولى منها " إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ " حيث قال :

( ثم تبصر كيف نكت في كل شيء ، تنكتنا ، يترك المنطيق سكتنا ، حيث بني الفعل على المبتدأ فدل على الخصوصية ، وجمع ضمير المتكلم ، فأذن بعظم الربوبية ، وصدر الجملة المؤخرة على المخاطب أعظم القسم بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ، ما ورد الفعل بلفظ الماضي ، على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الأجلة ، دلالة على أن

<sup>1</sup> . معنين : أي مصين ، انظر لسان العرب : 290/13

<sup>2</sup> . حديس : هي قبيلة كانت في الدهر الأول لانقرضت . انظر الصحاح : 911/3 . وطسم : قبيلة من عباد كانوا فائقوا .  
الصحاح : 1974/5

<sup>3</sup> . الغراب الأعصم : الذي في جناحه ريشة بيضاء ، لأن جناح الطائر مموّلة بالبد له ، ويقال هذا كفقرهم الأبلق المقوق وبيض النوق ، لكل شيء به وجوده . الصحاح : 1986/5

<sup>4</sup> . إعجاز سورة الكوثر : 63

المتوقع من سيب الكرم في حكم الواقع ، ، والمترب من نعمائه بمحلة الثابت الناقع ، .  
وحاء بالكوثر محذوف الموصوف ، لأن المثبت ليس فيه ما في المحذوف من فرط الإهمام  
والشباع ، والتناول على طريق الإتساع ، ، واختار الصفة المؤذنة بإفراط الكثرة ، المترجمة  
عن المعطيات الدثرة ، ثم بهذه الصفة مصدرة باللام المعرفة ، لتكون لما بوصفها شاملة ،  
وفي إعطاء معنى الكثرة كاملة .<sup>1</sup>

فإذا رجعنا إلى تفسير الكشاف ، ووقفنا عند تفسير الزمخشري للآية الأولى من سورة  
الكوثر ، فإننا نجد بمر عليها دون أن يشير إلى موضع واحد من محاسن النظم فيها ، مما  
يدل على أنه سكت عن كثير من النكات البلاغية مما لم تكن خافية عليه طلبا للإيجاز  
والاختصار .

وقد قدمت لنا هذه الرسالة القيمة للزمخشري في إعجاز القرآن — على الرغم من صغر  
حجمها — صورة حية وواضحة عن رسوخ قدمه وعلو كعبه في هذا المجال ، وهي رد  
كذلك على الذين بنحسوا الزمخشري حقه حينما جزموا بأنه لم يكتب شيئا مستقلا عن  
إعجاز القرآن ، وقصروا إنتاجه في هذا الجانب على كتابه الكشاف .

من ذلك ما جاء في كتاب " الإعجاز النحوي في القرآن الكريم " حيث قال مؤلفه  
( لم يولف الزمخشري كتابا خاصا بالإعجاز ، وإنما قام بمحاولة في هذا الباب لم يسبقه  
إليها أحد ، ولا نظن أنه جاء من بعده من جرى معه في هذا الطريق ، ذلك أنه أراد أن  
يقدم أدلة الإعجاز وشواهد من آيات القرآن ، وأن يجعل القرآن كله مجالاً للناظرين في  
الإعجاز ، والباحثين عن مواقعه في كتاب الله تعالى . )<sup>2</sup>  
وهو ناقل لهذا الكلام حرفيا عن كتاب " الإعجاز في دراسات السابقين " لعبد الكريم  
الخطيب<sup>3</sup> دون تبين أو تحقيق في الموضوع .

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 57

<sup>2</sup> . فتحى عبد الفتاح الدجني ، الإعجاز النحوي في القرآن الكريم ، مكتبة الفلاح ، بيروت ط 1 ، 1984 م ، ص : 58

<sup>3</sup> . عبد الكريم الخطيب ، الإعجاز في دراسات السابقين ، دار الفكر العربي ، ط 1 ، 1974 م ، ص : 298 ، وانظر نعيم الحمصي :  
فكرة إعجاز القرآن منذ المنة حتى العصر الحاضر ، حيث قال : ( وأراء الزمخشري جاءت في نفسه ، ولم أعرف أنه وضع في هذا  
الحق كتابا خاصا ، أو أورد له بابا . ) ص : 94 .

أما إذا انتقلنا إلى تفسير الكشاف فإننا نجد أنه يمثل بالنسبة للزمخشري ذلك المجال الرحب الذي تحرك فيه بطلاقة ، وزاد من إظهار براعته في تمكنه من تطبيق هذه النظرية وترسيخها في الكشف عن إعجاز القرآن ، وهو ما سنعرفه في المبحث اللاحق إن شاء الله تعالى .

## المبحث الثالث

### مسلك الزمخشري في الكشف عن النظم القرآني

وعلى الرغم من ميل الزمخشري إلى الإيجاز في تفسيره الكشاف فقد استطاع أن يجسد هذه النظرية ويبرهن على أنها تسري في أسلوب القرآن من بدايته إلى نهايته ، وكأنها بذلك تمثل السلك الذي تنتظم فيه حبات العقد في تناسقها وترابطها ، وأن على المفسر أن يتحسس بأدق هذه النظم الخفية في أي القرآن ويعمل على إبرازها ، وهو ما حرص على مراعاته في كشافه ، فلا تكاد تخلو صفحة واحدة منه من مثل هذه الوقفات البلاغية .  
وبذلك نلاحظ يقف ابتداء من مطلع سورة البقرة في قوله تعالى : " أَلَمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ . هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .." مبهوراً أمام عجب نظم القرآن هذا في مطلع هذه السورة ليبين أن بلاغة القرآن لا تدانيها بلاغة أي كلام آخر مما ألفه الناس .

قال الزمخشري : (ومحل " هدى للمتقين " الرفع ، لأنه خير مبتدأ محذوف أو خير مع " لا ريب فيه " لذلك ، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خيراً عنه ، ويجوز أن ينصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف . والذي هو أرسخ عرقياً في البلاغة أن يضرب عن هذه الحال صفحا ، وأن يقال إن قوله " ألم " جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و" ذلك الكتاب " جملة ثانية ، و" لا ريب فيه " ثالثة ، و" هدى للمتقين " رابعة . وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جرى لها متناسق هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متأنجية ، أخذنا بعضها

بعنى بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة . بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكلام المنعوت بغاية الكمال ، فكان جهة لتقرير التحدي ، وشدا من أعضاده . ثم نفى عنه أن يثبت به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة ، وقيل لبعض العلماء فيم لذلك ؟ فقال : في حجة تتبخر اتضاحا ، وفي شبهة تتضاءل افتضاحا . ثم أخبر عنه بأنه " هدى للمتقين " فتقرر بذلك كونه يقينا لا يخوم الشك حوله ، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم لم تغل واحدة من الأربع — بعد أن رتب هذا الترتيب الأنيق ، ورتبت هذا الترتيب السوي ، من نكتة ذات جزالة ، ففي الأولى المحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه وأرشفه ، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة ما في تقدم الريب على الظرف ، وفي الرابعة المحذف ، ووضع المصدر الذي هو " هدى " موضع الوصف الذي هو " هاد " وإيراده منكرا ، والإنجاز في ذكر المتقين .<sup>1</sup>

وهكذا يمضي الزمخشري في كشفه ، وهم الأول هو البحث عن مظان الإعجاز فيما ينكشف له من روائع البيان ، وعجيب النظم .. في تقدم كلمة عن كلمة ، أو اختيار كلمة بدل كلمة أخرى ، أو حرف مكان حرف ، إل غير ذلك مما تنقل به موازين الكلام في مجال البلاغة والبيان .<sup>2</sup>

ولقد كان الزمخشري أدبيا ضليعا ، ذواقة لطعوم الكلام بصيرا بمواقع الحسن ومواطن الجمال فيه .. لم تذهب مذاهب الكلام والجدل بشخصية الأديب الذي كان في كيانه ، بل ظل محتفظا بطابعه الأدبي المركوز في فطرته ، لم يفتقده في حال من أحواله أبدا .

وهو في ذلك لم يخل في مرة من المرات أن يكون متأثرا برأيه عبد القاهر الجرجاني في التنبيه على مواقع الحسن والجودة في وجوه النظم البلاغي ، ويتضح هذا بجلاء من خلال الأمثلة الآتية :

التقديم والتأخير ودلالته البلاغية :

<sup>1</sup> . الكشف : 36/1 . 37

<sup>2</sup> . انظر الإعجاز في دراسات السابقين : 299

منها اهتمام الزمخشري بالتقدم والتأخير في كثير من المواضع في تفسيره ، وهو في هذا إنما ينطلق من اهتمام عبد القاهر به حيث قال : ( هو باب كثير الفوائد ، جسم المحاسن واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعه ، ويفضي بك إلى لطيفه ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقبك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكانه إلى مكان . )<sup>1</sup>

ففي تفسير قوله تعالى : " وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانَعَتْهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ .. " سورة الحشر : 2 قال الزمخشري : ( فإن قلت أي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم ، وبين النظم الذي جاء عليه ؟ قلت في تقدم الخبر على المتبدا دليل على فسرط وثوقهم بخصائنها ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسما لـ " أن " ، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم — أي مغالبتهم — ، وليس ذلك في قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم . )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " قُلْ أَغْنَى اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. " سورة الأنعام : 14

قال الزمخشري : ( أولى " غير الله " همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو " أتخذ " لأن الإنكار في اتخاذ غير الله وليا ، لا في اتخاذ الولي ، فكان أولى بالتقدم . ونحوه " أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون " و " الله أذن لكم " . )<sup>4</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ مِنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " سورة البقرة : 62

قال الزمخشري : ( " والصابقون " رفع على الابتداء وخبره محذوف ، والنية به التأخير عما في حيز " إن " من اسمها وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا ، والصابقون كذلك . وأنشد سيبويه شاهدا له .. ثم قلل — أي الزمخشري — فإن قلت : ما التقدم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقدم ؟ قلت

<sup>1</sup> . دلائل الإعجاز : 74

<sup>2</sup> . الكشاف : 499/4

<sup>3</sup> . سورة الزمر : 61

<sup>4</sup> . الكشاف : 8/2



فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم ، ذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعتودين وأشدهم غيا ، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبغوا عن الأديان كلها.<sup>1</sup>

### دلالة الحذف والإثبات :

ومنه اهتمامه بالحذف والإثبات لما يرى فيهما من دلالات بلاغية إلى درجة التكلف فيه ، وتقديره في عدة مواضع من غير داع إلى ذلك ، مما جعل أبا حيان يعترض عليه بشدة كما مر معنا . وقد أشاد الجرجاني بهذا الباب من أبواب النظم البلاغي قبل ذلك فقال : ( هو باب دقيق المسلك ، لطيف المآخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجد أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين .)<sup>2</sup>

ولعلماء البلاغة اعتناء متميز بالحذف والإضمار في الكلام ، وقد ألف في ذلك العز بن عبد السلام<sup>3</sup> كتابه المشهور " الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز " ذكر فيه ما يربو عن السبعين نوعا من أنواع الحذف ، وما يترتب عنها من فنون جمالية في الجانب البلاغي .

فلا عجب أن يبالغ الزمخشري في اهتمامه بهذا الفن البلاغي ، ويتقصى مواضعه في كتابه الله تعالى ، وهو ينقب فيه عن مواطن الإعجاز .  
من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " .فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " سورة البقرة : 21

قال الزمخشري : ( ومفعول " تعلمون " متروك كأنه قيل : وأنتم من أهل العلم والمعرفة ، والتوبيخ فيه أكد ، أي أنتم العرافون المميزون ، ثم إن ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أندادا هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل . ويجوز أن يقدر : وأنتم تعلمون أنه

<sup>1</sup> . الكشاف : 661/1

<sup>2</sup> . دلال الإعجاز : 95

<sup>3</sup> . هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم ، الدمشقي الشافعي ، فقيه أصولي ، له مشاركة في العربية والنحو ، بلغ رتبة الاجتهاد ، له مصنفات منها تفسير القران ، توفي سنة : 660هـ . انظر ابن كثير ، البداية والنهاية : 235/13 .

لا بمائل ، أو وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت ، أو وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل  
أفعاله كقوله تعالى : " هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ " <sup>2</sup>  
صيغة الفعل الزمنية ودلالاتها :

ففي قوله تعالى : " وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفِرْعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ  
اللَّهُ .. " سورة النمل : 89

قال الزمخشري : ( إنه عبر بالماضي لنكتة وهي الاشعار بتحقيق الفزع وثبوته ، وأنه  
كائن لا محالة واقع على أهل السماوات والأرض ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود  
الفعل وكونه مقطوعا به ، والمراد فرعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون . ) <sup>3</sup>  
وفي تفسير قوله تعالى : " .. كَلَّمَآ جَاءَهُمْ رُسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا  
وَفَرِيقًا يَقتُلُونَ " سورة المائدة : 72

قال الزمخشري : ( فإن قلت : لم جيء بأحد الفعلين ماضيا والآخر مضارعا ؟ قلت جيء  
يقتلون على حكاية الحال الماضية استفضاء للقتل ، واستحضارا لتلك الشنيعة للتعجيب  
منها . ) <sup>4</sup>

أو قد يدل على الاستمرار مثل الآية <sup>5</sup> " فَتَضِيحُ الْأَرْضُ مُخَضَّرَةٌ " فإن قلت : هلا قيل  
فأصبحت ، ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟ قلت : لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر  
زمانا بعد زمان . )

وفي تفسير قوله تعالى : " وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ  
فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا " سورة فاطر : 9

قال : ( فإن قلت لم جاء " فتثير " على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت :  
ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة

<sup>1</sup> . سورة الروم : 39

<sup>2</sup> . الكشاف : 96/1

<sup>3</sup> . الكشاف : 386/3

<sup>4</sup> . الكشاف : 662/1

<sup>5</sup> . سورة الحج : 61

<sup>6</sup> . الكشاف : 168/3

على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب ، أو تم مخاطب ، أو غير ذلك .<sup>1</sup>

دلالة أسلوب النداء :

وقف الزمخشري عند أسلوب النداء في القرآن الكريم وحسب أن يستبين دلالاته وبلاغته ، وقد نقل عنه السيوطي في كتابه " معترك الأقران في إعجاز القرآن " من باب الإعجاب به .

ففي تفسير قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " سورة البقرة : 20

قال الزمخشري : ( و " يا " حرف وضع في أصله لنداء البعيد ، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه ، وأما نداء القريب فله " أي " والهمزة ، ثم استعمل في مناداة من سهى وغفل وإن قرب ، تزيلا له منزلة من بعدن فإن نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جدا . فإن قلت : فما بال الداعي يقول في جواره : يا رب ، ويا الله ، وهو أقرب غليه من جبل الوريد ، وأسمع به وأبصر ؟ قلت هو استقصار منه لنفسه ، واستبعاد لها من مظان الزلفى ، وما يقربه إلى الله ومنازل المقربين هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتنزيه في جنب الله ، مع فرط التهالك على استجابة دعوته ، والإذن لندائه وابتهاله .. فإن قلت لم كثر النداء في القرآن على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره ؟ قلت : لأن فيه أوجها من التأكيد وأسبابا من المبالغة .. منها ما في " يا " من التأكيد والتنبيه ، وما في " ها " من التنبيه وما في التدرج من الإمام في " أيها " إلى التوضيح ، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد ، لأن كل ما نادى الله عباده من أوامره ونواهي وعظاته وزواجره ، ووعدته ووعدته ، ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية وغير ذلك مما أنطق الله به كتابه ، أمور عظام وخطوب حسام ، ومعان واجيب عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون ، فاقضى الحال أن ينادوا بالأكند والأبلغ .<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 601/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 89/1

ولقد نقل السيوطي كلام الزمخشري هذا بحرفيته ، وأثنى عليه في بيان النظم البلاغسي الذي انطوى عليه هذا الأسلوب من النداء في القرآن الكريم<sup>1</sup> .

وفي تفسير قوله تعالى : " يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ .. " سورة سبأ : 10

يذكر الزمخشري أن نداء الجماد في القرآن مظهر من مظاهر استعلاء الربوبية ، وانقياد الأشياء لها ، لذا يعمد القرآن إلى هذا الأسلوب — وله عنه مندوحة — ليثبت في النفوس هيبة الربوبية ، ويطبغ فيها الشعور بعزتها وكبرياتها .

قال الزمخشري : ( فإن قلت أي فرق بين هذا النظم وبين أن يقال : وآتينا داود منا فضلا تاويب الجبال معه والطير ؟ قلت : كم بينهما ، ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية ، حيث جعلت الجبال منزلة العقلاء ، الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير ممتنع على إرادته . )<sup>2</sup>

دلالة إسم الإشارة :

ففي التعبير بأسماء الإشارة دلالة خاصة مقصودة ، من ذلك التعبير بـ " ذلك " للتعظيم والتعظيم بـ " هذه " تكون للتحقير بحسب المقام والسياق ، ففي الآية " فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ .. " يوسف : 32

قال الزمخشري : ( قالت : " فذلكن " ولم تقل : فهذا ، وهو حاضر رفعا لمرئته في الحسن ، واستحقاق أن يحب ويفتن به ، وربنا بخاله واستبعادا لمحله ، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهم : عشقت عبدها الكنعاني ، تقول : هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في انفسكن ، ثم لمتني فيه ، تعني أنكين لم تصورنه بحق صورته ، ولو صورته بما عابتن لعذرتني في الإفتنان به . )<sup>3</sup>

أما في قوله تعالى : " وَمَا هِيَ إِلَّا نُفُوسٌ وَعَبْءٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " العنكبوت : 64

<sup>1</sup> . السيوطي ، معترك الأثران في إعجاز القرآن ، تحقيق علي محمد البحوي ، دار الفكر : 448/1 .

<sup>2</sup> . الكشاف : 571/3 .

<sup>3</sup> . الكشاف : 466/2 .

فقال : ( ف " هذه " فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها ، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة ، يريد : ماهي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون . )<sup>1</sup>

وأما في كلمة " حيوان في هذه الآية فيقول الزمخشري : ( وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة ، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب ، كالسروان والنفصان واللهبان ، وما أشبه ذلك ، والحياة حركة ، كما أن الموت سكون ، فمجيئته على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ، ولذلك اختبرت على الحياة في هذا الموضوع المقتضى للمبالغة . )<sup>2</sup>

دلالة النكرة والمعرفة :

وفي دلالة النكرة والمعرفة على المقصود يقف الزمخشري عند مفردات كثيرة في القرآن الكريم ليجتسب سر تنكيرها ، وما أفاده التنكير من معنى بلاغي رفيع ، كالإمام ، والنوعية ، والتقليل ، والتكثير ، وغيرها .

من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " سورة البقرة : 4

حيث قال : ( ونكر ليفيد ضربا مبهما لا يبلغ كنهه ، ولا يقدر قدره ، كأنه قيل : على أي هدى ، كما تقول : لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلا . )<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ " . سورة البقرة : 6

قال الزمخشري : ( ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعا من غير ما يتعارفه الناس ، وهو التعامي عن آيات الله ، ولهم من الألام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله . )<sup>4</sup>

وقد يفيد معنى التقليل ، كما في قوله تعالى : " وَتَعْبَهُمَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ " سورة الحاقة : 11

قال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل " أذن واعية " على التوحيد والتكثير ؟ قلت : للإيدان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة

<sup>1</sup> . الكشاف : 463/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 463/3

<sup>3</sup> . الكشاف : 44/1

<sup>4</sup> . الكشاف : 53/1

إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد العظيم عند الله ، وأن ما سواها لا يبالي بهم باله وإن  
ملأوا ما بين الخافقين .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ " سورة المؤمنون : 18

قال الزمخشري : ( وقوله " على ذهاب به " من أوقع النكرات وأحزها للمفصل ، والمعنى  
على وجه من وجوه الذهاب به ، وطريق من طرقه ، وفيه إيذان باقتدار المذهب ، وأن لا  
يتعابا شيء عليه إذا أراده . )<sup>2</sup>

دلالة أسلوب الالتفات :

وفي أسلوب الالتفات يقول الزمخشري : ( هو فن من الكلام جزل ، فيه هز وتحريك  
للسامع ، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكيا عن ثالث لكما : إن فلانا من قصته كيت  
وكيت ، فقصصت عليه ما فرط منه ، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت : يا فلان من  
حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك ، وتستوي على جادة السداد في  
مصادرك ومواردك ، نبهته بالفتانك نحوه فضل تنبيه ، واستدعيت إصغاه على إرشادك  
زيادة استدعاء ، وأوحدته بالانتقال من الغيبة على المواجهة هازا من طبعه ما لا يجده إذا  
استمرت على لفظ الغيبة ، وهكذا الافتنان في الحديث ، والخروج فيه من صنف إلى  
صنف ، يستفتح الأذان للاستماع ، ويستتهش الأنفوس للقبول . )<sup>3</sup>

ونتهي من هذا المبحث إلى القول بأن الزمخشري قد كان آخر لبننة في هذا البناء  
الشامخ لهذه النظرية الرائدة في تحليل الإعجاز القرآني مما هبأ له تلك المكانة الفريدة التي  
نالها بتفسيره الكشاف ، فكان كل من جاء بعده وتكلم في الإعجاز البلاغي للقرآن  
الكريم مدينا للزمخشري وتفسيره الكشاف ، وهذا ما برز في تفسير البحر المحيط لأبي حيان  
الأندلسي ، وهو ما سنعرض له في المبحث الرابع .

<sup>1</sup> . الكشاف : 600/4

<sup>2</sup> . الكشاف : 180/3

<sup>3</sup> . الكشاف : 88.89/1

## المبحث الرابع

### مدى تأثير أبي حيان بجهود الزمخشري

وأمام هذه الجهود الطيبة للزمخشري في الكشف عن بلاغة القرآن وبيان سر إعجازه ، ما وسع أبا حيان الأندلسي إلا الإشادة بهذا الفضل ، والتنويه بمكانة الزمخشري وسبقه وتفرده في هذا الجانب ، فتابعه في تعليل وجه الإعجاز في القرآن الكريم ، وأثنى عليه ثناء بالغا ، ولقد تكرر هذا الذكر والثناء في المقدمة وحدهما في أربعة مواضع إلى جانب ابن عطية الأندلسي الذي عاصر الزمخشري ، ونحا نحوه في تفسيره في الكشف عن بلاغة القرآن ، والأهمية كلام أبي حيان في هذين الرجلين رأينا أن ننقل قطوفا منه ، لنقف على درجة إعجابهما بهما وسلوكهما مسلكهما .

فقال في الموضوع الأول : ( والله ذر أبي القاسم الزمخشري حيث قال في خطبة كتابه في التفسير ما نصه : ( إن أملاً العلوم بما يفهم القرائح ، وأنفضها بما يبهر الألباب القوارح .. علم التفسير الذي لا يتجلى لمنعاطيه وإحالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن .. )<sup>1</sup>

ثم ثنى على هذا الكلام بقوله : ( انتهى كلام الزمخشري في وصف منعاطي تفسير القرآن ، وأنت ترى هذا الكلام وما احتوى عليه من الترصيف الذي يبهر بجنسه الأدباء ، ويقهر بفصاحته البلغاء ، وهو شاهد له بأهليته للنظر في تفسير القرآن ، واستخراج لطائف الفرقان . )<sup>2</sup>

ثم عاد فقال : ( وهذا أبو القاسم محمود بن عمر المشرقي الخوارزمي الزمخشري ، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الفرناطي ، أجل من صنف في التفسير ، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير ، وقد اشتهرا ولا كاشتهار الشمس ، وخطدا في الأحياء وإن هذان في الرسم ، وكلامهما فيه يدل على تقدمهما في علوم ، ممن مشور ومنظوم ، ومنقول ومفهوم ، وتقلب في فنون وآداب ، وتمكن من علمي المعاني والإعراب

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 9/1

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 9/1

، وفي خطبتي كتابيهما ، وفي غضون كتاب الزمخشري ما يدل على أنهما فارسا ميدان ،  
وممارسا فصاحة وبيان .<sup>1</sup>

وفي الشاء على تفسيريها قال : ( ولما كان كتابهما في التفسير قد أنجدا وأغارا ،  
واشرفا في سماء هذا العلم بدرين وأنارا ، وتترا من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من  
العين ، والذهب الإبريز من العين ، وبتيمة الدر من اللآلي ، وليلة القدر من الليالي ،  
فحكف الناس شرقا وغربا عليهما ، وثنوا أعتة الاعتناء إليهما ، وكان فيهما — على  
حالاتهما — مجال لانتقاد ذوي التبريز ، ومسرح للتخييل فيهما والتمييز ، ثنيت عليهم  
عنان الانتقاد ، وحللت ما تخيل الناس فيهما من الاعتقاد : أنهما في التفسير الغاية التي لا  
تدرك ، والمسلك الوعر الذي لا يكاد يسلك ، وعرضتهما على محك النظر ، وأوربست  
فيهما نار الفكر ، حتى خلص دسيسهما ، وبرز نفيسهما ، وسيرى ذلك من هو للنظر  
أهل ، واحتتمع فيه إنصاف وعدل ، فإنه يتعجب من التولج على الضراغم ، والتحورز  
الأشبالها والأنف راغم ، إذ هذان الرجلان هما فارسا علم التفسير ، وممارسا تحريره  
والتحبير ، نشره نشرًا ، وطار لهما به ذكرا .<sup>2</sup>

وبعد هذا كله أجرى بينهما موازنة سريعة في غاية التركيز والدقة والإنجاز ، فقلل : (   
وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص ، وكتاب الزمخشري أخص وأغوص ، إلا أن  
الزمخشري قائل بالطرفة ، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة .. هذا مع ما في كتابه من  
نصرة مذهبه ، وتقحم مرتكبه .

وتجشم حمل كتاب الله عز وجل عليه ونسبة ذلك إليه ، فمفتقر إساءته لإحسانه ،  
ومصفوح عن سقطه في بعض ، لإصابته في أكثر تبيانه .<sup>3</sup>

ومن هنا فإنه لم يخف تأثيره به في كامل تفسيره ، وتبنيه لكثير مما ذهب إليه في الكشف

عن وجوه ومواطن الإعجاز في القرآن الكريم ، وقد تجلّى هذا التأثير فيما يأتي :

1 — تابعه في الرد على القائلين بالصرفة في إعجاز القرآن ، فأتجه إلى أسلوب السخرية

من أصحاب هذا القول بنفس المعنى الذي ذهب إليه الزمخشري ، فذكر أولاً أنه ( لا

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 9/1

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 10/1

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 10/1



يقدم على تفسير كتاب الله تعالى إلا من كان متبحراً في علم اللسان ، مترقياً منه إلى رتبة الإحسان .. فذلك الذي يدرك إعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد ، وينفتح لما استغلق إذ بيده الإقليد ، وأما من اقتصر على غير هذا من العلوم ، أو قصر في إنشاء المنثور والمنظوم ، فإنه بمعزل عن فهم غوامض الكتاب ، وعن إدراك لطائف ما تضمنته من العجب العجاب ، وحظه من علم التفسير إنما هو نقل أسطار ، وتكرار محفوظ على مر الأعصار .<sup>1</sup>

وهكذا أرجح تفاوت الناس في إدراك ما به وقع الإعجاز في القرآن إلى تفاوتهم في إدراك فصاحة الكلام ، وما به تكون الزحاجة في النظام ، وتبعاً لذلك اختلفوا فيما به إعجاز القرآن ، ( فمن توغل في أساليب الفصاحة وأفانينها ، وتوقل في معارف الآداب وقوانينها ، أدرك بالوجدان أن القرآن أتى في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها ، ونهاية من البلاغة لا يمكن أن يحام عليها ، فمعارضته عنده غير ممكنة للبشر ، ولا داخلة تحت القدر ، ومن لم يدرك هذا المدرك ، ولم يسلك هذا المسلك ، رأى أنه من غلط كلام العرب ، وأن مثله ممكن لمنشئ الخطب ، فأعجازه عنده إنما هو بصرف الله تعالى إياهم عن معارضته ومناضته ، وإن كانوا قادرين على مماثلته . )<sup>2</sup>

ثم خلص إلى بيان حال هولاء بأسلوب ساخر فقال : ( والقائلون بأن الإعجاز وقع بالصراف ، هم من نقصان الفطرة الإنسانية في رتبة بعض النساء ، حين رأت زوجها يطأ جارية فعاتبته ، فأخبر أنه ما وطأها ، فقالت له : إن كنت صادقاً فاقراً شيئاً من القرآن ، فأنشدها بيت شعر قاله فيه ذكر الله ورسوله وكتابه ، فصدقته ، فلم ترزق من الذوق ما تفرق به بين كلام الخلق وكلام الحق . )<sup>3</sup>

2 — كما تابع الزمخشري في جعله الكشف عن بلاغة القرين وإعجازه مقصداً أساسياً من مقاصد المفسر ، حيث قال : ( النظر في تفسير كلام الله تعالى يكون من وجوه . ثم

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 7/1

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 8/1

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 8/1

ذكر سبعة وجوه ، قائلا في الوجه الثالث : كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح ، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع ، وقد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة ..<sup>1</sup> وبذلك عمل على مراعاة النظم الذي هو مناط الإعجاز في القرآن الكريم في مواضع غير قليلة من تفسيره ، وذلك على طريقة الزمخشري الذي كان يتحير من وجوه التفسير ما كان أبلغ وأحفظ لنظم الآية القرآنية وتناسق عباراتها .

ففي تفسير قوله تعالى : " وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَنْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا حَاهَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَحَدَهُ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ " سورة النور : 38

قال أبو حيان : ( والذي يظهر لي أنه تعالى شبه أعمالهم في عدم انتفاعهم بها بسراب صفته كذا ، وإن الضمائر فيما بعد " الظمان " له ، والمعنى في " ووجد الله عنده " أي ووجد مقدور الله عليه من هلاك بالظما عنده ، أي عند موضع السراب ، فوفاه ما كتب له من ذلك وهو المحسوب له ، والله معجل حسابه لا يؤخره عنه ، ، فيكون الكلام متناسقا ، آخذا بعضه بعنق بعض ، وذلك باتصال الضمائر بشيء واحد ، ويكون هذا التشبيه مطابقا لأعمالهم من حيث أنهم اعتقدوها نافعة فلم تنفعهم ، وحصل لهم الهلاك ، بأثر ما حوسبوا به ، وأما في قول الزمخشري فإنه وإن جعل الضمائر لشيء واحد ، لكنه جعل الظمان هو الكافر ، وهو تشبيه الشيء بنفسه كما قال : وشبه الماء بعد الجهد بالماء ، وأما في قول غيره ففيه تفكيك للكلام ، إذ غاير بين الضمائر وانقطع ترصيف الكلام بجعل بعضه مغلطا من بعض .<sup>2</sup>

3 — وتابعه في القول بأهمية الإلمام بعلمي المعاني البيان وضرورتها لكل من انبرى لتفسير كتاب الله تعالى ، منوها بما نقله عن مقدمة " الكشاف " وهو قوله<sup>3</sup> : ( والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام .. واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يفوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن وهما المعاني وعلم البيان ، وممهل في ارتيادها آونة ، وتعب في التنقيب عنهما

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 6/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 461/6

<sup>3</sup> . مقدمة الكشاف .

أزمنة ، وبعثه على تتبع مظاهرها في معرفة لطائف حجة الله ، وحرس على استيضاح معجزة رسول الله .. قد علم كيف يرتب الكلام ويولف ، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقه ، ووقع في مداخله ومزالقه ، انتهى كلام الزمخشري في وصف متعاطي تفسير القرآن ، وأنت ترى هذا الكلام وما احتوى عليه من الترصيف الذي يبهز بجنسه الأدباء ، ويقهر بفصاحته البلاء ..<sup>1</sup>

4 — ونقل كثيرا من أقوال الزمخشري بحرفيتها من "الكشاف" مع التنصيص على ذلك ، وتصويبها واستحسانها ، ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْطِقُونَ " سورة الأنبياء : 63

حيث قال أبو حيان : ( وقال الزمخشري<sup>2</sup> : هذا من تعاريف الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيه إلا الأذهان الراضية من علماء المعاني ، والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط ، أنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أحمى لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة ، فقلت له بل كتبت أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك وإثباته للأحمى أو المخربش ، لأن إثباته — والأمر دائر بينكما للعاجز منكما — استهزاء به وإثبات للقادر . )<sup>3</sup>

5 — كما وافقه في الوجه الآخر من وجوه الإعجاز القرآني ، وهو إخباره بالغيوب ، حيث أن القرآن الكريم أخبر بغيوب كثيرة تتعلق بما كان زمن البعثة وقبلها وبعدها ، فوفقت هذه النبوءات على الوجه الذي نبأ به ، ولم تتخلف منها واحدة . فكان الزمخشري يقف أمام مثل هذه النبوءات ، ويشيد بهذا الوجه من الإعجاز ، وقد صرح أبو حيان بمثل ما قال به الزمخشري مفررا أن إعجاز القرآن واقع من جهة الفصاحة والبلاغة ،

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 9/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 124/3

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 325/6

كما أنه واقع من جهة إخباره بالغيوب ، ونقل عنه في مواضع كثيرة من هذا النوع من الإعجاز القرآني .<sup>1</sup>

## المبحث الخامس

### جهود أبي حيان في الكشف عن إعجاز القرآن

ومع انبهار أبي حيان أمام ما قدمه الزمخشري في هذا الجانب وتأثره الواضح بجهوده ، فإن شخصيته المتميزة ومكانته العلمية كانت تأتي عليه أن يذوب كلية ليكون تفسيره البحر المحيط نسخة ثانية عن الكشاف للزمخشري كما فعل بعض ممن سبقه من المفسرين . حيث كان أبو حيان — وهو مقبل على التصنيف في التفسير — مقتنعا بأن كل مسن يريد أن يكتب في التفسير ، عليه أن يلم بهذا الفن ، ويستوعب ما وضعه المتقدمون ، لأنه يرى أن الكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن هي أحد مقاصد كل مفسر ، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع .

وقد نصر أبو حيان في مقدمة كتابه البحر المحيط على أنه درس هذا الفن على بعض شيوخه بفرناطة<sup>2</sup> ، كما وضع في ذلك مصنفًا جامعًا سماه " خلاصة التبيان في علم المعاني والبيان " <sup>3</sup> .

<sup>1</sup> . انظر مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى : ولئن تمنوهن أبنا بما قدمت أيديهم .. سورة البقرة : 94 . وقوله " الذين جعلوا القرآن عضين " سورة الحجر : 91 . وقوله " فأى حديث بعده يؤمنون " سورة المرسلات : 50 . وقوله تعالى " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً " سورة الفتح : 28

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 6/1

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 6/1

ومن هنا فإنه فإلى جانب نقوله الكثيرة عنه ، كان من جهة أخرى يتعقبه ويرد عليه ، كاشفا مواطن الزلل والضعف فيما ذهب إليه من تخریجات بلاغية ، سواء منها تلك الأخطاء التي وقع فيها تحت تأثير مذهبه الاعتزالي ، أو تلك التي جانب فيها الصواب لغو تعصب مذهبي ، ومن المواضع التي رد عليه فيها ما يأتي :

في تفسير قوله تعالى : " اَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "

سورة البقرة : 20

قال الزمخشري : (فإن قلت : فهلا قيل " تعبدون " لأجل اعبدوا أو اتقوا لكان تتقون ، ليتجاوب طرفا النظم ؟ قلت ليست التقوى غير العبادة ، حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم ، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ، ومنتهى جهده ، فإذا قال : " اعبدوا ربكم الذي خلقكم " للإستيلاء على أقصى غايات العبادة ، كان أبعث على العبادة ، وأشد لزاما لها ، وأثبت لها في النفوس . )<sup>1</sup>

فقال أبو حيان : ( انتهى كلامه ، وهو مبني على مذهبه في أن الخلق كان لأجل التقوى ، وقد تقدم ذلك ، وأما قوله : ليتجاوب طرفا النظم ، فليس بشيء ، لأنه لا يمكن هنا تجاوب طرفا النظم ، لأنه بصير المعنى : اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون ، أو اتقوا ربكم لعلكم تتقون ، وهذا بعيد في المعنى ، إذ هو مثل : اضرب زيدا لعلك تضربه ، واقصد خالدا لعلك تقصده . ولا يخفى ما في هذا من غثاثة اللفظ ، وفساد المعنى ، والقرآن مخرجه عن ذلك ، والذي جاء به القرآن في غاية الفصاحة ، إذ المعنى : أقم أمورا بالعبادة على رجائهم عند حصولها حصول التقوى لهم ، لأن التقوى مصدر اتقى ، واتقى معناه اتخاذا الوقاية من عذاب الله ، وهذا مرجو حصوله عند حصول العبادة ، فعلى هذا العبادة ليست نفس التقوى ، لأن الإتياء هو الاحتراز عن المضار ، والعبادة فعل المأمور به ، وفعل المأمور به ليس نفس الاحتراز بل يوجب الاحتراز ، فكانه قال : اعبدوا ربكم فتحترزوا عذابه . )<sup>2</sup>

وهناك مواضع غير قليلة في الكشاف لم يوافقها فيما ذهب إليه من توجيهات بلاغية لما فيها من تحيز لنصرة مذهبه ، ولكن أبا حيان كان يكتفي في الرد بذكر عبارة " وهذا على

<sup>1</sup> . الكشاف : 93/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 96/1

طريقة الاعتزال " أو ما في معناها ، دون مناقشته ، وذلك لوضوح جانب تعسفه وميله لخدمة مذهبه عند القارئ ، وفي مواضع أخرى ناقشه ورد عليه تفصيلا .

وهكذا فإن أبا حيان إذ لم يخف شدة تأثيره وإعجابه بجهود الزمخشري في هذا الجانب ، حاول من جهة أخرى أن يلم هذه الجهود ويزيد عليها ، ويظهر بمظهر المتفوق على الزمخشري في الكشف عن إعجاز القرآن ، وذلك من عدة وجوه :

1 - منها أنه لم يقصر جهة الإعجاز في القرآن على النظم وحده ، بل كان يرى أن الإعجاز واقع من جهة النظم ومن جهة الفصاحة على السواء ، أي أنه جمع بين نظرية " النظم " عبد القاهر الجرجاني التي طبقها الزمخشري في تفسيره ، وبين نظرية " الفصاحة " التي علل به سر الإعجاز ابن سنان الخفاجي ، ولذا نراه يؤكد في عدة مواضع من مقدمة تفسيره أن إدراك الإعجاز القرآني يدرك من هذين الجهتين ولا يقتصر على إحداهما فقط ، من ذلك قوله : ( فمن توغل في أساليب الفصاحة وأفانينها ، وتوغل في معارف الآداب وقوانينها ، أدرك بالوحدان أن القرآن في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها ، ونهاية من البلاغة لا يحام عليها ) .<sup>1</sup>

ولعل من بين الذين سبقوا أبا حيان في الجمع بين البلاغة والفصاحة في تحليل إعجاز القرآن هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأندلسي الأنصاري القرطاجني في كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " - وهو من شيوخ أبي حيان - وقد صرح في مقدمة البحر المحيط أنه قرأ عليه هذا الكتاب ، وأشاد به ، مما يدل على تأثيره بنظرة شيخه وتطبيقها في تفسيره ، وكان أبو حازم القرطاجني يرى في هذا الكتاب ( أن الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة من جميع أنحاءها في جميعها ، استمرارا لا توجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ) .<sup>2</sup>

ولكن المتبع لأبي حيان في كتابه " البحر المحيط " يلاحظ أنه لم تكن في ذهنه حدود فاصلة بين معنى البلاغة ومعنى الفصاحة ، بل نجده في أكثر من موضع يطلق لفظ الفصاحة على ما وقع في الآيات من ضروب البلاغة وعلومها الثلاثة ، المعاني ، والبيان ، والبديع ،

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 8/1 .

<sup>2</sup> . الزركشي ، الرهان في علوم القرآن : 101/2 . وانظر : أحمد رحمان ، نظريات الإعجاز القرآني : 62 .

كما قد يطلق مصطلح البلاغة على بعض ما يكون في الآيات من ألفاظ حسنة مما يدخل تحت مسمى الفصاحة<sup>1</sup>.

من ذلك مثلا ما قاله بعد تفسيره للآيات الأولى من سورة آل عمران (10 — 16) قال أبو حيان : (قيل وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب الفصاحة حسن الإمام وهو فيما افتتحت به لينبه الفكر إلى النظر فيما بعده من الكلام ، وبجاز التشبيه في مواضع منها : نزل عليك الكتاب ، وحقيقة العزول طرح جرم من علو إلى أسفل .. وفي قوله " لما بين يديه " ، القرءان مصدق لما تقدمه من الكتب ..)<sup>2</sup>

وفي قوله تعالى : " إن الذي كفروا سواء عليهم .. عذاب عظيم " سورة البقرة : 5.6

قال أبو حيان : ( وذكروا أيضا أن في هاتين الآيتين من ضروب الفصاحة أنواعا :

الأول : الخطاب العام اللفظ الخاص المعنى .

الثاني : الإستفهام الذي يراد به تقرير المعنى في النفس ، أي يتقرر أن الإنذار وعدمه

سواء عندهم .

الثالث : المجاز ويسمى الإستعارة ، وهو قوله تعالى " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم

" وحقيقة الختم وضع محسوس على محسوس ، يحدث بينهما رقم يكون علامة للخاتم ،

والختم هنا معنوي ، فإن القلب لما لم يقبل الحق مع ظهوره ، استعير له اسم المختوم عليه ،

فتبين أنه من مجاز الاستعارة . )<sup>3</sup>

وأحيانا يجمع بينهما من باب الترادف بين المصطلحين ، كما يجعل بعض الصور

البيديعية من علم البيان ، وقد جاء ذلك صريحا في تفسيره لقوله تعالى : " وَإِذَا طَلَقْتُمْ

النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. " سورة البقرة :

229 — 230

<sup>1</sup> . علما بأن الفرق بين الفصاحة والبلاغة قد كان واضحا عند من سبقه ، فهذا السكاكي يعرف الفصاحة بقول : ( وأما الفصاحة

فهى لسان : راجع إلى المعنى ، وهو علوص الكلام من التعقيد ، وراجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة حرية أصلية ، وعلامة ذلك

أن تكون على السنة الفصحاء من العرب الموثوق برأيهم أدور ، واستعمالها أكثر ، لا بما أحدثه المولدون ، ولا بما أعطت فيه

العامة ، وأن تكون أخرى على قوانين اللغة ، وأن تكون سليمة من التثنية . ) مفتاح العلوم : 416 . وفي تعريف البلاغة بقول : ( هو

بلوغ التكلم في نادية المعاني حدا له اختصاص بتولية خواص التركيب حفظها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكتابة على وجهها .. )

مفتاح العلوم : 415 .

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 2/390

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 1/50

قال أبو حيان : ( وقد تضمنت هذه الآية ستة أنواع من ضروب الفصاحة والبلاغة مسن علم البيان :

الأول : الطباق ، وهو الطلاق والإمساك ، فإلهما ضدان ، والتسريع طباق ثان ، لأنه ضد الإمساك ، والعلم وعدم العلم ، لأن عدم العلم هو الجهل .

الثاني : المقابلة في " أمسكوهن بمعروف " و " ولا تمسكوهن ضرارا " قابل المعروف بالضرار ، والضرار منكر ، فهذه مقابلة معنوية .

الثالث : التكرار في " فبلغن أجلهن " كرر اللفظ لتغيير المعنيين ، وهو غاية في الفصاحة ، إذ اختلاف معنى الإثنين دليل على اختلاف البلوغين .

الرابع : الإلتفات في " وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن " ثم التفت إلى الأولياء فقلل : " فلا تعضلوهن .. " .

الخامس : التقدم والتأخير ، التقدير " أن ينكحن أزواجهن بالمعروف إذا تراضوا " .

السادس : مخاطبة الواحد بلفظ الجمع لأنه ذكر في أسباب النزول أنها نزلت في معقل بن يسار ، أو في أخت جابر وقيل ابنته .<sup>1</sup>

وأحيانا أخرى يعبر عنها بالمصطلحات البلاغية المعروفة ، ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ .. " .

سورة آل عمران : 187 — 200

حيث يقول : ( وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع الإستعارة ، عبر بأخذ الميثاق عن التزامهم أحكام ما أنزل عليهم من التوراة والإنجيل ، وبالنبد وراء ظهورهم عن ترك عملهم بمقتضى تلك الأحكام ، وباشتراء لمن قليل عن ما تعرضوه من الحطام على كتم آيات الله .. )<sup>2</sup>

وإذا كان المتكلمون في القرن الخامس الهجري من الباقلاني إلى عبد القاهر بنحسون البديع من مباحث أسرار البلاغة في الذكر الحكيم ، فإن الزمخشري قد مضى على هذا الهدى أيضا ، لا يعني بما جاء في الآيات الكريمة من بديع إلا عرضا ، وكانت هذه النظرة

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 211/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 148/3



إلى البديع عنده سببا في ألا يطيل النظر في ألوانه القرآنية ، وأن لا يلزمها إلا في الحين بعد الحين ، وإذا ألم بها مسها في خفة .<sup>1</sup>

فمن ذلك إشارته إلى الطباقي في قوله تعالى : " أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ "

سورة البقرة : 12

والمشاكل في قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ أَنْ يُضْرَبَ مِثْلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فُوقَهَا "

.. " سورة البقرة : 25

واللف والنشر في قوله تعالى : " وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى .. "

" سورة البقرة : 110

أما هذه التقسيمات في عصر أبي حيان فقد كانت موجودة ، بل عرفها البلاغيون قبله ، كما بينها السكاكي في كتابه " مفتاح العلوم " <sup>2</sup> ، فمضى أبو حيان يطبقها على نطاق واسع من القرآن الكريم ، فلا يفسر مقطعا من الآيات القرآنية ويتكلم عن الصور البلاغية فيه إلا ويبين ما فيه من ألوان المحسنات البديعية كما مر معنا في الشواهد السابقة .

2 — ومنها الخروج من دائرة نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني القائمة على دراسة التراكيب النحوية وأهميتها في بلاغة القرآن ، إلى دائرة أوسع وهو الكلام على تسالف الآيات القرآنية فيما بينها وتناسبها ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، وهو تركيزه على إبراز وجه التناسب بين سور القرآن الكريم كلها ، مع التسليم بتوقيفية ترتيبها .

فمن الأمثلة على مراعاة وجه التناسب بين الآيات القرآنية ما يأتي :

في تفسير قوله تعالى : " وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

تحتها الأنهار .. " سورة البقرة : 24

قال أبو حيان : ( ومناسبة قوله تعالى " وبشر " لما قبله ظاهرة ، وذلك أنه لما ذكر ما

تضمن ذكر الكفار وما تقول إليه حالهم في الآخرة ، وكان ذلك من أبلغ التحوير والإنذار ، أعقب ما تضمن ذكر مقابليهم وأحوالهم ، وما أعد لهم في الآخرة من النعيم السرمدي . وهكذا جرت العادة في القرآن غالبا ، متى جرى ذكر الكفار ومآلهم ، أعقب بالمؤمنين ومآلهم ، وبالعكس لتكون الموعظة جامعة ، بين الوعد والوعيد ،

<sup>1</sup> . شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ : 265

<sup>2</sup> . السكاكي ، مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1987م ، ص : 423

واللطف والعنف ، لأن من الناس من لا يجذبه التعوييف ، ويجذبه اللطف ، ومنهم من هو العكس .<sup>1</sup>

ويرى أبو حيان في تناسب الآيات وترابطها نوعا من أنواع الفصاحة ، من حيث أدائه الغرض وإقناع المخاطبين ، وقد صرح بذلك في تفسير قوله تعالى : " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ... واركعوا مع الراكعين " سورة البقرة : 39 - 42 حيث قال : ( وفي هذه الجملة وإن كانت معطوفات بالواو التي لا تقتضي في الوضع ترتيبا ، ترتيب عجيب من حيث الفصاحة وبناء الكلام بعضه على بعض ، ، وذلك أنه تعالى أمرهم أولا بذكر النعمة التي أنعمها عليهم ، إذ في ذلك ما يدعو إلى محبة المنعم ووجوب إطاعته ، ثم أمرهم بإبقاء العهد الذي التزموه للمنعم ، ثم رغبتهم بترتيب إيفائه هو تعالى بعهدهم في الإيفاء بالعهد ، ثم أمرهم بالخوف من نعماته إن لم يوفوا ، فاكتف بالأمر بذكر النعمة والإحسان ، وأمر بالخوف من العصيان ، ثم أعقب ذلك بالأمر بإيمان خاص ، وهو ما أنزل من القرآن ، ورغب في ذلك بأنه مصدق لما معهم ، فليس أمرا مخالفا لما في أيديهم ، لأن الانتقال إلى الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ، ثم نهاهم عن استبدال الخسيس بالنفيس ، ثم أمرهم تعالى باتقائه ، ثم أعقب ذلك بالنهي عن ليس الحق بالباطل ، وعن كتمان الحق تركا للضلال ، ولما كان الضلال ناشئا عن أمرين إما تمويه الباطل حقا إن كانت الدلائل قد بلغت المستتبع ، وإما عن كتمان الدلائل إن كانت لم تبلغه ، أشار إلى الأمرين بلا تلبسوا ولا تكتموا ، ثم قبح عليهم هذين الوصفين مع وجود العلم ، ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان وإظهار الحق بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، إذ الصلاة أكد العبادات البدنية ، والزكاة أكد العبادات المالية ، ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد والخضوع له تعالى مع جملة الخاضعين الطائعين ، فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم ، واختتامها واختتامها بالانقياد للمنعم ، وما بينهما تكاليف اعتقادية وأفعال بدنية ومالية ، وينحو ما تضمنته هذه الآيات من الافتتاح والإرداف والاختتام يظهر فضل كلام الله على سائر الكلام .<sup>2</sup>

ومن الأمثلة على اهتمامه بإبراز وجه التناسب بين سور القرآن ما يأتي :

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 110/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 180/1

في مطلع سورة الأنبياء " اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون " . الأنبياء : ١  
 قال أبو حيان : ( ومناسبة هذه السورة لما قبلها — سورة طه — أنه لما ذكر : " قل كل  
 متربص فتربصوا .. " قال مشركو قريش يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال وليس  
 بصحيح .. فأنزل الله تعالى : " اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. " )<sup>١</sup>  
 وفي مطلع سورة الحج " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ " .  
 سورة الحج : ١

قال أبو حيان : ( ومناسبة هذه السورة لما قبلها — الأنبياء — أنه ذكر تعالى حال  
 الأشقياء والسعداء ، وذكر الفرع الأكبر ، وهو ما يكون يوم القيامة ، وكان مشركو  
 مكة قد أنكروا المعاد وكذبوه بسبب تأخر العذاب عنهم ، نزلت هذه السورة تحذيرا لهم  
 وتخويفا لما انطوت عليه من ذكر زلزلة الساعة وشدة هولها ، وذكر ما أعد لمنكرها ،  
 وتنبههم على البعث بتطویرهم في خلقهم ، ومحمود الأرض واهتزازها بعد بالنبات . )<sup>٢</sup>  
 وإذا رجعنا إلى نفس المواضع عند الزمخشري فإننا لا نجد أثرا للحديث عن وجه  
 التناسب بين آيات القراءان وسوره إلا ما كان له تعلق بحسن النظم المترتب على مراعاة  
 التراكيب النحوية<sup>٣</sup> .

ولا شك أن بيان وجه التناسب بين آيات القرآن وسوره هو بيان لوجه من وجوه  
 إعجاز القرآن ، وفي ذلك يقول الزركشي :

( واعلم أن المناسبة علم شريف ، تحزر به العقول ، ويعرف به قدر القائل فيما يقول ..  
 وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها أخذ بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط . )<sup>٤</sup>  
 ثم نقل عن الفخر الرازي وأبي بكر بن العربي وغيرهما ما يؤيد رأيه<sup>٥</sup> .  
 ونحن لا نستبعد أن يكون أبو حيان الأندلسي في هذا الجانب متأثرا بأستاذه أبي جعفر  
 إبراهيم بن الزبير الفرناطي صاحب كتاب " البرهان في ترتيب سور القرآن " فقد صحبه  
 في بداية شبابه ، وقرأ عليه أكثر كتبه ، وظل أبو حيان يذكره ويشي عليه وينوه بعلمه .

<sup>١</sup> . البحر المحيط : 295/6

<sup>٢</sup> . البحر المحيط : 349/6

<sup>٣</sup> ، انظر الكشاف : 141/3 . 100/3

<sup>٤</sup> . البرهان في علوم القرآن : 37/1

<sup>٥</sup> . البرهان في علوم القرآن . الصفحة نفسها .

وهكذا فإن أبا حيان في هذا الجانب قد جمع بين النقل والإبداع حيث تقبل عن الزمخشري وأفاد منه في الكشف عن أسرار النظم القرآني وما فيه من إعجاز ، وحلول أن يدع ويضيف الجديد في هذا المجال حيث عرض لجوانب أخرى من الإعجاز القرآني لا نجد لها نظيرا في الكشاف للزمخشري ، وهذا ما بدعونا للموازنة بين جهود المفسرين في هذه الجانب ، وهو ما سنفعله في المبحث اللاحق .

## المبحث السادس

### موازنة بين جهود المفسرين في الكشف عن إعجاز القرآن

ومن خلال عرض جهود هذين المفسرين في الكشف عن إعجاز القرآن الكريم يتبين تقدم الزمخشري عن أبي حيان الأندلسي في هذا الجانب ، وذلك على الرغم مما أضافه أبو حيان في إبراز الجوانب الأخرى للإعجاز القرآني ، وهي إضافات على قيمتها العلمية لا تزيد كثيرا عن كونها ممررة أخرى من ممرات البحث في النظم القرآني وتطبيقه بشكل أوسع .

وربما كان لعامل السبق الزمني أثر في هذا التفاوت بين الزمخشري وأبي حيان ، حيث جاء الزمخشري في القرن الخامس الهجري ، والدراسات البلاغية في مرحلة النضج والازدهار ، وهي لا تزال تنبض بالحركة والحياة ، فاستفاد من مرحلته ، وكانت له إضافات وإبداعات حصل له الفضل والتفوق بها ، أما أبو حيان فقد جاء في مرحلة متأخرة من تاريخ البلاغة العربية وهو القرن السابع الهجري ، وهي مرحلة الجمود والتقليد ، حيث اكتفى الدارسون بالتلخيص والشروح لكتب المتقدمين ، وإلى هذا ذهب محمود السيد شيخون في كتابه الموسوم بـ " الإعجاز في نظم القرآن " حيث قال : ( وبعض الذين بن عبد السلام — ت : 660هـ — تأتي إلى نخامة مشاهير العلماء الذين تكلموا في وجه الإعجاز في القرآن الكريم ، وقد جاء من بعده علماء تكلموا في هذه الناحية ، لكن

جهودهم اقتصرت على نقل وجمع آراء السابقين ، ولم يكن جديد في هذه الناحية يستحق الدراسة والتسجيل ، ومن هؤلاء الزملاكي ( ت : 727هـ ) والزرکشي ( ت : 794هـ ) صاحب البرهان ، وابن قيم الجوزية ( ت : 751هـ ) صاحب كتاب الفوائد .<sup>1</sup>

بل نجد من الباحثين في تاريخ البلاغة العربية والإعجاز البلاغي للقرآن من يرى ( أن البحث البلاغي قد انعكس منذ بداية القرن السابع الهجري ، على يد أبي يعقوب السكاكي ( ت : 626هـ ) فما أن لخص السكاكي العلوم البلاغية في القسم الثالث من كتابه " مفتاح العلوم " حتى انحرف مسار التأليف البلاغي بسرعة كاسحة ، إلى هذا الإتجاه الذي يقوم على التعقيد والتقنين المنطقي الصارم .<sup>2</sup>

وذلك أن السكاكي كان ذا عقلية منطقية ، فلم يستوعب من فكر عبد القاهر البلاغي الذي أثر فيه إلا الجانب النظري التقني ، أما الجانب الذوقي التحليلي فلم يستطع استيعابه والإفادة منه .

وهكذا فقدت البلاغة العربية بعناصرها المختلفة هذا الجانب الجمالي الذوقي ، وتحولت إلى علم تقني يشبه إلى حد كبير قواعد النحو والصرف والعروض وتقسيماتها .<sup>3</sup>

وإذا سلمنا بأنه ليس كل من أحاط بقواعد النحو والصرف صار أدبياً ، وليس كل من ألم بعلم العروض صار شاعراً ، فإنه يصح القول بأنه ليس كل من ألم بهذه التقنيات لقواعد البلاغة على ما وضعه السكاكي صار ملماً بالإعجاز البلاغي للقرآن ذواقاً لأسلوبه .

وقد ظهر هذا بجلاء في أعمال أبي حيان الأندلسي ، فبالرغم من تأثره بالزمخشري ، وإطلاعه على إنتاجه واستفادته منها ، وإطلاعه على " دلائل الإعجاز " لعبد القاهر الجرجاني واستفادته منه أيضاً<sup>4</sup> فإنه لم يستطع أن يتجرد مما كان عليه عصره من جمود وتقليد في هذا الجانب ، فوضع كتابه في البلاغة " خلاصة التبيان .. " والظاهر من عنوانه أنه عبارة عن جمع وتلخيص لما تقدمه من كتب السابقين ، إن لم نقل إنه نخله من مفتاح

<sup>1</sup> . الإعجاز في نظم القرآن : 61 ، وانظر أحمد جال العمري ، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني مكتبة الخانجي ،

القاهرة ، 1990م ، ص : 323

<sup>2</sup> . البلاغة تطور وتاريخ : 324

<sup>3</sup> . المباحث اللغوية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : 324 تصرف .

<sup>4</sup> . البحر المحیط : 128/2

العلوم للسكاكي مثلما فعل في كتابه " ارتشاف الضرب " <sup>1</sup> ، كما كان في تفسيره البحر المحيط قد غلب عليه تلخيص أقوال من سبقه وتحذيره لها ، وهذا واضح في كثير من المواضع التي صرح فيها بالنقل ، فمن ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى : " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ " سورة البقرة : 178

حيث قال : ( وقالت العرب فيما يقرب هذا المعنى : القتل أوقى للقتل ، وقالوا : القتل أنفى للقتل ، وقالوا أكف للقتل ، وذكر العلماء تفاوت ما بين الكلامين من البلاغة من وجوه :

أحدها : أن ظاهر قول العرب يقتضي كون وجود الشيء سببا لانتفاء نفسه وهو محال .  
الثاني : تكرار لفظ القتل في جملة واحدة .

الثالث : الاقتصار على أن القتل هو أنفى للقتل .

الرابع : أن القتل ظلما هو قتل ، ولا يكون نافيا للقتل ، وقد اندرج في قولهم القتل أنفى للقتل ، والآية المكرومة بخلاف ذلك .

أما في الوجه الأول ففيه أن نوعا من القتل — وهو القصاص — سبب لنوع من الحياة لا لمطلق الحياة ، وإذا كان على حذف مضاف ، أي " ولكم في شرع القصاص " أتضح كون شرع القصاص سببا للحياة .

وأما في الوجه الثاني فظاهر لعذوبة الألفاظ ، وحسن التركيب وعدم الاحتياج إلى تقدير الحذف ، لأن في كلام العرب كما قلناه تكرار اللفظ والحذف ، إذ أنفى أو أوقى أو أكف هو أفعال تفضيل ، فلا بد من تقدير المفضل عليه : أنفى للقتل من ترك القتل .

وأما في الوجه الثالث فالقصاص أعم من القتل ، لأن القصاص يكون في نفس وغير نفس ، والقتل لا يكون إلا في النفس ، فالآية أعم وأنفع في تحصيل الحياة .

وأما في الوجه الرابع فلأن القصاص مشعر بالاستحقاق فترتب على مشروعيته وجود الحياة ، ثم الآية المكرومة فيها مقابلة القصاص بالحياة فهو من مقابلة الشيء بضده ، وهو نوع من البيان يسمى بالطباق ، وهو شبه قوله تعالى " وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَى " <sup>2</sup> .

أما الزمخشري فقال عند تفسيره لهذه الآية :

<sup>1</sup> . انظر : بنية الوعاة : 364/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 15/2 — 16

( كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة ، وقد جعل مكانا وظرفا للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة تعريف القصاص وتنكير الحياة ، لأن المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة ، أو نوع من الحياة ، وهي الحياة الحاصلة لارتداع القاتل عن القتل لوقوع العلم بالاعتصام من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتض منه فارتدع منه سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القتل ، فكان القصاص سبب حياة نفسين . )<sup>1</sup>

وإذا وازنا بين ما أتى به أبو حيان في هذا الموضوع وبين ما عند الزمخشري في تفسير نفس الآية ، فإننا نجد أبا حيان قد ذكر من وجوه النظم في الآية ما لم يذكره الزمخشري ، وبذلك بدا أبو حيان متفوقا عليه من هذا الجانب ، إلا أن أبا حيان صرح بأنه ناقلا وجامع لأقوال غيره ، وذلك في قوله " وذكر العلماء تفاوت ما بين الكلامين من البلاغة من وجوه .. " ، أما الزمخشري فيبدو أنه اعتمد على نظرتة الثاقبة للآية ، وما أدركه بحسه الإبداعي وذوقه البلاغي .

والزمخشري قد يمر بآيات فيها من وجوه البلاغة التي تتحلى لكل قارئ للقراءان ، فهو لا يقف عندها ولا ينبه عليها ، لأنه يرى أن الناس في ذلك متساوون ، ولا يكادون يتفاوتون إلا بخطى قليلة ، وإنما يعني بلطائف النكت ودقائقها التي لا يكشف عنها إلا الخاصة من أولي العلم ، وفي ذلك يقول :

( اعلم أن من كل علم وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية ، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية ، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطى يسيرة ، أو تقدم الصناع لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة ، وإنما الذي تباينت فيه الرتب ، وتحاكت فيه الركب ، ووقع فيه الاستباق والتفاضل ، وعظم فيه التفاوت والتفاضل ، حتى انتهى الأمر إلى أمسد من الوهم متباعد ، وترقى إلى أن عد ألف بواحد ، ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر ، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث الفكر ، ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار ، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ، وإلا واسطنهم وفصمهم

<sup>1</sup> . الكشاف : 222/1

، وعامتهم عمارة عن إدراك حقائقها بأحداقهم ، عناة في يد التقليد ، لا يمن عليهم بجزر نواصيهم وإطلاقهم .<sup>1</sup>

وهكذا نجد أبا حيان وقف عند مقاطع كثيرة من الآيات ، وراح يخصص الصور البلاغية فيها ، بينما نجد الزمخشري يمر عليها ولا يذكر شيئا من ذلك ، فلا يظن به أنه فاتته ، وإنما اشتغل بما هو أدق منها .

ففي تفسير قوله تعالى : " فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ..

فتيلا " سورة النساء : 73 — 78

قال أبو حيان الأندلسي : ( وقد تضمنت هذه الآيات من وجوه البيان والبدیع الإستعارة في يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، وفي فسوف نؤتيه أجرا عظيما لما يناله من النعيم في الآخرة ، وفي سبيل الله وفي سبيل الطاغوت ، استعار الطريق للإتباع وللمخافة ، وفي كفوا أيديكم ، أطلق كف اليد الذي هو مختص بالإجرام على الإمساك عن القتال ، والإستفهام الذي معناه الإستبطاء والإستبعاد في " وما لكم لا تقاتلون " والإستفهام الذي معناه التعجب في " ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم " والتجوز بفي التي للوعاء عن دخولهم في الجهاد ، والإلتفات في " فسوف نؤتيه أجرا عظيما " — في قراءة النون — والتكرار في " سبيل الله " وفي " واحعل لنا من لذنك " وفي " يقاتلون " وفي " الشيطان " وفي " وإن تصبهم " وفي " وما أصابك " وفي " اسم الله " ، والطباق اللفظي في " الذين آمنوا " ، و" الذين كفروا " ، والمعنوي في سبيل الله طاعة وفي سبيل الطاغوت معصية ، والإختصاص في " إن كيد الشيطان كان ضعيفا " وفي " والآخرة خير لمن اتقى " ، والتجوز بإسناد الفعل إلى غير فاعله في " بدركم الموت " وفي " إن تصبهم " وفي " ما أصابك " ، والتشبيه في " كعشبة " وإيقاع أفعال التفضيل حيث لا مشاركة في خير لمن اتقى ، والتجنيس للغاير في " يخشون و كعشبة ، والحذف في مواضع .<sup>2</sup>

وإذا رجعنا إلى الكشاف وجدناه سكت عن هذه الصور البلاغية التي راح أبو حيان يطبق عليها المصطلحات البلاغية كقوانين جامدة من غير أن يقف عند دقائق النظم القرآني بحسه البياني ، ويتفوق ما فيها من نكت حسنة ، لأن الإكتفاء بذكر ما في هذه

<sup>1</sup> . مقدمة تفسير الكشاف .

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 302/3



الآيات من صور بلاغية دون بيان ما فيها من نظم فريد ومتميز يوهم القارئ أن أسلوب  
القرآن كأي كلام آخر بليغ ، فيمكن مضاهاته ومعارضته .

بينما نجد الزمخشري يقف مثلا عند قوله تعالى : " وَلِتُكْمِلُوا الْعِلْمَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى  
مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " <sup>1</sup> ليكشف عن عجيب النظم الموجود في هذا الشطر من  
الآية والذي لا ينكشف إلا للحذاق من علماء البيان فيقول : ( ..فقوله " لتكملوا " علة  
الأمر بمراجعة العلة ، " وتكبروا " علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر  
، " ولعلكم تشكرون " علة الترخيص والتيسير ، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا  
يكاد يهتدي إلى تبينه إلا النقاب المحذث من علماء البيان . ) <sup>2</sup>

ولقد وقف ابن المنير أما هذا الكلام فما وسعه إلا إظهار الإعجاب به فقال : (ولقبه  
الخاص في صناعة البديع : رد أعجاز الكلام إلى صدوره ، ولقد أحسن الزمخشري في  
التنقيب عنه ، فهو منظوم في حسناته . ) <sup>3</sup>

ذلك أن نظرية عبد القاهر الجرجاني التي طبقها الزمخشري وتشبع بها لا تعني أن  
الإعجاز واقع بمجرد الإقرار بصحة النظم القرآني الذي يتولد عنه كلام بليغ ، وإنما تعني  
أنه واقع باعتبار أن النظم درجات ، وأن النظم القرآني يتعدى دائرة الصحة إلى دائرة  
الفضائل والمزايا التي تعني حسن التخير في دائرة الحدود التي حددها النحو ( وإلا فإن هذه  
المعاني وتلك الوجوه من التعلق التي هي محصول النظم موجودة على حقائقها وعلى  
الصحة ، وكما ينبغي في منشور كلام العرب ومنظومه ، ورأيانهم قد استعملوها وتصرفوا  
فيها وكملاوا بمعرفتها . ) <sup>4</sup>

فهذا الذي كان الزمخشري يراعيه ويقف عنده منفردا بتلك اللطائف البلاغية الناتجة

عن بليغ النظم القرآني ، وكان أبو حيان ينقله بحرفيته ، مبدئا إعجابيه واستحسانه لها .

من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ  
إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ " سورة آل عمران : 97

<sup>1</sup> . سورة البقرة : 184

<sup>2</sup> . الكشاف : 228 / 1

<sup>3</sup> . الانصاف من الكشاف ، على هامش الكشاف : 228/1 ، هامش : 1

<sup>4</sup> . دلائل الإعجاز : 15

قال أبو حيان : ( ودلت هذه الآية على تأكيد فرض الحج ، إذ جاء ذلك بقوله " والله " ليشعر بأن ذلك له تعالى ، وجساء بسـ "على" الدلالة على الاستعلاء ، وجاء متعلقا بلفظ العموم ، وإن كان المراد منه الخصوص ليكون من وجب عليه ذكر مرتين . قال الزمخشري : ( وفي هذا الكلام أنواع من التأكيد والتشديد ، فمنها قوله " والله على النلس حج البيت يعني أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهده ، ومنه انه ذكر الناس ثم أبدل منه من استطاع إليه سبيلا ، وفيه ضربان من التأكيد أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له ، والثاني أن الإيضاح بعد الإهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين ، انتهى كلامه وهو حسن . )<sup>1</sup>

( وإذا كان التركيب النحوي له معنى أول يدل على ظاهر الوضع اللغوي ، وله معنى ثان ودلالة إضافية تتبع المعنى الأول ، وهذا المعنى الثاني وتلك الدلالة الإضافية هي المقصد والمهدف للبلاغة )<sup>2</sup> فإننا نجد أبا حيان عندما ناقش الزمخشري في مثل هذه المواضع وعارضه في بعض ما تحدث عنه من نظم القراءان إنما ناقشه وعارضه في الشطر الأول فقط ، أي من الوجهة النحوية ولم تعد هذه المناقشة إلى الدلالة البلاغية في كثير من المواضع ، مما يدل على أنه كان يسلم له بالتفوق ورسوخ القدم في الشطر الثاني ، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها :

في تفسير قوله تعالى : " قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ .. " سورة مريم : 46  
قال أبو حيان : ( قال الزمخشري : وقدم الخبر على المبتدأ في قوله " أ راعب أنت .. " لأنه كان أهم عنده ، وهو عنده أعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلمته ، وإن آلمته ما ينبغي ان يرغب عنها أحد ، وفي هذا سلوى وتلج لصدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه ، انتهى . والمختار في إعراب " أ راعب أنت .. " أن يكون راعب مبتداً ، لأنه اعتمد على أداة الاستفهام ، و " أنت " فاعل سد مسد الخبر ، ويترجح هذا الإعراب على ما أعربه الزمخشري من كون " أ راعب " خبراً و " أنت " مبتداً من وجهين : أحدهما ألا يكون فيه تقدم وتأخير إذ رتبة

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 10/3

<sup>2</sup> . عد الفناح لاشون : التراكب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر المرحلي ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، المملكة العربية

الخبر أن يتأخر عن المبتدأ ، والثاني ألا يكون فصل بين العامل الذي هو " أ راغب " وبين معموله الذي هو " عن آلهي " بما ليس بمعمول للعامل ، لأن الخبر ليس هو عاملا في المبتدأ ، بخلاف كون " أنت فاعلا فإنه معمول " أ راغب " فلم يفصل بين " أ راغب " وبين " عن آلهي " بأجنبي إنما فصل بمعمول له .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ .. " سورة

البقرة : 16

قال أبو حيان : ( و " لما " جوابها ذهب الله بنورهم ، وقد أجازوا أن يكون جواب لما محذوفا كما حذفوه في قوله " فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب .. " <sup>2</sup> قال الزمخشري : وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس الدال عليه . قال أبو حيان : وقوله لاستطالة الكلام غير مسلم به لأنه لم يستطل الكلام ، لأنه قدره حمدت ، وأي استطالة في قوله فلما أضاءت ما حوله حمدت ، بل هذا لما وجوابها فلا استطالة ، بخلاف قوله " فلما ذهبوا به " فإن الكلام قد طال بذكر المعاطيف التي عطفت على الفعل وذكر متعلقهما بعد الفعل الذي يلي " لما " فلذلك كان الحذف سائغا لاستطالة الكلام . وقوله " مع أمن الإلباس " وهذا أيضا غير مسلم به ، وأي أمن إلباس في هذا ولا شيء يدل على المحذوف ، بل الذي يقتضيه ترتيب الكلام وصحته ووضعه مواضعه أن يكون " ذهب الله بنورهم هو الجواب ، فإذا جعلت غيره الجواب مع قوة ترتيب ذهاب الله بنورهم على الإضاءة كان ذلك من باب اللفظ ، إذ تركت شيئا يبادر إلى الفهم ، وأضمرت شيئا يحتاج في تقديره إلى وحي يسفر عنه ، إذ لا يدل على حذفه اللفظ مع وجود تركيب " ذهب الله بنورهم .

ولم يكتب الزمخشري بأن جوز حذف الجواب حتى ادعى أن الحذف أولى ، قال : وكان الحذف أولى من الإتيان لما فيه من الوجاجة مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوفد بما هو أبلغ للفظ في أداء المعنى كأنه قيل : فلما أضاءت ما حوله حمدت فبقوا خابطين في ظلام متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار ..

<sup>1</sup> . الكشاف : 20/1

<sup>2</sup> . سورة يوسف : 15

وهذا الذي ذكره نوع من الخطابة لا طائل تحتها ، لأنه كان يمكن له ذلك لو لم يكن يلي قوله " فلما أضاءت ما حوله " قوله " ذهب الله بنورهم " وأما ما في كلامه بعد تقدير " حمدت " إلى آخره فهو مما يحمل اللفظ ما لا يتحملة ، ويقدر تقادير وجملا محذوفة لم يدل عليها الكلام ، وذلك عادته في غير ما كلام في معظم تفسيره ، ولا ينبغي أن يفسر كلام الله بغير ما يحتمله ، ولا أن يزداد فيه ، بل يكون الشرح طبق المشروح من غير زيادة عليه أو نقص منه .<sup>1</sup>

وتبقى المواضع التي تعقبه فيها أبو حيان قليلة إذا قيست بتلك التي ارتضاها ونقلها باللفظ أو المعنى أو سكنت عنها .

وهذا يظل الزمخشري على قمة هرم الباحثين والمبدعين في الكشف عن مواطن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، وهو أقوى جانب في جوانب إعجازه ، وهذا ما انتهى إليه وقرره الباحث نعيم الحمصي في بحثه الموسوم بـ "فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة حتى عصرنا الحاضر حيث قال : ( قد انتهت من دراسة أفكار من تكلموا في الإعجاز القرآني إلى أن فكرة الإعجاز بالبلاغة كانت أقوى هذه الأفكار . لكن القدماء الذين أرادوا أن يثبتوها لم يكن عندهم آراء ونظرات فنية كاملة في فنون البلاغة .. ونستثنى من القدماء عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم في البلاغة ، والزمخشري صاحب الكشف ، فلهما نظرات ثاقبة وأبعاد عميقة .)<sup>2</sup>

ولما كانت فكرة الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم هي أقوى الجوانب ، وكان الزمخشري أحد الأركان الشاحخة في خدمتها وتجسيدها ، فإنه بذلك نال هذا التفوق وهذه المكانة التي طالما نازعه فيها أبو حيان وغير أبي حيان ممن سبقه ولحقه ، ولعله الجانب الذي يصدق فيه قول الزمخشري عندما مدح كشافه بقوله :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمرى مثل كشاف

ونحن نسلم لكشاف الزمخشري هذا التفرد والتميز من هذا الجانب ، ولكننا نسلحه في دعوى التفوق في الجوانب الأخرى ، وهو ما سنعرض له في الفصول اللاحقة بإذن الله .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 79/1 . 80

<sup>2</sup> . فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة حتى عصرنا الحاضر : 464

## جامعة الأمير الفصل الثاني

مسلكهما في المباحث اللغوية والنحوية

عبد القادر للعلوم الإسلامية

يعتبر هذا الفصل بحثاً مكتملاً للفصل السابق ، لأن مبحث الإعجاز القرآني عند المفسرين قام أساساً على تطبيق نظرية النظم القرآني ، وقد علمنا أن النظم — الذي هو مناط الإعجاز في القرآن — ما هو إلا مراعاة لأحكام النحو ، ومن هنا فإن اهتمام كل من المفسرين بالإعجاز البلاغي في القرآن الكريم كان يقتضى منهما أن يهتما بالنواحي النحوية والإعرابية ، لما ينبنى عليها من الكشف عن وجوه النظم ودلائله الإعجازية . ولما كان اهتمام المفسرين بالجانب النحوي بارزاً في تفسيريهما ، فإننا سنتقيم هذه الموازنة بين منهجيهما في المباحث النحوية واللغوية من خلال الجوانب الآتية :

## المبحث الأول مصادرها النحوية

### المطلب الأول : مصادر الزمخشري النحوية

إن المتتبع لتاريخ الحركة العلمية في جانب الدراسات اللغوية والنحوية والبلاغية يجدها قد اكتملت ونضجت مع نهاية القرن الرابع الهجري ، وقد طبق المفسرون ذلك في إنتاجهم التفسيري ، حتى إذا جاء الزمخشري في القرن الخامس ومطلع القرن السادس ، وجد سوق الدراسات اللغوية والنحوية نافقة ، والحركة العلمية بصفة عامة مزدهرة زاخرة ، سواء من حيث العدد الوافر من العلماء الذين كانوا يتوزعون على مساحة المشرق الإسلامي ، أو من حيث ما تزخر به المكتبات الإسلامية من أمهات الكتب في هذه الفنون ..<sup>1</sup>

ولقد كان الزمخشري بتفسيره الكشاف خاتمة مرحلة زاهرة من مراحل التفسير والنحو بمنهجه اللغوي الفريد وخصائصه الذاتية ، واستيعابه لفكر أئمة النحو ومؤلفي كتب المعاني والدراسات البلاغية ، وتعبيره عن ذلك في إطار من الملائمة بين الإعراب والنظم القرآني ، وبيان خصائص التعبير القرآني المعجز ، وابتداع منهج متميز من مناهج المفسرين ، يتمثله

<sup>1</sup> . د . رابع دوب ، الدرس البلاغي عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري : 195

أقوالهم وتلويها بفكره واتجاهاته الشخصية ، حتى يجعلك تؤمن أن ما ينقله هو من اجتهاداته لإحكامه النقل وقوة شخصيته وكثرة اختياراته ، مما يعطي أنه لا ينقل إلا ما هو مقتنع به ، وفي حاجة إليه دون الدخول في سرد الأقوال ومناقشتها — كما فعل أبو حيان الأندلسي — والترجيح بينها ، وإنما يذكرها مختصرة ، متجاوزا لها إلى ما يختاره ، مكتفيا باللمحة والإشارة إلى سبب اختيار رأي معين<sup>1</sup> .

ويمكن رصد ملامح منهج الزمخشري في تعامله مع مصادره النحوية في العناصر الآتية :  
1 — يبدو الزمخشري من خلال النماذج والأمثلة التي بين أيدينا أنه بان على أسس السابقين ومنطلق منها ، منتفع بكتب معاني القرآن كغيره من المفسرين ، ومضيف إليها بشخصيته الفذة ، وما أتيج له من معارف نضجت واكتمل نموها في عصره وهذا — في رأبي — معنى قول من قال : ( إنه أخذ من الرماني والزجاج أو سلك سبيلهما )<sup>2</sup> وإنما خص هذا القول لصلته الاعتزالية بالرماني النحوي ، ولأن الزجاج هو الذي نضج على يديه التأليف في المعاني ، ولأن الزمخشري هو الذي أوصل المنهج اللغوي إلى ذروته .

إلا أن هذا المنهج قد سبب له انتقادات ممن لم يستسيغوا منه هذا المسلك ، فوصفه بعضهم بالأنفة والكبر لعدم تصريحه بمصادره في كثير من المواضع<sup>3</sup> ، كما وصف أبو حيان هذا العمل أحيانا بالسرقة ، وبالتلفيق أحيانا أخرى .

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " هَذَا فَلْيُقَوِّمُوهُ جَمِيمٌ وَعَسَاقُ وَأَخْرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ " سورة ص : 56 — 57

حيث ذكر أبو حيان إعراب الآية الثانية ثم قال<sup>4</sup> :

<sup>1</sup> . د. إبراهيم عبد الله رفيدة ، النحو وكتب النحويين ، الحفاة العلمية للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ليبيا ، ج 1/681 بصرف .  
<sup>2</sup> . انظر فصل : مسلكهما في المباحث القديمة من هذا الباب ، وما جاء في حاشية الشهاب الحفافي على البيضاوي في سبيل حديثه من النحويين ، حيث قال : ( وبعد هؤلاء — الطبري ونفسه أجل تقسيم للمتقدمين — ثم استطاع التأليف حتى انتهى للزجاج والرماني ، ومنهما أخذ الزمخشري . ) الشهاب الحفافي ، نهاية القاصي وكتابة الراضي ، أو حاشية الشهاب على البيضاوي ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 1 ، 1997م ، ج 1/16

<sup>3</sup> . د. عدنان زرزور ، الحاكم الحشمي ومنهجه في النحويين : 477 وما بعدها .

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 406/7

( وقال الزمخشري<sup>1</sup> : وآخر ، أي عذاب آخر أو مذوق آخر ، وأزواج صفة لآخر ، لأنه يجوز أن يكون ضروبا ، أو صفة للثلاثة ، وهي حميم وغساق وآخر من شكله . انتهى ، وهو إعراب أخذه من الفراء<sup>2</sup> . )

وفي تفسير قوله تعالى : " والفجر وليالٍ عشر " سورة الفجر : 1 - 2

قال أبو حيان : ( وقال الزمخشري وأراد بالليالي العشر عشر ذي الحجة ، فإن قلت : فما بالها منكرة من بين ما أقسم به ؟ قلت لأنها ليالٍ مخصوصة من بين جنس الليالي العشر بعض منها ، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها ، فإن قلت فهل عرفت بلام العهد لأنها ليالٍ معلومة معهودة ؟ قلت لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ، ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ليكون الكلام أبعد من الألفاظ والتعمية ، انتهى ، أما السؤالان فظاهران ، وأما الجواب عنهما فلفظ ملفق ، لا يعقل منه معنى فيقبل أو يرد<sup>3</sup> )  
فقول أبي حيان " وأما الجواب عنهما فلفظ ملفق " معناه أن الزمخشري قد نسج رأيه هذا من آراء متعددة ، دون أن ينسب كل رأي لصاحبه .

وربما كانت مثل هذه الأحكام قاسية في حق الزمخشري في هذا الجانب ، وإلا كيف يكون سارقا في مثل هذه المواضع ، وقد شهد له أهل التراجم — ممن كانوا أقرب إلى عصره زمنيا — بالإمامة والتفوق ، فقال فيه ابن خلكان : ( الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، كان إمام عصره غير مدافع .. )<sup>4</sup>  
كما قال فيه القفطي : ( وهو ممن يضرب به المثل في علم النحو واللغة )<sup>5</sup>

فالزمخشري لم يكن مجرد ناقل أو ملخص لكتاب سابق مثلما درج عليه بعض المفسرين من جمع ، أو تلخيص ، أو تهذيب لكتب السابقين ، بل كان مطلقا على آراء وأقوال السابقين ومستوعبا لها ، ولا يتخير منها إلا ما كان متجها إلى المعنى الذي يراه في الآية ، ومتفقا مع الأسس الفكرية والمنهجية التي أراد أن يبني عليها تفسيره ، ولم يلزم نفسه الرد على ما شاع في كتب التفسير من آراء كان يراها بعيدة عن الصواب ، أو بعيدة عن المعنى

<sup>1</sup> . الكتاب : 101/4

<sup>2</sup> . الفراء ، معان القرآن ، تحقيق علي عمر الحار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة : 411/2

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 468/8

<sup>4</sup> . وفيات الأعيان : 168/5

<sup>5</sup> . القفطي ، إنباء الرواة على أنباء النحاة : 265/3



الذي يلوح من الآية ، وهذا خلافاً لأبي حيان الذي كان يتبع الآراء النحوية عند من سبقه من المفسرين ، ويفيض في تحليلها وتوجيهها أو نقلها ، ولكن مع ربط كل ذلك بما يخدم المعنى الذي يدل عليه النص القرآني .

2 — وكان الزمخشري بصري المذهب في النحو ، حيث نشأ على دراسة النحو البصري ، فتعلق به وخدمه ، وألف كتاباً في شرح أبيات سيبويه ، وهو أمر ليس بالمهين ، فكان الزمخشري يفتخر به ، بل ويتوسل به عند الوزراء والسلاطين لنيل مكانة تليق بحاله مثلما فعل مع نظام الملك<sup>1</sup> ، وقد تجلت بصريته بوضوح في تفسيره ، سواء من حيث المصطلحات التي يرددها ، أو الأحكام النحوية التي ينتصر لها ، أو من حيث تصريحه بأسماء أئمة النحو البصريين الذين كان ينقل عنهم — وإن كان هذا التصريح قليلاً جداً — وفي مقدمتهم سيبويه ، والزجاج ، وابن جني وغيرهم ، ويتضح هذا من خلال النماذج الآتية :  
في تفسير قوله تعالى : " وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون " سورة الأعراف : 3

أعربت فيه الجملة الثانية الإسمية حالاً ، ولم تذكر معها واو الحال ، فقال الفراء الواو محذوفة ، ورده الزجاج مكثفياً بوجود الضمير ، أما الزمخشري فقال : إن " أو " العاطفة على حال تغني عن ذكر واو الحال استقلالاً لاجتماع حرفي عطف . قال " ( فإن قلت : لا يقال : جاءني زيد هو فارس بغير واو ، فما بال قوله " هم قائلون " ؟ قلت قدر بعض النحويين الواو محذوفة ، ورده الزجاج وقال : : لو قلت : جاءني راجلاً أو هو فارس ، أو جاءني زيد هو فارس ، لم يجتمع فيه إلى واو ، لأن الذكر قد عاد إلى الأول ، ثم قال الزمخشري : والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حلت الواو استقلالاً لاجتماع حرفي عطف ، لأن واو الحال هي واو العطف استعبرت للوصل ، فقولك : جاءني زيد راجلاً أو هو فارس كلام فصيح وارد على حده ، وأما جاءني زيد هو فارس فصحيث .<sup>2</sup>  
فالزمخشري هنا ليس بمجرد ناقل ، بل يلهب إلى جعل نفسه حكماً بين الفراء والزجاج ، ليخرج برأيه عن اجتهاده وقناعته .

<sup>1</sup> . انظر الفصل الثاني من الباب الأول في سبوت رحلات الزمخشري .

<sup>2</sup> . الكشاف : 87/2 .

ومثل ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا

.. " سورة سبأ : 28

حيث حكى عن الزجاج أنه أعربها حالا ، قال : " إلا كافة للناس " إلا إرساله عامة لهم محيطه ، لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم ، وقال الزجاج : المعنى أرسلناك جامعا للناس في الإنذار والإبلاغ ، وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء " الراوية " و " العلامة " ومن جعله حالا من المجرور متقدما عليه فقد أخطأ ، لأن تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمحذوف تقدم المجرور على الجار ، وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ ، ثم لا يقنع به حتى يضم أن يجعل اللام بمعنى " إلى " ، لأنه لا يستوي له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني ، فلا بد له من ارتكاب الخطأين .<sup>1</sup>

وقد أفاد الزمخشري من كتاب سيبويه ، ونقل عنه تارة نقلا حرفيا ، وتارة ملخصا رأيه ، ولكنه قليلا ما يذكر اسمه كعادته في إغفال ذكر مصادره الأخرى ، وكثيرا ما يجعل من كلام سيبويه في " الكتاب " حجة بنفسه في رفع الخلاف ، ولا يتعداه إلى غيره ، إجلالا له ، وعرفانا بمكانته ، ومن الأمثلة على ذلك :

في تفسير قوله تعالى : " لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. " سورة النساء : 161

قال الزمخشري : ( وارتفع الراسخون على الابتداء و " يؤمنون " خبره ، و " المقيمين " نصب على المدح لبيان فضل الصلاة ، وهو باب واسع ، وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد<sup>2</sup> ، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لنا في خط المصحف ، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ، ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم من النصب على الاختصاص من الافتنان ، وغبي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أهدم في الفجرة على الإسلام ، ودب للطاعن عنه ، من أن يتركوا في كتاب الله نلما ليسلها من بعدهم ، وخرقا برفوه من يلحق بهم .<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . الكتاب : 582/3 .

<sup>2</sup> . سبويه ، الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، عالم الكتب ، بيروت ، ط 3 ، 1983 م ، باب ما ينصب على التعظيم والمدح ، ج 63/2 .

<sup>3</sup> . الكتاب : 590/1 .

وفي كلام الزمخشري في هذا الموضع ما يجعلنا نتوقف — أو على الأقل نتردد — في قبول بعض المطاعن التي وجهها إليه أبو حيان وغيره ، وذلك أن الزمخشري يبدو في الظاهر قد ناقض نفسه ، أو رجع عما ذهب إليه في مواضع أخرى من كشافه ، وبكفي الزمخشري ما ذكره في هذا الموضع ليلتقي مع أبي حيان وغيره في اللب عن كتاب الله ودفع ما يرد من شبهات على نقله وأدائه ورسمه .

وفي تفسير قوله تعالى : " صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ " سورة

البقرة : 137

قال الزمخشري : ( " صبغة الله " مصدر مؤكد منتصب على قوله " آمنا بالله " كما انتصب " وعد الله " عما تقدمه ... وقوله " ونحن له عابدون " عطف على " آمنا بالله " ، وهذا العطف يرد قول من زعم أن " صبغة الله " بدل من " ملة إبراهيم " ، أو نصب على الإغراء بمعنى عليكم صبغة الله ، لما فيه من فك النظم عن انتظامه واتساقه ، وانتصابها على مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيويه<sup>1</sup> ، والقول ما قالت حذام . )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين

" سورة الأعراف : 131

قال الزمخشري : ( " مهما " هي " ما " للمضمنة معنى الجزاء ، ضمت إليها " ما " المزيدة المؤكدة للجزاء في قولك : متى ما تخرج أخرج ، " أينما تكونوا يدرككم الموت " ، " فإما نذهبن بك " إلا أن الألف قلبت هاء استقلا لتكرير المتجانسين ، وهو الذهب السديد البصري ، ومن الناس من زعم أن " مه " هي الصوت الذي يصوت به الكاف ، و " ما " للجزاء ، كأنه قيل : كف ما تأتنا به من آية فما نحن لك بمؤمنين ، فإن قلت : ما محل " مهما " ؟ قلت الرفع ، بمعنى : أيما شيء تأتنا به ، أو النصب ، بمعنى : أيما شيء تحضرنا ( ) تأتنا به . و " من آية " تبيين لمهما ، والضميران في " به " و " هما " راجعان إلى " مهما " ..

ثم قال الزمخشري : ( وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا بد له في علم العربية ، فيضعها في غير موضعها ، ويحسب " مهما " بمعنى : متى ما ، ويقول : مهما

<sup>1</sup> . سيويه . الكتاب ، باب ما نصب من المصادر على إضمار الفعل نحو المستعمل الظاهر . 382/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 196/1

جئتني أعطيتك ، وهذا من وضعه ، وليس من واضع العربية في شيء ، ثم يذهب فيفسر " مهما تآتتا به من آية " بمعنى الوقت ، فيلحد في آيات الله وهو لا يشعر ، وهذا وأمثاله مما يوجب الجشو بين يدي الناظر في كتاب سيويه .<sup>1</sup>

فالزنجشري هذا يرى أن للناظر في كتاب سيويه مزية وفضلا لا توجد لغيره مهما حصل ووعى من مصادر النحو ، مما يدل على شدة تعلقه بهذا المصدر ، واعتماده بقوة في كتابه الكشاف .

3 — وكون الزنجشري بصري المذهب لم يمنعه من الأخذ بآراء الكوفيين في بعض المواضع من كشافه ، واعتماد بعض مصادرهم ، وذلك إذا تبين له رجحان مذهبهم في بعض المسائل النحوية ، وهذا في حقيقة الأمر مظهر من مظاهر التحرر من ربة التقليد والإتباع ، والانتقال إلى دائرة الإجتهد . وهو في هذا يختلف نسبيا عن أبي حيان السدي كان أشد إحلالا وتعصبا لسيويه منه ، وقد حملته عصبية هذه على ألا يقرئ أحدا إلا من " الكتاب " لسيويه ، أو كتبه التي ألفها بنفسه في النحو ، مما قلل من اجتهاداته النحوية ، وأغلب هذه الاجتهادات كانت داخل المذهب أي في النحو البصري ، ولا يذكر من آراء الكوفيين إلا في بحث القضايا الخلافية ، وتوجيه الآراء التي يسردها في كتابه منسوبة لمختلف المفسرين ، بل كان أبو حيان يذهب إلى تضعيف اختيارات الزنجشري مما ذهب إليه الكوفيون .

فمن ذلك مثلا جعله إسم الإشارة اسما موصولا في أكثر من آية — وهو مذهب كوفي — وكذلك الزجاج سبق أن تابع الكوفيين في هذه المسألة ، ولعل الزنجشري كان مقتديا بالزجاج هنا ، حيث نقل عنه أنه مثل لذلك بقوله تعالى " ما أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة .. " النساء : 108 فلذهب الزنجشري في نفس الموضوع إلى نفس الرأي فقال : ( ويجوز أن يكون " أولاء " اسما موصولا بمعنى الذين ، " وجادلتم " صلته . )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " .. ذلك نزلوا عليك من الآيات والذكر الحكيم " سورة آل

عمران : 57

<sup>1</sup> . الكتاب : 146/2

<sup>2</sup> . الكتاب : 563/1

قال أبو حيان : ( وأجاز الزمخشري أن يكون " ذلك " بمعنى " الذي " <sup>1</sup> و " نلوه " صلته  
و " من الآيات " خبر ، وقاله الزجاج قبله ، وهذه نزعة كوفية يميزون في أسماء الإشارة  
أن تكون موصولة ، ولا يجوز ذلك عند البصريين إلا في " ذا " وحدها إذا سبقها " ما "  
الإستفهامية باتفاق ، أو " من " الإستفهامية باختلاف . ) <sup>2</sup>

— ومثلما قال الزمخشري بأراء الكوفيين أحيانا ، فإنه خرج أحيانا عن المذهبين جميعا ،  
وقال بأقوال ليس لها تخريج ، لا في المذهب البصري ولا في المذهب الكوفي ، وربما انفرد  
برأي خالف فيه جمهور النحويين ، أو ما يشبه الإجماع عندهم .

ولذا نجد أبا حيان قد عارضه في ذلك ، وعاب عليه بعضا من تلك الاجتهادات  
وناقشه في كثير منها ، وقد كانت تلك الانتقادات متفاوتة بين اللين أحيانا ، والسخرية  
والقسوة أحيانا أخرى ، ومن الأمثلة على ذلك :

في تفسير قوله تعالى : " فَأَمَّا الَّذِينَ اشْتَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا  
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " سورة آل عمران : 106

قال أبو حيان : ( وأما تقديره : أهملتكم فلم تكن آباي تتلى عليكم " فهذه نزعة  
زمخشريية <sup>3</sup> ، وذلك أن الزمخشري يقدر بين همزة الإستفهام وبين الفاء فعلا يصح عطف ما  
بعدها عليه ، ولا يعتقد أن الفاء والواو وثم إذا دخلت عليها الهمزة أصلهن التلثم على  
الهمزة ، لكن اعتنى بالاستفهام فقدم على حروف العطف كما ذهب إليه سيوبه وغيره  
من النحويين ، وقد رجع الزمخشري أخيرا إلى مذهب الجماعة في ذلك ، وبطلان رأيه  
الأول مذكور في كتب النحو . ) <sup>4</sup>

فقول أبي حيان : " هذه نزعة زمخشريية " يعني انفراده بهذا الرأي في هذه المسألة ، كما  
لا يخفى ما فيها من تعريض به وسخرية ، يفهم منهما استبعاد صحة ما ذهب إليه  
وتضعيفه .

وفي تفسير قوله تعالى : " فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ .. " سورة آل عمران : 96

<sup>1</sup> . الكشاف : 367/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 476/2

<sup>3</sup> . الكشاف : 399/1

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 24/3

قال أبو حيان : ( ولم يذكر الزمخشري في إعراب " مقام إبراهيم " إلا أنه عطف بيان لقوله " آيات بينات " ورد عليه ذلك لأن آيات نكرة ، ومقام إبراهيم معرفة ، ولا يجوز التحالف في عطف البيان ، وقوله مخالف لإجماع الكوفيين والبصريين فلا يلتفت إليه ، وحكم عطف البيان عند الكوفيين حكم النعت فتتبع النكرة النكرة والمعرفة المعرفة ، وقد تبعهم في ذلك أبو علي الفارسي . وأما عند البصريين فلا يجوز إلا أن يكونا معرفتين ، ولا يجوز أن يكونا نكرتين .. والأصوب في إعراب " مقام إبراهيم " أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره " أحدها " أي أحد تلك البينات مقام إبراهيم ، أو مبتدأ محذوف الخبر تقديره : من الآيات البينات مقام إبراهيم ، ويكون ذكر المقام لعظمته ولشهرته عندهم ، ولكونه مشاهدا لهم .. )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منها ولا أذى لهم أحرهم عند ربهم .. " سورة البقرة : 261

قال أبو حيان الأندلسي : ( وقال الزمخشري<sup>2</sup> : ومعنى " ثم " إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى ، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق ، كما جعل الإستقامة على الإيمان خيرا من الدخول فيه بقوله " ثم استقاموا " انتهى كلامه . وقد تكرر للزمخشري ادعاء هذا المعنى لـ " ثم " ، ولا أعلم له في ذلك سلفا . )<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ " سورة

الزخرف : 46

نجد الزمخشري يقول : ( و " إذا " للمفاجأة ، فإن قلت : كيف جاز أن يجاب لما بـ " إذا " — المفاجأة — ؟ قلت : لأن فعل المفاجأة معها مقدر ، وهو عامل النصب في محلها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجوا وقت ضحكهم . )<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 9/2

<sup>2</sup> . الكشاف : 311/1

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 306/2

<sup>4</sup> . الكشاف : 255/4

وهنا نجد أبا حيان يعترض على هذا الرأي للزمخشري الذي خالف فيه النحويين ، ويرد عليه مذهبه فيقول : ( ولا نعلم نحويًا ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجل مسن أن " إذا " الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر ، تقديره : فاجأ ، بل المذاهب فيه ثلاثة :

— مذهب أنها حرف ، فلا تحتاج إلى عامل .

— ومذهب أنها ظرف مكان ، فإن صرح بعد الاسم بعدها كان ذلك الخبر عاملاً فيها نحو : خرجت فإذا زيد قائم ، فقائم ناصب لـ " إذا " .

— ومذهب أنها ظرف زمان ، والعامل فيه الخبر أيضاً .<sup>1</sup>

والحقيقة أن ردود أبي حيان على الزمخشري في كل ما سبق ذكره ليس بمجرد خروجه عن مذهب نحوي معين ، أو لأنها من اجتهاداته ، بل لما فيها من أخطاء ومخالفات لأحكام إعرابية مبسوطة في كتب النحو وصفها أبو حيان في أغلب الأحيان بالأخطاء الفاحشة ، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها :

في تفسير قوله تعالى : " .. إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ .. " .

سورة المائدة : 29

قال الزمخشري : ( .. يقال قرب صدقة ، وتقرب بها ، لأن تقرب مطاوع قرب .. )<sup>2</sup>

فرد عليه أبو حيان بقوله : ( وليس تقرب بصدقة مطاوع قرب صدقة لاتحاد فعل الفعلين ، والمطاوعة يختلف فيها الفاعل ، فيكون من أحدهما الفعل ، ومن الآخر انفعال ، نحو : كسرتة فانكسر ، وقلقتة فانقلقت ، وليس قربت صدقة ، وتقربت بها من هذا الباب ، فهو غلط فاحش . )<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : ( أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ الْقُرَابِ فَاوَارِي سَوَاعِدَ أُخْي .. )

سورة المائدة : 33

قال أبو حيان : ( وقرأ الجمهور : " فأواري " بنصب الياء عطفاً على قوله " أن أكون " كأنه قال : أعجزت أن أواري سوعة أخمي . وقال الزمخشري<sup>4</sup> : فأواري بالنصب على

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 20/8

<sup>2</sup> . الكشاف : 624/1

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 361/3 . وانظر : محي الشاوي ، الهاكمات من أبي حيان ابن عطية والزمخشري ، نسخة خطية ، كلية أصول

الدين ، الجزائر 1999 م ، ص : 476

<sup>4</sup> . الكشاف : 626/1

جواب الاستفهام . وهو خطأ فاحش لأن الفاء الواقعة جوابا للاستفهام تنعقد من الجملة الاستفهامية ، والجواب شرط وجزاء ، وهنا تقول أتزورني فأكرمك ، وقال تعالى : فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا " أي : إن يكن لنا شفعاء يشفعوا لنا ، ولو قلت هنا : إن أعجزه أن أكون مثل هذا الغراب أوار سوعة أخي لم يصح ، لأن المواراة لا تترتب على عجزه عن كونه مثل الغراب . )<sup>1</sup>

قال يحيى الشاوي : وهو ظاهر ، ولا حاجة إليه مع إمكان غيره وهو عطفه على " أكون " .

ومثله أيضا في تفسير قوله تعالى : ( وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ .. )

سورة النساء : 158

قال أبو حيان : ( وقال الزمخشري<sup>2</sup> : " ليؤمنن به " جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره : وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به ، ونحوها " وما منا إلا له مقام معلوم " ، " وإن منكم إلا واردها " والمعنى : وما من اليهود أحد إلا ليؤمنن به . إنتهى ، وهو غلط فاحش ، إذ زعم أن " ليؤمنن به " جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف إلى آخره ، وصفة " أحد " المحذوف إنما هو الجار والمجرور وهو " من أهل الكتاب " والتقدير كما ذكرناه : " وإن أحد من أهل الكتاب " وأما قوله " لِيُؤْمِنُوا بِهِ " فليست صفة لموصوف ، ولا هي جملة قسمية كما زعم ، وإنما هي جملة جواب القسم ، والقسم محذوف ، والقسم وجوابه في موضع رفع خبر المبتدأ الذي هو " أحد " المحذوف . )<sup>3</sup>

وليس في هذه الأمثلة السابقة شيء من التحامل من أبي حيان على الزمخشري بقدر ما فيها من التنبيه على مزالق وقع فيها ، بل نجد في المثال الواحد يناقشه ، ويبين ما فيه من الحق والصواب فيستحسنه ويقدمه ، ثم يميز ما فيه من الخطأ فيكشفه ويطرحه ، وكسان أغلب ما وقع فيه الزمخشري بسبب جريانه وراء الجانب المعنوي ، وإنبات الوجوه البلاغية على حساب الصناعة النحوية ، أو عند محاولته حمل النص الذي يصادم مذهبه على الوجه

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 467/3 . وانظر المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري : 477

<sup>2</sup> . الكشاف : 588/1

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 392/3



الذي يخدم ميوله ، ويتضح هذا مثلا من خلال ما جاء في تفسير قوله تعالى : " هأنتم هؤلاء يُحِبُّونَكُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ .. " سورة آل عمران : 119

حيث قال أبو حيان : ( وقال الزمخشري : والواو في " وتؤمنون " للحال ، وانتصاها من " لا يحبونكم " ، أي : لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابكم كله ، وهم مع ذلك يفضونكم ، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ، وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ، ونحوه " فإفهم بالمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون )<sup>1</sup>

وقد علق أبو حيان على هذا الكلام قال : ( انتهى كلامه وهو حسن ، إلا أن فيه من الصناعة النحوية ما يغلشه ، وهو أنه جعل الواو في " وتؤمنون " للحال ، وأنها منتصبة من " لا يحبونكم ، والمضارع المثبت إذا وقع حالا لا تدخل عليه واو الحال ، تقول جاء زيد يضحك ، ولا يجوز ويضحك . )<sup>2</sup>

بل نجد أبا حيان في مواضع أخرى يقف مدافعا عن الزمخشري ، ويدفع عنه ما يوجه إليه من انتقادات إذا كان ما ذهب إليه رأيا سليما .

من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فـإذا يخفت عليه فآلئجه في اليم . . . " حيث نقل أبو حيان رأي الزمخشري حرفيا في جعل الضمائر كلها عائدة إلى موسى — عليه السلام — ثم قال : ( ولقائل أن يقول : إن الضمير إن كان صالحا لأن يعود على الأقرب لا على الأبعد كان عوده على الأقرب راجحا ، وقد نص ، وقد نص النحويون على هذا ، فعوده على التابوت في قوله فآلئجه في اليم فليلقه اليم .. راجح . والجواب أنه إذا أحدهما هو المحدث عنه ، والآخر فضلة كان رده على المحدث عنه أرجح ، ولا يلتفت إلى القرب . ولهذا رددنا على أبي محمد بن حزم في دعواه أن الضمير في قوله " فإنه رجس " عائدة على " خنزير " لا على " لحم " لكونه أقرب مذكور ، فيحرم بذلك شحمه وغضروفه وعظمه وجلده بأن المحدث عنه هو لحم خنزير لا خنزير . )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 406/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 40/3

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 241/6

## المطلب الثاني : مصادر أبي حيان النحوية

ومكثدا فإننا إذا رجعنا إلى مسلك أبي حيان الأندلسي في تعامله مع ما اعتمده من مصادر نحوية في تفسيره ، فإننا نجد قائما على أسس واضحة ، اختارها لنفسه عن اقتناع بصحتها ، ورسوخ في هذا الفن ، فهو مطلع على المذاهب النحوية ، عارف بمواطن الاتفاق والاختلاف ، ملم بمواضع الإجماع عند أئمة النحو المعتد بقولهم . وكان المنهج الذي رسمه لنفسه وارتضاه والتزم به إلى حد بعيد يقوم على ما يأتي :

1 - كان أبو حيان الأندلسي بصريا في مذهبه النحوي ، ملتزما به ، وهو مذهب أثري ، قائم على النقل والسماع ، فوافق تلك الميول عنده ، لأنه - كما وصفه أهل التراجم - كان يميل إلى الأثر والسماع والنقل أكثر من الاجتهاد ، وليس هذا لقلبة بضاعته في هذا الفن ، بل كان حجة النحاة في زمانه ، وقد وصفه أحمد بن نصر الداودي في طبقات المفسرين بقوله : ( وكان عارفا بالغة والنحو والتصريف ، فهو الإمام المجتهد المطلق فيهما ، خدم هذا الفن أكثر عمره ، حتى صار لا يدركه أحد في أقطار الأرض فيها غيره .. )<sup>1</sup>

وكان أول ما تنحلى فيه بصرية أبي حيان الأندلسي هو ولعه بـ " الكتاب " لسيبويه وإشادته به والدفاع عنه ، بل جعل النظر في كتاب سيبويه شرطا سابقا فيمن أراد أن يتكلم في تفسير القرآن الكريم فقال : ( فالكتاب هو المرقاة إلى فهم الكتاب ، إذ هو المطلع على علم الإعراب ، والمبدي من معالنه ما درس ، والمنطق من لسانه ما حرس ، والمحبي من رفاته ما رسم ، والراد من نظائره ما طمس ، فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التفسير ، وترقت إلى التحقيق فيه التحرير أن يعتكف على كتاب سيبويه ، فهو في هذا الفن المعول عليه ، والمستند في حل المشكلات إليه .. )<sup>2</sup>

فقول أبي حيان " الكتاب مرقاة إلى فهم الكتاب .. " وما في هذا الجناس من الدلالة المعنوية ، يفصح عما كان يحظى به كتاب سيبويه من مكانة عند هذا الرجل .

<sup>1</sup> . الداودي ، طبقات المفسرين : 287/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 3/1

2- وكانت مصادره إلى جانب كتاب سيويه كتب التفسير التي اهتمت بالنواحي الإعرابية ، وعرض الآراء النحوية وتطبيقاتها في توضيح معاني النصوص القرآنية ، ومما يدل على عظمة أبي حيان ، ورسوخ قدمه في هذا الجانب ، عدم تأثره بمن سبقه من المفسرين ، وما قرروه من وجوه ضعيفة في الإعراب ، فهو ينقلها بأمانة منسوبة لأصحابها ، ثم يعرضها على ميزان النقد العلمي ، فما كان يدعمه الدليل والبرهان قدمه وأخذ به ، وما كان يفتقر للصحة رده بغض النظر عن قائله .

وخير مثال على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَائِكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا .. " سورة البقرة : 199

حيث نراه يسهب في عرض آراء من سبقه من المفسرين ، ويخصيها في خمسة وجوه ، ثم يحكم عليها بالضعف جميعا ، ويختار في معنى الآية إعرابا ومعنى لم يسبق إليه ، محاولا أن يدلل على صحته من سياق النص القرآني .. فيقول : ( فهي خمسة وجوه من الإعراب كلها ضعيفة ، والذي يتبادر إليه الذهن في الآية أنهم أمروا بأن يذكروا الله ذكرا يماثل ذكر آبائهم أو أشد ، وقد ساغ لنا حمل الآية على هذا المعنى بتوجيه واضح ذهلوا عنه ، وهو أن يكون أشد منصوبا على الحال ، وهو نعت لقوله " ذكرا " لو تأخر ، فلما تقدم انتصب على الحال . )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ " سورة الرعد : 26

نقل آراء المفسرين في إعراب الآية ، وما قدروا فيها من مخوفات من غير مسوغ ، ثم كر عليها فأبطلها ، مبينا ما ينبغي من وجوه الإعراب الفصيحة التي يحمل عليها كلام الله تعالى .

قال أبو حيان : ( وأجاز المهدي وابن عطية وأبو البقاء أن تكون " أن يوصل " في موضع نصب بدلا من " ما " أي : وصله ، والتقدير ويقطعون وصل ما أمر الله به . وأجاز المهدي وابن عطية أن تكون في موضع نصب مفعول من أجله ، وقدره المهدي : كراهية أن يوصل ، فيكون الحامل على القطع لما أمر الله كراهية أن يوصل ، وحكى أبو

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 104/2

البقاء وجه المفعول لأجله وقدره : لكلا ، وأجاز أبو البقاء أن يكون " أن يوصل " في موضع رفع أي هو أن يوصل .

ثم قال أبو حيان : ( وهذه الأعراب كلها ضعيفة ، ولولا شهرة قائلها لضربت عنها صفحا ، والأول الذي نختاره هو الذي ينبغي أن يحمل عليه كلام الله تعالى ، وسواه من الأعراب بعيد عن فصيح الكلام ، بله أفصح الكلام ، وهو كلام الله . )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. " سورة البقرة : 29

قال أبو حيان الأندلسي : ( واختلف العربون في " إذ " فذهب أبو عبيدة وابن قتيبة إلى زيادتها ، وهذا ليس بشيء ، وكان أبو عبيدة وابن قتيبة ضعيفين في علم النحو .

وذهب بعضهم إلى أنها بمعنى " قد " ، والتقدير : وقد قال ربك ، وهذا ليس بشيء .

وذهب بعضهم إلى أنه منصوب نصب المفعول به بـ " أذكر " ، أي واذكر إذ قال ربك ، وهذا ليس بشيء ،

لأن فيها إخراجها عن باهما ، وهو أنه لا يتصرف فيها بغير الظرفية ، أو بإضافة ظرف زمان إليها . وأجاز ذلك الزمخشري وابن عطية ، وناس قبلهما وبعدهما ،

وذهب بعضهم إلى أنها ظرف واختلفوا ، فقال بعضهم : هي في موضع رفع التقدير :

ابتداء خلقكم ، وقال بعضهم في موضع نصب التقدير : ابتداء خلقكم إذ قال ربك ،

وناسب هذا التقدير لما تقدم قوله " خلق لكم ما في الأرض جميعا ، وكلا هذين القولين لا

تحرير فيه لأن ابتداء " خلقنا " لم يكن وقت قول الله للملائكة " إني جاعل في الأرض

خليفة " ، لأن الفعل العامل في الظرف لا بد أن يقع فيه ، أما أن يسبقه أو يتخلف عنه

فلا ، لأنه لا يكون له ظرفا .

وذهب بعضهم إلى أن " إذ " منصوب بقال بعدها ، وليس بشيء ، لأن " إذ " مضافة

إلى الجملة بعدها ، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف .

وذهب بعضهم إلى أنها نصبها بـ " أحياكم " تقديره : وهو الذي أحياكم إذ قال

ربك ، وهذا ليس بشيء ، لأنه حذف بغير دليل ، وفيه أن الإحياء ليس واقعا في وقت

قول الله للملائكة ، وحذف الموصول وصلته وإبقاء معمول الصلة ، وذهب بعضهم إلى

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 128/5

أنه معمول لـ " خلقكم " من قوله تعالى " اعبدوا ربكم الذي خلقكم إذ قال ربك .. " فتكون الواو زائدة ، ويكون قد فصل بين العامل والمعمول هذه الجمل التي كادت أن تكون سورا من القرآن لاستبدال كل آية منها بما سقت له ، وعدم تعلقها بما قبلها التعلقة الإعرابي .

ثم قال أبو حيان بعد سرد هذه الوجوه من التقديرات الإعرابية : ( فهذه ثمانية أسئلة ينبغي أن يتره كتاب الله عنها ، والذي تقتضيه العربية نصبه بقوله " قالوا أتجعل .. " أي وقت قول الله للملائكة " إني جاعل في الأرض خليفة .. قالوا أتجعل " كما تقول في الكلام : إذ حنتي أكرمتك ، أي وقت مجيئك أكرمتك ، وإذ قلت لي كذا قلت لك كذا ، فانظر إلى حسن هذا الوجه السهل الواضح ، وكيف لم يوفق أكثر الناس إلى القول به ، وارتبكوا في دهيا ، وخبطوا خبط عشواء . )<sup>1</sup>

وعاد إلى تقرير موقفه هذا في تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ بِأَيُّهُمْ أَبْنَاءُكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. " سورة البقرة : 48 فقال : ( تقدم الكلام على " إذ " في قوله تعالى " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ .. " ومن أحاز نصب " إذ " هناك مفعولا به بإضمار " أذكر " أو ادعى زيادتها فقياس قوله هناك إحازته هنا .. ثم قال : وقد قدمنا أنا لا نختار أن يكون مفعولا به بـ " أذكر " لا ظاهرة ولا مقدره ، لأن ذلك تصرف فيها ، وهي عندنا من الظروف التي لا يتصرف فيها ، إلا بإضافة ظرف زمان إليها ، وإذا كان كذلك فالذي نختاره أن ينتصب على الظرف ، ويكون العامل فيه فعلا محذوفا يدل عليه ما قبله تقديره : وأنعمنا عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون " وتقدير هذا الفعل أولى من كل ما قدمنا ، وخرج بقوله " أنجيناكم " إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه ، من الضمير الذي لا يدل على التعظيم في قوله " نعمتي التي أنعمت " لأن هذا الفعل الذي هو الإنباء من عدوهم هو من أعظم النعم ، فناسب الأعمظم نسبته للمعظم نفسه . )<sup>2</sup>

3- وكان أبو حيان الأندلسي عارفا بأخبار النحاة والمكانة العلمية لكل منهم ، وهو يرى عدم الاغترار بأي قول منسوب لإمام من أئمة النحو ما لم يكن إماما معتمدا في هذا

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 139/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 192/1

الشأن ، مع صحة نسبة الأقوال لأصحابها ، ولذا نجد تارة يعترض على رأي نحوي لكون صاحبه لا يرقى إلى مستوى الاحتجاج برأيه ، ويحكم بضعفه ، وتارة أخرى يستبعد نسبة بعض الآراء إذا كانت ظاهرة الضعف للمشاهير من النحاة ، مما يدل على الروح العلمية الفائقة التي كان يتعامل بها مع تلك المصادر ، فهو يفحص الأقوال ويقبلها على مختلف وجوهها قبل أن يقبل أو يرد واحدا منها ، كما صرح بأن المرجع والمعول عليه هو ما ذهب إليه أئمة اللغة المتقدمين ، فيجب تقديمه على أقوال المتأخرين ، والأمثلة على ذلك مستفيضة نذكر منها :

ففي تفسير قوله تعالى : " فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. " سورة البقرة : 23

نقل أبو حيان قول الزمخشري الذي ينص على أن " لن " تفيد التأييد ، وقول من خالفه في ذلك — ابن خطيب زملكي<sup>1</sup> — من أن " لن " تنفي ما قرب ، ثم قال أبو حيان : ( وهذه الأقوال — أعني التأكيد والتأييد — ونفي ما قرب أقاويل المتأخرين ، وإنما المرجوع في معاني هذه الحروف وتصرفاتها أئمة العربية المقانع الذين يرجع إلى أقاويلهم )<sup>2</sup> ثم يجيل بعد ذلك على كلام طويل لسيبويه في الكتاب فيجعل حكمه في هذا الخلاف<sup>3</sup> . وبعد أن ينقل كلام سيبويه ويشرح المراد منه يرى في ضوئه أن كلام الزمخشري في هذا الموضع هو الأقرب للصواب .

قال أبو حيان : ( فإذا تقرر هذا الذي ذكرناه كان الأقرب من هذه الأقوال قول الزمخشري أولا من أن فيها توكيدا وتشديدا ، لأنها تنفي ما هو مستقبل لأداة بخلاف " لا " فإنما تنفي المراد به الاستقبال ، مما لا أداة فيه تخلصه له ، ولأن " لا " قد ينفي ما الحال قليلا ، و " لن " أعصم بالاستقبال ، وأعصم بالمضارع . )<sup>4</sup> وفي تفسير قوله تعالى : " وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْوَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ " سورة مريم : 88

<sup>1</sup> . هو عبد الواحد بن عبد الكريم بن حلف بن كمال الدين ، أبو المكارم ، بن خطيب زملكا ، قال السبكي : كان ماضيا محبوا

بالمعاني والبيان والأدب ، موزا في عدة فنون ، مات بدمشق سنة : 651هـ . انظر بهمة الرواة : 119/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 107/1

<sup>3</sup> . انظر سيبويه ، الكتاب : 135/1

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 107/1

قال أبو حيان : ( وحكى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء أن يكون المعنى : وقضى أن الله ربي وربكم " فهي معطوفة على قوله " أمرا " من قوله " إذا قضا أمرا " والمعنى : إذا قضى أمرا وقضى أن الله .. انتهى . وهذا تخييط في الإعراب ، لأنه إذا كان معطوفا على " أمرا " كان في حيز الشرط ، وكونه تعالى ربنا لا يتقيد بالشرط ، وهذا يبعد أن يكون قاله أبو عمرو بن العلاء ، فإنه من الجلالة في علم النحو بالمكان الذي قل أن يوازنه أحد ، مع كونه عربيا ، ولعل ذلك من فهم أبي عبيدة ، فإنه يضعف في النحو )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " والشمس وضحاها " سورة الشمس : 1

قال أبو حيان : ( وما نقل عن المبرد<sup>2</sup> من أن " الضحى " مشتق من الضح ، وهو نور الشمس ، والألف مقلوبة من الحاء الثانية ، وكذلك الواو في " ضحوة " مقلوبة عن الحاء الثانية ، لعله مختلق عليه ، لأن المبرد أجل من يذهب إلى هذا ، وهذان مادتان مختلفتان لا تنشق إحداهما من الأخرى . )<sup>3</sup>

وفي هذا الباب أيضا نجد أبا حيان ينتقد بعض من سبقه من المفسرين الذين أساءوا نقل أقوال أئمة النحو ، إما بالتحريف في الألفاظ وما يترتب عليها من تحريف في المعنى ، وإما بسوء فهمها ، وعدم التوفيق في توظيفها وإسقاطها على النصوص القرآنية .

ففي تفسير قوله تعالى : " يا مريم أئنني لربكِ واسئدي واركعي مع الرَّاكِعِينَ "

سورة آل عمران : 43

نجده ينتقد ابن عطية الذي استشكل معنى هذه الآية فقال : ( وقد ذكرنا مناسبة تسليم السجود على الركوع<sup>4</sup> ، وقد استشكل ابن عطية وقوع العطف في هذه الآية فقال : وهذه الآية أشد إشكالا من قولنا قام زيد وعمرو ، ولأن قيام زيد وعمرو ليس له رتبة معلومة ، وقد علم أن السجود بعد الركوع ، فكيف جاءت الواو بعكس ذلك في هذه الآية ؟ قال أبو حيان : ( وهذا كلام من لم يحسن النظر في كتاب سيبويه ، فإن سيبويه

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 190/6

<sup>2</sup> . هو محمد بن يزيد بن عبد الأكرم الأزدي البصري ، أبو العباس ، المود ، إمام العربية ببغداد في زمانه أخذ عن المازني ، وأبي حاتم السجستاني ، كان فصيحاً بليغاً ، ثقة أخبارياً . له من التصانيف : معاني القرآن ، والكنز في اللغة والاشتقاق وغيرها ، توفي سنة :

285 ببغداد . انظر بنية الرعاة : 269/1

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 478/8

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 456/2

ذكر أن الواو يكون معها في العطف المعية ، وتقدم السابق وتقدم اللاحق يحتمل ذلك احتمالات سواء ، فلا يترجح أحد الاحتمالات على الآخر ، ولا التفات لقول بعض أصحابنا المتأخرين في ترجيح المعية على تقدم السابق وعلى تقدم اللاحق ، ولا في ترجيح تقدم السابق على تقدم اللاحق .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ .. " سورة البقرة : 70

قال أبو حيان : ( وقد جعل الزمخشري الأولى للنفي ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى ، لأن المعنى : لا ذلول تثير الأرض ، وتسقي ، على أن الفعلين صفتان للذلول ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة ساقية . انتهى كلامه ، ووافقته على جعل " لا " الثانية مزيدة صاحب المنتخب . وما ذهب إليه ليس بشيء ، لأن قوله : لا ذلول صفة منفية بلا ، وإذا كان الوصف قد نفي بلا ، لزم تكرار " لا " النافية لما دخلت عليه ، تقول : مررت برجل لا كرم ولا شجاع ، وقال تعالى : " .. ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب " ، وظل من محمود لا بارد ولا كرم " ، " لا فارض ولا بكر " . ولا يجوز أن تأتي بغير تكرار ، لأن المستفاد منها النفي ، إلا إن ورد في ضرورة الشعر .<sup>2</sup>

٤ - تقصي آراء النحويين ونقلها مع تمييز ما كان منقولاً حرفياً - إن وجدت - أو بالمعنى ، والتنبيه على ذلك ، وهذا مراعاة منه للأمانة العلمية التي تحلى بها في الأغلب الأعم من نقوله واقتباساته ، ومناقشتها ، ثم بيان الراجع من المرجوح منها ، وربط ذلك بما يتفق ولغة القرآن الكريم في تراكيبها وأساليب بيانها ومعانيها .

ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ .. " سورة النساء : 76

حيث نقل أقوال أئمة اللغة في حكم " لما " في هذه الآية فقال : ( و " لما " حرف وجوب لوجوب على ملهب سبويه ، وظرف زمان بمعنى " حين " على ملهب أبي علي ، وإذا كانت حرفاً - وهو الصحيح - فجوابه " إذا " الفجائية ، وإذا كانت ظرفاً فيحتاج إلى عامل فيها فيعسر ، لأنه لا يمكن أن يعمل ما بعد " إذا " الفجائية فيما قبلها ،

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 457/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 255/1



ولا يمكن أن يعمل في " لما " الفعل الذي يليها ، لأن " لما " هي مضافة إلى الجملة بعدها ..

ثم قال أبو حيان : ( والذي نختاره مذهب سيبويه في " لما " وأنها حرف ، ونختار أن " إذا " الفجائية ظرف مكان يصح أن يجعل خبرا للاسم المرفوع بعده على الابتداء ، ويصح أن يجعل معمولا للخبر .. ومن زعم أن " إذا " هنا ظرف زمان لما يستقبل فقوله فاسد ، لأنه إن كان العامل فيها ما قبلها استحال ، لأن " كتب " ماض ، و " إذا " للمستقبل .. )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : ( .. وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ " البقرة : 39 )  
تحدث أبو حيان عن حكم اقتران الفعل بالفاء في هذا الموضع ، ثم أحال على كلام سيبويه فقال : ( وقد ذكر سيبويه في كتابه ما نصه<sup>2</sup> : تقول : كل رجل يأتيك فاضرب ، لأن " يأتيك " صفة ههنا ، كأنك قلت : كل رجل صالح فاضرب . انتهى )<sup>3</sup>  
5 - تقديره لإجماع النحاة ، واعتباره حجة في ترجيح الأقوال ، ومصدرا قويا يرجع إليه ، ولا التفات إلى أي رأي خالف هذا الإجماع ..

وخير مثال على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " فَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَوْدَعْتُمْ وُجُوهَهُمْ أَكْفَرْتُمْ بعد إيمانكم .. " سورة آل عمران : 106  
حيث قال أبو حيان : ( وقال الشيخ كمال الدين عبد الواحد بن عبد الله بن خلف الأنصاري في كتابه الموسوم " نهاية التأميل في أسرار التبريل " قد اعترض على النحلة في قولهم لما حذف ، يقال حذف الفاء بقوله تعالى " وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم " تقديره : فيقال لهم أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ، فيقال ولم تعطف الفاء ، فلما بطل هذا تعين أن يكون الجواب فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، فوقع ذلك جوابا له ولقوله " أكفرتهم " ومن نظم العرب إذا ذكروا حرفا يقتضي الجواب له أن لا يكتفوا عن جوابه حتى يذكروا حرفا آخر يقتضي جوابا ، ثم يجعلون له جوابا واحدا كما في قوله

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 297/3

<sup>2</sup> . الكتاب : 63/3

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 176/1

تعالى " فأما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " البقرة :  
فقوله " فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " جواب للشرطين .

ثم قال أبو حيان : ( انتهى ما نقل عن هذا الرجل ، وهو كلام أديب لا كلام نحوي ،  
أما قوله : قد اعترض على النحاة ، فيكفي في بطلان هذا الاعتراض أنه اعترض على جميع  
النحاة ، لأنه ما من نحوي إلا خرج الآية على إضمار " فيقال لهم : أكفرتم " ، وقالوا :  
هذا هو فحوى الخطاب ، وهو أن يكون في الكلام شيء مقدر لا يستغني المعنى عنه ،  
فالقول بخلافه مخالف للإجماع ، فلا يلتفت إليه . )<sup>1</sup>

٥- أن الأصل في اللغة النقل والسماع ، فمن كان له سند في ذلك قبل منه ، ومن ادعى  
شيئا من غير دليل أو سماع متصل رد عليه قوله ، وهو منهج البصريين ، فالتزم أبو حيان  
هذا المنهج ، وحكمه عند الخلاف ، وجعل ذلك سببا كافيا للاعتراض على الزمخشري  
وغيره الذين مهما كانوا يصدرتون في توجيهاتهم الإعرابية عن المذهب البصري ، إلا أنهم  
لم يلتزموا بتحكيم هذا المنهج كما فعل أبو حيان ، وهذا ما يستوقفنا في كثير من المواطن  
في تفسيره . ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " ولا يتمنونه أبدا بما قدمت  
أيديهم والله عليم بالظالمين " سورة الجمعة : ٦

حيث نقل عن الزمخشري قوله : (ولا فرق بين " لا " و " لن " في أن كل واحد منهما  
نفي للمستقبل ، إلا أن في " لن " تأكيدا وتشديدا ليس في " لا " فأتى مرة بلفظ التأكيد  
— ولن يتمنوه — ومرة بغير لفظه — ولا يتمنونه . )<sup>2</sup>

ثم قال أبو حيان : ( وهذا منه رجوع عن مذهبه في أن " لن " تقتضي النفي على  
التأييد إلى مذهب الجماعة في أنها لا تقتضيه ، وأما قوله : إلا أن في " لن " تأكيدا  
وتشديدا ليس في " لا " فيحتاج ذلك إلى نقل عن مستقرئ اللسان . )<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " .. غفرانك ربنا وإليك المصير " سورة البقرة : 284

<sup>1</sup> البحر المحيط : 23/3

<sup>2</sup> الكشاف : 531/4

<sup>3</sup> البحر المحيط : 267/8

ذكر خلافا في بناء المصدر الميمي مما عينه ياء ، فذهب بعضهم إلى أنه كالصحيح العسین  
المكسورها ، فهو بفتحها ، والزمان والمكان منه بالكسر ، وذهب بعضهم إلى التخيير بين  
الكسر والفتح فيه ، وقال فريق ثالث : يقتصر فيه على السماع .

وعندها قال أبو حيان : ( وذهب بعضهم إلى الاقتصار على السماع ، فحيث بنت  
العرب المصدر على " مفعل " اتبعناه ، وهذا المذهب أحوط . )<sup>1</sup>  
وفي تفسير قوله تعالى " وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر .. "   
سورة البقرة : 59

قال أبو حيان : ( والاستسقاء طلب الماء عند عدمه أو قلته ، وقيل مفعول استسقى  
محذوف أي استسقى موسى ربه ، فيكون المستسقى منه وهو المحذوف ، وقد تعدى إليه  
الفعل ، وقد تعدى إليه الفعل كما تعدى إليه في قوله " إذ استسقاء قومه " أي طلبوا منه  
السقيا ، وقال بعض الناس : وحذف المفعول تقديره استسقى ماء ، فعلى هذا القول  
يكون المحذوف هو المستسقى ويكون المفعول قد تعدى إليه كما تعدى إليه في قولهم :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثم قال أبو حيان : ( ويحتاج إثبات تعديه إلى إثبات شاهد من كلام العرب كان يسمع  
من كلامهم استسقى زيد ربه الماء ، وقد ثبت تعديه مرة إلى المستسقى منه ، ومسرة إلى  
المستسقى ، فيحتاج تعديه إليهما إلى ثبت من لسان العرب . )<sup>2</sup>

ومثله في تفسير قوله تعالى " يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ " سورة النساء : 28

قال أبو حيان : ( واعربوا هذه الجملة حالا من قوله " والله يريد أن يتوب عليكم ،  
والعامل في الحال " يريد " التقدير : والله يريد أن يتوب عليكم مریدا أن يخفف عنكم ،  
وهذا الإعراب ضعيف ، لأنه قد فصل بين العامل والحال بجملة معطوفة على الجملة التي  
في ضمنها العامل ، وهي جملة أجنبية من العامل والحال ، فلا ينبغي أن تجوز إلا بسماع  
من العرب . )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 366/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 266/1

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 227/3

٦ - حمل كلام الله تعالى على الإظهار أولى من حمله على الإضمار والافتقار ، وهو مسلك بارز في تفسير أبي حيان بخلاف الزمخشري الذي كان يميل إلى تقدير المحذوفات إلى درجة التكلف والإغراب .

وأحسب أن المشهور عند أئمة النحو هو ما ذهب إليه أبو حيان ، وليس ما غلب على كشف الزمخشري ، من ذلك مثلا ما جاء في شرح المفصل لابن يعيش ( وكلمة أكثر الإضمار كان أضعف )<sup>1</sup>

وجاء فيه أيضا ( .. والنصب أجود لأنه أقل إضمارا وتجاوزا .. )<sup>2</sup>  
كما جاء في شرح ابن عقيل : ( .. والمختار رفعه لأن عدم الإضمار أرجح من الإضمار .. )<sup>3</sup>

وفي البرهان للزركشي : ( والحذف بخلاف الأصل ، وعليه ينبغي فرعان :  
- أحدهما : إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أولى ، لأن الأصل عدم التغيير .

- والثاني : إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته كان الحمل على قلته أولى . )<sup>4</sup>  
ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " قالوا سمعنا وعصينا وأشهرتوا في قلوبهم العججل .. " سورة البقرة : 92

حيث وقف أبو حيان الأندلسي إلى جانب القائلين بحمل النص على ظاهره ، واستبعد التأويلات الأخرى التي تصرفه عن الظاهر لعدم وجود دليل يشفع لأصحابها . قال أبو حيان : ( وظاهره أن كلتا الجملتين مقولة ، ونطقوا بذلك مبالغة في التعنت والعصيان ، ويؤيده قول ابن عباس : كانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا ، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا . وقيل القول هنا مجاز ، ولم ينطقوا بشيء من الجملتين ، ولكن لما لم يقبلوا ما أمروا به جعلوا كالناطقين بذلك ، وقيل يعبر بالقول للشيء عما يفهم من حاله وإن لم يكن نطق ، وقيل المعنى : سمعنا بأذاننا وعصينا بقلوبنا ، وهذا راجع

<sup>1</sup> . ابن يعيش ، شرح المفصل : 97/2

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 28/2

<sup>3</sup> . شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : 1402

<sup>4</sup> . الزركشي ، البرهان : 104/3

لما قاله الزمخشري : سمعنا قولك وعصينا أمرك . والقول الأول أحسن ، لأننا لا نصير إلى التأويل مع إمكان حمل الشيء على ظاهره ، لا سيما إذا لم يقدّم دليل على خلافه .<sup>1</sup> ولا نستبعد أن يكون هذا التوجه عند أبي حيان يستمد جذوره من نزعة الظاهرية التي نشأ عليها ، حيث ذكر أهل التراجم أنه نشأ ظاهرياً ، وكان يقول : ( محال من عرف مذهب الظاهر أن يرجع عنه .. )<sup>2</sup>

ولما كان أبو حيان كثير الاعتداد بنفسه ، ولا يرضى مما ذهب إليه المفسرون من التوجيهات النحوية إلا ما كان مقتنعا به ، فإنه وقع فيما وقع فيه الزمخشري أحيانا عندما يخالف ما يشبه الإجماع عند المفسرين حول معاني بعض الآيات الكريمة ، وبذلك ناقض نفسه ، وحانب الصواب في مثل هذه المواضع — وإن كانت قليلة ، ونذكر منها :

في تفسير قوله تعالى : " وما آتيناهم من كتبٍ يذرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذيرٍ " سورة سبأ : 44

حيث نجد الزمخشري فسر الآية بما يتبادر إلى الأفهام ، وهو ما ذهب إليه المفسرون قبله فقال : ( وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية ، لا ملة لهم ، وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال " أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون " فليس لتكذيبهم وجه متشبه ، ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين : نحن أهل كتاب وشرائع ، ومستندون إلى رسل من رسل الله .. )<sup>3</sup>

وهو تفسير يتفق مع سياق الآيات المترابطة في هذا المقطع القرآني ، ومع ظاهر النص الذي يليق بمنهج أبي حيان .

إلا أن أبا حيان لم يرضه هذا التفسير ، ولم يكثرث باتفاق المفسرين حول هذا المعنى الظاهر من الآية ، فقال : ( والذي أذهب إليه غير ما ذهب إليه المفسرون ، وذلك أنهم فهموا من قوله " ما آتاهم " و " وما أنذر آباؤهم " أن " ما " نافية ، وعندني أن " ما " موصولة ، والمعنى : لتنذر قوما العقاب الذي آتاهم " من نذير " متعلق بـ " آتاهم " أي آتاهم على لسان نذير من قبلك ، وكذلك " لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم " أي العقاب

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 308/1

<sup>2</sup> . انظر ترجمة أبي حيان في الفصل الرابع من الباب الأول .

<sup>3</sup> . الكتاب : 589/3

الذي أنذره آباؤهم فـ " ما " مفعولة في الموضعين ، وأنذر يتعدى إلى مفعولين ، قال تعالى " فإن اعرضوا فقد أنذرتكم صاعقة " وهذا القول جار على ظواهر القرآن ، قال تعالى " وإن من أمة إلا نحلا فيها نذير " و " أن تقولوا ما جاءنا من بشير ونذير فقد جاءكم بشير ونذير " و " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " و " وما كان ربك ليهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا " <sup>1</sup>

والذي أراه أن أبا حيان في مثل هذا الموضع قد جانب الصواب ، وقد أخفق وأساء في توظيف نزعته الظاهرية ، وذلك من عدة وجوه :

أولا : أنه قد خالف ما يشبه الإجماع عند المفسرين في فهم هذه الآية ، حيث اعتبروا " ما " نافية ، أم أبو حيان فذهب إلى أنها موصولة ، من غير مسوغ أو دليل قوي يبنى عليها هذه المخالفة .

ثانيا أن الآيات التي استشهد بظواهرها هي عند التأمل والتدبر حجة عليه وليست له ، لأنه لا يوجد في تلك الآيات ما يمنع أن يكون المقصود بـ " النذير " أو " الرسول " محمداً - صلى الله عليه وسلم .

ثالثا : أن الله تعالى قد ذكر في هذه الآية قرينة ترجح المعنى الذي اختاره الزمخشري وغيره من المفسرين ، وهذه القرينة هي قوله " فهم غافلون " .

رابعا : أن الله تعالى قد قال في صريح كتابه : " هو الذي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " سورة الجمعة : 2

خامسا : سياق الآية وموقعها مما قبلها وما بعدها يأي أن يكون ما ذهب إليه أبو حيان هو المقصود والظاهر من العبارة ، حيث تكررت " ما " النافية في هذا الموضع خمس مرات ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا اعتبرناها نافية في تلك المواضع كلها .

وبذلك يتبين أن أبا حيان هو الآخر لم يسلم من هذه الزلات ، ولكن يشفع له قلنا ونذكرها ، وقدما قال الشاعر :

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كُلُّها كفى المرء نبلا أن تُعد معايه

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 179/7

وفي تفسير قوله تعالى : " ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ " البقرة : 2

قال أبو حيان : ( وقد ركبوا وجوها من الإعراب في قوله " ذلك الكتاب لا ريب فيه " ، والذي نختاره منها أن قوله " ذلك الكتاب " جملة مستقلة من مبتدأ وخبر ، لأنه مسبق ، أمكن حمل الكلام على غير إضمار ، ولا افتقار كان أولى من أن يسلك به الإضمار والافتقار ، وهكذا تكون عادتنا في إعراب القرآن ، لا نسلك فيه إلا الحمل على أحسن الوجوه ، وأبعدها من التكلف ، وأسوغها في لسان العرب ، ولسنا كمن جعل كلام الله تعالى كشعر امرئ القيس ، وشعر الأعشى ، يحمله جميع ما يحتمله اللفظ من وجوه الاحتمالات ، فكما أن كلام الله تعالى من أفصح كلام ، فكذلك ينبغي إعرابه أن يحمل على أفصح الوجوه . )<sup>1</sup>

وهو في هذا الكلام يعرض بحسبك الزمخشري<sup>2</sup> ، حيث ذهب في إعراب الآية مذاهب صعبة ، فتارة قدر مبتدأ محذوفا في بداية الجملة ، وتارة أخرى قدر صفة بعد الكتاب فتصبح : هو ذلك الكتاب الموعود ، وهي كما تبدو عبارة قلقة يزه عنها كلام الله تعالى .<sup>3</sup>

ويتبين مما سبق في الحديث عن مصادر المفسرين ما يأتي :

— كانا يصدران عن مذهب نحوي واحد ، وهو المذهب البصري ، إلا أن أبا حيان كان أكثر ممثلا لهذا المذهب ، من حيث تقيده بالسماع ، وتقديمه عن القياس إلا ما شذ في مواضع قليلة من تفسيره .

— وإذا كان عمدة المذهب البصري هو سيبويه ، فإن المفسرين قد اتخذوا من كتابه مصدرا أساسيا ، فتارة ينقلون عنه بالنص ، وتارة أخرى بالمعنى ، ولكن أبا حيان أكثر نقلا وضبطا فيما ينقل عن سيبويه .

— وقد نص أبو حيان على مصادر النحو على وجه التفصيل ، سواء في مقدمة تفسيره ، أو في المواضع التي ناقش فيها المسائل النحوية ، فيسند الأقوال لأصحابها ، مع التعريف لهم أحيانا بما يزيد الدارس ثقة بذلك الرأي ، أو بما يضعفه لضعف صاحبه ، بينما كان

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 36/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 33/1 .

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 354/2 . 448/7

الزمخشري ينقل الأقوال بمجردة من أسماء أصحابها إلا في مواضع قليلة ، مما يصعب على الباحث رد تلك الأقوال لمصادرها .

كما تجلت الروح النقدية عند صاحب البحر المحيط أكثر منها عند صاحب الكشاف ، ففي الوقت الذي نجد أبا حيان يعرض الأقوال من مصادرها ويناقشها ، ويتخير منها ما يراه أصح وأقوى ، نجد الزمخشري في الغالب الأعم يكتفي بذكر الرأي الذي اختساره ، وليس بالضرورة أن ينص على سبب اختياره لرأي معين من بين الآراء المختلفة ، أو أن ينسبه إلى أول من قال به.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



## المبحث الثاني

### الشواهد النحوية عند المفسرين

#### المطلب الأول : الشواهد النحوية عند الزمخشري

لقد بينا في أكثر من موضع من هذا البحث أن روح التحرر والاجتهاد كانت تغلب على منهج الزمخشري في إنتاجه العلمي ، وقد تجلّى هذا في كثير من كتبه كالمفصل في النحو ، وأساس البلاغة وغيرها ، وقد نقل هذا المنهج إلى تفسيره الكشاف ، فلم يتقيد فيه بما تقيد به من سبقه في ضوابط الشواهد النحوية واللغوية ، ولقد ضمن تفسيره حصيلة واسعة من الشواهد في هذا الجانب ، ولكن حسب منهج اختطه لنفسه واقتنع به .

وبالتتبع لما أورده الزمخشري من شواهد شعرية في كشافه ، يمكننا تصنيف هذه

الشواهد إلى ما يأتي :

- 1 — شواهد نحوية أوردها في معرض الإحتجاج لآرائه النحوية .
- 2 — شواهد لغوية لبيان المعاني اللغوية لألفاظ القرآن الكريم .
- 3 — الإستشهاد والاحتجاج للقراءات وبيان قياسها من كلام العرب .
- 4 — شواهد بلاغية لبيان جمال التعبير القرآني ، وصوره البيانية وأساليبه العالية .
- 5 — الإستشهاد للمعاني وتوضيحها وتحليلها في قالب أدبي .

ومن المعلوم أن النوعين الرابع والخامس لا يشترط فيهما ما يشترط في الثلاثة الأولى من وجوب أن يكون المستشهد به من كلام العرب الفصحاء من عصر الإحتجاج ، لأنهما لا يتعلقان بتشريع أصل لغوي ، وإنما يتعلق أحدهما بجمال التعبير على قياس كلام العرب في المفردات والتراكيب ، ويتعلق الثاني منهما بالمعاني ، وهي مشاعة بين العصور ، وليس المتقدم بأقدر عليها من المتأخر<sup>1</sup> .

<sup>1</sup> . انظر : النحو وكتب النحويين : 717/1 بتصرف .

وهذا ما التزم به الزمخشري في كشفه ، فقد دججه بالآثار والشواهد الشعرية لأمثال أبي نواس ، وأبي تمام ، وابن الرومي ، والمني ، والمعري ، وغيرهم ممن لا يجتج بشعرهم في الأغراض الثلاثة الأولى ، بل لقد استشهد ببعض أشعاره هو نفسه ، إلى جانب الشواهد الكثيرة من شعراء عصر الاحتجاج الذين يستشهد بكلامهم في كل الأغراض .

وهو في استشهاده الأدبية والبيانية أديب موفق ، وبلاغي ممتاز حتى قال فيه ابن المنير — وهو عنيف عليه في تعقيباته — معلقا على بعض تحليلاته : ( وهذا الفصل من كلامه يستحق من علماء البيان أن يكتبوه بنوب التبر لا بالخير . )<sup>1</sup>

ومن الأمثلة على شواهد البلاغية والأدبية ما جاء في تفسير قوله تعالى : " إن الله لا يُسْتَجَى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا لِمَنْعُضَةٍ فَمَا فَوْقَهَا .. " سورة البقرة : 25 قال الزمخشري : ( .. ويجوز أن تقع هذه العبارة " إن الله لا يستحي " في كلام الكفرة ، فقالوا : أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ، فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع ، وطرز عجيب ، منه قول أبي تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها أن بنيت الجار قبل المترل

ولله در أمر التريل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منها فنا إلا عشرت عليه فيه على أقوم مناهجه ، وأسد مدارجه ، وقد استعير الحياء فيما لا يصح فيه : إذا ما استحين الماء يعرض نفسه كرعن بسيت في إناء من الورد . )<sup>2</sup>

فالبيت الأول لأبي تمام ، والبيت الثاني لأبي الطيب المنيني ، ولكن الزمخشري قد صوح في بداية الكلام بأنه ساق هذين الشاهدين للتدليل على أحكام بيانية ، وليس لتقرير حكم نحوي أو لغوي .

وفي تفسير قوله تعالى : " وَالشُّعْرَاءُ يُتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ .

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ " سورة الشعراء : 223 — 225

حيث تكلم الزمخشري عن معنى قوله " في كل واد يهيمون " فقال : ( ذكر الوادي والهيوم فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول ، واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في

<sup>1</sup> . الانتصاف من الكشاف . على هامش الكشاف : 638/2 ، هامش : 2

<sup>2</sup> . الكشاف : 113/1

المنطق ، ومجاورة حد القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشجعهم على حاتم ، وأن يبهتوا البري ويفسقوا التقى ، وعن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فبين بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال : قد وجب عليك الحد ، فقال يا أمير المؤمنين ، قد درأ الله عنى الحد بقوله " وأنهم يقولون ما لا يفعلون . " <sup>1</sup>

ومنه أيضا ما جاء في تفسير وقلة تعالى : " إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك تجزي المجرمين " سورة الأعراف : 39

حيث تحدث الزمخشري عن حسن التشبيه في هذا الموضع ، ووجه الآية إلى ما يتفق مع هذا المعنى الحسن الذي تفيد هذه الصورة التشبيهية فقال : ( . . وقرأ ابن عباس الجمل بوزن القمل . . وقرئ الجمل بوزن القفل ، والجمل بوزن النصب ، والجمل بوزن الحبل ، ومنها القلس الغليظ ، لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة ، وعن ابن عباس : إن الله أحسن تشبيها من أن يشبه بالجمل ، يعني أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة . قال الزمخشري : إلا أن قراءة العامة أوقع ، لأن الإبرة مثل في ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خرت الإبرة ، وقالوا للدليل الماهر : خريت ، للاهتمام به في المضائق المشبهة بأخترت الإبر . والجمل مثل في عظم الجرم . قال :

جسم الجمال وأحلام العصافير

فقيل لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدا من ولوج هذا الحيوان — الذي لا يلج إلا في باب واسع — في ثقب الإبرة . <sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا . . " سورة

الأعراف : 125

قال الزمخشري : ( وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله ، أرادوا : وما تعيب إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان ، ومنه قوله :

<sup>1</sup> . الكشاف : 344/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 104/2

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم .<sup>1</sup>

فالزمخشري هنا يخرج معنى الآية من باب استباح المدح بما يشبه الذم ، وهو عند البلاغيين فن رفيع يفيد المبالغة في صورة المدح .

أما الشواهد التي أوردها في معرض الاحتجاج لغريب القرآن ، أو لقاعدة نحوية ، أو لتخريج قراءة من القراءات ، فإن أغلب شواهده كانت من عصر الاحتجاج ، بل أغلب تلك الشواهد مأخوذة من " الكتاب " لسيبويه ، وما خرج عن ذلك فهو تساهل منه ، وشذوذ عن القاعدة ، مما جعل أبا حيان يتبع تلك المواضع ، ويسهب في الرد عليها .

فمن الشواهد التي أوردها في تفسير غريب القرآن :

في تفسير قوله تعالى : " وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ " سورة الأعراف : 142

قال الزمخشري : ( الاستدراج : استفعال من الدرجة بمعنى الاستبعاد ، أو الاستئزال درجة بعد درجة . قال الأعشى :

فلو كنت في حب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرحنك القول حتى قرره وتعلم أبي عنكم غير مفعم

ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه ، وأدرج الكتاب : طواه شيئا بعد شيء ، ودرج القوم : مات بعضهم إثر بعض .<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا .. " سورة النور : 27

أهلها .. " سورة النور : 27

قال الزمخشري : ( الاستئناس فيه وجهان : أحدهما أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو

خلاف الاستبحاش .. والثاني أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف

، استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهرا مكشوفاً ، والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا

الحال : هل يراد دخولكم أم لا ، ومنه قولهم : استأنس هل ترى أحدا ، واستأنست فلم

ار أحدا ، أي تعرفت واستعلمت ، ومنه بيت النابغة :

بذي الجليل على مستأنس وحد .<sup>1</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 142/2

<sup>2</sup> . الكشاف : 182/2

ومن الاستشهاد للقراءات ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا  
وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا " سورة طه : 110  
قوله : ( وقرئ تُحدث وتحدث — بالنون والتاء — أي تحدث أنت ، وسكن بعضهم  
التاء للتخفيف كما في :

فاليوم أشرب غير مستحقب إنما من الله ولا واغسل .<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
ويعلم ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُونَ " سورة النمل : 25  
قال الزمخشري : ( من قرأ بالتشديد أراد : فصدتهم عن السبيل لئلا يسجدوا ، فحذف  
الجار مع " أن " ، ويجوز أن تكون " لا " مزيدة ، فيكون المعنى : فهم لا يسهتدون إلى أن  
يسجدوا . ومن قرأ بالتخفيف فهو : ألا يسجدوا ، " ألا " للتنبيه ، ويا حشر النساء  
ومناداه محذوف ، كما حذفه من قال :

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى .<sup>3</sup>

وهكذا كانت أغلب شواهد الزمخشري فيما يتعلق بالقضايا النحوية واللغوية لفحول  
شعراء العصر الجاهلي ، وفي مقدمتهم أصحاب العلاقات المشهورين ، كامرئ القيس ،  
والنابغة الذبياني ، وطرفة بن العبد ، والأعشى وغيرهم .  
وإذا كان الزمخشري قد سلم في هذه المواضع من انتقادات أبي حيان ، فإنه لم يسلم منه  
في تلك التي تساهل فيها واحتج بأشعار المتأخرين .

من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ  
عليهم قَامُوا .. " سورة البقرة : 19

قال أبو حيان : ( وظاهر كلام الزمخشري أن أظلم يكون متعديا بنفسه لفعول ،  
ولذلك جاز أن يبنى لما لم يسمى فاعله . قال الزمخشري<sup>4</sup> : أظلم على ما لم يسمى فاعله ،  
وجاء في شعر حبيب بن أوس الطائي :

<sup>1</sup> . الكشاف : 226/6

<sup>2</sup> . الكشاف : 90/6

<sup>3</sup> . الكشاف : 361/6

<sup>4</sup> . الكشاف : 86/1

هما أظلما حالي تمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمخرجة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه . انتهى كلامه ، قال أبو حيان : فظاهره كما قلنا أنه متعدد ، وبنائه لما لم يسمى فاعله ، ولذلك استأنس بقول أبي تمام " هما أظلما حالي .. " وله عندي تخريج آخر غير ما ذكر الزمخشري ، وهو أن يكون " أظلم " غير متعدد بنفسه لمفعول ، ولكنه يتعدى بحرف جر ، ألا ترى كيف عدى " أظلم " إلى المجرور بـ " على " ، فعلى هذا يكون الذي قام مقام الفاعل أو حذف هو الجار والمجرور ، فيكون في موضع رفع ، وكان الأصل : وإذا أظلم الليل عليهم ، ثم حذف فقام الجار والمجرور مقامه ، نحو : غضب زيد على عمرو ، وتبني الفعل للمفعول ، فتقول غضب على عمرو ، فليس يكون التقدير إذ ذاك : وإذا أظلم الله عليهم الليل ، فحذفت الجلالة ، وأقيم ضمير الليل مقام الفاعل . وأما ما وقع في كلام حبيب فلا يستشهد به ، وقد نقل عن أبي علي الفارسي الاستشهاد بقول حبيب :

من كان مرعى عزمه وهوومه روض الأمانى لم يزل مهزولا

وكيف يستشهد بكلام مولد ، وقد صنف الناس في ما وقع لم من اللحن في شعره .<sup>1</sup> ويبدو أن أبا حيان في مثل هذا المقام مصيب ، وأن مذهب الزمخشري ظاهر الضعف ، إذ الثقة في الراوي غير فصاحته وسلامة سليقته ، وإلا فالموثوق بهم من الرواة لا يحصون عددا ، ( والعلماء الذين قرروا الثقة في أبيات الحماسة ورواية أبي تمام فيها هم الذين اتفقوا على عدم صحة الاحتجاج بشعره في اللغة ، وقد جعلوا إبراهيم بن هرمة القرشي آخر من يحتج بشعره من الفصحاء غير المولدين أو المحدثين ، فهذا القول باعتبار الثقة مسوغا للاستشهاد بقول من يوثق به ينفرد به الزمخشري ومن تبعه .<sup>2</sup> قال الشهاب الخفاجي : ( واختلف في المحدثين فقبل لا يستشهد بشعرهم مطلقا ، وقيل يستشهد به في المعاني دون الألفاظ ، وقيل يستشهد بمن يوثق به منهم مطلقا ، واختاره الزمخشري ومن حدا حنوه ، قال : لأنى أجعل ما يقوله بمخرجة ما يرويه ، واعترض عليه

1 . البحر المحيط : 90/1

2 . النحو وركب التسم : 719/1

بأن قبول الرواية مبني على الضبط والثوق ، واعتبار القول مبني على معرفة الأوضاع اللغوية والإحاطة بقوانينها ، ومن البين أن إتقان الرواية لا يستلزم إتقان الدراية .<sup>1</sup> ومثلما اعترض أبو حيان على بعض شواهد الزمخشري المقتبسة من أشعار المولديسن ، فإنه كان يعيب عليه أحيانا قلة استشهاده للمسائل النحوية واللغوية واكتفائه بالبيت الشعري الواحد لإثبات حكم معين أو نفيه ، لأنه يرى أن القواعد اللغوية والنحوية تبني على ما شاع واشتهر ، وليس على ما شذ وندر ، والذي أراه أن أبا حيان محق في ذلك ، لأن البيت الواحد من الشعر قد يكون فيه مغمز أو قدح أو ضرورة شعر ، وذلك عكس ما يكون مدعما بالشواهد المتكاثرة . وفي ذلك يقول الجرجاني :

( ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل ترى فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه ، إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه وإعرابه ، ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالنقد ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة ، والأعلام والحجة ، لو جدت الكثير من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ..<sup>2</sup> ثم مثل لبعض أغاليطهم من قصائد لكبار شعراء ذلك العصر ، فذكر بيتا لامرئ القيس وهو قوله :

فاليوم أشرب غير مستحقب إنما من الله ولا غائل<sup>3</sup>

وقول الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال مسحنا أو مجلف<sup>4</sup>

علما بأن هذين البيتين قد وردا في شواهد الزمخشري ، وخرج على كل واحد منهما حكما من أحكام النحو ، ومحل الشاهد في البيتين عند الزمخشري هو محل القدح والعيب الذي يشير إليه الجرجاني . مما يجعلنا نأنس إلى ما ذهب إليه أبو حيان الأندلسي ، ونعتبره له فضيلة يتقدم بها على الزمخشري في هذا الجانب .

<sup>1</sup> . حاشية الشهاب على البصائر : 406/1

<sup>2</sup> . علي بن عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتني وعصومه ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، منشورات المكتبة المصرية ، بيروت ،

لبنان ، ص : 4

<sup>3</sup> ديوان امرئ القيس : 150

<sup>4</sup> . النفاذ : 228/2

ولكى يتجنب أبو حيان هذه المنقصة التي كان يعيها على الزمخشري ، نجده يفيض في إيراد الشواهد النحوية واللغوية في المسألة الواحدة بما يعزز الرأي الذي يذهب إليه ، وهذا ما سنفصله في المطلب الآتي .

## المطلب الثاني : الشواهد النحوية عند أبي حيان الأندلسي

كان أبو حيان الأندلسي يتميز بحاسة نقدية بالغة الدقة ، اكتسبها من طول مدارسته للغة والنحو ، وقد وقف عليهما أغلب حياته ، فكان ملما بالشواهد اللغوية النحوية ، عارفا بمواضع ورودها ومجال الاحتجاج بها ، ولم تقتصر انتقاداته على شواهد الزمخشري فقط ، بل اعترض على كثير من المفسرين ممن أخذهم مصدرا في تفسيره .  
ومثلما اعترض أبو حيان على عدد من الشواهد النحوية التي تنسب لشعراء خارج عصر الاحتجاج ، فإنه اعترض على عدد آخر من الشواهد النحوية التي أخطأ بعضهم في توظيفها في غير محلها ، مما يدل على إلمامه ، وكثرة حفظه وضبطه .  
ففي تفسير قوله تعالى : " .. وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين .. " سورة البقرة : 183

قال أبو حيان : ( وحوز بعضهم أن تكون " لا " محذوفة ، فيكون الفعل منفيا وقدره " وعلى الذين لا يطيقونه " ، قال حذف " لا " وهي مرادة . قال ابن أحمد :  
آيت أمدح مقرفا أبدا . يقى المديح ويذهب الردف  
وقال آخر :

فخالف فلا والله تمبط تلعة من الأرض إلا أنت للذل عارف  
وقال امرؤ القيس

فقلت بمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

قال أبو حيان : وتقدير " لا " خطأ لأنه مكان إلباس ، ألا ترى أن الذي يتبادر إليه الفهم هو أن الفعل مثبت ، ولا يجوز حذف " لا " وإرادتها إلا في القسم ، والأبيات التي استدلل بها هي من باب القسم ، وعللة ذلك المذكورة في كتب النحو .<sup>1</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 36/2



ومثلما كان أبو حيان يورد من الشواهد المستفيضة للاحتجاج للأحكام النحوية ،  
فكذلك كان يستشهد للمعاني الأدبية والصور البلاغية التي حوّاها القرآن ، وكانت  
مستحسنة عند العرب ، فكان يورد الأشعار الكثيرة في الموضوع الواحد بما يخرج ذلك  
الحكم الذي يقرره عن حد الغرابة والشذوذ ، لأنه يرى بأن كلام الله يجب أن يصرف إلى  
المعاني المشهورة والصور المألوفة عند من نزل عليهم القرآن ، وهو في هذا يسلك مسلك  
الإمام محمد بن جرير الطبري في تفسيره " جامع البيان " الذي كان يرى جواز الإحتكام  
إلى اللغة في تفسير القرآن ، ولكن كلام الله تعالى يجب أن يحمل على الأشهر في اللغة ،  
وليس على الغريب النادر منها <sup>1</sup> .

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " .. وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ  
الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. " سورة آل عمران : 119  
قال أبو حيان : ( وظاهره فعل ذلك ، وأنه يقع منهم عض الأنامل لشدة الغيظ مع  
عدم القدرة على إنفاذ ما يريدون ، ومنه قول أبي طالب :

وقد صالحوا قوما علينا أشحة يعضون عضا خلفنا بالأباهم

وقال الآخر

إذا رأوني أطال الله غيظهم عضوا من الغيظ أطراف الأباهم

وقال الآخر

وقد شهدت قيس فما كان نصرها قتيبة إلا عضها بالأباهم

وقال الحرث بن ظالم المري

وأقبل أقواما لسا ما أدلة يعضون من غيظ رؤوس الأباهم

ثم قال أبو حيان : ( ويوصف المفتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان والإمام ، وهذا العض  
هو بالأسنان ، وهي هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغاضبة ، كما أن ضرب اليد

<sup>1</sup> . انظر جامع البيان تفسير " حق إذا جاء أمرنا وفار الثور .. " سورة هود : 40 قال الطبري : ( وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب  
الأشهر من معانيه عند العرب إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها ، وذلك أنه حل شأه إنما عاظمهم بما عاظمهم به  
لأنهم مع عاظمهم به ) جامع البيان : 56/7 .

على اليد يتبع هيئة النفس المتلهفة على فائت قريب الفوت ، وكما أن قرع السن هيئة تتبع هيئة النفس النادمة إلى غير ذلك .. )<sup>1</sup>

كما أن إكثار الشواهد من كلام العرب لتحلية معاني غريب القراءان يسمح بتقليب اللفظ على مختلف وجوهه التي يحتملها ، وتخبر المعنى الذي يناسب سياق الآية ، وهذا ما درج عليه أبو حيان في تفسيره ، ويتضح هذا مثلا من خلال تفسيره لقوله تعالى : " قَدْ نَحَلْتِ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ " سورة آل عمران : 137

قال أبو حيان : ( السنة : الطريقة ، وقال المفضل : الأمة ، وأنشد :

ما عابن الناس من فضل كفضلكم ولا روي مثله في سالف السنن

وسنة الإنسان الشيء الذي يعمل به ويواليه ، كقول خالد الهذلي لأبي ذؤيب :

فلا تجزعن عن سنة أنت سرهما فأول راض سنة من يسرها

وقال سليمان بن قتيبة :

وإن الألى باللطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

وقال ليبيد :

من أمة سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها . )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ .. " سورة النساء : 80

ينقل أبو حيان أقوال أئمة اللغة مع نسبة كل قول لصاحبه ، ثم يتبعها بجملة من

الشواهد الشعرية لتقوية ما ذهب إليه هؤلاء اللغويون فيقول : ( " النبييت " قال الأصمعي

وأبو عبيدة وأبو العباس : كل أمر قضى بليل قيل قد بيت ، وقال الزجاج : كل أمر مكسو

فيه أو خيض بليل فقد بيت ، وقال الشاعر :

أتوني فلم أرض ما بيتوا وكانوا أتوني بأمر مكر

وقال الأخفش : العرب تقول للشيء إذا قدر بيت ، وقيل هيء وزور ، وقيل قصد ،

ومنه قول الشاعر :

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 41/3

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 56/3

لما تبيتنا أحسانهم أعطى عطاء اللحز اللئيم

أي قصدنا ، وقيل التبيت : التبديل بلغة طيء ، قال شاعرهم :

وتبيت قولي عند المليك قاتلك الله عبدا كفورا .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن .. " سورة البقرة : 230

قال أبو حيان : ( العضل : المنع ، عضل أيمه أي منعها من الزوج بعضها — بكسر

الضاد وضمها ، قال ابن هرمة :

وإن قصائدي لك فاصطنعني كرائم قد عضلن عن النكاح

ويقال دحاج معضل إذا احتبس بيضاها ، قاله الخليل وقال :

ونحن عضلنا بالرماح نساءنا وما فيكم عن حرمة الله عاضل

ويقال أصله الضيق ، عضلت المرأة نشب الولد في بطنها ، وعضلت الشاة وعضلت

الأرض بالجيش ضاقت بهم ، قال أوس :

تري الأرض منا بالفضاء مريضة معضلة منا بجيش عرمرم

وأعضل الداء الأطباء أعيامهم ، وداء عضال ضاق علاجه ولا يطاق ، قالت ليلى

الأخيلية :

شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة شفاها

وأعضل الأمر اشتد وضاق ، وكل مشكل عند العرب معضل ، وقال الشافعي رحمة

الله عليه :

إذا العضلات تصيدني كشفت حقائقها بالنظر .<sup>2</sup>

فانظر إلى عدد الشواهد التي أوردها أبو حيان في بيان معنى الفعل " عضل " ، أما إذا

رجعنا إلى الزمخشري في كشافه فإننا نجده أورده شاهدا واحدا لمعنى واحد يراه الزمخشري

لكلمة " عضل " فقال : ( والعضل الحبس والتضييق ، ومنه : عضلت الدجاجة ، إذا

نشب بيضاها فلم تخرج ، وأنشد لابن هرمة :

وإن قصائدي لك فاصطنعني عقائل قد عضلن عن النكاح<sup>1</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 303/3

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 206/2

بل نجد أبا حيان يذهب إلى أبعد من هذا ، فنجده يجمع القرائن المختلفة من أقوال اللغويين والمفسرين وأسباب نزول الآية ، فيعزز بها شواهد الشعرية المتكاثرة لتقرير معنى من المعاني ، لتتضافر هذه الأدلة كلها ، وتشكل عنده رأيا راجحا في موضع الخلاف ، ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وإن كان رجلٌ يورثُ كَلالةً أو امرأةً .. " سورة النساء : 12

حيث تحدث عن المعنى اللغوي لكلمة " كلاله " فقال : ( قيل مشتقة من تكلله النسب ، أحاط به ، وإذا لم يترك والدا ولا ولدا فقد انقطع طرفاه ، وهما عمودا نسبه ، وبقي موروثه لمن يتكلله نسبه ، أي يحيط به من نواحيه كالإكليل ، ومنه روض مكلل بللزه ، وقال الفرزدق :

ورثتم قناة المجد لا عن كلاله عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

وقال الأخفش : الكلاله من لا يرثه أب ولا أم ، والذي عليه الجمهور أن الكلاله الميت الذي لا والد له ولا مولود وهو قول جمهور أهل اللغة ، صاحب العين ، وأبو منصور اللغوي ، وابن عرفة ، وابن الأنباري ، والعتبي ، وأبي عبيدة ، وقطرب . ويرجح هذا القول نزول الآية في جابر ، ولم يكن له يوم تزولها ابن ولا أب ، لأن أباه قتل يوم أحد ، فكانت قصة جابر بيانا لمعاد الآية .<sup>2</sup>

ومثلما كان أبو حيان يكثر من الشواهد الشعرية للمعنى اللغوي الواحد بما يخرج مخرج الشهرة ، فإنه كان يفيض في إيراد الشواهد النحوية عند تقريره كل حكم من أحكام النحو بما ينفي عنه أن يكون من ضرورات الشعر أو الغريب النادر منه ، وهو يفعل ذلك بعد أن ينقل أقوال أئمة النحو ، وبعد أن يضرب أمثلة منشورة من عنده كتطبيق لتلك الحكم .

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيدا ويحذركم الله نفسه .. " سورة آل عمران : 30

<sup>1</sup> . الكشاف : 278/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 188/3

حيث تحدث عن صحة أن يكون الفعل المضارع في الآية "تود" فعل شرط غير مجزوم فقال : ( .. إذا كان فعل الشرط ماضيا وما بعده مضارع تتم به جملة الشرط والجزاء جاز في ذلك المضارع الجزم وحاز فيه الرفع ، مثال ذلك إن قام زيد يقوم عمرو ، وإن قام زيد بقم عمرو ، فأما الجزم فعلى أنه جواب الشرط ولا نعلم في حواز ذلك خلافا ، وأنه فصيح إلا ما ذكره صاحب كتاب الإعراب عن بعض النحويين أنه لا يجيء في الكلام الفصيح ، وإنما يجيء مع "كان" لقوله تعالى : " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها .. " <sup>1</sup> لأنها أصل الأفعال ، ولا يجوز ذلك مع غيرها . وظاهر كلام سيوبه ونص الجماعة أنه لا يختص ذلك بـ "كان" بل سائر الأفعال في ذلك مثل "كان" ، وأنشد سيوبه للفرزدق :

دست رسولا بأن القوم قد قدروا عليك بشفوا صدورا ذات توغير  
وقال أيضا:

تعال فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب بصطحبان  
وأما الرفع فإنه مسموع من لسان العرب كثير ، وقال بعض أصحابنا وهو أحسن من الجزم ، ومنه بيت زهير السابق :

وإن اتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالي ولا حرم  
وهو قوله أيضا:

وإن سل ربعان الجميع مخافة يقول جهارا ويلكم لا تنفروا  
وقال أبو صخر:

ولا بالذي إن بان عنه حبيبه يقول ويخفي الصبر إلى لجازع  
وقال الآخر:

وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر  
وقال الآخر:

وإن كان لا يرضيك حتى تردني إلى قطري لا إخالك راضيا  
وقال الآخر:

<sup>1</sup> . سورة هود : 15

إن يسألوا الخير يعطوه وإن يخبروا في الجهد أدرك منهم طيب إخبار  
ثم قال أبو حيان بعد هذه الشواهد : ( فهذا الرفع — كما رأيت — كثير ، ونصوص  
الأئمة على جوازه في الكلام ، وإن اختلفت تأويلاتهم .. )<sup>1</sup>  
والتزم نفس المنهج في شواهد الشعرية على القراءات ، حيث كان لا يكتفي بالشاهد  
الواحد من كلام العرب وشعرهم ، بل يحرص على عرض الشواهد الكثيرة بما يخرج ما  
يقرره من أحكام إلى حد الشهرة .  
فجده مثلا في تفسيره قوله تعالى : " .. وصد عن سبيل الله وكفر<sup>يد</sup> به والمسجد الحرام  
وأخرج أهله منه أكبر عند الله .. " سورة البقرة : 215  
أطال الكلام في تعليل قراءة الجمهور — في خفض المسجد الحرام — فذكر اختلاف  
أئمة النحو و المفسرين في تعيين المعطوف عليه في هذه القراءة ، كابن عطية والزمخشري  
وغيرهما ، ثم ناقش هذه الأقوال مرجحا القول الأول ، ومدلا عليه بالشواهد المستفيضة  
التي تخرجه عن أن يكون مقيدا بضرورة الشعر فقال : ( والذي نختاره أنه يجوز ذلك في  
الكلام مطلقا ، لأن السماع يعضده ، والقياس يقويه .. وقرأها كذلك ابن عباس والحسن  
وبجاهد وقتادة والنخعي ويحيى بن وثاب والعمش وأبو رزين وحمزة ، ومن ادعى اللحن  
فيها أو الغلط على حمزة فقد كذب ، وقد ورد من ذلك في أشعار العرب كثير يخرج عن  
أن يجعل ذلك ضرورة فمنه قول الشاعر :

نعلق في مثل السواري سيوفنا فما بينها والأرض غوط نعانف

وقال آخر:

هلا سالت بذئ الجماجم عنهم وأبي نعيم ذي اللواء المحرق

وقال آخر:

بنا أبدا لا غيرنا يدرك المنى وتكشف غماء الخطوب الفوادح

وقال آخر:

إذا أوقدوا نار الحروب عدوهم فقد خاب من يصلى وسعيرها

وقال آخر:

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 429/2 . وانظر : 103/1 ، 168/1

لو كان لي وزهير ثالث وردت من الحمام عدانا شر مورود

وقال رجل من طيء:

إذا بنا بل أنيسان اتقت ففة ظلت مومنة ممن تعاديبها

وقال العباس بن مرداس:

أكر على الكتبية لا أبالي أحتفي كان فيها أم سواها

وأشدد سيبويه رحمه الله:

فاليوم قد بت تمجوننا وتشتمننا فاذهب فما بك والأيام من عجب

وقال آخر:

أبك آية بي أو مصدر من حمر الجلة حاب جسور

ثم قال أبو حيان : ( فأنت ترى هذا السماع وكثوته ، وتصرف العرب في حرف

العطف ، فتارة عطفت بـ " الواو " ، وتارة بـ " أو " ، وتارة بـ " بل " ، وتارة بـ "

أم " ، وتارة بـ " لا " ، وكل هذا التصرف يدل على الجواز ، وإن كان الأكثر أن يعاد

الجار كقوله تعالى : " وعليها وعلى الفلك تحملون " <sup>1</sup> ، فقال لها وللأرض اثتيا طوعا أو

كرها .. " <sup>2</sup> ، " قل الله يُنجيكم منها ومن كل كُرْبٍ .. " <sup>3</sup> . ) <sup>4</sup>

ومن خلال هذه النماذج جميعها يتبين لنا تفوق أبي حيان الأندلسي على الزمخشري في

مبحث الشواهد اللغوية والنحوية ، وقد تجلّى هذا التفوق في عدة نواح منها توسّعه في

إيراد الشواهد الشعرية ، ودقة توظيفه لتلك الشواهد في محلها ، مع تشدده وحرصه على

الاحتكام لما اشتهر من شعر عصر الاحتجاج ، ورده لأشعار المتأخرين لما قد يعتريها من

المعجمة واللحن وغيرها .

<sup>1</sup> . سورة المؤمنون : 22

<sup>2</sup> . سورة فصلت : 10

<sup>3</sup> . سورة الأنعام : 65

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 148/2

## المبحث الثالث

### توجيه الإعراب لخدمة المعاني البلاغية

وهي من مواضع الاختلاف بين المفسرين ، ففي الوقت الذي نجد فيه أبا حيان يوجه آراءه الإعرابية وفق ما يراه أصوب وأصح في علم النحو ، نجد الزمخشري يوجه إعراب الآيات بما يراه أكثر بلاغة .

ومما يؤكد ولع الزمخشري بالدلالات البلاغية لقضايا النحو ، وتوظيفها في الكشف عن مواطن الجمال في القرآن الكريم ، تلك الإستنتاجات والاجتهادات التي لم يسبق إليها ، بل ربما لا يوافقها عليها من سبقه ولا من لحقه ، منها كلامه على " السين " التي تفيد الاستقبال مثلا ، حيث يرى بحاسته البلاغية أنها تفيد التوكيد أيضا .

ففي قوله تعالى : " .. فسيفكفكهم الله وهو السميع العليم " سورة البقرة : 136 قال الزمخشري : ( ضمان من الله لإظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسيبهم ، وإجلاء بني النضير ، ومعنى " السين " أن ذلك كائن لا محالة ، وإن تأخر إلى حين . )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : ( أُولَئِكَ نَسِخْنَاهُمْ اللَّهُ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ الْحَكِيمُ ) سورة التوبة : 72 قال : ( السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة ، فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد ، كقولك : سأنتقم منك يوما ، تعني أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك . )<sup>2</sup>

وقد علق ابن هشام على ما ذهب إليه الزمخشري فقال : ( وزعم الزمخشري أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة ، ولم أر من فهم وجه ذلك ، ووجهه أنها تفيد الوعد بحصول الفعل ، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضى لتوكيده وتثبيت معناه . )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 196/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 289/2

<sup>3</sup> . ابن هشام . ملحق اللب من كتب الأعراب تطبيق حنا الفاعوري ، دار الجبل ، بيروت لبنان ط 1 ، 1991 م ، ج 1/147



وفي تفسير قوله تعالى : " أن اقلن فيه في التابوت فاقلن فيه في اليم فليلقه اليم بالساحل

ياخذة عدو لي وعدو له.. " سورة طه : 38

قال الزمخشري : ( والضمائر كلها راجعة إلى موسى ، ورجوع بعضها إليه ، وبعضها إلى التابوت فيه هجئة ، لما يؤدي إليه من تنافر النظم . فإن قلت : المقلوف في البحر هو التابوت ، وكذلك الملقى إلى الساحل ، قلت : ما ضرك لو قلت : المقلوف والملقى هو موسى في جوف التابوت ، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن ، والقانون الذي وقع عليه التحدي ومراعاته أهم ما يجب على المفسر . )<sup>1</sup>  
وهكذا يمضي الزمخشري في تلمس النكت البلاغية ، وهو يحدق بثاقب فكره وبصره في مختلف وجوه النظم ، وما انطوت عليه من أسرار بلاغية ، إلى درجة أنه يحمل النص القرآني أحيانا ما لا يتحمله ، مما يجعل أبا حيان يتعقبه في أكثر هذه المواضع منها على أثر التكلف والتعسف في تحميل العبارات القرآنية ما لا تحتمل ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

في قوله تعالى : " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله .. "

سورة البقرة : 22

قال أبو حيان : ( وليس التضعيف هنا — نزلنا — دالا على نزوله منجما في أوقات مختلفة خلافا للزمخشري ، قال : (فإن قلت لم قيل " مما نزلنا " على لفظ التبريل دون الإنزال ؟ قلت : لأن المراد التزول على سبيل التدريج والتنجيم ، وهو من محازه لمكان التحدي .. )<sup>2</sup>

قال أبو حيان : ( وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري في تضعيف عين الكلمة هنا هو الذي يعبر عنه بالتكثير ، أي بفعل ذلك مرة بعد مرة ، فيدل على هذا المعنى بالتضعيف ويعبر عنه بالكثرة . وذهل الزمخشري عن أن ذلك إنما يكون غالبا في الأفعال التي قبل التضعيف متعدية نحو : جرحت زيدا وفتحت الباب وقطعت وذبحت ، لا يقال جلس زيد ولا قعد عمرو ، و " نزلنا " لم يكن متعديا قبل التضعيف ، إنما كان لازما ، وتعديه إنما يفعله التضعيف أو الهمزة ، فإن جاء في لازم فهو قليل ، قالوا : مات المال وموت المال ،

<sup>1</sup> . الكشاف : 63/3

<sup>2</sup> . انظر الكشاف : 96/1

إذا كثر ذلك فيه ، وأيضاً فالتضعيف الذي يراد به التكثير إنما يدل على كثرة وقوع الفعل ، أما أن يجعل اللازم متعدياً فلا " نزلنا " قبل التضعيف كان لازماً ولم يكن متعدياً ، فيكون التعدى المستفاد من التضعيف دليلاً على أنه للنقل لا للتكثير ، إذ لو كان للتكثير وقد دخل على اللازم لبقى لازماً ، نحو مات المال وموت المال ، وأيضاً فلو كان التضعيف فيزل مفيداً للتنجيم لا يحتاج قوله تعالى<sup>1</sup> " لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة " إلى تأويل ، لأن التضعيف دال على التنجيم والتكثير ، وقوله " جملة واحدة " ينافي ذلك ، وأيضاً فالقراءة بالوجهين في كثير مما جاء يدل على أنهما بمعنى واحد ، وأيضاً يجيء " نزل " حيث لا يمكن التكثير فيه والتنجيم إلا على وجه بعيد جداً يدل على ذلك ، قال تعالى<sup>2</sup> : " وقالوا لولا نزل عليه آية .. " وقال تعالى<sup>3</sup> : " قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً " ليس المعنى على أنهم اقترحوا تكرير نزول الآية ، ولا أنه علق على تكرير نزول ملك رسول على تقدير كون ملائكة في الأرض ، وإنما المعنى والله أعلم مطلق الإنزال .<sup>4</sup>

وكان الزمخشري يرى أن مسلكه هذا ليس بدعاً من القول ، بل كان العرب يميلون إلى هذا المسلك أيضاً ويستحسنون توجيه الوجوه الإعرابية إلى ما كان أبلغ في اللغة ، وأن الزمخشري في ذلك تابع وليس متبوعاً .

من ذلك مثلاً ما نقله في تفسير قوله تعالى : " فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ .. " سورة

البقرة : 247

حيث قال : ( وقرأ أبي والأعمش " إلا قليل " بالرفع ، وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً ، وهو باب جليل في علم العربية ، فلما كان معنى " فشربوا منه " في معنى : لم يطعموه ، حمل عليه ، كأنه قيل : فلم يطعموه إلا قليل منهم ، ونحوه قول الفرزدق<sup>5</sup> :

<sup>1</sup> . سورة الفرقان : 32

<sup>2</sup> . سورة النعام : 38

<sup>3</sup> . سورة الإسراء : 95

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 103/1

<sup>5</sup> . ديوان الفرزدق : 26/2

وعرض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف .<sup>1</sup>  
وهنا تجدر الإشارة مرة أخرى إلى تعريضه بأن القراءة اجتهاد ، وكان أبيا والأعمش  
قرأ بما يريانه أصح في المعنى ، لا بما هو أصح في النقل ، وهو قول لا تسلم له به على  
ظاهره ، إلا أن تكون في الآية أكثر من قراءة ، فاختارا هذه القراءة لموافقتهما ذلك المعنى ،  
والاختيار في القراءات الصحيحة جائز ، لأنها كلها كاف شاف ، ولو كان كلام  
الزمخشري السابق مفسرا على هذا الوجه في الكشف لكان مقبولا ، ولسلم من انتقاد أبي  
حيان وغيره ، ولكنه اكتفى بالإجمال مع الإلباس في التعبير ، مما جعله غرضا لتلك  
الاعتراضات والاقامات العنيفة أحيانا .

كما أن إهدار حكم من أحكام النحو المعروفة مقابل التعلق بمعنى من المعاني التي يرى  
الزمخشري أن إعجاز النص مرتبط بها يجعلنا نطرح أكثر من سؤال :  
هل المعنى الذي صرف الزمخشري إليه الآية صادر بحق عن النص القرآني ، أم أنه صادر  
عن رؤية مذهبية ، ولا يسلم له بها غيره ؟

ثم إن نظرية التنظيم أساسها مراعاة أحكام النحو ، فكيف ينقض هذه المسئلة عند  
التطبيق لها ، ولذلك لم ينفرد أبو حيان الأندلسي بالاعتراض عليه فقط ، بل نجد ابن هشام  
النحوي — وهو من المتعاطفين مع الزمخشري ضد أبي حيان — يسجل عليه عدة  
اعتراضات في هذا المسلك ، ورد عليه كثيرا من التحريجات في هذا الجانب ، ومن ذلك  
مثلا :

في قوله تعالى : " وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ .. " سورة  
الروم : 22

يرى الزمخشري أنه من باب اللف والنشر غير المرتب ، وأن ترتيب الكلام فيه يكون على  
النحو الآتي : ومن آياته منامكم وابتغاءكم من فضله بالليل والنهار ، إلا أنه فصل بين  
القريبتين الأولين " المنام والابتغاء " بالقريبتين الأخيرتين " الليل والنهار " لأنهما زمانان ،  
والزمان والواقع فيه كشيء واحد ، مع إعانة اللف على الإتحاد .

ثم قال الزمخشري : ( ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغواكم فيهما ، والظواهر الأول لتكرره في القرآن ، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن يسمعونه بالأذان الروائية . )<sup>1</sup>  
 ( وهو نموذج يجمع إلى الحرص على تحقيق لون من ألوان البديع - اللف والشمس - وهو غرض بلاغي ، تزكية المعنى وتقويته بتكرره في القرآن الكريم ، ولذلك قال : وأسد المعاني ما دل عليه القرآن " وهي عبارة صائبة وحيلة ، لولا أنه في مقابل ذلك أسدر حكما نحويا ، وهو وجوب تأخر معمول المصدر عليه . )<sup>2</sup>

قال ابن هشام : ( وهذا يقتضي أن يكون النهار معمولا " لابتغاء " مع تقليده عليه ، وعطفه على معمول " منامكم " وهو " بالليل " وهذا لا يجوز في الشعر ، فكيف في أفصح الكلام ؟ )<sup>3</sup>

ومن الغريب أنه نص على هذا الحكم ، وخرج عليه إعراب الآية في قوله تعالى :  
 فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ .. " سورة الصافات : 102  
 من تعلق " معه " بمحذوف ، إذ لا يصح تعلقه بـ " بلغ " لاقتضائه بلوغهما معا ، ولا بالسعي لأنه مصدر ، وصلة المصدر لا تتقدم عليه .<sup>4</sup>

بينما هو في آية الروم السابقة يتجاهله ، ويخرج على خلافه ، مما يدل على أنه أسير المعنى والنكتة البلاغية ، وحيث أن تعليق " معه " في هذه الآية بالمصدر المؤخر لا يسترتب عليه معنى زائد ، فلا داعي لحرق هذا الحكم الإعرابي .<sup>5</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبَادُونَ لَمَلَأَ اللَّهُ أَكْبْرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ " سورة غافر : 9  
 سلك نفس المسلك فعلق الظرف " إذ " بالمقت الأول - وهو مصدر مفصول مسن معمولا - ولا يصح عمله مع الفصل على رأي النحويين .<sup>6</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 473/3

<sup>2</sup> . الحو وكتب التفسير : 709/1

<sup>3</sup> . معني اللبيب عن كتب الأعراب : 599/2

<sup>4</sup> . الكشاف : 53/4

<sup>5</sup> . انظر : الحو وكتب التفسير : 711/2

<sup>6</sup> . المصدر نفسه : 711/2

قال الزمخشري : ( " إذ تدعون " منصوب المقت الأول ، والمعنى أنه يقال لهم يوم القيامة كان الله يمقت أنفسكم الأمانة بالسوء والكفر حين الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهم اليوم وأنتم في النار )<sup>1</sup>

فهو قد أهدر حكما نحويا في سبيل المعنى وتوجيهه ، ومراعاة لهذا الحكم قال ابن هشام : ( والصواب أن " إذ " متعلقة بمحذوف ، أي مقتكم إذ تدعون . )<sup>2</sup>

وكان أبو حيان في مثل هذه المواضع كثيرا ما يسكت عن مناقشة الزمخشري مكتفيا بقوله : وهذا ليس كلام نحوي وإنما هو كلام أديب .

وفي هذه العبارة لأبي حيان رد قوي على الذين ذهبوا إلى تغليطه في اعتراضاته على الزمخشري في مثل هذه المواضع بحجة أن أبا حيان لم يكن يفهم أو يفرق بين مصطلحات النحويين والبيانين ، بل كان محيطا بذلك ، ولكنه لم يرتض هذا المسلك عند الزمخشري وغيره ، ولذلك ردد هذه العبارة سواء في الاعتراض على الزمخشري ، أو على غيره من المفسرين الذين تأثروا بالزمخشري وسلكوا مسلكه في هذا الجانب<sup>3</sup> .

ولا يعني أبو حيان بمثل هذه العبارة قبوله لما ذهب إليه الزمخشري بقدر ما فيه من التماس عذر له ، وبيان ما كان يغلب ويظفي عليه ، ومن هنا يمكننا أن نلاحظ أنه في الوقت الذي كان الزمخشري يغلب تحكيم ذوقه الأدبي في معالجة معنى النص القرآني فإن أبا حيان كان يغلب عليه حسه النحوي .

ونجد الزمخشري أحيانا يحمل النص القرآني بعض المعاني التي لا تثبت إلا بالقفز على بعض القواعد النحوية من جهة ، وتجاهل المعنى الذي ينتظم مع سياق الآيات من جهة أخرى ، من غير أن يبين الغرض البلاغي الذي حمله على ذلك ، مما يضاعف في خطئه ، ويفسح المجال أما أبي حيان كي يكيل له الانتقادات من كلتا الجهتين .

ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي

بُرُوجٍ مُّشْتَبِهَةٍ .. " سورة النساء : 77

<sup>1</sup> . الكشاف : 154/4

<sup>2</sup> . مفن اللب عن كتب الأعراب : 596/2

<sup>3</sup> . انظر مثلا : مرتضى أبة الله زاده الشيرازي ، الزمخشري لغويا ومفسرا ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، 1977م : 402

قال أبو حيان : ( .. وقال أيضا الزمخشري أيضا ، ويجوز أن يتصل بقوله " ولا تظلمون فتيلًا " ، أي ولا تنقصون شيئًا مما كتب من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم حروب أو غيرها . ثم ابتداء بقوله " يَذْرِكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّاتٍ " والوقف على هذا الوجه : أينما تكونوا . انتهى كلامه . )<sup>1</sup>

قال أبو حيان : ( وهذا تخريج ليس بمستقيم ، لا من حيث المعنى ، ولا من حيث الصناعة النحوية ، أما من حيث المعنى فإنه لا يناسب أن يكون متصلًا بقوله " ولا تظلمون فتيلًا " لأن ظاهر انتفاء الظلم إنما هو في الآخرة لقوله " قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى " . وأما من حيث الصناعة النحوية فإنه على ظاهر كلامه يسدل على أن " أينما تكونوا في ملاحم الحرب أو غيرها " وهذا لا يجوز لأن " أينما " إسم شرط ، فالعامل فيه إنما هو فعل الشرط بعده ، ولأن إسم الشرط لا يتقدم عليه عامله ، فلا يمكن أن يعمل فيه . )<sup>2</sup>

وإذا ثبت لدينا أن الزمخشري يقدم ويفضل من وجوه الإعراب ما كان أبلغ ، وليس بالضرورة أن يقدم ما كان أقوى في النحو لتقرير أحكام بلاغية ، فلا عجب بعدئذ أن يوظف مهارته النحوية لتقرير ما كان أدل على مذهبه وأنسب لفكره ، وهو يرى أنه مذهب الحق ومذهب الفرقة الناجية ، بل نجده لا يتردد في مواطن عديدة من تفسيره في تحميل الآيات من وجوه الإعراب ما يخدم فكره الاعتزالي ، فتارة يقدر محذوفًا في غير موضعه ، وتارة يتجاهله حيث يجب التقدير ، وتارة يرى التقديم والتأخير من غير قاعدة مطردة .

ولذلك نجده في قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " سورة النساء : 47

يوجه نظم الآية توجيهًا جائرًا لا لشيء إلا لتتفق مع مذهبه ، حيث يرى المعتزلة أن الذنوب — ومنها الشرك — لا تغفر إلا بالتوبة ، بخلاف أهل السنة الذين يرون أن المغفرة تكون بما وبالشفاعة ، كما تكون بمجرد فضل الله تعالى في غير الشرك . فلما رأى الزمخشري أن هذه الآية غير ظاهرة في تقرير مذهبه الاعتزالي ، أراد تطويعها له ، وراح

<sup>1</sup> . الكتاب : 538/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط :

يلتمس ويبحث عن سند أو ملاذ في النحو ، فجعل الفعلين في الآية " لا يغفر .. ويغفر " متجهين كليهما إلى قوله " لمن يشاء " على أن المراد من الأول المنفي من لم يتب ، والثاني من تاب ، وهذا تستوي جميع الذنوب في عدم المغفرة إلا بالتوبة ، قال : ( فَإِنْ تَلَمَّعْتَ : قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه ، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة فما وجه قول الله تعالى " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " ؟ قلت : الوجه أن يكون الفعل المنفي والثبت جميعا موجهين إلى قوله " لمن يشاء " كأنه قيل : إن الله لا يغفر : إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ويغفر لمن يشاء ، على أن المراد بالأول من لم يتب ، والثاني من تاب ، ونظيره قولك : إن الأمير لا يبذل القنطار لمن يشاء ، تريد : لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ، ويبذل القنطار لمن يستأهله .<sup>1</sup>

وكان التقدير على هذا التحليل : إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ويختاره ، ويغفر لمن يشاء التوبة ويريد ما ، ففاعل المشيئة عائد على " من " والمفعول مقدر باعتبارين ، أو أن المشيئة مسندة إلى الله تعالى ، وهو لا يشاء المغفرة إلا بالتوبة من الشرك وما دونه ، وهو تقدير بعيد لا يدل عليه أسلوب الآية التي كان أهل السنة على حق في حملها على من لم يتب ، فإن كان مشركا فإن الشرك لا يغفر ، وإن كان مؤمنا فإن الله سبحانه أن يغفر له فضلا منه ورحمة ، فهو تحت المشيئة ، وهو ما يظهر من الآية دون تكلف أو تعسف ، وأما مع التوبة فالشرك وما دونه مغفوران بما علمناه من الأدلة السمعية ، ولا حاجة إلى ما ذهب الزمخشري لتقريره وتفصيله .

أما في قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ .. " النحل : 90

فترى الزمخشري ينساق إلى تقرير معنى في الآية ظاهر البعد والغرابة ، مجرد أنه يرى فيه حجة لتقرير بعض معتقده فيقول : ( العدل هو الواجب لأن الله تعالى عدل فيه على عباده ، فجعل ما فرضه عليهم واقعا تحت طاقتهم ، و " الإحسان " الندب ..<sup>2</sup> ) وما فهمه الزمخشري من هذه الآية يكاد يخرج به عن ظاهر النص إلى ما يقول به أصحاب التفسير الرمزي والباطني ، لأن الذي عليه المفسرون — وهو المتبادر من ظاهر

<sup>1</sup> . الكشاف : 519/1 — 520

<sup>2</sup> . الكشاف : 629/2

الآية وسياقها — أن العدل والإحسان في هذا الموضوع هما خصلتان من الخصال الحسنة التي أمر الله تعالى بمهما عباده ، وليس وصفا للأحكام الشرعية من حيث دخولها تحت الطائفة البشرية وعدمها ، وفي الآية حذف تقديره : " إن الله يأمر بإقامة العدل والإحسان " والدليل على صحة هذا المعنى ما يأتي بعده في الآية " وإيتاء ذي القسرى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.. " سورة النحل : 90

فكل ما جاء في الآية هي أوصاف لأفعال العباد ، وليس أوصافا لأوامر الله تعالى على ما فهمه الزمخشري . كما أن ما قرره الزمخشري في معنى آخر الآية يؤيد هذا وينقض المعنى الذي ذهب إليه في بدايتها من حيث لا يدري ، حيث لم يفسر معنى الفحشاء والمنكر بما خرج عن طاقة المكلفين ، بل بما هو معروف عند الناس ، وبما يلوح من ظاهر الآية . ولما كان مسلك الزمخشري في تفسير حسه الأدبي لمطابقة حسه المذهبي واضحا — على الأقل عند أبي حيان — فإنه كان في مثل هذه المواضع أيضا كثيرا ما بسكت عن مناقشته ، بل يكتفي بترديد عبارة " وهذا على مذهبه الاعتزالي " إشعارا بفساد رأيه الناجم عن تأثير مذهبه وتعصبه له .

والذي نخلص إليه من مجموع المباحث التي تضمنها هذا الفصل أن أبا حيان قد كان ظاهر التفوق مرة أخرى على الزمخشري من عدة جوانب . فقد كان أبو حيان أكثر أمانة في النقل والإحالة على مصادر النحو سواء فيما نقله نصا أو نقله بالمعنى ، كما تجلست الروح النقدية عنده أكثر من الزمخشري من خلال تلك التعقيبات الدقيقة على تفسير الكشاف وغيره من تفاسير المتقدمين ، وأما في جانب الشواهد الشعرية فقد برز تفوق أبي حيان من خلال التزامه في شواهد بعصر الاحتجاج ، إلى جانب كثرتها وتنوعها بما يخرج ما قرره من أحكام نحوية ولغوية عن حد الشلوذ والغرابة . ولئن كان الزمخشري قد طواع ميله لتوجيه الوجوه الإعرابية لما هو أبلغ في البيان ، وليس لما هو أشهر وأصح في النحو فإننا لا نقره على ذلك ، وهو مخالف لأصول نظرية النظم التي أقام عليها كشافه مما يجعلنا نشاحه في هذا المسلك ، ونؤيد أبا حيان فيما تعقبه به ونسلم له بالتفوق عليه في ذلك أيضا .



## الفصل الثالث

مسلكهما في المباحث العقديّة

جامعة الأمير  
القادر للعلوم الإسلاميّة

# المبحث الأول

## مصادرها في المباحث العقدية

### المطلب الأول : مصادر الزمخشري العقدية

نشأ الزمخشري وترعرع في بيئة كان يغلب عليها الاعتزال ، كما تلقى مبادئ هذا المذهب منذ شبابه على شيخه أبي مضر محمود بن جرير الأصبهاني ، المتوفى سنة : 507هـ مما مكّنه من الإلمام بأصول المعتزلة وفكرهم ، والإطلاع الواسع على تراثهم ومصادرهم في وقت مبكر من حياته ، حتى صار رأسا من رؤوس الاعتزال في زمانه ، وإليه المرجع والنتهى في هذا الشأن ، وفي ذلك يقول : ( ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفرقة الناجية العدلية ، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية ، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا في الاستحسان والتعجب ، واستطبروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا إلي مقترحين أن أملئ عليهم " الكشاف عن حقائق التعريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " )<sup>1</sup>

فليس غريبا بعدئذ أن يتخذ الزمخشري من كتب علماء الاعتزال وتفاسيرهم مصدرا أوليا ، وقد كان يصرح باعتزاله وبياهي به ، كما أنه نصر في مقدمة تفسيره على أنه ألفه نزولا عند رغبة أتباعه من المعتزلة ، ولكن الزمخشري كعادته سكت عن مصادره الكلامية ، ولم يصرح بها ، مما يصعب على الباحث الوقوف عليها إلا بالتنقيب ، والمقارنة الدقيقة بين تفسير الكشاف وبين بعض مصنفات أئمة المعتزلة ، ومن بين الكتب التي ذكرها كتب التراجم كمصادر للزمخشري في كشافه ما يأتي :

— الجامع الكبير في التفسير ، لعلي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني ، ويعرف بالإخشيدى وبالوراق ، وهو أحد شيوخ المعتزلة ، حيث جاء في ترجمة الرماني : ( .. وله

<sup>1</sup> . مقدمة الكشاف ص : 8

التفسير الكبير ، وهو كثير الفوائد ، إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشري سبيله ، وزاد عليه <sup>1</sup>

فكلمة " سلك الزمخشري سبيله " توحى بمدى استفادة الزمخشري منه من حيث توجيه الآيات القرآنية لخدمة فكره الاعتزالي ، كما أن عبارة " وزاد عليه " توحى بأنه نقل خلاصة ما في تفسير الرمانى ، إلى جانب ما أضافه من عنده أو من مصادر أخرى .

ونحن اليوم لم نقف على تفسير الرمانى لنقارن بينه وبين تفسير الزمخشري ، إلا أن كونه أحد أركان مذهب الاعتزال ، واشتهاره بتفسيره بين الناس فضلا عن أتباع مذهبه يجعلنا نتنصر للقول باستفادة الزمخشري منه ، وإن كون الزمخشري لم يشر إلى ذلك لا ينفي ما تناقلته كتب التراجم ، لأنه لم ينبه حتى على تلك المراجع التي يمكن لأي باحث أن يقطع بأنه أكثر من النقل عنها .

— التهذيب في التفسير لمصنفه المحسن بن محمد بن كرامة البيهقي ، المشهور بالحاكم الجشمي ( تـ : 494هـ ) ففي شرح الأزهار للجندي ما نصه : ( وتفسير الكشاف قيل من تفسير الحاكم ، بزيادة تعقيد ، والله أعلم . ) <sup>2</sup>

وبالمقارنة بين بعض ما جاء في كشاف الزمخشري وما في تفسير الحاكم يتبين بجلاء أنه أفاد منه بالنقل الحر في تارة مع التصرف الطفيف ، وبالمعنى تارة أخرى .

ومن الأمثلة على ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِيَّ .. " سورة ص : 74

قال الزمخشري : ( وقيل معنى " لما خلقت بيدي " لما خلقت بغير واسطة . ) <sup>3</sup>

وفي التهذيب للحاكم : ( قيل خلقت من غير واسطة ، عن أبي علي الجبائي . ) <sup>4</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا " سورة الفجر : 23 — 24

<sup>1</sup> ابن ثوري الأتابكي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق ابراهيم علي طرعيان ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب :

ج 168/4

<sup>2</sup> الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير ، عدنان زوزور : 460

<sup>3</sup> الكشاف : 107/4

<sup>4</sup> الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير : 293

قال الحاكم : ( قيل أمره وقضائه ومحاسبه ، عن الحسن وأبي علي ، وقيل جلائل قدرته ، فجعل مجيئها مجيئه تفخيما لها ، وقيل جاء أمره الذي لا أمر غيره .. قال الحاكم : ولا يجوز حمله على مجيء ذاته ، لأنه ليس بجسم فلا يجوز عليه المجيء والذهاب . )<sup>1</sup>

وفي الكشف للزمخشري : ( فإن قلت : ما معنى إسناد المجيء إلى الله تعالى ؟ والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة ؟ قلت : هو تمثيل لظهور آيات اقتداره ، وتبين آثار قدرته وسلطانه مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه . )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى " وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ " سورة الواقعة : 85

قال الحاكم : ( " أفبهذا الحديث " قيل القرءان ، وقيل الإعادة ، وقيل حديث النبوة . أنتم مدهنون " قيل مكذبون ، عن ابن عباس ، وقيل كافرون ، عن مقاتل ، وقيل المدهن : المنافق .. " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون " قيل تجعلون حظكم من الخير ، الذي هو رزقكم أنكم تكذبون به ، وقيل تجعلون شكر رزقكم التكذيب ، عن ابن عباس وأبي علي . وقيل حظكم من القرءان الذي رزقكم الله التكذيب به عن الحسن . وقيل أراد بالرزق الشكر . وروي أن النبي - ص - قال : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون . )<sup>3</sup>

وعند الزمخشري : ( " أفبهذا الحديث " يعني القرءان " أنتم مدهنون " أي متهاونون .. " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون " على حذف المضاف ، يعني وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ، أي وضعتم التكذيب موضع الشكر ، وقرأ علي رضي الله عنه : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ، وقيل هي قراءة رسول الله - ص - ، والمعنى وتجعلون شكركم لنعمة القرءان أنكم تكذبون به . )<sup>4</sup>

فالأقوال التي ذهب إليها الزمخشري في تفسير هذه الآيات هي في مجملها نفس الأقوال التي نقلها الحاكم في تهذيبه ، مع فارق أساسي وهو أن الحاكم نسب كل قول لصاحبه ، أما الزمخشري فكان يعدل عن ذلك كعادته .

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 294

<sup>2</sup> . الكشف : 751/4

<sup>3</sup> . الحاكم الحسني ومنهجه في التفسير : 466

<sup>4</sup> . الكشف : 469/4

ولهذا ذهب أحد الباحثين وهو عدنان زرزور إلى أن تفسير الحاكم هو الذي مكنتنا إلى حد كبير — من تقويم تفسير الزمخشري ، وهياً لنا للمرة الأولى فرصة إعادة النظر وإعطاء الحكم الصحيح في هذا التفسير ، بعد أن نال صاحبه في التاريخ فوق ما يستحق<sup>1</sup> .

ومن المصادر التي أفاد منها الزمخشري ، وعول عليها كثيراً في كشفه كتاب " معاني القرآن " للزجاج<sup>2</sup> ، وقد كان الزمخشري يشير إلى بعض نقوله عنه ، ولكنها قليلة جداً إلى جانب ما أخذه عنه ، وفي ذلك يقول شمس الدين الأصبهاني<sup>3</sup> في مصنفه " الجامع بين التفسير الكبير<sup>4</sup> والكشاف " ما نصه : ( تتبعت الكشاف ، فوجدت أن كل ما أخذه إنما أخذه من الزجاج . )<sup>5</sup>

وإنما كان أغلب ما أخذه عنه قد صاغه بأسلوبه ، وديجه ببلاغته حتى يحسب القارئ أنه من إنشائه كما قال أبو حيان الأندلسي في قصيدته :

وينسب إبداء المعاني لنفسه ليوهم أغمارا وإن كان سارقا

— ومن مصادره أيضا أمالي الشريف المرتضى ( ت : 436هـ ) المعروف بـ " غرر الفوائد ودرر القلائد " ، وهي عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها المؤلف على طلبته في ثمانين مجلسا ، تشتمل على بحوث في التفسير والحديث والأدب ، وهو لا يحيط بتفسير القرآن كله ، بل يكتفي بالوقوف عند بعض الآيات التي تتعلق أغلبها بالمباحث العقديّة ، وفي هذه الأمالي نراه يبذل كل جهوده للتوفيق بين آيات القرآن الكريم وبين مبادئه الاعتزالية ، مستعينا في ذلك بنبوغة الأدبي ، ومعرفة بفنون اللغة وأساليبها .

<sup>1</sup> . المصدر نفسه : 458

<sup>2</sup> . هو إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو إسحاق الزجاج ، نحوي لغوي مفسر ، مولده ووفاته بفساد تلمذ على المرز ، من كتبه :

معاني القرآن . انظر طبقات المفسرين للعلوي : 7/1

<sup>3</sup> . محمد بن محمود بن محمد العجلي الأصبهاني ، شمس الدين ، أبو عبد الله ، الشافعي ، فقيه ، أصولي ، متكلم ، مفسر ، أديب ، ولد ونشأ بأصبهان ، ورحل إلى بغداد والقاهرة والشام ، وله مصنفات منها : تشييد القواعد في شرح لجمريد القواعد ، والجامع بين التفسير الكبر والكشاف ، ولد سنة : 616هـ وتوفي سنة : 688هـ . النهاية والنهابة لابن كثير : 315/13 وفي بقية الوجعة 1/240

ت : 678هـ

<sup>4</sup> . وهو تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي .

<sup>5</sup> . حاشي خليفة ، كشف الظنون : 1482/2

فكان الزمخشري يستعين بهذا المصدر ، ويلوذ به كلما ضاقت به المسالك عند محاولة دفع ما يتوهم من تناقض بين آرائه المذهبية وبين نصوص القرآن الكريم ، فينقل عنه مع شيء يسير من التصرف .

فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. " سورة الأعراف : 172

حيث نقل عنه تفسير الآية ملخصا ، وذهب إلى نفس ما ذهب إليه الشريف المرتضى في تأويل الآية ، مع نقله نفس الشواهد التي احتج بها في بيان صحة ما قال به .

ففي الكشاف للزمخشري ما نصه : ( وقوله " ألسنت بربكم قالوا : بلى شهدنا " من باب التمثيل والتخييل ، ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووجدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم ، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنهم أشهدهم على أنفسهم وقرروهم وقال لهم : ألسنت بربكم ؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوجدانيتك ، وباب التمثيل واسمع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب ، ونظيره قوله تعالى " إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . )<sup>1</sup>

وفي أمالي المرتضى ما نصه : ( والجواب الثاني أنه تعالى لما خلقهم وركبهم تركيبا يدل على معرفته ، ويشهد بقدرته ووجوب عبادته ، فأراهم العبر والآيات والدلائل في أنفسهم وفي غيرهم ، كان بمنزلة المشهد لهم على أنفسهم ، وكانوا في مشاهدة ذلك ومعرفته وظهوره فيهم على الوجه الذي أراده الله تعالى ، وتعذر امتناعهم منه وانفكاكهم من دلالة جملة المقر المعترف ، وإن لم يكن هناك إظهار ولا اعتراف على الحقيقة ، ويجري ذلك مجرى قوله تعالى : " ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " .. وهذا باب كبير ، وله نظائر كثيرة في النظم والنثر . )<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 176/2

<sup>2</sup> . الشريف المرتضى ، غرر الفوائد ودرر الفوائد ، تحقيق عماد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ج 1/28

وقد نبه أبو حيان على طريقة الزمخشري في النقل من غير إحالة على مصدره في هذا  
الموضع فقال بعد أن نقل كلامه : ( .. انتهى ، وهو بسط كلام من سبقه )<sup>1</sup>  
وواضح أنهما إشارة منه لأمالى الشريف المرتضى .

والحقيقة أن مصادر الزمخشري في مباحثه العقدية وغيرها من المباحث الأخرى لا  
تنحصر فيما ذكرناه ، بل ما سكتنا عنه أو فاتنا ذكره أكثر مما أوردناه بكثير ، ونستطيع  
أن نلمس هذا من خلال التنبيهات المتكررة لأبي حيان الأندلسي على سرقات الزمخشري  
من مختلف المصادر من غير إحالة ، ونقله لأقوال الرجال من غير عزوها لأصحابها ، ومن  
الأمثلة على ذلك ما يأتي :

في تفسير قوله تعالى : " .. مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ .. "   
سورة آل عمران : 7

نقل أبو حيان أقوال المفسرين في بيان معنى التشابه ، والحكمة من وروده في القرآن  
الكريم ، وقال : ( وقد ذكر العلماء لمجيء التشابه فوائد ، وأحسن ذلك ما ذكره  
الزمخشري ، فإن قلت : هلا كان القرآن كله محكما ؟ قلت لو كان القرآن كله محكما  
لتعلق الناس به بسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل والنظر  
والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به  
، ولما في التشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما في تقادح  
العلماء واتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليسة والعلوم  
الجمعة ، ونيل الدرجات عند الله ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا  
اختلاف ، إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره ، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على مسنن  
واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ، وفتح الله عليه ، وتبين مطابقة التشابه المحكم ، ازداد  
طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه )<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 421/4

<sup>2</sup> . الكتاب : 338/1

ثم قال أبو حيان بعدها : ( انتهى كلام الزمخشري ، وهو مؤلف مما قاله الناس في فائدة الحمىء بالمتشابه في القرآن . )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. "

سورة المائدة : 4

قال أبو حيان : ( وأتممت عليكم نعمتي ، أي في ظهور الإسلام ، وكمال الدين وسعة الأحوال ، وغير ذلك مما انتظمته هذه اللمة الحنيفية ، إلى دخول الجنة والخلود . )<sup>2</sup>

ثم قال : ( وحسن الزمخشري العبارة فقال : بفتح مكة ، ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية ومناسكهم ، وأن لم يجج بالبيت مشرك ، ولم يطف بالبيت عريسان . انتهى ، فكلامه مجموع أقوال المتقدمين . قال ابن عباس وابن جبير وقتادة : إتمام النعمة منع المشركين من الحج ، وقال السدي : هو الإظهار على العدو ، وقال ابن زييد : بالهداية إلى الإسلام . )<sup>3</sup>

وقد أفاد الزمخشري في مواضع غير قليلة من كتاب الخصائص لابن جني<sup>4</sup> ، بل كان ينقل عنه حرفياً في بعض التحريجات اللغوية والبلاغية على طريقة المعتزلة ، ولكنه لا يجيل على ذلك المصدر ، وهو سلوك لا يليق برجل مثل الزمخشري ، وخاصة في مصنف في التفسير ، ومن ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى : " يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِصْرَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. " سورة البقرة : 18

قال الزمخشري : ( فإن قلت : رأس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن فهلا قيل أناملهم ، قلت : هذا من الإتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاضر يحصرها كقوله " فاغسلوا

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 382/3 - 383

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 426/3

<sup>3</sup> . المصدر نفسه : 426/3

<sup>4</sup> . عثمان بن جني ، أبو الفتح ، الرومي الموصل ، الأزدي مولاهم ، نشأ في الموصل ورحل إلى بغداد ، فقرأ العربية على أبي علي الفارسي ، وقرأ القرآن والأدب واللغة ، له تصانيف كثيرة منها سر الصناعة وأسرار البلاغة ، انظر وفيات الأعيان : 394/1



وجوهكم وأيديكم" ، " فاقطعوا أيديهما " أراد البعض الذي هو إلى المرفق والسدي إلى الرسغ ، وأيضاً ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل .<sup>1</sup> وفي خصائص ابن حنن : ( فإن قلت رأس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن ، فهلا قيل أناملهم ؟ قلت هذا من الإتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها ، كقوله " فاغسلوا وجوهكم وأيديكم وأيديكم " ، " فاقطعوا أيديهما " أراد البعض الذي هو إلى المرفق والذي هو إلى الرسغ ، وأيضاً ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل .<sup>2</sup>

وإذا علمنا بأن المعتزلة قد خلفوا تراثاً ضخماً في التفسير ، وأن هذا التراث قد امتد وجوده وأثره إلى عصر الزمخشري ، علمنا أين يقف جهد الزمخشري من جهود سابقه من المعتزلة في تفسير القرآن . ونحن لا نعتب على الزمخشري من حيث إفادته من جهود أئمة الاعتزال ، ولكننا وددنا لو أنه فعل ما فعله أبو حيان الأندلسي ، فنسب كل قول لصاحبه ، أو على الأقل لمصدره ، حتى يتيسر تقويم جهده في هذا الجانب تقويماً عادلاً ، فلا نبخسه حقه أو حق غيره ، ونبوئه المكانة التي تليق به ويليق بها .

### المطلب الثاني : مصادر أبي حيان الأندلسي العقديّة

نشأ أبو حيان الأندلسي في بيئة سنية خالصة ، فقد عرفت بلاد الأندلس بأنفسها من البلدان الإسلامية التي لم تعرف الصراعات العقديّة بين المذاهب الإسلامية المشهورة ، بسبب كانت الفرق الإسلامية — وفي مقدمتها المعتزلة — لا تلقى قبولا في هذا البلد ، وربما ظفر العامة من الناس برجل يجاهر باعتزاله فانقضوا عليه وقتلوه.<sup>3</sup> فنشأ أبو حيان على مذهب السنة والجماعة في الأندلس ، ولما خرج إلى مصر التي كانت ملجأ دار الخلافة يومئذ ، كان الأئمة الأعلام من أهل السنة تزدهم بهم دور العلم في القاهرة ، وهناك التقى أبو حيان بجملة من العلماء الذين كانوا يحملون لواء الدفاع عن

<sup>1</sup> . الكشاف : 84/1

<sup>2</sup> . ابن حنن ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، بيروت ، دار الهدى ، ط 2 : ج 443/2

<sup>3</sup> . انظر الفصل الرابع من الباب الأول من هذا البحث .

السنة وعقيدة السلف ، ويناوون أئمة الفرق الكلامية الأخرى ، وكان في مقدمة الأئمة الذين التقى بهم ابن تيمية ، فأعجب به ومدحه ، فإزداد تعلق أبي حيان بمذهبه ، لأنه المنهج الذي صادف الرعة الظاهرية التي كانت تملأ عليه جوانحه ، فندب نفسه للدفاع عن هذا المنهج والانتصار له ، وقد تجلّى هذا بوضوح في كتابه البحر المحيط ، حيث كان لا يمر بأية تتضمن شيئاً من المسائل العقدية إلا وقف عندها ليقرر عقيدة أهل السنة والجماعة ، ويفند آراء المخالفين ، ولكن كان يفعل ذلك باختصار وإيجاز ، إنما كان يرى بأن بسط أدلة هذا العلم في مظانه من كتب أصول الدين ، ولا يحسن أن يكون في كتب التفسير ، وهذا المنهج هو الذي نبه عليه في مقدمة مصنفه ، والتزم به إلى حد كبير في مختلف جوانب تفسيره .

وقد صرح هذه المصادر في مقدمة تفسيره ، كما كان ينبه على أغلب ما اقتبس له من هذه التفسيرات ، بل ذكر أسانيد التصلة إلى بعض هذه الكتب ، كالمحرر الوجيز لابن عطية ، والكشاف للزمخشري ، وغيرهما ، وقيد نقوله بالنسخ التي وقعت له منها ، مما يدل على شدة تحريه في نقوله ، وتحفظه في نسبة الأقوال لأصحابها ، وهو صنيع يحمد عليه ، حيث أغنانا منهجه هذا عن الإطالة في سرد مصادره في مباحثه العقدية ، ومدى إفادته منها ، وبالتتبع لاقتباسات أبي حيان الأندلسي في هذا الجانب ، يتبين لنا أنه قد التزم نوعين من المصادر في تحرير مباحثه العقدية في تفسيره .

النوع الأول : وهي مصادره في بسط مذهبه السني ، وقد تمثلت بالدرجة الأولى في كتب التفسير لمشاهير أئمة أهل السنة ، ونذكر منها التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير لجمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان المشهور بابن النقيب ، وهو المصدر الأساسي بين هذه الكتب جميعاً ، وجامع البيان لابن جرير الطبري ، والتفصيل لفوائد كتاب التفصيل للجامع لعلوم التبريل لأبي العباس أحمد بن عمار المهدي المتولي بعد سنة : 430 هـ ، وزاد المسر في علم التفسير لابن الجوزي ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، وتفسير مفاتيح الغيب للفهر الرازي ، ومعالم التبريل للبهوي ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ، وتأويلات أهل السنة للماتريدي ، وغيرها من التفسيرات السنية المعروفة ، حيث كان ينص على النقل منها في أغلب المواضع التي رجع إليها ، كما كان ينقل أحياناً شيئاً

من آراء أئمة أهل السنة من غير أن يبنه على مصادره ابتداء من علماء الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم ، ولكن الظاهر أنه ناقل لأغلب هذه الآراء من هذه التفاسير ، وإنما سكت عن ذكر مصادره في تلك الآراء لشهرة نسبتها لأصحابها ، ولكونها قد تناقلتها أغلب كتب التفسير .

فكان أبو حيان يرجع لهذه المصادر جميعا ، ويتفحص الآراء التي لها تعلق بالنص القرآني ، دون أن يفغل حاسته النقدية اليقظة ، فكثيرا ما نجده ينقل عن الطبري وابن عطية والفخر الرازي وغيرهم ، ثم يكرر على تلك الآراء فيبطلها ، محكما ظاهر النص القرآني ، ومدعما رأيه بصحيح المرويات من السنة النبوية وآثار الصحابة والتابعين ، والأمثلة الآتية توضح مسلك أبي حيان في تعامله مع هذا النوع من المصادر .

النوع الثاني من مصادره العقديّة : وهي مصادره في نقل آراء الفرق الكلامية الأخرى ، وفي مقدمتها فرقة المعتزلة ، وقد كان المصدر الأول لكشاف الزمخشري ، وهو الكتاب الذي لا تكاد صفحة واحدة من البحر المحيط تخلو من النقل عنه أو الإشارة إليه ، فكان أبو حيان تارة ينقل آراء الاعتزالية التي يصرح بها في الغالب ، ثم يبنه على مسلكه في تحكيم نظرتة المذهبية في آيات القرآن الكريم ، وتارة أخرى يجمل القول في عبارة واحدة يختم بها ما نقله عن الزمخشري فيقول " وفيه دسيسة الاعتزال " وذلك في المواضع التي يحاول الزمخشري أن يمرر رؤيته المذهبية بعبارات ذكية تخفي على كثير من الناس ما تخمله من اعتقادات فاسدة .

وقد صرح أبو حيان في مقدمة تفسيره أنه كان في هذا الجانب نساquila عن غيره ، ملخصا آراء من سبقه ، وإنما كان جانب التحديد والابتكار فيما كان مبرزاً فيه ، وهو الجانب اللغوي والنحوي والبلاغي وفي ذلك يقول : ( فعكفت على تصنيف هذا الكتاب ، وانتعاب الصفو واللباب ، وأجبل الفكر فيما وضع الناس في تصانيفهم ، وأنعم النظر فيما اقترحوه من تأليفهم ، فأخص مطولها ، وأحل مشكلها ، وأقهد مطلقها ، وأفسح مغلقتها وأجمع مبددها . وأضيف إلى ذلك ما استخرجته القوة المفكرة من لطائف البيان المطلع على إعجاز القرآن ، ومن دقائق علم الإعراب للمغرب في الوجوه أي إغراب ، المقتنص في الأعمار الطويلة من لسان العرب وبيان الأدب . فكم حوى من لطيفة فكري

مستخرجها ، ومن غريبة ذهني منتجها ، تحصلت بالعكوف على علم العربية ، والنظر في التراكيب النحوية .. لم يهتد إلى إثارتها ذهن ولا أصاب بريقها مزن ..<sup>1</sup>

كما حصلت له نقول كثيرة في هذا الجانب عن كتاب " التحرير والتجويد لأقوال أئمة التفسير " وفي ذلك يقول : ( واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا على كتاب التحرير والتجويد لأقوال أئمة التفسير من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي ، عرف بابن النقيب رحمه الله تعالى ، إذ هو أكبر كتاب رأيناه صنف في علم التفسير ، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد ، إلا أنه كثير التكرير ، قليل التحرير ، مفرط الإسهاب ، وهذا الكتاب روايتي بالإجازة عن جامعه رحمه الله تعالى . )<sup>2</sup>

وهناك مصادر أخرى نرجح أن يكون أبو حيان نقل منها آراء أئمة الفرق الكلامية ، وقد سكت عنها ، واكتفى بعزو الآراء إلى أصحابها ، وربما أغنت شهرة تلك الآراء لأصحابها عن الإحالة على مصادرهما ، فكان أبو حيان ينقل تلك الآراء ثم يناقشها ، وقد اكتفى أحيانا بالتركيز على بيان وجه فسادها ، وضعف تعلقها بنص الآية المراد الاستدلال بها .

ومن المواضع التي عرض فيها آراء المذاهب الكلامية من غير عزوها إلى مصدر ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا .. " سورة البقرة : 25

حيث نقل آراء الفرق في صفة الإرادة عند الله تعالى فقال : ( وقال المتكلمون : إنما صفة تقتضي رجحان طرفي الجائز على الآخر في الإيقاع لا في الوقوع ، واحترز بهذا القيد الأخير من القدرة ، وأهل السنة يعتقدون أن الله مرید بإرادة واحدة أزلية موجودة بذاته ، والقدرية<sup>3</sup> ، والمعتزلة ، والنجارية<sup>1</sup> ، والجهمية<sup>2</sup> ، وبعض الرافضة نفوا الصفات التي أنبتها

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 3/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 11/1

<sup>3</sup> القدرة : وهم المعتزلة ، يلقون بأصحاب العدل والتوحيد ، والقدرية ، ولفوا بالقدرية لأنهم يسيرون بأفعال العبد إلى قدرته لا إلى قدرات الله تعالى ، انظر الشهرستان ، الملل والنحل : 54/1 على هامش الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم .

أهل السنة ، والبهشية<sup>3</sup> والبصريون من المعتزلة يقولون بحدوث إرادة الله تعالى لا في محل ، والكرامية<sup>4</sup> تقول بحدوثها فيه تعالى ، وأنها إرادات كثيرة ، وأكثرهم زعموا مع القول بالحدوث أنه يستحيل فيها العدم ، ومنهم من يقول بجواز عدمها ، وهذه المسألة يبحث فيها في أصول الدين .<sup>5</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. " سورة البقرة : 21

قال أبو حيان : ( وفي الاستواء هنا سبعة أقوال :

أحدها : أقبل وعمد إلى خلقها ، وقصد من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر ، وهو استعارة من قولهم استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصدا مستويا من غير أن يلوي على شيء ، قال معناه : الفراء ، واختاره الزمخشري وبين ما الذي استعير منه .  
الثاني : علا وارتفع من غير تكيف ولا تحديد قاله الربيع بن أنس ، والتقدير علا أمره وسلطانه واختاره الطبري .

الثالث : أن يكون " إلى " بمعنى " على " أي استوى على السماء ، أي تفرد بملكها ، ولم يجعلها كالأرض ملكها لخلقها ، ومن هذا المعنى قال الشاعر :

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

ومعنى هذا الاستيلاء كما قال الشاعر :

<sup>1</sup> . النجارية : وهم أتباع الحسن بن محمد النجار ، وهم زهاء عشر فرق كل فرقة منها تكثر سائرها ، ويجمعها القول بحدوث كلام الله تعالى ، ونفى صفات الله الأزلية ، وإحالة رؤيته . أبو منصور البغدادي ، أصول الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3 ، 1983م ، ص : 334

<sup>2</sup> . المهية : هم أتباع جهم بن صفوان الذي قال بالخير ، وزعم أن العباد مضطرون إلى أنواع تصرفاتهم كما يضطر الريح إلى حركتها ، ولم ينتوا للعبد كسبا ولا استطاعة . أبو منصور البغدادي ، أصول الدين : 333

<sup>3</sup> . البهشية : أصحاب الجبالي وابنه أن هاشم عبد السلام ، وهما من معزلة البصرة ، انفردا عن أصحابهما بمسائل . انظر الملل والنحل : 98/1

<sup>4</sup> . الكرامية : أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام كانوا ممن ينتون الصفات ، ولكن ينتهون فيها إلى التجسيم والنشيبه ، قال الشهرستاني : وهم طوائف ينتهي عددهم إلى اثني عشر فرقة . انظر : الملل والنحل : 145/1

<sup>5</sup> . البحر المحيط : 124/1

قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهران

الرابع : أن المعنى تحول أمره إلى السماء واستقر فيها ، والاستواء هو الاستقرار ، فيكون ذلك على حذف مضاف ، أي : ثم استوى أمره إلى السماء أي استقر ، لأن أوامرهم وقضاياه تنزل إلى الأرض من السماء ، قاله الحسن البصري .

الخامس : أن المعنى استوى بخلقه واختراعه إلى السماء ، قاله ابن كيسان ، ويؤول المعنى إلى القول الأول .

السادس : أن المعنى كمال صنعه فيها ، كما تقول استوى الأمر ، وهذا ينبو اللفظ عن الدلالة عليه .

السابع : أن الضمير في " استوى " عائد على " الدخان " وهذا بعيد جدا يبعده قوله تعالى " ثم استوى إلى السماء وهي دخان " واختلاف الضمائر وعوده على غير مذكور ، ولا يفسره سياق الكلام ، وهذه التأويلات كلها فرار عما تقرر في العقول من أن الله يستحيل أن يتصف بالانتقال المعهود في غيره تعالى ، وأن يحل فيه حادث أو يحل هو في حادث .<sup>1</sup> ونجده أحيانا ينص على أنه ناقل لمثل هذه الآراء عن كتاب " المنتخب " لأبي عبد الله محمد بن أبي الفضل الرسي ، وهو تفسير حافل بنقل آراء الفرق العقيدية والكلامية ، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي :

في تفسير قوله تعالى : " فَازْلَمْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ .. " سورة

البقرة : 35

تحدث أبو حيان عن عصمة الأنبياء عن الكبائر ، واعتمد في نقل آراء الفرق الكلامية على كتاب المنتخب فقال : ( وفي المنتخب للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل الرسي ما ملخصه : منعت الأمة وقوع الكفر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا الفضيلية مسن الخوارج ، قالوا وقد وقع منهم ذنوب والذنب عندهم كفر ، وأجاز الإمامية إظهار الكفر منهم على سبيل التقية ، وأجمعت الأمة على عصمتهم من الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ ، فلا يجوز عمدا ولا سهوا ، وأما أفعالهم فقد قالت الحشوية : يجوز وقوع الكبائر منهم على جهة العمد ، وقال أكثر المعتزلة يجوز الصفاة عمدا إلا في القول بالكذب ،

<sup>1</sup> البحر المحيط : 124/1

وقال الجبائي : يمتنعان عليهم إلا على جهة التأويل ، وقيل يمتنعان عليهم إلا على جهة السهو والخطأ ، وهم مأخوذون بذلك ، وإن كان موضوعا عن أمتهم . وقالت الراضية : يمتنع ذلك على كل جهة ، واختلف في وقت العصمة ، فقالت الراضية : من وقت مولدهم ، وقال كثير من المعتزلة : من وقت النبوة ، والمختار عندنا أنه لا يصدر عنهم ذنب حالة النبوة البتة ، لا الصغيرة ولا الكبيرة ، لأنهم لو صدر عنهم الذنب لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة لعظيم شرفهم ، وذلك محال ، وكلا يكونوا غير مقبولي الشهادة ، وكلا يجب زجرهم وإيذاؤهم ، وكلا يقتدى بهم في ذلك ، وكلا يكونوا مستحقين للعقاب ، وكلا يفعلوا ضد ما أمروا به ، ولأنهم مصطفون ، ولأن إبليس أسستهم في الإغواء . انتهى ما لخصناه من المنتخب ، والقول في الدلائل لهذه المذاهب ، وفي إبطال ما ينبغي إبطاله منها مذكور في كتب أصول الدين .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ " سورة البقرة : 47

نقل أبو حيان الأقوال الواردة في إثبات الشفاعة ونفيها في حق أصحاب الكبائر ، وهي ستة أقوال ، ثم قال : ( وقال في المنتخب : أجمعت الأمة على أن لمحمد صلى الله عليه وسلم — شفاعة في الآخرة ، واختلفوا لمن تكون ، فذهب المعتزلة إلى أنها للمستحقين للثواب ، وتأثيرها في أن تحصل زيادة من المنافع على قدر ما استحقوه ، وقيل أصحابنا تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقين ، إما بأن لا يدخلوا النار ، وإما في أن يخرجوا منها بعد دخولها ويدخلون الجنة ، واتفقوا على أنها ليست للكفار ، ثم ذكر نحوًا من ست أوراق في الاستدلال للطائفتين ، ورد بعضهم على بعض ، يوقف عليها في ذلك الكتاب .<sup>2</sup>

ونقل في مواضع قليلة من البحر المحيط عن " تعريه القرعان عن اللطاعن " للقاضي عبد الجبار ( ت : 415 هـ )<sup>3</sup> وهو أحد أركان مذهب الاعتزال في زمانه ، فكان أبو حيان

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 161/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 191/1

<sup>3</sup> . انظر البحر المحيط : 305/2 . 308/2 . 309/2 .

يكتفي في النقل عنه بقوله : وقال القاضي عبد الجبار ، من غير أن يسمى مصنفه ، وذلك لشهرته ، فينقل عنه باعتباره مصدرا من مصادر المعتزلة في تفسيرهم ، ثم يرد عليه بالأدلة الدامغة ، ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ " .. سورة البقرة : 53

حيث نقل عنه حرفيا ما ذهب إليه من حمل قتل الأنفس في الآية على المجاز ، لأن في قتل أنفسهم ما ينابي تحقيق الحكمة والمصلحة ، وإن أفعال الله تعالى منوطة بتحقيق ما هو أصلح لعباده .. ثم قال أبو حيان : ( انتهى كلامه ، وهو مبني على قاعدتهم في الاعتزال من مراعاة المصلحة ، والكلام معهم في ذلك المذكور في أصول الدين ، مع أنه يمكن هنا أن نقول بالمصلحة ، لأن الأمر بالقتل ليس إلا من باب الزواجر والروادع ، وليس ممن شرط ذلك اعتبار حال المكلف ، بل يصنع الزواجر لازدجار غيره ، وإذا فعل مثل هذا الفعل العظيم بمن عبد العجل ، اتعظ به غيره ، وانكف عن الوقوع فيما لا يكون التوبة منه إلا بالقتل .<sup>1</sup>

وبذلك يتضح البون الشاسع بين مسلكي هذين المفسرين من حيث مصادرهما في المباحث العقديّة ، ففي الوقت الذي نجد أبا حيان ينص على مصادره بتفصيل في مقدمة تفسيره ، وينبه على أغلب اقتباساته من هذه المصنفات في مظاهرها من تفسيره . وهي مصادر متنوعة ، فمنها مصادر سنية ينقل منها آراء مذهبه السني ، ومنها مصادر لأئمة الفرق الكلامية ، مما يدل على أمانته العلمية وموضوعيته ، وإنصافه لخصومه .

فإننا نجد الزمخشري قد سلك عكس ذلك ، حيث سكت عن مصادره في مقدمة تفسيره في هذا الجانب وغيره من الجوانب الأخرى ، كما أنه لم يكن أميناً في عرض آراء خصومه ، حيث لم يعتمد من مصادر خصومه ما يمكنه من الرد عليهم ، بل كان يصوغ آراءهم بأسلوبه وبعبارة مما يجعلها في غاية الضعف ، فضلا عن التشنيع عليهم ، ونسبهم بالألقاب الجارحة بسبب أقوال لا تعبر عن معتقدتهم .

<sup>1</sup> . المخط : 208/1



وبعد أن وقفنا على أهم المصادر التي اعتمدها كل من المفسرين في هذا الجانب ،  
ومسلكهما في التعامل مع هذه المصادر ، فإنه يتيسر لنا حينئذ البحث في مسلكهما في  
المباحث العقديّة ، وهذا ما سنعرض له في المبحث الثاني من هذا الفصل .

## المبحث الثاني

### مسلكهما في المباحث العقديّة

#### المطلب الأول : مسلك الزمخشري في المباحث العقديّة

صنف الزمخشري كشافه وهو متشعب بروح الاعتزال ، وما يروي عنه صاحب وفيات  
الأعيان أنه أول ما صنف كتاب الكشاف كتب استفتاح الخطبة : الخطبة الحمد لله الذي  
خلق القرءان .. فيقال إنه قيل له : متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ، ولا يرغب  
أحد فيه ، فغيره بقوله : الحمد لله الذي جعل القرءان ، و" جعل " عندهم بمعنى خلّق ،  
ورأيت في كثير من النسخ : الحمد لله الذي أنزل القرءان ، وهذا إصلاح الناس لا إصلاح  
المصنف ..<sup>1</sup>

وأيا ما كان إصلاح الناس أو إصلاح المصنف ، فإن مقدمة مصنفه ناطقة في مجموعها  
بتوجهه الاعتزالي الصارخ ، ويكفي أن نقرأ الفقرة الأولى منها مثلاً لنقف على ذلك ،  
حيث يقول :

( الحمد لله الذي أنزل القرءان كلاماً مولفاً منظماً ، ونزله بحسب المصالح منجماً ،  
وجعله بالتحميد مفتوحاً ، وبالاستعاذة محتتماً ، وأوحاه على قسمين متشابهين ومحكماً ،

<sup>1</sup> . ابن علكان ، وفيات الأعيان : 168/5

وفصله سورا وآيات ، وميز بينهن بفصول وغايات ، وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع ،  
وسمات منشئ مخترع ، فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شيء سواء  
بالحدوث عن العدم ، أنشأه كتابا ساطعا تبيانه ، قاطعا برهانه ..<sup>1</sup>  
فكل هذه الألفاظ كالإبتداء والإبتداع .. وتفرد به بالأولية وغيره بالحدوث ، وقوله  
أنشأه كتابا ساطعا .. إشارات منه واضحة للقول بخلق القرءان الكريم .

وهكذا كانت الصيغة الغالبة على تفسيره هو تحكيم النظرة المذهبية في الآيات القرآنية  
، وتوجيه النصوص لما يخدم نزعتة الكلامية ، أو على الأقل لما لا يصادم آراءه الاعتزالية ،  
مع إبطال رأي الخصوم في وجه الاستدلال بها من جهة أخرى . وكان من الطبيعي أن  
ييدي الزمخشري في سبيل تحقيق ذلك تعصبا وتعسفا واضحين ، سواء في تقرير أدلة مذهبه  
، أو في إبطال أدلة خصومه ، نظرا لما تنطوي عليه أصولهم من غلو وإفراط .  
ولقد كانت مظاهر هذا التعصب متعددة الجوانب في كشفه ، ومتفاوتة من مواضع  
إلى أخرى ، ويمكن رصد بعضها في الجوانب الآتية :

أولا : تعسفه في تأويل النصوص وتوجيهها البعيد بما يقرر صحة مذهبه .  
وليس هذا بغريب عن مثل الزمخشري ، وهو الذي كان يجاهر بمذهبه الاعتزالي ، ويتبلسى  
به كغيره من أئمة الاعتزال ، وقد صرح في مقدمة كشفه أنه ما ألفه إلا بعد إلحاح كبير  
من أتباع مذهبه ، واستشفاعهم عنده بعلماء العدل والتوحيد وعظمائهم ، وذلك بعد أن  
أحسوا بالسير نحو الانحسار والانقراض ، فلا عجب بعدئذ أن يبذل الزمخشري قصارى  
جهده لتوجيه تفسيره لخدمة أصول مذهبه ، وإقامة تفسير جامع للقرءان الكريم على ضوء  
مبادئهم وآرائهم ، ومن هنا فإننا إذا رجعنا إلى تفسير الكشاف وجدنا مولفه قد أقام هذا  
للمصنف على الأصول الخمسة التي لا يكون للمرء معتزليا إلا إذا قال لها جميعا ، وقد جزم  
في أكثر من موضع أن القرءان الكريم ما نزل إلا لتقرير هذا المعتقد ، حتى في تلك الآيات  
التي تتحدث عن الدين بمعناه الواسع ، فإنه قصر ذلك العموم على طائفته ، وقرر بأن  
مفهوم الإسلام ليس شيئا آخر غير العدل والتوحيد الذي ذهب إليه هو وسلفه .

<sup>1</sup> . مقدمة الكشاف

من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ  
 وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " سورة آل عمران : 18  
 قال الزمخشري : ( فإن قلت ما المراد بـ " أولي العلم " الذين عظمهم هذا التعظيم ،  
 حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته ؟ قلت : هم الذين يثبتون  
 وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، وهم علماء العدل والتوحيد ..  
 وقوله تعالى : " إن الدين عند الله الإسلام " جملة مستأنفة ، مؤكدة للجملة الأولى ، فإن  
 قلت : ما فائدة هذا التوكيد ؟ قلت : فائدته أن قوله " لا إله إلا هو " توحيد ، وقوله "   
 قائما بالقسط تعديل ، فإذا أردفه قوله " إن الدين عند الله الإسلام " فقد أذن أن الإسلام  
 هو العدل والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عند الله في شيء من الدين ،  
 وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه ، كإجازة الرؤية ، أو ذهب إلى الجبر الذي  
 هو محض الجور ، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام ، وهذا بين جلي كما  
 ترى .<sup>1</sup>

ومثلما جعل الزمخشري الآيات التي جاءت في مدح التوحيد وأهله خاصة في أهل  
 الاعتزال ، فإنه جعل الآيات التي وردت في ذم الشرك وأهله شاملة لمخالفيه وخصومه من  
 أهل القبلة ، وفي مقدمتهم أهل السنة .

فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " نُوِّدِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَاذْعُوهُ بِمَا وَذَرُوا  
 الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ " سورة الأعراف : 180  
 قال الزمخشري : ( " وذروا الذين يلحدون في أسمائه " واتركوا تسمية الذين يميلون عن  
 الحق والصواب فيها ، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه ..  
 ويجوز أن يراد : والله الأوصاف الحسنى ، وهي الوصف بالعدل والإحسان وانتفاء شسبه  
 الخلق ، فصفوه بما ، وذروا الذين يلحدون في أوصافه ، فيصفون بمشبهة القبائح وخلق  
 الفحشاء والمنكر ، ومما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها .. )<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 344/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 181/2

فلا يخفى ما في كلام الزمخشري من شطط في تضيق معاني الآيات القرآنية بقصرها على ما يفهمه أهل الاعتزال ، وجعل دلالاتها حكرا على ما قرره مذهبهم من آراء كلامية ، وكان الدين كله لا يخرج عن الأصول التي أقاموا عليها مذهبهم .

وليس بالأمر الهين على الزمخشري وغيره من أنصار هذا المذهب أن يقيموا تفسير القرآن الكريم كله وفق هذه الأصول ، من غير أن يتعسفوا في أكثر مسن جانب ، إذا سلمنا بأن هذه الأصول وما يبنى عليها من فروع لم تسلم في أغلبها من مجافاة الحق والصواب . ومن هنا فإن الزمخشري وهو يتجشم هذا المسلك الصعب كان لا بد أن يقع فيما وقع فيه أسلافه ، وأن يجذو جذوهم ، من أمثال الشريف المرتضى صاحب غرر الفوائد ودرر القلائد ، والرماني صاحب التفسير الكبير ، والقاضي عبد الجبار في تربيته القرآن عن المطاعن ، والحاكم الجشمي في تهذيب التفسير ، وغيرهم ، وخاصة إذا علمنا بأن هذه التفاسير كانت مصادر للزمخشري في كشفه ، سواء أخذ منها بشكل مباشر كما تذكر أغلب المصادر ، أو أنه أخذ منها بواسطة الطوسي الذي سبقه إلى تلخيص هذه التفاسير ، وجاء الزمخشري بعده ، ونقل آراءهم عنه .<sup>2</sup>

والأمثلة الآتية تبين مدى محاولة الزمخشري إقامة تفسيره الكشاف على هذه الأصول الخمسة ، وأي جهد كبير بذله من أجل ذلك :

في تقرير مبدأ التوحيد :

انطلق المعتزلة في تحديد مفهوم التوحيد من قوله تعالى " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " <sup>3</sup> ، ثم رأوا في هذه الآية وأمثالها من الآيات أنها تدل على التعريف المطلق لله تعالى ، فبالغوا في مفهومه ، وجعلوه المعيار الذي تفسر في ضوئه باقي الآيات التي ظاهرها

<sup>1</sup> . محمد بن علي بن علي الطوسي ، أبو جعفر طلبة الشيعة الإمامية ومعتقهم ، من تصانيفه : التبيان في تفسير القرآن ، تولى سنة :

460هـ ، انظر : طبقات المفسرين للداودي : 127/2

<sup>2</sup> . انظر الزمخشري لغويا ومفسرا : 320

<sup>3</sup> . سورة الشورى : 9

التجسيم ، من مثل قوله تعالى " الرحمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى " <sup>1</sup> وقوله تعالى " يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ " <sup>2</sup> .

وكان كثير من المسلمين يؤمنون بالتحريه إيماناً إجمالياً ، ويمسكون عن الكلام في الآيات الأخرى كآية الاستواء على العرش ، والوجه ، واليدين ، والجهة ، وغيرها من الصفات ، أما المعتزلة فكانوا يتعرضون لمثل هذه الآيات ، ويتأولونها تأويلاً يتفق والتحريه الذي همسكوا به .

وكانت مبالغتهم في مفهوم التحريه قد أدت بهم لا محالة إلى المبالغة في تربيته الذات الإلهية عن الشركاء ، ومن هنا جنحوا إلى نفي الصفات التي أثبتتها ظواهر الآيات القرآنية ، وقال بها الجمهور من علماء المسلمين ، وحجتهم في ذلك أن ذات الله وصفاته شيء واحد ، فالله حي عالم قادر بذاته لا بحياة وعلم وقدرة زائدة على ذاته ، لأنه لو كان عالماً بعلم زائد على ذاته ، وحياة زائدة على ذاته كما هو الحال في الإنسان ، للزم أن يكون هناك صفة وموصوف ، وحامل ومحمول ، وهذه هي حالة الأجسام ، والله مـتره عن الجسمية ، ولو قلنا إن كل صفة قائمة بنفسها لتعددت القدماء ، وبعبارة أخرى لتعددت الآلهة . <sup>3</sup>

وقد جعل المعتزلة التوحيد لب مذهبهم ، وبنوا على هذا الأصل فروعاً ، منها أن الصفات الإلهية ليست شيئاً غير الذات ، كما بنوا عليه استحالة رؤية الله سبحانه يوم القيامة ، لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة ، ويتبع ذلك القول بأن القرآن مخلوق لله تعالى ، وإلا تعدد القدماء في نظرهم . الخ <sup>4</sup>

فكان الزمخشري يحكم هذه النظرة الاعتزالية ، ويجعلها أحد المنطلقات التي ينبغي لكلام المفسر أن لا يخرج عليها ، وبذلك كان يرى في الآيات التي يوهم ظاهرها موافقة هذه الفروع أنها محكمة ، كما يرى في الآيات التي تخالف تلك الفروع أنها متشابهة ، ويجب ردها إلى المحكمات ، وهذا أكبر مظهر من مظاهر التعصب التي التفتت فيه أغلب

<sup>1</sup> . سورة طه : 4

<sup>2</sup> . سورة الفتح : 10

<sup>3</sup> انظر الملل والنحل : 52/1

<sup>4</sup> . الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، تحقيق محمد عبيد الله عبد الحميد ، ط2 ، 1985م ، ج1/216

الفرق الكلامية ، إن لم نقل كل الفرق الكلامية ، وهذا ما أشار إليه أبو حيان وهو يفسر قوله تعالى " هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات " سورة آل عمران : 7

حيث قال : ( .. وأرباب المذاهب مختلفون في المحكم والمتشابه ، فما وافق المذهب فهو عندهم محكم ، وما خالف المذهب فهو عندهم متشابه ، فقوله " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " عند المعتزلة محكم " وما تشاءون إلا أن يشاء الله متشابه ، وغيرهم بالعكس ، وصرف اللفظ من الراجع إلى المرجوح لا بد فيه من دليل منفصل ، فإن كان لفظيا فلا يتم إلا بحصول التعارض ، وليس الحمل على أحدهما أولى من العكس ، ولا قطع في الدليل اللفظي ، سواء كان نصا أو أرجح لتوقفه على أمور ظنية ، وذلك لا يجوز في المسائل الأصولية ، فإذا المصير إلى المرجوح لا يكون بواسطة الدلالة العقلية القاطعة ، وإذا علم صرفه عن ظاهره ، فلا يحتاج إلى تعيين المراد لأن ذلك يكون ترجيح مجاز على مجاز وتأويل على تأويل . )<sup>1</sup>

ومن الأمثلة على التزام الزمخشري هذا المسلك ما يأتي :  
في تفسير قوله تعالى : " إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " سورة الزخرف : 2  
حيث عرض للمعاني اللغوية التي يحتملها فعل " جعل " وقرر أن هذا الفعل إذا تعدى لمفعولين كان بمعنى صير ، وإذا تعدى لمفعول واحد كان بمعنى خلق ، ومع أن هذا الفعل في الآية قد تعدى إلى فعلين فكان بمعنى صيرناه ، إلا أنه أبي إلا أن يحمل هذا الفعل معنى " خلق " ليوافق ميلا في نفسه ، من غير أن يقدم دليلا على ذلك .

قال الزمخشري : ( " جعلناه " بمعنى صيرناه ، معدى إلى مفعولين ، أو بمعنى خلقناه ، معدى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى " وجعل الظلمات والنور ، و" لعل " مستعار لمعنى الإرادة ، لنلاحظ معناها ومعنى الترجيحي ، أي : خلقناه عربيا غير عجمي إرادة أن تعقله العرب .. )<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 382/2

<sup>2</sup> . الكتاب : 236/4

وفي تفسير قوله تعالى : " لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ "

سورة الأنعام : 104

قال الزمخشري : ( المعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه ، لأنه تعالى أن يكون مبصرا في ذاته ، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا ، كالأجسام والهيئات ، " وهو يدرك الأبصار " وهو اللطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك " وهو اللطف " يلطف عن أن تركه الأبصار " الخبير " بكل لطيف فهو يدرك الأبصار ، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف . )<sup>1</sup>  
والزمخشري اللغوي الأديب لا يغيب عنه معنى الإدراك واختلافه عن معنى الإبصار ، ومع هذا فإنه يتغاضى عن هذا الفارق اللغوي ، ليجعل الآية نصا في القول بعدم جواز رؤية الله يوم القيامة .

حتى إذا جاء إلى الآية الأخرى التي تصادم معتقده وهي قوله تعالى : " وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاطِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ " سورة القيامة : 21 — 22

فإنه يتكلف في صرف معنى " النظر " من الإبصار والرؤية إلى معنى الإنتظار فيقول : ( " إلى ربها ناظرة " تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقدم المفعول ، ألا ترى إلى قوله " إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ " ، إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ " .. كيف دل فيها التقدم على معنى الاختصاص ، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ، ولا تدخل تحت العدد ، في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم ، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم ، لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا إليه محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه فسول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعمًا

والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربه . )<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . الكتاب : 54/2

<sup>2</sup> . الكتاب : 662/4

والزخمشري الذي يجعل رؤية الله مستحيلة يوم القيامة ، ويرى تبعاً لذلك أن كل نص قرعاني يوهم ظاهره إمكانية الرؤية يجب تأويله ، هو الذي يروي حديثاً نبوياً في فضل قراءة سورة الأنبياء — والله أعلم بصحته — يفيد أن الله تعالى سيصافح كل عبد قرأ هذه السورة ، دون أن يتعقبه بشيء أو يتأوله مكتفياً بقوله : ( عن رسول الله — ص — من قرأ اقترب للناس حسابهم .. " حاسبه الله حساباً يسيراً ، وصافحه ، وسلم عليه كل نسي ذكر اسمه في القرعان . )<sup>1</sup> والحديث أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب ، فلا ندري كيف الزخمشري يوفق بين قوله بإمكانية مصافحة الله عباده وبين عدم إمكانية رؤيتهم له ؟

في إثبات مبدأ العدل :

ومقتضى العدل عند المعتزلة أن الله تعالى لا يجب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدر التي جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه لا يأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كره ، وأنه ولي كل حسنة أمر بها ، وبريء من كل سيئة نهى عنها ، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضطراراً من معصيته ، ولكنه لا يفعل ، إذ كان ذلك رفعا للمحنة وإزالة للبلوى<sup>2</sup> .

فقد وعى الزخمشري مفهوم العدل على هذا النحو ، وذهب يفسر الآيات على هذا الأصل ، ويلتمس له من الأدلة النقلية ما يدعم أدلتهم العقلية .

فمن ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى : " قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً " فَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْأَغْوِيَّتُمْ أَجْمَعِينَ " سورة الحجر : 39

قال الزخمشري : ( ومعنى إغوائه إياه تسيبه لغيره — وفيما نقله أبو حيان نسبه لغيره — بأن أمره بالسجود لأدم عليه السلام ، فأفضى ذلك إلى غيه ، وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله ، ولكن إبليس اختار الإساءة والاستكبار فهلك ، والله تعالى بريء من غيه ومن إرادته والرضا به . )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 140/3

<sup>2</sup> . انظر الملل والنحل : 56/1

<sup>3</sup> . الكشاف : 578/2



وفي تفسير قوله تعالى : " وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ "

سورة القصص : 41

قال الزمخشري : ( و " جعلناهم " دعوناهم أمة دعاة إلى النار ، وقلنا لهم أمة دعاة إلى النار ، وهو من قولك جعله بخيلا وفاسقا ، إذا دعاه فقال : إنه بخيل وفاسق ، ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله جعله بخيلا وفاسقا ، ومنه قوله عز وجل<sup>1</sup> " وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثا .. " )<sup>2</sup>

وقد نبه أبو حيان على تذبذب الزمخشري في تفسير فعل " جعل " فتارة يفسره بمعنى " خلق " وهو الذي عليه المعتزلة ، وهنا تراجع عن هذا المعنى ، لأنه لا يتفق مع ما ذهب إليه في معنى الآية ، ولذا قال أبو حيان : ( وإنما فسر " جعلناهم " بمعنى دعوناهم ، لا بمعنى " صيرناهم " جريا على مذهب الاعتزال ، لأن في تصييرهم أمة خلق ذلك لهم ، وعلى مذهب المعتزلة لا يجوزون ذلك من الله ، ولا ينسبونه إليه ، قال : ويجوز خلقناهم حتى كانوا أمة الكفر ، ومعنى الكفر منع الألفاظ ، وإنما يمنعها من علم أنه لا ينفع فيه ، وهو مصمم على الكفر الذي لا تغني عنه الآيات والنذر . انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال . )<sup>3</sup>

ويصرح الزمخشري بأن مفهوم العدل هو ما استقر في العقول بأن الله تعالى لا يجوز عليه الظلم ، ومن ثم فإن أفعاله كلها صلاح وحكمة وحق ، ولا يجوز أن ننسب إليه عكس ذلك ، وقد عبر عن هذا في تفسير قوله تعالى : " لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ " سورة الأنبياء : 23

قال الزمخشري : ( إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تمهيا وإجلالا ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب محالفهم ورازقهم أولى بأن لا

<sup>1</sup> . الفرق : 18

<sup>2</sup> . الكتاب : 415.416/3

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 144/7

يسأل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح .<sup>1</sup>

وللمعتزلة مفاهيم ومصطلحات مذهبية حكموها في الآيات التي تصادم مذهبهم ، فكانوا يحملون كل لفظة أو عبارة إذا لم توافق أصولهم على تلك المفاهيم والمصطلحات ، فاصطلحوا على تسمية فعل الهداية باللطف ، وفعل الضلال بالخذلان والتخليه وغيرها ، فكان الزمخشري يلوذ بهذه المفاهيم للخروج من كل تناقض أو مخالفة لنصوص القرآن الكريم .

ففي تفسير قوله تعالى : " فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُسْرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ .. " سورة الأنعام : 126  
قال الزمخشري : ( " فمن يرد الله أن يهديه " أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف " يشرح صدره للإسلام " يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ، ويجب الدخول فيه ، " ومن يرد أن يضلّه " أن يخذله ويخليه وشأنه ، وهو الذي لا لطف له ، " يجعل صدره ضيقاً حرجاً " يمنعه الطافه حتى يقسو قلبه ، وينبو عن قبول الحق ، وينسد فلا يدخله الإيمان . )<sup>2</sup>

وهكذا نجد في تفسير قوله تعالى " مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " سورة الأنعام : 40

يعود فيفسرها بنفس المصطلحات والمفاهيم السابقة فيقول : ( ثم قال إيدانا بأنهم ممن أهل الطبع : من يشأ الله يضلله ، أي يخذله ويخليه وضلاله لم يلطف به ، لأنه ليس من أهل اللطف ، " ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم " أي يلطف به لأن اللطف يجسدي عليه . )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . الكتاب : 110/3

<sup>2</sup> . الكتاب : 64/2

<sup>3</sup> . الكتاب : 22/2

## في إثبات الوعد والوعيد :

وهو ثالث أصولهم ، ومعناه : ( أن الله سبحانه صادق الوعد والوعيد يجزي بمنقال الذرة نحيرا ، ويجزي بمنقال الذرة شرا ، من صيره إلى العذاب فهو فيه أبدا بحالد محلد كخلود من صيره إلى الثواب الذي لا ينفذ . )<sup>1</sup>

ثم ربطوا الثواب والعقاب بالأعمال ربطا محتوما ، وغلا بعضهم فقال : يجب على الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة ، فصاحب الكبيرة إذا مات من غير توبة لا يجوز أن يعفو عنه ولو لم يعاقبه لزم الخلف في وعده ، وهو القائل في كتابه " وعد الله لا يخلف الله وعده " وقد التزم الزمخشري كل ذلك وطبقه في تفسيره ، وغالى في تطبيقه .

من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ " سورة البقرة : 47

قال الزمخشري : ( .. ومعنى التنكير أن نفسا من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئا من الأشياء ، وهو الإقناط الكلبي القطاع للمطامع ، وكذلك قوله تعالى " ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل " أي فدية إنما معادلة للمفدى .. فإن قلت : هل فيه دليل على أن الشفاعاة لا تقبل للعصاة ؟ قلت : نعم ، لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقا أدخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعاة شفيح ، فعلم أنها لا تقبل للعصاة ، فإن قلت : الضمير في " ولا يقبل منها " إلى أي النفسين يرجع ؟ قلت : إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها ، ومعنى لا يقبل منها شفاعاة : إن جاءت بشفاعاة شفيح لم يقبل منها ، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى ، على أنها إن شفعت لها لم تقبل شفاعتها كما لا تجزي عنها شيئا )<sup>2</sup>

والذي يظهر من سياق الآية ، أنه لا وجه لتعلق الزمخشري بها إلا من باب تحكيم رؤيته المذهبية تحكيما لا يخلو من الشطط والتعسف ، لأن الآية إنما وردت في معرض خطاب أهل الكتاب الذين امتنعوا عن الإيمان بالرسالة الخاتمة معولين على شفاعاة أنبيائهم ، ولا شك أنهم بهذا الموقف كانوا كافرين ، ولن تغني عنهم شفاعاة الشافعين ، ولكن الزمخشري

<sup>1</sup> . القاضي عبد الجبار ، المحط بالتكليف : 168

<sup>2</sup> . الكشاف : 137/1

صرفها إلى عصاة المؤمنين . ونحسب أن الزمخشري لا يغيب عنه هذا المعنى ، ولكن تعصبه لمذهبه منعه أن يحمل الآية على هذا الحمل ، ولذلك رد عليه ابن المنير بقوله : ( أما من جحد الشفاعة فهو جدير بأن لا ينالها ، وأما من آمن بها وصدقها ، وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدتهم أنها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما ادخرت لهم ، وليس في الآية دليل لمنكرها ، لأن قوله " يوما " أخرجه منكرا ، ولا شك أن في القيامة مواطن .. وأدلة ثبوت الشفاعة لا تحصى كثرة . )<sup>1</sup>

ولقد درج الزمخشري على إسقاط الآيات الواردة في الكفار على عصاة المؤمنين ، وأنزلهم منزلة واحدة في تفسيره لآيات الوعيد ، وذهب إلى تسفيه رأي من فرق بين هذين الصنفين ، ورماهم باتباع الهوى والتعاصي عن الحق ، والإفتراء في الروايات عن ابن عباس وغيره ، وإذا كان معنى قولهم بالمرحلة بين المرتلين من الناحية النظرية أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ولكنه بين بين ، فإنه من الناحية التطبيقية قد أحقوا مرتكب الكبيرة بصنف الكفار ، حيث أحقوا كل وعيد ورد في الكافرين بأصحاب الكبائر ، ولا أدل على ذلك مما فعله الزمخشري في تفسير قوله تعالى : " لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ . وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ " **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** " سورة آل عمران : 128، 129

حيث نقل الزمخشري سبب نزول الآيتين — وهو مذكور في الصحيحين — وهو ما روي أن عتبة بن أبي وقاص شجحه يوم أحد وكسر رباعيته ، فجعل يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم ، وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى رهم ، فقلت<sup>2</sup> ، ومع ذلك نجد الزمخشري يتجاوز كل هذا الذي رواه ليحفل الآية شاملة لبيان حال عصاة المؤمنين ، وربما قيل أن العبرة بعموم المعنى وليس بخصوص السبب ، فنقول نعم ، ولكن عموم المعنى هنا بمعنى عموم الكافرين ، وليس كافرا دون كافر ، أما أن يجعل للمسلم العاصي والكافر في رتبة واحدة ، وأن خطاب القرعان لهم في الوعد والوعيد واحد ، فهذا لم يقل به أحد من علماء المسلمين ،

<sup>1</sup> . الكشاف : 136/1 . هامش : 2 ( الاتصال من الكشاف )

<sup>2</sup> . المطع الصحيح . البخاري : كتاب التضرع ، باب : " ليس لك من الأمر شيء . "

والله تعالى يقول " أفجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون " <sup>1</sup> إلا أن الزمخشري  
أبى إلا أن يسلك عصاة المؤمنين تحت هذا الوعيد ، ومحل في حمل الآية على مذهبه ،  
كما تهم بكل قسوة على من خالفه في ما ذهب إليه فقال : ( وعن الحسن : " يغفر لمن  
يشاء " بالتوبة ، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين " ويعذب من يشاء " ولا يشاء أن يعذب  
إلا المستوحين للعذاب . وعن عطاء : يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالماً . وإتباعه  
قوله " أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون " تفسير بين لمن يشاء ، وأنهم المتوب عليهم  
، أو الظالمون ، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون ويتعامون عن آيات الله فيخبطون  
خبط عشواء ، ويطيّبون أنفسهم بما يفترون عن ابن عباس من قولهم : يهب الذنب الكبير  
لمن يشاء ، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير . ) <sup>2</sup>

وواضح من تفسير الزمخشري لهاتين الآيتين أنه يقف في صف غلاة المعتزلة الذين أوجبوا  
على الله إثابة المؤمن الطائع ومعاقبة العاصي غير التائب ، وبذلك صار لا معنى لذكر  
مشيئته تعالى في هذه الآية وغيرها من الآيات ، وهو بين البطلان . ولذلك رد عليه أبو  
حيان دعواه هذه <sup>3</sup> مستبعداً صحة ما نسبته إلى الحسن البصري . فقد نبه أولاً على خلط  
الزمخشري في كلامه بين حكم الكافرين قبل التوبة وحكم عصاة المؤمنين ، ملاحظاً أن  
هذا الخلط لا يخفى أمره على الزمخشري ، ولكن تعصبه حمله على ذلك ، فحق عليه ما  
وصف به خصومه من أهل السنة .

كما رد عليه ابن المنير بنفس المعنى فقال : ( هذه الآية واردة في الكفار ، ومعتقد أهل  
السنة أن المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر والرجوع إلى الإيمان ، وليسوا محل  
خلاف بين الطائفتين ، وعندهم أن المؤمن التائب من كفره هو المعنى في قوله " يغفر لمن  
يشاء " كما قال الزمخشري ، وأما تسلقه من ذلك إلى تعميم هذا الحكم وتعليقه إلى  
الموحدين ، فمن التعامي والتصام عن الحقيقة ، وإلا فهو أحق من ذلك ، وأما نسبته إلى  
أهل السنة التعامي والتصام والهوى والبدعة والافتراء فالله حسيه في ذلك . ) <sup>4</sup>

<sup>1</sup> . سورة القلم : 36.35

<sup>2</sup> . الكشاف : 1/414

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 3/54

<sup>4</sup> . الكشاف : 1/413 . هامش : 2 ( الانتصاف )

## في إثبات المعللة بين المرئيتين :

فعند أكثر المعتزلة أن الإيمان ليس هو التصديق والاعتقاد القلبي وحده ، بل هو كذلك أداء الواجبات ، فمن صدق بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله من غير أن يؤدي الأعمال الواجبة لم يكن مؤمنا ، فالإيمان عندهم معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ، وأن كل عمل فرضا كان أو نفلا إيمان ، وكلما ازداد الإنسان عملا صالحا ازداد إيمانا ، وكلما عصى نقص إيمانه ، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة منها قوله تعالى " وما كان الله ليضيع إيمانكم " أي صلاتكم إلى بيت المقدس ، وقالوا تبعا لذلك إن مرتكب الكبيرة إذا مات من غير توبة فهو مخلد في النار ، لا تشمله شفاعة ، ولا يمسه عفو من الله تعالى .<sup>1</sup>

وقد وعى الزمخشري هذه المفاهيم ، وأقام تفسير كثير من الآيات على أساسها . من ذلك مثلا ما أورده في تفسير قوله تعالى : " بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " البقرة : 80 حيث قال الزمخشري : ( " من كسب سيئة " من السيئات ، يعني كبيرة من الكبائر .. )<sup>2</sup>

وقد فسرها بذلك لتطابق الآية مذهب المعتزلة ، وهو أن فاعل الكبيرة مخلد في النار ، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد فيها إلا الكافر ، وفسروا الخطيئة بالشرك ، وفي الخازن : (قال ابن عباس : هي الشرك يموت عليه صاحبه . )<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ " سورة النجم : 31

قال الزمخشري : ( " كبائر الإثم " أي الكبائر من الإثم ، لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة .. " إن ربك واسع المغفرة " حيث يكفر الصغائر باحتساب الكبائر ، والكبائر بالتوبة . )<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . انظر في ذلك الأشعري ، مقالات الإسلاميين : 303.304/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 158/1

<sup>3</sup> . الخازن ، لب التأويل في معاني التنزيل ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ج 1/66

<sup>4</sup> . الكشاف : 425/4

## في إثبات وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ولا شك أن نصوص الشريعة داعية بمجموعها إلى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن المعتزلة لا يختصون وحدهم بهذا القدر من الفهم لهذه الفريضة ، وإنما يختصون بفهم زائد على ذلك وهو قولهم ( بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان واليد والسيف ، كيف قدروا على ذلك . )<sup>1</sup>

ولذلك وقف الزمخشري عند الآيات التي تلوح منها هذه المعاني ، وحاول أن يقرر من خلالها رؤيته المذهبية ، ومن الأمثلة على ذلك :

في تفسيره له تعالى : " وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " سورة آل عمران : 102

أفاض الزمخشري في تفسير هذه الآية ، واستطرد إلى بيان أحكام تتعلق بشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما لا يدخل تحت ألفاظ الآية ، ناقلا في ذلك أقوال أئمة المعتزلة كأبي علي الجبائي وأبي هاشم ، كما تحدث عن درجاته وأثره في حفظ كيان الأمة ودينها<sup>2</sup> مما يدل على انضواء الزمخشري تحت هذا اللواء الذي رفعه المعتزلة ، وناوخوا بسه خصومهم سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم .

وهكذا فإن الزمخشري الذي لم يحاول أن يخفي نيته في إقامة تفسيره على هذه الأصول ، قد جاهر بتعسفه في توجيه كثير من الآيات تلك الوجهة ، وقد تجلت مظاهر هذا التعسف فيما يأتي :

— حيث نجد أحيانا يحمل ألفاظ القرآن الكريم من المعاني المرجوحة والبعيدة التي لا يسلم له بصحتها إلا أنصاره وأتباعه ، وهو في ذلك إنما يحكم بعض القواعد المذهبية في تعاملهم مع ما يرونه متشابهة من القرآن الكريم .

فمن ذلك تفسيره لقوله تعالى : " أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَكْفُرُ لَهُمْ أَرَأَيْتَ "

سورة مريم : 84

<sup>1</sup> . مقالات الإسلاميين : 311/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 397/1

إذ نجد الزمخشري يقف عند لفظ " أرسلنا " في الآية ، ويحمله معني لا يحتمله في تركيب هذه الجملة القرآنية ، ولكنه لما كان يحمل معنى يخالف مذهبه مخالفة صريحة ، فإنه لم يتردد في تحكيم تلك المصطلحات المذهبية بتكلف واضح .

ولذلك نبه أبو حيان على تعسفه بأسلوب حكيم ضمنه معنى السخرية من تعصب الزمخشري فقال : ( " أرسلنا " معناه سلطنا ، أو لم نحل بينهم وبينهم ، مثل قوله " نقيض له شيطاننا " ، وتعديته بـ " على " دليل على أنه تسليط ، و " توزهم " تحركهم إلى الكفر . إلا أن الزمخشري — وهو النحوي الأديب — يتغاضى عن ذلك فيقول : تغريبهم على المعاصي وتمييحهم لها بالوساوس والتسويلات ، والمعنى خلينا بينهم وبينهم ، ولم نمنعهم ، ولو شاء لمنعهم ، والمراد تعجيب الرسول — ص — بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة من الكفار وأقاربهم . )<sup>1</sup>

وكثيرا ما يحاول الزمخشري أن يحتكم للمعاني اللغوية في مواضع الخلاف ، ويتذرع بها لنصرة معتقده ، علما بأن دلالة اللغة ظنية ولا يستفاد منها وحدها أحكام العقيدة ، ولذلك نجد أبا حيان يحاول أن يرده إلى الجادة فيقول في تفسير قوله تعالى : " .. وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " سورة البقرة : 24

( وإن كون نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار سرمديا لا ينقطع ، ليس مستفادا من لفظ " الخلود " بل من آيات من القرآن وأحاديث صحاح من السنة ، قال تعالى : " خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا " وقال تعالى : " وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ " ، وفي الحديث يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ، وفي حديث أخرجه مسلم في وصف أهل الجنة : وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا .. " إلى غير ذلك من الآي والأحاديث . )<sup>2</sup>

— كما اتخذ من القول بالمجاز مجالا رحبا لتوجيه آيات القرآن التي لا يرضيه ظاهرهما ، وبذلك أظهر تعسفا واضحا في صرف الألفاظ والعبارات من معناها الحقيقي إلى المعاني المجازية من غير قيام قرينة موجبة لذلك ، وإنما القرينة العامة هي القاعدة المذهبية القائمة

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 216/6

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 118/1



على حمل التشابهات على المحكمات ، و المحكم عندهم ما كان ظاهره يوافق آراءهم العقدية ، والتشابه ما كان ظاهره بصادم أصولهم وقواعدهم التي بنوا عليها فروعها .  
فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " سورة البقرة : 6

قال الزمخشري : ( فإن قلت ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار ؟ قلت : لا ختم ولا تغشية على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز . )<sup>1</sup>

وبعد أن حمل الختم على المجاز ممثيا مع قاعدة العدل الإلهي التي تقوم على نفي تأسير قدرة الله تعالى على المكلفين ، وممكنهم من الفعل والترك ، قال : ( فإن قلت : فلم أسند الختم إلى الله تعالى ، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق ، والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح ، والله يتعالى عن فعل القبيح علوا كبيرا ، لعلمه بقبحه ، وعلمه بغناه عنه ، وقد نص على تزييه ذاته بقوله " وما أنا بظلام للعبيد " ، " وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين " ، " إن الله لا يأمر بالفحشاء " ، ونظائر ذلك مما نطق به التزويل ؟ قلت : القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها ، وأما إسناد الختم إلى الله تعالى فلينبه على أن هذه الصفة في فرط ممكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقى غير العرضي ، ألا ترى إلى قولهم :  
فلان يجبول على كذا ومقطور عليه ، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه . )<sup>2</sup>

كما نجد يقف عند قوله تعالى : " إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " سورة النحل : 40

فينحو منحى القول بالمجاز ، لأنه ينفي صفة الكلام والقول على الله تعالى ، وبذلك يستقيم معنى الآية مع معتقده ، فقال : ( وهذا مثل لأن مرادا لا يمتنع عليه ، وإن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف ، كوجود المأمور به عند أمر الأمر للمطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممثل ، ولا قول ثم ، والمعنى أن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة ، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات ؟ )<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 48/1

<sup>2</sup> الكشاف : 49/1

<sup>3</sup> . الكشاف : 606/2 ، وانظر : 31/4

وقد تصدى ابن المنير للزمخشري في هذا الموضوع وغيره من المواضع المشابهة ، وأنكر عليه إطلاق لفظ التحويل على كلام الله تعالى ، ومال إلى حمل الكلام على الحقيقة لا المجاز فقال : ( إطلاق التمثيل أحسن ، وقد ورد الشرع به ، وأما إطلاق التحويل على كلام الله تعالى فمردود ، ولم يرد به سمع ، وقد كثر إنكارها عليه هذه اللفظة . ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف العقول يجب إقراره على ما هو عليه ، فلذلك أقصره الاكثرون على ظاهره وحقيقته ، ولم يجعلوه مثالا . )<sup>1</sup>

وقد تكرر هذا منه في كثير من المواضع منها :

في تفسير قوله تعالى : " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " الأحزاب : 72

قال الزمخشري : ( وهو يريد بالأمانة الطاعة ، فعظم أمرها وفخم من شأنها ، وفيه

وجهان ، أحدهما أن هذه الأجرام العظام من السماوات والأرض والجبال قد انقادت لأمر

الله عز وعلا إنقياد مثلها — وهو ما يتأتى من الجمادات ، وأطاعت له الطاعة التي تصح

منها وتليق بها ، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجادا وتكويناً وتسوية على هيات

مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال " أتينا طائعين " ... وعرضها على الجمادات وإياؤها

وإشفاقها مجاز . وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ، تريد : أنه

لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها ، لأن الأمانة كأنها راكبة

للمؤمن عليها وهو حاملها.. ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب ، وما جاء

القرآن إلا على طرقهم ، وأساليبهم من ذلك قولهم : لو قيل للشحم أين تذهب ؟ لقال :

أسوي العوج ، وكم وكم لهم من أمثال على السن البهائم والجمادات ، وتصور مقولة

الشحم محال ، ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه ، كما أن العجف مما

يقبح حسنه ، فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع ، وهي به أنس وله

أقبل ، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل حملها والوفاء بها .. مثلت حلال

<sup>1</sup> . الانتصاف من الكشاف ، على هامش الكشاف 176/2 ، الهامش : 1

التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السماوات والأرض  
والجبال لأبين أن يحملنها وأشققن منها . . .<sup>1</sup>

— كما يدخل في مظاهر تعصبه لمذهبه وتعسفه ما يجده من استطراد في الكشف في مثل  
هذه الآيات إلى ذكر أحكام عقديّة وآراء كلامية لا تعلق لها بالآية ، ولا يمكن استنباطها  
من النص القرآني الذي هو بصدد تفسيره إلا بتكلف واضح .

فمن ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى : " الذين يؤمنون بالغيب .. " سورة البقرة : 2  
قال الزمخشري : ( فإن قلت ما الإيمان الصحيح ؟ قلت : أن يعتقد الحق وأن يعرب عنه  
بلسانه ، ويصدقه بعمله ، فمن أخل بالاعتقاد — وإن شهد وعمل — فهو منافق ، ومن  
أخل بالشهادة فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق . )<sup>2</sup>

أورد هذا الكلام الذي فيه حق وباطل ، من غير أن يبين صلته بالآية ، ودون أن يدلل  
عليه من كتاب أو سنة صحيحة ، كما أن عبارة " الذين يؤمنون بالغيب " مجملة لم  
تعرض لذكر أركان الإيمان ولا نواقضه ، مما يكشف عن انجذابه القوي إلى آرائه المذهبية  
وتأثره بها في كل ما كتبه ، ولم يترك ابن النوير مثل هذه التعسف يمر دون أن ينبه عليه  
ويبين بطلانه ، فرد عليه ردا قويا مسهبا مقررا ضعف مذهبه ، وصحة معتقد أهل  
السنة .<sup>3</sup>

— وإذا كان الزمخشري قد أبدى تحيزه لمذهبه في تفسير كثير من الآيات ، وجاهر بذلك  
في عبارات صريحة ، فإنه سلك غير هذا المسلك في مواطن أخرى من تفسيره ، حيث  
عمل على تمرير فكره الاعتزالي من خلال عبارات لطيفة تحمل في طياتها انتصاره لمذهبه ،  
معتمدا على التلميح دون التصريح ، وقد صاغ هذه العبارات بأسلوب في منتهى الذكاء ،  
ولا يتنبه لما تحمله من توجه ملهي إلا من كان ضليعا في هذا الجانب .  
فمن ذلك مثلا ما أورده في تفسير قوله تعالى : " أقمن هو قائم على كل نفس بما  
كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم .. " سورة الرعد : 34

<sup>1</sup> . الكشاف : 565/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 39/1

<sup>3</sup> . الكشاف : هامش الصفحة : 39

قال الزمخشري : ( وهذا الاحتجاج وأساليبه المعجبية التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق : أنه ليس من كلام بشر لمن عرف وأنصف من نفسه ، فتبارك الله أحسن الخالقين . )<sup>1</sup>

فقول الزمخشري متعجبا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، تقرير منه بأسلوب غير مباشر بأن القرآن الكريم مخلوق لله تعالى . وهو مذهب المعتزلة . ولذلك نبه ابن المنير على هذه العبارة الذكية من الزمخشري وما تحمله من تعصب خفي لمذهبه فقال : هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلا ، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن فتنبه لها ، وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ، ويستحسنه وهو غافل عما تحته ، لولا التنبيه والإيقاظ ، والله اعلم . )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَقَالُوا لَوْلُو دِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. " سورة فصلت : 20

نجد الزمخشري يتسلل بترعته المذهبية إلى معنى الآية ليجعل من نطق جوارح ابن آدم يوم القيامة تفسيرا للكيفية التي كلم الله بها موسى تكليما ، وإن كان لم يصرح بذلك ، حيث سوى بين نطق الجوارح بإذن الله تعالى وبين تكليم الله موسى عليه السلام ، وهو أنه خلق في الشجرة كلاما خاطب به موسى عليه السلام .

قال الزمخشري : ( فإن قلت : كيف تشهد عليهم أبصارهم ، وكيف تنطق ؟ قلت : الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلاما . )<sup>3</sup>

وقد وصف أبو حيان عمل الزمخشري في هذا المقام بقوله : ( وهذا الرجل مولع بمذهبه الاعتزالي ، يدخله في كل ما يقدر أن يدخله ، وإنما أشار بقوله كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلاما .. إلى أن الله تعالى لم يكلم موسى حقيقة ، وإنما الشجرة هي التي سمع منها الكلام ، بأن يخلق الله فيها كلاما خاطبه به عن الله تعالى . )<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . الكشاف : 532/2

<sup>2</sup> ، انظر الانتصاف من الكشاف ، بالهامش من الصفحة نفسها .

<sup>3</sup> . الكشاف : 195/4

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 493/7

كما نجد أحيانا يفسر الآيات القرآنية بالفاظ معدودة ، ولا يذكر فيها خلافا ، وإنما يردها على مفاهيم المعتزلة بعبارات ذكية لا يتنبه لرائحة الاعتزال فيها إلا الخاصة من أهل العلم ، ولذلك قال بعضهم استخرجت اعتزالات الكشاف بالمناقش ، وكان أبو حيان يصف عمل الزمخشري هذا في كثير من المواضع في البحر المحيط بقوله : فيه دسيسة الاعتزال ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

في تفسير قوله تعالى : " وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ .. " سورة المائدة : 20

نجد الزمخشري يقول : ( " فلم يعذبكم بذنوبكم " فإن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه فلم تذبون وتعذبون بذنوبكم ، فتمسخون وتمسكم النار أياما معدودات على زعمكم ، ولو كنتم أبناء الله لكنتم من جنس الأب ، غير فاعلين للقبائح ، ولا مستوجبين للعقاب ، ولو كنتم أحباؤه لما عصيتهم وما عاقبكم " بل أنتم بشر " من جملة من خلق من البشر ، " يغفر لمن يشاء " وهم أهل الطاعة ، " ويعذب من يشاء " وهم العصاة . )<sup>1</sup>

وقد علق أبو حيان على كلام الزمخشري هذا بقوله : ( وخرج الزمخشري التعديسين الدنيوي والأخروي في كلامه ، وأشرب تفسير الآية بشيء من مذهبه الاعتزالي ، وحرف التركيب القرآني كعادته . )<sup>2</sup>

وقد بلغ التعصب من الزمخشري مبلغا عظيما عندما حكم نظريته المذهبية في بعض الآيات ، ولو كلفه ذلك المساس بأصحاب العصمة من عباد الله تعالى ، ومنهم نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم .

ففي تفسير قوله تعالى : " إِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " سورة التوبة : 81

<sup>1</sup> . الكشاف : 618/1

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 451/3

قال الزمخشري : ( فإن قلت : كيف يخفي على رسول الله - ص - وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام ومثيالاته ، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار ، كيف وقد تلاه بقوله " ذلك بأنهم كفروا .. " فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال : قد رخص لي ربي فسايزيد على السبعين ، قلت لم يخف عليه ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهارا لغاية رحمته ورافته على من بعث إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام ط ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، وفي إظهار النبي - ص - الرأفة والرحمة لطف لأمتيه ، وهم لهم إلى ترحم بعضهم على بعض . )<sup>1</sup>

فانظر كيف حمل كلامه - ص - على التخييل والمجاز ، وكان النسبي - ص - لم يقصد طلب حصول المغفرة لهم على حقيقته ، مما جعل أبا حيان ينكر عليه هذا التأويل الذي يجعل من المساس بمقام نبينا - ص - ما ينبغي تزيهه عنه فقال : ( وفي هذا السؤال والجواب غض من منصب النبوة ، وسوء أدب على الأنبياء ، ونسبة إليهم ما لا يليق بهم ، وإذا كان - ص - يقول لم يكن لنبى خائنة الأعين - أو كما قال - وهي الإشارة ، فكيف يكون له النطق بشيء على سبيل التخييل ، حاشا منصب الأنبياء عن ذلك ، ولكن هذا الرجل مسرح الألفاظ في حق الأنبياء بما لا يليق بحالهم ، ولقد تكلم عند تفسير قوله تعالى " عفا الله عنك لم أذنت لهم .. " <sup>2</sup> بكلام في حق الرسول نزهت كتابي هذا أن أنقله فيه ، والله بعصمنا من الزلل في القول والعمل . )<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ " سورة ص : 40

قال الزمخشري : ( والعذاب الألم ، وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب ، وقيل الضر في البدن ، والعذاب في ذهاب الأهل والمال . فإن قلت : لم نسبه إلى الشيطان ، ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ليقضي من أتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة

<sup>1</sup> . الكشاف : 295/2

<sup>2</sup> . الكشاف : 274/2

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 78/5

فحسب ؟ قلت : لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسه الله به من النصب والعذاب ، نسبه إليه ، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه ، مع أنه فاعله ولم يقدر عليه إلا هو ، وقيل أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه ممن تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو في التوفيق بدفعه وردة بالصبر الجميل .. وذكر في سبب بلائه أن رجلا استغاثه على ظالم فلم يغنه ، وقيل كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه ، وقيل أعجب بكثرة ماله .<sup>1</sup>

وهذا الذي ذكره الزمخشري كله في سبب بلائه لا يستقيم في حق الصالحين من عباد الله تعالى فضلا عن نبي قال الله تعالى فيه " إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ " .<sup>2</sup> ولذلك رد عليه أبو حيان بقوله : ( ولا يناسب مناصب الأنبياء ما ذكره الزمخشري من أن أيوب كانت منه طاعة للشيطان فيما وسوس ، وإن ذلك كان سببا لما مسه الله به من النص والعذاب ، ولا أن رجلا استغاثه على ظالم فلم يغنه ، ولا أنه داهن كلفرا ، ولا أنه أعجب بكثرة ماله ، وكذلك ما رووا أن الشيطان سلطه الله عليه حتى أذهب أهله وماله لا يمكن أن يصح ، ولا قدرة له على البشر إلا بإلقاء الوسوس الفاسدة لغير المعصوم ، والذي نقوله أن الله تعالى ابتلى أيوب عليه السلام في جسده وأهله وماله على ما روي في الأخبار . )<sup>3</sup>

وفي الوقت الذي نجده ينسب للأنبياء ما هم منه برآء ، فإننا نجد من جهة أخرى يرى الكافرين مما قرره القرءان في حقهم ، لا شيء إلا ليقرر قاعدة في مذهبه وهي قاعدة التحسين والتقيح العقليين ، ومن ذلك مثلا ما ذهب إليه في تفسير قوله تعالى : " قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " سورة النمل : 51

<sup>1</sup> . الكشاف : 97/4

<sup>2</sup> . سورة ص : 43

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 400/7

قال الزمخشري : ( فإن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فسألتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟ قلت كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحا وبيتوا أهله ، فجمعوا بين البيتين ثم قالوا " ما شهدنا مهلك أهله ، فذكروا أحدهما كانوا صادقين ، لأنهم فعلوا البيتين جميعا لا أحدهما ، وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ، ولا يخطر ببالهم أنهم قصدوا قتل نبي الله ، ولم يرضوا لأنفسهم أن يكونوا كاذبين حتى سورا للصدق في خيبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب )<sup>1</sup>

وقد نبه أبو حيان في هذا الموضوع على شدة التعصب عند الزمخشري التي حملته على الدفاع عن الكفرة في كونهم يتزهون عن الكذب ، في الوقت الذي لا يتزهون عن قتل نبي من أنبياء الله تعالى .

قال أبو حيان : ( والعجب من هذا الرجل كيف يتحيل هذه الحيل في جعل إخبارهم — وإنا لصادقون — إخبارا بالصدق ، وهو يعلم أنهم كذبوا صالحا النبي ، وعفروا الناقصة التي كانت من أعظم الآيات ، وأقدموا على قتل نبي وأهله ، ولا يجوز عليهم الكذب ، وهو يتلو في كتاب الله كذبهم على أنبيائهم ، ونص الله على ذلك ، وكذبهم على من لا تخفى عليه خافية يوم تبلى السرائر ، وهو قولهم " والله ربنا ما كنا مشركين " <sup>2</sup> وقول الله تعالى " انظر كيف كذبوا على أنفسهم " <sup>3</sup> وإنما هذا منه تحريف لكلام الله تعالى حتى ينصر مذهبه في قوله إن الكذب قبيح عند الكفرة ، ويتحيل لهم هذا التحيل حتى يجعلهم صادقين في إخبارهم .

وهذا الرجل وإن كان أوتي من علم القرطبان أوفر حظ ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقلة ، وكنت قريبا مسمن تسطر هذه الأحرف قد نظمت فصيدا في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله تعالى ، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري ، فذكرت شيئا من محاسنه ، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه ،

<sup>1</sup> . الكشاف : 372/3

<sup>2</sup> . سورة الأنعام : 24

<sup>3</sup> . سورة الأنعام : 25



ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا ، ويتنبه على ما تضمنه من قبائح فقلت بعد ذكر ما مدحته به :

ولكنه فيه مجال لناظر	وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلا	ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم أعلام الأئمة ضللة	ولا سيما إن أولجوه المضايقا
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة	بتكثير ألفاظ تسمى الشقائقا
يقول فيها الله ما ليس قائلا	وكان محبا في الخطابة وامقا
وينسب إبداء المعاني لنفسه	ليوهم أغمارا وإن كان سارقا
ويخطئ في فهم القرآن لأنسه	يجوز إعرابا أي أن يطابقا
وكم بين من يؤتى البيان سليقة	وأخر عاناه فما هو لاحقا
ويختال للألفاظ حتى يديرها	لمذهب سوء فيه أصبح مارقا <sup>1</sup>

#### ثانيا : قسوته على خصومه

ويقصد بالخصوم هنا أهل السنة الذين احتدم الصراع معهم منذ النشأة المبكرة للمعتزلة ، ومنذ ذلك العهد لم تخمد نار الصراع بين الجانبين ، ولكنه صراع فكري على خلاف الصراع مع الفرق الأخرى ، ولقد لقي المعتزلة هم الآخرون من القسوة الفكرية في هذا الصراع من بعض أئمة أهل السنة ما لقيه أهل السنة أنفسهم من بعض أئمة المعتزلة ، وخاصة قبل مجيء الزمخشري ، فلما جاء وطلع على الناس بتفسيره الكشاف ، فإنه أحيا موات ذلك الصراع ، ونفخ فيه من روحه التي لقيت من الضيم والتنضييق والحرمان ما لقيت قبل وضع هذا المصنف .

ويقدر ما كان الزمخشري يتطلع بثاقب فكره إلى كل ما يتبدى له من وجوه الإعجاز القرآني في نظمه وبلاغته ، كان أيضا يتطلع إلى البحث عن أدق إشارة في النص القرآني تصلح للرد على مخالفيه من أهل السنة ، ومن أغرب ما فعله في ذلك عندما نجده يستأنس بقوله تعالى " قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث .. " المسائدة : 102

<sup>1</sup> . المرابط : 85/7

فبالرغم من أن الآية واضحة من خلال سياقها أنها نزلت في التهوين من الشرك وأهله ، والإشادة بالإسلام وأتباعه ، فإن الزمخشري صرفها إلى التهوين من شأن المعالفين له وذمهم ، وهم أهل السنة ، والإشادة بفرقة من المعتزلة فقال : ( .. فلا تعجبوا بكثرة الخبيث ، حتى تؤثره لكثرتة على القليل الطيب ، فإن ما تنهونونه في الكثرة من الفضل لا يوازي النقصان في الخبيث ، وفوات الطيب ، وهو عام في حلال المال وحرامه ، وصالح العمل وطالحه ، وصحيح المذاهب وفاسدها ، وحيد الناس ورديتها ، " فاتقوا الله " وآثروا الطيب وإن قل على الخبيث وإن كثر . ومن حق هذه الآية أن تكفح بها وجوه الحجرة إذا افتخروا بالكثرة كما قيل :

وكأثر بسعد إن سعدا كثيرة ولا ترج من سعد وفاء ولا نصرا

وكما قيل :

لا يدهنك من دهائهم عدد فإن جلسهم بل كلهم بقصر<sup>1</sup>

والزمخشري إذ يلزم خصومه من أهل السنة بلقب القدرية والحجرة إنما يجعلهم في مرتبة واحدة مع مشركي العرب قبل الإسلام ، وقد نقل عند تفسير قوله تعالى : " وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَحَدَّثْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا .. " <sup>2</sup> عن الحسن أنه قال : إن الله بعث محمدا - ص - إلى العرب وهم قدرية بحجة ، يحملون ذنوبهم على الله . <sup>3</sup>

ومثلما أنزل خصومه في بعض المواطنين من كشافة منزلة أهل الشرك ، فإنه في مواطن أخرى أنزلهم منزلة اليهود والنصارى الذين كذبوا أنبياءهم وحرفوا شرائعهم السماوية ، وغالوا في دينهم أيما غلو ، فجعل الآيات التي تتضمن خطابا صريحا لأهل الكتاب تدعوهم للإسلام ، وتنعى عليهم الغلو ، والتحريف الذي أوقعهم في الشرك ، والكفر بدين الله بعد الإيمان ، جعل ذلك كله شاملا لمعالفيه من أهل السنة وغيرهم من أهل القبلة ، ومن ذلك مثلا ما قرره في تفسير قوله تعالى : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ " المائدة : 79

<sup>1</sup> . الكشاف : 682/1

<sup>2</sup> . سورة الأعراف : 27

<sup>3</sup> . الكشاف : 99/2

قال أبو حيان في تفسير هذه الآية : ( ظاهره نداء أهل الكتاب الحاضرين زمان رسول الله — ص — ويتناول من جاء بعدهم ، ولما سبق القول في أباطيل اليهود وأباطيل النصارى جمع الفريقان في النهي عن الغلو في الدين ، وانتصب " غير الحق " وهو الغلو الباطل ، وليس المراد بالدين هنا ما هم عليه ، بل المراد الدين الحق الذي جاء به موسى وعيسى . )<sup>1</sup>

فهذا هو التفسير الذي يتفق مع مضمون الآية والسياق الذي اندرجت تحته ، بدليل أن المسلمين من هذه الأمة ما زالوا يومئذ لم يقع فيهم الغلو في الدين ، فكيف يخاطبون بشيء أو ينكر عليهم فعل لم يفعلوا فيه بعد ؟

إلا أن الزمخشري أبي إلا أن يجعل من الآية حجة له على خصومه ، ووعدا لهم من الله تعالى إن لم يسلكوا سبيل أهل العدل والتوحيد فقال :

( الغلو في الدين غلوان ، غلو حق وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أبعاد معانيه ، ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد رضوان الله عليهم ، وغلو باطل وهو أن يجاوز الحق ويتعداه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه كما يفعل أهل الأهواء والبدع . )<sup>2</sup>

قال أبو حيان بعد ذلك على وجه التعجب : ( وأهل العدل والتوحيد هم أئمة المعتزلة ، وأهل الأهواء والبدع عندهم أهل السنة ومن عدا المعتزلة . )<sup>3</sup>

وقول الزمخشري ( ويتعداه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه ) إشارة منه لمن عناهم القرآن الكريم بقوله " وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِينَةٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ " . وهي نص في نصارى نجران الذين جاعوا النبي — ص — وجادلوه بالباطل في الرومية عيسى عليه السلام جدالا عنيفا .

ولم يكن الزمخشري أول من نعت خصومه من أهل السنة بهذه الأوصاف والألقاب ، بل هو تابع في ذلك لما درج عليه أسلافه من أئمة الاعتزال ، فهذا القاضي عبد الجبار يقرر

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 538/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 666/1

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 538/3

بأنهم جديرون بهذه الألقاب لما يتعلقون به معتقدات وآراء توجب في حقهم هذا النعت وغيره ، وفي ذلك يقول : ( ومن عجيب أمرهم أنهم يروون أن موسى عليه السلام علب آدم عليه السلام على ما وقع منه من العصية التي بها أخرج من الجنة ، فقال له آدم : أتلمني على أمر قد قدره الله تعالى علي قبل ذلك بألفي عام ؟ قالوا عن رسول الله — ص : فجع آدم موسى ، وهذا يوجب عليهم أن موسى كان قدريا ، وكذلك رووا عن جبريل وميكائيل . ومن جهلهم التعلق بمثل ذلك ، لأنه يوجب في كل كافر ومشرك وفاجر ألا يلام ، لأن ما أتاه كان مكتوبا عليه علي ما ذكره الله في كتابه " وَكُلُّ صَفِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَهْزَأٌ " وإن طائفة يبلغ جهلها هذا للمبلغ لحقيق أن يلصق بهم كل ذم وكل لقب منموم).<sup>1</sup>

ومن هنا وصف الزمخشري أهل السنة — في قولهم بأن مرتكب الكبيرة إذا مات من غير توبة هو تحت اللشيمة الإلهية — بأصحاب الطمع المفرط في رحمة الله ، ومثلهم في ذلك — في رأيه — كمثل أشعب الذي طوح به طمعه ، وصار مثلا في الآخرين .

ففي تفسير قوله تعالى : " وَمَنْ يُقْتَلْ مُؤْمِنًا مَّعْتَدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا " سورة النساء : 94

حزم الزمخشري بأنها دليل كاف على صحة منعه ، إلى جانب الأحاديث التي تفسري هذا الرأي فقال :

( هذه الآية فيها من التهديد والإبعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ ، ومن ثم روي عن ابن عباس ما روي من أن توبة القاتل غير مقبولة ، وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا : لا توبة له ، وذلك محمول منهم على الإقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد ، وإلا فكل ذنب محو بالتوبة ، وناهيك بمحو الشرك دليلا . وفي الحديث " لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم " ، وفيه " لو أن رجلا قتل بالشرق وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه " — ابن حجر : لم أجده — وفيه : " من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله .

<sup>1</sup> . مثل الإهزال وضقات المعتزلة : 168

والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ، ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة ، وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم ، أن يطمعوا في العفو عن قاتل للمؤمن بغير توبة ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .<sup>1</sup>

ونجد الزمخشري يبلغ به تعصبه وتحامله على خصومه حد الإسفاف في وصفهم بكسل قبيح ، وبعثهم بعنات الشياطين ، إلى جانب السخرية اللاذعة التي تنم عن سوء ظنه بهمسم ، وشدة سخطه عليهم وعلى ما يدعون إليه من اعتقادات فاسدة بل هالكة في نظره .

ففي تفسير قوله تعالى: " ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير " سورة الحج : 3 - 4

نجده يقول : ( قيل نزلت في النضر بن الحارث ، وكان جدلاً يقول : للملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار تراباً . وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله تعالى وما لا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم ، ولا بعض فيه بضر من قاطع ، وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة ، فهو يخبط خبط عشواء غير فارقي بين الحق والباطل " ويتبع " في ذلك خطوات " كل شيطان " عات ، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جملة وليا لم يثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار . وما أرى رؤساء أهل الأهواء والبدع والحشوية للتلقين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولا كوليا ، بل هم أشد الشياطين إضلالا ، وأقطعهم لطريق الحق ، حيث دونوا الضلال تلويحا ولقنوه أشياعهم تلقينا ، وكأنهم ساطور بلحومهم ودمائهم ، وإياهم عني من قال :

ويا رب مقضو الخطا بين قومسه      طريق نجات عندهم مستور مخ

ولو قرعوا في اللوح ماخط فيه من      بيان الصوحاج في طريقته عجزوا

<sup>1</sup> . ككشاف : 551/1

اللهم ثبتنا على للمعتقد الصحيح الذي رضيته لملكك في سمواتك وأنبياك في أرضك ،  
وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .<sup>1</sup>

وهكذا فإن حنوح الزمخشري إلى السخرية والتجريح بقسوة في خصومه قد لقي  
بسبها رد فعل مماثل من هؤلاء المخالفين ، مما دفعهم للرد عليه وإساءة الظن به في كل  
عبارة وردت في تفسيره تحتل أكثر من معنى .

ومن بين من حمل لواء الرد عليه وناقشه بقسوة وعنف شديدين ابن المنير السكندري ،  
مما دفع بابن بنت العراقي — وهو أحد شيوخ أبي حيان ت : 704هـ — أن يضع كتابا  
تحت عنوان " الإنصاف في مسائل الخلاف بين ابن المنير والزمخشري " ليخفف من ردة  
فعل ابن المنير وحملته للمضادة على الزمخشري .<sup>2</sup>

ورحم الله ابن بنت العراقي فإن الله تعالى يقول : " .. وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنَ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا  
تَعْلَمُوا اَعْلَمُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. " سورة المائدة : 9

أما أبو حيان هو الآخر فكان يبنه على اعتراضاته في كل موضع يلمس منه هذا التوجه  
، ولكنه يكتفي بالإجمال في المواضع التي يرى فيها اعتزاله متجليا ، ويناقشه ويفصل في  
الرد عليه في المواطن التي تخفى فيها روح الاعتزال ، ولا تتجلى إلا بالبحث والنظر كما  
سنعرف في أمثلة لاحقة .

ولم ينته تطاول الزمخشري عند تعنيف خصومه ومخالفه فقط ، بل ذهب إلى أبعد من  
ذلك ، فتطاول على مقام النبوة في أكثر من موضع من كتابه ، وذلك بإيراد عبارات  
فظة غليظة ، لا تصلح أن يبعث بها الأنبياء بحال من الأحوال ، وقد عابه عليها أهل العلم  
، وخاصة لما أوردها في كتاب يراه أنه تفسير لكلام الله تعالى ، ومن الأمثلة على ذلك :  
في تفسير قوله تعالى : " عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَلَقُوا وَتَعُنَّمُ  
الكَافِرِينَ " سورة الأنفال : 43

<sup>1</sup> . فكتف : 143/3

<sup>2</sup> . معجم للمفسرين ، هاجل موهب ، مؤسسة نوره للثقافة والتأليف والترجمة والنشر ، ط 3 ، 1988م : ج 1/298

قال الزمخشري : ( " عفا الله عنك " كناية عن الجنابة ، لأن العفو رادف لها ، ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت . )<sup>1</sup>

فالزمخشري قد ذهل هنا عما يجب في حقه عليه السلام ، ولقد أحسن من قال في هذه الآية : إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء : لم أذنت لهم ، لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام ، فمثل هذا الأدب هو الذي يجب احتذائه في حق سيد البشر عليه الصلاة والسلام .

وواضح من خلال ألفاظ الآية الكريمة أن الله تعالى عمد مخاطب نبيه خطاب الرقة والرأفة ، إلا أن الزمخشري أبي إلا أن يفسرها بمخاطب الغلظة والقسوة ، ولا ندري ماذا يخفي الزمخشري وراء هذه الألفاظ التي حمل عليها خطاب الله تعالى لنبيه الكريم ؟

كما تناول على شخص نبي الله هود عليه السلام في تفسير قوله تعالى : " قَالَ يَا هُودُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " سورة هود : 46

قال الزمخشري : ( .. وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلا وغباوة ، ووعظله أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين . )<sup>2</sup>

فلا ندري من أية لفظة في الآية استمد الزمخشري معنى الغباوة في حق نبي الله نوح عليه السلام ، فإن الله تعالى وعد نوحا عليه السلام تنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ، ولم يكن كاشفا لحال ابنه المذكور ولا مطلعا على باطن أمره ، بل معتقدا بظاهر الحال أنه مؤمن ، فسأل ربه أن ينحيه بناء على ما تلقاه من وعد ، ولما بين الله تعالى له أنه ليس بمؤمن ، استعاذ بالله من ذلك ، ولزم حكم الله في عموم الكافرين ، فجاء هذا الخبر الرباني في معرض إثبات المدح لنبيه نوح عليه السلام ، وليس العكس هو الصحيح فضلا عن إثبات الغباوة في حقه ، فإن أنبياء الله تعالى أبعد الناس عن هذا الوصف الذي يتساءل وأهليتهم لحمل الشرائع السماوية .

<sup>1</sup> . الكنعف : 27/2

<sup>2</sup> . الكنعف : 400/2

وأما في تفسير قوله تعالى : " قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي  
اِسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ " سورة ص : 74

فقد حاول أن يضرب مثلا لآدم حال امتناع إبليس عن السجود له ، فأساء الأدب في  
التمثيل لآدم عليه السلام عندما قال في مثاله : ( ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ،  
أي ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي — لاشك في كونه  
مخلوقا — امتثالا لأمري ، وإعظاما لخطائي ، كما فعلت للملائكة ، فذكر له ما تركه من  
السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه ، وقيل له : لم تركته مع وجود هذه العلة ،  
وقد أمرك الله به ، يعني : كان عليك أن تعتبر أمر الله ، ولا تعتبر هذه العلة . ومثاله أن  
يأمر للملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم ، فيمتنع اعتبارا لسقوطه ، فيقول له : ما  
منعك أن تتواضع لمن لا يخفى علي سقوطه ، يريد : هلا اعتبرت أمري وخطائي وتركت  
اعتبار سقوطه .. فمن أنت حتى بصرفك عن السجود له ، ما لم بصرفني عن الأمر  
بالسجود له ؟ )<sup>1</sup>

وهذا الذي حدا بابن المنير أن يرد عليه بقوله : ( لا حرم أنه أكرم في بسط كلامه  
كلامه على آدم عليه السلام ، فمثل قصته في انحطاط مرتبته — على زعمه — عن مرتبة  
للملائكة بقول للملك لوزيره : زر بعض سقاط الحشم ، فجعل سقاط حشم للملك مثالا  
لآدم الذي هو عنصر الأنبياء عليهم السلام ، وأقام لإبليس عذره وصوب اعتقاده أنه  
أفضل من آدم لكونه من نار وآدم من طين .. وإنما ذكر ذلك تعظيما لمعصية إبليس ، إذ  
امتنع من تعظيم من عظمه الله ن إذ خلقه بيده ، وذلك تعظيم لآدم لا تحقير له ، ويسدل  
عنه الحديث الوارد في الشفاعة إذ يقول له الناس عندما يقصدونه فيها : أنت آدم أبو  
البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته .. فلنما يذكر ذلك في  
سياق تعداد كراماته وخصائصه ، لا فيما يحط منه . )<sup>2</sup>

ثالثا : ومنها جرأته في إعلان مخالفته لجمهور المفسرين ، مع وصف غيره من  
المفسرين بالتعسف والمكابرة ، وإن كان ما ذهب إليه لا يعدو أن يكون ظنا وتخميننا

<sup>1</sup> . الكشاف : 107/4

<sup>2</sup> . الكشاف : 106/4 هامش : 2 (الإتصاف من الكشاف)



يقبل الخطأ والصواب ، ولا سبيل للقطع بصحته ، فحجده يرمى أكابر المفسرين بالغوايبة والهووى والظلم ، ولم ينج من اتهاماته بالصفات المذمومة حير الأمة ابن عباس رضي الله عنه الذي دعا له النبي - ص - بأن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل .

فمن ذلك مثلا ما قاله في تفسير قوله تعالى : " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ " سورة الحجر: ٩٢

حيث قال الزمخشري : ( ولقد تمحل بعض الغواة لثبت لله ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال : هذا من العموم الذي أريد به الخاص ، وما أراه إلا عباده الذين عناهم في قوله " إن عبادي ليس لك عليهم سلطان " ، يريد المعصومين ، لقوله " عينا يشرب بها عباد الله " تعالى الله عما يقول الظالمون . )<sup>١</sup>

قال أبو حيان : ( فسلمى عبد الله بن عباس - ترجمان القرآن - وأعلام أهل السنة بعض الغواة . وأطلق عليهم إسم الظالمين ، وذلك من سفهه وجرأته كما قلت في قصيدتي فيما ينتقد عليه :

ويشتم أعلام الأئمة ضلة ولا سيما إن أولجوه للمضايقا )<sup>٢</sup>

ومثلما جاء في تفسير " إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ " سورة يس : ٧

قال الزمخشري : ( فإن قلت : ما معنى قوله " فهي إلى الأذقان " قلت معناه : فالأغلال واصله إلى الأذقان ملزوزة إليها .. والمقمح الذي يرفع رأسه ويغض بصره ، يقال قمح البعير فهو قامح إذا روى فرفع رأسه .. فإن قلت : فما قولك فيمن جعل الضمير للأبيدي وزعم أن الغل لما كان جامعا لئيد والعنق - وبذلك يسمى جامعة - كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأبيدي ؟ قلت : الوجه ما ذكرت لك ، والدليل عليه قوله " فهم مقمحون " ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله " فهي إلى الأذقان " ولو كان الضمير للأبيدي لم يكن معنى للتسبب في الإقماح ظاهرا . على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف ،

<sup>١</sup> . الكشاف : 578:2

<sup>٢</sup> . اسرار احمد : 417:7

وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه ، وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج .<sup>1</sup>

رابعا : ومنها توسعه في شرح الآيات التي يرى فيها ما يخدم مذهبه ، وميله إلى

الإيجاز والاختصار في تلك التي قد تخالف رأيه .

ففي تفسير قوله تعالى : " وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ

عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ " سورة الأنعام : 108

نجد الزمخشري يمر على ما جاء في هذه الآية مما هو صريح في مصادمة مذهبه ، وهو

قوله تعالى " ولو شاء الله ما أشركوا " فيسكت عنها ولا يخط يمينه حرفا واحدا في تفسيرها .<sup>2</sup>

ويسلك نفس للسلك في تفسير قوله تعالى : " وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا

لِنَهْتِدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ .. " سورة الأعراف : 43

فلما رأى الآية لا تخدم مذهبه ، عمل على تمريرها كما جاءت ، مكتفيا ببيان مذهبه

الاعتزالي في تأويل مثل هذه للتشابهات في القرآن الكريم بأوجز عبارة فقال : ( " هَدَانَا

لهذا " أي وقفنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح " وما كنا لنهتدي

" ويعنون : وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه . )<sup>3</sup>

حتى إذا جاء إلى الشطر الأخير من الآية مما يروم موافقته لمذهبه وهو قوله تعالى " بما

كُتِمَ تعملون " أطلق لسانه في أهل السنة ، ونيزهم بلقب الباطلة ، كما قرر صحة مذهبه

استنادا إلى هذه الآية .<sup>4</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يُرْجَعَ إِلَيْنَا مَوْسَىٰ "

سورة طه : 90

<sup>1</sup> . الكشاف : 6/4

<sup>2</sup> . الكشاف : 55/2 وانظر : 270/3

<sup>3</sup> . الكشاف : 105/2

<sup>4</sup> . الكشاف : 105/2

وقف أبو حيان عند هذه الآية ليبين من خلالها أن " لن " لا تفيد التأييد خلافا للزمخشري ، إذ لو كان موضوعها التأييد لما جازت التغيية ، لأن التغيية لا تجوز إلا حيث يكون الشيء محتملا فيزول ذلك الاحتمال بالتغيية .. )<sup>1</sup>

وكان الأجلد بالزمخشري أن لا يفوته هذا ، وهو الذي يقف عند كل نكتة أو لطيفة لغوية أو بلاغية ليرزها ، إلا أن الزمخشري سكت عنها ، ولم يتعرض لها بشيء ، بينما نجد يسرد كلاما طويلا في توضيح الواضع من الآيات الأخرى ، ففي الآية التي قبلها مباشرة وهي قوله تعالى : " قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَقَصَيْتَ أَمْرِي " سورة طه : 91

أطال في توضيح كلام موسى من غير مسوغ لتلك الإطالة ، فنقله أبو حيان ثم عابه عليه ، ووصفه بالتكثير في الكلام وتحميل للفظ ما لا يتحمل .

قال أبو حيان : ( وقال الزمخشري : ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر على الكفر على للعاصي ، وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ، ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت حاضرا ، أو مالك لم تلحقني ؟ )<sup>2</sup>

ثم قال أبو حيان : ( وفي ذلك تحميل للفظ ما لا يتحملة ، وتكثير . )<sup>3</sup>

وهكذا فإن تحقق الزمخشري هذه للظاهر من التعصب لمذهبه ، وقسوته على مخالفيه ، وجرأته في مخالفته جمهور للفسرين ، وغيرها من اللعائب التي علقته بكشافة في جانب للباحث العقدي قد أثقلت كفة مساوته ، وكادت ترجع بحسناته وتطيشها ، وهذا ما نستشفه من خلال للطلب الآتي في حديثنا عن مسلك أبي حيان في مباحثه العقديّة في البحر المحيط ، وأهم للآخذ التي سجلها على الكشاف ولاحظها عليه .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 272/6

<sup>2</sup> . الكشاف : 83/3

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 276/6

## المطلب الثاني : مسلك أبي حيان في المباحث العقديّة

اهتم أبو حيان الأندلسي بالجانب العقدي في كتابه البحر المحيط ، وقد جعل البحث في أحكام العقيدة أحد أغراض المفسر للقرآن الكريم ، ونبه على ذلك في مقدمة تفسيره ، ولكنه كان يرى أن الاستطراد للأحكام العقديّة التي لا تدخل تحت ملول الآية القرآنيّة لا يحسن أن تبحث في كتب التفسير ، وإنما محلها كتب أصول الدين .<sup>1</sup>

ويتلخص مسلكه في تفسير مثل هذه الآيات من خلال ما وقفنا عليه مسن مباحث عقديّة في كتابه البحر المحيط في العناصر الآتية :

أولاً : إنصافه لمخالفيه وأدبه معهم من غير قسوة أو تعصب ، حيث كان عسف اللسان لطيف العبارة حتى مع الزمخشري الذي كان عنيفا في مناقشة خصومه من أهل السنة ، فإن أبا حيان قد خالف شيخه ابن النير السكندري ، وكان يكتفي بالرد بالعبارة الجميلة واللوحزة ، كما لم يمنعه ذلك من الإقرار له بالبراعة ووفور العلم والمعرفة ، بل كان دائما في مواطن الرد على المخالفين له نجده يناقش الآراء والأدلة والأفكار وليس الأشخاص ، مما جعل الأدب الرفيع حليفا له ورفيقا في أغلب مناقشاته لخصومه ، وهذا ينفي ما ذهب إليه بعض من ترجم لأبي حيان من أنه كان كثير الوقعة في الناس ، سليط اللسان في كل من اختلف معه ، بل إن الصورة التي نخرج بها من كتابه البحر المحيط أنه كان شديد الإعجاب بأعلام العلماء من المفسرين وغيرهم على اختلاف مشاربهم ، كثير للدح لهم ، ينقل أقوالهم بأمانة ، ويحاول أن يجعلها على أحسن الوجوه ، وإذا ردها إكتفى ببيان جانب الخطأ والزلل فيها .

فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّاسَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ " سورة البقرة : 23

<sup>1</sup> . انظر البحر المحيط : 7/1

حيث نقل عن ابن عطية قوله : ( وفي قوله تعالى " أعدت للكافرين " رد على من قال إن النار لم تخلق حتى الآن ، وهو القول الذي سقط فيه سعيد بن المنذر .. )<sup>1</sup>  
ثم قال أبو حيان : ( ومنذر الذي ذكره ابن عطية كان يعرف بالبلوطي ، وكان قلضي قضاة الأندلس ، وكان معتزليا في أكثر الأصول ، ظاهريا في الفروع ، وله ذكر ومناسقب في التواريخ ، وهو أحد رجالات الكمال بالأندلس ، وسري إليه ذلك القول من قول كثير من المعتزلة ، وهي مسألة تذكر في كتب أصول الدين .. )<sup>2</sup>  
ومن مظاهر إنصافه وموضوعيته في تعامله مع مخالفيه ما نجده في البحر المحيط من إقراره للزمخشري في للمواضع التي أصاب فيها الحق ، واحتكم إلى النص القرعاني ، فوجد أبا حيان ينقل كلامه ويستصوبه .

فمن ذلك مثلا ما نقله عنه في تفسير قوله تعالى : " قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْشِرُوْا بِعَلْمِ اللَّهِ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " سورة آل عمران : 29

قال أبو حيان : ( وقال الزمخشري : وهذا بيان لقوله " ويحذركم الله نفسه ، لأن نفسه وهي الذات للتميزة من سائر الدوات ، متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون معلوم ، فهي متعلقة بالمعلومات كلها ، وبقدرة ذاتية لا تختص بمقلود دون مقلود ، فهي قادرة على للمقلودات كلها ، فكان حقا أن تحذر وتتقى ، فلا يجسر أحد على قبيح ، ولا يقصر عن واجب ، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحتق به العذاب ، انتهى وهو كسلام حسن وفيه ، التصريح بإثبات صفة العلم والقدرة لله تعالى ، وهو خلاف ما عليه أشياخه من المعتزلة ، وموافقة لأهل السنة في إثبات الصفات . )<sup>3</sup>

ثانيا : إحكامه لنصوص القرءان الكريم والصحيح من السنة النبوية : حيث كان يرى بأن العقيلة تؤخذ من القرءان ، وليس مما قرره أرباب للمذاهب الكلامية من قضايا عقلية ، وقد قرر هذا الأصل في مواضع غير قليلة من تفسيره ، وسنكتفي خشية الإطالة

<sup>1</sup> . المهر الموحج : 108/1

<sup>2</sup> . البحر المحج : 108/1

<sup>3</sup> . البحر المحج : 425/2

بعرض مثالين اثنين في هذا الجانب ، فالمثال الأول ويتعلق بحكم مرتكب الكبيرة ، ومسور الأصل الذي افتقرت عليه هذه الطوائف بادئ الأمر ، وكان له أثره البالغ في حياة الأمة . والمثال الثاني ، ويتعلق بحكم رؤية الله يوم القيامة ، وهو أحد الفروع الناشئة عن أصل التوحيد عند المعتزلة ، وفيه من الأدلة من السنة النبوية ما يحسم النزاع ويكشف الصواب .

### المثال الأول : حكم مرتكب الكبيرة

في تفسير قوله تعالى : " إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .. " .

سورة النساء : 47

نقل أبو حيان أسباب نزول الآية ، ثم استطرد إلى عرض آراء الفرق الكلامية

ومناقشتها فقال :

( وأجمع للمسلمون على تخليد من مات كافرا في النار ، وعلى تخليد من مات مؤمنا لم يذنب قط في الجنة ، فأما تائب مات على توبته فالجمهور على أنه لاحق بالمؤمن السني لم يذنب . وطريقة للتكلمين أنه في المشيئة ، وأما مذنب مات قبل توبته فالخوارج تقول هو في النار ، سواء كان صاحب كبيرة أو صاحب صغيرة . والمرحطة تقول هو في الجنة بإيمانه ، ولا تضرد سيئاته ، والمعتزلة تقول إن كان صاحب كبيرة خلد في النار ، وأما أهل السنة فيقولون هو في المشيئة ، فإن شاء غفر له وأدخله الجنة ، وإن شاء عذبه وأخرجه من النار وأدخله الجنة بعد مخلدا فيها .

وسبب هذا الاختلاف تعارض عموم آيات الوعيد وآيات الوعد ، فالخوارج جعلوا آيات الوعد عامة في العصاة ، كافرين ومؤمنين غير تائبين ، وآيات الوعد خاصة في المؤمن الذي لم يذنب قط ، أو للمؤمن التائب ، والمرحطة جعلوا آيات الوعيد مخصوصة في الكافر ، وآيات الوعد مخصوصة في المؤمن تقيهم وعاصيهم ، وأهل السنة خصصوا آيات الوعيد بالكفرة ، وبمن سبق في علمه أنه يعذبه من المؤمنين العصاة ، وخصصوا آيات الوعد بالمؤمن الذي لم يذنب وبالتائب ، وبمن سبق في علمه العفو عنه من المؤمنين العصاة .

وللمعتزلة خصصوا آيات الوعد بالمؤمن الذي لم يذنب ، وبالتائب ، وآيات الوعيد

بالكافر وذوي الكبيرة الذي لم يتب .

وهذه الآية هي الحاكمة بالنص في موضع التراجع ، وهي جلت الشك وردت على هذه الطوائف الثلاث .

فقوله تعالى " إن الله لا يغفر أن يشرك به " والمعنى أن من مات مشركا لا يغفر له هو أصل مجمع عليه من الطوائف الأربع ، وقوله " ويغفر ما دون ذلك " راد على الخوارج وعلى المعتزلة ، لأن " ما دون ذلك " عام تدخل فيه الصغائر والكبائر ، وقوله " لمن يشاء " راد على المرجئة ، إذ ملولوه : أن غفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم على ما يشاء تعالى ، بخلاف ما زعموه بأن كل مؤمن مغفور له ، وأدلة هؤلاء الطوائف المذكورة في علم أصول الدين ، وقد رامت للمعتزلة والمرجئة رد هذه الآية إلى مقالاتها بتساويات لا تصح ، وهي منافية لما دلت عليه الآية .<sup>1</sup>

وبعد أن رد على الطوائف الثلاث إجمالا خلص إلى مناقشة الزمخشري في كشفه تفصيلا ، لكونه أظهر تعسفا واضحا في التخلص من ظاهر الآية الذي لا يرضيه ، إلى تأويل قائم على تفكيك نظم الآية وإعادة تركيبها بما تصلح أن تكون دليلا له في حجب رحمة الله عن عصاة المؤمنين غير التائبين .

قال أبو حيان : ( قال الزمخشري : فإن قلت قد ثبت أن الله عز وعلا يغفر الشرك لمن تاب منه ، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة ، فما وجه قوله " إن الله لا يغفر أن يشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " ؟ قلت : الوجه أن يكون الفعل للنفسى وللشيت جميعا موجهين إلى قوله " لمن يشاء " كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء ما دون ذلك ، على أن المراد بالأول من لم يتب ، وبالثاني مسن تاب ، ونظيره قولك : إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يستأمله ، انتهى كلامه<sup>2</sup> ، فتأول الآية على مذهبه ، وقوله : قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب عنه هذا مجمع عليه ، وقوله : وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة ، فنقول له : أيسن ثبت هذا ؟ وإنما يستدلون بعمومات تحمل التخصيص ، كاستدلالهم بقوله " ومن يقتل مؤمنا متعمدا .. " الآية . وقد خصصها ابن عباس بالمستحل ذلك ، وهو الكافر .. وقوله

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 269/3

<sup>2</sup> . الزمخشري : 519/1

: أن الوجه أن يكون الفعل للنفي والمثبت جميعا موجهين إلى قوله " لمن يشاء " ، إن عسى أن الجار يتعلق بالفعلين فلا يصح ذلك ، وإن عنى أن يقيد الأول بالمشيئة كما قيد الثاني فهو تأويل ، والذي فهم من كلامه أن الضمير الفاعل في قوله : يشاء عائد على " من " لا على " الله " لأن المعنى عنده أن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء أن لا يغفر له ، لكونه مات على الشرك غير تائب منه ، ويغفر ما دون الشرك من الكبائر لمن يشاء أن يغفر له لكونه تائب منها .<sup>1</sup>

قال أبو حيان : ( والذي يدل عليه ظاهر الكلام أنه لا قيد في الفعل الأول بالمشيئة ، وإن كانت جميع الكائنات متوقفا وجودها على مشيئته على مذهبنا ، وأن الفاعل في " يشاء " هو عائد على الله تعالى لا على " من " ، والمعنى : ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء أن يغفر له ، وفي قوله " لمن يشاء " ترجحة عظيمة ، يكون من مات على غير الشرك لا تقطع عليه بالعذاب وإن مات مضرا .<sup>2</sup>

وبعد أن بين أبو حيان فساد ما ذهب إليه الزمخشري ، وصحة ما ذهب إليه أهل السنة ، وهو ما يلوح من ظاهر الآية ، ويتفق مع النصوص الأخرى ، نقل من الأدلة للمستفيضة ما يقوي رأيه فقال :

( قال عبد الله بن عمر : كنا على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا له أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية فأمسكنا على الشهادات . وفي حديث عبادة بن الصامت في آخره " .. ومن أصاب شيئا من ذلك — أي من للعاصي التي تقدم ذكرها — فستره عليه ، فأمره إلى الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ، أخرجه مسلم . ويروى عن علي وغيره من الصحابة ما في القرعان آية أحب إلينا من هذه الآية .<sup>3</sup>

<sup>1</sup> . البحر المحيد : 269/3

<sup>2</sup> . الصفحة نفسها

<sup>3</sup> . الصفحة نفسها



ولقد اكتفى أبو حيان بإيراد هذه النصوص الصحيحة والصريحة في تصويب مذهب أهل السنة ، دون أن يلزم الزمخشري بسوء ، أو يرد على سفيه الذي رمى به خصومه في هذا الموضوع وغيره من للمواضع الأخرى .

### المثال الثاني : رؤية الله يوم القيامة

تمسك الزمخشري بمذهبه الاعتزالي في القول بنفي رؤية المؤمنين لهم يوم القيامة ، وأظهر تعصبا قويا في مناقشة المخالفين له ، ورماهم بكل نقيصة لأجل ذلك ، مثلما تمسك أبو حيان بمذهبه السني في القول برؤية المؤمنين لهم يوم القيامة ، مع فارق واضح وهو أن أبا حيان اكتفى بعرض أدلة الفريقين ومناقشتها مناقشة هادئة ، مع انتصاره للدليل الأظهر والأقوى ، أما الزمخشري فلم يتردد في النيل من خالفه في الرأي ، والدعاء عليهم بالويل والهلاك ، لمخالفتهم له في القول بجواز رؤية الله تعالى يوم القيامة .

ففي قوله تعالى : " وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرَاكَ وَلَكِن نُنظِرُكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي.." سورة الأعراف : 143

قال أبو حيان : ( قال السدي وأبو بكر الهذلي : لما كلمه وخصه بهذه للرتبة طمحت نفسه إلى رتبة الرؤية ، وتشوف إلى ذلك ، فسأل ربه أن يريه نفسه . قال الزجاج : شوقه للكلام فعيل صيره ، فحمله على سؤال الرؤية . )<sup>1</sup>

ويبدو أن هذين القولين أقوى وأدل على معنى الآية مما ذهب إليه الزمخشري في كون موسى — عليه السلام — إنما يحكي طلب بني إسرائيل ، فمثلما خصه الله بالتكليم ظن أنه بالإمكان أن يخصه بالرؤية ، ولهذا للمعنى اختار أبو حيان قولهما ، ثم نقل رأي ابن عطية فقال :

( وقال ابن عطية : رؤية الله عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلا ، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته ، وقررت الشريعة رؤية الله في الآخرة ، ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر الشرع ، فموسى عليه السلام لم يسأل محالا وإنما سأل جائزا ، وقوله " لن تراه ولكن انظر إلى الجبل .." ليس بجواب من سأل محالا ، وقد قال تعالى لنوح عليه السلام :

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 382/4

فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين " فلو سأل موسى محالا لكان في الجواب زجر ما وتيس .<sup>1</sup>

وما ذهب إليه ابن عطية صحيح ، إذ لو كانت الرؤية مستحيلة لكان الله تعالى قد قال لموسى عليه السلام : " إني لا أرى " ، ولم يقل له : لن تراني .

وبعد أن بين أبو حيان للمعنى السليم الذي ينبغي أن توجه إليه الآية ، عرج على رأي الزمخشري فقال :

( وقال الزمخشري : (فإن قلت : كيف طلب موسى ذلك ، وهو من أعلم الناس بالله تعالى وصفاته ، وما يجوز على الله تعالى وما لا يجوز ، وبتعالیه عن الصفة التي هي إدراك ببعض الحواس ، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة ، وما ليس بجسم ولا عرض فمحال . ومنع المجرة إحاطة في العقول غير لازم ، لأنه ليس بأول مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد قال حين أخذتم الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة : أتأكلنا بما فعل السفهاء منا .. إلى قوله : تفضل بها من تشاء " فتبرأ من فعلهم ، ودعاهم سفهاء وضلالا ؟ قلت : ما كان طلبه الرؤية إلا ليستكثروا الذين دعاهم سفهاء وضلالا ، وتبرأ من فعلهم ، وليعلمهم الحق ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكروا عليهم ، وأعلمهم الخطأ ، ونبههم على الحق ، فلعجوا وتمادوا في لجاحهم ، وقالوا : لا يد ، ولن نؤمن لك حتى نراه ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك ، وهو قوله " لن تراني " ليتيقنوا ويتراج عنهم ما كان داخلهم من الشبهة ، فلذلك قال : رب أرني أنظر إليك . فإن قلت : فهلا قال " أرهم ينظرون إليك " قلت : لأن الله سبحانه إنما كلم موسى وهم يسمعون ، فلم يسمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته ، فيبصروه معه كما أسمعهم كلامه فسمعوه معه إرادة مبنية على قياس فاسد ، فلذلك قال موسى : أرني أنظر إليك . ولأنه إذا زجر عما طلب ، وأنكر عليه مع نبوته واختصاصه وزلفته عند الله ، وقيل له لن يكون ذلك ، كان غيره أولى بالإنكار ، ولأن الرسول أمام أمته فكان ما يخاطب به أو يخاطب راجعا إليهم . وقوله : أنظر إليك وما فيه من معنى للمقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم دليل على أنه ترجمة على مقترحاتهم وحكاية لقولهم ، وجل صاحب الجمل — إشارة إلى

<sup>1</sup> البحر المحيط : 4/382 وانظر المحرر الوجيز : 2/450

قول الأعرابي لما سئل : كيف عرفت ربك ولم تره ..؟ — أن يجعل الله منظورا إليه مقسابلا بحاسة النظر فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله من واصل بن عطاء وعمر بن عبيد والنظلم ، وأبي الهذيل والشيخين — أي أبو علي وابنه هاشم — وجميع للمسلمين .

فإن قلت : كيف قال : لن تراني ، ولم يقل : لن تنظر إلي ، لقوله " أنظر إليك " ؟ قلت : لما قال أرنى بمعنى اجعلني متمكنا من الرؤية التي هي الإدراك ، علم أن الطلبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه ، فقيل لن تراني ، ولم يقل لن تنظر إلي ..<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني " جعل الزمخشري ذلك الجبل تعبيرا عن غضب الله للترتب على طلبهم الرؤية ، حيث كان مسلويا من حيث فظاعته لغضبه تعالى ممن نسبوا إلى الله تعالى الولد ، وحيث وصف القرعان فظاعة هذه القرية بقوله<sup>2</sup> " لقد جثم شيئا إدا . يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا " فمن نسب إلى الله تعالى إمكانية رؤيته من طرف عباده ، كان في رأي الزمخشري كمن نسب إليه تعالى إمكانية اتخاذه ولدا .

وهنا قال أبو حيان : ( انتهى ، وهو على طريقة المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى ، ولهم في ذلك أقاويل أربعة :

— أحدها ما رووا عن الحسن وغيره أن موسى ما عرف أن الرؤية غير جائزة وهو عارف بعقله وبربه وتوحيده ، فلم يعد أن يكون العلم بامتناع الرؤية وجوازها موقوفا على السماع . ورد ذلك وبأنه يلزم أن تكون معرفته بالله أقل درجة من معرفة أزدال للمعتزلة ، وذلك باطل بالإجماع .

— ثانيها : قال الجبائي وابنه أبو هاشم : سأل الرؤية على لسان قوميه ، فقد كانوا مكثرين للمسألة عنها لا لنفسه ، فلما منع منها ظهر أن لا سبيل إليها . ورد بأنه لو كان

<sup>1</sup> . الكشاف : 153/2

<sup>2</sup> . سورة مريم : 89 — 93

كذلك لقال : أراهم ينظروا إليك ، ولقيل : لن تروني ، وأيضا لو كان محالا لمنعهم عنسه كما منعهم عن جعل الآلهة لهم بقوله <sup>1</sup> " إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ " .

— ثالثها : وقال الكعبي : سأله الآيات الباهرة التي عندها نزول الخواطر والوساوس عن معرفته كما تقول في معرفة أهل الآخرة . ورد ذلك بأنه يقتضي حذف مضاف ، وسياق الكلام يأي ذلك ، وقد أراه من الآيات ما لا غاية بعدها كالعصا وغيرها .

— رابعها : قال الأصم : المقصود أن يذكر من الدلائل السمعية ما يدل على امتناع الرؤية حتى يتأكد الدليل العقلي بالدليل السمعي . <sup>2</sup>

ولقد سكت أبو حيان عن الرد على هذا الرأي الأخير ، والظاهر أنه كان يرى أن في قول الأصم تخريجا محضا للآية على مذهب المعتزلة ، وأن تعسفه الواضح في صرف الآية عن معناها أغنى عن الرد عليه ، كما أن الأصم في هذا القول لم يضيف حديثا عما قاله من تقدمه ، بل هو شبيه بالرأي الأول للنسوب للحسن وغيره .

والذي يتجلى من سياق النصوص القرآنية أن سؤال موسى رؤية ربه ليس هو نفس سؤال بني إسرائيل موسى عليه السلام في قولهم : " لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً " <sup>3</sup> ، بل هما مشهدان متغايران ، حيث جاء الكلام عن سؤال موسى في معرض الكلام عن عظمة الله تعالى ، وهو ما يتفق مع ما ذهب إليه كل من السدي وأبي بكر الهذلي والزجاج فيما نقله أبو حيان سابقا ، وليس في رد القرعان بقوله تعالى : " لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ .. " إلخ إلا بيان لقدرة الله وعظمته ، وليس فيه ما يشير من قريب أو بعيد إلى غضب الله ونحوه كما حاول أن يفهمه الزمخشري . وأما الكلام عن قول بني إسرائيل " لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً " فإنه جاء كحلقة في سلسلة الحديث عن تعنت بني إسرائيل وسوء ضريتهم ، حيث استبعد القرعان الكرم إيمانهم لمحمد — ص — بعد أن قالوا تلك المقالة لنبيهم موسى الذي أراه من الآيات الباهرة الكثيرة ما على مثلها آمن البشر . فهل يستقيم في الأذهان أنهم سيؤمنون لمحمد بمجرد معرفتهم ببعض صفاته التي وردت

<sup>1</sup> . سورة الأعراف : 138

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 383/4

<sup>3</sup> . سورة البقرة : 54

عندهم في التوراة ٩ وهو معنى قوله تعالى " يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُخَلِّقَ لَهُمْ كِتَابًا مِثْلَ  
السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. " سورة النساء : 152

فمن الخطأ البين بل من المغالطة الواضحة أن يجعل الزمخشري قوله تعالى على لسان  
موسى عليه السلام " أرنى انظر إليك " هو نفسه قوله تعالى " لن نؤمن لك حتى نرى الله  
جهرة " بل هذا ضرب من التفسير الإشاري الذي عرض به الزمخشري وسخر منه في أكثر  
من موضع في كشافه ، ولو صح ما ذهب إليه لكان في كتاب الله تعالى مسن الغموض  
والإلباس ما يذهب عنه صفة الإحكام والإعجاز ، والله تعالى يقول " كِتَابٌ أُحْكِمَتْ  
آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ " .<sup>1</sup>

ومن أقوى الأدلة على صحة ما قلناه أن الصعقة التي نزلت بموسى عليه السلام قد  
خص بها وحده كما هو واضح في الآية " وخر موسى صعقا.. فلما أفاق قال سبحانك.."  
فكيف تناله الصعقة وحده وقد كان مجرد مترجم لقولهم ، كما أنه من الواضح أيضا عدم  
التطابق بين قوله تعالى " وخر موسى صعقا " وبين قوله " فأخذتكم الصاعقة .. " فالآية  
الأولى تدل على شدة دهشة موسى من هول ما رأى ، وفي الآية الثانية تدل على إرسال  
الصاعقة عليهم — من باب تعذيبهم — جزاء عنتهم .

ومن هنا فإن للصعقة التي أصابت بني إسرائيل ليس مجرد أنهم طلبوا الرؤية ، ولكن  
لأنهم علقوا إيمانهم على تحقيق هذا الطلب من بعد ما جاءتهم البينات ، ومكسب لهم في  
الأرض ، وفي ذلك يقول الفرعان الكرم " سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُفْرَ آتِنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ  
يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " سورة البقرة : 209

وأما قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : " أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ  
إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تُشَاءُ .. " <sup>2</sup> فهي إشارة لما وقع منهم من عبادة العجل ، وليس  
لطلب الرؤية ، وهذا ما أكد أبو حيان في البحر المحيط ، حيث نص على أن أخذهم  
بالرحمة إنما كان زمن اتخاذهم العجل ، وهو ليس الصعقة التي أخذتهم زمن طلبهم الرؤية <sup>3</sup>

١ . سورة هود : ١

٢ . سورة الأعراف : 155

٣ . البحر المحيط : 400/4

وهذا ما أكده صاحب التحرير والتنوير في قوله : ( واعلم أن سؤال موسى رؤية الله تعالى طلب على حقيقته كما يؤذن به سياق الآية ، وليس هو السؤال الذي سأله بنوا إسرائيل المحكي في سورة البقرة بقوله " وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " <sup>1</sup> ، وما تمحل به في الكشف من أنه هو ذلك السؤال تكلف لا داعي له . <sup>2</sup> )

ومع هذه الأدلة وغيرها التي تلوح لكل ناظر من هذه الآيات فإن الزمخشري عاد مرة أخرى عند قوله تعالى " فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ .. " <sup>3</sup> إلى تأكيد ما ذهب إليه سابقا ، وهو التهويل من خطورة تلك اللقاة ، وإثم من يتفوه بها ، فقال : ( فإن قلت : كان طلب الرؤية للفرض الذي ذكرتم فمم تاب ؟ قلت : عن إجرائه تلك اللقاة العظيمة ، وإن كان لفرض صحيح على لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى ، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية ؟ وكيف أرحف الجبل بطالبها وجعله دكا ، وكيف أصعقهم ، ولم يخجل كليمة من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه ملتجئا إليه ، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه ، وقال أنا أول للمؤمنين . ) <sup>4</sup>

ولم ينته الزمخشري عند توجيه الآيات هذا التوجيه القلق حتى سارع إلى التهجيم على المخالفين له من أهل السنة ، ورميهم بكل نقيصة ، لمجرد أنهم وجهوا هذه الآيات على ضوء تقريرهم لرؤية الله يوم القيامة الثابتة بالأحاديث المستفيضة ، علما بأننا إذا سلمنا بعدم جواز رؤية الله في الحياة الدنيا ، فإنه لا يستلزم عدم إمكانية رؤيته في الآخرة .

قال الزمخشري : ( ثم تعجب من للتسمين بالإسلام بالتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة منعبا ، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة <sup>5</sup> ، فإنه ممن منصوبات أشياخهم ، والقول ما قاله بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة هم لعمرى موفكة  
 قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فستروا بالبلكفة . <sup>1</sup>

<sup>1</sup> . سورة البقرة : 54 .

<sup>2</sup> . فطاحل بن هاشور ، تصحح التحرير والتنوير ، انصار التونسية للنشر ، والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ج 9/92 .

<sup>3</sup> . سورة الأعراف : 143 .

<sup>4</sup> . الكشاف : 155/2 - 156 .

<sup>5</sup> . البلكفة : هي فوط في إشارات الرؤية ، أو إشارات صفات الله تعالى والإيمان بها بلا كيف .

وهنا تصدى له أبو حيان لينود عن حياض الحق فقال :

( هو تفسير على طريقة للمعتزلة ، وسب لأهل السنة والجماعة على عاداته ، وقد نظم بعض علماء أهل السنة على وزن هذين البيتين وبجرهما ، أنشدنا الأستاذ العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بفرناطة — إجازة إن لم يكن سماعا — ونقلته من خطه قال : أنشدنا القاضي الأديب العالم أبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السموي بقراعي عليه عن أخيه القاضي أبي بكر من نظمه :

شبهت جهلا صدر أمة أحمد وذوي البصائر بالحمر الموفكة  
وزعمت أن قد شبهوا معبودهم وتخوفوا فتستروا بالبلكفة  
ورميتهم عن نبعة سويتها رمي الوليد غدا يمزق مصحفه  
وحب الخمار عليك فانظر منصفنا في آية الأعراف فهي للنصفة  
أترى الكلبيم أتى بجهل ما أتى وأتى شيوخك ما أتوا عن معرفة  
وبآية الأعراف وبك خلقتهم فوقفتم دون المراقبي للزلصفة  
لو صح في الإسلام عقدك لم تقل بالذهب للمهجور في نقي الصفة  
إن الوجوه إليه ناظرة بهذا جاء الكتاب فقلتم هذا السفة  
فالنفي مختصر بدار بعدها لك لا أبالك موعدا لن تخلفه .<sup>2</sup>

وبعيدا عن التلفيق الذي قال به الزمخشري بين الصعقة التي أصابت موسى عليه السلام بعد تجلي ربه للحبل ، وبين الصعقة التي أصابت بني إسرائيل ، فإن ترابسط العبارات في الآية من حيث نظمها يأتي أن يطابق للمعنى الذي قال به الزمخشري ، وللطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير تحليل لنظم الآية يرفع اللبس الذي أحاط به الزمخشري — عند الآية حيث قال : ( وسؤال موسى رؤية الله تعالى تطلع إلى زيادة للمعرفة بالجلال الإلهي ، لأنه لما كانت المواعدة تتضمن للملاقاة ، وكانت للملاقاة تعتمد رؤية الذات وسماع الحديث ، وحصل لموسى أحد ركني للملاقاة وهو التكليم ، أطمعه ذلك في الركن الثاني وهو للشاهدة ، وما يؤذن بأن التكليم هو الذي أطمع موسى في حصول الرؤية جعل جملة "

<sup>1</sup> . فكنس : 156/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 386/4

وكلمه ربه " شرطاً لحرف " لما " لأن " لما " تدل على شدة الارتباط بين شرطها وجوابها ، فلذلك يكثر أن تكون علة في حصول جوابها كما تقدم في قوله تعالى " فلما ذاقوا الشجرة بدت لهما سوءا فهما " في هذه السورة ، هذا على جعل " وكلمه " عطفاً على شرط " لما " وليس جواب لما ، ولا نشك في أنه سأل رؤية تليق بذات الله تعالى ، وهي مثل الرؤية للموعود بها في الآخرة ، فكان موسى يحسب أن مثلها ممكن في الدنيا ، حتى أعلمه الله بأن ذلك غير واقع في الدنيا . ولا يمتنع على نبي عدم العلم بتفاصيل الشؤون الإلهية قبل أن يعلمها الله إياه ، وقد قال الله لرسوله " وقل رب زدني علماً " <sup>1</sup> ، ولذلك كان أئمة أهل السنة محققين في الاستدلال بسؤال موسى رؤية الله على إمكانها بكيفية تليق بصفات الإلهية لا تعلم كنهها ، وهو معنى قولهم بلا كيف . وكان للمعتزلة غير محققين في استدلالهم بذلك على استحالتها بكل صفة .. وأما ما تبجح به الزمخشري في الكشف فذلك من عدوان تعصبه على مخالفيه على عادته ، وما كان ينبغي لعلماء طريقتنا التنازل لمهاجراته بمثل ما هاجمهم به ، ولكنه قال فأوجب . <sup>2</sup>

ثالثاً : عرضه لأقوال العلماء من السلف في فهم آيات العقائد وترجيحه لها من غير

تعصب .

ففي تفسير قوله تعالى : " الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِيبًا .. " سورة الأنعام : 53

يميل أبو حيان في تعيين معنى الإستواء إلى مذهب السلف فيقول : ( وأما استواءه على العرش فحمله على ظاهره من الاستقرار بذاته على العرش قوم ، والجمهور من السلف السفينان ومالك والأوزاعي والليث وابن المبارك وغيرهم في أحاديث الصفات على الإيمان بها ، وإمرارها على ما أراد الله تعالى من غير تعيين مراد ، وقوم تأولوا ذلك على عدة تأويلات .. وسأل مالك بن أنس رجل عن هذه الآية فقال : كيف استوى ؟ فأطرق

<sup>1</sup> . سورة ضة : 111

<sup>2</sup> . لتحرير والتحرير : 92/9



رأسه مليا وعلته الرخصاء ، ثم قال : الإستواء معلوم ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أظنك إلا ضالا ، ثم أمر به فأخرج .<sup>1</sup> وفي تفسير قوله تعالى : " هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ .. " سورة البقرة : 208

قال أبو حيان : ( والإتيان حقيقة في الانتقال من حيز إلى حيز ، وذلك مستحيل بالنسبة إلى الله تعالى ، فروى أبو صالح عن ابن عباس أن هذا من المكتوم الذي لا يفسر ، ولم يزل السلف في هذا وأمثاله يؤمنون به ، ويكلمون فهم معناه إلى علم للتكلم به ، وهو الله تعالى . وللتأخرون تأولوا الإتيان وإسناده على وجوه : أحدها : أنه إتيان على ما يليق بالله تعالى من غير انتقال .

الثاني : أنه عبر عن المحازات لهم والانتقام ، كما قال " فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ " ، " فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يُحْتَسِبُوا " .

الثالث : أن يكون متعلق الإتيان محذوفا ، أي أن يأتيهم الله بما وعدهم من الثواب والعقاب ، قاله الزجاج .

الرابع : أنه على حذف مضاف ، والتقدير أمر الله بمعنى ما يفعله هم لا الأمر الذي يقابله النهي ، وبينه قوله بعد " وقضى الأمر " .

الخامس : قدرته ، ذكره القاضي أبو يعلى عن أحمد .

السادس : أن " في ظلل " بمعنى بظلل ، فيكون " في " بمعنى الباء كما قال

خبيرون في طعن الأباهر والكلبي

أي بطعن ، لأن خبيرا لا يتعدى إلا بالباء كما قال :

خبير بأدواء النساء طيب

قاله الزجاج وغيره .

والأولى أن يكون للعنى أمر الله ، إذ قد صرح به في قوله " أو يأتي أمر ربك " وتكون

عبارة عن بأسه وعذابه ، لأن هذه الآية إنما جاءت بحىء التهديد والوعيد .

وقيل المحذوف آيات الله ، فجعل مجيئها له على التفخيم لسانها ، قاله في المنتخب .

<sup>1</sup> . نمر الهبط : 307/4

ونقل عن ابن جرير أنه قال : يأتيهم بحسابتهم على الغمام على عرشه تحمله ثمانية من الملائكة .<sup>1</sup>

وقيل الخطاب مع اليهود ، وهم مشبهة ، ويدل على أنهم اليهود قوله بعد " سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، وإذا كان كذلك فالمعنى أنهم لا يقبلون إلا أن يأتيهم الله ، فالآية على ظاهرها ، إذ للمعنى أن قوما ينتظرون إتيان الله ، ولا يدل ذلك على أنهم محقون أو مبطلون ."<sup>2</sup>

رابعا : الأخذ بظاهر النصوص القرآنية أولى من التأويل ، وهذا لا ينسائي القول بالمجاز فيما كان جاريا على المشهور في اللغة والمألوف من كلام العرب ، لأن القرعان الكرم نزل بلسان العرب وفيه الحقيقة والمجاز .

وقد شككت هذه المسألة موضع خلاف حساس بين العلماء لما لها من صلة قوية بتفسير الآيات التي وردت في بيان صفات الله تعالى .

قال الإمام جلال الدين السيوطي : وللعلماء في ذلك مذاهب ثلاثة :  
حيث ذهب أغلب للمتقدمين مثل سفيان الثوري<sup>3</sup> ومالك وابن المبارك<sup>4</sup> وابن عينة<sup>5</sup> ووكيع<sup>6</sup> وغيرهم ، إلى الإمساك عن الخوض فيها ، قالوا : نزوي هذه النصوص — من آيات وأحاديث — كما جاءت ، ونؤمن بما ، ولا يقال كيف ، ولا نفسر ولا نتوهم ..

<sup>1</sup> . جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج 448/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 124/2

<sup>3</sup> ، سفيان الثوري : هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله ، أمير المؤمنين في الحديث ، ومفسر ، مولده ومناشأه في الكوفة ، له تفسير القرآن الكرم ، ولد سنة : 97هـ وتوفي سنة : 161هـ . ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق مصطفى الشويخ ، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ص : 227

<sup>4</sup> . ابن المبارك : هو عبد الله بن المبارك بن واضح الخطمي بالولاء ، التميمي ، المروزي ، أبو عبد الرحمن ، الخافظ ، صاحب التصانيف والرحلة ، ألقى عمره في الأسفار حاجا ومجاهدا وضائعا للعلم ، قال الذهبي ك كان رأسا في العلم رأسا في الذكاء رأسا في الشجاعة الجهاد ، وهو قول من صنفي الجهاد ، توفي سنة : 181هـ . تذكرة الحفاظ : 274/1

<sup>5</sup> . ابن عينة : سفيان بن عينة بن عيمون اقلاني ، الكوفي ، أبو محمد ، محدث الحرم المكي ، مفسر فقيه ، سمع عمرو بن دينار والزهري والشافعي وابن حنبل ، قال الشافعي : نزل مالك وسفيان للذهب العلم بالمجاز ، له تفسير القرآن ، وهو عمدة الخطمي في الطب الكشف والبيان ، برواية سعيد بن عبد الرحمن المحرومي . الفهرست : 226 ، وصفات النبوي : 190/1 .

<sup>6</sup> : وكيعة : وكيعة بن الجراح بن مليح الرؤاسي ، أبو سفيان ، حافظ ثبت ، محدث العراق في عصره ، قال ابن حنبل : ما رأيت أحدا يوهي للعلم منه ولا أحفظ ، وكيعة غمام المسلمين ، له مصنفات منها تفسير القرآن . توفي سنة : 197هـ . ميزان الاعتدال : 335/4 . وصفات المفسرين للبلادي : 357/2 .

وذهبت طائفة من أهل السنة إلى أننا نؤولها على ما يليق بجلاله تعالى ، وهذا مذهب الخلف ، وكان إمام الحرمين يذهب إليه ثم رجع عنه فقال في الرسالة النظامية السذي نرتضيه ديناً وندين الله به عقداً اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها ، وقال ابن الصلاح<sup>1</sup> على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها ، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأبأها .

وتوسط ابن دقيق العيد<sup>2</sup> فقال : إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكسر ، أو بعيداً توقفتنا عنه وآمننا بمعناه على الوجه الذي أريد به مع التثنية ، وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب قلنا به بمن غير توقيف كما في قوله تعالى " يَا حَمْرَتَا عَلَىٰ مَا قَرَّبْتُ بِيَ جُنُبِ اللَّهِ " <sup>3</sup> فنحمله على حق الله وما يجب له . <sup>4</sup> والظاهر من النماذج التي وقفنا عليها من تفسير البحر المحيط أن أبا حيان يميل إلى هذا للمذهب الأخير الذي اختاره ابن دقيق العيد وغيره ، وهو للمذهب الذي يتفق مع روح الشريعة السمحاء ، وقامت الأدلة الكثيرة من القرعان والسنة وأقوال السلف على تقديمه على غيره ، فانتصر أبو حيان لهذا للمذهب ، ونقل الشواهد من السنة وأقوال الصحابة والتابعين ومن لغة العرب ما يجعله للمذهب الأقوى والأجدر بالاتباع ، ومن الأمثلة التي تدل على ميل أبي حيان لهذا للمذهب ما يأتي :

ففي تفسير قوله تعالى : " .. يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ " سورة البقرة : 25

يرى أبو حيان أنه لا مسوغ لصرف النص القرعاني عن ظاهره ما لم تقم قرينة قويصة موجبة لذلك فيقول : ( وإسناد الضلال إلى الله تعالى إسناد حقيقي كما أن إسناد الهداية

<sup>1</sup> . ابن الصلاح : عثمان بن عبد الرحمن ، صلاح الدين ، انكردي الشهرزوري ، أبو عمرو ، المعروف بابن الصلاح ، عارف بالحديث والفقه والتفسير والرجال ، قال ابن حلكان : كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه توفي سنة : 643هـ . طبقات المفسرين للتلودي : 377/1 .

<sup>2</sup> . ابن دقيق العيد : موسى بن علي بن وهب بن مغيص القشيري ، سراج الدين ، فقيه شافعي ، ولد سنة : 641هـ وتوفي سنة : 685هـ له مصنفات منها للمعنى في فروع الفقه الشافعي . نسكي ، طبقات الشافعية : 157/5 .

<sup>3</sup> . سورة الزمر : 53

<sup>4</sup> . الإقنان في علوم القرآن : 6/2 باختصار

كذلك ، فهو خالق الضلال والهداية ، وقد تؤول الإضلال بالإضلال عن طريق الجنسية ، والإضلال عن الدين في اللغة هو الدعاء إلى تقبيح الدين وتركه ، وهو الإضلال للمضاف إلى الشيطان ، والإضلال بهذا المعنى منتف عن الله بالإجماع .<sup>1</sup> كما وقف أبو حيان عند قوله تعالى : " يُؤْمِنُ بِمَا نُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا " سورة الزلزلة : 4 - 5

حيث حمل الزمخشري هذا التحديث على المجاز تبعاً لما قرره في تفسير قوله تعالى : " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " <sup>2</sup>

فرد أبو حيان هذا التأويل الذي يصادم الشواهد من السنة الصحيحة ، فقال : ( الظاهر أنه تحديث وكلام حقيقة ، بأن يخلق فيها حياة وإدراكا ، فتشهد بما عمل فيها من صالح وفاسد ، وهو قول ابن مسعود والثوري وغيرهما ، ويشهد له ما جاء في الحديث بأنه لا يسمع مدى صوت اللوذن جني ولا إنسي ولا شجر إلا شهد له يوم القيامة . وما جاء في سنن الترمذي عنه - ص - أنه قرأ هذه الآية ثم قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . فقال : إن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا يوم كذا وكذا ، قال : فهذه أخبارها <sup>3</sup> ، هذا حديث حسن صحيح غريب . ) <sup>4</sup>

ولكن أبا حيان لا يتردد في القول بالمجاز في اللواضع التي يرى فيها الصور المجازية متحققة بما تعرفه العرب من لغتها ، وبما اشتهر في استعمالاتها . ففي تفسير قوله تعالى : " .. وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " سورة الحديد : 4

قال أبو حيان : ( وهو معكم أين ما كنتم بالعلم والقدرة ، قال الثوري : للمعنى : علمه معكم ، وهذه الآية أجمعت الأمة على التأويل فيها ، وأنها لا تحمل على ظاهرها في المعية بالذات ، وهي حجة على من منع التأويل في غيرها مما يجري مجراها في استحالة الحمل

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 125/1

<sup>2</sup> . سورة يس : 81 . انظر الكشاف : 784/4

<sup>3</sup> . أخرجه الترمذي ، كتاب التفسير ، سورة الزلزلة .

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 500/8

على ظاهرها . وقال بعض العلماء فيمن يمتنع من تأويل ما لا يمكن حمله على ظاهره :  
وقد تأول هذه الآية ، وتأول الحجر الأسود بمين الله في الأرض ، لو اتسع عقله لتأول غير  
هذا مما هو في معناه .<sup>1</sup>

وهو للوقوف الذي جعله يقبل ما ذهب إليه الزمخشري والندبر بن سعيد البلوطي — وهو  
ينحو منحى الاعتزال — في تأويل قوله تعالى : "وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا" الفجر : 24  
حيث قال : ( " وجاء ربك " قال القاضي منذر بن سعيد معناه : ظهوره للخلق  
هنالك ، وليس بحجىء نقلة ، وكذا مجيء الطامة والصاححة ، وقيل : وجاء قدرته وسلطانه  
، وقال الزمخشري : هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قدرته وسلطانه ، مثلت حاله  
في ذلك بحال للملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة مسا لا يظهر  
بمحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه ، انتهى .<sup>2</sup>

بل ذهب أبو حيان إلى استحسان تأويل الزمخشري في مثل هذا ، وأظهر إعجابه بقوله ،  
وانتصر له بمختلف الأدلة ، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَقَالَتِ  
الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا إِمَّا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ .. " .  
سورة المائدة : 66

حيث عرض أبو حيان الآراء المختلفة في معنى قوله " بل يدها مبسوطتان " ثم اختار  
الرأي القائل بأن لفظ " يدها " خارج مخرج الاستعارة ، وهو الرأي الذي اختاره  
الزمخشري قبله ، فاستحسنه أبو حيان ، وقدمه على غيره ، محتجا بأنه التعبير الذي عرفته  
العرب في لغتها .

قال أبو حيان : ( " بل يدها مبسوطتان " معتقد أهل الحق أن الله تعالى ليس نجسم ولا  
جارية ولا يشبه بشيء من خلقه ولا يكيّف ولا يتحيز ، ولا تحله الحوادث ، وكل هذا  
مقرر في علم أصول الدين ، والجمهور على أن هذا استعارة عن جوده وإنعامه السابغ ،  
وأضاف ذلك إلى اليدين جاريا على طريقة العرب في قولهم : فلان ينفق بكنتا يديه ، ومنه  
قوله :

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 217/8

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 471/8

يداك يدا مجد فكف مفيدة وكف إذا ما ضمن بالمال تنفق

ويؤيد أن اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق ، ومن نظر في كلام العرب عرف يقيناً أن بسط اليد وقبضها استعارة للجود والبخل ، وقد استعملت العرب ذلك حيث لا يكون ، قال الشاعر :

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداء تلاعه ووهاده

وقال لييد :

وغداة ربح قد وزعت وقسرة قد أصبحت يد الشمال زمامها

ويقال : بسط اليأس كفه في صدري ، واليأس معنى لا عين وقد جعل له كفا .

ثم نقل أبو حيان كلام الزمخشري في هذا اللقاع من باب الإحتجاج به في الجانب البياني من لغة العرب فقال : ( قال الزمخشري : ومن لم ينظر في علم البيان عمى عن تبصر محجة الصواب في تأويل مثل هذه الآية ، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به ، ثم قال : فإن قلت : لم نيت اليد في " بل يده مبسوطتان " ، وهي مفردة في " يد الله مغلولة " ؟ قلت : ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ، ونفي البخل عنه ، وذلك أن غاية ما يبذله السخي بما له من نفسه ، وأن يعطيه يديه جميعاً فبني الجواز على ذلك . انتهى وكلامه في غاية الحسن . )<sup>1</sup>

وقيل عن ابن عباس : يدا نعمته ، فقيل هما مجازان عن نعمة الدين ونعمة الدنيا ، أو نعمة سلامة الأعضاء والحواس ، ونعمة الرزق والكفاية ، أو الظاهرة والباطنة ، أو نعمة اللطيف ونعمة النبات .

وما ورد مما يؤهم التحميم كهذا ، وقوله " لما خلقت بيدي " و " ومما عملت أيدينا " و " يد الله فوق أيديهم " و " لتصنع على عيني " ، " تعري بأعيننا " و " هالك إلا وجهه " ونحوها ، فجمهور الأمة أنها تفسر على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة ، وغير ذلك من ألفانين الكلام .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 524/3

( وقال قوم منهم أبو بكر بن الطيب : هذه كلها صفات زائلة على الذات ثابتة لله من غير تشبيه ولا تحديد . وقال قوم منهم الشعبي وابن المسيب والثوري : نؤمن بها وتقرر كما نصت ، ولا نعين تفسيرها ولا يسبق النظر فيها . )<sup>1</sup>

قال أبو حيان : ( وهذان القولان حديث من لم يعمن النظر في لسان العرب ، وهما للسألة وحججها في علم أصول الدين . )<sup>2</sup>

كما ذهب مذهب التأويل على قوانين لغة العرب ، مع الإفاضة في إيراد الشواهد الشعرية التي تعضد ما ذهب إليه في تفسير قوله تعالى : " يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ " سورة القلم : 42

حيث حمل كشف الساق على معنى الشدة ثم قال : ( وما جاء في الحديث من قوله " فيكشف لهم عن ساق " محمول أيضا على الشدة في ذلك اليوم ، وهو مجاز شائع في لسان العرب . قال حاتم :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا  
وقال الراجز :

عجبت من نفسي ومن إشفاقها ومن طراذي الخيل عن أرزاقها  
في سنة قد كشفت عن ساقها حمراء تبرى اللحم عن عراقها  
وقال الراجز :

قد شمرت عن ساقها فشلتوا وحدثت الحرب بكم فجلتوا  
وقال آخر :

صيرا إمام إن شرفاق وقامت الحرب بنا على ساق  
وقال الشاعر :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر البوارح

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 524/3

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 524/3

وقال ابن عباس : يوم يكشف عن شدة<sup>1</sup> ، وقال أبو عبيدة : هذه كلمة تستعمل في الشلثة ، يقال كشف عن ساقه إذا تشمر ، قال : ومن هذه تقول العرب لسنة الجذب : كشفت ساقها .<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فُوقَهَا.. "

سورة البقرة : 25

نقل أبو حيان خلاف للفسرين من السلف والخلف في نسبة صفة الحياء لذات الله تعالى ، هل هي على الحقيقة أم على المجاز ، ثم مال إلى القول بالمجاز تمشياً مع لسان العرب الذي عرف هذه الألفاظ من الكلام ، فما صح نسبه إليه تعالى عقلاً أجريناه على ظاهره ، وما استحال نسبه إليه حملناه على ما تفهمه العرب من لغتها وللمشهور في تعاملها وبما يليق بذات الله تعالى ، وتعضله الشواهد النقلية الأخرى من نصوص الكتاب والسنة .

قال أبو حيان : ( واختلف المفسرون في معنى الإستهياء للنسب إلى الله تعالى نفيه .

ف قيل للمعنى : لا يترك ، فعبر بالحياء عن الترك ، قاله الزمخشري وغيره ، لأن الترك من

ثمرات الحياء ، لأن الإنسان إذا استحيى من فعل شيء تركه ، فيكون من باب تسمية للسبب باسم السبب ،

وقيل للمعنى لا يخشى ، وسميت الخشية حياءً لأنها من ثمراته ، ورجحه الطبري ، وقد قيل

في قوله تعالى " وَتَخْشَى النَّاسَ " أن معناه تستحي من الناس ، وقيل للمعنى تمتنع .

وكل هذه الأقوال متقاربة من حيث للمعنى ، ويجوز أن يوصف الله تعالى بها ، وهنئذ

التأويلات هي على مذهب من يرى التأويل في الأشياء التي موضوعها في اللغة لا ينبغي أن

يوصف الله تعالى بها ، وقيل ينبغي أن تمر كما جاءت ، ونؤمن بها ولا نتأولها ، ونكسل

علمها إليه تعالى ، لأن صفاته تعالى لا يطلع على ماهيتها الخلق .

والذي عليه أكثر أهل العلم أن الله خاطبنا بلسان العرب ، وفيه الحقيقة والمجاز ، فما

صح في العقل نسبه إليه نسبناه إليه ، وما استحال أولناه بما يليق به تعالى ، كما يقول فيما

ينسب إلى غيره مما لا يصح نسبه إليه ، والحياء بموضوع الله — أي بما وضعت له اللغة —

<sup>1</sup> . في الإتيان للسبب " هذا يوم كرب وشدة " : 8/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 316/8



لا يصح نسبه إلى الله تعالى ، فلذلك أوله أهل العلم ، وقد جاء منسوبا إلى الله مثبتا فيما روي عن رسول الله - ص - أنه قال : " إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا " <sup>1</sup> . وأول بأن هذا جار على سبيل التمثيل ، مثل تركه تخيب العبد من عطائه لكرمه ، بترك من ترك المحتاج إليه حياء منه ، وقد يجوز أيضا في الإستحياء فنسب إلى ما لا يصح منه بحال كالكيت الذي أنشدناه قبل وهو :

إذا ما استحين للماء يعرض نفسه <sup>2</sup>

قال أبو تمام :

هو الليث ليث الغاب بأسا ونجدة وإن كان أحياء منه وجها وأكرما  
ويجوز أن يكون قوله تعالى " لا يستحي " على سبيل للمقابلة ، لأنه روي أن الكفار قالوا : أما يستحي رب محمد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت ، ومحسيء الشيء على سبيل للمقابلة وإن لم يكن من جنس اللقائل به شائع في لسان العرب ، ومنه " وجزاء سيئة سيئة مثلها " <sup>3</sup> .

ويتلخص من النظر في مجموع الأمثلة التي أوردناها أن أبا حيان الأندلسي يلتقي في هذا القدر من التأويل الجاري على لغة العرب مع الزمخشري ، فكان ينقل عنه بعض العبارات الصائبة في بيان هذه الصور المجازية مستحسنا لها ، ومشيدا بمهارته في مثل هذا للموضع ، ولكنه تفوق عليه في الوقت ذاته من عدة جوانب ، منها موضوعيته في مناقشة أدلة كل فريق ، وإنصافه للخصوم ، مع اعتداله في التعامل مع المواقف المتباينة في فهم وتفسير الآيات المتعلقة بالعقائد ، حيث التزم موقفا وسطا ، بعيدا عن الغلو والتطرف لفريق دون آخر ، فما كان جاريا على لغة العرب والمعروف من كلامها ، قال به دون توقف ، وما كان ظاهرا يمكن إجراؤه على ما يليق من صفات الله تعالى أجراه على ظاهره من غير تجسيم أو تعطيل أو تأويل ، وبذلك نجما مما وقع فيه الزمخشري في كشفه فاذهب بهما وكدر صفوه ، حتى صحت فيه مقالة ابن جزري للفسر في مقابلة تفسيره ،

<sup>1</sup> . أخرجه ابن ماجه في سننه عن سلمان ، كتاب الدعاء ، باب رفع اليدين في الدعاء . حديث رقمه : 3865 ، طبعة دار الكتاب

لنصري ، القاهرة . ودار الكتاب للناس ، بيروت .

<sup>2</sup> . الكتاب : 113/1

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 122/1

وهي كلمة تكاد تنفق على صحتها أقوال أهل العلم، حيث قال: (ومما بأيدينا من تآليف أهل للشرق تفسير أبي القاسم الزمخشري، فمسدد النظر، بارع في الإعراب، متقن في علم البيان، إلا أنه ملأ كتابه من مذهب المعتزلة وشرهم، وحمل آيات القرآن على طريقتهم، فتكدر صفوه، وتمرر حلوه، فخذ منه ما صفا، ودع منه ما كدر.)<sup>1</sup>

وهذا يتضح من جهة أخرى أن تفسير الكشاف للزمخشري إذا كان قد ذاع صيته واحتل الصدارة في جانب الكشف عن الإعجاز البلاغي للقرآن، وبذلك نال تلك الشهرة الواسعة، فإن ما جاء في هذا الفصل من بيان لمسلكه في للمباحث العقديّة يعكس صفو تلك الصورة، ويجعل تفوقه مقصورا على ما جاء في ذلك الجانب دون الجوانب الأخرى، ليبقى تفسير البحر المحيط متقدما عليه ومتفوقا تفوقا بارزا بما أقام عليه مباحثه العقلية من أسس فكرية وعلمية لقيت القبول والرضى من أهل العدل والإنصاف.

<sup>1</sup> . ابن حزمي، التسهيل في علوم القرآن، تحقيق محمد عبد المنعم انيس، وإبراهيم حمزة عوض، دار أم القرى لطباعة والنشر،

## الفصل الرابع

مسلكهما في مباحث آيات الأحكام

جامعة الأميرة  
عبد القادر للعلوم الإسلامية

# المبحث الأول

## مصادرها الفقهية في تفسير آيات الأحكام

### المطلب الأول : مصادر الزمخشري الفقهية

لم تقتصر اهتمامات الزمخشري العلمية على الدراسات النحوية واللغوية والبلاغية ، بل كانت له مشاركة في مختلف العلوم بما فيها الفقه ، وخير دليل على ذلك تلك المؤلفات للتعلمة التي وضعها في أكثر من مناهج فقهي ، ومن هذه المؤلفات :

— للنهارج ، في الأصول .

— الرائض في علم الفرائض .

— معجم الحدود ، في الفقه .

— رؤوس للسائل ، في الفقه .

— شاي العي من كلام الشافعي .

— شقائق النعمان في حقائق النعمان ، في مناقب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى .

فقد ذكرت كتب التراجم هذه الكتب كلها ضمن الإنتاج العلمي للزمخشري<sup>1</sup> ، وإن

كانت لم تصلنا ، ويبدو من خلال هذه العناوين أن الزمخشري كان له اهتمام بالدراسات

الفقهية ، وإن كان لم يشتهر بها ، وكان اشتغاله بالفقه على المنهجين الحنفي والشافعي ،

وهما للمنهجان الأغلب انتشارا في ذلك الإقليم ، إلا أنه كان يميل إلى المنهج الحنفي ويعتد

به ، فيقول في بعض أشعاره<sup>2</sup> :

وأسند ديني واعتقادي ومنهجي إلى حنفاء أختارهم وحنائفا

حنيفية أديانهم حنيفية مذاهبهم لا يتغنون الزعانفا

<sup>1</sup> . انظر مثلا ابن عسكري بردي ، انعموم الزمخشري : 274/5 ، وابن الجوزي ، المنتهى : 112/10 .

<sup>2</sup> . قصوي الجوزي ، صبح الزمخشري في تفسير القرآن : 179 . نقله من ديوان الأدب للزمخشري ، ورقة : 78 .

كما كان يعتبر اتباع المذهب الحنفي أصحاب فضل ومناقب فيقول : ( رضي الله عن العلماء الخاشعين من الله وحسابه ، جمعوا إلى الدين الحنفي العلم الحنفي )<sup>1</sup> .  
 ويقول : ( الدين والعلم حنفي وحنفي )<sup>2</sup> ولذا كان يعد من أعيان هذا المذهب ، وقد ترجم له صاحب تاج التراجم في طبقات الحنفية ، بل كان هو أيضا يعتبر نفسه أحد رجالات هذا المذهب ، فحيثما قال في كشافه : " وهو كذا عند أصحابنا " إنما يقصد أئمة الأحناف<sup>3</sup> .

وهكذا نجده يحمي في تفسيره الكشاف مستمدا مادته الفقهية من المذهب الحنفي بالدرجة الأولى ، مع الإكثار من ذكر آراء الشافعية في مواطن الخلاف ، وفي مواضع قليلة فقط يعرج على المذهب المالكي ، فيقل رأيه الفقهي في بعض المسائل دون تفصيل أو مناقشة ، والأمثلة الآتية تبين ذلك :

في تفسير قوله تعالى : " لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّفْظِ فِي آيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ .. " سورة البقرة : 223

قال الزمخشري : ( واللفظ من اليمين : الساقط الذي لا يعتد به في الأيمان ، وهو الذي لا عقد معه ، والدليل عليه " ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان " ، " بما كسبت قلوبكم " واختلف الفقهاء فيه ، فعند أبي حنيفة وأصحابه هو أن يخلف على الشيء يظنه على ما حلف عليه ، ثم يظهر خلافه ، وعند الشافعي : هو قول العرب لا والله ، وبلى والله بما يوكلون به كلامهم ، ولا يخطر ببالهم الحلف . )<sup>4</sup>

في تفسير قوله تعالى : " وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فِئْصَفٌ مَّا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ .. " سورة البقرة : 235

قال الزمخشري : ( .. يعني إلا أن تعفو للطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف للهر ، وتقول المرأة : ما رأي ولا خلعت ولا استمتع بي ، فكيف آخذ منه شيئا . أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن ، وهو من مذهب الشافعي ، وقيل هو الزوج ، وعفوه أن

<sup>1</sup> . الزمخشري ، أصول الفقه : 285/1

<sup>2</sup> الزمخشري ، نواع الكلم : 31

<sup>3</sup> . انظر مثلا الكشاف : 285/1

<sup>4</sup> . الكشاف : 228/1

يسوق إليها للمهر كاملا ، وهو من مذهب أبي حنيفة ، والأول ظاهر الصحة ، وتسمية الزيادة على الحق عفوا فيها نظرا .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ .. " سورة المائدة : 5

قال الزمخشري : ( ويستوي في ذلك جميع النصارى ، وعن علي رضي الله عنه أن استثنى نصارى بني تغلب ، وقال : ليسوا على النصرانية ، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر ، وبه أخذ الشافعي ، وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال : لا بأس ، وهو قول عامة التابعين ، وبه أخذ أبو حنيفة وأصحابه ، وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة ، وقال أصحابه : هما صنفان ، صنف يقرعون الزبور ويعلمون لللائكة ، وصنف لا يقرعون كتابا ويعلمون النجوم ، فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب ، وأما الجوس فقد سن لهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم . )<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .. " سورة النور : 2

قال الزمخشري : ( .. فإن قلت : أهذا حكم جميع الزناة الزواني ، أم حكم بعضهم ؟ قلت : بل هو حكم من ليس بمحصن منهم ، فإن المحصن حكمه الرجم ، وشرائط الإحصان عند أبي حنيفة ست : الإسلام ، والحرية ، والعقل ، والبلوغ ، والتزوج بنكاح صحيح ، والدخول ، إذا فقدت واحدة منها فلا إحصان . وعند الشافعي : الإسلام ليس بشرط ، لما روي أن النبي - ص - رجم يهوديين زنيا<sup>3</sup> ، وحجة أبي حنيفة قوله<sup>4</sup> - صلى الله عليه وسلم - من أشرك بالله فليس بمحصن )<sup>5</sup>

1 . انكشاف : 286/1

2 . انكشاف : 607/1

3 . متفق عليه من حديث ابن عمر .

4 . قال ابن حجر : ( أخرجه إسماعيل والدارقطني وتفرد به إسحاق . قلت : قال إسحاق في مسنده أن شيخه حدثه به مسرة أحسرى

مرفوعا ) انظر انكشاف 209/3 هامش : 2

5 . انكشاف : 209/3

ولا يكتفي الزمخشري في عرض مواضع الخلاف بذكر آراء للمذهبيين ، وما يتعلق به كل صاحب مذهب من دلالة الآية ، بل يستطرد لذكر أدلة كل مذهب من السنة النبوية وأقوال السلف ، مما يوحى بسعة أفق الزمخشري في مجال الفقه على أكثر من مذهب .  
 فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " الطَّلَاقَ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَقْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ .. " سورة البقرة : 227

قال الزمخشري : ( تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون ، بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بمواجههن ، وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم ، وقيل معناه : الطلاق الرجعي مرتان ، لأنه لا رجعة بعد الثلاث .. وعند أبي حنيفة وأصحابه الجمع بين التطلقين والثلاث بدعة والسنة أن لا يقع عليها إلا واحدة في طهر لم يجامعها فيه ، لما روى في حديث ابن عمر أن رسول الله - ص - قال له : إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا ، فتطلقها لكل قرئ تطلقه . وعند الشافعي : لا بأس بإرسال الثلاث ، لحديث العجلاني<sup>1</sup> الذي لا عن امرأته ، فطلقها ثلاثا بين يدي رسول الله - ص - فلم ينكر عليه . )<sup>2</sup>

وربما اكتفى الزمخشري بذكر رأي للمذهب الحنفي في الآية ، مع نقل الخلاف بين أئمة للمذهب الواحد إذا كان يرى ذلك يغطي ما اشتملت عليه الآية ، مثلما جاء في تفسير قوله تعالى : " .. فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ .. " سورة البقرة : 220  
 حيث تقتصر على نقل الخلاف بين أئمة الحنفية في القدر الذي يجب اعتزاله من للمرأة الحائض ، فقال : ( .. وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال ، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار ، ومحمد بن الحسن لا يوجب اعتزال إلا الفرج ، وروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن عمر سأها : هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض ؟ فقالت<sup>3</sup> : تشد إزارها على سفاتها ، ثم ليأشرها إن شاء ، وما روى زيد

<sup>1</sup> . الحديث متفق عليه . انظر صحيح مسلم ، كتاب النكاح ، 206/4

<sup>2</sup> . المكشاف : 273/1

<sup>3</sup> . رواه مالك في الموطأ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، كتاب الطهارة . ما ما نقل للرجل من امرأته وهي حائض .

بن أسلم أن رجلا سأل النبي - ص - ما يجعل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال<sup>1</sup>: " نشد عليها إزارها ، ثم شأنك وأعلاما . " ( 2 )

وفي بعض الأحيان نجد الزمخشري يوجه معنى الآية على رأي فقهي معين دون ذكر آراء المخالفين ، فحيثما اكتفى برأي واحد في الآية ، فهو رأي مذهبه الحنفي وإن لم يصرح به ، وهذا ما كان ينه عليه أبو حيان أحيانا في البحر المحيط .

ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً .. " سورة النساء : 24

حيث قال الزمخشري : ( فما استمتعتم به من للنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد عليهن ، فآتوهن أجورهن عليه ، )<sup>3</sup> انتهى . قال أبو حيان : ( وأدرج في الاستمتاع الخلوة الصحيحة على مذهب أبي حنيفة ، إذ هو مذهبه ، وقد فسر ابن عباس الاستمتاع هنا بالوطء ، لأن إتياء الأجر كاملا لا يترتب إلا عليه ، وذلك على مذهبه ومذهب من يرى ذلك . )<sup>4</sup>

ونجد الزمخشري كعادته ينقل آراء الأحناف من غير ذكر لمصادره ، فلا يجيل على كتاب من كتب للذهب ، ولا ينسب رأيا فقها إلى صاحبه أحيانا ، وهذا في الحقيقة يقلل من قيمة مادته الفقهية من هذا الجانب ، فلا ندري إذا قال مثلا : وعند أبي حنيفة ، أو عند الشافعي كذا لمن يرجع هذا القول من أئمة الحنفية وهم كثيرون ، ومن أي مصدر فقهي استقى نقل هذه الآراء الفقهية ، ومن ثم لا نعرف مدى شهرة هذا القول ووجاهته عندهم إلا إذا رجعنا نحن إلى مصادرهم .

ومن للمصادر التي رجع إليها الزمخشري في نقل الذهب الحنفي ولم ينبه عليها كتاب " أحكام القرعان " للحصان الحنفي<sup>5</sup> حيث نجد في مواضع عديدة من كشفه كلاما مطابقا

<sup>1</sup> . رواه مالك في الموطأ ، كتاب الطهارة ، باب ما يجعل للرجل من امراته وهي حائض ، رقم : 98

<sup>2</sup> . الكشف : 265/1

<sup>3</sup> . الكشف : 497/1

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 218/3

<sup>5</sup> . هو أحمد بن علي الرازي ، أبو بكر الحصان ، إمام أصحاب الري في وقته ، تصدر للتدريس بعداد ، قال الخطيب البغدادي : انتهت إليه رئاسة الحنفية ، ورجل إليه المتفهمة ، وحرف في أن يولي القضاء فامتنع ، توفي سنة : 370 هـ . انظر : انوار العصابة : 84/1



لما قاله الجصاص مع شيء يسير من التصرف ، ويبدو أن تأثره به راجع لما وجد عنده من ميول اعتزالية صرح بها في عدة مواطن من هذا للمصنف<sup>1</sup> وهذه بعض الأمثلة التي تسدل على استفادته منه :

ففي تفسير قوله تعالى : " الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ " سورة الحج : 39

قال الزمخشري : ( .. وقالوا : فيه دليل على صحة إمامة الخلفاء الراشدين ، لأن الله لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين ، لاحظ في ذلك للأنصار والطلقاء . )<sup>2</sup>

ففي أحكام القرعان للجصاص ما نصه : ( وهذه صفة الخلفاء الراشدين ، الذين مكنتهم الله في الأرض ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وفيه الدلالة الواضحة على صحة إمامتهم ، لإخبار الله تعالى بأنهم إذا مكثوا في الأرض قاموا بفروض الله عليهم ، وقد مكثوا في الأرض فوجب أن يكونوا أئمة قائمين بأوامر الله منتهين عن زواجره ونواهيه ، ولا يدخل معاوية في هؤلاء ، لأن الله إنما وصف بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ، وليس معاوية من المهاجرين ، بل هو من الطلقاء . )<sup>3</sup>

ونحن لا نشكك في صحة إمامة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، وإنما نقول بأن قصر الآية على سبب نزولها هو تضييق لمعناها وتخصيص من غير محصص ، بل هي عامسة في كل من وفى بعهد الله ، وحفظ أمانة الله بعد توليه أمر المسلمين ، وتوجيه الآية على ما ذهب إليه الجصاص وتابعه فيه الزمخشري لا يخلو من تأثر واضح بمواقف سياسية عند المعتزلة تجاه خلفاء بني أمية .

وفي تفسير قوله تعالى : " وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. " سورة النور : 53

بعد الزمخشري يقول : ( الخطاب لرسول الله - ص - ولن معه ، ومنكم لليمان ، كالتي في آخر سورة الفتح ، وعلمهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ، ويورثهم الأرض ،

<sup>1</sup> . انظر النهي ، التفسير والفسر : 441/2

<sup>2</sup> . الكشاف : 160/3

<sup>3</sup> . الجصاص ، أحكامه القرعان . دار المكر للطباعة والنشر والتوزيع . ج-303/2

ويجعلهم فيه خلفاء كما فعل بيني إسرائيل ، حين ملكهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة .. فأبجز الله وعده ، وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتحوا بلاد للشرق وللغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا ، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم ، فكفروا بتلك الأنعم وفسقوا ، وذلك قوله <sup>1</sup> — ص — " الخليفة بعدي ثلاثون سنة ، ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكا ، ثم تصير بيزي ، قطع سبيل ، وسفك دماء ، وأخذ أموال بغير حقها .. " فإن قلت : هل في هذه الآية دليل على أمر الخلفاء الراشدين ؟ قلت أوضح دليل وأبينه ، لأن للمستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم ( . 2 )

فهذا الكلام مأخوذ من أحكام القرعان للخصاص مع شيء يسير من التصرف . حيث يقول الخصاص : ( وفيه الدلالة على صحة إمامة الخلفاء الأربعة أيضا ، لأن الله استخلفهم في الأرض ، ومكن لهم كما جاء الوعد ، ولا يدخل فيهم معاوية ، لأنه لم يكن مؤمنا في ذلك الوقت . ) <sup>3</sup>

والذي يؤكد نقل الزمخشري عن الخصاص في مثل هذا للموضع كون الآية لا تسدل بالضرورة على ما ذهب إليه ، وإنما هو توظيف لها بما يتخدم توجهها للنهي ، وقد حاول الزمخشري أن يعزز هذا الرأي فأورد الحديث السابق ، وفيه كلام مدرج وعلامات الوضع عليه بادية . ومع هذا فإن الزمخشري لم يصرح ولو مرة واحدة بهذا المصدر أو غيره . كما يبدو بعد التبع لما نقله الزمخشري عن للذهب الشافعي أنه أفاد من كتاب " أحكام القرآن " للكنيا الكراسي الشافعي <sup>4</sup> ، ولكنه لم ينقل النصوص بحرفيتها ، بل يكتفي ببيان ما ذهب إليه أئمة الشافعية من استنباط الأحكام من الآيات دون توسع أو مناقشة . ومع عدم توسع الزمخشري في هذا الجانب من كشافه ، فإنه ينهت به الاستطراد أحيانا . ليمضي في ذكر تفاصيل خاض فيها الفقهاء ، وإن كانت لا تدخل تحت مدلول

<sup>1</sup> . قال ابن حجر في شرحه : لم أعده ، وأوله في السير . انظر الكافي الشافعي .. على هامش الكتاب : 251/3 اضمحلت : 4

<sup>2</sup> . الكتاب : 251/3

<sup>3</sup> . الخصاص ، أحكام القرعان : 15/2

<sup>4</sup> . علي بن محمد بن علي ، أبو الحسن الطبري ، المعروف بالكنيا الكراسي ، فيه شافعي أصول . متكلم مصر ، ثقة على علم الحرمين ، ودرس بالنظامية إلى أن مات سنة : 504هـ . انظر : شذرات الذهب : 8/4 . وابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، لبنان . ج 167/9 .

الآية ، وإنما هي مستفادة من مجموع أحكام الشريعة ، وقد اقتصر الزمخشري في هذا أيضا على ما جاء في المذهب الحنفي ، مقارنة له بالمذهب الشافعي في الأغلب الأعم من تفسيره ، ومن الأمثلة على ذلك :

ففي تفسير قوله تعالى : " وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَلَجِبُوا لَهُمْ مِائِينَ جَلْدَةٍ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " سورة النور : 4

نجد الزمخشري يفصل القول في أحكام القذف ، فيتحدث عن معنى القذف وشروطه ومختلف أحكامه ، مع نقل آراء للذهبيين ، فيقول : ( القذف يكون بالزنى وبغيره ، والذي دل على أن المراد قذفهن بالزنى شيان ، أحدهما : ذكر المحصنات عقيب الزواني ، والثاني اشتراط أربعة شهداء ، لأن القذف بغير الزنى يكفي فيه شاهدان ، والقذف بالزنى أن يقول الحر العاقل البالغ للمحصنة : يا زانية ، أو لمحصن : يا زان ، ويا ابن السزائي ، يا ابن الزانية ، يا ولد الزنا ، لست لأبيك .. والقذف بغير الزنا أن يقول : يا أكل الربا ، يا شارب الخمر ، يا يهودي ، يا مجوسي ، يا فاسق ، يا خبيث ، يا ماص بظر أمه .. فعليه التعزير ، ولا يبلغ به أدنى حد العييد وهو أربعون ، بل ينقص منه . وقال أبو يوسف : يجوز أن يبلغ به تسعة وسبعون ، وقال : للإمام أن يعزر إلى المائة . وشروط إحصان القذف خمسة : الحرية ، والبلوغ ، والعقل والإسلام والعفة ، وقرئ بأربعة شهداء — بالتتوين — وشهداء صفة ، فإن قلت : كيف يشهدون مجتمعين أو متفرقين ؟ قلت : الواجب عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم أن يحضروا في مجلس واحد وإن جاءوا متفرقين كانوا قنفة . وعند الشافعي رضي الله عنه يجوز أن يحضروا متفرقين ، فإن قلت : هل يجوز أن يكون زوج للمقذوفة واحدا منهم ؟ قلت : يجوز عند أبي حنيفة خلافا للشافعي ، فإن قلت : كيف يجلد القاذف ؟ قلت كما جلد الزاني ، إلا أنه لا يترع عنه نيايه إلا ما يترع عن المرأة من الحشو والفرو ، والقاذفة أيضا كالزانية ، وأشد الضرب ضرب التعزير ، ثم ضرب الزنا ، ثم ضرب القاذف ، قالوا : لأن سبب عقوبته محتمل الصديق والكذب ، إلا أنه عوقب لصيانة للأعراض ، وردعا عن هتكها ، فإن قلت : فإذا لم يكن للمقذوف محصنا ؟ قلت : يعزر القاذف ولا يجد ، إلا أن يكون للمقذوف معروفا بما قذف به ، فلا حد ولا تعزير . ) ثم يقف الزمخشري عند طرف الآية وهو " ولا تقبلوا لهم

شهادة أبدا " فينقل رأي الإمامين في قبول شاهدة القاذف بعد توبته ، مع توجيه رأي كل إمام وفق ما فهمه من نص الآية فيقول : ( رد شهادة القاذف معلق عند أبي حنيفة باستيفاء الحد ، فإذا شهد قبل الحد ، أو قبل تمام استيفائه قبلت شهادته ، فإذا استوفى لم تقبل شهادته أبدا ، وإن تاب وكان من الأبرار الأتقياء . وعند الشافعي رضي الله عنه ، يتعلق رد شهادته بنفس القذف ، فإن تاب عن القذف بأن رجع عنه ، عاد مقبول الشهادة . وكلاهما متمسك بالآية ، فأبو حنيفة رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الذي هو الرمي : الجلد ، ورد الشهادة عقيب الجلد على التأيد ، فكانوا مردودي الشهادة عنه في أبلهم وهو مدة حياتهم ، وجعل " وأولئك هم الفاسقون " كلاما مستأنفا غير داخل في حيز جزاء الشرط ، كأنه حكاية حال الرامين عند الله بعد انقضاء الجملة الشرطية ، و" إلا الذين تابوا " استثناء من الفاسقين ، ويدل عليه قوله " فإن الله غفور رحيم " . والشافعي رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الجملتين أيضا ، غير أنه صرف الأبد إلى مدة كونه قاذفا ، وهي تنتهي بالتوبة والرجوع عن القذف ، وجعل الاستثناء متعلقا بالجملة الثانية ، وحق للمستثنى عنه أن يكون مجرورا بدلا من " هم " في " لهم " . وحقه عند أبي حنيفة رضي الله عنه أن يكون منصوبا لأنه عن موجب .<sup>1</sup>

ولا يقف الزمخشري أمام مثل هذا الخلاف الذي مرجعه إلى اللغة ساكنا ، بل يحاول أن يحسمه بما يتبدى له من نظم الآية وسياقها فيقول : ( والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها أن تكون الجمل الثلاث مجموعهن جزاء الشرط ، كأنه قيل : ومن قذف المحصنات فاجلدوهن وردوا شهادتهن وفسقوهن ، أي اجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق ، إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فإن الله يغفر لهم ، فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين . )<sup>2</sup>

وبعد كل هذا يستطرد الزمخشري إلى بعض الأحكام التي لا تدخل بحال تحت معنى الآية فيقول : ( ويحسن من الإمام أن يحمل للقذوف على كظم الفيظ ، ويقبول له : أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحد ، فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعرض لأنه خالص حق الله ، ولهذا لم يصح أن يصلح عنه مجال ، فإن قلت : هل يورث الحد ؟

<sup>1</sup> . الكنف : 213/3

<sup>2</sup> . الكنف : 214/3

قلت عند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يورث لقوله - ص - " الحد لا يورث " وعند الشافعي رضي الله عنه يورث . وإذا تاب القاذف قبل أن يثبت الحد سقط .<sup>1</sup> وفي تفسير قوله تعالى : " الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. " سورة النور : 2

نجد الزمخشري يستطرد لبيان بعض أحكام الجلد وصفته على اللذنين الحنفي والشافعي مما لا تدل عليه الآية ، وإنما هو مستفاد من السنة الفعلية للنبي - ص - فيقول : ( وعلى الإمام أن ينصب للحدود رجلا عالما ، بصيرا ، يعقل كيف يضرب ، والرجل يجلد قائما على مجردة - أي للكشوف عن الثياب - ليس عليه إلا إزاره ، ضربا وسطا ، لا مبرحا ولا هينا ، مفرقا على الأعضاء كلها ، لا يستثنى منها إلا ثلاثة ، الوجه والرأس والفرج . وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم . والمرأة تجلد قاعلة ، ولا يترع من ثيائها إلا الحشو والفرو ، وهذه الآية استشهد أبو حنيفة على أن الجلد حد غير المحصن بلا تغريب . وما احتج به الشافعي على وجوب التغريب من قوله - ص - " البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام " ، وما يروى عن الصحابة أنهم جلسوا ونفسوا ( منسوخ عنده وعند أصحابه بالآية ، أو محمول على وجه التعزير والتأديب من غير وجوب ، وقول الشافعي في تغريب الحر واحد ، وله في العبد ثلاثة أقاويل .. )<sup>2</sup>

بل يذهب به الاستطراد أحيانا إلى الخوض في أحكام لا صلة للنص القرآني بما من قريب أو بعيد ، ومن ذلك مثلا كلامه عن أثر الخلطة والشركة في أنصبة الزكاة عند تفسيره لقوله تعالى : " لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ .. " سورة ص : 23

قال الزمخشري : ( الخلطاء ، الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، الواحد خليط ، ، وهي الخلطة ، وقد غُبت في الماشية ، والشافعي رحمه الله يعتبرها ، فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة ، أو لكل واحد منهما ماشية على حدة ، إلا أن مراحسهما واحد ، ومساقهما وموضع حليهما والراعي والكلب واحد ، والفحولة مختلطة ، فسهما يزكيان زكاة الواحد ، فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة ، وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة

<sup>1</sup> . الكشاف : 214/3

<sup>2</sup> . الكشاف : 210/3

وعشرون لكل واحد أربعون ، فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد ، وعند أبي حنيفة لا تعتبر الخلطة ، والخليط والمنفرد عنده واحد ، ففي أربعين بين خليطين لا شيء عنده ، وفي مائة وعشرين بين ثلاثة : ثلاث شياه ، فإن قلت : فهذه الخلطة ما تقول فيها ؟ قلت عليهما شاة واحدة ، فيجب على ذي النعمة والواحدة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله ، وعند أبي حنيفة لا شيء عليه .<sup>1</sup>

ويتكرر مثل هذا الاستطراد في تفسير الكشاف إذا كان في الآية ما له صلة ببعض آرائه الاعتزالية أو السياسية ، مثل أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما لهما من علاقة بالحسن والقبح العقليين ، فيتوسع في الكلام في هذه الآيات ، ناقلاً بعض أقوال شيوخ المعتزلة ليكون حكماً في موضع الخلاف .

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " سورة آل عمران : 104 حيث نجد يعصي شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم يقول : ( والأمر بالمعروف تابع للمأمور به وإن كان واجباً فواجب ، وإن كان ندباً فندب ، وأما النهي عن المنكر فواجب كله ، لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح ، فإن قلت مساً طريق الوجوب ؟ قلت قد اختلف فيه الشيخان ، فعند أبي علي السمع والعقل ، وعند أبي هاشم : السمع وحده . فإن قلت ما شرائط النهي ؟ قلت أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح ، لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن ، وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعاً ، لأن الواقع لا يحسن النهي عنه ، وإنما سيحسن الدم عليه والنهي عن أمثاله ، وأن لا يغلب على ظنه أن للنهي يزيد في منكراته ، وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عيب . فإن قلت : فما شروط الوجوب ؟ قلت : أن يغلب على ظنه وقوع المعصية ، نحو أن يرى الشارب قد تمياً لشرب الخمر بإعداد آلاته ، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة . فإن قلت : كيف يباشر الإنكار ؟ قلت يتدبى بالسهل ، فإن لم يتفح ترقيسى إلى الصعب ، لأن الغرض كف المنكر .. فإن قلت : فمن يباشره قلت : كل مسلم يمكن منه واختص بشرائطه ، وقد أجمعوا أن من رأى غير تاركها للصلاة وحب عليه الإنكار ، لأنه

<sup>1</sup> . الكنف : 87/4

معلوم قبحة لكل أحد ، وأما الإنكار الذي بالقتال فالإمام وخلفاؤه أولى ، لأهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها ، فإن قلت : فمن يؤمر ومن ينهى ؟ قلت كل مكلف ، وغير المكلف إذا هم بضرر غيره منع ، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعودوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليعمرنوا عليها ، فإن قلت : هل يجب على مرتكب للنكر أن ينهى عما يرتكبه ؟ قلت : نعم يجب عليه ، لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه ، فتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الآخر .. <sup>1</sup>

ومن للواضع التي استورد فيها الزمخشري متأثرا بنظرته السياسية ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ مُّشْتَبِهَاتٍ قَالَ إِنِّي عَلَىٰ صَبْرٍ مُّسْتَمِرٍّ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الظَّالِمِينَ " سورة البقرة : 123

حيث وقف عند قوله " لا ينال عهدي الظالمين " ليستنبط منها علم جواز الإمامة الكبرى للفاسق ، ليطلق لسانه بعلثذ في بعض أئمة بني أمية ، مبدئيا تحيزه ونصرته لأئمة أهل البيت ، وهو في ذلك — حسب رأيه — مقتد بالإمام أبي حنيفة الذي كان يناصر زيد بن علي ، ويدعو الناس لموازرتة والخروج معه .

قال الزمخشري : ( وقالوا في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة ، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه ، ولا شهادته ، ولا طاعته ، ولا يقبل خبره ، ولا يقدم للصلاة ؟ وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يعني سرا بوجود نصرته زيد بن علي ، وحمل للال إليه ، والخروج معه على اللص للتغلب للتسمي بالإمام والخليفة ، كالدوانيقي وأشباهه ، وقالت له امرأة : أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسين حتى قتل ، فقال : ليتني مكان ابنك . وكان يقول في المنصور وأشياعه : لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عد آجره لما فعلت ، وعن ابن عينة : لا يكون الظالم إماما قط ، وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة ، والإمام إنما هو لكف للظلمة ، فإذا نصب من كان ظلما فقد جاء للثل السائر " من استرعى للثب فقد ظلم " . <sup>2</sup>

ولا يخفى ما في كلام الزمخشري هنا من مبالغة في تحميل الآية الكريمة ما لا تختمل به ، واستطراد لغير ما سيقنت له الآية ، كما لا يخفى أيضا تعسفه في توجيه الآية لما كان يدين

<sup>1</sup> . الكشاف : 398/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 184/1

به من أفكار و آراء سياسية ، مما جعل أبا حيان هو الآخر يستطرد لينقل كلام الزمخشري بنصه ، مينا لللابسات التي حملت الزمخشري على هذا الاستطراد ، و صرف الآية لتقرير تلك المواقف والآراء .

قال أبو حيان — بعد أن نقل كلام الزمخشري — : ( .. انتهى كلامه ، وزيد بن علي الذي ذكره هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو أخو محمد الباقر بن علي ، وإليه تنسب الزيدية اليوم ، وكان من أهل العلم والفقه والفهم في القرآن والشجاعة ، وإنما ذكره الزمخشري لأنه كان بمكة مجاورا للزيدية ، ومصاحباً لهم ، وصنف كتابه الكشاف لأجلهم ، واللص للتغلب للتسمي بالإمام والخليفة الذي ذكره الزمخشري هو هشام بن عبد الملك ، خرج عليه زيد بن علي ، وكان قد قال لأخيه الباقر : مالك لا تقوم وتدعو الناس إلى القيام معك ؟ فأعرض عنه وقال له : لهذا وقت لا يتعداه ، فدعا إلى نفسه وقال : إنما الإمام منا من أظهر سيفه ، وقام بطلب حق آل محمد ، لا من أرخى عليه ستوره وجلس في بيته ، فقال له الباقر يا زيد إن مثل القائم من أهل هذا البيت قبل قيام مهديهم مثل فرخ غرض من عشه قبل أن يستوي جناحاه ، فإذا فعل ذلك سقط ، فأخذ الصبيان يتلاعبون به ، فاتق الله في نفسك أن لا تكون المصلوب غدا بالكناسة ، فلم يلتفت زيد لكلام الباقر ، وخرج علي هشام فظفر به وصلبه على كناسة الكوفة ، وأحرقه بالنار ، وكان كما حذره الباقر . وأما اللواتي فيهم للنصور أخو السفاح ، سمي بذلك قيل لبخله ، وقد ذكر بعض المصنفين أنه لم يكن بخيلاً ، وذكر من عطائه وكرمه أخباراً كثيرة .. )<sup>1</sup>

وفي مواضع قليلة من الكشاف نجد الزمخشري لا يكتفي بعرض آراء للذهين الحنفي والشافعي ، بل يعرج على بعض المذاهب السنية الأخرى كالمنهج للمالكي مثلاً ، فينقل بعض ما ذهب إليه مالك رحمه الله ، ولكن من غير تفصيل أو بيان لوجه الاستدلال ، كما أنه لا يجيل على مصدره بل يكتفي بنسبة للقول إلى إمام المذهب ، وهو مالك بن أنس رحمه الله تعالى .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 378/1



ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك .. " نقل آراء المذاهب في صفة صلاة الخوف فقال : ( .. وصفة صلاة الخوف عند أبي حنيفة أن يصلي الإمام بإحدى الطائفتين ركعة إن كانت الصلاة ركعتين ، والأخرى بإزاء العدو ، ثم تقف هذه الطائفة بإزاء العدو وتأتي الأخرى فيصلي بها ركعة ويتم صلاته ، ثم تقف بإزاء العدو ، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تحرس ، وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها ، والسجود على ظاهره عند أبي حنيفة ، وعند مالك بمعنى الصلاة ، لأن الإمام يصلي عنده بطائفة ركعة ويقف قائما حتى تتم صلاتها وتسلم وتذهب ، ثم يصلي بالثانية ركعة ويقف قاعدا حتى تتم صلاتها ويسلم .<sup>1</sup>

ويتبين لنا من مجموع هذه المادة الفقهية التي ضمنها الزمخشري تفسيره الكشاف أنه كان على صلة وثيقة بمصادر الفقه الإسلامي في أكثر من منزه من المذاهب المشهورة ، كما نقل مادة فقهية معتبرة أيضا عن بعض كتب التفسير ، وبخاصة تلك التي غلب عليها الاتجاه الفقهي ، وربما كان بعضها لأئمة المعتزلة ، أو من يلتقي معهم في بعض الآراء الفكرية والسياسية ، فكان تعامله مع هذه المصادر قائما على الانتقاء من الأحكام ما يراه منحها إلى معنى الآية التي يفسرها ، دون إطناب أو استطراد إلا في مواطن قليلة ، وهو النهج الذي سلكه في مختلف جوانب تفسيره ، إلا أن سكوتة عن مصادر الفقهية يعتبر أحد العيوب التي لازمت جهد الزمخشري وقللت منه ، وبخاصة تلك المصادر التي كان ينقل منها حرفيا ولم يزد عليها إلا تلك الديداجة اللغوية التي لا يخرجها عن معنى النقل والاقتناس بحال من الأحوال .

كما أبدى قدرا من الموضوعية والإنصاف في تعامله مع اللخالفين ما لم يبد في الجوانب الأخرى من كشافه ، إلا في مواضع معينة كانت لها علاقة بقضايا احتدم فيها الصراع منذ زمن غير قليل ، وصار الخوض فيها مشحونا بميل ذاتية واضحة ليس عند الزمخشري فقط ، بل عند أغلب من اقتحم هذا لئيدان من الصراع والتدافع .

<sup>1</sup> . الكشاف : 1/650

## المطلب الثاني : مصادر أبي حيان الفقهية

كان أبو حيان هو الآخر صاحب اهتمام بالدراسات الفقهية ، ومهما غلب عليه تكوينه اللغوي فإن هذا لم يمنعه من التحصيل في الجانب الفقهي حتى عرف به ، حيث كان ينعت بأنه ظاهري للمذهب ، وهو المذهب الذي نشأ عليه بالأندلس وفتح به ، فكان يروى عنه قوله : محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من عرفه .. ، وقد حمله ذلك على دراسة كتاب " المحلى " لابن حزم الظاهري ، ولما زاد إعجاب به وضع له مختصرا سماه " الأنوار المحلى في اختصار المحلى " كما كان ينقل بعضا من كلامه في غير من موضع في البحر المحيط ، من ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَاُولَٰئِكَ يُتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " البقرة : 158 حيث يقول : وقال الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم القرطبي فيما سمع منه أسرو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي الحافظ : الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله أن يستعمله جهله ، ويقرئه بقدر طاقته ، ويحققه ما أمكنه ، بل لو أمكنه أن يهتف به على قسوارع طرق للمارة ، ويدعو إليه في شوارع السابلة ، وينادي عليه في مجامع السيارة ، بل لو تيسر له أن يهب للمال لطلابه ويجري الأجر لمقتبسيه ، ويعظم الأفعال للباحثين عنه ، صابرا في ذلك على للشقة والأذى ، لكان ذلك حظا جزيلًا ، وعملا جيدا وسعدا كريما ، وإحياء للعلم ، وإلا فقد درس وطمس ، ولم يبق منه إلا آثار لطيفة وأعلام دائرة .<sup>1</sup>

ولما خرج إلى المشرق واستقر بالقاهرة قيل أنه استمر على مذهبه الأول ، وقيل أنه تحول إلى للمذهب الشافعي ، وهو الأشهر والأظهر ، والدليل على ذلك أنه ألسف هناك كتابا في الفقه الشافعي وهو " الرواج في اختصار للنهاج " اختصر فيه كتاب " منهاج الطلاب " ، وهو مختصر كتاب " المحرر في فقه الشافعي " للإمام النووي . وهكذا جمع أبو حيان في تكوينه الفقهي بين للمذهب الظاهري وللمذهب الشافعي ، وقد تجلى هذا التكوين في للمادة الفقهية التي دبح بها تفسيره البحر المحيط . كما يغلب الظن أيضا أن أبنا حيان

<sup>1</sup> . نشر اضبط : 459/1

الأندلسي كان على اطلاع كاف على مصادر المذاهب الفقهية الأخرى ، السنية والشيعة وغيرها ، وقد أفاد منها بشكل مباشر كما يفهم من كتابه البحر المحيط ، فكسان تسارة يقتبس حرفيا مع التنصيص على ما نقله منها ، وتارة يحيل عليها بأسمائها ، مع إشارته إلى طريقة إفادته منها ، مما زاد في قيمة هذه المادة الفقهية التي اعتمدها ، وأقام عليها تفسير آيات الأحكام في كتابه البحر المحيط ، وهي مصادر كثيرة جدا مقارنة بما اعتمده الزمخشري في كشافه .

ويمكن تقسيم مصادر أبي حيان في تفسير آيات الأحكام إلى قسمين :

### القسم الأول : مصادر أساسية

وهي التفاسير التي اعتمدها كمصادر أساسية في انتقاء وجمع تفسيره البحر المحيط في مختلف جوانبه بما فيها للمادة الفقهية ، وهي تفسير الكشاف للزمخشري الحنفي ، والمحسرر الوجيز لابن عطية للمالكي ( ت : 543 هـ ) ، والتحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التزويل لأبي العباس أحمد بن عمار المهدي التونسي ( ت : 440 هـ ) ، والتحرير والتجبر لأقوال أئمة التفسير لابن النقيب أبي عبد الله محمد بن سليمان<sup>1</sup> ، جممع فيه خمسين مصنفا من مصنفات التفسير في تسعين مجلدا .

### القسم الثاني : مصادر ثانوية

وهي التفاسير التي انتقى منها تفسير آيات الأحكام ، ونذكر منها : الجامع لأحكام القرعان للقرطبي المالكي<sup>2</sup> ( ت : 673 هـ ) ، وأحكام القرعان لأبي بكر بن العربي للمالكي<sup>3</sup> ( ت : 543 هـ ) وجامع البيان لمحمد بن جرير الطبري الشافعي<sup>4</sup> ( ت : 310 هـ ) ، وزاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي الحنبلي<sup>5</sup> ( ت : 597 هـ ) والنكست

<sup>1</sup> . محمد بن سليمان بن خليفة ، أبو عبد الله ، معسر ، من فقهاء الحنفية ، ولي القضاء ، وولي الشؤون بإبيلية ثم أسقط عنها ، من آثاره شرح لوطاً وتفسيره التحرير والتجبر تولى سنة : 698 هـ . انظر : طبقات المفسرين للناودي : 144/2 .

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 315/3 . 323/2 . 392/2 . 383/3 .

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 91/2 .

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 96/1 . 310/3 . 420/3 . 454/3 .

<sup>5</sup> . البحر المحيط : 163/1 . 173/1 . 433/3 .

والعيون في تأويل القرآن للماوردي الشافعي<sup>1</sup> (ت: 450هـ) ومفاتيح الغيب للفيخر  
الرازي الشافعي<sup>2</sup> (ت: 606هـ) ومعالم التنزيل للحسين بن مسعود البغوي الشافعي<sup>3</sup> (ت: 516هـ) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير الشافعي<sup>4</sup> (ت: 774هـ).  
ويضاف إلى ذلك بعض الكتب الفقهية المشهورة مثل المدونة الكبرى في الفقه المالكي<sup>5</sup>  
، وللمنتقى في شرح الموطأ<sup>6</sup> لأبي الوليد الباجي (ت: 474هـ) ، والأنوار الأجلى في  
مختصر المحلى من تأليفه ، وغيرها من المصادر الكثيرة .

والذي يرجع إلى البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي يلحظ لأول وهلة أنه استفاد بشكل  
واسع من هذه التفاسير في تفسيره آيات الأحكام ، فلا يمر بآية من هذه الآيات حتى  
يفيض في نقل آراء للمفسرين والأئمة المجتهدين من مختلف المذاهب ، سواء كانت تلك  
للمذاهب الأربعة للشهورة ، أو تلك للمذاهب التي ظهرت حينما اندثرت ، كمنهـب  
إليث بن سعد والأوزاعي ، وداود الظاهري وغيرها ، كما ينقل آراء فقهاء الصحابة  
والتابعين من أمثال الخلفاء الراشدين وابن عباس ومعاد بن جبل وعبد الله بن مسعود  
وعائشة أم المؤمنين وسعيد بن المسيب وسفيان الثوري وغيرهم ، فنجد مثلاً في تفسير قوله  
تعالى " فَإِنْ لَمْ يَنْصِبْهَا وَأَبَلْ فَطُلٌّ " <sup>7</sup> ينقل عن الزمخشري والماوردي وابن عطية وابن  
الجوزي في موضع واحد من البحر المحيط <sup>8</sup> ، وكذا في تفسير قوله تعالى " إِنْ تَبَدَّلُوا  
الصلقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم .. " <sup>9</sup> نجد ينقل عن عدد

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 8/2 . 122/3 . 160/1 . 189/2 .

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 24/2 . 367/3 . 160/3 .

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 449/3 . 446/2 . 93/2 .

<sup>4</sup> . البحر المحيط : 310/3 .

<sup>5</sup> . البحر المحيط : 260/3 . 187/2 .

<sup>6</sup> . البحر المحيط : 188/2 .

<sup>7</sup> . سورة البقرة : 264 .

<sup>8</sup> . البحر المحيط : 313/2 .

<sup>9</sup> . سورة البقرة : 270 .

من المفسرين كالطبري والقاضي أبي يعلى والقرطبي وابن العربي وغيرهم<sup>1</sup> ، حيث كان ينقل أقوال الفقهاء من هذه المصنفات إلى جانب نقوله عن كتب الفقه التي سبقت الإشارة إليها ، والأمثلة الآتية توضح ذلك :

في تفسير قوله تعالى " : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. " سورة المائدة : 43

تحدث أبو حيان عن حكم تصرفات من كان سكران هل هي نافذة أم لا ، فقال : ( .. ومعنى " حتى تعلموا ما تقولون " حتى تصحوا فتعلموا ، جعل غاية السبب والمراد السبب ، لأنه مادام سكران لا يعلم ما يقول ، وظاهر الآية يدل على أن السكران لا يعلم ما يقول ، ولذلك ذهب عثمان وابن عباس وطاووس وعطاء والقاسم وربيعة والبيث بن سعد وإسحاق وأبو ثور وللزني إلى أن السكران لا يلزمه طلاق ، واختاره الطبري وقليل : أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لا يجوز ، والسكران معتوه كالموسوس معتوه بالموسوس .. وروي عن عمر ومعاوية وجماعة من التابعين أن طلاقه نافذ عليه ، وهو قول أبي حنيفة والثوري والأوزاعي ، قال أبو حنيفة أفعاله كلها ثابتة كأفعال الصاحي إلا الردة فإنه إذا ارتد لا تبين امرأته منه ، وقال يوسف سكون مرتدا في حال سكره ، وهو قول الشافعي إلا أنه لا يقتله في حال سكره ولا يستيبه ، واختلف قوله في الطلاق ، وألزم مالك السكران الطلاق والقود في الجراح ولم يلزمه النكاح والبيع . قال للماوردي : وقد رويت عندنا رواية شاذة أنه لا يلزمه طلاقه .

واختلفوا في السكر فقيل هو الذي لا يعرف صاحبه الرجل من المرأة ، قاله جماعة من السلف وهو مذهب أبي حنيفة ، ويدل عليه قوله " حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ " فظاهره يدل على أن السكر الذي يتعلق به الحكم هو الذي لا يعقل صاحبه ما يقول .. وقال أحمد : إذا تغير عقله في حال الصحة فهو سكران ، وحكي عن مالك نحوه .<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَمَنْ يَزْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فِيمْت وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " سورة المائدة : 56

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 323/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 256/3

تحدث عن الردة وما يترتب عليها من أحكام في الدنيا والآخرة كما يفهم من الآية ،  
 ناقلا في ذلك أقوال الفقهاء والمجتهدين فقال : ( وقيل حبوط أعمالهم في الدنيا هو علم  
 بلوغهم ما يريدون بالمسلمين من الإضرار بهم ومكايدهم ، فلا يحصلون من ذلك على  
 شيء ، لأن الله قد أعز دينه بأنصاره ، وظاهر هذا الشرط والجزاء ترتب حبوط العمل  
 على اللوفاة على الكفر لا على مجرد الارتداد ، وهذا مذهب جماعة من العلماء منهم  
 الشافعي ، وقد جاء ترتب حبوط العمل على مجرد الكفر في قوله " ومن يكفر بالإيمان فقد  
 حبط عمله " ، " وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " ، " لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ  
 عَمَلُكَ " ، والخطاب في المعنى لأمته ، وإلى هذا ذهب مالك وأبو حنيفة وغيرهما ، يعني أنه  
 يحبط عمله بنفس الردة دون اللوفاة عليها وإن راجع الإسلام ، وثمرة الخلاف تظهر في  
 المسلم إذا حج ثم ارتد ثم أسلم ، فقال مالك يلزمه الحج ، وقال الشافعي لا يلزمه الحج  
 .. وتعرض للفسرون هنا لحكم المرتد ، ولم تتعرض الآية إلا لحبوط العمل ، وأما حكمه  
 بالنسبة إلى القتل فذهب النخعي والثوري إلى أنه يستتاب محبوسا أبدا ، وذهب طاووس  
 والحسن — على خلاف عنه — وعبد العزيز بن أبي سلمة ، والشافعي في أحد قوليه إلى  
 أنه يقتل من غير استتابة ، وروي نحو هذا عن أبي موسى ومعاد ، وقال جماعة من أهل  
 العلم يستتاب ، وهل يستتاب في الوقت أو في ساعة واحدة أو شهر ؟ روي هذا عن علي  
 ، أو ثلاثة أيام ، روي عن عمر وعثمان ، وهو قول مالك فيما رواد ابن القاسم ، وقول  
 أحمد وإسحاق الشافعي في أحد قوليه ، وأصحاب الرأي ، أو مائة مرة وهو قول الحسن  
 .. وقال أبو حنيفة يعرض عليه الإسلام ، فإن أسلم وإلا قتل مكانه إلا أن يطلب أن يوجل  
 فيوجل ثلاثة أيام ، والمشهور عنه وعن أصحابه أنه لا يقتل حتى يستتاب ، والزنادقة  
 عندهم والمرتد سواء ، وقال مالك تقتل الزنادقة من غير استتابة .. )<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كِتَابًا فَرِهَانًا مَقْبُوضَةً .. " .

سورة البقرة : 282

نقل أبو حيان أقوال أهل العلم في صحة قبض الرهن وشروطه فقال : ( وأجمع الناس  
 على صحة قبض للرهن وقبض وكيله ، وأما قبض عدل يوضع الرهن على يديه فقال

<sup>1</sup> . انظر أيضا : 151/2 . 152 .

الجمهور به ، وقال عطاء وقتادة والحكم وابن أبي ليلى ليس يقبض ، فإن وقع الرهن بالإيجاب والقبول ولم يقع القبض فالظاهر من الآية أنه لا يصح إلا بالقبض ، وبه قال الشافعي وأبو حنيفة ، وقالت المالكية يلزم الرهن بالعقد ، ويجبر الراهن على دفع الرهن ليحوزه المرهن ، فالقبض عند مالك شرط في كمال فائدته ، وعند أبي حنيفة والشافعي شرط في صحته ، وأجمعوا على أنه لا يتم إلا بالقبض ، واختلفوا في استمراره ، فقال مالك إذا رده بعارية أو غيرها بطل ، وقال أبو حنيفة إن رده بعارية أو ودیعة لم يبطل ، وقال الشافعي يبطل برجوعه إلى يد الراهن مطلقا . والظاهر من اشتراط القبض أن يكون للمرهن ذاتا متقومة ، يصح بيعها وشراؤها ، ويتبأ فيها القبض أو التخليفة ، فقال الجمهور لا يجوز رهن ما في النمة ، وقالت للمالكية يجوز ، وقال الجمهور لا يصح رهن الفرر مثل العبد الآبق ، والبعير الشارد والأجنة في بطون أمهاتها والسماك في الماء والثمرة قبل بنو صلاحها ، وقال مالك لا بأس بذلك ، واختلفوا في رهن للشاع ، فقال مالك والشافعي يصح فيما يقسم وفيما لا يقسم ، وقال أبو حنيفة لا يصح مطلقا .<sup>1</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله .. " سورة

البقرة : 233

قال أبو حيان : ( وهذا النهي معناه التحريم ، فلو عقد عليها في العدة فسخ الحواكم النكاح ، فإن كان ذلك قبل الدخول بها فقال عمر والجمهور لا يتأبد التحريم ، وقال مالك وابن القاسم في اللدونة ويكون خاطبا من الخطاب ، وإن عقد عليها في العدة ودخل بعد انقضائها فقولان عن العلماء ، قال قوم لا يتأبد والقولان عن مالك ، ولو عقد عليها في العدة ودخل بها في العدة فقال عمر ومالك وأصحابه والأوزاعي والليث بسن سعد وأحمد وغيرهم يتأبد التحريم ، وقال مالك والليث ولا تعل له للملك اليمين ، وقال أبو حنيفة والشافعي وعبد العزيز بن سلمة وجماعة لا يتأبد بل يفسخ بينهما ثم تعتد منه ويكون خاطبا من الخطاب ، وقال الحسن وأبو حنيفة والليث والشافعي وأحمد وإسحاق والمدنيون — غير مالك — تعتد من الأول ، فإذا انقضت العدة فلا بأس أن يتزوجها الآخر

<sup>1</sup> . فخر الخط : 350/2

، وقال مالك وأصحاب الرأي والأوزاعي والثوري عدة واحدة تكفيها جميعا سواء كلنت  
بالحمل أم بالإقراء أم بالأشهر .<sup>1</sup>

ولما كان أبو حيان يعتد بفقهاء أهل الظاهر وينقل الخلاف عنهم ، فإنه يرى بأن موافقتهم  
لرأي الجمهور شرط في انعقاد الإجماع ، فإذا نقل خلافهم لجمهور الفقهاء كانت دعوى  
الإجماع مردودة على من قال بها ، وقد صرح بذلك في تفسير قوله تعالى : " إِنَّمَا حَرَّمَ  
عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَاللَّحْمَ الْخَيْتِيرِ .. " سورة البقرة: 172

حيث نقل أبو حيان خلاف داود الظاهري لجمهور الفقهاء في حكم شحم الخنزير وهو  
قوله بإباحتها ، ثم اعترض على ابن عطية في قوله بإجماع الأمة على تحريمه فقال : ( وقوله  
أجمعت الأمة على تحريم شحمه ليس كما ذكر ، ألا ترى أن داود الظاهري لا يحرم إلا ما  
ذكره الله تعالى ، وهو اللحم دون الشحم ، إلا أن يذهب ابن عطية إلى ما يذكر عن أبي  
العالبي عبد الملك الجويني من أنه لا يعتد في الإجماع بخلاف داود ، فيكون ذلك عنده  
إجماعا ، وقد اعتد أهل العلم الذين لهم الفهم التام والاجتهاد قبل أن يخلق الجويني بأزمان  
بخلاف داود ، ونقلوا أقاويله في كتبهم كما نقلوا أقاويل الأئمة كالأوزاعي وأبي حنيفة  
ومالك والثوري والشافعي وأحمد ، ودان بمنحبه وقوله وطريقته ناس وبلاد وقضاة وملوك  
الأزمان الطويلة ، ولكنه في عصرنا هذا قد حمل هذا للذهب .<sup>2</sup>

وهو إذ ينقل من هذه التفاسير يعيل عليها بلغة متناهية ، فنجد مثلا وهو ينقل عن  
المحرر المحرر لابن عطية يقول : ( وفي النسخة التي وقفنا عليها من تفسير ابن عطية ما نصه  
.. ) ففي هذه العبارة ما يدل على بالغ حيطته وأمانته فيما ينقله من الآراء والأقوال .

وفي مواضع قبيلة من تفسيره نراه يستطرد لنقل الآراء الفقهية لمختلف الفرق الكلامية  
ثم يكرر عليها فيفندها ، ولكن من غير ذكر للمصادر التي نقل عنها أقوالهم وآراءهم ، وإنما  
يستطرد في مثل هذه للمواطن لما كان يراد من ضرورة تزييف هذه الآراء المستقيمة التي  
كانت تصدر عن خلفيات مذهبية فاسدة ، وقد تركت آثارها البالغة في تاريخ الأمة  
الإسلامية ، مع عرض رأي أهل السنة والحديث في الموضوع .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 230/2

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 488/1



ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ " سورة البقرة: 123

وهي الآية التي سبق أن وقف عندها الزمخشري ، وحملها من رؤيته للذهبيسة ما لا تختمله ، كما قد تعلقنا بها مختلف الفرق للتدليل بما على آرائها السياسية في الإمامة ، فاستطرد لذلك قائلا :

( وقد ذكر بعض المفسرين هنا أحكام الإمامة الكبرى وإن كان موضوعها أصول الدين فهناك ذكرها ، ولكنني لا أخلي كتابي عن شيء ملخص فيها دون الاستدلال ، فنقول : الذي عليه أصحاب الحديث والسنة أن نصب الإمام فرض خلافا لفرقة من الخوارج وهو أصحاب نجدة الحروري ، زعموا أن الإمامة ليست بفرض ، وإنما على الناس إقامة كتاب الله وسنة رسوله ولا يحتاجون إلى إمام ، ولفرقة من الإباضية زعمت أن ذلك تطوع ، واستناد فرضية نصب الإمام للشرع لا للعقل خلافا للرافضة ، إذ أوجبت ذلك عقلا ، ويكون الإمام من صميم قريش خلافا لفرقة من المعتزلة ، إذ قالوا إذا وجد من يصلح لها قرشي وبنطي وحب نصب النبطي دون القرشي ، وسواء في ذلك بطون قريش كلها خلافا لمن خص ذلك بنسل علي أو العباس ، إما منصوصا عليه وإما باجتهاد ، ولا يعتقد الإمامين في عصر واحد خلافا للكرامية ، إذ أجازوا ذلك وزعموا أن عليا ومعاوية كانا إمامين في وقت واحد ، والقول بالتقية باطل خلافا للإمامية ، ومعناها أنه يكون الشخص الجامع لشروط الإمامة إماما مستورا ، لكنه يخفي نفسه مخافة من غلب على الملك ممن لا يصلح للإمامة ، وليس من شرط الإمام العصمة خلافا للرافضة ، فإنهم يقولون بوجوب العصمة للإمام سرا وعلنا ، وليس من شرطه الإحاطة بالمعلومات كلها خلافا للإمامية ، والإمام مفترض الطاعة فيما يؤدي إليه اجتهاده ، وليس لأحد الخروج عليه بالسيف ، وكذلك لا يجوز الخروج على السلطان الغالب خلافا لمن رأى ذلك من المعتزلة والخوارج والرافضة وغيرهم . )<sup>1</sup>

<sup>1</sup> . الطراحي : 379/1

ويستند أبو حيان في تعامله مع هذه المصادر المختلفة إلى حاسته النقدية القوية ، حيث نجد يقف أمام الأقوال الكثيرة في الآية الواحدة ، فيناقشها ويفحصها ، فما كسان مسن الأقوال يدعمه الدليل قدمه وأخذ به ، وما كان يفتقر إلى البرهان رده ، أو توقف في قبوله على الأقل ، ولا يفتقر بكثرة من قال برأي معين ، حتى وإن كان ذلك من أوليات الفقه الإسلامي ، إذا كان عاريا عن الدليل الواضح ، فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَنُفُوذُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا .. " سورة البقرة : 226

حيث نجد أبا حيان ينقل آراء مختلف الفقهاء والمجتهدين في صفة الرجعة بعد الطلاق الرجعي فيقول : ( واختلفوا فيما به الرد ، فقال سعيد والحسن وابسن سيرين وعطساء وطاووس والزهرري والثوري وابن أبي ليلى وأبو حنيفة : إذا جامعها فقد راجعها ويشهد ، وقال الليث وطائفة من أصحاب مالك : إن وطأه مراجعة على كل حال نواها أو لم ينوها ، وقال مالك إن وطئها في العدة يريد الرجعة وجهل أن يشهد فهي رجعة وينبغي للمرأة أن تمنعه الوطء حتى يشهد . وقال الشافعي : ولا تصح الرجعة إلا بالقول ، وقال أبو حنيفة والثوري إن لمسها بشهوة أو نظر إلى فرجها بشهوة فهو رجعة ، وينبغي أن يشهد في قول مالك والشافعي .. )<sup>1</sup>

ثم قال أبو حيان بعد هذا الكلام وغيره : ( قالوا ويستغني الزوج في المراجعة عن السولي ، وعن رضاها ، وعن تسمية مهر ، وعن الإشهاد على الرجعة على الصحيح ، ويسقط بالرجعة بقية العدة ، ويحل جماعها في الحال . ويحتاج في إثبات هذا كله إلى دليل واضح من الشرع ، والذي يظهر لي أن للمرأة بالطلاق تنفصل عن الرجل ، فلا يجوز له أن ترجع إليه إلا بنكاح ثان ، ثم إذا طلقها وأراد أن ينكحها ، فإما أن يبقى شيء من علقها أو لا يبقى ، إن بقي شيء من علقها ، فله أن يتزوجها دون انقضاء علقها منه إن أراد الإصلاح ، ومفهوم الشرط أنه إذا أراد غير الإصلاح لا يكون له ذلك ، وإن انقضت علقها استوى هو وغيره في جواز تزويجها ، وأما أن تكون قد طلقت وهي باقية في العدة فيردها من غير اعتبار شروط النكاح ، فيحتاج إثبات هذا الحكم إلى دليل واضح كما قلناه ، فإن كان ثم

1. انظر ص 188/2

دليل واضح من نص أو إجماع قلنا به ، ولا يعترض علينا بأن له الرجعة على ما وفسفوا ، وأن ذلك من أوليات الفقه التي لا يسوغ التزاع فيها .<sup>1</sup>

ويبدو أن هذه من المواضع التي طغت فيها التزعة الظاهرية على أبي حيان الأندلسي ، فخالف ما يشبه الإجماع في هذه المسألة ، لأن الله تعالى إنما اشترط الإشهاد لا غير في الرجعة كما جاء في سورة الطلاق " فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِلُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.. " الطلاق : ٢ فمن زاد عن هذا الشرط من الشروط هو الذي يطالب بالدليل ، كما أنه لم ينقل في السنة النبوية عن أحد من الصحابة أنه صدر منه طلاق فأمره النبي — ص — بإعادة الخطبة والعقد ، ولكن كان يأمرهم بالمراجعة ..

إلا أن هذه التزعة الظاهرية التي طغت على أبي حيان في مواضع قليلة من تفسيره البحر المحيط ، مغتفرة إلى جانب محاسنه الأخرى في تعامله مع مصادر الفقهية من حسن تفسيره للآراء الفقهية ما كان أكثر صوابا ، وأقرب إلى ملل النص القرآني ، كما أن أمانته العلمية في النقل والاقتباس ، وقلة تأثره بالأفكار والآراء السياسية في توجيه آيات الأحكام جعله أكثر موضوعية وأقل تعصبا وأحسن صنيعا من مما فعله الزمخشري في تعامله مع مصادر الفقهية .

<sup>1</sup> . البحر المحيط : 188/2

## المبحث الثاني الترعة الاجتهادية عند المفسرين

### المطلب الأول : ملامح الترعة الاجتهادية عند الزمخشري

عرف الزمخشري بميله نحو الإبداع وحبه للإستقلال بالرأي والاجتهاد ، وهو أحد الأسباب التي جعلت تفسيره يعطى بهذه المكانة عند أنصاره وخصومه على السواء . فلم يكتف الزمخشري بعرض آراء مذهبه الحنفي عند تفسيره لآيات الأحكام ، بل لم يقف عند مجرد عرض آراء للمذاهب الفقهية المشهورة ، حتى ذهب إلى البحث والنظر في هذه النصوص القرآنية ، ومحاولة الخروج بآراء فقهية تعبر عما فهمه بنفسه ، وأداه إليه اجتهاده ، فتارة يكون اجتهاده عبارة عن انتقاء الرأي الذي يراه راجحاً من بين آراء للمذاهب الفقهية المعروفة ، مع التدليل على ذلك دون تعصب أو تعسف ، وتارة يفرج برأيه لنفسه يستنبطه من ظاهر النص القرآني ، ثم يعضده بأدلة أخرى من السنة وأقوال السلف من الصحابة والتابعين . و من المواضع التي انتصر فيها لمذهبه الحنفي ما يأتي :

في تفسير قوله تعالى : " فَاغْتَبِرُوا نِسَاءَ فِي الْحَيْضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ .. " سورة البقرة : 220

قال الزمخشري : ( وقرأ عبد الله " حتى يطهرون " و " ويطهرون " بسانحنيف ، والتطهر الاغتسال . والطهر انقطاع الدم ، وكنتا القراءتين مما يجب العمل به . فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقرها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل . وفي أقبل

الحيض حتى تغتسل ، أو يمضي عليها وقت الصلاة ، وذهب الشافعي إلى أنه لا يقرها حتى تطهر وتطهر ، فتجمع بين الأمرين ، وهو قول واضح ، وبعضه قوله " فإذا تطهرن " .<sup>1</sup> وفي تفسير قوله تعالى : " لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ .. " سورة المائدة : 97

نقل رأي كل من أبي حنيفة والشافعي عن كفارة من وقع في قتل صيد حال إحرامه ، ومدى جواز تخييره بين الأصناف المذكورة في الآية ، ثم أدلى برأيه بناء على ما يلوح له من ظاهر نص الآية فقال : ( فإن قلت : فما يصنع من يفسر للمثل بالقيمة بقوله " من النعم " وهو تفسير للمثل ، ويقول " هديا بالغ الكعبة " ؟ قلت : قد خير من أوجب القيمة بسين أن يشتري بها هديا أو طعاما أو يصوم ، كما خير الله تعالى في الآية ، فكان قوله " من النعم " بيانا للهدى للمشتري بالقيمة في أحد وجوه التخيير ، لأن من قوم الصيد واشترى بالقيمة هديا فأهداه فقد جرى بمثل ما قتل من النعم . على أن التخيير الذي في الآية بسين أن يجزي بالهدى أو يكفر بالإطعام أو بالصوم إنما يستقيم ظاهره بغير تعسف إذا قوم ، ونظر بعد التقويم أي الثلاثة يختار ، فأما إذا عمد إلى النظر وجعله الواجب وحده من غير تخيير — فإذا كان لا نظير له قوم حينئذ ، ثم يخير بين الإطعام والصوم — ففيه نية عما في الآية ، ألا ترى إلى قوله تعالى " أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما " كيف خير بين الأشياء الثلاثة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم .<sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ .. " سورة البقرة : 195

قال : ( فإن قلت : هل فيه دليل على وجوب العمرة ؟ قلت : ما هو إلا أمر بإتمامهما ، ولا دليل في ذلك على كونهما واجبين أو تطوعين . فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعا ، إلا أن تقول : الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما ، بدليل قراءة من قرأ " وأقيموا الحج والعمرة " ، والأمر للوجوب في أصله ، إلا أن يدل دليل على خلاف الوجوب كما دل في قوله " فاصطادوا " ، " فانتشروا " ونحو ذلك ، فيقال لك : فقد دل الدليل على نفي الوجوب ، وهو ما روي أنه قيل : يا رسول الله ، العمرة واجبة مثل الحج ؟ قال : " لا

<sup>1</sup> . الكشاف : 266/1

<sup>2</sup> . الكشاف : 678/1

ولكن أن تعتمر خير لك " <sup>1</sup> ، فإن قلت فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قلل : إن العمرة لقربة الحج ، وعن عمر رضي الله عنه أن رجلا قال له : إني غني وجدت الحج والعمرة مكتوبين علي ، أهلت بما جميعا فقال : " هديت لسنة نبيك " <sup>2</sup> ، وقد نظمت مع الحج في الأمر بالإمام فكانت واجبة مثل الحج ؟ قلت : كونها قرينة للحج أن القارن يقرن بينهما ، وأنها يقرنان في الذكر فيقال : حج فلان واعتمر ، والحجاج والعمسار ، ولأنها الحج الأصغر ، ولا دليل في ذلك على كونها قرينة له في الوجوب ، وأما حديث عمر رضي الله عنه فقد فسر الرجل كونها مكتوبين عليه بقوله : أهلت بما ، وإذا أهلت بالعمرة وجبت عليه ، كما إذا كبر بالتطوع من الصلاة ، والدليل الذي ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب ، فبقي الحج وحده فيها ، فهما بمنزلة قولك : صم شهر رمضان وستة من شوال ، في أنك تأمره بفرض وتطوع . <sup>3</sup>

ونحن لا نوافق الزمخشري في قياس سياق " وأتموا الحج والعمرة " على قوله : صم شهر رمضان وستة من شوال . لأن دليل التفريق بين صيام الفرض والتطوع مستفاد من نصوص أخرى ، وليس من سياق المثال الذي ضربه ، ولما لم يسم دليل على التفريق بين الحج والعمرة من نصوص أخرى ، لزم من ظاهر النص أن يأخذنا نفس الصفة والحكم للمستفاد من نفس الأمر الوارد في الآية دفعا للإلتباس .

كما نجد الزمخشري أحيانا يقف أمام بعض الآيات ، ليستنبط منها بعض الأحكام فينحو منحى التفسير الإشاري في تلك الاستنباطات ، مما جعل أبا حيان يصف ذلك الكلام بالخطابة لعلم انضباطه بضوابط الاستدلال العلمي للمهود عنه الفقهاء .

فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ.." سورة المائدة : 5

فينقل أبو حيان هذا الكلام للزمخشري قائلا : ( وخطب الزمخشري هنا فقال : ) وفيه فائدة جليلة ، وهي أن كل آخذ علما لا يأخذه إلا من قبل أهله علما وأنجرهم درايسة ،

<sup>1</sup> . أخرجه الترمذي في سننه عن جابر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل عن العمرة لأوجه هي ؟ قال : " لا ، وأن ينسكروا هو أفضل " . انظر سنن الترمذي ، كتاب الحج ، باب ما جاء في العمرة لأوجه هي أم لا . حديث رقم : 935 .

<sup>2</sup> . رواه أبو داود في سننه عن أبي وائل قال : قال النبي بن عبد كثر رجلا اعترابا .. " اخذت . كتاب المناسك ، باب في الإقرار ، حديث رقم : 1799 .

<sup>3</sup> . الكتاب : 239/1 .

وأغروصهم على لطائفه وحقائقه ، واحتاج إلى أن تضرب إليه أكباد الإبل ، فكم من أخذ من غير متقن ، فقد ضيع أيامه ، وعض عند لقاء النحارير أنامله .<sup>1</sup>

وهكذا فإن الزمخشري الذي عرفناه متصفا بالعنف والقسوة ضد مخالفيه في الجانب العقدي ، ورميه لهم بكل نقيصة ، لم يمحض على نفس الوتيرة في الجانب الفقهي ، بل نجده يميل إلى شيء من الموضوعية وإنصاف خصومه ، فهو إذ يقدم رأيا ويرفضه أو يضعف رأيا آخر ويستبعد صحته ، نجده في كل ذلك عف اللسان لطيف العبارة ، بل يمتاز عن كثير من أنصار المذاهب الفقهية الذين كتبوا في التفسير الفقهي للقرآن الكريم ، فأظهروا تعصبا وتعسفا كبيرين ، وكانوا شديدين في مناقشة مخالفيهم والرد عليهم ، وهي حسنة من الحسنات التي تحسب له ، إلا أن هذا لم يمنع الزمخشري من الدفاع عن بعض آراء مذهبه الخفي إذا كان عنده من الأدلة ما يدعمها .

ومن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ .. " سورة النساء : 102

نقل آراء السلف في حكم صلاة القصر فقال : ( وعن عائشة رضي الله عنها اعتمرت مع رسول الله - ص - من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قلت : يا رسول الله بئلي أنت وأمي قصرت وأثمت ، وصمت وأفطرت . فقال أحسنت يا عائشة ، وما عاب علي ، وكان عثمان رضي الله عنه يتم ويقصر .. وعند أبي حنيفة رحمه الله القصر في السفر عزيمة غير رخصة لا يجوز غيره .. فإن قلت : فما تصنع بقوله " فليس عليكم جناح أن تقصروا .. " قلت كأنهم ألفوا الإمام ، فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا في القصر ، فنفي عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر ويطمئنوا إليه . )<sup>2</sup>

### المطلب الثالث : ملامح الرعة الاجتهادية عند أبي حيان

لم يقتصر جهد أبي حيان الأندلسي في تفسير آيات الأحكام على نقل آراء المفسرين والفقهاء والمجتهدين الواردة في بيان الأحكام للمستنبطة من النص القرعاني ، بل كان يقف

<sup>1</sup> . كشاف : 430/3

<sup>2</sup> . كشاف : 558/1

أمام هذه الأقوال الكثيرة موقف الباحث الناقد ، فهو إذ ينقل تلك الأقوال كلها لا يقبل رأيا واحدا منها حتى يعرضه على جملة من الموازين العلمية ، فإن سقطت أمام تلك الموازين ردها ، وخرج برأي من عنده يراه أقرب إلى النص ، وألصق بالسياق الذي ينتظم تلك الآية ، وأكثر تعلقا بسبب نزولها .

فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى : " .. فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ " سورة البقرة : 220

قال أبو حيان : ( وخصه بعضهم بأنه التائب من الشرك وللتطهر من الذنوب ، قاله ابن حبير . أو بالعكس ، قاله عطاء ومقاتل ، وبعضهم خصه بالتائب من الجماعسة في الحيض ، وقال مجاهد : من إتيان النساء في أدبارهن في أيام الحيض ، وقال أبو العالبي : التوابين من الكفر للمتطهرين بالإيمان ، وقال قتادة : التوابين من الكبائر وللتطهريين من الصغائر ، وقيل : التوابين من الذنوب وللتطهريين العيوب ، وقال عطاء أيضا للتطهريين بالماء ، وقيل من أدبار النساء فلا يتلوثنون بالذنب بعد التوبة كأن هذا القول نظير قوله تعالى حكاية عن قوم لوط : " أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ بِأَتْطَهْرُونَ " سورة النمل : 58 .

ثم قال أبو حيان بعد نقل هذه الآراء كلها : ( والذي يظهر أنه تعالى ذكر في صدر الآية " ويسألونك عن المحيض .. " ودل السبب — سبب نزول الآية — على أنهم كانت لهم حالة يرتكبوها حالة الحيض من مجامعتهن الحائض في الحيض في الفرج أو في الدبر ، ثم أخبر الله تعالى بللمنع من ذلك ، وذلك في حالة الحيض ، في الفرج أو في الدبر ، ثم أباح الإتيان في الفرج بعد انقطاع الدم ، والتطهر الذي هو واجب على المرأة لأجل الزوج ، وإن كان ليس مأمورا به في لفظ الآية ، فأتى الله تعالى على من امتثل أمر الله تعالى ، ورجع عن فعل الجاهلية إلى ما شرعه تعالى ، وأتى على من امتثلت أمره تعالى في مشروعية التطهر بالماء ، وأبرز ذلك في صورتين عامتين استدرج الأزواج والزوجات في ذلك فقال تعالى " إن الله يحب التوابين أي الراجعين إلى ما شرع ويحب للمتطهريين بالماء فيما شرع فيه ذلك ، فكان ختم الآية بمحبة من اندرج فيه من الأزواج والزوجات ، وكرر الفعل ليدل على اختلاف الجهتين من التوبة والتطهر ، وأن لكل من الوصفين محبة



من الله يخص ذلك الوصف ، أو كرر ذلك على سبيل التوكيد ، وقد أتى الله تعالى على أهل قباء بقوله " فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب للمتطهرين " <sup>1</sup> ، وسألهم الرسول - ص - عن السبب الذي أتى الله به عليهم فقالوا : كنا نجتمع بين الإستحمام والإستحاء . <sup>2</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ .. " سورة المائدة : 7

قال أبو حيان : ( وذهب أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما والثوري وابن أبي سلمة والليث أنه يمسح إلى بلوغ للرفقين فرضا واجبا ، وهو قول جابر والحسن وإبراهيم ، وذهب طائفة إلى أنه يبلغ به الكوعين ، وهما الرسغان ، وهو قول علي وعطاء والشعبي ومكحول والأوزاعي وأحمد وإسحاق ، وداود بن علي والطبري والشافعي في القلم وروى عن مالك ، وذهب الشافعي إلى أنه يمسح كفيه فقط ، وبه قال بعض فقهاء الحديث .

وهو الذي ينبغي أن يذهب إليه لصحته في الحديث ، ففي صحيح مسلم من حديث عمار <sup>3</sup> إنما كان يكفيك أن تضرب بيدك الأرض ، ثم تنفخ وتمسح بها وجهك وكفيك ، وعنه في هذا الحديث : " فضرب بيده الأرض ، فنفض يديه فمسح وجهه وكفيه " . وللبخاري <sup>4</sup> : " ثم أدناهما من فيه ثم مسح بهما وجهه وكفيه " . وفي مسلم أيضا <sup>5</sup> : " أمسأ بكفيك أن تقول بيدك هكذا ، ثم ضرب بيده الأرض قبضهما ، ثم ضرب بشماله على يمينه ، ويمينه على شماله ضربة واحدة ، ثم مسح الشمال على اليمين ، وظاهر كفيه ووجهه .

ونجد أبا حيان في هذا الجانب عف اللسان تجاه مخالفه ، يميل إلى الرأي الذي يبدو له أقوى حجة ولو كان مخالفا لمذهبه ، مما يدل على إخلاصه لدينه وموضوعيته ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

<sup>1</sup> . سورة التوبة : 109

<sup>2</sup> . فتح الميط : 169/2

<sup>3</sup> . أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب التيمم .

<sup>4</sup> . أخرجه البخاري في المصنف الصحيح ، كتاب الطهارة ، باب التيمم .

<sup>5</sup> . أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب التيمم بلفظ : إنما كان بكفك أن تقول بيدك هكذا .. الحديث .

في تفسيره له تعالى : " حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ لَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِتْرِيرِ .. وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ .. " سورة المائدة : 4

تحدث أبو حيان عن حكم الاستثناء في هذه الآية في قوله " إلا ما ذكيتم " هل هو متصل أو منقطع وما يترتب على كل قول منهما ، فعرض مختلف أقوال العلماء في ذلك ، ثم قلل : ( وظاهر قوله " إلا ما ذكيتم " يقتضي أن ما لا يدرك لا يجوز أكله ، كالجنين إذا خرج من بطن أمه ميتا إذا كان استثناء منقطعا ، فيندرج في عموم لئيتة ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، وذهب الجمهور إلى جواز أكله ، والحديث الذي استنبطوا منه الجواز حجة لأي حنيفة لا لهم ، وهو " ذكاة الجنين ذكاة أمه " للمعنى على التشبيه ، أي ذكاة الجنين مثل ذكاة أمه ، فكما أن ذكاتها الذبيح ، فكذلك ذكاته الذبيح ، ولو كان كما زعموا لكسان التركيب : ذكاة أم الجنين ذكاته . )<sup>1</sup>

وهكذا فإن تحرر أبي حيان من ربة التعصب للذهبي هو الذي جعله يضعف رأي داود الظاهري ، ويعترض عليه في عدة مواضع يراه فيها قد جانب الصواب ، وهذا على الرغم من شدة تعلقه بهذا للذهب ودفاعه عنه أحيانا أخرى .

فمن ذلك مثلا ما جاء في معرض الكلام على زمن قضاء الفوات من الصيام لقوله تعالى : " .. ومن كان مريضا أو على سفر فعلة من أيام آخر " سورة البقرة : 184 قال أبو حيان : ( .. وظاهر قوله تعالى " فعلة من أيام آخر " أنه لا يلزمه التسابع ، وبه قال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار .. وظاهر الآية أنه لا يتعين الزمان ، بل يستحب للبادرة إلى القضاء ، وقال داود يجب عليه القضاء ثاني شوال ، فلو لم يصمه ثم مات أتم . وهو محجوج بظاهر الآية ، وبما ثبت في الصحيح عن عائشة قالت<sup>2</sup> : كان يكون علي الصوم من رمضان ، فلا أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان لشغل من رسول الله - ص - )<sup>3</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا .. " سورة

آل عمران : 97

<sup>1</sup> . انظر المحيط : 424/3

<sup>2</sup> . أخرجه مسلم ، كتاب الصيام ، باب قضاء رمضان في شعبان . 154/3

<sup>3</sup> . انظر المحيط : 35/2

تحدث أبو حيان عن مفهوم الاستطاعة للموجبة للحج في هذه الآية ناقلا في ذلك رأي الجمهور وأهل الظاهر ، ثم رد هؤلاء جميعا إلى نص الآية وصحيح السنة النبوية فقال : ( ولم يشترط في هذه الآية في وجوبه إلا الاستطاعة ، وذكروا أن شروطه العقل والبسوغ والحرية والإسلام والاستطاعة ، وظاهر قوله تعالى " والله على الناس " وجوبه على العبد ، وهو مخاطب به ، وقال بذلك داود ، وقال الجمهور ليس مخاطبا به ، لأنه غير مستطيع ، إذ السيد يمنعه من هذه العبادة لحقوقه عليه ، قالوا وكذلك الصغير ، فلو حج العبد في حال رقه ، والصبي قبل بلوغه ، ثم أعتق وبلغ ، فعليهما حجة الإسلام ، وظاهره الإكتفاء بحجة واحدة ، وعليه انعقد إجماع الجمهور خلافا لبعض أهل الظاهر إذ قال يجب في كل خمسة أحوال مرة ، والحديث الصحيح<sup>1</sup> يرد عليه .<sup>2</sup> )  
 وفي تفسير " وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ .. " البقرة : 184

قال أبو حيان : ( واتفقت الصحابة ومن بعدهم من التابعين وفقهاء الأمصار على جنسواز الصوم للمسافر ، وأنه لا قضاء عليه إذا صام ، لأنه كما ذكرنا قدرنا محذورا في الآية ، والأصل أن لا حذف ، فيكون الظاهر أن الله تعالى أوجب على المريض والمسافر عدة من أيام أخر ، فلو صام لم يجزها ، ويجب عليهما صوم عدة ما كانا من الأيام الواجب صومهما على غيرهما ، قالوا : وروي عن أبي هريرة أنه قال : من صام في السفر فعليه القضاء ، وتابعه عليه شواذ من الناس ، ونقل ذلك ابن عطية عن عمر وابنه عبد الله ، وعن ابن عباس أن الفطر في السفر عزيمة ، ونقل غيره عن عبد الرحمن بن عوف : الصلتم في السفر كالفطر في الحضر ، وقال به قوم من أهل الظاهر ، وفرق أبو محمد بن حزم بين المريض والمسافر ، فقال فيما لخصناه في كتابنا للسمى بالأنوار الأجلى في اختصار المحلى ما نصه ، ويجب على من سافر ولو عاصيا ميلا فصاعدا الفطر إذا فارق البيوت في غير رمضان وأن يفطر للمريض ويقضى بعد ، ويكره صومه ويجزي . وحجج هذه الأقوال في كتب الفقه .

<sup>1</sup> لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقال : " أيها الناس قد أمر الله عليكم الخج محمورا ، فقال رجل أي كثر عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قلنا ثلاثا ، فقال رسول الله : لو قلت معي لوجست ولا استطعت ، ثم قال : فزرو ما ترككم ، فإنما أفعتك من كان قلبكم بكرة مؤلف .. أخرجه مسلم في كتاب الخج ، باب فرض الخج مرة في شهر .

<sup>2</sup> البحر المحيط : 11/3

وثبت بالخبر للمستفيض أن النبي - ص - صام في السفر<sup>1</sup> ، وروى ذلك عنه أبو الدرداء وأبو سعيد الخدري ، وجابر وأنس وابن عباس عنه إباحة الصوم والفطر في السفر بقوله لحمزة بن عمرو السلمي - وقد قال أصوم في السفر - قال : " إن شئت فصم وإن شئت فأفطر " وعلى قول الجمهور أن ثم محنفا ، وتقديره فأفطر ، وأنه يجوز للمسافر أن يفطر وأن يصوم ، واختفوا في الأفضل .. )<sup>2</sup>

كما رد القول بالظاهر في تفسير قوله تعالى : " فَإِنْ حَفَّتُمْ مِنَ الْأَثْقَالِ تَقِيسَطُوا فِي الْبَيْتَامِي فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ .. " النساء : 3

لأنه خالف الإجماع للتيقن ، حيث أحصى أبو حيان أقوال فقهاء للمذاهب المختلفة في العدة للباح من الزوجات للرجل الواحد ، ثم رد هؤلاء جميعا إلى ما أجمع عليه للمسلمون ، لكون الإجماع إذا انعقد لا يردده اجتهاد جاء بعده ، ولا يعتد معه بخلاف غير معتبر : ( وأجمع فقهاء الأمصار على أنه لا تجوز الزيادة على أربع ، والظاهر أنه لا يباح النكاح مثنى أو ثلاث أو رباع إلا لمن خاف الجور في البيتامى لأجل تعليقه عليه ، ، أما من لم يخف فمفهوم الشرط يدل على أنه لا يجوز له ذلك ، والإجماع على خلاف ما دل عليه الظاهر من اختصاص الإباحة بمن خاف الجور ، أجمع للمسلمون على أن من لم يخف الجور في أموال البيتامى يجوز له أن ينكح أكثر من واحدة ثنتين وثلاثا وأربعا كمن خاف ، فسدل على أن الآية جواب لمن خاف ذلك ، وحكمها أعم . )<sup>3</sup>

ومثلا رأينا أبا حيان الأندلسي يعرض آراء المجتهدين ، وينتقي منها ما كان أظهر حجة وأقوى دليلا ، فإنه أحيانا ينحو منحى الاجتهاد ، فيخرج برأيه عما بدا له من ظلم الآية ، وإن كان مخالفا لرأي الجمهور من الفقهاء .

فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : " .. وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوا مَنْ بَيْسْرًا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا " سورة البقرة : 233

حيث عرض آراء فقهاء الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار فقال : ( قال ابن جبير : السور هنا النكاح ، وقال ابن زيد : معنى ذلك لا تنكحوا من وتكنمون ذلك ، فإذا حلست

<sup>1</sup> . انظر صحيح مسلم ، كتاب الصوم ، باب حواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية .

<sup>2</sup> . البحر المحيط : 34/2

<sup>3</sup> . البحر المحيط : 163/3

أظهر نموه ودخلتم من ، فيسمى العقد عليهن مواعلة ، وهذا ينبو عنه لفظ الآية . وقال بعضهم : جماعا ، وهو أن يقول لها : إن نكحتك كان كيت وكيت — يريد ما يجسري بينهما تحت اللحاف . وقال ابن عباس وابن جبير أيضا والشعبي ومجاهد وعكرمة والسدي ومالك وأصحابه والجمهور : للمعنى لا توافقوهن للمواعلة والتوثيق وأخذ العهود في استسرار منكم وخفية ..

ثم قال أبو حيان : (و الذي تدل عليه الآية أنهم نحو أن يواعد الرجل للمرأة في العلة أن يطاها بعد العلة بوجه التزويج ، وأما تفسير السر هنا بالزنا فبعيد ، لأنه حرام على للمسلم مع معتلة وغيرها ، وأما إطلاق المواعلة سرا على العقد فبعيد أيضا ، وأما قول الجمهور فبعيد أيضا ، لأنهم نحو عن المواعلة بالنكاح سرا وجهرا ، فلا فائدة في تقييد المواعلة بالسر . )<sup>1</sup>

ويتضح من جملة ما قدمناه أن موضوعية الزمخشري ، وإنصافه لخصومه ومخالفه قد تجلت في الجانب الفقهي من كشافه أكثر منها في الجوانب الأخرى ، حيث ظهر في الأضرب الأعم عف اللسان لطيف العبارة ، كما نراه يحنك للنص القرآني وللمأثور من السنة النبوية ، ويميل مع الدليل الأقوى والأظهر ، ولئن وجدناه أحيانا ينحذب إلى تقرير بعض الأحكام البعيدة ويحمل النص القرآني ما لا يحنله وإنما هو تابع في ذلك لمن سبقه ، وقد وقع مثل هذا في مواضع قليلة من كشافه ، أما مسلكه العام فقد كان شيمته العدل والإنصاف في عرض أقوال المجتهدين وأدلتهم ، سواء أكان ذلك في مذهبه الحنفي أو في المذاهب المخالفة له ، وربما كان هذا للمسلك راجعا إلى كون الجانب الفقهي ليس هو موضوع الصراع والتلفع بين المعتزلة وغيرهم من الفرق الأخرى ، كما هو الشأن عند الخوارج والشيعة الذين استقلوا بأرائهم الفقهية إلى جانب آرائهم العقائدية . ومن هنا يمكن اعتبار كتاب الكشاف — على اختصاره — أحد التفاسير التي لا غنى عنها للباحث في آيات الأحكام لما تضمنه من نقل لآراء المذاهب الفقهية مقرونة بأدلتها ، إلى جانب تلك الترحيحات والاستنباطات الدقيقة التي انفرد بها الزمخشري وبزها أقرانه ، وهي على قلتها تنطوي على فوائد قد لا يظفر بها الباحث في مصادر أخرى .

<sup>1</sup> . جبر احض : 227/2

ويلتقي الزمخشري مع أبي حيان الأندلسي في هذه الميزات ، ويكاد يقف معه على قدم  
للساواة ، إلا أن أبا حيان يبدو أوسع أفقا في جوانب أخرى ، منها استطراده لنقل آراء  
فقهية معتبرة لمذاهب أخرى كالمنهـب الظاهري ومذاهب الفرق الإسلامية المختلفة ،  
ومنها توثيق مادته العلمية بالإحالة على مصادره بدرجة عالية من الدقة ، وكذا دقة  
الاستنباطات التي انفرد بها أبو حيان عن الزمخشري ، وربما كان عامل الاختصار عند  
الزمخشري والتفصيل عند أبي حيان أحد الأسباب التي أظهرت هذا التفوق والتفاوت  
بينهما .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الفصل الخامس

أثرهما في حركة التفسير

جامعة أمير  
القادر للعلوم الإسلامية

## المبحث الأول

### أثر الزمخشري في حركة التفسير

لقد تحدث أكثر من باحث عن أثر الزمخشري في من جاء بعده من المفسرين ، وأسهبوا في ذكر أسماء من نقلوا عن تفسيره ، ولكنهم سكتوا عن تعليل هذا التأثير الواسع الذي امتد عبر قرون طويلة ، كما سكت أغلبهم عن سر شهرة هذا المصنف الذي طاول به الزمخشري كبار المفسرين ممن سبقوه أو جاءوا بعده .

وفي رأيي أنه من الضروري أن نبحث سر هذا التأثير الواسع ، وسبب شهرة هذا التفسير وذيعه بين طلاب العلم والدارسين .

وربما كان في مقدمة أسباب تقدم هذا التفسير عن غيره ، واحتلاله رتبة الصدارة في درجة تأثيره في من جاء بعده من المفسرين ، سبقه في تطبيق الدراسات البيانية في تفسير القرآن الكريم ، وذلك بعد اكتمال نظرية النظم ونضحها ، ولذا قال ابن خلدون :

( .. والعناية به — أي علم البيان — لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره .. وسببه والله أعلم أنه كمال في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران ، والمشرق أوفر عمسراتنا من المغرب كما ذكرناه ، أو نقول لعناية العمم وهم معظم أهل المشرق ، كتفسير الزمخشري ، وهو كله مبني على هذا الفن ، وهو أصله .. )<sup>1</sup>

ثم قال : ( وأحوج ما يكون إلى هذا الفن للمفسرون ، وأكثر تفاسير للتقدمين غفل عنه ، حتى ظهر تفسير جار الله الزمخشري ، ووضع كتابه في التفسير ، وتبسع أي القرآن بأحكام هذا الفن ، بما يدي البعض من إعجازه ، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير ، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة ، مع وفور بضاعته من البلاغة ، فمن أحكم عقائد أهل السنة وشارك في هذا الفن بعض للشاركة ، حتى يقدر على الرد عليه من جنس كلامه ، أو

<sup>1</sup> . ابن خلدون . المقدمة : 475



يعلم أنها بدعة فيعرض عنها ، ولا تضره في معتقده ، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب ، للظفر بشيء من الإعجاز ، مع السلامة من البدع والأهواء .<sup>1</sup>  
وقد تابع السيوطي ابن خلدون في تعليل سر شهرة الكشاف وذيوعه واشتغال طلبة العلم به ، سواء كانوا من خصومه أو من أتباعه .

قال السيوطي بعد أن ذكر قداماء للمفسرين : ( ثم جاءت فرقة أصحاب نظر في علوم البلاغة التي بما يدرك وجه الإعجاز ، وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة ، فلذا طار كتابه في أقصى الشرق والغرب ، ولما علم مصنفه أنه بهذا الوصف قد تجلّى قبال — تحدثنا بنعمة الله وشكرا — :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد      وليس فيها لعمري مثل كشاف  
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته      فالجهل كالداء ، والكشاف كالشافي<sup>2</sup>

أما الأستاذ: عبد العظيم الزرقاني فيرى أن تفسير الكشاف قد امتاز عن غيره من التفاسير بأمر جعلته يحظى بهذه الصدارة ، ثم ذكر ( منها خلوه من الحشو والتطويل ، ومنها سلامته من القمص والإسرائيليات<sup>3</sup> ، ومنها اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم ، ومنها عنايته بعلمي اللغوي والبيان والنكات البلاغية تحقيقاً لوجوه الإعجاز ، ومنها سلوكه فيما يقصد إيضاحه طريق السؤال والجواب كثيراً .. )<sup>4</sup>

وقد فصل هذا للمعني حاجي خليفة في " كشف الظنون " مقسراً أن ماسمير بن الزمخشري هو توفره على القدر الزائد على التفسير ، من استخراج محاسن النكت والفقر ، ولطائف اللغوي التي تستعمل فيها الفكر ، وبيان ما في القراءان من الأساليب لا يتسهاً إلا لمن برع في هذين العلمين ، لأن لكل نوع أصولاً وقواعد ، ولا يدرك فن بقواعد فن آخر ، والفقيه والمتكلم بمنزل عن أسرار البلاغة ، وكذا النحوي والنحوي ، وقد كان الصحابة يعرفون هذا للغزى بالسليقة ، فكانوا يعرفون بالطبع وجوه بلاغته ، كما كانوا يعرفون وجوه إعرابه ، ولم يحتاجوا إلى بيان النوعين في ذلك ، لأنه لم يكن يجهلها أحسد من

<sup>1</sup> . الصفحة نفسها : 475

<sup>2</sup> . انظر : يوسف إبان مركس ، معجم المفردات العربية والعربية ، ص 975/1 ج . نقل من نواهد الأناكر ، للسيوطي .

<sup>3</sup> . قد تقدم في الباب الثاني من هذا البحث أن لا يوافق من حكم سلامة تفسير الكشاف من القمص الناطلة والإسرائيليات .

<sup>4</sup> . عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن : 70/2

أصحابه ، فلما ذهب أرباب السليقة ، وضع لكل من القواعد والبلاغة قواعد يدرك بها ما أدركه الأولون بالطبع ، فكان حكم علم البيان وللعاني كحكم النحو .  
ولما كان كتاب الكشاف هو الكافل في هذا الفن ، اشتهر في الآفاق ، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه ، فمن مميزات الاعتزال حاد فيه عن صوب الصواب ، ، ومن مناقش له فيما أتى به من وجوه الاعراب ، ومن محشّ وضّح ونفع ، واستشكل وأجاب ، ومن مخرج لأحاديثه ، عزا وأسند وصرح وانتقد ، ومن مختصر لخص وأوجز .<sup>1</sup>  
كما ينبغي أن لا تغفل سببا آخر من أسباب رواج كشاف الزمخشري ، وهو اختفاء تفاسير المعتزلة على كثرتها ، فلم يبق بين أيدينا تفسير كامل للقرآن ينسب لإمام من أئمة هذه الفرقة التي كان لها أثر واضح وبارز في تاريخ الفكر الإسلامي ، حتى صار دارس الفكر الاعتزالي لا يكاد يجد بين يديه في مجال التفسير كتاب شامل لتفسير كل آي القرآن سوى هذا الكتاب ، ليطلع من خلاله على آراء المعتزلة ، فيتعين عليه الرجوع إليه ليعرف آراءهم من مصادرهم .

وثمة عامل آخر بالغ الأهمية في أسباب شهرة كشاف الزمخشري وانتشاره ، وقد سكت عنه أغلب الدارسين ، وهو الصلة التاريخية والفكرية بين المعتزلة والشيعة أولا<sup>2</sup> ، وصلة الزمخشري بالشيعة الزيدية عند مجاورته بمكة ثانيا<sup>3</sup> ، حيث كان لهم دور بارز في خدمة هذا التفسير والترويح له بعدئذ ، ذلك أن مذهب الزيدية الكلامي هو الاعتزال ، ولا يختلف الزيدية عن المعتزلة في الأصول إلا في مسألة الإمامة<sup>4</sup> — وهي مسألة فقهية — وقد توثقت هذه الصلة بين الزمخشري وفكر الشيعة الزيدية عن طريق شيخه للمفسر الحاكم الجشمي الذي كان يؤكد على هذه الصلة القديمة بين المعتزلة والزيدية ، قال الحاكم : ( ومن أصحابنا البغدادية من يقول " نحن الزيدية " لأنهم كانوا مع أئمة الزيدية

<sup>1</sup> . حاشي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1477/2

<sup>2</sup> . انظر الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث .

<sup>3</sup> . وهو ما به عليه أبو حيان نفسه في تفسير قوله تعالى : " .. قال إن جاعلك للناس إماما قال ومن ذريعتي قال لا يزال مهتدي الظالمين " سورة البقرة : 23 . حيث استورد الزمخشري لليل من حلفاء بني أمية والانتصار لبعض أئمة الزيدية ، فقل أبو حيان كلامه ثم علق عليه بقوله : ( وإنما ذكره الزمخشري لأنه كان مكة مجاورا للزيدية ومصاحبهم ، وصنف كتابه الكشاف لأجلهم .. ) البحر

المعجم : 378/1

<sup>4</sup> . إجماع الخمسة ومنها في التفسير : 84 . قلا عن شرح العيون مع . ورقة 23/1 .

والمبايعين لهم والمجاهدين تحت رايهم ، ولاختلاطهم قديما وحديثا ، ولاتفاقهم في المذهب )<sup>1</sup> وقد ارتقى أيضا بسند المعتزلة من شيوخه حتى انتهى به إلى علي بن أبي طالب وقال : ( لا شبهة أن المعتزلة هم الشيعة لاتباعهم أمير المؤمنين وأهل بيته في كل عصر وحين ، واتفاقهم في مذاهبهم . )<sup>2</sup> وخير دليل على صحة كلامنا هذا هو كون أغلب الأسماء التي ارتبطت بالتصنيف حول تفسير الزمخشري هي أسماء تعود إلى بعض فرق الشيعة من أهل المشرق ، وهو ما نفهمه من مقالة السبكي ( .. هذا الكتاب الذي اتخذت الأعاجم من دراسته في هذا الزمان دليلا .. )<sup>3</sup>

ونظرا لهذه الأسباب وغيرها فإننا إذا أردنا أن نتبع أثر كتاب الكشاف في الحركة العلمية ، فإننا نجد كالمشجرة التي امتدت أغصانها الباسقة في الفضاء ، ثم لا زالت تسوق وتثمر كل حين ، وهكذا تفرقت مادته العلمية في كتب النحو ، واللغة والبلاغة ، والأدب ، والتفسير ، حتى ليصعب على الدارس أن يحصر حجم هذا الأثر الذي تركه هذا التفسير فيما بين أيدينا من تراث فكري ، وحينئذ نلم بعض هذا الأثر فيما له صلة ببحثنا ، وللتعلق بحركة التفسير وعلوم القرآن ، وسنرصد هذا التأثير من خلال العناصر الآتية :

#### 1- الاقتباس منه :

كان أغلب من كتب في علوم القرآن عالة على تفسير الكشاف فيما تعلق بالمباحث النحوية والبلاغية ، ويأتي في مقدمتهم برهان الدين الزركشي في كتابه " البرهان في علوم القرآن " حيث رجع إلى هذا التفسير فيما يزيد عن مائتي موضع ، وإن كان تارة يوافقه وتارة أخرى يخالفه<sup>4</sup> ، فأفاد منه إفادة واسعة فيما يتعلق بالجوانب اللغوية والبلاغية في القرآن الكريم .

<sup>1</sup> . أحكام الغنمي ومنهجه في تفسير القرآن ، نقلا عن شرح الفيوم ، ورقة 50/1

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 50/1

<sup>3</sup> . منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : 267 نقلا عن كتاب معبد النعم وسيد النعم للسبكي : 114

<sup>4</sup> . انظر البرهان في علوم القرآن ، فهرس الأعلام : 467/4

ورجع إليه السيوطي في كتابه " الإتيقان في علوم القرآن " في مواضع كثيرة ، يضيئ للمقام بذكرها<sup>1</sup> ، وفعل مثل ذلك في كتابه " معترك الأقران في إعجاز القرآن " فكان تارة يقتبس منه بالمعنى ، وتارة أخرى يقتبس كلامه بحرفيته مع عزو الكلام إلى الزمخشري . وهكذا فإننا إذا تتبعنا الكتابات المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم ، فإننا لا نكاد نظفر بدراسة أغفلت جهود الزمخشري وإبداعاته في هذا الجانب ، حتى ذهب بعضهم إلى أن كل من كتب في إعجاز القرآن بعد الزمخشري كان عالمة على كشافه<sup>2</sup> . وهذا الإمام يحيى بن حمزة العلوي اليميني ( ت : 749هـ ) صاحب كتاب " الطراز " يقرر في مقدمة كتابه أن الباعث على وضع هذا للمصنف ، هو أن جماعة ممن الإخوان شرعوا علي في قراءة كتاب " الكشاف " — تفسير الشيخ المحقق أستاذ للمفسرين محمود بن عمر الزمخشري — فإنه أسسه على قواعد هذا العلم ، فاتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التريل ، وعرف من أجله وجه التفرقة بين للمستقيم وللمعوج من التأويل ، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه والوقوف على أسراره وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير ، لأن لم أعلم تفسيرا مؤسسا على علمي للعاني والبيان سواه ، فسألني بعضهم أن أملي فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق يرجع إلى للعاني ، إذ لا منلوحة لأحدهما عن الثاني .<sup>3</sup>

٢- اختصاره :

وعلى الرغم من كون تفسير الكشاف في غاية الإيجاز والاختصار ، فإنه قد استهوى بأسلوبه وبلاغته أكثر الدارسين ، فعمل على اختصاره خلق لا يحصى عددهم ، نذكر منهم :

— الفضل بن الحسن الطبرسي ( ت : 561هـ ) الذي عني بالبلاغة القرآنية ودراسة إعجاز القرآن والكشف عن وجوهه عناية بالغة ، تلفت نظر للمختصين بالدرس البلاغي وقضية الإعجاز خاصة في تفسيره " جوامع الجوامع " الذي خصصه لهذا الموضوع .

<sup>1</sup> . انظر الإتيقان في علوم القرآن : 152/1 . 158/1 . 175/1 . 176/1 . 177/1

<sup>2</sup> . انظر مثلا : شوفي صيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص : 52

<sup>3</sup> . انظر : معج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : 278 . فلاح الطراز ، يحيى بن حمزة العلوي : 5/1

والأمر للملت للنظر أن " جوامع الجوامع " قد أُلّفه بعد اطلاعه على كشف الزمخشري ، إذ أشار للولف إلى ذلك في مقدمة جوامعه ، ونوه بتأثره بأسلوب الزمخشري ، وباراته للتنوع في المباحث البلاغية ، والتي هي امتداد لآراء عبد القاهر الجرجاني التي ضمنها كتابه دلائل الإعجاز . وهذا الإعراف من الطبرسي يدل على أمانته العلمية وتواضعه وإخلاصه.

( لقد أفاد للولف من كشف الزمخشري خير إفادة في عرض الصور الجمالية والبيانية التي اختص بها كتاب الله المجيد ، لذا فإن " جوامع الجوامع " عيال على تفسير الزمخشري ، وأنه في الحقيقة جاء مختصراً وبشكل إجمالي من غير تفصيل ، على خلاف الكشاف الذي جاء مفصلاً )<sup>1</sup>

— الشيخ محمد بن علي الأنصاري ( ت : 662هـ ) قام باختصاره ، وتركزت جهوده في تخليصه مما جاء فيه من اعتزال ، أو تعسف في توجيه نصوص الآيات ، أو ما جاء فيه من كلام شبيه بالخطابة ، ولا يخدم تفسير النص بما تدعو إليه حاجة طالب العلم<sup>2</sup>.

— أحمد بن صالح بن محمد بن صالح ، المعروف بابن أبي الرجال ، عالم زيدي ، مشارك في التاريخ والتفسير والأصول والنحو والمعاني والبيان ، من أهل صنعاء مولداً ووفاء ، قلل في البدر الطالع : وارتفعت درجته عند الإمام ، وكان يجالس ويخاضه ورفع درجته حتى كان تارة بدرجة الوزير ، وقد كتب حاشية على الكشاف ، اختصره وبسطه وقرب معانيه . وقد توفي سنة 1092هـ<sup>3</sup>.

— أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الحمين الكردي ، ثم المصري ، أبو زرعة ، ولي الدين ، ابن المحافظ العراقي المشهور ، قاضي الديار المصرية ، وهو فقيه شافعي أصولي ، عارف بالتفسير والحديث والأدب ، وعالم زمانه ، ترجم له السخاوي ترجمة مطولة ، وأثنى عليه ، من آثاره " حاشية على الكشاف للزمخشري " قال صاحب كشف

<sup>1</sup> . مجلة جامعة الأمر جد القادر للعلوم الإسلامية ، العدد السادس ، السنة : 1999 . مقال : الإنهاء العمري في تفسير القران ،

د . سامي الكاظمي : ص : 53

<sup>2</sup> . انظر : منهج الزمخشري في تفسير القران وبيان بصارته : 276

<sup>3</sup> . محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت : ج 1/ 61

الظنون : في مجلدين ، لخص فيها كلام ابن المنير وعلم الدين العراقي وأبي حيان ، وأجوبة  
السامين الحلبي والصفاقسي ، مع زيادة تخريج أحاديثه ، توفي سنة : 826هـ<sup>1</sup> .

— أحمد بن محمد بن محمد الخجندي ، جلال الدين ، أبو الطاهر ، محدث ، مفسر ، من  
فقهاء الحنفية ، من أهل خجندة — مدينة كبيرة بخراسان — رحل في طلب العلم ، ثم  
استقر بالمدينة المنورة يدرس ويفتي ويصنف إلى أن مات سنة : 802هـ — ودفن مع شهوده  
أحد ، من مصنفاته حاشية على الكشاف<sup>2</sup> .

— ومنهم قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي ، لخصه وسماه " تقريب التفسير ، أمه  
سنة : 698هـ — ببلدة شيراز ، أزال اعتزاله وبعض إطنابه ، فهدب ونقع وضم إلى مواضع  
الانفلاق حلا وبيانا ، وهو كتاب صغير الحج وجزر النظم ، مشتمل على محض الأهم من  
الكشاف مع زيادات شريفة . وعليه حاشية لطيفة مفيدة مسماة بتوضيح مشكلات  
التقريب لعلي بن عمر الأرنجائي<sup>3</sup> .

— ولعل خير اختصار لتفسير الكشاف هو " كتاب أنوار التستريل وأسرار التأويل "  
للقاضي العلامة ناصر الدين ، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي ، البيضاوي ، وهو قاض  
، مفسر ، أصولي ، من أعيان الشافعية ( ت : 692هـ ) فقد لخصه وأجاد ، وأزال عنه  
الاعتزال كما أضاف عليه فوائد جليلة ، واستباطات دقيقة ، قال صاحب كشف الظنون  
: وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن ، غني عن البيان ، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق  
بالإعراب والمعاني والبيان .. وضم إليه ما وري زناد فكره من الوجوه للعقولة  
والتصرفات للقبولة ، فحلا رين الشك عن السريرة ، وزاد في العلم بسطة وبصيرة<sup>4</sup> .

3 — نقله وتخليصه من اعتزاله :

لقد كان الزمخشري مجاهرا باعتزاله في كتابه الكشاف ، وصرح في مقدمته أنه وضعه  
برغبة وإلحاح من علماء الفرقة الناجية — علماء العدل والتوحيد — فلا جرم بعدئذ أن  
يلقى هذا التفسير أكثر من معارض وناقذ ، ولكن القارئ سرعان ما يلاحظ أن جل

<sup>1</sup> . الضوء الملامح في أعيان الفرق للناسخ : 336/1

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 194/2

<sup>3</sup> . كشف الظنون عن أسرار الكتب والمصنفين : 1481/2 . وانظر صدر المطالع ، للشركار : 299/2

<sup>4</sup> . انظر الداودي ، صفات المفسرين : 142/1

الانتقادات للوجهة له تكاد تنحصر فيما أظهره هذا المفسر من تعسف وتعصب في نصرة منبه ، وتحكيمه في معاني آيات القرآن الكريم ، وكل من انتقله في هذا الجانب ، قسرن هذا النقد بالثناء عليه في الجوانب الأخرى التي أبدع وأجاد فيها .

من ذلك مثلا مقولة ابن خلدون في مقدمته : ( .. ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن — علوم اللسان — من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مولفه من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له في أي القرآن من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكانه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة ، وإذا كان الناظر فيه ووفقا مع ذلك على المذاهب السنية ، عسنا للحجاج عنها فلا حرم أنه مأمون من غوائله ، فلنقتنم مطالعته لقرابة فنونه في اللسان .<sup>1</sup>

— وهذا ابن تيمية بالرغم من شدته على المخالفين يقر له بمحاسن تفسيره الكشاف ، لولا فساد مذهبه الذي صيغ به تفسيره ، فقال في معرض حديثه عن التفاسير للنهيية : ( فما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين ، تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرعان ، إما دليلا على قولهم ، أو جوابا على المعارض لهم ، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة ، ويلبس البدع في كلامه ، وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله .<sup>2</sup>

— ونجد تاج الدين السبكي ينبري لتفسير الكشاف بالنقد ، فإذا به يصدر كلامه بسالمدح والإطراء ، مقررًا أنه كتاب فريد في بابه ، ولكنه يجب تجريد مما فيه من ميول مذهبيه ليصلح الانتفاع به ، فيقول : ( اعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه ، ومصنفه إمام في فنه ، إلا أنه رجل مبتدع ، مجاهر ببدعته ، يضع من قدر النبوة كثيرا ، ويسيء أدهم مسع أهل السنة والجماعة ، والواجب كشط ما في كتابه الكشاف من ذلك كله ، ولقد كان الشيخ الإمام يقرئه ، فلما انتهى إلى كلامه في قوله تعالى في سورة التكوير : " إنه لقبول رسول كريم .. الآية ، أعرض عنه صفحا ، وكتب ورقة حسنة سماها " الانكشاف عن

<sup>1</sup> . المقنة : 349

<sup>2</sup> . مقنة في أصول الفقه : 22

إقراء الكشاف " وقال فيها : رأيت كلامه على قوله تعالى : " عفا الله عنك " وكلامه في سورة التحريم والزلزلة ، وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلستق الله تعالى سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبي — صلى الله عليه وسلم — مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة .<sup>1</sup>

ثم قال تاج الدين السبكي معلقا على كلام والده : ( فانظر كلام الشيخ الإمام الذي برز في جميع العلوم ، وأجمع للموافق والمخالف على أنه بحر البحار منقولاً ومعقولاً في حق هذا الكتاب الذي اتخذت الأعاجم دراسته في هذا الزمان ديدنها ، والقول عندنا فيه أنه لا يسمع بالنظر فيه إلا لمن صار على منهاج أهل السنة ، لا تزحزحه شبهات القدرية .<sup>2</sup> فهذا القول للسبكي في الحقيقة بقدر ما يكشف عن حجم للزائق التي تدحرج فيهما الزمخشري ، يكشف من جهة أخرى عن حسناته في هذا الكتاب ، حيث نراه لا يعفسي أحدا من قراءته إذا أمن على نفسه السقوط في حبال القدرية .

وقد انتقد تفسير الكشاف الشيخ حيدر<sup>3</sup> في حاشية لم يتمها ، وقدم لذلك بمقدمة تكلم فيها عن محاسن هذا التفسير ومساوئه ، ومما جاء فيها : ( .. وبعد ، فإن كتاب الكشاف كتاب علي القدر ، رفيع الشأن ، لم ير مثله في تصانيف الأولين ، ولم ير مثله في تأليف الآخرين ، اتفقت على مائة تراكيبه الرشيقة كلمة للمهرة للتقنين ، واجتمعت على رصانة أساليبه الأنيقة السنة الكاملة للفلقنين ، ما قصر في تنقيح قوانين التفسير ، وتهذيب براهينه ، وممهيد قواعده ، وتشديد معاقده ، وكل كتاب بعده في التفسير ولو فرض أنه لا يخلو من التقير والقطمير ، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة ، ولا تجد فيه شيئا من تلك الخلاوة ، على أن مؤلفه يقتفى أثره ، ويسأل خبره ، وقلما غير تركيبا من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخطل ، وسقط في مزائق الخطب والزلل ، ومع ذلك كله إذا فنشت عن حقيقة الخبر فلا عين منه ولا أثر ، ولذلك قد تدلونه أيدي النظر ، فاشتهر في الأقطار كالشمس وسط النهار ، إلا أنه لإخطائه طريق الأدب ، وإغفاله للإجمال في الطلب ،

<sup>1</sup> . مهج الزمخشري في تفسير الفرمان وبيان إعجازه : 267 ، نقله عن معبد العم ومبيد النعم . تاج الدين السبكي : 114

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 114

<sup>3</sup> . هو حيدر بن محمد الخوي ، الهروي ، مفسر ، متكلم ، عالم بالعربية واللغة والبيان ، توفي بعد سنة : 820 هـ ابن العماد :

شذرات الذهب : 145/7



أدركته حرفة الأدب ، ولفرط تصلبه في باطل الاعتزال ، وإخلاله بإجلال أرباب الكمال ، أصابته عين الكمال ، فالتزم في كتابه أموراً أدهشت رونقه وماعه ، وأبطلت منظره وروايه ، فتكدرت مشاربه الصافية ، وتضيقت موارده الضافية ، وتزلت رتبته العالية .  
منها أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه ، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه ، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة ، وتعسفات جامدة ، وصرف الآية بلا نكتة من غير ضرورة عن الظاهر تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى ، وليته يكتفي بقدر الضرورة ، بل يبالغ في الإطناب والتكثير لئلا يوهم بالعجز والتقصير ، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادر إلى الأفهام ، والخفية التي لا يتسارع إليها الأوهام ، بل لا يهتدي إلى حباته إلا وارد بعد وارد من الاذكياء الخذاق ، ولا يتنبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق ، ، وهذه آفة عظيمة ، ومصيبة حسيمة .

ومنها أنه بطعن في أولياء الله للرضين من عباده ، ويفقل عن هذا الصنع لفرط عنساده ، ونعم ما قال الرازي في تفسير قوله تعالى " يجبههم ويجبونه .. " (خاض صاحب الكشاف في هذا اللقاع في الطعن في أولياء الله تعالى ، وكتب منها ههنا ما لا يليق بالعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش ، فهب أنه اجترأ على الطعن في أولياء الله تعالى ، فكيف احستراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد ..)<sup>1</sup>

ومنها أنه مع تجره في جميع العلوم على الإطلاق موصوف بلطائف المحاوره ونفائس المحاضرة أورد فيها آياتاً كثيرة ، وأمثالا غزيرة بيت على الهزل والفكاهة أساسهما ، وأوقدت على اللزاح البارد نبراسهما ، وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد ، سيما عند أهل العدل والتوحيد .

ومنها أنه يذكر أهل السنة والجماعة — وهم الفرقة الناجية — بعبارات فاحشة فتارة يعبر عنهم بالمجيرة ، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد ، وهذه وظيفة السفهاء الشطار ، لا طريقة العلماء الأبرار .<sup>2</sup>

أما الذين انتقلوه على وجه التفصيل ، ووضعوا في ذلك مصنفات ، فنذكر منهم :

<sup>1</sup> . قصص الرازي ، مفتاح العيب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج 17/12

<sup>2</sup> . كشف الظنون عن أسس الكتب والنسب : 1482/2

— الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ، ابن للنير الاسكندري ، للسالكى ، في كتابه " الانتصاف من الكشاف " بين فيه ما تضمنه من الاعتزال ، وناقشه في أعاريب وأجساد فيها ، وهذا الكتاب مطبوع على حاشية الكشاف لأهميته ومكانته .

— وتلاه الإمام علم الدين بن عبد الكرم العراقي في كتابه " الإنصاف في مسائل الخلاف بين ابن النير والزنجشري " جعله حكما بين الكشاف والانتصاف ، وذلك أنه لمسا رأى بأن انتقادات ابن النير لا تخلو من تحامل في بعض الأحيان ، حاول أن يدفع عن الزنجشري ويبين مواطن الزلل في قصد واعتدال ، توفي سنة : 704هـ<sup>1</sup> .

— ولخصهما جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام في مختصر لطيف مع زيادة يسيرة ، وتوفي سنة : 762هـ<sup>2</sup> . قال للمصنف : اختصرت فيه الانتصاف من الكشاف ، وحذفت منه ما وقعت الإطالة به من نقل كلام الزنجشري على وجهه من غير كلام عليه إعجابا به ، واستحسانا له ، وما قابل به الزنجشري في سبب أهل السنة بمثلها مقتصر على العقيلة الصحيحة ، وما يتعلق بالآية منها من دليل وحمل على تأويل ، فلم أدع شيئا من معاني الكتاب المذكور ، فما وافق منه الصواب أبقيته بحاله ، وما خالف ذلك بينت وجه ضعفه ، وإخلاله<sup>3</sup> .

— وصنف أبو علي ، عمر بن محمد بن محمد بن خليل السكوفي ( ت : 717هـ ) كتاب " التمييز لما أودعه الزنجشري من الاعتزالات في تفسير الكتاب العزيز " ، وقد تكلم فيه في الإمام فخر الدين الرازي وغيره بما لا يعاب به عالم<sup>4</sup> .

— ووضع العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي على الكشاف حاشية مطولة أيضا ، قال صاحب كشف الظنون : وهي أجل حواشيه ، في ست مجلدات ضخمة ، قال : رأيت النبي — صلى الله عليه وسلم — قبيل الشروع أنه ناولني قدحا من اللبن ، وأشار إلي فأصبت منه ، ثم ناولته عليه الصلاة والسلام ، فأصاب منه ، أقول سماها " فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب " <sup>5</sup> ، وتوفي سنة : 743هـ .

<sup>1</sup> . اندرر النكتة : 13/3 . وضقات النشابة للسكي : 126/6

<sup>2</sup> ، هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام ، جمال الدين ، النحوي المشهور . انظر بغية الوعاة : 68/2

<sup>3</sup> . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1477/2

<sup>4</sup> . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1482

<sup>5</sup> . ابن حليو ، المقامة : 349

— ومنها حاشية العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ، قال في كشف الظنون : وهي ملخصة من حاشية الطيبي ، مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها ، وصل فيها إلى سورة الفتح ، وفرغ منها سنة : 789هـ ، وتوفي سنة : 792هـ<sup>1</sup> .

وعن قيمة حاشية السعد العلمية قال : ( وأما شرح المحقق النحرير — أي السعد — فماله من نظير ، لاشتماله على التحقيق والتدقيق ، ولطائف التوفيق والتلفيق ، لكنه فوت الفرصة واشتغل به في آخر عمره ، فأتاه بريد الأجل قبل الفراغ من العمل ، وقد تحققت منه أن هذا الكتاب على تعاقب الشهور والأعوام مهرة لم تتركب ، ودره لم تنقب . )<sup>2</sup> كما يعتبر تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي من أوسع المراجع التي تضمنت الرد على اعتراضات الزمخشري في كشافه ، حيث كان يفيض في عرض آراء للعتزلة بصفة عامة وأدلتهم ، وما بذله الزمخشري في ذلك من جهد للتوفيق بين نصوص القسرعان وأصول منعه ، ثم يكر على ذلك مبينا فساد .

#### 4 — شروحه :

وعليه شروح كثيرة كانت في أغلبها في بسط الوجوه البلاغية وإسناد الرويات ، ونسبة الشواهد الشعرية لأصحابها ، وكانت هذه الشروح لا تخلو من انتقادات ، بقيت محل نزاع بين أنصار الزمخشري وخصومه ، مما أحدث حركة واسعة في التأليف فيما سمي بالمحاكمات .

منها اعتراضات أوردها جمال الدين محمد بن محمد الاقسرائي<sup>3</sup> وقد كان ملما بعلموم العربية والعلوم الشرعية ، وصاحب مصنفات منها : شرح الإيضاح في اللعاني والبيان للقزويني ، وقد توفي سنة : 771هـ<sup>4</sup> . وعليه محاكمات لعبد الكرم بن عبد الجبار ذكسر فيها أن شرح الكشاف للعلامة قطب الدين الرازي كتاب جليل الشأن ، لكن جمال الدين الاقسرائي اعترض عليه اعتراضات ، فكتبت الأجوبة وسميتها بالمحاكمات . وأجاب عن

<sup>1</sup> : كشف الظنون من أسلمي الكلب والعمون : 1477/2

<sup>2</sup> . المصدر نفسه : 1477/2

<sup>3</sup> . نسبة إلى " أف سراي " من بلاد قروم ، ومعناه القصر الأبيض . انظر رضا كحلانة ، معجم اللؤلؤين : 627/3

<sup>4</sup> . البغدادي ، إيضاح المكنون ، استانبول ، 1947م ، ج 2/433

المحاكمات ابن سمانه ، ذكره عرب زادة<sup>1</sup> في حاشية الشقائق . أما شرح الطيبي فلم يسل جهدا في إيراد مبادئه المنتشرة من تبين وجوه القراءات ، وتصحيح الأحاديث والروايات ، وتحقيق لغاته ، وتلقيق نكاته ، وبذل جهده في تقرير مسائله ، ومع ذلك ففيه شسبشان ، أحدهما ليس من الأفعال الاختيارية وهو أن هذا الكتاب كتاب متين وحصن حصين ، لا يكمل علمه بمجرد العثور على العلوم الظاهرة بل له شرائط ، بعضها ما ذكره مؤلفه — يقصد الزمخشري — وثانيهما أنه كان مولعا بكثرة إيراد النكات البيانية ، فصار شرحه كبير الحجم في غير المقصود ، واختلاط للوجود بالمفقود .

قال في كشف الظنون : ( وأما شرح الفاضل الجبلوهي<sup>2</sup> على أنه واف بمقاصده ، فلهن فيه ثلاثة أشياء ، أحدها أنه لم يشرحه مرتبا كما يكون حال الشروح مع للتون ، وثانيها قد بذل جهدا فيما يتعلق بالرواية وقوانينها ، لكنه كثيرا ما يزلق في المضائق ، ويدحض في التعقلات ، ولا أدري أهو لقصور استعداده الفطري ، أم لعدم تمرنه في للعقولات ، وثالثها ، أنه بالغ في اختصار عبارته والاقتصار على إشارته ، فخرج من حيز الانتفاع إلى حد الألفاظ ، والإخلال ، فلا يحصل بمطالعة سوى التخيل الفاسد مع تعب الكلال .<sup>3</sup> )  
 وشرحه محمد بن أحمد بن عيسى اللقري ( ت : 1005هـ ) وهو فقيه مالكي ، مفسر ، صاحب تصانيف ، في كتاب " غاية الإتحاف فيما خفي من كلام القاضي والكشاف " .<sup>4</sup>  
 ومن شرحه أيضا العلامة عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي ، للعرف بالفاضل اليميني ، كتب حاشية في مجلدين سماها " درر الأصداف في حل غوامض الكشاف " فرغ من تأليفها سنة : 738هـ ، وتوفي سنة : 750هـ ، وله حاشية أخرى سماها " تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف " ألفها بعد فراغه من كتابة حاشيته " درر الأصداف .. " ذكر فيها أنه لما وقف على حاشية الطيبي وجد مذكورا فيها ما ذكره صاحب الانتصاف

<sup>1</sup> . هو محمد بن محمد الشهير عرب زاده ، مفسر فقيه يان ، درس في القسطنطينية ، وعين قاضيا بالقاهرة ، مات في البحر عرفا في

بعض أسفاره ، له حواش في التفسير منها حاشية على البيضاوي ، توفي سنة : 969هـ . معجم المؤلفين : 657/3

<sup>2</sup> . لم ألق له على ترجمة .

<sup>3</sup> . كشف الظنون 1481/2

<sup>4</sup> . عادل توبهس ، معجم المفسرين : 485/2

والإنصاف وغيرهما ، فأراد أن يجمع بين حاشية الطيبي ودرر الأصداف ، وسماها " تحفة الأشراف .. " <sup>1</sup>

وشرح خطبة تفسير الكشاف بمجد الدين الفيروزابادي ( ت : 816هـ ) وسماه " قطبة الخشاف لحل خطبة الكشاف " ، ثم كتب شرحا آخر وسماه " نغمة الرشاف من خطبة الكشاف " ، وتوجد منهما نسخة بدار الكتب المصرية <sup>2</sup> ، وغيره كثير ذكرهم صاحب كشف الظنون <sup>3</sup> .

#### 5- تخريج شواهده الحديثية والنحوية :

ولما كان كتاب الكشاف قد اشتمل على عدد وفير من الأحاديث والآثار للرفوعة وللوقوفة ، إلى جانب الشواهد الشعرية في اللغة والنحو والبلاغة ، فإن هذا قد حمل بعضا من رجال الحديث واللغة والنحو والبيان على خدمته من هذه الجوانب ، ونذكر منهم :  
— الإمام المحدث جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي ، الحنفي ، للتوفي سنة : 762هـ — الذي وضع كتابا في تخريج مروياته وسماه : تخريج أحاديث الكشاف ، وقد اعتمده ابن حجر فيما بعد وزاد عليه <sup>4</sup> .

— شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ، ابن حجر العسقلاني ، الحافظ ، للتوفي سنة : 852هـ في كتاب سماه " الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف " في مجلد ، واستدرك عليه في مجلد آخر ، استوعب ما فيه من الأحاديث للرفوعة ، فأكثر من تيسير طرقها ، وتسمية مخرجها على نمط ما في أحاديث الهداية ، لكنه فاته كثير من الأحاديث للرفوعة التي يذكرها الزمخشري بطريق الإشارة ، ولم يتعرض غالبا لشيء من الآثار للوقوفة . وهو مطبوع على هامش الكشاف <sup>5</sup> .

وشرح غير واحد آيات الكشاف ، وقد ذكر بعضهم صاحب كشف الظنون فقال :

<sup>1</sup> . كشف الظنون : 1480/2

<sup>2</sup> . الصور، اللاع في أعيان القرن التاسع : 79/10 . وانظر : مبة الزهراء : 274/1

<sup>3</sup> . انظر كشف الظنون من أسامي الكتب والمصنوع : 1479/2 — 1482

<sup>4</sup> . الدرر الكعبة في أعيان ثلاثة القعدة : 310/2

<sup>5</sup> . كشف الظنون من أسامي الكتب والمصنوع : 1482/2

( وشرح آيات الكشاف لبعض الأفاضل مختصر ، ذكر فيه أن بعض إخوانه أشار إليه بعد أن شرح آيات للفصل ، أن يشرح آيات الكشاف ، فأجاب ، وهي زهاء ألف بيت أكثرها متثور للمقاطع خافية معانيها على أكثر الأدباء حتى الفحول . )<sup>1</sup>

وشرح شواهد الكشاف في مجلدات لخضر بن محمد الموصللي ، نزيل مكة المكرمة<sup>2</sup> ، كما شرح الشواهد الشعرية لتفسير الكشاف محمد عيسى المرزوقسي الشافعي ، للمصري ( ت : 1355هـ )<sup>3</sup> في كتاب سماه " مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف " ، وهو مطبوع على هامش الكشاف .

6- الجمع بينه وبين غيره من كتب التفسير :

وقد قام غير واحد من المفسرين بالجمع بين الكشاف وغيره من كتب التفسير بالرأي بصفة خاصة ، ونذكر منهم :

— أبو حيان الأندلسي الذي أقام كتابه " البحر المحيط " على ثلاثة كتب في التفسير كان يراها من أحسن ما كتب في هذا العلم ، وهي كتاب " المحرر الوجيز " لابن عطية الأندلسي ، والكشاف للزمخشري ، والتحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير لابن النقيب للقدس<sup>4</sup> .

— ومنهم الإمام أبو السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزري ، توفي سنة : 606هـ وهو محدث لغوي ، مفسر له كتاب " الإنصاف في الجمع بين الثعلبي والكشاف " وهو تفسير كبير جمع فيه بين تفسير الكشاف والبيان للثعلبي والكشاف<sup>5</sup> .

— ومنهم الإمام بدر الدين محمد المقري الحلبي ، المعروف بالقاضي التنوخي سنة : 705هـ الذي صنف " مختصر الراشدين من زلال الكاشف من التفاسير " اختصره من الكشاف ،

1 . المصدر نفسه : 1482/2

2 . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1482/2

3 . معجم المفسرين : 594/2

4 . البحر المحيط : 10/1 - 11

5 . ابن كثير ، البداية والنهاية : 54/13

مع المحاكمات من فوائد أبي العباس أحمد للمهدي<sup>1</sup> ، ومن كتاب أبي الليث السمرقندي<sup>2</sup> ، ومن الكشف والبيان للشعبي<sup>3</sup> .

ولأبي السعود العمادي للتوفي سنة : 982هـ تفسير " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " ويعرف بتفسير أبي السعود ، جمع فيه بين درر الكشاف وغرر أنوار التزويل ، وأضاف إلى ذلك ما التقطه من بعض التفسير الأخرى ، وهو تفسير مطبوع ومشهور .

وهكذا فإننا إذا ذهبنا نحصي من خلم هذا التفسير شرحا أو تلخيصا ، أو تهذيبا ، أو تخريجا لمروياته ، أو تقدا ومحميضا لما جاء فيه ، فإن الحديث بطول ، ويمكن أن يكون بحثا مستقلا حول أثر الزمخشري في حركة التفسير والفسرين ، غير أن سر هذا الانتشار والتأثير لا ينحصر فيما ضمنه صاحبه من خالص علم التفسير ، بل ترجسع إلى أسباب مختلفة بسطناها من قبل .

## المبحث الثاني

### أثر أبي حيان في حركة التفسير

لقد كان لتفسير البحر المحيط لأبي حيان أثر واضح فيمن جاء بعده وكتب حول تفسير الكشاف للزمخشري ، ويستطيع الباحث في حركة التفسير أن يلاحظ بوضوح ذلك التحول الذي أحدثه أبو حيان بهذا المصنف في التفسير ، حيث نجد من كان قبله يقتصرون

<sup>1</sup> . هو أحمد بن همار بن أبي العباس ، المهدي ، مقرئ كبير ، مفسر نحوي ، من أهل تونس ، له كتاب " التفصيل الجامع لمعلوم التبريل " في التفسير ، توفي سنة : 440هـ . انظر : الداودي ، طبقات المفسرين : 56/1 .  
<sup>2</sup> . هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ، أبو الليث ، الملقب بإمام الهدى ، محدث مفسر ، صولي ، من أئمة الخنبة ، له تفسير القرمان ، قال حاسبي خليفة : وهو كتاب مشهور ، لطيف مفيد ، انظر طبقات الداودي : 345/2 ، وكشف الضرر : 441 .  
<sup>3</sup> . منهج الزمخشري في تفسير القرمان وبيان إحصاءه : 273 .

في نقد الزمخشري على تتبع اعتراضاته والتنبيه عليها في مواضعها من "الكشاف" ، وتوجيه شيء من العتاب لشخص الزمخشري على بعض مما جاء في كتابه الكشاف من تحميص وسخرية من أهل السنة ، وقسوة على بعض مخالفه ، وبالمقابل فإنهم يفيضون في الثناء عليه وتمجيده لسبقه في تطبيق نظرية النظم البلاغي في التفسير ، والكشف من خلالها عن مواضع الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، حتى جاء أبو حيان الأندلسي ، وقام بدراسة نقدية شاملة امتدت إلى مختلف الجوانب العلمية في هذا التفسير ، كما أن أبا حيان لم يغفل ذكر محاسن هذا الكتاب ، وجوانب التفوق والتفرد فيه ، بل كان منصفاً لصاحبه في الغالب الأعم ، ولم يكن تحامله عليه بأكثر من دفاعه عنه ، بل لم يمنعه تحامله عليه أن يكون كثير التنويه بمواضع التوفيق والإجادة في اللواتن التي كان فيها الزمخشري جديراً بذلك .

ولما كان تفسير البحر المحيط قد تميز من جهة أخرى بمباحثه الفياضة في اللغة والنحو والقراءات وغيرها ، فإن هذا كله قد ترك أثراً بارزاً فيمن جاء بعده ، فأثار نشاطاً علمياً ملحوظاً ، بالرغم من الإسهاب الذي غلب عليه في أغلب مباحثه ، وأتعب الدارسين في الإفادة منه ، وقد أحس أبو حيان نفسه بهذا ، مما حمله على تهذيبه واختصاره ، وفي ذلك يقول : (..فإن لما صنفت كتابي الكبير للمسمى بالبحر المحيط في علم التفسير ، عجزت عن قطعه — لطوله — السابع ، وتقلت له عن اقتناصه البارح منه والسانح ، فأجريت منه فحراً تجرّي عيونه ، وتلتقي بأبكاره فيه عيونه ، لينشط الكسلان في اجتلاء جماله ، ويرتسوي الظمان بارتشاف زلاله ..) <sup>1</sup>

ولا يزال عامل التوسع والإطالة في التأليف منذ القلم صارفاً من الصوارف عن بعض الكتب في التفسير وفي غير التفسير ، ومن ذلك مثلاً ما ذكره الطبري للتفسير عن كتابه "جامع البيان" لما ألفه فقال لأصحابه : أنتشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فكأنهم أظهروا عجزهم عن وقالوا : هذا مما يفني القمار قبل تمامه ، فاختره في ثلاثة آلاف ورقة <sup>2</sup> .

<sup>1</sup> . أبو حيان الأندلسي ، فنه الماد : لقائمة .

<sup>2</sup> . انظر جامع البيان عن تأويل أي القرآن : 8/1 .



ومع هذا الإسهاب والتفصيل من أبي حيان فإنه لم يمنع بعضاً من أنصاره والمعجبين به من العكوف على البحر المحيط ، واستخراج درره ونفائسه .

وقد تجلّى هذا الأثر في أول الأمر في بعض تلاميذه الذين صاروا شيوخاً في حياته ، ودرسوا عليه التفسير ، وتأثروا بمنهجه وبكثير من آرائه ، فعملوا إلى هذا السفر العظيم ، وجعلوا يتبعون جوانب الإبداع و الابتكار فيه ، وإبراز قيمته العلمية ، فظهر نتيجة لذلك عدة مصنفات في اللوازنة بين أبي حيان من جهة وبين الزمخشري وابن عطية من جهة أخرى ، ونذكر من هؤلاء التلاميذ :

— أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم ، أبو محمد ، تاج الدين ، وهو نحوي ، لغوي عارف بالتفسير والحديث وفقه الحنفية ، لازم أبا حيان مدة طويلة ، وصنف " الدر اللقيط من البحر المحيط " قال للصفدي : التقط فيه إعراب البحر المحيط لشيخنا أمير الدين ، فجاء في غاية الحسن ، وقد اشتهر هذا الكتاب ، وورد إلى الشام ، ونقلت به النسخ ، قال ابن حجر : اقتصر فيه على مباحث أبي حيان مع ابن عطية والزمخشري<sup>1</sup> .

وقد قال للمصنف في مقدمته : ( .. فهذا كتاب يشتمل على ما ذكر في كتاب شيخنا الأستاذ العالم الحافظ أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيسان النفزي الأنلسي نزيل القاهرة ، أيده الله ، في تفسير القرآن للمسمى بالبحر المحيط ، من الكلام مع الإمام العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمود الزمخشري والقاضي للمفسر العالم أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي ، رحمهم الله ، والرد عليهما فيما ذكره في كتابيهما في التفسير ، والتبني على خطئهما في الأحكام الإعرابية ، وتقرير ذلك أحسن تقرير ، وجرده منه لنفسي ، وجعلته عملة عند الرحمة لأنسي .. )<sup>2</sup>

— أحمد بن يوسف بن عبد اللطيف بن محمد الحلبي ، أبو العباس ، شهاب الدين ، المعروف بالسمين ( ت : 756هـ ) وهو مقري ، نحوي ، مفسر ، درس القراءات في الجامع الطولوني ، له مصنفات منها : " الدر للمصون في علم الكتاب للمكنون " قال صاحب كشف الظنون : هو مع اشتماله على غيره أجل ما صنف فيه ، أي في علم إعراب القرآن

<sup>1</sup> . الدر لكمة : 186/1

<sup>2</sup> . ابن مكتوم ، الدر اللقيط من البحر المحيط — مطبوع على هاشم البحر المحيط : 8/1

، لأنه جمع العلوم الخمسة : الإعراب والتصريف ، واللغة ، والمعاني ، والبيان ، ولخصه من البحر المحيط لأبي حيان <sup>1</sup> ، وقد كان كتاب الدر للمصون لا تخلو صفحة من ذكر أبي حيان وتفسيره حتى إن صاحب كشف الظنون ما كان يرى في كتاب السمين شيئاً يزيد على ما جاء في البحر المحيط .

أما الداودي في طبقاته فيرى أنه زاد عليه وناقشه في مواضع مناقشة حسنة <sup>2</sup> ، ونحن نوافقه فيما ذهب إليه ، وما رسالة بدر الدين الغزي للموسومة بـ " الدر الثمين في بعض ما ذكره أبو حيان وعارضه السمين " إلا شاهد صدق على ذلك .

وقد كان للسمين كثير النقل عن تفسير البحر المحيط معتمداً منهجه ومعسولاً على مصادر شيخه في التفسير ، وبذلك كان شديد التأثير به ، حيث لا تكاد تخلو أغلب صفحات مصنفه من النقل عنه ، مصدر أقوله دائماً بعبارة " قال الشيخ .. " <sup>3</sup> .

وقد أشار في مقدمته إلى صلته بشيخه أبي حيان ومصادره في التفسير عندما قال : ( وذكرت كثيراً من المناقشات الواردة على أبي القاسم الزمخشري وأبي محمد بن عطية ، وإن أمكن الجواب عنهم بشيء ذكرته ، وكذلك تعرضت لكلام كثير من المفسرين كالمهلوي .. وهذا التصنيف في الحقيقة نتيجة عمري وذخيرة دهري ، فإنه لب كلام هذه العلوم ) <sup>4</sup> وهو يقصد بالمناقشات الواردة على الزمخشري وابن عطية اعتراضات شيخه أبي حيان وانتقاداتهما .

— ومن تأثر بأبي حيان الأندلسي في التفسير عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف النعالي الجزائري للملكي للتوفي سنة : 875هـ صاحب تفسير " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " وهو تفسير فيه كثير من المحاسن ، وقد لخصه مما يزيد عن مائة كتاب ، وهو يمتاز بالتحري وشدّة الحرز فيما ينقله ، وقد قال في مقدمته : ( فإني جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عيني وعينك في الدارين من كتب الأئمة ، وثقاة أعلام هذه الأمة ، حسبما رأته ورويته عن الأئمة ، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما

<sup>1</sup> . كشف الظنون : 122/1 . وانظر : بنية الرعاة : 402/1 . وكتاب الدر المصون مطبوع في سنة مخطات .

<sup>2</sup> . الداودي ، طبقات المفسرين : 100/1

<sup>3</sup> . الدر للمصون في علوم الكتاب المكون : 335/1 ، 388/1 ، 389/1

<sup>4</sup> . الدر للمصون في علوم الكتاب المكون : 46/1

منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ، ومعلود في المحققين ، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت ، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزلل ..<sup>1</sup>

ثم ذكر أن ما نقله عن البحر المحيط لأبي حيان إنما نقله بواسطة الصفاقسي ، وهو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم القيسي ، النحوي للشهور ، للتوفى سنة : 724هـ<sup>2</sup> وهو أحد تلاميذ أبي حيان . قال الثعالبي : ( وما نقلته من إعراب عن غير ابن عطية فمن الصفاقسي مختصر أبي حيان .. وكل ما نقلته عن أبي حيان فإنما نقلته بواسطة الصفاقسي ..)<sup>3</sup>

وكان الثعالبي ينقل عن أبي حيان — بواسطة الصفاقسي ما يتعلق بالنواحي الإعرابية والقراءات وغيرها ، فتارة يوافقه وتارة أخرى يناقشه ويرد عليه ، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : " .. وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " البقرة : 36 حيث نقل رد أبي حيان على ابن عطية والزمخشري في تقديرهما قبل هذه الجملة مخلوفا ، أي فعصوا وما ظلمونا ، وأنه لا حاجة إلى ذلك ، لأن ما تقدم من قبائح يعني عنه . فاعترض الثعالبي على رد أبي حيان بقوله : ( وقول أبي حيان لا حاجة إلى هذا التقدير .. إلى آخره ، يرد بأن المخوفات في الكلم الفصيح هذا شأنها ، لا بد من دليل في اللفظ يدل عليها ، إلا أنه يختلف ذلك في الوضوح والخفاء ، فأما حذف ما لا دليل عليه فإنه لا يجوز.)<sup>4</sup>

والظاهر أن اعتراض الثعالبي غير وجهه ، لأن أبا حيان لم يذكر شيئا عسنا وجوب وجود الليل — عما يحذف — وإنما رأى أنه لا حاجة إلى هذا التقدير قبل هذه الجملة ، وهو قوله " ولا يتعين تقدير مخلوف كما زعم ابن عطية والزمخشري ، لأنه قسده صدر منهما ارتكاب قبائح من اتخاذ العجل لها ، ومن سؤال رؤية الله على سبيل التعنت مما لم

<sup>1</sup> . عبد الرحمن الثعالبي ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984م ، ج 1/4

<sup>2</sup> . بهية الرواة : 425/2

<sup>3</sup> . الجواهر الحسان في تفسير القرآن : 4/1

<sup>4</sup> . المصدر نفسه : 133/4

يقص علينا ، فجاء قوله تعالى " وما ظلمونا " حملة منفية تدل على أن ما وقع منهم مسن تلك القبائح لم يصل إلينا بذلك نقص ولا ضرر ..<sup>1</sup>

— ومن تأثر بأبي حيان الأندلسي أحمد بن محمد بن شهاب الدين ، للمصري ، وهو فقيه ، أديب ، صاحب تصانيف ( ت : 1069هـ ) صنف التفسير للمسمى " عناية القاسمي وكفاية الراضي " الشهير بحاشية الشهاب على البيضاوي<sup>2</sup> ، حيث كان يرجع إليه في فض الخلافات النحوية واللغوية والقراءات وغيرها ، ومن ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى : " إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون " سورة البقرة : 6 حيث استعان بكلامه في الدفاع عن القراءة للتواتر ضد الزمخشري ومن ذهب منهبه حيث قال الشهاب<sup>3</sup> : ( قال أبو حيان : القراءة للتواتر لا تدفع ببعض المنهيب ..)<sup>4</sup>

— ومنهم محمود بن عبد الله بن محمود درويش الحسيني ، الألويسي ، البغدادي ، شهاب الدين شيخ علماء العراق في عصره ، كان محدثاً ، مفسراً ، وفتياً لغوياً أديباً له تصانيف أشهرها " روح للعاني في تفسير القرآن والسبع للثاني " توفي سنة : 1270هـ<sup>5</sup> حيث كان تفسير البحر المحيط في مقدمة مصادره ، وأفاد منه في نواح كثيرة ، فكان ينقل عنه توجيه القراءات والدفاع عنها ضد الطاعنين عليها بغير علم<sup>6</sup> ، ويأخذ عنه بعض وجوه الإعراب في كثير من للمواضع ، ويجعل من كلامه حكماً في مواضع الخلاف<sup>7</sup> ، فتارة يقول : قال أبو حيان ، وتارة أخرى ينقل عنه قائلاً " كما في البحر " وغالباً ما يتخذ الألويسي مسن البحر المحيط ملاذاً في الرد على الزمخشري وتفنيد مزاعمه النحوية واللغوية التي طالما تنزع بها لنصرة منهبه<sup>8</sup> ، كما نقل عنه في أسباب النزول<sup>9</sup> وجوانب أخرى في التفسير .

1 . البحر المحيط : 215/1 .

2 . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 855/1 .

3 . الشهاب ، عناية القاسمي وكفاية الراضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط 1 ، 1997م : ج 273/1 .

4 . والذي هو عند أبي حيان في البحر المحيط : ( وقرلة ورش صحيحة للنقل لا تدفع باختيار المنهيب ولكن عادة هنا الرجل إسامة

الأدب على فعل الأفاء ونقله الفرمان ، وقرأ الزهري وابن عيمن " أنذرتهم " همزة واحدة ، حذف همزة الأولى لدلالة المعنى عليها ،

ولأجل ثبوت ما عداها ، وهو " لم " .. ) البحر المحيط : 48/1 .

5 . التفسير والتفاسير : 352/1 . وانظر معجم المفسرين : 665/2 .

6 . روح لنعالي : 267/1 .

7 . روح لنعالي : 357/1 . 305/1 . 241/2 .

8 . روح لنعالي : 319/1 .

9 . روح لنعالي : 311/1 .

وإذا كان أبو حيان قد لقي انتقادات من بعض معاصريه وتلاميذه ، فإن هذه الحركة النقدية المضادة له هي الأخرى قد ضاعفت من نشاط الحركة العلمية التي نفع فيها أبا حيان من روحه ، فلقبت تلك الانتقادات ردوداً من أنصاره ومؤيديه ، ونذكر من ذلك مثلاً :

— رسالة لعلي أفندي شلبي الشهير بقنالي زادة تتعلق بأجوبة السمين على اعتراضات شيخه أبي حيان على مواضع من الكشاف ، وهي مخطوط بدار الكتب المصرية<sup>1</sup> . وقد توفي سنة : 979 هـ<sup>2</sup> .

— الدر الثمين في بعض ما ذكره أبو حيان وعارضه السمين ، لبدر الدين الفيزي<sup>3</sup> ، وهو لغوي ، أديب ، شاعر ، والرسالة لا تزال مخطوطة .

— كما أثارت ردود ابن هشام على أبي حيان نشاطاً علمياً ملحوظاً قديماً وحديثاً ، نذكر منها رسالة تحت عنوان " التبيان في سر تعامل ابن هشام على أبي حيان " <sup>4</sup>

— وفي القرن الحادي عشر الهجري نجد أحد الأعلام وهو يحيى بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى ، أبو زكريا ، الشاوي ، اللباني ، الجزائري ، وقد كان نحويًا ، مفسرًا ، متكلمًا وصاحب مصنفات ، صنف كتاباً بعنوان " المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري " <sup>5</sup> . وقد بسط فيه مواطن الخلاف بين أبي حيان والزمخشري وابن عطية محلولا تبين وجه الصواب والإنصاف في كل موطن من مواطن الخلاف بينهم ، وقد توفي سنة : 1096 هـ والكتاب توجد منه نسخة خطية بمكتبة جامعة الأزهر ، وقد حقق بعض أجزائه مؤخرا<sup>6</sup> .

<sup>1</sup> . الدرر النكامة : 22/2 ، وانظر : مسجع الزمخشري في تفسير الفرقان وبيان إعجازها : 272 .

<sup>2</sup> . ابن العماد الخليلي ، شذرات الذهب : 388/8

<sup>3</sup> . هو الحسن بن علي بن أحمد بن حمي بن إبراهيم الفيزي ، بدر الدين ، ولد بغزة ، وأُنشد بدمشق وبالديار المصرية غالب شعلا من آثاره رسالة سماها فرهم القرين ، تشتمل على طب ونبز ، توفي سنة : 753 هـ . الدرر النكامة : 22/2 ، ومصحف المؤلفين : 564/1 .

<sup>4</sup> . وهي رسالة عليبة لناحث يوسف عبد الرحمن الفصيح ، ضلع دار أربنة للضاهة ، القاهرة . انظر البحر وكتب التفسير : 1440/2 .

<sup>5</sup> . محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ط 1 ، القاهرة : 1349 هـ . من : 316

<sup>6</sup> . وقد حقق جزءاً من الباحث مصطفى العمازي ، تقدم به ليل درجة الدكتوراه في قسم اللغسة والعربية وأعادها جامعة الجزائر في سنة : 1999 .

وقد قال للصف في مقدمة كتابه : ( .. وبعد ، فالكتاب قصدت فيه جمع اعتراضات الإمام ذي البيان ، المشتهر بأبي حيان ، على ابن عطية ومحمود الزمخشري ، والتكلم بمسا يظهر للقريب والبعيد ، وأسأل الله في ذلك التسديد . )<sup>1</sup> وهذه نماذج قصيرة منه :

في إعراب البسمة قال يحيى الشاوي : ( قال الزمخشري : يقدر عامل البسمة مؤخراً ، لأن تقلم المعمول يوجب الاختصاص<sup>2</sup> .

وقال أبو حيان : وليس كما زعم ، قال سيويه في للفعول : تقديمه على عامله وتأخيره ، كل منهما عربي جيد ، والاهتمام والعناية بالتقدم والتأخير كتقديمه على الفاعل وتأخيره عنه<sup>3</sup> .

قلت : تأخذ منه الاهتمام لا الاختصاص ، وأنه في مختلف النسبة كالفاعل والمفعول ، لا في متحلها كالمبتدأ والخبر ، وما ذهب إليه الزمخشري من ذهب اليسانين لا من ذهب النحويين . )<sup>4</sup>

وفي تفسير قوله تعالى : " وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ .. " سورة النساء : 158

قال يحيى الشاوي : ( قال الزمخشري " ليؤمنن به " جملة قسمية واقعة صفة لمخضوف ، أي : وإن من اليهود أحداً إلا ليؤمنن ، نحو : " وما منا إلا له مقام معلوم " ، و " وإن منكم إلا واردها .

قال أبو حيان : هذا غلط فاحش ، إنما الصفة لـ " أحد " هي " من أهل الكتاب " أي وما أحد من أهل الكتاب ، وأما " ليؤمنن " فليسا صفة لمخضوف ، وهو وجوابه خير " أحد " المخضوف ، إذ لا ينتظم من " أحد " والمحرور إسناد ، لأنه لا يفيد ، وإنما ينتظم الإسناد بالجملة القسمية وجوابها ، فذلك هو محط الفائدة ، وكذلك الخبر وهو " إلا له مقام معلوم " ، وكذا " إلا واردها " إذ لا ينتظم مما قبل إلا تركيب إسنادي .

<sup>1</sup> . يحيى الشاوي ، الهاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري . تحقيق : مصطفى العماري ، نسخة حطية ، ص : 166

<sup>2</sup> . انكشف : 3/1

<sup>3</sup> . سيره ، كتاب : 34/1

<sup>4</sup> . الهاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري : 167

قلت : اعتراضه عليه متجه ظاهرا ، ويكمن إطلاق الصفة على الخبر ، فهو صفة ، ثم لم يعترضه بما تكرر منه مرارا من التناقض حيث يكون الشيء له محل ولا محل لأن كونه صفة أو خيرا ، كما قال الشيخ أبو حيان يوجب المحل ، ، وكونه جواب قسم يوجب أنه لا محل له .

وجوابه اختلاف الجهتين ، أو ضم جملة القسم إليه في الخبرية ، ويصح بقاؤه على ظاهره من الوصفية ، والمجورور وهو " من أهل الكتاب " خير " أحد " ، وتميم الفسائدة بالصفة ، وكثيرا ما يتم بها كقولك : للماء ماء بارد . وفي الحال كقوله :

إنما لليت من يعيش كئيبا .<sup>1</sup>

وأما في مجال اللغة والنحو فقد كان البحر المحيط مرجعا من مراجع ابن هشام في كتابه مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، وعلى الرغم من كون ابن هشام لم يتلمذ على يد أبي حيان في هذا الجانب — حيث اقتصر على سماع ديوان زهير بن أبي سلمى منه — فإنه كان كثير النقل عنه ، وفي الوقت ذاته كان كثير الرد عليه ، كثير للمخالفة له ، وكثرت مخالفة ابن هشام لأبي حيان لمخالفته له في النهج أولا<sup>2</sup> ، ولنازعة للمكانة التي كان يحظى بها أبو حيان ثانيا ، حيث كان أبو حيان ميرزا في هذا الميدان ، مصابوا للمعاصرين له والسابقين عليه كالزمخشري ، وقد كان يطلق عليه " أمير اللومنين في النحو " ونال لقب شيخ النحاة<sup>3</sup> وابن هشام لم يولد بعد ، إذ قد ولد سنة : 708هـ ولكن ابن هشام ظهرت عليه موهلات للنافسة والتمييز في سن مبكرة ، وقد رسخت قدمه في علم النحو قبل وفاة شيخه أبي حيان ، وكانت بينهما مراجعات في النحو ومناقشات استعظم فيها أبو حيان أمر هذا التلميذ الناشئ ، وتوسم فيه ملامح التفوق والنافسة ، وقد صدقت نبوءته فيه<sup>4</sup> .

ولكن الذي يتضح لنا في الأخير من تتبع أثر تفسير الكشاف في الحركة العلمية بصفة عامة ، وفي حركة التفسير بصفة خاصة ، أنه بفعل الأسباب السابق ذكرها أو بفعل

1 . المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري : 452 .

2 . حيث عرف أبو حيان بالقسوة والتحليل في الرد على خصومه ، وعرف ابن هشام ضد ذلك .

3 . حديقة الحسني ، أبو حيان العمري : 101 .

4 . انظر تنوير : النحو وكتب تنصير : 1275/2 .

أسباب أخرى<sup>1</sup> ، قد استطاع أن يحظى بهذه المكانة المميزة بين كتب التفسير لفترة طويلة من الزمان امتدت إلى عصرنا الحاضر .

وعلى الرغم مما كان يحظى به أبو حيان من مكانة علمية عند معاصريه ، وما قدمه في تفسيره البحر المحيط من دراسة نقدية بشكل لم يسبق إليه ، والنقلة التاريخية للميزة التي أحدثتها في حركة التأليف في التفسير من خلال إبداعاته ومبتكراته ، فإن تفسيره لم يسرق إلى درجة لينافس تفسير الزمخشري ، وأن شهرة الكشاف قد ظلت تحجب تفسير البحر المحيط ، وهذا ما نلاحظه من خلال تتبعنا لما أناره من نشاط علمي نعتبره محدودا قياسا مع النشاط العلمي الذي أحدثه تفسير الكشاف ، مما حملنا على البحث في سر هذا التفاضل وتعليقه بأسباب خارجة عن التفسير أكثر من الأسباب التي ترجع إلى ما هو من التفسير .  
وفي الأخير نقول : إنه بالمقابلة بين جوانب التفوق في تفسير البحر المحيط عن تفسير الكشاف من جهة ، وبين أثر كل منهما في حركة التفسير ، تتضح لنا صحة الفرضية التي انطلقنا منها في بداية بحثنا هذا وسلامة النتائج التي انتهينا إليها ، والله أعلى وأعلم ، وصلى الله على النبي الأكرم .

<sup>1</sup> . كما أن هناك أسبابا أخرى لا يمكن إكثارها كانت من وراء شهرة تفسير الكشاف وكثرة الاهتمام به ذكرناها سابقا ، منها إحيائه مسجح للقرآن في نقد القراءات وتأكيد على هذا المنهج ، وأرائه البحرية الخريفة كمنه تفيد في التبيين لبعض القواعد والصواب في الترواح البحرية ، وإفراجه في الاهتمام بالحق على حساب الأحكام الإهراية ، ومنها مؤهلاته العلمية التي مكنته من استيعاب فكر أئمة اللغة والبحر والبلاغة بومد ، وهنأ أفراجه وتوليها وتلويها بمكره وإشغالاته الشخصية حتى ليحطك توم أن من ينقله هو من استهاداته وليس من نقله وإشغالاته .. وغيرها .



## الثالثة

جامعة الأمير  
عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبتوفيقه تدرك الغايات وبعد:

فإن هذه الدراسة التي تمثلت في الموازنة بين هذين الكتابين في التفسير قادتنا في نهاية المطاف إلى تقرير النتائج الآتية :

— إن دراسة تفسير الكشاف دراسة سليمة لا تنهياً إلا لمن درس حياة الزمخشري وما كان يحوطها من ظروف سياسية واجتماعية وفكرية ، تلك الحياة التي كانت تنعكسها الآلام والآمال ، حيث نشأ الزمخشري منذ صباه في بيئة تموج بالاعتزال ، واحتضنه منذ بداية حياته العلمية شيخه أبو مضر محمود بن جرير الأصفهاني المعتزلي وآواده ، في الوقت الذي لقي من سلاطين آل سلجوق كل الصلود والحرمان ، مما قذف به إلى مكة ليلتقي بولي نعمته أمير مكة ابن وهاس الذي كان يقاسمه في الفكر والرأي ، فبالغ في تكريمه والإحسان إليه ، وعرضه عن كل ما فاتته ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، كما لقي هناك من أرباب الفرق الكلامية الأخرى من كان يشايعه ويناصره في فكره ، مما شجعه على كتابه تفسيره في مكة ، وقد كان لكل تلك العوامل أثرها الواضح في توجيهه الفكري في كشافه .

— في حين تميزت حياة أبي حيان بالاستقرار النسبي مقارنة بحياة الزمخشري ، فما أن دخل مصر حتى لقي حظوة وعناية بليقان بمقامه ، مما هيأ له الإقامة بها إلى آخر حياته ، وقد كانت مصر قبلة للعلماء وطلاب العلم من أهل السنة يومئذ ، فكانت فرصته في إشباع رغبته في التعلم والتعليم في آن واحد . ويبدو من مقلمة تفسيره أنه كانت بين يديه مجموعة هامة من كتب التفسير والعلوم الشرعية الأخرى ، فعمل على انتقاء مادة تفسيره من مصادر كثيرة ، كما أن ما كان يتميز به أبو حيان من حاسة نقدية وأمانة علمية في النقل والاقباس قد زاد منهجه في التفسير إتقاناً وإحكاماً ، وزاد من قيمة كتابه البحر المحيط رفعة وتقديراً ، وبذلك تجلّى عامل التفاضل بين هذين الكتابين في التفسير في جوانب مختلفة .

— ففي التفسير بالمأثور تجلّى لنا تفوق أبي حيان على الزمخشري بشكل واضح ، حيث رأينا مسلك الزمخشري في تفسير القرعان بالقرعان . إذ أخذ منه ذريعة ليضرب صفيحاً عن تفسير القرعان بالسنة والأحاديث النبوية ، وقد ظهر موقعه من مرويات السنة الواردة

في تفسير القراءان في صورة مماثلة لموقف أسلافه من علماء المعتزلة ، وذلك بالمغسالة في الطعن في عدالة الرواة وإن كانوا من رواة الصحيح من الحديث النبوي ، وتقدم العقل وتحكيمه في قبول الأحاديث وردّها أو تأويلها ، كما تجلّى ضعفه وقصر باعه في الرواية والنقل من حيث خلطه بين المرويات الصحيحة والضعيفة والموضوعة من غير ضابط يرجع إليه ، فكان يقبل الضعيف والموضوع من الحديث ويرويه بصيغة توهم صحته ، ويسروي الصحيح من الحديث ويرده أو يورده بصيغة توهم ضعفه ، وفي كلا الموقفين مذمة ومنقصة لتفسير الكشاف وصاحبه .

— في حين رأينا أبا حيان بالرغم من إقلاله من تفسير القراءان بالقراءان فإنه رجح إلى تفسير القراءان بالسنة ، وسار في ذلك وفق قواعد واضحة وسليمة ، حيث كان يقدم مرويات السنة عن التفسير بالرأي ، ويرجع إلى الصحيح من السنة ويكثر منه ، وينفر من كل ما هو ضعيف أو معلول من قصص وأخبار وإسرائيليات وغيرها ، كما تتبع أغلبها بالنقد مينا زيفها وبطلانها ، وكان يحيل في الأغلب الأعم على مصادرّه من السنة بكل أمانة ، وهو في ذلك يقف على طرف نقبض من مسلك الزمخشري .

— أما فيما تعلق بالتفسير بالرأي فإن أهم جانب برز فيه تفوق الزمخشري ويز أقرانه هو جانب الكشف عن بلاغة القراءان ودلائل إعجازده عن طريق تطبيق نظرية النظم البلاغي ، وتبين لنا أن نجاح الزمخشري في هذا الجانب لم يكن عفويا بل له أسبابه . منها توظيفه لهذه النظرية وهي في مرحلة لا تزال غضة طرية بعد ما أضفى عليها من مهارته الغويسة والأدبية ما زادها قبولا وتألقا . ومنها إفادته من التراث البلاغي والإنتاج التفسيري العربي عند المعتزلة في هذا الجانب . ومنها حاول الزمخشري أن يقلل من إحالاته على مصادرّه ، وهو يتحدث عن وجود الإعجاز القرآني وبلاغته . فإنه لا يستطيع أن ينفي أن جهوده هذه هي امتداد جهود سلفه من المعتزلة . ثم من شاركهم من الأشاعرة . فقد قامت نظرية النظم — التي تبنّاها الزمخشري — في بدايتها على يد الجاحظ في شكل بسيط يعني حسن الصياغة وكمال الترتيب . وتلازم الألفاظ مفردة ومركبة في الكلام . ثم تطورت إلى شكل فني ممتاز . إذ أصبحت تعني الأسلوب بمعناه العام الشامل . الذي يراعي ما بين أجزاء الكلام من علاقات النحو وروابطه . فهي نظرية أبدعها الجاحظ . وأقام

صرحها القاضي عبد الجبار ، ووسعها وطورها عبد القاهر الأشعري ، وطبقها الزمخشري ، فنجح إلى حد بعيد في تطبيقها حتى كادت محاسنه في هذا الجانب أن تحجب مساوئها في الجوانب الأخرى ، ومهما حاول أبو حيان أن يزاحم الزمخشري في الكشف عن إعجاز القرآن بما أضافه من جديد ، فإن جهده هذا لم يرق إلى درجة منافسته في ذلك الفن ، ومن هنا ظل الزمخشري كما قال السيوطي سلطان هذه الطريقة .

— أما في الجوانب الأخرى من التفسير بالرأي كجانب اللغة والنحو والقراءات وغيرها مما بسطنا القول فيه سابقا ، فقد استطاع أبو حيان أن يقدم دراسة نقدية شاملة للكشاف بما لم يسبق إليه ، وبذلك وضع تفسير الكشاف في حجه الحقيقي ، وغير مسن نظرة الدارسين إليه ، وأحدث بذلك نشاطا علميا ملحوظا تجلّى في تلك الدراسات التي انصبت حول الموازنة بين هذين التفسيرين ، حتى أصبحت تمثل حلقة مستقلة في تاريخ التأليف في التفسير . وصار إسم الزمخشري وتفسيره لا يذكر في الغالب إلا مقرونا باسم أبي حيان وتفسيره البحر المحيط .

— وإذا كانت فصول هذا البحث قد تجلّى من خلالها تفوق تفسير البحر المحيط على تفسير الكشاف في أغلب الجوانب ، مع بقاء كشاف الزمخشري في الصدارة ، فإن هذا يجعلنا نتميز إلى ما قاله صاحب كشف الظنون بأن سر اشتهار تفسير الكشاف هو القدر الزائد على التفسير ، وهو ما تؤكد مقالة ابن خلدون والسيوطي والزرقاتي فيما سبق ذكره . وبذلك يتجلى أن عامل الشهرة والانتشار لكتاب ما في التفسير لا يكون كافيا لنحكم على حجم القيمة العلمية لذلك الكتاب في تفسير القرآن الكريم . وذلك بعد أن امتزجت كتب التفسير بخيط كثيف من العلوم العقلية . وصارت هذه العلوم مقصدا أساسيا من مقاصد المفسر . بل ربما كانت صارفا لاهتمام المفسر عن النظر في جوانب العظة وموضع العبرة من كتاب الله تعالى ، واستحوذت عليه الاستطرادات المناسبة لتلك الإشارات القرآنية التي تتصل ببعض العلوم العقلية ، فأنفق فيها جهده وسود بها أغلب صفحات كتابه ، حتى أصبح ما هو من التفسير قبلا بل نشازا إلى جانب ما هو ليس من التفسير . ولقد قيل قديما في كتاب مفاتيح الغيب للنفخ الرازي " فيه كل شيء إلا التفسير " .

ومنذ أن امتزجت كتب التفسير بهذه الألوان من العلوم العقلية ، وما فتئت هذه العلوم تغطي وتوسع ، وما هو من التفسير يضيق ويختصر حتى اختلت موازين الحكم على كتب التفسير في كثير من الأحيان ، فوجد عددا من كتب التفسير كان حقها التقدم قد أخوت وربما هجرت ، وكتبا أخرى كان حقها التأخير ، أو على الأقل التمهيد والتقوم ، قد قدمت ونالت من الشهرة والرفعة ما يترهبها ويحميها من أصابع النقد والإتهام .

— وفي الختام أقول لقد خرجت من هذا البحث وأنا أشعر بحاجة ملحة للقيام بمراجعة جادة وواسعة في كتب التفسير ، وإقامة دراسة تقويمية لها من هذا الجانب لفصل ما هو من التفسير عما هو ليس منه ، ليتيسر لأهل العلم معرفة القيمة العلمية لكل مصنف في هذا الفن . والإفادة منه على أسس سليمة .

وأحسب أن قناعتي هذه تلتقي مع ما ذهب إليه محمد رشيد رضا في تفسير المنار ، حيث أحس بهذا وهو يستطرد إلى مباحث جانبية مختلفة في كتابه مما قد يفيد القارئ من جهة ، ويكون صارفا له عن تحصيل ما هو من التفسير من جهة أخرى . ولذلك أوصى في مقدمة كتابه " تفسير المنار " أن تقرأ هذه المباحث المفيدة في غير الوقت الذي يقرأ فيها تفسير كتاب الله تعالى عنى اعتبار أنها مباحث إضافية ينفع القارئ من خلالها إلى فهم هدايات القرآن وحكمته العالية ، ولكنها ليست هي عين تفسير كلام الله تعالى ، لأن أغلب هذه العلوم العقلية نسبية ، وخاضعة لقانون النشوء والارتقاء ، كما أنها تخفسي على أفتاء العامة ، وكتاب الله تعالى متزه عن ذلك كله .

كما تخلى لي بعد ضلول البحث أن تفسير الكشاف وأثره فيمن جاء بعده من المفسرين يرقى ليكون مشروع بحث عملي مستقل حين الفائدة ، وكذلك القول في تفسير البحر المحيط .

وإني أسأل الله تعالى في الأخير أن يوفقني وغيري من طلبة العلم وأصحابين لمواصلة البحث في هذا الاتجاه . لخدمة عدد من كتب التفسير هي في حاجة هذا النوع من الخدمة ، وما توفيتني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . والحمد لله رب العالمين .

# الفهارس العامة

- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث النبوية
- فهرس الشواهد النحوية واللغوية
- فهرس الموضوعات

## فهرس المصادر والمراجع

الآلوسى ، محمود بن عبد الله بن محمود بن درويش ، الحسينى ، الآلوسى ، شهاب الدين  
( ت : 1270هـ ) :

— روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، إدارة الطباعة المنيرية ، ودار إحياء  
التراث العربي ، بيروت ، ط 4 ، 1985م .

ابن الأثير ، عز الدين الجزري ، ( ت : 606هـ ) :

— اللباب في تمذيب الأنساب ، دار صادر ، بيروت ، 1980 .

— الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، بيروت . ط 5 ، 1985م .

إبراهيم عبد الله رفيدة :

— النحو وكتب التفسير . المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان . طرابلس . ليبيا .  
أحمد أمين :

— ظهر الإسلام ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 5 ، 1969 .

أحمد البيلى :

— الإختلاف بين القراءات ، دار الجيل بيروت . والدار السودانية للكتب بالخرطوم .  
ط 1 ، 1988م .

أحمد جمال العمري :

— لباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني . نشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة .  
1990م .

أحمد بن حنبل . الإمام . ( ت : 241هـ ) :

— المسند ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، 1998م .

أحمد رحمانى :

— نظريات الإعجاز القرآني ، مكتبة وهبة . القاهرة . ط 1 . 1998م .

إسماعيل باشا البغدادي :

— هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين . وكالة لنعرف . اسطنبول . 1955م .

الأستوي ، عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر، أبو محمد ، جمال الدين (ت : 772هـ) :

— طبقات الشافعية دارك العلمية ، لبنان ، ط 1 ، 1987م

الأشعري ، علي بن إسماعيل ، أبو الحسن. (ت : 330هـ) :

— مقالات الإسلاميين ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 2 ، 1985م .

الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد ، عماد الدين :

— تاريخ دولة آل سلجوق ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط 2 ، 1968.

ابن بشكوال ، خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت : 578هـ) :

— كتاب الصلة في تاريخ الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم ، مكتبة الخانجي ،

القاهرة . 1994م

ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد ، أبو عبد الله ، الطنجي (ت : 779هـ) :

— رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت .

البغدادي ، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي (ت : 29هـ) :

— أصول الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 3 ، 1983م .

البلخي ، أبو القاسم البلخي ، (ت : 309هـ) :

— مقالات الإسلاميين ، تحقيق : فؤاد سيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط 1

، 1986م .

الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت : 279هـ) :

— سنن الترمذي ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

، بيروت ، 1980م .

ابن تيمية ، أبو العباس . أحمد بن عبد الحلیم الحرابي (ت : 728هـ) :

— مقدمة في أصول التفسير ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

— منهاج السنة النبوية . دار الكتب اللبنانية ، بيروت .

الثعالبي . عبد الملك أبو منصور الثعالبي النيسابوري . (ت : 29هـ) :



— يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق : محمد قمبيحة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 1 ، 1983 .

ابن ثغري ، يوسف بن ثغري ، جمال الدين ، أبو المحاسن بردى الأتابكي (ت: 874هـ) :  
— النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . نسخة مصورة عن دار المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة .

ابن جبير . أبو الحسين ، محمد بن أحمد بن جبير الكناني ، الأندلسي ، ( ت : 614هـ ) :  
— رحلة ابن جبير ، دار بيروت للطباعة والنشر .

ابن الجزري ، شمس الدين أبي الخير ، محمد بن محمد ، ( ت : 833هـ ) :  
— النشر في القراءات العشر ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

— غاية النهاية في طبقات القراء ، عني بشره برحشتراسر ، دار الكتب . العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 3 ، 1982 .

الخصاص ، أحمد بن علي الرازي ، أبو بكر ( ت : 370هـ ) :  
— أحكام القراءان ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ( ت : 597هـ ) :  
— المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

— كتاب الموضوعات ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

الجهوري . إسماعيل بن حماد الجهوري ( ت : 393هـ )

— الصحاح . أو تاج اللغة وصحاح العربية . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العنبر للملايين . بيروت ، ط 3 ، 1982 .

حاجي خليفة . مصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب الجلي ( : 1067هـ ) :

— كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . طبع بعناية وكالة المعارف الجنبيلة ومطبعتها البهية . 1943 .

ابن حجر . أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ( ت : 852هـ ) :

— فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري . دار إحياء التراث العربي . بيروت . 1982 .

— لسان الميزان ، تحقيق : علي محمد معوض وغيره ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1996م .  
— الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ، دار الكتاب العربي ، مطبوع بمشامش  
الكشاف ، ط 3 ، 1987 .

— الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، القاهرة ، 1966م .

حسن إبراهيم حسن :

— تاريخ الإسلام ، دار الجيل ، بيروت . ومكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 13 ،  
1991م .

حسن الباشا :

— دراسات في تاريخ الدولة العباسية ، الناشر : دار النهضة العربية ، مطبعة جامعة القاهرة  
، 1990م .

حسين مؤنس :

— رحلة الأندلس ، أو حديث الفردوس الموعود ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط 2  
، 1985 .

الحوفي ، أحمد محمد :

— الزمخشري . دار الفكر العربي للطبع والنشر . القاهرة . ط 1 . 1966 .

أبو حيان ، محمد بن يوسف بن علي ، أبو حيان الأندلسي ، ( ت : 745هـ ) :

— البحر المحيط ، الناشر : مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض . لملكسة العربية  
السعودية .

— النهر لناد من البحر المحيط ، تحقيق : د. عمر الأسعد ، دار الجيل . بيروت . ط 1 ،  
1995م .

— ارتشاف الضرب من لسان العرب . تحقيق : مصطفى أمد النحاس . ط 1 ، 1984م .

الحازن . علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن حبيب . علاء الدين ، ( ت : 741هـ ) :

— لباب التأويل في معاني التنزيل . لملكة التجارية الكبرى ، مصر .

خديجة الحديشي :

— أبو حيان السحوي . مكتبة النهضة . بغداد ، ط 1 . 1966م .

ابن الخطيب ، محمد بن عبد الله بن سعيد ، أبو عبد الله ، لسان الديسن ، الغرناطي ،  
الأندلسي ( ت : 776هـ ) :

— الإحاطة في أخبار غرناطة ، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع ، ط 1 ، 1977م .

ابن خلدون ، عبد الرحمن ( ت : 808هـ ) :

— المقدمة . دار الكتب العلمية . بيروت . ط 1 . 1993 .

— كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، المجلد السابع ، دار  
الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1978م .

ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، ( ت : 681هـ ) :

— وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، دار صادر بيروت ، 1977م .

أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ( ت : 275هـ ) :

— السنن ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، للكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .

الداودي ، محمد بن علي بن أحمد شمس الدين ، الداودي ( ت : 945هـ ) :

— طبقات المفسرين ، تحقيق علي محمد عمر ، الناشر : مكتبة وهبة ، ط 1 ، 1972

الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان ، شمس الدين . ( ت : 748هـ ) :

— تذكرة الحفاظ ، دائرة المعارف ، حيدرآباد ، 1968م .

— سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 . 1984

— معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار . تحقيق : بشار عواد ، وشعيب

الأرنؤوط ، وصالح مهدي عباس . مؤسسة الرسالة ، بيروت . ط 1 1984م .

رابع دوب :

— الدرس البلاغي عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، دار الفجر لنشر

والتوزيع ، القاهرة ، ط 1 ، 1997م .

التررقاني : محمد عبد العظيم :

— مناهج العرفان في علوم القرآن ، دار الفكر .

الترركشي ، محمد بن عبد الله ، بدر الدين ( ت : 798هـ ) :

— البرهان في علوم القرآن . محمد أبو الفضل إبراهيم . دار الفكر ، ط 3 . 1980

الزحخشري : محمود بن عمر الزحخشري ( 538هـ ) :

— الكشاف عن حقائق غوامض التبريل وعيون الأقاويل في وجود التأويل ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 3 ، 1987

— شرح مقامات الزحخشري ، تحقيق : يوسف بقاعي ، دار الكتاب اللبناني ، ط 2

— إعجاز سورة الكوثر ، تحقيق : حامد الخفاف ، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1991 م .

— القسطاس في علم العروض ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، مكتبة المعارف ، لبنان ، ط 2 ، 1989 م

— أطواق الذهب في اللواعظ والخطب ، ط 1 ، للطبعة الرحمانية ، مصر .

زيفريد هونكه :

— شمس العرب تسطع على الغرب : نقله عن الألمانية فاروق بيضون ، وكمال الدسوقي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط 7 ، 1982 .

ابن سالم بن أبي الوفاء القرشي ، ( ت : 775هـ ) :

— الجواهر اللضية في طبقات الحنفية ، تع : عبد الفتاح محمد لحنو ، دار محر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 1 ، 1988 .

سعد الله ، أبو القاسم :

— تاريخ الجزائر الثقافي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع : الجزائر 1981 م .

سعيد عبد الفتاح عاشور :

— مصر والشام في عصر الأيوبيين والنماليك . دار النهضة العربية ، بيروت .

السمين الحلبي : أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد ، شهاب الدين ، أبو العباس ، المعروف بالسمين الحلبي ( ت : 756هـ ) :

— الدر للمصون في عنون الكتاب المكنون ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، دار الكتب العلمية . لبنان ط 1 . 1994 م .

سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ( ت : 180هـ ) :

— انكتاب . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . عالم الكتب . بيروت . ط 3 . 1983

السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين ( ت : 911 هـ ) :  
— الإتيان في علوم القرآن ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .  
— طبقات المفسرين ، دار الكتب العلمية ، لبنان  
— حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، مطبعة الموسوعات . مصر .  
— بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة  
العصرية ، صيدا ، بيروت .

— الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، دار المعرفة ، لبنان .  
الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي ( ت : 436 هـ ) :  
— غرر الفوائد ودرر القلائد تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتاب العربي ،  
لبنان .

### شكيب أرسلان :

— خلاصة تاريخ الأندلس ، منشورات دار الحياة . بيروت ، 1983 .  
شوقي ضيف :

— البلاغة العربية تطور وتاريخ ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم . أبو الفتح . ( ت : 548 هـ ) :  
— الملل والنحل ، دار المعرفة ، لبنان . 1983 م .

الشوكاني : محمد بن علي ( ت : 1250 هـ ) :

— البدر الطالع بحاسن من بعد القرن التاسع . مضعة السعادة . القاهرة . ط 1 . 1928 م .

ابن الصلاح . عثمان بن عبد الرحمن بن موسى أشهر زوري ( ت : 643 هـ ) :

— مقدمة ابن الصلاح ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع . عين منبلة ، الجزائر .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ( ت : 310 هـ ) :

— جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1995 م .

### عادل نويهض :

— معجم المفسرين . مؤسسة نويهض الثقافية لتأليف والترجمة والنشر . ط 3 . 1988 م .

ابن عاشور . محمد الطاهر بن عاشور ( ت : 1393 هـ / 1973 م ) :

— تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، والمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر .

عبد العزيز الحناوي المحمدي :

— دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن ، دار الطباعة المحمدية القاهرة ، ط 1 ، 1984م .

عبد الفتاح القاضي :

— البذور الزاهرة من طريقي الشاطبية والدرى ، ويليه القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة

العرب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 1 ، 1981م .

عبد الفتاح لاشين :

— التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ، دار المريخ للنشر ، الرياض ،

للمملكة العربية السعودية .

عبد الكريم الخطيب :

— الإعجاز في دراسات السابقين ، دار الفكر العربي ، ط 1 ، 1974

عبد المنعم محمد حسنين :

— إيران والعراق في العصر السلجوقي ، الناشر : دار الكتاب المصري . دار الكتاب

الليبي ، بيروت ، ط 1 ، 1981 .

عدنان زرزور :

— الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، ط 1 ،

بيروت .

عصام الدين عبد الرؤوف الفقي :

— معالم تاريخ الإسلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

ابن عصفور : علي بن عبد المؤمن بن محمد بن عمي ، أبو الحسن ( ت : 663هـ ) :

— للمقرب : تحقيق : أحمد عبد الستار الجوادى ، وعبد الله الجبوري . ط 1 ، 1971 .

ابن عطية ، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ، أبو محمد ، الفرناطي ( ت : 642هـ ) :

— المحرر الموحيز في تفسير الكتاب العزيز . تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد . دار

الكتب العلمية ، لبنان . ط 1 ، 1993

علي الشاح :

— أبو حيان الأندلسي ومنهجه في تفسير القرآن ، رسالة خطية بمكتبة معهد أصول الدين  
جامعة الزيتونة ، تونس ، 1980م.

علي محمد الزبيري:

— ابن جزري ومنهجه في التفسير . دار القلم . دمشق ط 1 . 1987 .

ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي :

— شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق  
الجديدة : بيروت .

عمر فروخ :

— تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ط 5 ، 1984م.

— تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ط 4 ، 1983م.

صبري عبد الرؤوف محمد عبد القوي :

— أثر القراءات في الفقه الإسلامي ، مطبعة أضواء السلف ، الرياض ، ط 1997

صدر الدين بن علي الحسيني :

— أخبار الدولة السلجوقية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط 1 ، 1984

الفاضل بن عاشور :

— التفسير ورجاله . دار الكتب الشرقية . تونس . ط 2 . 1972 .

فصحي عبد الفتاح الدجني :

— الإعجاز النحوي في القرآن الكريم ، مكتبة الفلاح ، بيروت ، ط 1 . 1984

الفخر الرازي ، محمد بن عمر بن أخسي بن علي التيمي البكري ، أبو عبد الله ، فخر

الدين الرازي ( ت : 606هـ ) :

— مفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . ط 3 ، 1985م.

الفراء . أبو بكر يحيى بن زياد الفراء ( ت : 207هـ ) :

— معاني الفراء ، تحقيق : عني عمر النجار . الدار المصرية للتأليف والترجمة .

القاضي عبد الجبار . عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار ( ت : 415هـ ) :

- المحيط بالتكليف ، جمع الحسن بن أحمد بن متوية ، تحقيق عمر السيد عزمي ، السدار المصرية للتأليف والترجمة .
- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق : فؤاد السيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط 2 ، 1986 .
- ابن قاضي شهبة ، تقي الدين ، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي ، الدمشقي ( ت : 851هـ ) :
- تاريخ ابن قاضي شهبة ، حققه : عدنان درويش ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، 1977م .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ( ت : 277هـ ) :
- تأويل مختلف الحديث ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1985م .
- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ( ت : 671هـ ) :
- الجامع لأحكام القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1985م .
- القفطي ، عسي بن يوسف ، أبو الحسن ، ( ت : 626هـ ) :
- إنباء الرواة على أنباء النحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي بالقاهرة ، بيروت ، ط 1 ، 1986 .
- الكتبي ، محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر ( 1358هـ ) :
- فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس . دار صادر ، بيروت ، 1974م .
- ابن كثير . إسماعيل بن عمر بن كثير ، اندمشقي ، القرشي ، عماد الدين ، أبو الفداء ( ت : 775هـ ) :
- تفسير القرآن العظيم . دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط 1 . 1990م .
- البداية والنهاية ، منشورات مكتبة المعارف ، بيروت .
- مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري ( ت : 179هـ ) :
- الموطأ . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1985م .
- محمد أبو زهرة :
- المعجزة الكبرى ( القرآن ) . ملتزم الضبع والنشر ، دار الفكر العربي .



محمد بن محمد أبو شهبه :

— الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ط 4 ، 1407هـ .

— المدخل لدراسة القرآن الكريم ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ط 1 ، 1992 .

محمد حسين الذهبي :

— التفسير والمفسرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

محمد عبد الله عتاق :

— دولة الإسلام في الأندلس ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 4 ، 1987م .

محمد عبد المنعم خفاجي :

— أبو عثمان الجاحظ ، دار الكتاب النبائي ، بيروت ، 1982 .

محمد عليان المرزوقي :

— مشاهد الإنصاف عنى شواهد الكشاف ، مطبوع على هامش الكشاف دار الكتاب العربي ، لبنان .

محمد نعيم الحمصي :

— فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 2 ، 1982 .

محمود السيد شيخون :

— الإعجاز في نظم القرآن . الناشر : مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط 1 . 1974 .

مرتضى آية الله زادة الشيرازي :

— الزمخشري لغويا ومنسرا . القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر . 1977 .

مسلم ، أبو الحسين . مسلم بن الحجاج . القشيري . السيسابوري ( ت : 261هـ ) :

— الجامع التصحيح ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

مصطفى الشكعة :

— الأدب الأندلسي . دار النعم للملايين ، بيروت . ط 6 ، 1986 .

مصطفى الصاوي الجويني :

— منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3 .  
المقدسي محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء ، المعروف بالبشاري ( ت : 375هـ — أو :  
414هـ ) :

— أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الناشر مكتبة المدبولي ، القاهرة ط3 ، 1991م  
المقري ، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن ، التلمساني ، أبو  
عبد الله ، الشهير بالمقري ( ت : 759هـ ) :

— نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، دار صادر ، بيروت ، 1988م .  
ابن مكتوم : أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم ، تاج الدين ، القيسي ( ت : 749هـ —  
:

— الدر اللقيط من البحر المحيظ ، طبعة بمأمش البحر المحيظ ، الناشر مكتبة ومطابع النصر  
الحديثة ، للملكة العربية السعودية .

ابن المنير : أحمد بن محمد بن منصور ، ناصر الدين ، ابن المنير السكندري ( ت : 683هـ ) :  
— الإنتصاف من الكشاف ، مطبوع على هامش تفسير الكشاف . دار الكتاب العربي ،  
بيروت ، ط3 ، 1983م .

منير سلطان :

— بلاغة الكلمة والجملة والجمل . الناشر منشأة المعارف بالأسكندرية ، ط3 ، 1996 .  
التديم . محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق . التديم ( ت : 438هـ ) :  
— الفهرست ، حققه د . مصطفى الشويخي ، الدار التونسية للنشر . والمؤسسة الوطنية  
للنشر . الجزائر 1985 .

ابن هشام ، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ، جمال الدين ( ت : 763هـ ) :  
— معني أنيب عن كتب الأعراب . تحقيق حنا الفاحوري . دار الجيل ، بيروت . لبنان  
ط1 . 1991م .

واشنطن إيرفينج :

— سقوط غرناطة . تعريب إسماعيل العربي : المؤسسة الوطنية للكتاب . 1988م .

وليد قصاب :

— التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 1985 الدوحة .

ياقوت بن عبد الله الحموي ، ( ت : 626هـ — ) :

— معجم البلدان ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط 1

، 1990 .

— معجم الأدباء ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط 1

، 1990 .

ابن يعيش ، موفق الدين يعيش بن علي النحوي ، ( ت : 643هـ — ) :

— شرح المفصل ، إدارة الطباعة المنيرية .

يوسف شكري فريحات

— غرناطة في ظل بني الأحمر ، دراسة حضارية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر

والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1982

عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير  
عبد القادر للعالم الإسلامي

## فهرس الآيات القرءانية

الصفحة	رقم الآية
	<b>سورة البقرة</b>
297	1 ، 3 ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين
142	2 الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ..
304	4 أولئك على هدى من ربهم
314 ، 238	5 سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم
304	6 وعلى أبصارهم غشاوة
264	7 ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم
207 ، 198	13 وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم
316	12 إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا بعبوسة فما فوقها
143	14 الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون
284	15 أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
326 ، 145	16 مثلهم كمثل الذي استوقد نارا
387 ، 262	18 أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق
360	19 كلما أضاء لهم مشوا فيه
312 ، 302 ، 276	20 يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم
300	21 فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون
372	22 وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا
431 ، 345	23 فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة
316 ، 157	24 ولهم فيها أزواج مطهرة
451 ، 446 ، 357 ، 316 ، 244	25 إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما..وأما الذين كفروا
392	28 ثم استوى إلى السماء
343	29 وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة
393	35 فأرسلنا الشيطان عنها
317	39 يا بني إسرائيل اذكروا نعمة التي أنعمت
161	41 ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا

406 ، 394	واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا	47
344	وإذ نعيناكم من آل فرعون	48
395	وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم	53
439	لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة	54
510	وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون	56
271	وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة	57
350 ، 277 ، 273	وإذ استسقى موسى لقومه	59
217	إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري	61
200	ولقد علمتم الذين اعتدلوا منكم في السبت	64
144	قال آتخذنا هزوا	66
198	قال إنه يقول إنها بقرة، فاقع لوها	68
229	إن البقر تشابه علينا	69
347	قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض	70
409	بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته	80
152	وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم	83
351	قالوا سمعنا وعصينا	92
220	والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله	114
476 ، 466	وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن	123
202	وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل	126
155	قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا	135
371	فسيكفيكم الله وهو السميع العليم	136
334	صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة	137
158 ، 143	وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس	142
259	وما كان الله ليضيع إيمانكم	143
150	وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا	155
223	يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا	167
183	إن الذين يكتمون ما أنزلنا من الآيات والهدى	158
475	إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير	172
321	ولكم في الفصاخص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون	178

363	وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين	183
486	ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر	184
485 ، 324	ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم	184
165	وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان	185
217	أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى....	186
222 ، 207	يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج	188
144	فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم	193
224	وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة	194
480	وأتموا الحج والعمرة لله	195
342	فأذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكرا	199
160	فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام	195
444	هل ينظرون إلا أن ياتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة	208
440	سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة	209
369 ، 218	يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير	215
483 ، 479	فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن	220
217	نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أني شتتم	221
456	لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم	223
477	ويعلتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا	226
458	الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان	227
314	وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف	229
366	وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن	230
487 ، 474	ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله	233
456	وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة	235
155 ، 151	حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى	236
373	فشربوا منه إلا قليلا منه	247
337	الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى	261
235	ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون	266
162	لا تأخذه سنة ولا نوم	254
233	إن تبدوا الصدقات فنعمنا هي	270

180	الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار	274
473	وَهَن كُتِمَ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ يُجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانَ مِقْبُوضَةً	282
240	فِيغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ	283
349	غُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ	284
<b>سورة آل عمران</b>		
386	مِنهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مِنْ أَمِّ الْكِتَابِ	7
398 ، 244	شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ	18
432	قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَخَفَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ	29
367	يَوْمَ تُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا	30
169	وَلَوْ أُعِيدَ بِكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّحِيمِ	36
189	كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا	37
272	هِنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ	38
346	يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي	43
335	ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ	57
185	أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُ الْمُصْذِقَ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ	39
231	وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينًا يُؤَدُّ إِلَيْكَ	74
237	وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ	78
270	أَفْغِيرِ دِينَ اللَّهِ يَفْعُونَ	82
218	وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ	84
159	إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ	90
149	لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ	91
336	فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ	96
485 ، 324	وَلَقَدْ عَلَّمْنَا النَّاسَ حُجَّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا	97
152	إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ	100
465 ، 410	وَلَنْتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ	104
348 ، 336	فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ	106
364 ، 340	هَآ أَنتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ .. وَإِذَا خُلُوتُمْ	119
186	وَإِذْ كَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ	103
365	قَدْ خَلتْ مِنْ قِبَلِكُمْ سِتْرٌ فَسَمِعُوا فِي الْأَرْضِ	137



315	وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس	187
166	يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا	200

### سورة النساء

229	واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام	1
487	فإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء	3
367	وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة	12
459	فما استمتعتم به منهن فاتوهن أحورهن فريضة	24
350	يريد الله أن يخفف عنكم	28
278	والجار ذي القربى والجار الجنب	36
143	فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ..	41
433 ، 377	إن الله لا يفر أن يشرك به	47
323	فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة	73
347	فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس	76
376	أيتما تكونوا يدرككم الموت	77
147	ما أصابك من حسنة فمن الله	78
365	ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول	90
423	ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم	94
468 ، 160	وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة	101
482	وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة	102
335	ها أنتم هؤلاء حادثتم عنهم في الحياة الدنيا	108
234	والذين آمنوا بالله ورسله	151
440	يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء	152
339	وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته	158
333	لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك	161

### سورة المائدة

145	أحللت لكم هيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم	2
485 ، 387	اليوم أكملت لكم دينكم	4

481 ، 457	اليوم أحل لكم الطيبات	5
484 ، 19	وإن كنتم مرضى أو على سفر	7
425	ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا	9
416	وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه	20
338	إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر	29
188	واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق	30
338 ، 201	قال يا ويلتى أعمزت أن أكون مثل هذا الغراب	33
159	إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا	38
253 ، 234	والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما	40
472	يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى	43
215	إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا	55
472 ، 267	يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه	56
488	وقالت اليهود يد الله مغلولة	66
221	يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك	69
299	إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابغون والنصارى من آمن بالله	71
	كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فرىقا كذبوا	72
421	قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق	79
153	يا أيها الذين آمنوا لا تعرموا طيبات ما أحل الله لكم	89
480	لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم	480
140	يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ..	105
	<b>سورة الأنعام</b>	
299	قل أعجز الله أنخذ وليا فاطر السماوات والأرض	14
405	من يشأ الله بضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم	40
443	الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش	53
402	لا تدركه الأبصار وهو بومئذ يدرك الأبصار	104
405	فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام	126
429	ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا	108
243	وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم	138

## سورة الأعراف

332	وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قاتلون	3
265	قل إن الله لا يأمر بالفحشاء	27
358	إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء	39
157	ونودوا أن تلکم الجنة أو رثموها بما كنتم تعملون	42
429	وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله	43
184	وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم	45
232	يفشى الليل النهار يطلبه حثيثا	53
358	وما تنقموا منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا	125
147	وإن تصيهم سينة يطيروا بموسى ومن معه	130
334	وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها	131
436 ، 195	ولما جاء موسى لبيقاتنا وكلمه ربه .. فلما تجلى ربه للحبل	143
440	أهلكنا بما فعل السفهاء منا	155
147	وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون	168
385 ، 263	وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم	172
398	ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها	180
359	والذين كذبوا بآيات ربنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون	182

## سورة التوبة

188	وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم	12
157	وبذهب غيظ قلوبهم	15
157	إلا تنصروه فقد نصره الله	40
261	عفا الله عنك لم أذنت لهم	43
144	يخدر المنافقون أن تعزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم	64
371 ، 142	وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار .	72
416	استغفر لهم أو لا تستغفر لهم	81
209	الذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا	108
144	أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين	127

### سورة هود

368	من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم	15
426 ، 261	قال يا نوح إنه ليس من أهلك	46
193	قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك	80
141	فأما الذين شقوا فمضى النار..	107

### سورة يوسف

196	ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه	24
303	فذلكن الذي لمتني فيه	32
195	وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم	58
194	قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ اتم جاهلون	89
273	رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث	101

### سورة الرعد

154	والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم	25
342	ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل	26
207	ولو أن قرمانا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض	32
414	أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت	34

### سورة الحجر

403	قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض	39
428	إن عبادي ليس لك عليهم سلطان	42

### سورة النحل

412 ، 263	إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون	40
138	وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم	44
178	ونزلنا عليك الكتاب تبيان لكل شيئاً	89

378	إن الله يأمر بالعدل والإحسان	90
<b>سورة الإسراء</b>		
293	قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون..	88
275	ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا	74
<b>سورة الكهف</b>		
279	ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا	81
200	فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها	70
196	ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا	83
<b>سورة مريم</b>		
259	قال سلام عليك سأستغفر لك ربي	47
325	أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم	49
410	ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين يؤذهم أزا	84
154	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا	97
<b>سورة طه</b>		
400	الرحمن على العرش استوى	4
199	أذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري	41
429	قالوا لن نرجع عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى	90
430	قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتعنى	91
213	ولا محمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم	131

## سورة الأنبياء

318	اقترب للناس حسابهم	1
404	لا يسأل عما يفعل وهم يسألون	23
310	بل فعله كبيرهم هذا	103
180	لا يجزيهم الفزع الأكبر	103

## سورة الحج

318	يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم	1
424	ومن الناس من يجادل في الله بغير علم	3
273 ، 214	وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء	52
460	الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة	39
301	فتصبح الأرض مخضرة	61
145	لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه	65

## سورة المؤمنون

143	والذين هم على صلاتهم يحافظون	9
305	وإنا على ذهاب به لقادرون	18

## سورة النور

464 ، 457	الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة	2
462	والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء	4
359	لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم	27
309	والذين كفروا أعمالهم كسراب نعقة	38
262	ويترل من السماء من جنال فيها من برد	43
460	وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض	53

## سورة الفرقان

250	وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق	7
275	كذلك لثبت به فؤادك	32
260	الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام	59
146	والذين لا يشهدون الزور..	72

## سورة الشعراء

357 والشعراء يتبعهم الغاوون 223

## سورة النمل

360 ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض 25  
 147 قالوا اطيرنا بك وبمن معك 49  
 203 وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض 84  
 ويوم يفتح في الصور ففزع من في السماوات والأرض 89  
 301

## سورة القصص

340 وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعه 6  
 199 فوكزه موسى فقضى عليه 14  
 404 وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار 41  
 146 وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه 55  
 212 إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء 56  
 146 فلا تكونن ظهيرا للكافرين 86  
 146 ولا يصدنك عن آيات الله 87  
 146 ولا تكونن من المشركين 87

## سورة العنكبوت

152 وليحمن أنفالمهم وأنفالا مع أنفالمهم 12  
 180 ولا تعادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن 46  
 303 وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو 64

## سورة الروم

374 ومن آياته مناامكم بالليل والنهار 22  
 189 فأقم وجهك للدين حنيفا 29  
 301 هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء 39  
 190 وقال الذين أوتوا العلم والإيمان 55

### سورة الأحزاب

220 ، 210	وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق	37
413	إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال	72

### سورة سبأ

303	يا جبال أوبي معه والطير	10
260	يعملون له ما يشاء من محاريب وممانيل	13
333	وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا	28
352	وما آتيناهم من كتب بلدرسونها	44

### سورة فاطر

140	فلا تذهب نفسك عليهم حسرات	8
301	والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا	9
242	إنما يخشى الله من عباده العلماء	28

### سورة يس

428	إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا	7
193	واضرب لهم مثلا أصحاب القرية	13
174	وجاء من أقصى المدينة يسعى	19
201	وما علمناه الشعر وما ينبغي له	68
190	وضرب لنا مثلا ونسي خلقه	77

### سورة الصافات

194	وفديناه بذبح عظيم	107
-----	-------------------	-----

### سورة ص

464	لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه	23
202	وظن داود أنما قتناه فاستغفر ربه	23
203	ولقد قتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب	33
417	واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه	40
418	إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب	43
330	هذا فليذوقوه حميم وغساق	56
427 ، 382	قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي	74



سورة الزمر

446 يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله 53

سورة غافر

375 إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم 9

195 ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات 34

فصلت

415 وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا 20

سورة الشورى

399 ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير 9

147 وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم 28

44 وجزاء سيئة سيئة مثلها 37

259 وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا 52

سورة الزخرف

401 إنا جعلناه قرآنا عربيا 2

337 فلما جاءهم آياتنا إذا هم منها يضحكون 46

185 ونادى فرعون في قومه 50

265	وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين	76
	<b>سورة الذخان</b>	
145	ذق إنك أنت العزيز الكريم	46
246	إن شجرة الزقوم طعام الأنيم	41
	<b>الفتح</b>	
400	يد الله فوق أيديهم	10
187	قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد	16
	<b>سورة الحجرات</b>	
175	يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم	11
	<b>سورة ق</b>	
265	وما أنا بظلام للعبيد	29
	<b>سورة النجم</b>	
409	الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم	31
267	ألا تزر وازرة وزر أخرى	37
	<b>سورة القمر</b>	
208	سيهزم الجمع ويولون الدبر	45
251	إنا كل شيء خلقناه بقدر	49

## سورة الرحمن

279 رب المشرقين ورب المغربين 15

## سورة الواقعة

163 ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين 41

383 ، 247 وتعملون رزقكم أنكم تكذبون 85

## سورة الحديد

447 وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير 4

145 فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة 13

## سورة الحشر

299 وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله 2

## سورة التحريم

163 ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط 10

## سورة القلم

182 كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون 32

181 عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها 33

450 يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود 42

## سورة المعارج

189 يود المحرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه 11

143 الذين هم على صلاتهم يحافظون 23

## سورة القيامة

402 21 ، 22 وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

## سورة الإنسان

150 ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا 8

182 ، 164 عينا فيها تسمى سلسيلا 18

## سورة عبس

165 عبس وتولى أن جاءه الأعمى 2،1

277	سورة التكويد	إذا الشمس كورت	1
145	سورة المطففين	فاليوم الذين آمنوا من الكفار بضحكون	33
275	سورة الأعلى	سنقرئك فلا تنسى	6
382	سورة الفجر	كلا إذا دكت الأرض دكا دكا	23
448		وحاء ربك والملك صفا صفا	24
247	سورة الشمس	ولا يخاف عقباها	15
247	سورة الليل	وما خلق الذكر والأنثى	3
181	سورة الشرح	فإذا فرغت فانصب	7
185	سورة القدر	سلام هي حتى مطلع الفجر	5
266	سورة البينة	لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين	1
274	سورة النصر	ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا	2

## فهرس الأحادس النبوية

الصفحة	الحديث
154	أتدرون ما الكوثر
153	أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم
155	إذا أحب الله عبدا نادى جبريل
149	أما إن الله قد قبلها منك
173	إن القوم ليعث الله عليهم العذاب حتمت مقضيا
452	إن الله حي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفرا
221	إن الله قد عصمني من الجن والإنس
162	إن خير ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله تعالى
153	إن أنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا
151	إنما الصلاة التي شغل عنها سليمان عليه السلام
152	أبما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها
141	اتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر
175	اذكروا الفاجر بما فيه كي يجذر الناس
222	انصرفوا أبها الناس فقد عصمني الله
149	بخ ، بخ ، ذاك مال رايح ، إنى أرى أن تجعلها في الأقربين
167	رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها
167	رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه
175	سباق الأمم ثلاثة
156 ، 151	شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر
138	كان جبريل يعزل على الرسول بالقرآن مثلما يعزل عليه بالسنة
167	كل الميت يختم على عمله إلا المرابط
155	لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم
20.	لم يهلك الله قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا

- 158 لن يدخل الجنة أحد بعمله
- 164 ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم
- 173 ما قرئت هذه الآية — آية الكرسي — في بيت إلا اهتجر لها الشياطين
- 166 ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم أو قطيعة
- 169 ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد
- 150 من استرجع عند المصيبة حبر الله مصيبته
- 151 من استرجع عند المصيبة حبر الله مصيبته
- 150 من تذكر مصيبته فأحدث استرجاعا
- 167 من رابط يوما وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه
- 152 من قتل نفسه بخديفة فحديده في يده
- 172 من قرأ سورة التين أعطاه الله حصلتين
- 172 من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شيء
- 172 من قرأ سورة القلم أعطاه الله
- 154 هذا مكان مقعدك فبدلك الله منه الجنة بإيمانك
- 166 هو بينكم وبين أعناق رواحلكم
- 154 هو نهر في الجنة حاقتاه من ذهب
- 203 والذي نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله
- 162 وقع في نفس موسى هل ينام الله
- 173 يا علي سيد البشر آدم
- 159 يحاسب الكافر يوم القيامة فيقال له ..
- 166 يستجاب لأحدكم ما لم يعجل
- 152 يقتص من الظالم للمظلوم بأن يعطى من حسنات ظالمه

## فهرس الشواهد النحوية واللغوية

الشاهد	الصفحة
- ب -	
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم	359
بهن فلول من قراع الكتائب	
فاليوم قدت محبونا وتشتبنا	370
فاذهب فما بك والأيام من عجب	
فما أظلمنا حالي تمت أحليا	361
ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب	
- ح -	
بنا أبدا لا غيرنا يدرك السمي	369
وتكشف غمء الخطوب الفواح	
وإن فصاندي لك فاصطنعني	366
كرائم قد عضلن عن النكاح	
- د -	
كان رحلي وقد زال النهار بنا	359
بذي الجليل علسي مستأنس وحد	
آليت امدح مقرفا أبدا	363
يبقى المديح ويذهب الرفد	
لو كان لي وزهير ثالث وردت	370
من الحمام عدانا شر مسورود	
إذا ما استحين الماء يعرض نفسه	357
كرعن بسبت في إناء من الورد	
- ر -	
إن يسألوا الخمر يعطوه وإن خبروا	369
في الجهد أدرك منهم طيب إخبار	
ألا يا أسلمي يا دار من على البلى	360
ولا زال منهلا نجرعاتك القطر	
وإن بعدوا لا يأمنون اقترا به	368
تشوف أهل الغائب المتظر	
إذا المعضلات تصيدني	366
كشفت حقائقها بالنظر	
أتوني فلم أرض ما يتوا	365
وكانوا أتوني بأمر مكر	
وتبيت قسولي عند المليك	366
فاتلك الله عبدا كفورا	
أبك آية بي أو مصدر	370
من حمر الجلة جاب حسور	
لا بأس بالقوم من طول ومن عظم	358
جسم الجمال وأحلام العصفير	
دست رسولا بان القوم قد قدروا	368
عليك بشفوا صدورا ذات توغير	
وإن سل ربعان الجميع مخافة	368
يقول جهارا وبلكم لاتفروا	

— ع —

368 ولا بالذي إن بان عنه حيبه يسول ويخفي الصر إني الجازع

— ف —

362 وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال مسحة أو يجلف

363 فخالف فلا والله تهبط تلعة من الأرض إلا أنت للذل عارف

369 نعلق في مثل السواري سيوفنا فما بينها والأرض غوط نغانف

— ق —

369 هلا سألت بذي الجماحم عنهم وأبي نعيم ذي اللواء المحرق

— ل —

363 فقلت بمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

357 من مبلغ أفتساء بعرب كلها أني نيت الحار قبل المزل

360 فاليوم أشرب غير مستحقب إنما من الله ولا واغل

361 من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمان لم يسزل مهزولا

366 ونحن عضنا بالرماح نساءنا وما فيكم عن حرمة الله عاضل

— م —

366 ترى الأرض منا بالفضاء مريضة معضلة منا يجيش عرمرم

358 فنن بحاني مصرعات وبنت أفض أغلاق الختام

366 لما تبيتنا أحاميم أعطى عطاء اللحر اللثيم

367 ورثم قناة المجد لا عن كلاله عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

368 وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غالب مالي ولا حرم

359 فلو كنت في جب لمانين قامه ورقيت أسباب السماء سلم

359 ليستدرجك القول حتى لهره وتعلم أني عنكم غير مفعم

364 إذا رأوني أطال الله غيظهم عضوا من الغيظ أطراف الأباهيم

364 وأقبل أقواما لئاما أذلة بعضون من غيظ رؤوس الأباهم

364 وقد شهدت قيس فما كان نصرها قية إلا عضها بالأباهم

364 وقد صالحوا قوما علينا أشحة بعضون عضنا خلفنا والأباهم



— ن —

- 368 تعال فإن عاهدتني لا تخونني تكن مثل من يا ذئب يصطحبان  
369 ما عاين الناس من فضل كفضلكم ولا رؤي مثله في سالف السنن

— ه —

- 365 فلا تجزعسن عن سنة أنت سرها فأول راض سنة من يسيرها  
365 من أمة سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها  
366 شفاها من الداء العضال الذي ما غلام إذا هز القناة شفاها  
370 أكر على الكتيبة لا أبالي أحتفى كان فيها أم سواها  
369 إذا أوقدوا نار الحروب عدوهم فقد خاب ممن يصلى وسعيرها  
370 إذا بنا بل أنيسان اتقت فته ظلت مومنة ممن تعادىها

— ي —

- 365 وإن الألى باللطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا  
368 وإن كان لا يرضيك حتى تردني إلى قطري لا إخالك راضيا

# فهرس الموضوعات

المقدمة ..... ١

## الباب الأول : التعريف بالمفسرين

- ٢..... الفصل الأول : عصر الزمخشري
- ٣..... المبحث الأول : الحياة الاجتماعية
- ٩..... المبحث الثاني : الحياة السياسية في خوارزم
- ١٥..... المبحث الثالث : الحركة العلمية في عصر السلاحة
- ٢٢..... المبحث الرابع : موقع المعتزلة من هذه الحركة العلمية
- ٢٥..... الفصل الثاني : حياة الزمخشري
- ٢٦..... المبحث الأول : مولده ونشأته العلمية
- ٤٠..... المبحث الثاني : آثاره العلمية
- ٥٢..... المبحث الثالث : ملامح شخصيته
- ٦٩..... الفصل الثالث : عصر أبي حيان الأندلسي
- ٧٠..... المبحث الأول : الحياة السياسية في غرناطة
- ٨١..... المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية والدينية
- ٨٨..... المبحث الثالث : الحركة العلمية في غرناطة
- ٩٩..... الفصل الرابع : حياة أبي حيان الأندلسي
- ١٠٠..... المبحث الأول : مولده ونشأته العلمية
- ١١٢..... المبحث الثاني : آثاره العلمية
- ١٢٦..... المبحث الثالث : ملامح شخصيته

## الباب الثاني : مسلكتهما في التفسير بالمأثور

- 137..... الفصل الأول : مسلكتهما في تفسير القرآن بالقرآن والسنة.....
- 138..... المبحث الأول : مسلكتهما في تفسير القرآن بالقرآن .....
- 148..... المبحث الثاني : مسلكتهما في تفسير القرآن بالسنة .....
- 177..... الفصل الثاني : موقفهما من تفسير الصحابة والتابعين .....
- 177..... المبحث الأول : موقف الزمخشري من تفسير الصحابة والتابعين .....
- 183..... المبحث الثاني : موقف أبي حيان من تفسير الصحابة والتابعين .....
- 193..... الفصل الثالث : موقفهما من القصص والإسرائيليات.....
- 192..... المبحث الأول : موقف الزمخشري من القصص والإسرائيليات.....
- 199..... المبحث الثاني : موقف أبي حيان من القصص والإسرائيليات.....
- 205..... الفصل الرابع : مسلكتهما في عرض أسباب التزول القرآني .....
- 206..... المبحث الأول : مسلك الزمخشري في عرض أسباب التزول القرآني .....
- 216..... المبحث الثاني : مسلك أبي حيان في عرض أسباب التزول القرآني .....
- 226..... الفصل الخامس : مسلكتهما في مباحث القراءات القرآنية .....
- 227..... المبحث الأول : مسلك أبي حيان في مباحث القراءات القرآنية.....
- 238..... المبحث الثاني : مسلك الزمخشري في مباحث القراءات .....

## الباب الثالث : مسلكتهما في التفسير بالرأي

- 257..... فصل تمهيدي : الأسس الفكرية للتفسير بالرأي عند المفسرين.....
- 258..... المبحث الأول : مسلك الزمخشري في التفسير بالرأي.....
- 268..... المبحث الثاني : مسلك أبي حيان الأندلسي في التفسير بالرأي.....
- 281..... الفصل الأول : مسلكتهما في الكشف عن إعجاز القرآن .....
- 282..... المبحث الأول : صلة المعتزلة بموضوع الإعجاز القرآني .....
- 287..... المبحث الثاني : نظرية النظم ، مفهومها ونشأتها.....
- 297..... المبحث الثالث : مسلك الزمخشري في الكشف عن إعجاز القرآن.....
- 306..... المبحث الرابع : مدى تأثير أبي حيان بجهود الزمخشري .....

311.....	المبحث الخامس : جهود أبي حيان في الكشف عن الإعجاز القرآني
319.....	المبحث السادس : موازنة بين جهودهما في الكشف عن إعجاز القرآن
328.....	<b>الفصل الثاني : مسلكهما في المباحث اللغوية والنحوية</b>
329.....	المبحث الأول : مصادرهما النحوية
356.....	المبحث الثاني : الشواهد النحوية عند المفسرين
371.....	المبحث الثالث : توجيه الإعراب لخدمة المعاني البلاغية
380.....	<b>الفصل الثالث : مسلكهما في المباحث العقديّة</b>
381.....	المبحث الأول : مصادرهما في المباحث العقديّة
396.....	المبحث الثاني : مسلكهما في المباحث العقديّة
454.....	<b>الفصل الرابع : مسلكهما في مباحث آيات الأحكام</b>
455.....	المبحث الأول : مصادرهما الفقهيّة في تفسير آيات الأحكام
479.....	المبحث الثاني : العروة الاحتهادية عند المفسرين
490.....	<b>الفصل الخامس : أثرهما في حركة التفسير</b>
491.....	المبحث الأول : أثر الزمخشري في حركة التفسير
506.....	المبحث الثاني : أثر أبي حيان في حركة التفسير
516.....	<b>الخاتمة :</b>
521.....	فهرس المصادر والمراجع
535.....	فهرس الآيات القرآنيّة
551.....	فهرس الأحاديث النبويّة
553.....	فهرس الشواهد النحويّة واللغويّة
556.....	فهرس الموضوعات